

١٨٣

تاريخ المصريين

شاهد على العصر

مذكرات

محمد لطفى جمعة



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

تاریخ المصریین

(۱۸۳)

۸۹۲. ۷۵۳

ع

• تاريخ المصريين

رئيس مجلس الإدارة:

د. سمير سرهان

رئيس التحرير:

د. عيد العظیم رمضان

مدير التحرير:

تحت إشراف

الهيئة المصرية العامة للكتاب



ود الجزار

اهداءات ٢٠٠١

المستشار/ رابع لطفي جمعة

المهكمة الدستورية العليا



[Handwritten musical notation]

الهيئة العامة للغذاء والدواء
رقم الترخيص :
تاريخ الصلاحية :
اسم الدواء :
اسم الشركة :



الهيئة المصرية العامة

الإشراف الفني

محمود الجزار

تقديم

يسرني أن أقدم للقارئ الكريم هذا الكتاب الشيق : « شاهد على العصر » ، وهو مذكرات الأديب والصحفي الكبير المرحوم محمد لطفي جمعة ، وهو واحد من الرواد الأوائل الذين تركوا بصمتهم على الحياة الأدبية والفكرية والسياسية من موقع انتمائه الى الحزب الوطني ، وقد ترفع في بعض أهم القضايا السياسية التي شغلت الرأي العام .

وقد جمع هذه المذكرات وأعدّها للنشر ابنه المستشار راجح لطفي جمعة ، وهو أكثر من رأيتهم من الأبناء وفاء لوألدهم . وتشمل المذكرات التي بين أيدينا مذكرات الكاتب في الفترة من ميلاده في يناير ١٨٨٦ الى ديسمبر ١٩٣٧ ، وأهميتها أنها تصور عصرا بأكمله من زواياه الاجتماعية والفكرية والسياسية ، بقلم أديب صناعته الأدب ، وسياسي وطني حطى بتقدير عصره .

وتتناول هذه المذكرات طفولة الكاتب ، وتكوينه العقلي والعلمي ، ونظام التعليم في عصره في مراحل المختلفة ، وصادقات شبابه . وقد انتقل فيها الى عمله بمهنة التدريس والصحافة ، وسفره الى فرنسا للالتحاق بكلية الحقوق بليون ، وتأسيسه جمعية مصرية للطلبة المصريين بليون ، ومعاناته في فرنسا ، كما يسجل يوميات سنة ١٩٠٩ ، ولقائه بالمستر بلنت ، واتصالاته بمحمد

فريد وزعماء حزب العمال البريطاني ، وبعزيمة روشبرون ، وجون
نينيه صاحب كتاب « عرابي باشا » كما تناول سياحته في إيطاليا
بوصف بديع لمدنها السياحية ، وحضوره المؤتمر الوطني المصري في
بروكسل سنة ١٩١٠ .

وقد خصص الكاتب فصلا كاملا لعمله في المحاماة ، وذكرياته
عن القضاء والمحاماة ، كما تعرض لبعض القضايا التي ترفع فيها ،
وفيها قضية اغتيال السردار السير لي ستاك . وقضية القنابل ،
وقضية مقتل أمين عثمان ، وقدم لذلك بمقدمة عن الاغتيال السياسي
وأسبابه .

كذلك تحدث عن انشغاله بالتفكير في العالم العلوي وعالم
الأرواح ، وأحاديثه مع الشيخ محمد عبده . وتحدث عن تكوينه
الفلسفي وسبب دراسة الفلسفة ، كما تحدث عن زواجه . وقد
استهل هذا الكتاب على يوميات الكاتب من سنة ١٩٢٢ الى
سنة ١٩٣٧ .

والمذكرات سياحة شيقة في عصر بأكمله ، تصور جوانبه
الاجتماعية والسياسية والفكرية . وهو جدير بالقراءة .

رئيس التحرير

د . عبد العظيم رمضان

مقدمة

دراج لطفى جمعه

تعتبر الترجمة الذاتية أو ما يعرف فى الآداب الافرنجية « بالاتيويوجرافيا » ، أى ترجمة الشخص لنفسه ، من أبرز مظاهر الأدب العربى المعاصر . وليس معنى ذلك أن أدباء العرب الأقدمين لم يعرفوا هذا اللون من الكتابة ، بل إن كثيرا منهم قد تصدى للترجمة عن نفسه ، وإن تكن ترجمته موجزة كياقوت الحموى فى « معجم الأدياء » والشاعر الفارس أسامة بن منقذ فى كتابه « الاعتبار » ولسان الدين بن الخطيب فى كتابه « الاحاطة فى أخبار غرناطة » والحافظ بن حجر فى كتاب « رفع الاصر عن قضاة مصر » .

على أن ابن خلدون يعتبر بحق مجليا فى هذا الفن وسباقا اليه من بين مؤرخى وأدباء العرب والمسلمين بما كتبه عن تاريخ حياته فى كتابه « التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا » ، وهى ترجمة مستفيضة تحدث فيها عن تفاصيل ما جرى له وما أحاط به من حوادث من يوم نشأته الى قبيل وفاته ، وتعتبر بهذه المثابة من أوليات التراجم الذاتية بالمعنى المقصود من ذلك .

وقد احتلت الترجمة الذاتية فى العصر الحديث مكانها بين فنون الأدب المختلفة وأجناسه المتعددة وكادت أن تصبح لونا قائما بذاته من ألوان الكتابة الأدبية ، وذخرت المكتبة العربية فى العصر

الحديث بالعديد من التراجم الذاتية لأدباء ورجال سياسة واجتماع ودين فى مصر، الى جانب العديد من الفصول والمقالات المنشورة بالصحف والمجلات والتي تشمل ترجمة ذاتية لكتابتها ومنشئها وأحاديث عن جوانب عديدة من حياتهم .

والحقيقة التى يكاد يجمع عليها الأدباء والباحثون أن من أصعب الأمور على الكاتب أن يدون تاريخ حياته وما دار فى فلكها من أحداث ، وظهر على مسرحها من شخصيات ، ولعل السبب فى ذلك يرجع الى أنه مهما أوتى الكاتب من عدل واعتدال وصدق وحسن نية ونبيل مقصد وشرف غاية ، فهو غالبا متهم بالتحيين لنفسه أو لذويه وصحبه ، ولا سيما عند معاصريه وأهل زمانه ، ومن هنا ينشأ الخوف من الانزلاق والزلل ويتولد الحرج من الصراحة والصدق مع النفس أو الغير .

ولأجل هذا فقد تعود الكتاب ألا يدونوا أخبارهم وترجمة حالهم الا فى أواخر حياتهم وألا تنشر الا بعد وفاتهم ووفاة المعاصرين الذين ورد ذكرهم فيها .

وقد احتال الأدباء فى الغرب والشرق حيلة شتى لاتقاء مجابهة المعاصرين ، من ذلك اختفاؤهم وراء شخصيات أخرى أو الرمز الى الأشخاص بأحرف من أسمائهم أو افراغ ترجمة حياتهم فى قالب القصة .

على أنه مهما تحايل الكاتب على تسجيل تاريخ حياته وتدوين سيرته الذاتية ، فانه من المستبعد أن يكتب فيها كل شيء ، لأن من أصعب الأمور على الانسان أن يقول عن نفسه كل شيء أو أن

يعرى نفسه بحيث يذكر مساوئها وأهواءها على نحو واضح
وصريح ، فالإنسان بطبعه يرفض فكرة الكشف الكامل عن حياته
وأهوائه وطباعه وأخطائه وفضائله وريذائله وكمالاته ونقائصه .

ومهما يكن من أمر صعوبة الترجمة الذاتية وأنها لا تعطينا
كل شيء عن حياة كاتبها * إلا أنها تلقى ضوءا كاشفا على هذه
الحياة .

ولما كان الإنسان ينشد دائما معرفة ذاته ويسعى الى معرفة
أوجه الكمال والنقص في غيره مقرونا الى ذاته ، كأنما يريد أن
يطمئن الى نفسه بما يراه من صورة غيره ، فان كتب التراجم
الذاتية أو المذكرات الشخصية تعتبر من أكثر الكتب تشويقا
وأمتعها الى نفس القارئ .

وبعد ...

فهذه مذكرات محمد لطفى جمعه تنشر لأول مرة ، وهي
تنظم أنواعا شتى من الكتابة ، منها ما يمكن أن نسميه بالترجمة
الذاتية Autobiography ومنها ما يعرف باليوميات أو المذكرات
اليومية Diaries ، ومنها ما يمكن أن نطلق عليه اسم تذكارات
Memories .

على أن لطفى جمعه في سياق كل من هذه الألوان من الكتابة
يتحدث عن كثير من المسائل السياسية والمشاكل الاجتماعية
والأخلاقية والقضايا الأدبية والفكرية والثقافية التي كانت محل
اهتمام ومثار جدل ونقاش بين رجال الفكر والأدب والسياسة
والاجتماع والدين والصحافة في النصف الأول من هذا القرن

الشخصيات المعاصرة له ويبدى رأيه فى هذا كله بصراح

ومن هنا فاننا نستطيع أن نقول - بكثير من الاطمئ
مذكرات محمد لطفي جمعه تعتبر بحق وبكل المقاييس
صادقة على عصره بكل ما كان يموج به هذا العصر م
ويضطرب فى ساحته من أفكار وما ظهر على مسرحه من شئ

ومن هنا فقد أطلقت على هذه المذكرات عنوان « العصر » ، على أن هذه التسمية ليست مستحثة أو م
عندى ، وإنما هى فى حقيقة الأمر والواقع مستمدة مما
جمعة نفسه عن هذه المذكرات ووصفها بأنها « شهادة على
فقد عبر عن ذلك أكثر من مرة فى كتاباته فقال :

« لو لم يكن من شرف التاريخ الا أن يستطيع ر
شديد الشوق الى الحقيقة شوقا محرقا اثبات صورة لعصر
لمحات خاطفة كلمحات البرق - لكفاه فخرا ٠٠٠ فم
أو خمس سنين شغلت ليل نهار بتصوير العصر الذى أ:
على قدر طاقتى » .

ويقول بمناسبة حديثه عن جان جاك روسو وتمع
الفيلسوف لحبه الحرية ودفاعه عن الضعفاء ونهوضه لمقا
المساواة الانسانية « أرى عند الرجوع بفكرى الى تلك ا
الأفكار تتزاحم على ، لا كطالب علم فى بلد أوربى أنا غري
ولكن كشاهد على العصر وناقد متعرق على تحقيق العدل ا
فى وطنه ، أقارن حياتنا فى بلادنا بحياة هؤلاء القوم فى
حياة العقل والخلق والجسد والروح » .

فمن هذه المقتطفات وغيرها مما كتبه لطفى جمعة ، استمددت عنوان هذه المذكرات •

لقد حاول لطفى جمعه فى هذه المذكرات أن يعطينا بقدر الامكان صورة صادقة عن العصر الذى عاشه وأن يرسم بالكلمات بعض شخصيات هذا العصر من خلال علاقاتهم به أو علاقاته بهم •

وان القارئ لهذه المذكرات ليشعر أحيانا - فى شمولها واتساع مناحيها - انها أشبه بالبانوراما Panorama أو اطلالة عامة شاملة نافذة لأحداث العصر وشخصياته ، وأنه يعيش هذه الأحداث ويعايش تلك الشخصيات •

ومن هنا فقد ذخرت هذه المذكرات بكثير من الأسرار والخفايا التى تذاع أو تعرف ، ربما لأول مرة • كما تتضمن انتقادات ووجهات نظر قد تكون مريرة واليمة ولادعة لكثير من الأوضاع والأفكار السياسية والاجتماعية والأدبية والثقافية والاقتصادية فى مصر فى النصف الأول من هذا القرن • كما حفلت بالعديد من الأحداث والمواقف المثيرة والطريفة رواها لطفى جمعة بأسلوبه المتميز الذى يجمع بين السخرية البلاذعة والنقد الهادف •

ويهنئنى - وأنا أقدم هذه المذكرات لأول مرة للقراء والنقاد والمؤرخين فى مصر والعالم العربى والاسلامى ، أن أنبه بأن لطفى جمعة لم يعن حال حياته بجمع هذه المذكرات أو ترتيبها وتنسيقها وتبويبها ، ولكنه كتب فى بعض مذكراته المخطوطة سنة ١٩٤٤ يقول « لمن أكتب هذه المذكرات ؟ الله ولنفسى ، ولا أظن أن أحدا يعرفها أو يدركها وهى مكتوبة بسرعة وتحت تأثير ضغط شديد

لأسرى عن حالتى٠٠٠ فعلى من يعثر عليها من أولادى أو الغرباء
أن ينسقها وينشرها بعد موتى . وان مد الله فى أجلى فانا أقوم
بهذا العمل لأنه يعطى صورة ، ولو ضعيفة ، عن العصر والحياة فى
مصر أثناء هذه الحرب ٠٠٠ » .

ولا يسعنى وأنا أختتم هذه المقدمة الا أن أدع القارئ الكريم
يطالع هذه المذكرات الممتعة والذكريات الشائقة .

والله من وراء القصد وهو الهادى الى سواء السبيل .

القاهرة فى ١٨ يناير سنة ٢٠٠٠ م .

رايح لطفى جمعة

٤١ شارع أمين الخولى

مصر الجديدة

تقديم (١)

من أصعب الأمور على الكاتب أن يدون تاريخ حياته وإن كان هذا التدوين من أوجب الواجبات ، بل يكاد يكون فرضاً .

إنه من أصعب الأمور لأن القلم لا يكبح جماحه ، والشهوات غلابية ، وقول الحق شديد على النفوس ، وصاحب الشيء نفسه لا ينجو من أن يكون موضع الظنون ، ومهما أوتى الكاتب من عدل واعتدال ، وصدق وحسن نية ونبل مقصد ، فهو متهم بالتحيز لنفسه أو لذويه وصحبه ولاسيما عند معاصريه وأهل زمانه ، ولكن الذى يكتب ترجمة حاله يقصده فى الأغلب أن يكون قراؤه من أبناء الأجيال المقبلة ، وفى هذه الفكرة نفسها غرور مبناه أنه يلقي شهرة وصيتاً ذاتها بعد وفاته حتى تكثر له الأجيال ، ولكن قد لا يخطر هذا البال بنفسه ، ويكون قصده مقصوراً على الكتابة مجردة من كل غاية لأن فيها تفريجاً للنفس وراحة للقلب وتصفية للعقل ووضعاً للحمل الذى ينوء به وشفاء لغليل نفسه وتوضيحاً لما هو مبهم فى ضميره واجتهاداً فى تصوير ذاته التى يراها دائماً غامضة مهما وقف أمام مرآة روحه ليرأها ، ولكن الناس لا يرون رأياً من هذه الآراء لأن معظمهم محوط بالآوهام والظنون ، فهم لا يبرئونه ولا يحسنون الظن به ولا يأخذون الأمور على ظواهرها ، بل يذهبون فى تفسيرها وتعليلها كل مذهب .

(١) كتب لطفى جمعة، هذا الفصل فى ٢ رمضان سنة ١٣٦٠ هجرية .

وقد نشأت شديد الشغف بمن قرأت لهم كتباً من أى جنس
كانوا ، فعندى الكاتب أهم من الكتاب ، وترجمته تلقى نوراً على
حياته ، ولو خيرت لقضيت حياتي في قراءة التراجم وكتابتها .

ان تواريخ الحياة أهم من الحياة ، لأنها أصدق منها في
مجموعها ، والتراجم أقرب التواريخ الى الحقيقة ، كاليخوط قبل
أن تنسج ، فهي بلونها الطبيعي وعلى قياسها الأصل ، لم يعتورها
تدخيل ولا تخليط ولا حياكة ولا جباكة ولا تعقيد .

وأحب الكتب الى مطولات المعاجم في الأعلام ، ويتلوها في
التقدير عندى تراجم الضادقين من الرجال . ألا ترى أن الكتاب
الذى شغل نصف حياتي هو سيرة محمد بن عبد الله النبى العربى ،
لقد شغلت به لأنه أقرب التراجم الى الحقيقة وأول مراجعه القرآن
الذى أجمع العلماء في كل ملة وجنس ولغة على صدقه ، ومهما
كُتبت في وصف شغفى بهذا النوع من الأدب ، فلا أوفيه حقه
ومكانته من نفسى .

ولما قرأت شعر المتنبي - وكنت في السادسة عشرة من
عمرى - غاظنى جداً أننى لم أجده له ترجمة وافية ضافية ، وعجبت
لهؤلاء الناشرين والشارحين كيف يكثرئون لترتيب الديوان
وشرحه ولا يعيرون تاريخ الشاعر نفسه نصيباً من عنايتهم ، وقد
شرعت اذ ذاك أن أرتب له ترجمة من شعره .

وقد كان هذا الميل أشده ميولاً وتخصصى لو أننى ملكت
التخصص فى صغرى ، ولكن أشياء أخرى غمرتنى وغمرت معى
هذا الميل وسواه ، فحشت مثلاً محروماً من الدراسات التى كنت

أريدها ، فقد كانت الفلسفة والطب أول ما تعلقت به نفسي ، ولكن الحياة قهرتني وأرغمته على سواهما ، وعندما تأملت اليهما وجدتهما لا يخرجان عن دراسة الانسان في عقله وجسده ، ولكن الحياة الاجتماعية مصنوعة في عصرى بحيث لا تمكن انسانا من ممارسة ما يهوى اليه فؤاده ، بل تقوده وتسوقه وترغمه على عمل ما يهيئه له ماله وقدرته الاقتصادية ، فتكون أعمار كثيرة مضيعة مضللة •

لقد ضربت بالأدب والشعر والخطابة والسياسة عرضي الحائط ، ولم أرغب في واحد منها ولم أتفرغ لفرع من فروعها ، وأحببت الطب والفلسفة من كل قلبي ، ولكنني لم أتمكن منهما الا بالاجتهاد بعيدا عن الدراسة التي حتمتها على ظروف الحياة ، فضاغ كثير من وقتي ، بل معظمه في معالجة أعمال الباطل والضلال والأكاذيب لأرد باطلهم وأدمغ ضلالهم وأصحح أكاذيبهم ، وكنت أود أن أعالج أجسامهم وأفحص عقولهم وتفكيرهم وأن تكون هذه المعالجة عملى وصناعتى •

ولما شبيب عن الطوق ، رأيت نفسى محاطا ببحور من الأوهام والواقعات ورأيت خيوط الحق ضئيلة هزيلة تائهة في وسط هذه البحور الطامية لا أكاد ألمسها ، فهدتني غريزتى الى أن التعرف على حقائق الأشخاص عن طريق تراجعهم مكتوبة أو محكية هو أضمن الوسائل للوصول الى بعض الحق •

وكان أول ما أدهشنى في شبابى في كتب العرب سيرة النبي وأحاديثه التي فيها كثير من تاريخ حياته وطرائق تفكيره ، وعرضت لى تراجم نابليون بونابرت وفيها تمجيد عظيم للحروب والقوة

واحراق السماء والتطلع الى المجد ، ثم اعتبرت قصة روبنسون كروزو قصة صادقة ، ثم وقعت لى رحلة ابن بطوطة .

وانى لفى تلك الغمرة الذهنية اتحسس طريقى ، واذا بى أقرأ عن ترجمة هربرت سبنسر الفيلسوف الانجليزى كتبها بنفسه فى جزئين كبيرين ، وكان ذلك فى فجر القرن العشرين (حوالى سنة ١٩٠٣) وأنا فى السابعة عشرة من عمرى ، وكان فى سننى شاب اسمه يوسف كرم يحب الفلسفة ويناقشنى ، فقرأنا معا فى صيف تلك السنة أو التى بعدها وفيها كثير ممل متعب .

وكان يوسف كرم - وهو من متخرجى مدارس الفرنسيين - يبدو لى كزاهد متعب ، نترك المدينة ونقصد الى الحقول الخضراء ومعنا الكتب والأوراق والصحف والمجلات ، وقد اشتركنا فى الدرس والتفكير بثلاث لغات ، العربية والفرنسية والانجليزية ، وكان أعظم تمتعنا فى هذه الساعات من أطراف النهار والليل .

حدث هذا فى مدينة طنطا عاصمة مديرية الغربية على ضفة قناة اسمها « الجعفرية » ولا أعلم من هو جعفر المنسوبة اليه ، وكنا نتجول فى الحقول والحدائق ، وقد وجدنا صعوبة فى تفهم ترجمة سبنسر لأن معظمها يدور حول جهاده فى ابراز مؤلفاته الفلسفية التى قضى فى وضعها ثلاثين أو أربعين عاما وأنفق فى طبعها من أموال الصدقة التى جاد بها المحسنون فى أمريكا وانجلترا ، بينما كان هو يقاسى شطف العيش والمسغبة ، وبينما كانت ملايين الجنيهات تنفق فى الشهوات والملذات والمظاهر الكذابة ، وبينما كان الانجليز يباهون به الامم ويقولون انه فيلسوف بريطانيا العظمى وفيلسوف الناطقين بلغتهم وعددهم

خمسماية مليون فى قنارات الأرض الخمس وعلى ظهور البحار
السبعة ٠٠٠ السخ ، كان الرجل غارقا فى الفقر لولا احسان
المحسنين ، فأحدهم منحه بيتا على شاطئ البحر وآخر من أمريكا
وهبه « بيانو » وتعهده بأجر العازفة عليه ، وثالث تعهد بنفقات
الطب والدواء ، لأن فيلسوف بريطانيا قضى معظم أيامه ولياليه
مرضا .

فعجبت وصاحبى من هذه الحال المقلوبة وتساءلنا فى غفلة
الفتوة : كيف يكون أكبر فيلسوف فى هذا العصر الحديث - على
حد قول أبناء جلدته - فقيرا الى هذا الحد ؟ وكيف يعيش وحيدا
منعزلا لا يزور ولا يزار ؟

وكانت الفلسفة فى ذلك الوقت هى مثلنا الأعلى ، وكنا
نتخيل الفيلسوف ملك الملوك جالسا على عرش ولايسا تاجا
مرصعا وقائضا على صولجان ، ولم تكن نفهم أن المال له هذه القدرة
العظمى ، وأن الصوت المسموع والكلمة النافذة لأرباب المصانع
والمطاحن والمعاجن وملاك الأراضي الزراعية والمباني المشيدة الذين
نجحوا فى الحصول على أرزاق ضخمة تصل اليهم دون أن يعملوا
أو يحركوا ساكنا سوى الحراسة والسهر على مصادر أرزاقهم
بالحيلة والمكيدة والقوة واهزاق الدماء ان احتاج الأمر .

كنا نظن أعظم المجد وأعظم الشرف وأعظم الطاعة للفيلسوف ،
وطالما مر بخواطرنا اسم المعرى وتولستوى وأرسطو وأفلاطون ولم
يخطر ببالنا قط كيف عاشوا وكيف سلكوا فى سبيل الحياة
المعوجة الملتوية .

وكانت حياة هربرت سبنسر خليقة بأن تفتيح أعيننا الى
أهمية المال لتتخذ لنا وسيلة للحصول عليه أو على الأقل لنستعد

له ، ولكننا كنا أبعد الناس عن ذلك التفكير محمولين على أجنحة من الخيال والصور الجميلة البراقة .

كيف عاش سبنسر بغير أسرة ولا زوجة ولا ولد بعيدا عن الحب العائلي وعن مواساة الأهل وتشجيعهم وحيدا فريدا بين عانسين من عوانس بريطانيا العظمى ، واحدة تدق له على مفاتيح البيانو والأخرى على مفاتيح الآلة الكاتبة فى بيت صغير على شاطئ البحر فى بلدة برايتون ؟

هل خطر ببالنا الفقر وأنه ملازم للعلم والفلسفة ، وهل خطر ببالنا أن سببه انصراف ذهن الفيلسوف الى التفكير البعيد عن الجنيه والقرش والمليم ؟ هل خطر ببالنا أن نحصر تفكيرنا وهمنا فى الدرهم والدينار ؟

لم يخطر ببالنا شيء من ذلك ، وربما داعبت أفكارنا مظنة الفقر فاستعذبناه فى سبيل الفلسفة وفى سبيل الوطنية وفى سبيل المثل العليا والتحرير والتجوير والتفكير .

فلما مات سبنسر قرأنا فى الصحف أنه لم يدفن وقد أوصى باحراق جثته فنفذت وصيته ، وخطب على قبره كريشنا فارما تلميذه الهندى البالغ من العمر خمسين عاما ، لأنه تبرع بمال كثير ينفق من ريعه على منصب أستاذ لتدريس فلسفة سبنسر فى جامعة اكسفورد . وقد لقيت كريشنا فارما نفسه بعد ذلك بسبع سنوات فى باريس حيث كان ينشئ مجلة انجليزية باسم « الاجتماعى الهندى » يناصر فيها وطنه ويدعو الى تحريره واستقلاله .

بعد أن قضيت ثلاثين عاما فى المحاماة أردت أن أدون ذكرياتى فى عالم القضاء والاجتماع ولكننى ترددت كثيرا خوفا من الانزلاق

والزلل أو من الصراحة والصدق في بلد لا يحب الصراحة والصدق ، ولأجل هذا تعود الكتاب ألا يدونوا أخبارهم إلا في أواخر حياتهم وألا تنشر إلا بعد وفاتهم و وفاة المعاصرين الذين ورد ذكرهم فيها ، وهذا كله نفاق وخوف من الحقيقة ، والا فما فائدة المذكرات والتراجم بعد وفاة الذين شهدوا حوادثها ، فانها بعد موتهم تنزل الى درجة الأدب المكتوب وتحتل موضعا في التاريخ .

وقد احتال أهل أوربا حيلة شتى لاقفاء مجابهة المعاصرين ، فمذكرات الشقيقتين « جونكور » لا تزال مجبوسة في دار الكتب الوطنية ببائيس مخطوطة لا يفرج عنها الا في سنة ١٩٥٠ ، وكذلك بعض مخطوطات أوسكار وايلد ومذكراته .

ولكن من شجعان الكتاب ويلفريد سكاوين بلنت الانجليزى ، فقد نشر كل مذكراته الى سنة ١٩١٤ في حياته وأبقى الجزء الخاص بالحرب الى ما بعد موته ، وقد توفى في سنة ١٩٢٢ ولم يصل الى يدى كتابه الأخير ، وأرجح أنه نشر بعد ذلك بمضغ سنين .

ويحتال بعضهم بالرمز الى الأشخاص بأحرف من أسمائهم خوفا من المقاضاة والمطالبة بتعويض ، فان للورثة حق المقاضاة اذا ذكر أسلافهم بشر ما لم يشبت أنه من صلب التاريخ .

ولا يسلم من يترجم لنفسه من النقد اللاذع ، فابن خلدون ترجم لنفسه في كتاب خاص ، فقال أحد معاصريه « لم يفعل أحد قبله مثل ما فعل بتدوين ترجمته حياته ، ولكنه لم يقصد بتدوينها الا التبيجح وتزكية النفس (كذا) وهذا من امارات صلفه وزهوه » .

وكان الأجدر بهذا الناقد أن يمدحه لا أن يذمه لابتكاره تلك الطريقة كما ابتكر علم العمران وعلم الاجتماع ، وقد حذا حذوه علماء الغرب وساستهم وبعض الحاملين الذين عاصروا كبار الحوادث كالثورة الفرنسية .

وقال آخر عن ابن خلدون « انه في ترجمة نفسه ذكر أسانئده ووصف تبهرهم في العلوم ، يريد أن يحملنا على الاعتقاد بأنه عالم عظيم مادام شيوخه في هذه المرتبة من العلم والفضل » . ولزوه بأنه ذكر في ترجمته أنه استظهر جزءا من الأغاني ثم ذكر في مقدمته المشهورة أنه يستحيل الحصول على نسخة من الأغاني ، وهذا تناقض في كلامه ، فهو لم يعرف من الأغاني الا الاسم ، وأنه كان متلونا في رأيه ومودته وسياسته ، وانتقدوا في ترجمته أنه منذ كان قاضيا للمالكية في مصر ، كان شديدا قاسيا لا يقبل شفاعا على خلاف عادة قضاة زمانه ، مع أنه اعتذر عن عدم قبوله الشفاعات بأنه حمل على ذلك رضا الله تعالى . وزعموا أنه كان يحب المال أشد من حبه لأولاده ، لأنه قال في ترجمة نفسه مشيرا الى حادثة غرق أولاده وأمواله في البحر عندما دعاهم الى مصر « فقد أصابني نكبة واحدة فأفقدتني الى الأبد المال والسعادة والبنين » . قالوا : انه قدم المال على البنين في الذكر ، وهذا يدل على أن المال يهمه أكثر من أولاده ، كأنهم نسوا قوله تعالى « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » فقدم سبحانه المال على البنين .

هذا بعض ما يغمز به أصحاب المذكرات ، أو الذين يترجمون لأنفسهم ، ولذا تراهم يحجمون عن تدوينها ، وإن دونوها أحجموا عن نشرها في حياتهم ، ولم يسلم من شرورهم رجل يعد من أسلم الناس قلبا وأنقاهم ضميرا وأرقاهم عبقرية وهو جان جاك روسو ،

فقد أفرع ترجمة حاله في قالب الاعتراف ووصفها بذلك ، وكان فيها صادقا حتى انه قال يود أن يقبل بها يوم البعث والنشور في يمينه . ولكن أعداءه صاغوا من اخلاصه سهاما صوبوها الى صدره ونحره ، فأخذوا عليه كل صغيرة وكبيرة وعابوه بها ، فاتهموه بأنه زير نساء وأنه باع نفسه لشهوات الغانيات من النساء ، فلولاهن ما قامت له قائمة ، وأنه كان وضع القلب فاقترن بخادمة اسمها تيريز ليفاسور ، يعجب هؤلاء لاستغراقها في الجهل ، فكيف يرضى بها عشيرة ان لم يكن حب جسدها قد أعماه عن سخافة عقلها ، وأن قلبه قد قلّد من صخر ، لأنه ألقى بأولاده الخمسة من حائق دير يحضن اللقطاء ، فلم يسأل عنهم ولم ينظر في مصيرهم بعد أن أترى ، وأنه كان سارقا ويتهم الأبرياء ويسبب شقاءهم ولا يؤنبه ضميره ، وأنه كان مصابا بأدواء خلقية شاذة ... الخ .

وكل هذه التهم يعلم قراء اعترافه أنها مختلقة أو مبالغ فيها ، ولكن الجاسدين والمنافسين والحقادين لا يرحمون ، بل تراهم - اذا لم يجدوا أساسا يقيمون عليه صروح باطلهم - كذبوا ولفقوا مطمئنين الى أن أكاذيبهم أبقي على وجه الدهر من الحقائق لغريزة خبيثة في الانسان ولانغماس المجتمع في النفاق وتعرض أهل المواهب لغيرة المعاصرين وأضعفانهم .

وقد يختال الكاتب لترجمة حياته بافراغها في قالب القصة كما فعل امام الأدب الفرنسي أناتول فرانس في أربعة كتب من مؤلفاته جعلها ترجمة حياته وهي على التوالي ، بيار الصغير وبيار نوزير وكتاب صديقي وازدهار الحياة ، وترتيبها بحسب وضعها السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والأخير من كتبه، فقال : انه تحاشى ذكر الأسماء على حقيقتها لأن معظم الواردين بها مازالوا أحياء عند نشرها خوفا من جرح شعورهم ولا سيما اذا كانوا ممن

يبحثون في نزلة عن العالم ولم يتعودوا أن يروا أسماءهم متسورة
ومطبوعة ، فلم يشأ أن يمس كبرياءهم أو تواضعهم •

وفى الحق أن المدح والذم يستويان في أنظار هذه الطبقة ،
فيعثر بهم الانفعال اذا عرضوا لأبصار القراء وتناقلت أسماءهم
السنة الرواة ، حتى ان والديه اللذين كانا على قيد الحياة لم يجرؤ
على اظهارهما بحقيقتهما ، وان كان الذى كتبه عنهما لا يتعدى الشناء
الجم وحسن الذكرى ، ولو لم يلجأ أناتول فرانس الى هذه الحيلة
لأرغمته العادة والعرف على أن يكف عن كتابة ترجمته ، وقد بدأ
فى تدوينها فى السابعة والثلاثين من عمره (عهد تاليف
بيار الصغير Petit Pieire) وقد استحسن هذه الطريقة
ليتمكن من مدح نفسه أو ذمها والزهو بها أو الحمل عليها ، ثارة
مباهايا وطورا مؤنبا •

ولكن متبع هذه الطريقة - طريقة افراغ الترجمة فى قالب
قصّة - لا يمكنه أن ينجو من الكذب ولو قليلا حتى ولو أراد
أن يجعل خلقه أو يعلم القراء ، لأن الحق لا يظهر للناس مجردا ،
بل من المحال أن يبدو للعيان خاليا من الحلية أو التشويه ،
والا فإن الأصل يسوء القارىء ويحنقه •

ولم ينج أناتول فرانس من النقد مع ما اتخذه من أدوات
الاستخفاء والتغمية ، فقد لمزه لوسيان ديكاف صديقه الحميم بأن
أباه كان كتبيا فجعله طبيبا وبذا أفقده كثيرا من جمال حياته
وجلال صنعته •

وقد أنف أناتول أن يصف أباه بصنعبه فاختر له ما هو أرقى
وأثمن وقال ان والده كان قليل الاكتراث بالمال الذى يعود عليه من
البيع والشراء ، وكان شغفه بقراءة محتويات دكانه أكبر من شغفه

بالربح وقال « لم أتحد الناس كما تحداهم روسو بأنهم شر مما يظهرون ولا يجعلونك تراهم على حقيقتهم ويتمون أن يكشفوا عن أنفسهم وهم يفعلون ما يجلب عليهم الكراهية والازدراء ، ولم أفتح بابا مغلقا الا رأيت وراءه منظرا ما يستدعي الشفقة أو الاشمئزاز أو الرعب ، فماذا أفعل ؟ لقد غلبتني رغبة الفول فقلت ، لقد أحببت الحقيقة وهويتها حبا متمكنا فهل احترمتها ؟ • قد لا أملك أن أقسم قسما لا أحنث فيه بأنني لم أحد عنها قيد شعرة ، ولا أدري ان كانت اللغات البشرية قديرة على التعبير عن الحقيقة دائما • لقد خرجت لغائنا من أصوات الحيوان ، فهي تترجم عن العواطف والاهواء والحواتج والألم والحب والبغض ، ولكنها عاجزة عن التعبير عن الحقيقة ، لأن الحقيقة لا تقطن أرواح الوحوش الضارية • الا أن علماء ما وراء الطبيعة الذين عاجوا الحقيقة قد فقدوا عقولهم ولم يسلموا من الوثة وخيال وتخليط • أقول أنني حسن النية وقاصد خير ، محب للحقيقة لأن الانسانية في حاجة اليها وهي في حاجة أشد الى الكذب الذي يملقها ويتزلف اليها ويخدعها ويفسح امامها مجال الأمل :

أعلل النفس بالآمال أرقبها
ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل !

والانسانية جديرة بأن تهلك من الضجر والقنوط ان لم تدركها
رحمة الكتاب أمثالي بجرعة من الكذب • انتهى كلام أناطول
فرانس نقلا عن الصفحات الأخيرة من « ازدهار الحياة » •

والفطن اللبيب لا تغيب عنه لبافة الكاتب الكبير ودعايته
ومرارة قلبه ، الا أنه لا يجيد عن خطة فيجارو الذي ينتهي بالضحك
خشية أن يقضى نحبه باكيا •

الا ترى وتسمع الى سخريته وتآله ، ومن ذا الذى يفهم الناس ويعمل على النجاة من مخالبهم بمثل هذه الصورة الواحدة الخالية والحكمة الرائعة الرهيبة ؟ أترى رجلا مثله يلجأ الى الكذب ، وهو الذى صاغ تاريخ فرنسا منذ نشأتها الى قضية دريفوس فى كتاب واحد « جزيرة بانجوان » ؟ أم تراه يطعن رجال السياسة والعلم والأدب والدين والقضاء طعنات قاتلة فلا يهرق نقطة دم فينال منهم نيلا وهو يداعبهم ويدغدغهم ، ويلوى أعناقهم وهو يحتضنهم ، ويفرى جلودهم وكأنه يقبل خدودهم ، ويعبث بخلائقهم وكأنه يربت على أكتافهم ، وينفث فيهم سموم القذف وهو يزيل الغبار عن ثيابهم بيد من قطيفة تخفى وراءها أشد النصال وأحد السهام ؟

أترى هذا الرجل الموهوب الرقيق القلب البالغ الشفقة ، يرضى بالمظالم والمكائد تحاك ، والمؤامرات تدبر من الكبراء والأقوياء لاستغلال المهضومين والضعفاء وهو يسمع ويرى ، ثم يجرهم ويحرق البخور من عود وندّ ومسك لتلك الأوثان الجامدة فى حضرة سدنتها الفجرة ١٩ • أو تراه يموت بحسرة الصمت متلفعا بملحفة من الخوف والنفاق ، الخوف من بطشهم والنفاق خشية الاملاق الذى يجلبه السخط ؟

أتراه يغفر هذه الخطايا لعصره وكل العصور التى درسها ؟
الا تراه يقول فى صفحة ٣٣٤ :

« لن تكون ذرية ، لن يعقبنا أخلاف ، مثلنا مثل كتاب العصر القديم البائد فى أثينا وروما ، وإن أوروبا الجديدة لن تختلف كثيرا عن أوروبا المعاصرة التى نراها الآن تغرق بمرأى منا ومسمع ، فلا قائدة تعود علينا من الاحتفاظ بفنوننا وآدابنا ، لقد بدأت تدوين هذه المذكرات قبيل الأربعين ، لأننى لم أكن نبيا ولا أعلم

الغيب ، فلم يكشف لى عن الخراب العجل الذى تسير اليه المدنية
الأوربية بخطى واسعة مجدة جاهدة نحو الهاوية (يشير الى حرب
سنة ١٩١٤ وعواقبها ، فماذا كان يقول لو امتد به الأجل الى
سنة ١٩٤١) .

ان هذا الرجل لا يكذب ولا يخدع ، وقد يتحایل تحایل الصيدلى
فيطلب الدواء المر بغشاء من السكر ليسهل على المريض ابتلاعه ،
فكذبه طلاء السكر الذى يذوب فى الفم ، لاطلاء النحاس بالذهب
الذى يخدع العين ولا يعلى قدر النحاس ، ولكن السكر يهون أخذ
الدواء ولا يغير من تأثيره ولا يبطل فعله .

لقد حرت والله بعد قراءة هذه النبذة ، فليس كل كاتب
بقادر على صياغة أخباره فى صورة قصة ، وما كل كاتب بقادر على
فن مؤلف « تاييس » ، وما يكلف الله نفسا الا وسعها ، وان هذا
الأمر ان لم يبلغ درجة من الكمال تدانى هذه الكتب فلا خير فيه ،
والاضطرار الى ذكر الحقيقة المجردة على أنها حقيقة ، أشون من
الفشل فى النهاية ، وهو يقول « لو أن هذه الترجمة فشلت لرفع
القناع عن التاريخ لكادنى ذلك كيدا » .

وقد استغرق أناطول فترة أربعين عاما كتب خلالها وأعاد-نظره
وراجع ونقح وتدارى جهد طاقته ، وقد فاق رومان رولان فى
« جان كريستوف » الذى حبر عشرة مجلدات ولم يكتب سواها ،
فاستنفدت جهوده واستنزفت دماء فنه .

وهذا الكتاب الآخر لرولان ترجمة حياة مقنعة حتى تكاد لبضع
أصبعك على كل شخص من أشخاصها وتعرف اسمه بوصفه وتحليل
أخلاقه وصنعتة . ولكن رولان جعل كتابه أمل حياته وتفانى فيه
وأسهب وأحسن وأتقن ، ونال فرانس هذه الغاية وحقق الأمنية على
مدى السنين ، فكان أقرب الى النجاح .

لم يقصد فرانس الى الشهرة ولا ايلام أحد ، ولكنه قصد الى التعليم والتهذيب وأخرج الشهد بعهد أن اهتضم الأزهار وكان بعضها مريرا وبعضها ساما ولكنه أخرج عسلا فيه شفاء للناس وتنوير لعقولهم •

ان من أهم الأشياء التي يجب أن نلاحظها أن وصف العصر والحياة بيد المعاصر من أصعب الأمور ولا يصل اليه الا بقدرة فائقة وتوفيق عظيم من الله •

وقد ساورتني هذه الفكرة من الصغر فحاولتها بتدوين مذكرات ثم بتأليف قصص ثم بسرد لوصف الحياة من جملة جوانب ودراسة شخصيات مختلفة ، وكان فكري في هذا الطور الاول ، منصرفا الى مجرد التسجيل ، مدفوعا اليه برغبة خفية ، وكانت الوقائع والحوادث التي تلفت نظري أكثر من سواها تتجه دائما اتجاها واحدا وهو مخالفة ما يحدث لما ينشر ويكتب ويدون سواء في مصر التي فيها المشاهد واقعة تحت نظري ، أو في الخارج الذي أقرأ كتبه وصحفه ، وأن في مصر صورة مضغرة من أوربا ، وأن الاثنين جميعا حالات مناقضة لما يجب أن يحدث ، وأن الجميع سائرون الى حالات هلاك وانحلال في الاقتصاد والأخلاق والاجتماع والسياسة ، سواء في الأفراد أو في الجماعات •

ولأجل أن أنصف الحق ونفسي بدون تواضع كاذب ، يجب أن أقول : ان فكري اتجه مباشرة الى أن المال هو سبب هذا التدهور ، وأنه لا شك توجد قوانين ثابتة خاصة بالوقت والعدد والزمان ، سائدة على كل حركات الأمم والعالم ، فوضعت في كتاب « حياة الشرق » الذي طبع سنة ١٩٣١ - وطبعا أفتته قبل ذلك بسنتين سنة ١٩٢٩ - شيئا سميت « القانون السبعي » بدون نظري

الى فكرة دينية أو تراثية Traditional ، فقلت : ان حياة الأمم تبلغ ٧٠٠ سنة من الحضارة والثقافة ، وكذلك الحوادث الكبرى (انظر الى هذا القانون وكيفية تطبيقه فى الكتاب صفحة ٣٣ ، ٣٤) .

ثم ان مسألة تأثير المال تأثيرا سيئا فى حياة الأمم كانت مبهمة فى ذهنى ابهاما عظيما حتى كنت أسمى هذا الشر « شيطانا » أو أن المال من اختراع شيطان ، ولم يكن فكرى منصبا على المال من حيث هو مال أو شيء مادي ، ولكن على القدرة التى وضعت فيه وكونه مقياسا لكل الشهوات والطلبات وقوة الاغراء ، وأن الذى يملكه يكون عنده قوة عظيمة جدا ، فإذا استعملت فى الشر أو فى الأغراض الشخصية كانت سبب هلاك وأسى كبيرين .

وفى الوقت نفسه نظرت الى الأمم ، فرأيت أن اليهود وحدهم هم الذين أدركوا من قديم الزمان أهمية المال وبذلوا كل ما فى وسعهم للحصول عليه والسيطرة به والتصرف فيه وتسخير الآخرين أفرادا وجماعات لأغراضهم ، وأن الذين صنعوا ذلك من الأجناس الأخرى كالفينيقين وغيرهم - كانت فيهم أخلاق اليهود ، ورأيت أن استيفاء هذا البحث يستغرق مجهودا كبيرا للوصول الى حقائق جازمة لاثبات وجهة نظرى ، وفى النهاية اذا توصلت الى اثبات ذلك فى كتاب ، فما الفائدة منه غير قناعتى العقلية وسرورى بالوصول الى حقيقة حاسمة ، وهى لذة عظيمة أشعر بها دائما .

أما فيما يتعلق بأعمار الحضارات ، فهنا يجب أن أقول : ان أسباب انهيار الحضارات كان دائما فكرة شاغلة لذهنى مشغولية كبيرة ، وهنا يجب أن أشير الى مسألة مهمة للغاية تفوت كثيرا من الباحثين ، هى أنهم يخلطون الحضارات بالشعوب ، فيتوهم كثير من الناس أن ضياع الحضارة اليونانية معناه فناء الشعب اليونانى ، وأن زوال الحضارة المصرية القديمة معناه زوال الشعب المصرى ،

مع أن الحقيقة غير ذلك على خط مستقيم ، فإن الحضارة نزول بالتدريج وتبقى الأمم خاضعة لشعوب أخرى أقوى منها في الغالب وهي التي جاء عليها الدور في القوة •

وقد تكون الأمم القديمة قد زادت في العدد والنماء والكثرة ، ويكون أهلها سعداء ، ولكنها اما غارقة في الجهالة بالنسبة لماضيها ، أو عاجزة عن استرداد مجدها •

ولم يحدث أبدا أن دولة استردت عظمتها القديمة ، ولكنها تعيش على الماضي ، وان حاولت احداها العودة أو التجديد فانها تفشل كما حدث لبعضها في القرن العشرين ، أو يكون انتعاشها وقتيما •

ومن مصائب الحضارات أنها تفكر فورا في السيطرة على العالم ولا تقنع بالقليل أو الوسط (روما - الاسكندر الأكبر - نابليون ٠٠٠٠ الخ) ، ولا تتخيل عظمة قومية بدون فتوح ، فتصل أحيانا الى التضخم المعجز •

وعلى كل حال لم أفهم أسباب زوال الحضارات ، أو أنها أسباب أيا ما تكون لاتقنعنى ، وبعضها متشابه ، وبعضها متفاوت جدا ، ولكن النتائج التي وصلت اليها هي :

١ - أن الحضارات لها أعمار •

٢ - أن الحضارات إما دينية ، أى تعتقد في اله وروح وبعث ونشور وثواب وعقاب ، واما أخرى لا تعتقد في ذلك ، وأن الحضارات الدينية تنتهى بأن تصير لا دينية وتتحول من روحية الى مادية •

- ٣ - أن الحضارات اللادينية تعيش أكثر وأقوى من الدينية أو من التي تنقلب من دينية الى لادينية ، مثال ذلك اليابان والصين ، فان هذه الأمم - ما عدا البوذية الطارئة على بعض سكانها والقادمة من بلاد غير بلادهم - عاشت طويلا وعمرت كالصين أو ما زالت قوتها في صعود كاليابان .
- ٤ - ان الأديان ليست لاصلاح الانسانية وتحويلها الى الخير المحض ولكن للحد من الشر والتقليل منه على قدر المستطاع .
- ٥ - قد تكون الأمة قوية متحضرة ، ولكنها قانعة بالاقامة في حدودها وليس لها مطامع خارجية اذا قنعت بأراضيها والخير الذي لديها ، كالصين والولايات المتحدة الأمريكية .
- ٦ - أن الأحوال المعاصرة للشخص العارف والفاهم ، تختلف بالمرّة عن الأحوال الموصوفة في الكتب أو على ألسنة الناس ، فالأحوال الموصوفة في الكتب هي على كل حال بالاجماع استهجان الطبيعة البشرية والعجز عن هدايتها ، وأن ما يسمى خيرا ليس الا مثلاً أعلى Ideal يرقب ولا يتفد ، وما يسمى شراً هو الشيء الدائم المستمر .
- ٧ - ان اهتمام الناس الآن بكل شيء كان اهتمامهم به من قبل شديداً ، وتحكم رجال المال في كل شيء ، وبعبارة أخرى تحكم المال في الرجال حتى أصبح أحد لا يبالي كيف يحصل عليه مادام يصل اليه ، وأصبح لا يوجد حاجز تقف عنده شهوات الناس ومطالبهم ورغباتهم .
- ٨ - اني أشعر منذ بضع سنين بنوع من الشعور بزوال الحاضر وتغييره الى آخر ، ولكن ما هو ؟ ما نوعه ؟ ومتى ؟ ... لا أدري .

لو لم يكن من شرف التاريخ إلا ان يستطيع رجل مثل شديد الشوق الى اخصيه تنموا متحررا ابحاث صورته لسره ولو نى لمحات خاطئه كلمحات البرق ، لكناه فحرا ! ، لان ولوعى - ولا بد انه من نوع ولوع المساكين الذين عذبوا بنار المعرفة - لا ينطفىء ولا يخمد أبدا جريا وراء الحقيقة ، وهى التى عديتني منذ نعومه أظفارى وقضت على بالأسر وكبت العواطف وحبس الاحاسيس والمشاعر ، وقد عبرت عن هذا الولوع على قدر طاقتى فى كتاب « ليالى الروح الحائر » ، واننى أشعر دائما فى نومي ويقظتى وصحوى وسكرى بأننى مسوق بسياط الذع وأشد من سياط الجلد ، لاصل الى الحقيقة المطلقة ، فان لم أستطع ، فعلى الأقل الى الحقيقة التى تقنعنى .

ومنذ أربع أو خمس سنين ، شغلت ليل نهار بتصوير العصر الذى أعيش فيه على قدر طاقتى .

أقول لو لم يكن للتاريخ شرف وفضل أدركهما ابن خلدون وأمثاله ولاسيما فى الشرق المظلم المبهم - لكفى التاريخ فخرا !

انظر الآن يا أخى الى هذا العصر الذى يظن الناس أنه لم يوجد مثله ولم يسجل ما يقرب من تسجيله ، وهذا ظن خاطئ وهم باطل ، فان الانسان حذق شيمتين ، الأول المثل الأعلى للحق والجمال والخير ، والثانى الشرور بأنواعها ، وترك الباحث فى حيرة عميقة بين ما يجب ان يكون وبين ما هو كائن بالفعل .

لقد عكفت منذ زمن طويل على الدرس والمطالعة حبا بالمعرفة وشغفا بالوصول الى الحقيقة ولو كانت نسبية على قدر ما يصل اليه اجتهدى وقدرتى الانسانية فى البيئة التى نشأت فيها وهى مصر .

فوجدت في سبيل عقبات كثيرة ايجابية وسلبية ، وأهمها وأشدّها خطورة عدم اهتمام الجمهور بغير الأمور المادية ، ما يتصل منها بالمعاش والتكاثر والتفاخر والحصول على القوة المادية ، فنأيت عنهم جانبا مع شدة الحاجة الى الاستعانة بهم ، واتجهت الى من اعتقدت فيهم بعض الميل الى المعرفة والشوق الى العلم ، فوجدتهم مفكرين غير مؤتمنين ، ووجدت فيهم أزرارا وعنتا وترفعا عن العامة والدهماء مع أن واجبهم أن يعملوا على انارتهم وتنويرهم ، ووجدت في الناحيتين تشييطا يكاد يكون فطريا ، فالحماسة للرفعة العقلية والتسامي الى المثل العليا والبحث في شئون الانسانية كل هذه معدومة بتاتا . وأنا لا ألومهم لأن شئون السياسة والوصول الى الحكم والوظائف ومشايعة أقوياء اليوم أو أقوياء الغد ، قد ملكت عليهم نفوسهم .

وهذه المتبنيات لحليقة بأن تقتل الهمة وتفت في العضد وتجرد المحارب المستعد من سلاحه ، لم تتمكن مني لأنني كنت أشعر من حداثة سنني بواجبي في المساهمة بنصيب مهما كان ضئيلا في خدمة الانسانية عامه وهذه البسالة المصرية خاصة ، فبدأت في سن الثامنة عشرة في التأليف والنشر واخراج الكتب وكتابه المقالات في المجلات والصحف والخطابة والمحاضرة ، وكان ذلك في العام الاول أو الثاني من القرن العشرين ، ولكثرة ما كتبت وخطبت ، يظن أكثر المعاصرين أنني أسبقهم في السن بكثير من العقود لا السنوات ، ويسألني بعضهم ان كنت أدركت جمال الدين الأفغانى وحضرت دروسه ! ، فأقول لهؤلاء الفضلاء اننى وان فاتتني صحبتته ، فلم تفتني صحابته وقد عرفت خيرهم وفي مقدمتهم المرحوم الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، ولا أقول لهم اننى كاتبته وقابلته سنة ١٩٠٣ في داره بعين شمس ، ولكننى أحمد الله على أنهم أحسنوا الظن بى حتى وصلوا بين هذا المصلح العظيم وبينى .

وقد شعرت من اللحظة الاولى أن هذه الأمة المصرية الكريمة أمة كلام وحديث وجدل ومصالح ومساائل شخصية ومحاورات

بيزنطية وآمال أفلاطونية بالمعنى الذى نفهمه ، أى أنها خيالية
مثالية ، أما هم فلا يعرفون أفلاطون .

أما كتبى التى وضعتها وسودتها وبيضتها وطبعتها ونشرتها ،
فكان معظمها براءة ذمه ورغبة فى القيام بمرض عين لا فرض كفاية ،
وقد عانيت فيها كثيرا وأحمد الله على أننى لم أجد منها أقل ثمرة
مادية ، وقد بدأت الطبع والنشر سنة ١٩٠٣ واستمرت الى سنة
١٩٤٠ ، وفى أثناء دراستى فى أوروبا اشتغلت بالتأليف فى أوقات
فراغى ، وقد بينت ذلك فى الكتب نفسها وعند طبعها فلا لزوم
لذكرها .

ثم فكرت منذ بضع سنين فى وضع كتاب وجيز يكون بمثابة
الخلاصة لدراستى وتجاربى ، ولا أقصد أن يكون وصية عقلية لهذه
الأمة الكريمة فأنها أعظم واكبر من أن تصغى الى أحد أبنائها ، وأن
تكن بها فضيلة لا تنكر وهى أنها تصغى للموتى وتقدرهم بعد وفاتهم
وتحتفل بهم وتمجد ذكراهم مهما كانت درجة اهمالها اياهم وهم
أحياء ، فكل متوفى - سواء أكان شاعرا أم نائرا أم خطيبا أم مصلحا
أم حكيما أم مفتيا أم فاضل الأخلاق - ينقلب بعد وفاته عظيما جديرا
بتقدير الوطن وخليفه بالتكريم والحفاوة ، ومهما كانت درجة
اهمالهم اياه فى حياته ، وكل واحد من هؤلاء الموتى المغبونين خليف
فى نظرهم بأن يقام له تمثال أو يدفن فى « بانثيون » ، وخليف
بأن يعاد طبع كتبه ويجمع كل ما دونه ولو بالقلم الرصاص .

وقد فكرت فى هذا الأمر طويلا الى أن هدانى التفكير الى أن
هذا الأمر ليس مصادفة ولا خطأ ولا قصورا عقليا ، وإنما هى
« المعاصرة » ، وقد صدق من قال « ان المعاصرة حجاب » ، فهى تغشى
أبصارهم عن محاسن الأحياء ، فإذا قضوا نجبهم أمنوا خطرهم
ومنافستهم ، وكان يصح عليهم أن يشجعوهم فى حياتهم ، فلا مانع
من الاقرار بفضلهم بعد أن صاروا تحت الثرى !

وقد أيد هذا الرأى عندى أن المصريين شديداً يهتمون بالآحياء إذا كانوا أهل سلطة ونفوذ ويمكنهم أن ينفذوا ويضروا ، فهم معبودون لديهم ، يحرقون أمامهم البخور صباح مساء ، ويكادون يشيرون لهم المعابد والهيكل ، فإذا انحدر رجل وهبط درج المنصب الذى كان يخلع عليه المهابة ، أو تزعزعت مكانته المالية ، فقد لحق بالموتى ، ولكن الموتى الذين يهملون ولا يمجدون لأنه على حياته لا تخشى منافسته ولا مزاحمته ، لأن كل قيمته كانت محصورة فى منصبه .

وهذه الخلة تدل على كل حال على أنهم ينصفون الموتى من أهل الامتياز العقلى والخلقى ، والأمثلة على ذلك كثيرة لا تعد وقد شهدتها منذ نعومة أظفارى ومنذ اتصلت بالمطالعة والقراءة ولاسيما ما كان حادثاً فى أوروبا من تمجيد الأحياء وتشجيعهم والأخذ بأيديهم وإبراز مواهبهم للاستزادة من منافسهم للمجتمع ، لأن الرجل النافع كالزهر اليناع ، كلما زده رية وعناية ، زادك عبيراً وحسن منظر ، فإذا أهملته ذوى وذبل .

وأحب ان أشير الى أننى منذ سنة ١٩٤٠ - وهو تاريخ آخر ما نشرت من الكتب ثورة الاسلام وبطل الأنبياء - عكفت على الكتابة والاختزان وكففت عن الطبع والنشر وجعلت هذه المخطوطات أمانة عند أولادى ، وقد أشركت بعضهم فى تحضيرها وتدوينها ، وقصدت بهذه المخطوطات - وهى أنواع شتى فى الفلسفة والتاريخ والأدب والقصص والمسرحيات والمذكرات - أشباع رغبتى ونهمى فى التدوين والانتفاع بالقدرة مادامت والاعتراف بفضل الله على بتمكينى من الدرس والتأليف ، فهذا نوع من العبادة والتمجيد لله والعرفان ، وقد قال شاعر غربي « اعمل ما دمت قادراً أن ترى النور Work while thee hast the light ، وربما كان هذا قول بروننج الانجليزى . ولكنة قول يعجبني ، ومادمت قادراً على القلم ،

متمكننا من خطامه ، فأرى فرضا على أن أعترف بفضل الله على الكتابه ، وما دمت متمكنا من الكتاب ، متمكنا من جلده وصحفه ، فأرى واجبا على أن أقر بكرم الله على بالقراءة ، وقد أحبت القراءة والكتاب محبة العاشق لا اصبر على فراقهما وهما النعمتان اللتان استطيع ان أستغنى عن كل شيء دونهما ، ولذا أسأل الله أن يديمهما على الى اخر نسمة من حياتي ، ولو كنت محاربا وتقلدت سيفي ورمحي - او مدفعي الرشاش على نسق اللغة الحديثة بعد الحرب - ما تخليت عنهما ، فالقلم والكتاب سيمى ورمحي وسلاحى فى هذه الحياة ، بل صرت اعتقد انهما سبب وجودى لأننى أصل وهما تبع ، وأرى أزلية القلم والحرف أزلية مطلقة الهية ، فهما أداة عبادة وتقديس وتمجيد لحالتهما والذى أقسم بهما وعلم الانسان بفضلها سبحانه ثم بفضلهما •

انى أعجب عندما أتذكر أننى قضيت معظم وقتى فى دراسة وقراءة كتب وصحف وتواريخ وآداب لا يعود منها نفع مادى أو مباشر مطلقا ، كنت مندفعاً - وما أزال - نحو المثل العليا وتغذية الروح وتجميل العقل وادخار المعرفة من كل مصادرهما دون أن أفكر فى أى نفع يعود على ، وقد أنفقت مالا طائلا فى الحصول على الكتب والمجلات والصحف فى كثير من اللغات ، وسافرت أحيانا للحصول على كتاب أو لقراءته فى مكتبة عامة •

قد يبدو هذا عجيبا ولكنه وقع لى •

وعندما أدنو من مكتبة تباع فيها الكتب بأية لغة من التى أعرفها أو أطمع فى أن أعرفها أصير كالمقامر الذى يدنو من مكان لعب الميسر أو كمدمن الخمر عندما يرى حانة لا يملك أحدهما أن يهوف نفسه عن غشيانها •

والآن أتذكر فلا أجد الا صورا باهتة مما قرأت أو لخصت ،
ولكن لذة الذكرى وحدها عظيمة جدا عندي ، انها نشوة ، انها حياة
تنتعش وتعود ، انها نوع من بعث الروح ، واطن أنني أموت وأخرج
من الدنيا بالايمان بالله ثم بهذه الذكريات تؤنسني وتعينني في أداء
امتحاني الذي يبلغني النجاح فيه غاية اللقاء بهذه الأرواح الطيبة •

لقد سافرت الى بروكسل سنة ١٩١٠ لحضور مؤتمر وطني
مصري ولأشتري كتابا لا أحب الآن أن أذكره • بروكسل مدينة
جميلة غنية ، ولكنها ثقيلة الظل ، عليها سيما اليهودية الحسناء التي
لا تزنيها العفة ، وفيها رأيت كير هاردي ، كان شيخا وقورا فقيرا ،
وكان أخطب خطباء انجلترا وأيقوسية وايرلندا في عصره ، وهو
مؤسس حزب العمال ، وكان أقرب الناس شيئا وخلقا بجان جوريس
وتنقصه ثقافة جوريس ، لأن جوريس كان أستاذ فلسفة ، ولكن
طبيعة هاردي كانت أقوى وأسلم ، وقلبه أبسط ، وقد ذهب كلاهما
ضحية الحرب العالمية الأولى •

كان هاردي لا يحمل نقودا ، كان متقشفا يفخر بالفقر ،
ويصنع فقره غنى زعماء الشرق عدا غاندي • كنا نركب سيارة ثم
يتجه الى في عظمة الأستاذ والصدیق قائلا : جمعه ادفع أجر
السيارة • فأفرح اذ أجد في جيبى ما يكفى •

وكان في بروكسل في تلك الفترة مدام كما الهندية النى
خطبت في المؤتمر المصري وقالت : « ان الحرية لا تنال الا بسفك
دمائنا » ، فاضطرب المرحوم فريد بك رئيس الحزب الوطنى وقال
« نحن لسنا في مؤتمر هندي » ، فهاج عليه الجمهور وأسكتوه •

وكان معها هارديال ، وهو وطنى وأديب هندي كبير وناخب في
الرياضيات والشعر ، وكان « أنموذجا » في الفاقة والفلاكة (١) ،

(١) الفلاكة : الفقر • والمطفي جمعة دراسة أدبية عنوانها « الفلاكة والجمجمة
في الأدب » طبع عالم الكتب ، سنة ١٩٩٨ - ١٩٩٩ •

عاش بعيدا عن وطنه وأهله ، يروح ويغدو جانبا ، ثم هاجر الى أمريكا واستغل الأمريكيان مواهبه فجمع مالا ولم أسمع عنه خبرا بعد ذلك .

كنت في ذلك الوقت اقرا مجلة اسمها العمل Oeuvre لجوستاف تيري ، وكان هجاء ثائرا ومتخرجاً في « الايدول نورمال » وزميلا لادوار هريو ، ولكنه كان مفلونا ، وشتتم رؤساء الجمهورية والوزراء واشتهر شهرة واسعة ، ثم أسس جريدة « الحرب الاجتماعية » وحمل فيها حملات منكرة على البورجوازية ، ولما أعلنت حرب سنة ١٩١٤ جبن وتظاهر بالوطنية ، سمعته يخطب فلم يعجبني ، كان سبابا طالبا للمال والمنصب .

لم يعجبني من خطباء فرنسا غير جوريس وبريان وادوار هريو ، ولكنه متأنق وليس مثلهما ، وسمعت شاعرا يخطب « جان ريشبان » من شعراء مونبارناس (المدرسة الادبية) كان ملحدا وثائرا ، خطب في تياترو سلسيتين بليون ليلة مثلوا احدى مسرحياته الشعرية ، تكلم في موسيقى الشعر وتفكير الشاعر في القوافي فكان بديعا ، وهو أيضا خريج النورمال ، ولذا كان سرورى عظيما في تلك الليلة ، فنسيت المسرحية ولم أنس المؤلف ، وتكاد صورته تشخص أمامي الآن ، وكذلك صوته والفاظه منذ أربعين عاما .

لم أر هنرى باربوس ، ولكن قرأت كتبه « النار » ومجلته ، ومن أقواله « ان الأفكار الكبيرة تسير طويلا ثم تنفجر ويكون لها دوى عظيم » ، لقد كان شيوعيا صميما وبغيضا عند كثير من أهل فرنسا لشيوعيته ، هل كان يقصد الى الثورة الروسية أم يتكهن بالقنبلة الذرية ؟

لقد اجتمعت الاثنان في زمن واحد .

وبمناسبة الثورة في روسيا أذكر أنني في سنة ١٩٠٩ شهدت مسرحية عنوانها « الليلة الكبرى » وكتبت عنها فصلا في جريدة اللواء بتوقيع « قارىء ناقد » ومثلت دور البطولة فيها « فبراسيرجين » . الاسم روسي والمرأة فرنسية (لعله اسم منتحل) ، لا أزال أذكر جمالها وهيبته وقوتها عندما صرخت « صوت الدماء يرن » . ما هو صوت الدماء ؟

وهذه الفتاة التي كنت أعشقها بالعقل كأنها كائن علوى من عالم المثال ، أين ذهبت ؟ وماذا كانت حياتها ؟ وهل كان شعورها الذاتي ينطبق على فنها الرائع ؟

لقد خلقت شخصية أخرى في مسرحية سان سيباستيان التي نظمها شعرا فرنسيا جبرائيل دانونزيو الشاعر الإيطالي ، كانت تمثل فتاة مريضة ألبسوها لتشفى من الحمى كفن المسيح الذي لفوا فيه جثمانه بعد الصلب (على العقيدة المسيحية) ، وقد بقيت في الكفن صورة الوجه العيسوي (حسب الأسطورة التاريخية) ولأجل اتقان التمثيل رسم دانونزيو بيده ذلك الوجه كما تخيله ، وتفضل على الممثلة بعد قيامها بالتمثيل بأهداء الثوب إليها وعليه الصورة التي رسمها ذكرى لفنها واتقانها . تأمل ! من « صوت الدماء ترن » إلى دماء المسيح نفسه ! . مظاهر للفن .

ما قيمة هذه الذكريات التي سجلتها ذاكرة فتى في العشرين من عمره في بلد غريب وفي طور التعليم في الجامعة الفرنسية ؟ وكيف فكرت في أن هذه الحياة تؤهلني للجنة أى لنعيم الروح والعقل والاجتماع بالارواح العليا واجتياز امتحان الفردوس ؟

اننى لم أفكر قط في المال ولا في المنصب ولا في أمجاد الدنيا ولا في العشق المحلل أو المحرم ، في تلك الفترة كنت على الفطرة مدفوعا الى الحق والجمال والخير ، ولم انظر بما يملأ يدي

من سعادة لها علاقة بالحواس أقرأ الكتب وأستمع الى الدروس والخطب وأنشد الجمال والفكر ، وأتمنى مستقبلا سعيدا للانسانية ولوطنى ، والدليل على ذلك أفكارى التى أودعتها فى كناشات عشرين وجمعتها فى مخطوط بدائه فى بيتى بمدينة ليون سنة ١٩٠٨ الى سنة ١٩١٠ ثم وقفت العمل فى تسجيلها (١) .

كانت بداية رحلتى بل حجتى الى كعبة الحقيقة .

وكيف انتهت تلك الحجة ؟

تلك الثورة الروسية التى رأيت شررا من نارها الكبرى قد اشتعلت - وليس لى فيها غرض ولا ميل ، قد أسفرت عن قوى متضاربة ، وتلك الأفكار التى كانت تغل وتفور فى سنة ١٩١٠ انفجرت عن حربين عالميتين جلبتا الشقاء على العالم ومارلنا نخشى حربا ثالثة !

ولم يتحقق من آمال الخير والحق والجمال شيء ، بل جاءت النقائص على أنقاض الحضارة التى آلت الى السقوط والانحيار وانقضت وليس صحيحا أنها تريد أن تنقض بل انقضت فعلا .

وأنا نفسى وجدت فى وطنى عجائب وغرائب ، فهذا الشعب يعيش فى القرون الوسطى المظلمة ، وبعضه يعيش فى عصور ما قبل التاريخ بعقولهم وعواطفهم ، وهذه المثل العليا التى كنت أنشدها . وتلك الأمانى التى كانت تداعبنى ، وتلك المعارف التى هويتها وحشدتها وامتلات بها لا تصلح لتلقين أحد ، لأن الذى بينى وبين بنى عمى مختلف جدا . بل الذى بينى وبين أخى وأبى وأمى وابنى وزوجتى وتلميذى وأستاذى مختلف جدا جدا . الخ .

(١) اطلق لطفى جمعة على هذه الأفكار عنوان « خطرات أفكارى ، تجاربى

الشباب فى الشرق والغرب » ، مخطوط تحت الطبع .

ففيهم يا صاح كان كل ذلك الجهاد والتعب والسهو والتحرير
والتحير والدرس الطويل ؟

وفيم كان استحقاق الجنة ؟

مما لا ريب فيما أن كتابة الخواطر والأفكار التي تدور في
النفوس وتجول في الضمير تعين صاحبها على توضيحها وتصفيتها
وعلى الشعور برفع عبئها عن كاهله ، وهذا الذي دعاني في السنة
الرابعة بعد الخمسين من عمري الى الكتابة في هذه الناحية (١) ،
وكنيت أظن أنها من أصعب النواحي وما أزال أعتقد أن أصعب الأشياء
لدى الانسان أن يحلل عناصر حياته ، سواء التي في نفسه أو التي
تحيط به .

ومن هنا كنت أعتقد أن كتابة التاريخ المعاصر من أشق أعمال
الأدب ، ولكن الذي أكتبه هنا لأضع عبئا عن كاهلي ولأبين حقيقة
خطتي في الحياة ، ليس أدبا ولا فنا ، ولذا أكتبه خاليا من كل تصنع
أو تزويق أو تجميل ، ويمكن لي أن أقول أن التصنع وتعمد إخفاء
الحقيقة أو تغميتها ليس من دأبي في كل ما أعمله أو أقوله ،
وما كان من ذلك في أي قول أو فعل فليس الا نتيجة المعيشة في
المجتمع وليس الا ما أحسبه ضرورة تقتضيها العشرة التي تحتاج
في العهد الأخير الى كثير من المجاملة ، والا فأنني أشعر في كثير من
الأحوال أنني لست من أهل هذه الأجيال أو أن قرابتي لأهل العصر
« قرابة بعيدة » .

(١) كتب لطفی جمعه هذه النُبذة من هذه المذكرات في يوم الاثنين ١٨ أغسطس

سنة ١٩٤١ .

وان الذى بينى وبين بنى أبى
وبين بنى عمى لمختلف جدا

نعم ان الرجل الذى ينظر فى مجتمع متحرك رجراج كالزئبق ،
وهو كان يؤمل الثبات والاستقرار - لخليق بأن يعتبر نفسه غريبا
فى وطنه ، ويحن الى معانقة المعرى حبا فى قصيدته الهمزية التى
استفتح بها ديوان اللزوميات :

أولو الفضل فى أوطانهم غرباء
تشذ وتناى عنهم القرباء !

كنت ألقى أديبا رواية وهو المرجوم صادق عنبر ، فكان يشكو
ويتألم وينتقد ، وأنشدنى يوما هذه الأبيات الأربعة :

قدر الله أن أكون غريبا
بين قوم أغدو مضيعا لديها

ورمتنى الأقدار بعد دمشق
فى بلاد أساق كرها إليها

وبقلبنى مخدرات معان
حين تبدو تختال عجا وتيها

صرت ان رمت كشفها فأراها
نزلت آية الحجاب عليها

وهذه الأبيات المتوسطة تحوم حول فكرة الاغتراب فى الوطن
وهى عجيبة حقيقة ، لأنك ما تزال تلقى رجالا - ولا سيما من أهل
العلم والأدب ومكارم الأخلاق - يعتبرون أنفسهم غرباء فى أوطانهم ،
واذا رجعنا الى التاريخ القديم ، عثرنا على أسماء فطاحل فى كل علم
وفن أساء اليهم مواطنوهم حتى أخرجوهم من ديارهم ، فلقوا كرامة

فى أوطان أخرى ولقوا نجاحا وتوفيقا ، وكان الاخراج بأحكام النفى
السياسى لسنتين معدودة وتحريم الإقامة أولا ثم العودة •

ويظهر أن جنس الإنسان شديد الغيرة والحسد لأهل الحق
أو أصحاب المواهب وعدو لدود للصراحة ، فكل من كان منسوباً
لأحد هذه الأنواع الثلاثة لابد أن يلقى وبالا قبل أن يصل إلى شيء
من النجاح ان لم يلق حنقه فى هذا السبيل ، ولست فى حاجة
إلى تعديد الأشخاص من طبقة الأنبياء والزعماء والعلماء والمصلحين
والأدباء •

إن أكتب هذه المذكرات ؟

لله ولنفسى • ولا أظن أن أحدا يعرفها أو يدركها ، وهى مكتوبة
بسرعة وتحت تأثير ضغط شديد لأسرى عن حالتى ، وهى - كما
يقال - نفثة مصدور ، فإن رأسى كالمرجل الذى يغلى ، وصلى يكاد
ينفجر مما أرى وأسمع فى هذا الوطن الأسيف •

فعل من يعثر عليها من أولادى أو الغرباء أن ينسقها وينشرها
بعد موتى ، وإن مد الله فى أجلى فأنا أقوم بهذا العمل ، لأنه يعطى
صورة ولو ضعيفة عن هذا العصر وعن الحياة فى مصر أثناء هذه
الحرب ، ويقتضى أن كل مجهود فى مصر ضائع وإن سادتها يعملون
لمصلحتهم ولا يراعون الله ولا الضمير •

المهم عندى فى هذه المذكرات الإشارة إلى المسائل العامة
السياسية والاجتماعية فى مصر والعالم وتدوين أخبار العظماء الذين
يلحقون بربهم ، والإشارة الخفيفة إلى حياتى الخاصة وتتبع النضال
المستمر بين الأحزاب المصرية التى أوشكت على الهلاك بفعلها ،
وانتظار نهاية الحرب التى طال وأوشكت على تمام السنة السادسة
منذ اشتعالها فى سنة ١٩٣٩ ، أما فيما يتعلق بعملى وصحتى فاننى
أكتب الأقل •

ان وظيفة الكاتب الحقيقية هي تسجيل الحياة كما هي ، وقد يكون هذا التسجيل ملونا ببعض شخصية الكاتب ، وهذا هو العمل الفني في أصح معانيه ، فليس عليه أن يسعى للنقد أو للإصلاح ، فهذا عبث ، ولكن الوصف نفسه يعمل أكبر عمل ويحدث أعظم أثر «كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال » صدق الله العظيم .

(محمد لطفي جمعة)

الطفولة

(١)

المولد والعائلة (*)

ولدت فى ١٠ ربيع الثانى سنة ١٣٠٣ هجرية الموافق ١٨ يناير سنة ١٨٨٦ مسيحية فى مدينة الاسكندرية فى منزل لا يزال قائما فى أحد الاحياء التى تسكنها الطبقة الوسطى (حتى كوم الدكة) ، من والدين من تلك الطبقة ، وكان ميلادى فى فصل الشتاء بعد العشاء أو أثناء أذانها ، وكانت ولادتى عسرة ولم أستطع الرضاع الا بعد ثلاثة أيام حتى كدت أهلك لولا أن جارة أشارت بتغذيتى بقطرات من ماء الورد المحلى . ولما كان لبن أمى شحيحا ، فقد عثروا على مريض مصابة بالتهاب فى الجفون وضعف فى المصران ولم يجدوا سواها فأرضعتنى (١) وأورثتنى هاتين الحاليتين ، فبرئت من الأولى ولازمتنى الثانية ، ولعلنى لم أرضع من أمى بعد ذلك الا بعد بضعة أشهر .

أما المنزل الذى ما يزال قائما على حالته ، فهو بناء مرتفع فى شكل مستطيل وليس فيه شئ من الجمال سوى نخلة يتيممة فى فناءه ، والبيت محصور بين منازل أخرى لا يدخله الا قليل من النور والهواء ، وقد شهدت الغرفة التى ولدت بها ، فإذا هى واطئة

(*) كتب لطفى جمعة هذا الفصل فى ٣ أكتوبر سنة ١٩٣٩ .

(١) هى السيدة ملوك والدة الموسيقار سيد درويش .

يغطي أرضها بلاط قاتم وقد رأيتها في الأربعين من عمري وهي خالية من الأثاث ، ورأيت موضع كرسي الولادة الذي وصف لي والنافذة الصغيرة التي كانت أمي تنظر إليها كلما ازدادت عليها أوجاع المخاض التي استمرت يومين وليلة . وقيل انني ولدت عند الأذان بينما كان المؤذن يقول « محمد رسول الله » ونادى شخص في الطريق باسم ولقب فجعلوهما للمولود الجديد تفاؤلا واستحسانا ، وكان والدي يجلس بعتبة الباب الخارجي باب الدار ، فقد طلقت أمي بعد الحمل بي ، فجاء الرجل في ساعة الميلاد يعلن أنه لم ينجء مصلحا ولا مجاملا وإنما ليستقبل ابنه الذي سيولد في هذه الليلة وهذه الساعة ، فعجبوا لدقة حسابه وصدق تقديره ولكنهم أخفوا خبر حضوره عن الوالدة لأنها لم تكن تميل الى مطلقة كل الميل .

وكانت خالة لي صغيرة في السن قد أعدت لي ثيابا ولفائف وطاقية من أقمشة قديمة لتكون طرية لينة على بدني الصغير . كانت هذه الصبية تعين أمي وتساعدوها وهي شقيقتها كلما اشتد مخاضها قبل الطلق .

وقيل انني ولدت مستورا في غشاء جلدي رقيق اختلسته الداية ، ولكنني ولدت ضعيفا كأنني هيكل عظمي في كيس من الجلد أظهر ما فيه تجاعيد جسمه وعنقه وخفوت صوته ثم صراخه عندما بحث عن الثدي فلم يجد ، حتى هبط صوته ، وصار كأنه نزع لا عويل وحشجة لا استغاثة الى أن أدركته عناية الله بمشورة الجارة التي أفتت بتعليقه بالماء المحلى .

كانت مجموعة من النساء المختلفات سنا وعقلا هي التي استقبلت الطفل ، يقوم عليهن رجل واحد وزوج أحدهن وهو كهل شبه ميسور محافظ ذو تقاليد يتعاطى التجارة اسمه (حسن الطويل) ، كان ربعة أسمر اللون أنيقا في ثيابه

الاسكندرانية من سراويلات وصدرية وحزام وحذاء « كونتره » وطربوش مغربي تحته طاقية بيضاء لا يبين منها الا نصف قيراط ، ولحيته بيضاء وهو يتكلم بلهجة « أهل بحرى » التى كأنها تقتلع الحروف اقتلاعا وتبالغ فى الجيمات المعطشة وغير المعطشة ، مع سماحة وبتساشة وميل للخير وعقيدة دينية هائلة ، كان شعاره « رأس الحكمة مخافة الله » ، يحب الحلال ويتحراه ويكره المحرمات ويحاربها ويقسو على نفسه وعلى من معه ، وكان تاجرا فى الغلال « بميناء البصل » وفى « الميدان » ، وكان يحوطه لون من البطولة ، كان محترما ومحبويا وفهسيحا ولكنه لا يفهم المزاح ولا يشجعه ، كان واسع العينين ، كبير الراس ، نافذ الكلمة ، قوى الإرادة ولم يكن يكيده الا حرمانه من النسل وقد صنع المستحيل ليولد له ولد ذكر فلم يصبه •

كان خفيف الروح حازما شهما يتحمل أشد الصعاب وكريما لا يبخل بماله على الأقرباء والغرباء ، وها هو ذا قد رأى مولودا يولد لبنت زوجته التى يعدها بنتا له منذ غيبت الأقدار والدها ، وزاده غبطة أنه هو الذى اختار الزوج الذى أعقب هذا الولد وان لم يكن الزواج قد نجح لاختلاف الخلق بين الوالدة الفتية والزوج الذى اختاره لتقواه وصلاحه ، فظن التقوى مبررا والصلاح صلاحية فكذبته الحوادث ، اذ وقعت الفرقة قبل ميلاد الطفل وشيكا •

كان حسن الطويل بعطف على الأم وأختها وهما ابنتا زوجته كأنهما ابنتاه وعلى سيده ثالثة هى أم زوجته ويسميهم « كوم لحم » ، وقد كان شهما لأنه عندما قامت النورة العرايية وأرغم أهل الاسكندرية على الهجرة ، رحل بهذا الكوم اللحم من النساء - ولم أكن قد ولدت - من مقرهم ومسكنهم الى حجر التوتية سائرا على رجليه ، بينما كانت النساء محمولات على دواب أو على مركبة يجرها حصان ضعيف حتى تمكن هذا الكهل من ملازمة ركباهن كأنه جمال

أو حارس وهو يجرح حمل ثيابه من سراويلات وقباء وحزام « سلنبد »
وعلى رأسه ذلك الطربوش الضخم ذو الزر الثقيل في وهج شمس
يوليو وتحت أشعتها المحرقة وهو لا يمت لاحداهن بصلة الرحم
أو الدم وإن يكن زوجا لاحداهن ، فكانت نخوته ومروءته تقضى أن
يحافظ عليهن وهن ثلاثة أجيال مجتمعة ، مباركة والددة جدتي
وفاطمة جدتي وخديجة والدتي وحميدة خالتي ، ثم أقام بهن في
خيام ما شاء القدر أثناء صرب المدينة بالقنابل واطفاء النيران بعد
احتراقها ، ثم عاد بهن في هذا الموكب الحزين عودة المهاجرين إلى
بيوتهم ، فهل وجدوا بيوتهم وأنائهم ؟ • لقد أخذوا معهم ما خف وغلا
ولكن ما تركوه لا يستهان به •

لقد كان الرجل تاجر غلال ولكنه لم يربح أرباحا طائلة ، لأن
الأوقات لم تقل والخبز لم يعدم من السوق ولو أنه وجد فرصة
الاغتناء على حساب الشعب الجائع ما فعل ، لأنه تقى ورع لا يدخل
في وهمه أن الرجل يربح المال عن دماء أمته في أحوالها •

عادوا وهن يروين له وصف مرور القنابل على رؤوسهن
اذ صعدن على سطوح المنازل يسهناها وهي تدوى وتصفر كالأفاعي
حتى جعل العوام لها أسماء نسائية فهذه « الحاجة فاطمة » وتلك
« الشيخة عيشة » بحسب حجمها وقوة انطلاقها وسرعة انفجارها •
وقد رأينا بأعيننا بعض هذه القنابل مظلورة في أراض زراعية بين
ترعة المحمودية وخط باب سدرية بعد رميها بخمس عشرة سنة وقد
أكلت الرطوبة والسبخ غلافها الظاهري •

بعد هذه الحوادث بأربع سنوات أو خمس ولدت وما زالت
محنة الثورة وأهوالها مرسومة في ذهن أمي وخالتي وجدتي ،
وما يزال يذكرن الأقهشة البهيماء التي أمرن بوضعها على أذرعتهن
علامة التمسليم وجلب الأمان ، لأن من لم يفرضها يعرض لجسمه بانه

تأثرا أو متحاربا حتى ولو كان امرأة أو فتاة ! ٠٠

والدى واسمه جمعه أبو الخير ينتمى الى عيلة نزحت من الوجه القبلى قبل عشرين أو ثلاثين عاما وتخلف بعضها لأسباب لا اعلمها فى قرية « الدلجمون » بجوار كفر الزيات ، والسيدة واسمها « خديجة بنت محمود السنباطى » وكانت سن كل منهما عنده مولدى حوالى منتصف العقد الثالث .

وأعرف يقينا أن عيلة الزوج الذى صار والدى كانت مؤلفة من اخوة وأخوات وقد عاش أحد هؤلاء الاخوة الى السبعين من عمره فى قرية الدلجمون ورزق أولادا رأيت بعضهم يطلب العلم فى الأزهر .

اما الأخوات فقد رأيت منهن عددا وفيرا وهن يحملن الأسماء الانية بسيونيه ونواره وسيدة ، وكن متزوجات ومرزوقات بنين وبنات ولا يزال نسلهم على قيد الحياة ، وكانت أوامر القرابة بينهم وبين والدى شديدة متصلة حتى لا يمضى يوم أو ليلة دون أن يجتمعوا فى بيت أحدهم فى حى من الأحياء التى يقطنونها ، ومن تلك الأحياء التى رأيتهم فيها حى العطارين وحى باب سدره وحى ميناء البصل وحى كرموز وحى بوالينو ، وقد ملك بعضهم عقارا حسنا وادخر بعضهم مالا حتى بعض نسلهم الا والدى الذى كانت غريزة الملك ضعيفة فى نفسه والميل الى الادخار أضعف ميوله على الرغم من أنه كان يعتبر رئيسا لهذه الأسرة رياسة روحية ، فما يرمون شيئا أو يتنقصونه الا برأيه . وقد صار بعض أصهاره ولا سيما أزواج بنات أخواته من أرباب المال وقد صحبهم فى مدارج حياتهم وتعهدهم حتى نموا ونما معهم أولادهم وأموالهم .

وقد مات هذا الوالد في شهر أغسطس سنة ١٩٣١ بمدينة الاسكندرية ودفن في مقبرة العيلة بمدافن عمود السوارى (سيرايوم) وكانت سنى عند وفاته ستا وأربعين سنة ، مات فى السبعين من عمره ، فى حين أن والدتى سبقته الى العالم الآخر فى سنة ١٩٠٣ أى أنه عاش بعدها ثمانى وعشرين سنة تزوج خلالها أكثر من عشر مرات على التوالي ومات عن الأخيرة منهم وهى سلمى ، وكان عمى عند وفاة أمى سبع عشرة سنة وكنت أطلب العلم فى السنة النهائية فى المدرسة الخديوية التجهيزية بدرب البشمايز ، وكانت وفاتها فى السادس من شهر أكتوبر من تلك السنة المشؤومة بالنسبة لى والى ما أصابنى من الآلام التى لازمتنى .

كان والدى رجلا قصير القامة قوى البنية أبيض اللون مشربا بحمرة لين الصوت حاد البصر شديد الصبر على المكار ، قنوعا الى درجة الزهد يعمل فى الحياة ليستطيع العيش والعبادة ، وقد قضى الشطر الأكبر من شبابه فى صحبة الشيخ حسنين الحصافى المتصوف المدفون فى دمنهور (١) ، وكان يصحبه فى سياحته ورحلاته وحله ، ولا يزال أولاد الشيخ ومنهم عبد الوهاب على قيد الحياة ، وكانوا يقطنون بيتا كبيرا فى قصر الشوق بالحى الحسينى . وكانت صلة والدى ببيت الحصافى قوية حتى انه كان ينزل وزوجته سلمى فى بيتهم عندهم بعد زيارتى وكنت أعجب لذلك . وعبد الوهاب الذى حل محل أبيه فى شياخة هذا الحزب الدينى رأيت له للمرة الأخيرة فى ربيع سنة ١٩٣١ فى بيت بشارع فاطمة النبوية بالعباسية منفردا عن بقية أخوته وأخواته .

(١) ولد الشيخ حسنين الحصافى سنة ١٢٦٥ هـ فى الحصافة مركز شبين القناطر وانتسب اليها كعادة أكثر العلماء وحفظ القرآن ثم ارتحل الى القاهرة حيث التحق بالأزهر ومال الى طريق الصوفية فحجز الادل والأوطان وساح فى البلاد والقرى . وكانت له طرق صوفية عديدة ولكنه اشتهر بالطريقة الشاذلية =

لقد كان والدي متعبدا الى درجة بعيدة ، وكان حريصا في المعاملات وان لم تكن ظروفه تسمح له بالاستفادة من حرصه ، وكان شديد التحمس لكل ما يمس الشريعة .

كلما رجعت بذهني الى الفترة الأولى من تاريخ حياتي أرى نوعا من المقارنة المحتملة ، فقد كانت أسرة أمي مكونة من جدي محمود السنباطي الذي اشتغل بنجارة العطاراة وأعمال العمارات وتجارة الخشب ، وكان رجلا معتدل القامة أبيض اللون سريع الغضب يدمن تدخين الطباقي الشديد ، وله لثغة تعوقه عن سرعة الكلام فربما سبق فعله قوله . وكان أبوه يقرأ القرآن وقد انتهى بأن هاجر هذا الجد الى أرض الحجاز بعد أن أقام أمدا في بعض مدن الوجه القبلي ، وقد وافقت هجرته وجود أختين له في المدينة المنورة ، وقد مات بلا شك في البلاد المقدسة .

(٢)

من ذكريات الطفولة

ان القصد من هذه المذكرات تسجيل خلجات النفس التي تشعر بادراك وظيفة العقل عند شخص مدرك بان نضج الحياة الفكرية في حرية تامة بغير محاباة ولا طابع ذاتي ، وتدوين كل ما يصح تدوينه باخلاص تام وتطويع اللغة على قدر المستطاع

= والطريقة المحمدية التيجانية . وكان الشيخ الحصافي يكثر التردد على دمنهور لزيارة ضريح الشيخ أبو الريش وضريح السائح تلميذ أبي الحسن الشاذلي ثم يسافر منها الى الاسكندرية أو كفر الزيات أو دسوق الى أن توفي سنة ١٣٢٩ هـ ودفن بدمنهور والحق بضريحه مسجد .

للتعبير عن خفايا النفس الانسانية وما يمتزجها من عواطف ومشاعر
وأفراح وآلام *

خلقت ميالا الى الحب المطلق الذى يقترب دائما بالمودة وحسن
الظن بالناس وبالدينيا ، ولذا كانت خيبة الأمل فى حب أو صداقة
من أكبر الصدمات التى تصيبنى *

فقد بدأت حياتى بحب طفلة شعرت نحوها بحنان عظيم
وربما كان السبب أننى ولدت وحيدا بغير اخوة وأخوات ، فكان
تعلقى بهذه الطفلة مظهرا أو مصرفا لهذا الحب • وقد بقيت
صورتها وقصتها فى دخيلة نفسى عشرين عاما فسيجلت ذكراها
فى كتابى « ليلالى الروح الحائر » فى فصل بعنوان « نرجس
العمياء » ، ولم تكن عمياء ولم أكن أقصد الى إخفاء شخصيتها
ولكن الحزن الذى ساور نفسى عند فراقها طبع فيها صورة قائمة
فأخرجتها كما وردت •

وللذاكرة فى هذه السن المبكرة - على الأكثر أربع أو خمس
سنين - شأن عجيب ، فمن ذلك أننى أذكر بعد خمسين سنة
حوادث صغيرة لا تمتاز عن غيرها من أحداث الحياة ، ولكنها
ثابتة لا تتزعزع •

فمن الذكريات الفعلية أننى كنت أبغض جنسا أجنبيا
معينا ولا أطيق رؤية أفرادهِ ، وكان أحد أقاربنى يحملنى على
كنفيه ويجعلنى أعتمد بين رأسه وساقائى على صدره ، فلما
أشرفت على فرد من أفراد هذا الجنس ، وكانوا يلبسون ثيابا حمرا ،
قلت لحاملى « خبينى من هذا الـ ٠٠٠ لأنى أخشاه وأكره أن أراه » ،

ولم يكن حاملي ليمك تخبئتي ، فاذا دنا هذا الشخص البغيض ارتعدت فرائصي وأغمضت عيني حتى يمر بي ونترك البقعة التي لاقيناه فيها فيطمئن روعي ، وكان رعبي وانزعاجي وبغضي بسببه ما يصيب القط عند رؤية قط غريب ، يعلو ظهره وينتفش شعره ويزوم متحفزا للهجوم أو الدفاع ، وكان حاملي لا يدرك سرا لهذه الحال التي تنتابني كلما صادفنا فردا من هذا الجنس . وقد لازمني هذا الكره طول حياتي ولكن تشكل بأشكال تلائم تقدي في العمر وحصول الظروف والملابسات .

وانني أذكر هذه الحالة بالتفصيل لأنها تثبت عندي أن الحب والبغض بالغريزة وأنهما لا يمكن تعليلهما ، ولكن عند بعض الناس تأتي حوادث المستقبل بتأييدهما كما في هذه الحالة التي تأيدت تأييدا كلياً ، لأنني عندما ظهرت عندي غريزة كره هذا الجنس - وهم الانجليز - لم أكن أعرف شيئاً ولم أسمع ولم أنثر بشيء بخصوصه .

وقد درجت على هذا بعد في حياتي فيما يتعلق بالأفراد والحوادث ، فأشعر في أغلب الأحيان بانجذاب أو نفور من الأشخاص ، ويحدث دائما أنني كنت أقاوم هذا الشعور وأكذبه . فتأتي الحوادث بتصاديق الشعور الأول أن خيرا وأن شرا ولو بعد سنين طويلة ، وقد يخطيء ظني أحيانا ولكن هذا نادر جدا .

ومن الحوادث التي تعيها الذاكرة بوضوح ، وإن كانت تافهة ، أنني كنت أسير يوم شتاء ماطر بشارع كبير في الاسكندرية في صحبة أحد أقاربي ، وكنت حافياً وشعرت في وقت ما بالآلم

من المشى والبرد ومن اضطرارى لملاحقة الشخص الكبير وهو بحكم كبره اسرع واوسع خطى منى ، وبينما كنت أفكر فى الشكوى وكنت كثير الاحتمال ، كان هناك نوبى كهل جالسا على باب احدى العمارات فوق وجهر بالقول والتأنيب لقريبى قائلا « مشى حرام عليك تخلى ولد صغير كهذا صفته كيت وكيت يمشى حافيا على الأرض فى البرد ده ؟ أنت مشى فى قلبك رحمة ؟ لازم ده مش ابنك » ، وكان هذا هو الواقع فخجل قريبي وحملنى واعتذر بأن لى حذاء فى البيت وأننى رفضت ارتدائه . فأجبت هذا النوبى وأدركت أنه أشفق على من قريبي هذا ، وأدركت بهد ذلك أن هذا النوع من الأمر بالمعروف ، ولما كبرت اتخذت هذه العادة بغير خجل وهى أن أدافع عن الأطفال والضعفاء مهما كلفنى ، وكما نهتنى نفسى أو انتظرت جوابا لثيما ممن أخاطبه فى شأن الطفل أو الضعيف، أتذكر صنيع هذا النوبى الكريم . وما أزال حتى الآن أتعرض للآباء والأمهات الذين يسهدون أطفالهم فى سبيل ملذاتهم مثل السهر فى الملاهى ويجرون الصغار الآخذ منهم النوم والتعب كل مأخذ وتعريضهم للبرد واستنشاق هواء الطريق المشبع بالتراب والجراثيم فى أوقات يجب أن يكون فيها الطفل يغط فى نومه تحت غطاء مدفا ، وكثير من هؤلاء الوالدين يبدو عليه الغنى والتعليم والفهم ، وبعضهم يقول ان تعريضه لقليل من التعب خير من تركه بمفرده فى الدار أو فى رعاية خادم خائن أو مهممل ، وهذا حق كل الحق وحجة فاصعة لا يمكن الرد عليها ، وان الأم التى تحتجز نفسها طول حياتها فى البيت تمل وتسأم وقد تبغض الطفل والحياة !

وقد سهرت ليلة بطولها فى مولد الدسوقى فلم أنسها ولم يبرأ قلبى من الغيظ على من سبب لى السهر ولمت ضيفا فى بيت أسرة ربها لا يعرف الشفقة .

ولكن بعد هذا الحادث بأعوام قليلة نعلقت بالموسيقى ولم يكن امامى الا سماع المغنين فى الأفراح والمنشدين فى الأذكار ، وهناك كنت أقاوم النوم مقاومة الجياورة لأنصت الى المغنى الكبير وآتمنى لو يستمر السماع الى ما لا نهاية له من زمن ، ولكن هذا الميل الشديد الى الموسيقى الذى لازمنى منذ الطفولة لم يدفعنى يوما الى محاولة تعلم العزف على احدى الآلات ولا تعلم أى شىء له ارتباط بالفن الموسيقى وان كنت استريت كثيرا من المزامير والنايات والكمنجات فلم أوفق الى اخراج نغمة أو شبه نغمة لا بصوتى ولا بيدي .

وقد رأيت فى الرابعة عشرة من عمرى أحد رفقاءى فى المدرسة وقد نبغ فى القانون والفناء نبوغا نادرا ثم تدرج الى الضرب على بقية الآلات وهو المرحوم عثمان الفندى ، ومن معاصرى النابغين من هذا النوع حسن أنور وعلى صفر وفؤاد المرباط ومحمد فتحي وبعضهم فطاحل فى فن التلحين وعلم الموسيقى ، ولكننى بعد أن تنبعت الموسيقى الأوروبية ولا سيما فى نوع « الأوبرا » ، أيقنت أن الموسيقى العربية - فيما عدا المرحومين سيد درويش أخى فى الرضاع ومحمود صبح وقبلهما عبده الحمولى ومحمد عثمان - نوع من العبث واللهو الذميم ، وقد صارت فى أفواه بعض مدعى التجديد دعوة فاضحة لأحط الشهوات والنزول بالنفس الى الحضيض لفظا ومعنى وتلحيننا ، وأما الذى وصفوه « أوركسترا مصرية » فهازل ومخزيات وفى أحسنها مما يقوم به معهد الموسيقى أخلاط وسرقات ، وليس فى الموسيقى الشرقية مما يشرفها غير الموسيقى التركية التى هى على نسق واحد ونظام جميل .



التكوين العقلي والعلمي

- ١ -

التعليم الابتدائي

نشأت مبعضا للاستظهار وحفظ الدروس عن ظهر قلب ،
وسببه أننى أنفر من غير المعقول ، فلم أكافأ فى المدرسة أبدا
لأننى برعت فى المحفوظات ، ولم أعرف أبدا أوزان الشعر ، وكان
رضاء الأستاذ مصدره انتاجى على ضعفه ، لا ما أعيده من أقوال
الآخرين ، وكان نظام التعليم فى عهد طفولتى وصباى مشدوبا
بداء الحفظ فى الكتب والكراسات ، وكان أنبغ التلاميذ هم الذين
يحفظون دروسهم ، والغريب أن بعض هؤلاء صاروا قضاة ومحققين
ومستشارين، ولكن الذين كانوا لا يستأهلون هم الذين نبغوا فيما
درسوه من العلوم العليا .

دخلت الكتاتيب أو المكاتب المعدة لتعليم الصبيان ، وكشفت
حيل الصبيان على الفقى الضرب وعرفت نفسية الجريف ، وعهدت
الجريدة والزخمة من أدوات تعذيب لا تهذيب الأطفال ، وهربت
من الكتاب مرات لا تعد ووضعت طرف ثوبى على نار الكانوز
لأنهى حياتى بغضا فى الكتاب وبقيت مدة معطلا عن التعليم لخلاف
القرية التى كنت فيها من معاهد العلم غير ذلك الكتاب التمس .

ولما دخلت مدرسة الأقباط في طنطا ، كانت الفرق فيها مزدحمة والتلاميذ مهملين ، كان فيها عريف ضرير لتعليم اللغة القبطية لكل التلاميذ بغير تمييز حتى بين المسلمين واليهود .

لم أتعلم شيئا في مدى سنة أو سنتين ولم أعرف في تلك المدرسة الا الظلم والتعسف وعجزت عن جدول الضرب وعن الخط الأفرنجي وعن النحو وعن كل شيء .

وفي ذلك الوقت كانت لي جدة عجوز فصيححة اللسان تتحدث كمنها عن ظهر قلب عن طريق السماع والتلقين ، فقرأت لها ومعها كتباً دينية كاجزاء من البعثاري دون أن أعلم معانيها وبعض القرآن وشعرها كثيرا وقصصا كالف ليلة وسيف بن ذي يزن وبعض الجرائد اليومية ، وهي التي روت لي قصة ابراهيم الخليل وزوجته سارة وابراهيم بن ادهم وكان هذا أول درس لي في التصوف .

هذه هي الثقافة البيتية التي تلقيتها بشوق وشغف ، واني أرجع الى جدتي السيدة « مباركة بنت ترك ومنصور الوكيل » الفضل على في حب القراءة والتطلع الى المعرفة دون سواها من خلق الله ، وان كانت ابنتها فاطمة لازمتني وخدمتني بشيخوخة مباركة وبنية قوية وقلب كريم ومحبة فائقة منذ حداثتي الى وفاتها ولم تجعل لها في الحياة هما غير رعايتي .

وأذكر الآن أنني لو لم أرزق هذه الجدة المباركة التي أرشدت عقلي في خطواته الأولى ووجهتني الى حب القراءة وسماع الحديث ، فماذا كانت تكون حياة فكرى ؟ . كانت معلمتي الأولى والأخيرة ، فأننى لم أستفد من امرأة سواها .

عُست في المدن والريف ، وفي المساجد والكنائس وفي المدارس والكتائب وفي الموائد وخيام الذكر وفي سرادقات الأفراح والخاتم وشهدت سامران الحواة ومقاهي الفصاح والمنشدين على الرباب وغشيت ملاعب « البهوان » وكانوا يسهونها تتجاوزا « تياترو » وشهدت ألعاب الخيل والفيلة والكلاب والنعابين وسمعت النحاتي (الهونوغراف) عند أول اختراعه ، وشهدت رفض الخيل وضرب الرصاص في أفراح البدو ومنازلة الثبوت ومصارعات الفتوات ، وسمعت مشاهير القراء والمنشدين ، وحضرت بعض دروس العلم في الجامع الأحمدي وحظيت باللعب الغالية وشققت بالأسلحة ، وشهدت التمثيل العربي في روايات من التاريخ القديم ، وشهدت خيال الطفل والفقر جوار كل هذه المسرات والويلات لا يستها ولا مستها قبل بلوغى عشر سنوات ، وأشدها لما وأثبتها ذكرى شهودى جلسات المحاكم وسماع مرافعات المحامين في قضايا كبيرة في قاعات مزدحمة بالمتفرجين ، وشهدت مواكب الحاكم واستقبال الخديو وأفراح الرعية وسمعت صوت « أفندينا يتحدث الى مستقبله ويمزح مع قريب أحد الموظفين بالمعية » ، ورأيت يجوس خلال مقاعد الفصل المدرسى ويتناول كراسات التلاميذ ويحيى بيده الصغيرة المشايخ والأفندية ونحو نصيح ونهتف « أفندمز جوق يشا » بالتركية ولا نفهم معناها وما أزال أجهلها الى الآن ، كل هذا قبل « يحيى » و « يعيش » .

وفي أحد أيام يناير سنة ١٨٩٢ ذهبت لشراء طعام من بقال يونانى يحسن الكلام بالعربى ويده جريدة ، فلما باع قال لى : أفندينا مات فى الليل ، وعجبت لأن الرجل رأى على حادثة سنى أهلا لأن يعنى الى أمير البلاد وتذكرت ذلك الخديو منذ كان يمر بالبلد فى قطار فخم ويحشد التلاميذ والأعيان ليلقائه فى محطة طنطا ، فلما نعى الى هذا الرجل كان أول خاطر مر بى أن هذا

الرجل لن نراه فى القطار الفخم ، ولم أدرك أن له خلفا ، ونهيات
لى ظروف السفر الى القاهرة مع شخصين أو ثلاثة من أهلى لنشهد
الجنائز الخديوية ، وأتذكر وصولنا الى القاهرة ، وخوضنا غمار
الزحام الشديد ، زحام أعيان ورجال متشحين بالسواد والطرابيس
الحمراء ، فكانت دهشتى لكبر المدينة دهشة عظيمة جدا ، فقد
كانت هذه هى المرة الأولى التى أرى فيها القاهرة ولأول مرة أحتك
بجماهير القاهرة الصاخبة الطلقة المرحة فى كل شىء حتى فى
تشجيع الموتى ولو كانوا ملوكا . يا لها من فرجة ويا له من يوم
غريب !

كل هذا شهدته قبل بلوغ سن العاشرة ، لقد كان نوعا من
الفوضى والعماء والمصادفة والمخاطرة ساعدت على تكوين عقلى فى
جو مضطرب بطبيعة الأشياء ، فلم أدرك معنى لحياة الطفولة الهادئة
المطمئنة ، ولكن أدركت الحياة القلقة المضطربة المتنوعة المنبهة
للعواطف والغرائز واليول .

ولكن أشياء معينة لفتت نظرى ونبتت ذهنى ، القرآن الكريم
عندما حفظت جزء « عم » لضرورة الامتحان فى ليلة قمرية على سطح
منزلى ، فتعددت السهر لأشهد النجوم وأسبح فى عالم التخييل
الذى يملأ فكر الأطفال . وتنبعت حروب الترك واليونان وهى
والسودان فتعلمت قراءة الصحف والاهتمام بالأخبار ، وبدأت
أدرك ما يسمى بالسياسة الداخلية من قراءة المجلات الهزلية مثل
« الأستاذ » لعبد الله النديم « وأبو نظارة زرقا » لصنوع اليهودى
الوطنى المصرى « وحمارة منيتى » ، وكانت هذه المطبوعات أكثر
حرية من الجرائد كالمؤيد والأهرام .

وقرأت مقالات لا أزال أذكرها مثل مصرع فليكس فور
وفهمت الفرق بين حكومة الجمهورية والملكية والامبراطورية

بمناسبة موت هذا الرجل ، كما قرأت مقالات في الوطنية المصرية ، وشهدت تولية الخديو عباس ورأيت أصحاب الجلايب الزرقاء يحيطون بمركبته وهم يهتفون له « ربنا ينصرك يا أفندينا » وهو يأمر من حوله بتهدة السير اشفاقا على الحفاة الذين يجرون خلفه !

وتكونت في ذهني صورة مشوشة عن حياة الحكام والمحكومين ، ولم يكن للحكومة مظهر في ذهني غير « الضابط » و « العسكري » و « الغفير » و « شيخ الحارة » ولم أعلم العلاقة بينهم وبين المحكمة والمدير الا بعد بضع سنين ، وكنت أمر بمقر الشرطة « الضبطية » عند الذهاب الى المدرسة والعودة منها ولا أدرك ما يحدث وراء جدرانها الى أن شهدت ذات ليلة جنودا يحيطون برجل مكبل بالحديد وقد شهروا أسلحتهم ٠٠٠ وسألت نفسي اذا كان هذا الرجل مكبلا ومقيدا ثم انه لا يحمل سلاحا فلم يحيط به عشرة رجال من الشرطة بأسلحتهم مشهرة ؟

ووقع في نفسي أول معنى للشرطة وهو الارهاب وادخال الرعب في النفوس ولا تزال فكرة « الضبطية » مقتونة في ذهني بفكرة هذا الرجل .

- ٢ -

نظام التربية والتعليم في المدارس المصرية

أذكر في ذلك العهد أيضا أن أعظم ضرر يلحق بالتلاميذ لا يرجع الى استبعادهم الفطري ، ولكن يرجع الى سوء اختيار

الاساتذة وسوء طرف التعليم ، فقد كان معظم الاساتذة في تلك المدرسة الابتدائية (مدرسة الأقباط بطنطا) جماعة من انصاف الجهال الذين لم ينالوا اجازة في علم من العلوم واشتغلوا بتلك المهنة اضطرابا وفرارا من الفاقة ، أمثال أستاذ الانجليزية الذي قضى في تعليم الأطفال الصغار احدى خرافات « ايزوب » منذ أسهر ، وأستاذ الحساب الذي حتم على أولاد الخمس والست سنين حفظ جدول الضرب والا فليركعوا على الحجر ساعة أو ساعتين ، ومثل الشيخ الذي كان يجمع بين تلقين الحساب وأدب الطالب في حق أستاذه على الطريقة الآتية فيقول لفرقة التلاميذ : كم يكون مجموع تسعة وتسعة ؟ فيقولون : ثمانية عشر . فيقول لا ! سبعة عشر !! فيقولون : لا . فيقول : أنا حينئذ كاذب ؟ فيقولون : كلا نحن كاذبون ! ، وذلك خشية أن ينسبوا اليه الكذب ، ولا أدري أى الأمرين أعظم شأنا في نظر العلم . صدق الأرقام أو وصف الأستاذ الذي يخطئ تلاميذه عمدا بالكذب !

ومن الظلم الذي رأيته في تلك المدرسة عندما صمم شيخ اسمه أبو الشدائد أن يعاقبنى بالضرب مائة مرة على كفى لأننى ضحككت عندما سمعت للمرة الأولى لفظ « كان وأخواتها » فتنبهت في حاسة ادراك البكته ودهشت أن يكون للألفاظ أخوات كبنى آدم ، فنغذ الشيخ القاسى تهديده حتى ورمت يداى !

كانت فترة اقامتى في تلك المدرسة فترة سوداء مظلمة أظهر ما فيها الاضطهاد والفوضى وجهل الاساتذة والفروق الكبيرة بين عمر « سن » التلاميذ وتعلم اللغة القبطية على عريف اعمى يخطئ بعصاه رؤوس التلاميذ يخطئ عشواء والركوع على البلاط البارد في الشتاء لتقصير طفيف في استظهار جدول الضرب والسبب باللغة الفرنسية !

كنت فى الفترة الاولى التى انتهت بسن التاسعة خاملا فى كل شئ له مساس بالتعليم ، فلم احفظ القرآن ولا قواعد اللغة العربية ولا قواعد الحساب ، ولم اتفن الخطين العربى والافرنجى ، ولم اتفهم معنى الجغرافيا ، وقد حكم على جميع الاساتذة بالخيبة فى فروع العلوم كلها ولم يحسن بى الظن الا أستاذ « علم الاشياء » الذى قضى نصف عام فى وصف الحمار !!

لهد كان عقلى مضطربا لفقر الاساتذة فى طرق التعليم المتلى ، فلم يسعدنى الحظ فى تلك السنين الأولى بأستاذ يعرف ما هو التعليم ما عدا رجلا فاضلا ألفت به الأقدار على شاطئ تلك المدرسه كأنه بقايا سفينة غارقة ، كان هذا الأستاذ محمود عمر من المذهبيين الذين وصل اليهم شعاع من نور العلم الحديث قد سافر الى مؤتمر المستشرقين فى استوكهلم ، وقد ألف فى وصف رحلته كتابا وكذلك ألف كتابا فى الأمثال العامية وآخر فى المواويل وأوشك أن ينتهى من كتاب فى « علم الركة » ، فأقبلت على مؤلفات هذا الفاضل وقرأتها بمزيد السرور فكانت أول ما تغذى به خيالى المتعطش . قرأت فى كتبه وصف عواصم أوربا وعرفت أسماءها وأدركت وجود عالم وأقوام آخرين غير الذين أراهم فى السكة الجديدة ودرب الأثر وحارة الكنيسة وكفر اسكاروس ، وتلوت أمثال العوام وتفسيرها ومواضع الاستشهاد بها ، وحفظت بعض الموايل أو المواويل وأدركت معناها . وقد أيقنت بعد سنين أن هذا الأستاذ كان عالما بالفطرة وأخصائيا فيما يسمى عند الأفرنج « بالفولكلور » أى علم حياة الشعوب (١) ، ولكنه لم يجد من يشجعه أو يأخذ بناصره .

(١) للطى جمعة مجموعة مقالات فى الفولكلور جمعت فى كتاب عنوانه « محباح فى الفولكلور » ، طبعة أولى سنة ١٩٩٨ - ١٩٩٩ عن طريق مكتبة عالم الكتب ، ثم طبعة ثانية سنة ١٩٩٩ فى سلسلة مكتبة الدراسات الشعبية ، رقم ٣٤ ، الهيئة العامة لقصور الثقافة .

هذه السنوات العشر الأولى قضيتها في جهات تامة ومتحولات خائبة في سبيل ادراك مبادئ الانبياء ولكمي ثم اوفق الى بناء أثر من فك الخط ، ولم يثن شدة دوري عن انفسهم في انوار المدرسة راجعا الى غباء او عجز فطري ، ولئن كان نتيجة جهل الاساتذة وفوضى الحياة المدرسية وعدم ادراك المعهدين فيهم الطفل التي أصبحت في أوروبا تدور عليه ، مماثر نظريات التعليم منذ ظهور مدام مونتيوري الشهيرة .

أما الضرب في المدارس ، الضرب الموجه المؤلم للذاهب بالكرامة والمولد للأحقاد بين الأساتذة والتلاميذ ، فقد كان قاعدة عامة الى درجة احداث العاهات المستديمة كالصمم وفقد إحدى العينين ، وقد أسفرت المباحث الحديثة في التربية والتعليم عن خطأ هذه الطرق .

كل هذا وقع وجرى وحدث قبل بلوغى عشر سنوات . وفي ختام العشر تغير وتبدل في لمحة عين ، كل هذه الفوضى انتهت سنة ١٨٩٦ بدخول مدرسة ابتدائية حكومية ، وكان كل ما بذلته في الماضي في المكاتب والمدارس الحرة لم يعوض على الا تعليم السنة الأولى ، فبدأت بالسنة الثانية .

الحمد لله ! لقد نجونا من الفوضى العقلية وخرجنا من كهوف الظلم والجهل المنظم وودعنا المهلهلين والممزقين والجهلاء الذين لم يعرفوا قيمة الأمانة التي عهدت اليهم وهي عقول صغار التلاميذ وقلوبهم .

كانت مجموعة الأساتذة في المدرسة الأميرية أرقى من السابقين بمدرسة الأقباط ، ووسط التلاميذ أفضل من غيره ، ولكن كان بعض الأساتذة مصابين «بالساديزم» أي التلذذ بتعذيب التلاميذ على الرغم من تحريم الضرب ، فكان أحدهم يهيج أحيانا

على الشرفة، بأسرها فينساو حاملة الخرائط الجغرافية ويصوم بها ويجول ضارباً على الرأس والأوجه والأكتاف والأعناق كإبطال الحروب حتى يفر الجميع من وجهه ويستغيثوا بنظر المدرسة ، وتحملنا سفالة اخلاق بعض التلاميذ ، وتحملنا امارة المفتشين الأجانب وشهدنا ارتجاف النظر والأساندة عند حضورهم ، ولكن وقع هذه المتاعب كان أخف على أنفسنا من حوادث المدارس السابقة .

في أول السنة الحادية عشرة من عمري شعرت بالتبعة والمسئولية وأدركت أن الحياة جد ونظام وأن عهد الطفولة الذي لم أخرج به الا بسنة واحدة من التعليم قد انتهى فعلا وحكما ، واتجهت اتجاها آخر عندما وجدت فراغا كبيرا للقراءة في غير كتب المدرسة ، فمن الشهر الأول اقتنيت كتبا كثيرة ، وبدأت أقرأ هذه الكتب بغير نظام ولا ترتيب وأسهر الليل فيها بعد اتمام واجب المدرسة وكان تافها بالنسبة لما في هذه الأسفار الضخمة ، وعندئذ فكرت في تكوين مكتبة ، وشعرت بميل لدراسة أخبار الرجال التي عرفت بعد أنها « التراجم » ولا سيما ما كان منها مكتوبا باقلام أصحابها .

ثم ملت الى ما له علاقة بالفكر والعقل والروح والموت والبعث ، ولم تكن عندي فكرة خاصة بالدين الا من ثلاثة أشياء ، أقارب لى ذكور واناث يقيمون الصلاة يصومون ويحتفلون بمولد النبي و ليلة القدر ، وقارىء يتلو القرآن فى البيت فى كل يوم يقرأ ربعا أو عشرة أو سورة صغيرة، وحفظ بعض السور (جزء عم وتبارك) فى المدرسة ، ولم يحاول الأساندة تعليم الدين . . كأنهم كانوا ينتحاشون - تنفيذنا لبعض الأوامر - أن يعرضوا علينا بضاعتهم ، وكان جلهم من متخرجى الأزهر ودار العلوم .

لم أسمع - وأيم الحق - كلمة إيمان أو عقيدة من أحدهم . . .
 لم يقولوا ولم ينطقوا طسوال ثمانى سنوات قضيتها فى التعليم
 الابتدائى والثانوى كلمة فى الوطن أو الدين أو الأخلاق أو التاريخ
 الصحيح ، ولم يحاول أحدهم - عفا الله عنهم وطيب ثرى من مات
 منهم - أن يرفع الغشاوة عن أبصارنا ولو تلميحاً ، كانوا يخافون
 شبح دنلوب والمفتشين الانجليز والنظار والمنافقين والدسائسين
 والجواسيس ، فقمعوا بالمرتببات والثياب الجديدة والطرايبتى
 الحمراء عن أداء الواجب نحو التلاميذ ، وبعد فترة الشهادة
 الابتدائية التى قطعتها بسرعة ، فبروا دروس التاريخ المنصرى
 القديم وبدأوا تاريخ الكنيسة الكاثوليكية والبروتستانتية وأوربا
 فى القرون الوسطى والحروب الصليبية ، وعلمونا العلوم كلها
 بالانجليزية من رياضيات وكيمياء وطبيعة الى جغرافيا وتاريخ ولم
 ينقص الا أن يعلمونا اللغة العربية بالانجليزية !!

وكان المعين على هذا البلاء والغدر دوجلاس دنلوب ويعقوب
 أرتين وجميع نظار المعارف أمثال فخرى باشا ، فكان من المستحيل
 على تلميذ أن ينبغ فى اللغة العربية التى أعان رجالها على الحط من
 قدرها بالكتب الزرية الحقيمة التى ألفوها فى النحو والصرف
 والبلاغة ، فكان تعليمنا يؤهلنا للعبودية للأجانب ويحصر أرزاق
 التلاميذ بين أيدي أساتذتهم من الانجليز فى دواوين الحكومة .

الحق أننا فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر وأوائل
 القرن العشرين الى سنة ١٩٠٨ كنا مسرعين الى الدمار العقلى
 بخطوات واسعة ، ولم ينقذنا الا الله بحادثة دنشواى ، فبالها من
 نعمة فى صورة نقمة ، وبالها من موقعة دموية رن فيها صوت
 الكماء رنيناً موقظاً منبهاً ، ثم صار مطرباً للديدا .

اننى لا انكر فضل اللغات الأجنبية على التعليم ، ولبن اندر
الشروع فى قتل اللغة العربية والقضاء على التاريخ القومى وتعويد
التلاميذ على العبودية للابجيين من النظر والاسانذة وتعليمهم
الخضوع من سن الرابعة عشرة الى العشرين .

اقول اننى قضيت فى تلك المدرسة الاميرية من سنة ١٨٩٦
حتى سنة ١٩٠٠ ، فتعلمت فيها بالتمسك بالعلم والمحافظة أكثر
مما تعلمت من علوم المدرسة ، اذ ليس فى العلوم المدرسية شئ
جدى يفاد ، فبرامجها محدودة ومنهجها مقصورة على القشور ،
والأخلاق فيها لا تقوم والدين فيها لا يعلم ، والسلاميد متروكون
فوضى لأهلهم واجتهادهم ، رغبة الفتيات حفظ النظام بين
جدرانها واداء الامتحانات بما يشرف اسم المدرسة ، ولكن الذى
تعلمته من المراقبة وفهم الطباع وتعليل الوقائع وضرورة تعديل
نظام التعليم كان أكثر .

ولكن اقول وأشهد أن مجموعة الأساتذة فى مدرسة ابتدائية
ريفية فى أواخر القرن الماضى كانت أرقى من مجموعة أساتذة فى
مدرسة عليا أو جامعة فى أواسط هذا القرن العشرين ، كانوا
رجالا كل الرجال وكانوا أهل مروءة ونخوة بين بعضهم بعضا
وبينهم وبين تلاميذهم ، كانوا ينظرون الى أنفسهم نظرة المعلم
المحترم والينا نظرة الآباء الى الأبناء ، كانوا أساتذة راشدين
مرشدين ، وكان المشايخ منهم متدينين والأفندية مستقيمين .

وأنا هنا لا أشير الى أحد ولا أعتقد أحدا من أساتذة هذا الجيل
الحاضر ، فلم أعاشهم ولا أعرفهم الا من آثارهم وتربية أولاد هذا
الجيل ، اننى مع احترامى لبعض القائمين على أمورهم فى المدارس
والكليات ، أندب حظ التعليم والثقافة والأخلاق ، ولا يخالفنى
فى ذلك حتى الرؤساء أنفسهم .

لقد تحول التيار من نزعه الخير المعنوى الى الرعيه البسيدة
فى المال والوظيفه و « العلاقات » و « الدرجات » و « المرتبات » ،
وتحكم الحسد فى النفوس والتطلع الى العير ، واتسعت ابواب
المطامع وانصرفت الأفكار عن العلم الى النفع الداتى ، وعميت القلوب
والاعين عن الواجب ، وتضخمت كلمه « الحفوف المنسببه »
والفوائد المرتقبة ، وطغت المحسوبية على كل اعتبار حتى لهجت
اللسنة بأن انقطاع دابر المراقبين الأجانب قضى على النظام ورجع
القهرى بالتعليم والأخلاق ، وأن وزارة المعارف لا تصلح الا بإدارة
حازمة غربية عن موظفيها ، وساءت النتائج الختامية والوسطى ،
وأصبحت الامتحانات المزدوجة (الدور الاول والدور الثانى) بلاء
ومهازل وعمت البلوى وضربت الفوضى أطنابها ، هذا ما يقال
وكثير منه صحيح .

والدليل على ذلك ما تراه من الفروق بين متخرجى هذا الجيل
ومتخرجى الجيل السابق عليه مثل جيلنا ، وليس المجال مجال
تفاخر ومقارنة ، بل مجال بكاء وعويل على مستقبل البلاد !

لم نعرف الخمر ولا السموم البهيماء والسوداء ولا اللهو
ولا الغزل ولا البطالة ، ولم نعرف غش الآباء وخداع الثعالبات ،
ولم نعرف الرسوب المتكرر ولا الرحلات المضللة ، ولم نعرف فساد
الأخلاق ولا فضائح الأخلاق ولا المجاهاة بالأهل والأقارب ، وكذلك
كانت مدارس البنات نماذج للفضيلة .

لم نعرف قراءة الروايات الغرامية ولا التردد على دور الصور
المتحركة ولا الحانات ولا التمسك فى أركان ونواصى الشوارع
ولا دخول أقسام البوليس ولا خطف حقائق السيدات ، بل كنا
نلقى أساتذتنا فى الطريق فنخجل ونحييهم ونسير فى طريقنا
متسحيين ، ولم نمازحهم ولم يمازحونا .

حتى هؤلاء البسطاء فى مدرسة الاقباط الذين قسبت قلوب بعضهم لا نزال نحمل لهم تجلة واحتراما ، لأننى عرفت بالخبرة ان شدة الجانِبِ وغطرسه المعلم وجفاء طبيعه أسلم عاقبه فى حياة التلميذ من لين العريكة والتساهل ودمانة الخلق ، لأنها مغرية بالوذيلة وهذا كلام يعرفه كل خبير بالأخلاق .

فالى هؤلاء جميعا ، أحياء وأمواتا والى أولادهم وأحفادهم ابعث أطيب تحياتى وأعمق عرفانى بالجميل ، واعتذارى عن سوء التقدير أو الخطأ فى التعبير فيما كتبتة بنية حسنة وأودع هذه الفترة من الحياة التى كنا نظنها تعذيبا وهى منطوية على الرحمة والهناء ، ولكننا لم ندركها لقصور عقولنا بحكم الشباب .

كنت فى تلك الفترة السابقة على انتقالى الى القاهرة لالتهاق بالمدرسة الخديوية ، أتردد على بيئتين ، الأولى بيئة بعض الطلاب فى المدارس الأجنبية ومعظمهم من السوريين والروم وقلة منهم مصريون لئن تحدثت فى الأدب ، وكان بينهم بعض المصريين كالمرحوم فؤاد سليم (*) ومحمد بهجت ، وكان أولهما شاعرا والشانى اشتغل سكرتيرا خاصا للمرحوم سعد باشا زغلول فى وزارة المعارف .

(١) فؤاد سليم : ولد بطنطا فى ١٨ ديسمبر ١٨٨٣ . جركسى الاصل . كان يجيد الفرنسية والانجليزية واليونانية وكان شاعرا ويجيد العزف على بعض الآلات الموسيقية ، الى جانب انه رسام وخطيب : عرب روايات تمثيلية مثل لوكريس بورجيا ومارى تيدور ، والكابورال سيمون ، وروايات قصصية مثل وفاء الزوجين وعشيق الملك . ومثل فى فرقة جورج ابيض روايات كثيرة منها رواية نابليون ورواية لويس الحادى عشر وغيرها .

والى هذه البيئة فى هذه الفترة المبكرة يرجع كثير من معرفتى بتاريخ الثورة الفرنسية وترجمة نابليون وشعر هيجو وكتاب البؤساء ، فلما شئت الأقدار بعد ذلك بثمانى سنوات أن أقصد الى فرنسا لاتمام دراسة الحقوق ، لم أجد نفسى غريبا كل الاغتراب عن الأفكار والمبادئ والمعقولية الفرنسية وان كنت أجهل اللغة الفرنسية جهلا تاما مطبقا .

اما البيئة الثانية فكانت مزيجاً من المشايخ والافندية الذين يجلسون بالصيدليات وهى مجالس وسط بين المنازل والمقاهى ، وبعضهم كانوا ضباطاً حضروا مواقع الثورة العربية يذكرون أسماء الخونة ويصفون معركة التل الكبير وصف شاهد عيان . كنا نتحدث فى السياسة وفى حرب البوير وحروب السودان لقرب عهدنا بها وحروب تركيا واليونان وسكة حديد الحجاز وعودة عرابى من منفاه ونعجب لقسوة شوقى عليه بقصيدته البائية :

صغار فى الذهاب وفى الاياب
أهذا كل شأنك يا عرابى !

ونقرأ العينية الكبرى التى حيا بها الكاظمى وصوله أرض مصر ونحضر مولد العارف بالله سيدى أحمد البدوى ونشهد مركب « ركة الخليفة » و « ركة الحاكم » ويحار ذهنى فى الدروع والخوذ التى يلبسها بعض البؤساء ويسيرون بها فى مقدمة المركب وهم مقيدون بالسلاسل رمزا الى أن البدوى جلب الأسير من بلاده ، فلا أدري ان كان أسير الروم فى الحرب أو أسيرنا من البلد النائى ، ونختتم مناقشتنا بأكل الحلوى والحمص ثم نتمشى على ضفاف الجعفرية وترعة القاصد متخيلين أن بلدنا تباهى فلورنسا وبيزا فى فخامتها وجمال مناظرها !

- ٣ -

التعليم الثانوى

أول يوم فى المدرسة الخديوية الثانوية

فى السنة الأولى من القرن العشرين ختمت دراستى الابتدائية واتفقت آراء اهلى على مواصلة تعليمى الى أن أصل الى مدرسة عليا ، ولم تتفق هذه الآراء الا بعد جهاد طويل من جهتى ، فان والدتى المسكينة المطلقة من أبى من بضع سنين لشقاق دب بينهما ، كانت كثيرة الصمت والصبر ، وكانت كذلك كثيرة الامل فى ولدها الذى كانت تعزه وترجو بكل قواها ومن اعماق قلبها أن يصير طبيبا ، ولم يكن لاختيار هذه المهنة الشريفة من سبب لدى تلك الوالدة المسكينة سوى كونها مريضة ولم ينجح الطبيب فى علاجها ، فكانت ترجو أن يصير ولدها طبيبا ليشفيها .

فلما صبح العزم على تنفيذ هذا المشروع ، طلبوا الى قريب لهم فى القاهرة أن يصحبني فى تقديم طلبى الى المدرسة . ولا تسبل عن الانفعالات الكثيرة التى جاشت بنفسى عندما وطئت قدماى لأول مرة فناء ذلك المعهد العلمى ، فان كل شئ فيه كان يؤثر فى نفسى أثرا قويا جميلا ، فمن فناء تلك الحديقة الكبيرة الى النافورة القائمة فى وسط الرواق المؤدى الى غرف الدرس ، تلك الغرف التى كانت تبدو لعينى مع شغفى بالعلم كأنها هياكل تعبد فيها هنرفا آلهة الحكمة وأن نوافذها المطلة على الحديقة تكاد تطل منها رؤوس الفلاسفة والشعراء .

ولا غرابة فى وجود تلك العواطف فى نفس صبى عمره
اذ ذاك أربع عشرة سنة دخل لأول مرة حظيرة مدرسة كبيرة مشهورة
هى المدرسة الخديوية الثانوية بدرب الجمايز .

وفى يوم من أيام شهر سبتمبر سنة ١٩٠٠ ذهبت الى دار
المدرسة حيث امتحنى الأساتذة امتحان الدخول ، وفى اليوم ذاته
فحص طبيب شهير بطب العيون كافة التلاميذ المائلين لى فى
الصبا ، ويظهر أن الامتحان والفحص لم يكونا الا مراعاة للنظام ،
فان جميع التلاميذ قبلوا فى الامتحان وفى فحص الطبيب .

ان لأول أيام الدراسة فى مدرسته جديدة تأثيرا عظيما فى
أذهان بعض التلاميذ وقد لا يزول مهما تقدموا فى السن ومهما
شاهدوا من الحوادث وتتابعت الأيام بأحوالها المتقلبة ، وأظن هذه
القوة فى البقاء خاصة بأيام آخر فى حياة الناس لها ما لليوم الأول
بالمدرسة من السرور والدهشة والجمال أو الحزن والألم كيوم
العرس وموت الوالدين ، ويمكن القول أيضا بأن بعض النفوس
— لا كل النفوس — هى القادرة على الاحتفاظ بالذكرى بالقوة التى
ذكرتها لشدة احساسها أو ضعفها وعجزها عن النسيان الذى هو
أعظم شئ فى الحياة ، ولعله أعظم نعمة .

ولا شك فى أن يوم المدرسة الأول كان من هذه الأيام ،
ونفسى كانت من تلك النفوس .

وبالجملة فان « يوم المدرسة » يوم تجمع فيه الأقدار شبانا
وفتيانا من كل فج وعلى مختلف الدرجات من حيث الذكاء وعكسه
وسمو الأخلاق وضده ، ولكن الأقدار جمعتهم بصفة دائمة
وأرغمتهم على أن يصطخبوا ويتنافسوا ويتباغضوا أو يتصادقوا

فى ميدان الحياة الاول الجميل الفسيفساج المحفوظ من الجانبين
بأشجار باسقة تخفى ما أمامه وما فوقه ، ذلك الميدان الذى يسمى
بأيام المدرسة !

فى تلك الفترة قابلت المرحوم الشيخ عبد المحسن الكاظمى،
لقينته مصادفة فى اجزخانة وسمعت لهجته غير المصرية فأنصت
اليه فسألنى عن اسمى ، ثم سألنى ان كنت قرأت قصيدته العينية
وهى التى حيا بها مصر عند وصوله الى ثغر السويس ونشرها فى
صدر المؤيد ، فأخبرته بأننى قرأتها ولكننى لا أحفظها ، وافترقنا
ولم أره بعد ذلك الا فى القاهرة بعد ثلاث سنين فى صحبة
المرحوم حافظ ابراهيم (١) .

وسمعت بمعرض باريس فشغلت بالسفر الى باريس
وكانت سنى أربع عشرة سنة ولم تكن لى أية فرصة لمثل هذه
الرحلة ، ولكن كان اعتقادى حاسما جازما بأننى لابد مسافر الى
باريس هذه .

وفى تلك الفترة لم يعجبنى أن أقتصر على لغة أجنبية واحدة
فشاوركت بعض تلاميذ مدرسة الفريز فى تعلم مبادئ الفرنسية
فى كتاب « ماشويل » ، ووصل الى يدى كتاب « النقش فى
الحجر » للماسوف عليه كرونوليوس فأتدرك ومجانى الأدب
بكامل اجزائه ، وكانت هذه النعم كلها محض مصادفة ولم أبذل
جهودا فى الحصول عليها .

(١) للوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعة بالكاظمى ، راجع
كتاب د محمد لطفى جمعة وهؤلاء الاعلام ، تأليف راجح لطفى جمعة ، مطبعة
الوزان ، سنة ١٩٩١ ، ص ١٣١ - ١٤١ .

وكننت في سنة ١٨٩٩ قد سافرت الى صفيط الملوك احدي
قرى البحيرة واقمت في بيت أحد أصهارى حتى مللت الإقامة في
الريف وعزمت على التمارض للفرار لأنه كان منتظرا أن اقيم
ثلاثة أشهر . . . ولكن حدث أمر فتننى واستبقانى وسمر أقدامى
بأمراس كتان الى جنادل تلك الحياة التي مللتها ، وهذا الشئ
هو الغرفة المهجورة وكانت في آخر البيت مظلمة مغلقة وقد
فقد مفتاحها ، فصممت على فتحها فوجدت بها كنزا ثميننا أغلى
مما وجد علاء الدين ، كانت الغرفة ملآنة من أرضها الى سقفها
بالكتب والجرائد منذ عهد الوالد الكبير . . . فأقبلت عليها
وأخذت اذنا بالنظر فيها فلم يكتفوا بالاذن لى بل وهبوني اياها
وأباحوا لى نقل ما شئت منها لأنها عديمة القيمة والفائدة لديهم .

فما كان أسعدنى فى ذلك اليوم ! لقد تغير كل شئ فى
نظرى وأصبحت العزبة روضة من الجنة ونسيت نشاط الحقول
وركوب الخيل وأطعمة الريف الدسمة وخضرة الحقول النضرة
ونأى الشاعر وأنين الساقية واتجهت الى الغرفة المسحورة .

كانت فيها كتب وصحف من عام ١٨٨٦ تاريخ مولدى
ولا سيما الأهرام والبصير ولسان العرب والمقتطف .

أما الكتب العربية الشئ تصيدت أسماءها ونرصدت حتى
اشتريتها وتكبدت المشقات حتى قرأتها فنام تتجاوز فى سن
المراهقة خمسة أو ستة هى تهذيب الأخلاق لمسكويه والعقد
الفريد لابن عبد ربه ومقدمة ابن خلدون وكليلة ودمنة ولزوميات
المهرى ، وبدأت اتصل بالعقول العالمية الكبرى ، وأسدى الى
صديق فضلا كبيرا بتاريخ ابن رشد وابن سينا وبكتاب صغير
فى المنطق وآخر فى الفلك .

يا لها من ليال سعيدة تلك التي عرفت فيها اسم الفلسفة
وموضوعها وتاريخ بعض رجائها في الشرق والمغرب .

ولكن لغت نظري في المدرسه شعر شمسبير وبعض قصصه
وكتاب في فلسفه افلاطون واخبار عن داروين ، فودعت دروس
المدرسه وجعلت لها اضييق حيز وعكفت على مجله المجلات الانجليزيه
وعلى تاريخ الاسلام بتلك اللغه من نايف بول ، وزارنا الدوارد
براون وعلمنا علاقته بالشيوخ محمد عبده (١) ، وسمعنا باسم
الافغانى فتحررت وحدى دون غيرى من التلاميذ .

وبدا خوجات الانجليز يناصبونى العداء ويضطهدونى
ويوقعون على مختلف العقوبات مثل غداء الخبز بغير ادام ظهرا
وكنت طبعا لا آكله ، وجمباز الصباح فى الساعة السادسة مساء
والحجز بعد ظهر الخميس ولم اكن بعد تكلمت فى حب الوطن
أو التعلق بالدين ، ولكن هؤلاء الجواسيس الماكرين يدركون الامور
فى بواكيرها ويتقون الحوادث قبل الحاجة لعلاجها وكانوا ينفذون
خططا مرسومة باحكام .

ومن كل هذا الجيل الذى عاصرني لم يتحرر أحد غيرى لانى
عانت أهلى وأعرضت عن كل نصيح ولم أقبل الخضوع مطلقا ،
ولم يثر أحد من التلاميذ وقبلوا كل المظالم كأنها أمور واقعة لا مفر
منها تحت تأثير آبائهم الذين كان معظمهم من الموظفين أو من
الفلاحين الخاضعين للموظفين .

(١) مستر ادوارد براون أستاذ اللغات الشرقية بجامعة كامبردج وقد حضر
لزيارة مصر سنة ١٩٠٢ واقترح تدريس اللغة العربية فى جامعة كامبردج ووافق
كرور على ذلك ، وكان يدرس اللغة العربية بها فى حين كان مرجليوث يقوم
بتدريسها فى جامعة اكسفورد .

كان الكلام عن الوطن أمرا مجهولا لديهم ، كل هذا بعد الثورة العربية بعشر أو خمس عشرة سنة فقط ، وكان معنا بالمدرسة الخديوية الثانوية على فؤاد طلبة أحد أبناء تلك الثورة ، خاضعا وديعا محبوبا من الانجليز لأنه ولد ونشأ في سيلان وتعلم لغتهم ، لقد عرف الانجليز كيف يسيطرون على عقول الشباب في الخديوية والتوفيقية ورأس التين ، ولم تكن هناك مدارس ثانوية سواها وكبلونا بسلاسل من الجهل والخوف .

ولم يشر أحد من الأساتذة سوى اثنين هما المرحومان طنطاوى جوهرى وعلى فوزى ، الأول شذ فى تعليمه فهجر النحو والصرف والبلاغة وأخذ يلقي علينا دروسا من احياء العلوم للغزالي والرسالة القشيرية ، والثانى ثار لظلمه فى مرتبه وارهاقه فى العمل ، فتحملوا الأول بعد أن أنذروه وتهددوه ، وأغدقوا على الثانى المال ورقوه ، وأما البقية فكانت ترعى برسيم الحياة الحكومية فى أمان !

فأى خير كان ينتظر من هؤلاء حيال عصاة قوية متينة معترزة بسلطتها الجنسية والسياسية فى البلاد ؟

بئست هذه الفترة ! التفت حولى فلا أجد واحدا من رفقاء صباى تحرر من أغلال ماضيه وقد خرجوا جميعا كأقمار السكر على وتيرة واحدة ، وكانوا ينظرون الى التلميذ الذى يخالفهم فى الفكر أو رأى أو العزيمة كما تنظر الغربان الى الطاووس يمشى

(١) للموقف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعة بالشيخ طنطاوى جوهرى ، راجع كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الاعلام » ، المرجع السابق .
 من ٩٤ - ١٠٢ . وعن على فوزى كتاب لطفى جمعة « قطرة من مداد لاعلم المتعاصرين والأنداد » ، من ١٧٤ - ١٨٠ . عالم الكتب ، سنة ١٩٩٨ .

مستقيما لا اعوجاج في خطواته ، ليس هذا فحسب ، بل لقد قتلت هذه البيئة عاطفتى الثقة والصدقة بين الأولاد وقسمتهم شيئا وطبقات .

لم تفلح الحرية أو المبادئ العليا أو الكفاح القومى أو العلم العالى أو الاكتشاف المنفى أو الأدب الرفيع أو الفنون الجميلة أن تجذب أحدا من أبناء هذا العصر ، لأن قوة المحتلين وضعف الخاضعين تضافرا على افساد عقول مطبوعة بفطرتها على الانانية وحب المال والشهوات والنساء والمقامرة والخمر والحسد والأحقاد ، وأصف الى هذا كله اختلاط الأجناس أجدادا وأولادا وأحفادا ، وأصف اليه أيضا ديننا مهملًا وفضيلة مزدراة ورذيلة ممجدة وطبقة محدثة النعمة ومحدثة السلطان ، وأجانب ودخلاء ، ومثل سفلى فى الحياة الخاصة والعامة ، ينتج حاصل الجمع أو الضرب تلك الأصفار على الأشمال التى تكونت منها الطبقة المتعلمة ، ومن هؤلاء مخالقي المحسوبية والوساطات والاستثناءات ، ومن هؤلاء الذين نبذوا النبغاء والنبهاء أو أعانوا على نبذهم واضطهادهم وحسدوهم ليسودوا وحدهم دون سواهم ، فهبط مستوى الأمة وتمت غاية الفاتح المستعمر !

- ٤ -

دوجلاس دنلوب وسياسة التعليم فى مصر

لم تكن المدارس الثانوية فى أوائل القرن العشرين الا أداة من أدوات الحكم البريطانى فى مصر ، غايتها تخريج طبقة من

الأفندية ليشغلوا الوظائف الصغرى فى دواوين الحكومة وليعملوا
فى طاعة وهدوء تحت اشراف السادة الانجليز الذين يشغلون
المناصب العليا الادارية على مثال الحكم المندى الهندى .

وقد حشدوا لأجل اتمام هذا العمل جيشا من النساب
الانجليز المتخرجين حديثا فى جامعتى اكسفورد وكمبردج بدرجة
بكالوريوس آداب ، يعينونهم أساتذة للمدارس الثانوية ومعظمهم
يدرسون علوما غير التى تخصصوا لها ! ، وغايتهم من ذلك وضع
كل شىء فى أيدي غير الأكفاء حتى تاتى النتائج منكوسة ، وقد
أثمرت هذه الغاية فكان معظم الذين تخرجوا فى ذلك العهد جهالا
ومعدومي الكفاية والثقافة .

وقد وضعت وزارة المعارف تحت سلطة رجل واحد هو
مستر دوجلاس دنلوب (١) وما زال يدرس ويترقى ويجمع الأمر
بين يديه . ويستخدم نفوذ الاستعمار فى قتل النفوس المصرية حتى
أصبح هو الكل فى الكل فى وزارة المعارف ونجح فى تكوين بطانة
من الانجليز والمصريين يسبحون بحمده وينفذون جميع أوامره
وينتهون عن سائر نواحيه ويسسرون وزارة المعارف ومدارسها
بحسب اشارته ، فحارب اللغة العربية وآدابها واضطهد المشايخ
المخلصين وصار هو الحاكم بأمره ، ولم يكن وكيل الوزارة فى
ذلك العهد الا رجلا من القش كما أن الوزير نفسه كان صنما
مصابا بالصمم والبكم اللهم الا القليلون مثل سعد زغلول باشا .

(١) كان دوجلاس دنلوب مدرسا للغة الانجليزية بالمدرسة الخديوية الثانوية
ثم أصبح مفتيا عاما لجميع مدارس نظارة المعارف فى عهد الاحتلال البريطانى
لمصر ، وفى سنة ١٩٠٦ عين مستشارا لنظارة المعارف فبلغ ذروة السلطة
والنفوذ .

والعجيب أن دنلوب قد أخذ الوقت الكافي لتعميد مخطئه ولم يتعرض له أحد بأكثر من انتقاد الجرائد السيارة ، وذلك بالطبع لعدم وجود البرلمان وكان يشاع في كل صيف أنه سيذهب إلى حيث ألفت رحلها أم قشعم وأنه لن يعود وأنه استقال لأنه مسلول أو مصدور ، ولكن عبثا كان انتظار تحقيق هذا الحلم ، وكان دائما يعود في شهر أكتوبر على رأس قافلة من الخواجات وقد انتقاهم بنفسه وهم في غاية البساطة وسلامة النية ، ثم لا يلبثون أن ينقلبوا أفاعى وأعداء لنا يذلوننا ويعلموننا الصغار ونحن في ريعان الفتوة وفي سن الحماسة الحققة ، فيطفئون جذوتها بالتهديد والوعيد والاحتقار ، فقد وصفونا في مكاتبتنا بأننا أمة نصف متحضرة وداسوا على كل عاطفة وطنية .

كذا عمد دنلوب وعصبيته إلى اضطهاد كل طالب أو تلميذ يظهر عاطفة أو ميلا نحو الاجتماع أو تأليف القلوب أو الهنداء باسم الوطن ، وهكذا بدأ نظام فظيع من التجسس في المدارس وصار نجباء الطلاب يطردون ويطاردون ويحرمون من دخول الامتحانات العامة ليكونوا مثالا لغيرهم وليكون في عاقبتهم موعظة وعبرة !

كذلك كل أستاذ مصرى كان لا يباح له أن يذكر عن مصر وتاريخها ومجدها شيئا . ولا يباح له أن يقرأ جريدة أو يصرح لتلاميذ براءة جريدة ، وتاريخ مصر والاسلام نفسه كان يدرس باللغة الانجليزية في بضع صفحات أولها « ان مصر لم تحكم نفسها بنفسها أبدا » ، وآخرها « وقد هزم الجيش المصرى في التل الكبير وذبح الجنود المصريون في ليلة ١٤ سبتمبر التي كانت قمريه كما تذبج الخراف وفر قائدهم عرابى باشا ٠٠٠ » .

وهكذا كان تعليم كل ما له مساس بالوطن والملة .

فكيف نؤمل أن تنتج هذه الأجيال رجالا كالفلاسفة والمصلحين
والمكتشفين والمخترعين والمشرعين وكبار الكتاب والشعراء ؟

كيف للمعاقل الكامل أو العالم أن ينتظر غير هذه النتيجة من
الحكم الأجنبي الذي استعان ببقاياها وأذئاب الحكم السابقين من
ترك وأرمن وشراكسة والبانين ومماليك ليكونوا واسطة بينه
وبين الشعب المسكين ؟

لقد كان عند الأمة الغالبة اختبار طويل من التاريخ ومن حكم
الأمم العربية والشرقية فرأوا أن الأمم تحكم بطريقتين ، طريقة
العنف الملجم وطريقة اللطف المسمم .

أما الأولى فباستخدام الجيش والبوليس وهذه قل أن يلجأوا
إليها إلا في الضرورة القصوى .

وهناك الطريقة الأخرى اللطف المسمم المنطوى على الظلم
المنظم وهنا في مصر الأرض خصيبة جدا وقابلة لزراعة هذا النوع ،
لأن الأمة في مجموعها محبة لذاتها منقسمة على نفسها متزاحمة
بالمناكب على المناصب ، متفانية في عبادة المال والشهوات ، باقية
على الوثنية الأولى من تمجيد أصنام الأشخاص الذين يقضون
الحاجات .

لقد جعل كرومر وشيعته برامج التعليم مثالا يحتذى للتوافه
والسفاسف ، وقيدوا التعليم بالشهادات الحكومية التي لا تبسح
سواها دخول الوظائف ، وحاربوا التعليم الحر والمهن الحرة
ليقتلوا الاستقلال في العمل ويخنقوا الشوبغ في مهده .

وهكذا ضمن الانجليز الجهل للتلاميذ وحددوا المستقبل
لطانين منهم وقفلوا بابه فى وجوه المستقلين والنوابغ .

ولما فشا نظام المستشارين الانجليز ، قسموا بينهم رجال
المستقبل فقالوا هؤلاء الباشوات المصريون صنيعة فلان المستشار
وهؤلاء صنيعة فلان، وتبارى كل فريق فى تسييد (من السيادة)
سياسة صاحبه ومولاه ، وبعبارة أخرى خلق فى مصر نظام جديد
من الولاء كالولاء العربى القديم بين الأمراء والتابعين ، وانتقلت
الصنيعة من الانتساب الى الأشراف والأمراء والزعماء والقواد الى
الانتساب الى المفتشين والمستشارين .

وقد جعل دوجلاس دنلوب لنفسه جيتا جرارا من هؤلاء
الصنائع فى نظارة المعارف وبشه فى حنايا المدارس والمعاهد
والدواوين وبعت منهم جواسيس وأرصادا وألزمهم بكتابة التقارير
اليه فى الليل والنهار .

هذا هو الوسيط الذى تربى فيه رجال المستقبل وأمل الجيل
وذخيرة مصر ورجاء الأمة وذخر الوطن .

هذه المحنة التى عانىتها فى صغرى وفى مقتبل عمرى وأوان
نضجى وشدة شوقى الى المعرفة ، كابدت فيها الحرمان ، لأن
الحياة العقلية مفقودة والنظام فى مصر لم يكن معدا لأمثالى أو أن
أصحابه لم يعملوا لنا حسابا ، ولكن كان الحساب لطبقة الأفندية
والموظفين الهادئين الذين لا يتطلعون ولا يسألون ولكن يعيشون
ويترقون ثم يحاولون على المعاش مكرمين معززين وقد شبعوا من المال
والسلطة وكل من فتح منهم عينه ليرى أو فتح فمه ليتكلم وجب
انذاره وتخويقه ثم تحذيره ثم حرمانه وطرده .

— ٥ —

ذكريات المدرسة الخديوية

قرأنا في المدرسة الثانوية قشور العلوم لأن التعليم في أوروبا يمتد في الثانوى الى ست أو سبع سنوات ، بينما كان في مصر خمس سنوات ثم صار أربعاً فتلاتاً ، وقد حذفت من مناهج التعليم علوم كثيرة كانت تنير العقول وتعد للتعليم العالي ، ولكن أفلت من هذه القشور رغم أنف المعلمين بعض مبادئ الحق والحرية في كتب المطالعة أو في دروس التاريخ أو في قصائد الشعراء ، فكانت دليلاً لمثل من محبى الاستطلاع والاطلاع .

وهذا الأمر الذى كان يخشاه المدرسون والنظار والمفكشرون ، ولذا منعوا قراءة الكتب غير المدرسية وحرموا مطالعة الصحف السياسية ، وابتدعوا جريدة للمدرسة باسم « المدرسة » باللغة الانجليزية ، وجعل الانجليز ساعة في كل ثلاثة أشهر للخطابة تمت اشراف أستاذ انجليزى يراقبها ويعد موضوعها ويفهم مراميها .

لقد عبث اخواننا في البشرية من شاطئ المانش وبحر الشمال بمقدرات هذه الأمة عبثاً شديداً ، وشاءت الأقدار أن تكتم أفواهنا في الحروب العظمى ، وشاءت الأقدار التعمسة أيضاً أن تتطور الدنيا لا فى سبيل الحرية والخير والمساواة ، بل فى سبيل الطغيان والقوة المادية الغاشمة ، وصارت السيادة للقوة والغلبة والفظافة ، وذهبت المثل العليا واندثرت الآمال وأصبحنا ننتظر المستقبل :

الا أيها الليل الطويل الا انجلي

بصبح ، وما الاصبحاك منك بأمثل

بإجماله كانت فترة التعليم الثانوي بالنسبة لى ولأمشالى فى أوائل القرن العشرين محنة ، وإن نال احد منا تسييما من المعرفه فبمضى جهده وسمعته وشوقه واستعدادده ، أما الاخرون ، وكان معظمهم من الريف ، فكانوا يقبلون على التعليم المدرسى بنية أن يأخذوا شهادة ليتوظفوا بها ، وقد نجح كثير منهم وصاروا فى الحكومة باشوات وبكوات وأفندية وهم فى غاية الغفلة من الناحية السياسية والقومية والثقافية ، وتراهم الآن كما كانوا من قبل يدافعون عن الحكم القائم الذى صاروا بفضل كرومر وجورست وكتشنر وماكسويل من عباده ، ولم يكن ينتظر غير ذلك .

وبينما كان أفق تفكيرى يتسع ونفسى تتطلع الى العلم الصحيح والمعرفة الحققة والأخلاق العالية والمبادئ السامية ، كنت أختنق فى الواقع وأشعر بالضيق ، وهذه هى أعز وأعلى سنوات الشباب ذهبت هباء لو لم ألتقف وألتقط وأتصيد الكتب والمعلومات وأدون يقدر ما أستطيع لأن نفسى كانت منذ ذلك العهد تأبى أن أتم حياتى كما يتمها زملائى القادمون من الريف أو أبناء أعيان العاصمة الذين جعلوا التعليم جزءا من الحياة مع أن الحياة يجب أن تكون جزءا من التعليم .

لقد كنت غير مفهوم من التلاميذ ولكن كان لى نخبة من الأصدقاء الذين جربتهم واختبرتهم أمثال أحمد مختار بخيت ومحمد المنجورى وإبراهيم رمزى (١) وعلى مؤاد طلبه وحسن نشأت وحسن أنور وعبد الرحمن الطوير وصالح كامل الحكيم وأحمد واصف ومحمد عبد الله صالح ومحمود السبع وعبد العزيز اسماعيل

(١) للبرئوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعة بإبراهيم رمزى .
راجع كتاب « محمد لطفى جمعة ومؤلاه الاعلام » ، المرجع السابق ، ص ٢٧٤ - ٢٨٣ .

ومحمود وهبى وعبد العزيز حلمى ، ولم أزد على هؤلاء الا بعض طلاب القسم الفرنسى مثل على أيوب وعبد الرؤف حلمى واثنتين أو ثلاثة آخرين لسماحه فى اخلاهم .

كانت الوطنية غير معروفة عندنا بتاتا مع وجود مصطفى كامل وبريدة اللواء ، ولا الدين كذلك مع معاصرة الشيخ محمد عبده ، ولا الاجتماع مع وجود قاسم أمين وسعد زغلول وأمثانها ، ولا ندرى شيئا عن الحياة العامة .

لقد أحكم الملاعين غلق الأبواب على عقولنا وأخلاقنا وضيقوا الخناق علينا تضيقا شديدا واستعملوا « ضباطا » من الطراز القديم ليحفظوا النظام ، وهؤلاء كانوا فى غاية الذل والخنوع لا ينطق أحدهم بكلمة .

نعم كان هناك شعاعان من النور اطلا علينا رغم القيود والسدود ، الأول الشيخ طنطاوى جوهرى وهو شيخ متحجر يريد التقدم والفهم ولكن فى حدود الوظيفة ، وقد نجح معى نجاحا عظيما اذ وجهنى او ساعدنى توجيهى الى التفكير لى احدهم وقد استمرت علاقتى به الى أن توفى سنة ١٩٣٨ وقرأت جميع ما كتب وحاولت ترشيحه لسجل جائزة نوبل .

والشعاع الثانى سدر عن المرحوم على فوزى أستاذ الترجمة ، وذلك بأن ساعد ذوقى فى انتقان الترجمة واحسان اللغتين العربية والانجليزية ، ثم استقال ولم يخف أو يخش صولة دنلوب ، فكان لاستقالته طنة ورنه فهمت منها أنه رجل أراد أن يقاوم سلطة الانجليز التى تستغله أشنع استغلال لتشغل كل وقته فلا يجد ساعة فراغ للتفكير ، فتملقوه وزادوا مرتبه ورقوه الى ناظر مدرسة باب الشعرية الابتدائية ليسكتوه ، وقد نجحوا فى اسكاته الى أن

هاجر من مصر الى اسطنبول تم عاد الى أرض الوطن ليموت في سنة ١٩٣٥ أو سنة ١٩٣٦ ، ولم ينتج كتابا ولا مقالة ، ولم يلق محاضرة ولم يشغل قط بالحياة العامة مع وفرة علمه وأدبه وسعة اطلاعه ومعرفته بست لغات أو سبع ، وهذا دللى بعد التأمل على أن الآلة الطيبة أو الشخصى المستعد ، يعرفه الصدا ويتسلم كالسلاح ولا يعود صالحا للعمل .

لقد خدمتني اللغة الانجليزية اجل خدمة لأننى اطلعت بواسطتها على الكتب والمجلات والجرائد التى تطبع فى أوروبا *

ولتعلمى اللغة العربية أكثر من غيرى قصة ، فقد تحررت من كتاب النحو العقيم تاليف طوموم وشركاه ومن كتاب البلاغة وقرأت كتباً أكبر مما يدرس فى الأزهر ، هدانى إليها محمد عثمان الفندى وكان صديقى واشتهر أبوه وهو محام شرعى بقضية الشيخ على يوسف وبنت السادات ، تم اشتريت مقدمة ابن خلدون وتهذيب الأخلاق لابن مسكويه والعقد الفريد لابن عبد ربه وقرأت هذه الكتب قراءة نصوص بتدقيق واتقان .

أما اللغة الانجليزية فقد حذقتها فى السنة الرابعة الابتدائية. وحاولت ترجمة رباعيات الخيام وكنت أول مصرى اشتغل بها من سنة ١٩٠٤ .

ولتعلمى اللغة الانجليزية قصة أيضا ، ففى سنة ١٩٠٠ فى شهر رمضان المبارك كنت بعد الافطار عند رجل يبيع التين والتمر المنقوع ، فجاء رجل آخر وهو خادم عند رجل انجليزى يحمل على كتفيه كتباً تبلغ الثلاثين أو الأربعين يريد أن يبيعها للبطارين والبدائل فى القيسارية ، فلم يقبل أحد شراءها منه بخمسة قروش ، فاشتريتها منه ونقلتها الى منزل ، فلما عدت إليها قررتها فوجدتها

اعدادا من مجلات الانجليزيه شهريه مشهوره يكتب فيها أشهر الكتاب قصصا وزحلات وادبا منظوما ومنتورا وبعض تراجم العظماء وشذرات فى السياسة ، فنظمناها وصممت على ان ابدا القراءة فيها فأحصرت العاموس والورق والعلم وبدأت أفرا ، وما كان اعظم سرورى عند طلوع الفجر بعد مدفع الامساك فى تلك الليلة المباركة وقد قرأت قصة كاملة فى مجلة « ستراند » .

ومن تلك الليلة لم أنهيب كتابا انجليزيا ولا مجلة ، بل شعرت بالشوق والنهم وحب الاطلاع ، ونقلت معى هذا الشوق الى المدرسة الثانوية ، فكنت ألتهم كتب المطالعة وكتب المحفوظات من نثر وشعر وحفظت قصائد بيرون فى حريه اليونان وخطب جون برايت فى حرية الصحافة وانفتحت لى كوة اثر كوة من النور ، ثم علقث شكسبير ، فكنت كلما رأيت قطعة منقولة من احدى قصصه اشتريت القصة كاملة من مكتبة ديمر وكان صاحبها المانيا وقد دامت علاقتى بهذه المكتبة ثلاثين سنة .

لقد كان فرحى عظيما عندما تمكنت من المطالعة الانجليزية . وكنت كثير التكلم بهذه اللغة فأحقد هذا بعض التلاميذ على وتألوا على عندما راونى احاول تكلم بالعربية الفصحى أيضا فأقاموا على حربا واندرونى بالانتقام اذا حاولت احدى الحسينين ، اتقان لغتى وتعلم لغة اجنبية !

(٦)

الشيخ محمد عبده ومصطفى كامل ومحمد فريد وقاسم أمين

كنت فى تلك الفترة يافعا ولكننى أقدر الأقوال والأعمال حق قدرها وأغضب لما أرى وأسمع وأحنق على الذين يكشرون عن أنياب اللؤم لهذه الأمة .

وكننت أظن بالمجموع خيرا وأمجده رجلا أمثال الشيخ محمد عبده (١) ومصطفى كامل (٢) وقاسم أمين (٣) وأحسن الظن بهم جدا وأكاد ألمح عجزهم عن اصلاح الأمور لقوة خصومهم وأكاد أدرك الفرق بين أسلجة الفريقين .

فان الشيخ محمد عبده أبى أن يحامل الخديو فى مسائل تتعلق بالأوقاف على أن يطلق الخديو يده فى اصلاح الأزهر والمحاكم الشرعية ، محتجا بأن الباطل لا يكون سبيلا الى الحق ، أى أن الشيخ محمد عبده أبى ورفض أن يكون منافقا متساهلا فى حقوق المسلمين ولأنه ذلك النفاق والتساهل من احداث خير كبير للمجموع ، وقد احتج عليه أصداؤه وتلاميذه وبعض أتباعه فأبى أن يسمع نصيحهم أو يعمل برأيهم وفضل أن يعتزل العمل قبل أن يعزل حتى لا يقال ان الشيخ قد انطوى، ولم تجده صداقته باللورد كرومر نفعا ولم يمد اللورد يده اليه وتركه فريسة لخصومه الأقوياء ، ولعل اللورد أيضا كان يرى فى اصلاح الأزهر والمحاكم الشرعية خطرا على الاحتلال .

وقد مرض الشيخ او ظهرت العوارض الأخيرة لمرض السرطان عليه وبعد خروجه من مجلس الأزهر مرغما ، توفى والناس تعلم أنه تأثر بما سمع فى خطبة الخديو التى ألقاها فى قصر عابدين فى ١٧ محرم سنة ١٣٢٣ هـ على ملا من العلماء وفيهم الحاسد للشيخ والناقم عليه والمخلص له .

وأظهر الخديو أنه يستطيع أن يقتل أعداءه بغير السيف والنطع وكيف تفقد الأمة فيلسوفا مصلحا فتركه وحيدا لا تدافع

(١) ، (٢) ، (٣) للوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعة بالشيخ محمد عبده ومصطفى كامل وقاسم أمين ، راجع كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الاعلام » ، المرجع السابق ، ص ١٧ - ٢٧ ، ٧٩ - ٨٧ .

عنه ولا تشد أزره وكيف يترك المسلمون مصلح الجيل المبعود
لاصلاح الأمة فى ذلك القرن الرابع عشر الهجرى دون ان تحرك
ساكننا .

وكان لموت الشيخ أثر شديد فى نفسى ، فقد عرفته فى
السنوات الأخيرة قبل وفاته وزرته فى داره بعين شمس بعد مكاتبات
طويلة أثبتتها المرحوم الشيخ محمد رشيد رضا بأمر الشيخ عبده
فى الجزء الاول من تاريخ حياة المفتى (١) ، وكان جواب الاستاذ
الامام لى بعد أن زرته فى داره هو الاستمهال والنصح بالاستمرار فى
الدرس والنظر وعدم الطفرة ، ولكنه لم يتحدث الى فى آلامه لعلمه
أننى لحدائث سننى لا أفهمها ، ولكنه ألمع مرات عدة الى آلامه وغيظه
من جهل المجموع ومن عدم ادراك الأمة حقائق الامور ووقوع العلماء
تحت المظالم ، وقال لى ان أخلاق الغرب فى السياسة والاجتماع أرقى
من الشرق بكثير وان كل صالح من الأعمال والآراء والنظم اذا دخل
الشرق فسد ، وأن الدين معناه التنوير واليقظة بجانب العبادة
وليس العبادة وحدها هى المقصودة لذاتها ولكنها جزء من حياة
الروح لا كل شئ فى حياة الروح ، وكان الألم مرسوما على وجهه
وهو يظن بالناس أنهم أميل الى منافعهم المادية والى مداخلة من
يمنتظرون قضاء هذه المنافع على يديه وقد حرموا نعمة الاخلاص
والوفاء لأسباب يطول شرحها وأنهم فطروا على حب الفتن والدسائس
والنفاق .

أما مصطفى كامل فقد لقينته والمرحوم محمد فريد (٢) بمدينة
لوزان بسويسرا أثناء سياحتى فى أوروبا سنة ١٩٠٦ ، فتأكدت بيننا
أواصر الصداقة المتينة وانضممتم الى الحزب الوطنى بارتياح

(١) تراجع هذه المكاتبات فى كتاب « حوار المفكرين » رسائل اعلام العصر الى
محمد لطفى جمعة خلال نصف قرن ؟ ، عالم الكتب سنة ٢٠٠٠ م .
(٢) اللوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعة بمحمد فريد ،
راجع كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الاعلام » ، المرجع السابق ، ص ٢٨ - ٥١ .

لاعتقادي أن مؤسسه على حق وقد استفدت من عشرته كثيرا من
المبادئ السامية والاتجاهات الشريفة ومن بينها عدم التمرغ في
تراب الميرى والنأى جانباً عن وظائف الحكومة أو السعى إليها
والاعتماد فى رزقى على الأعمال الحرة .

وكننت فى هذه الفترة (سنة ١٩٠٥) أشتغل بالصحافة
واشتركت مع المرحوم محمد كرد على (١) والسيد عبد العادر المعربى
فى تحرير جريدة الظاهر لصاحبها محمد أبو شادى ، وألقت فى
يناير سنة ١٩٠٦ خطاباً فى حفل عيد جلوس الخديو عباس حلمى
الثانى شرحت فيه سياسة الوفاق التى بانت بوادرها بعد اتفاق
انجلترا وفرنسا سنة ١٩٠٤ وأنحيت باللائمة على هذه السياسة
وطعننت فى استسلام القصر للاستعمار وانصراف الجالس على العرش
الى تنمية تروته دون الاكتراث بشئون الأمة ، فغضب على أمير البلاد
وأوعز الى صاحب جريدة الظاهر باضطهادى وفصلنى من عملى ووسط
فى ذلك الشيمى بك الذى كان موظفاً فى المعية .

وتركت العمل بجريدة الظاهر وانتقلت الى جريدة اللواء وعملت
مع مصطفى كامل فى تحرير الجريدة ، وعندما أنشأ مصطفى كامل
جريدة اجبشيان ستاندارد عيننى محرراً لها مع شارلس روى
وجون مالونى الانجليزين .

كان النضال بين المؤيد واللواء شديداً والتمراشق بالألفاظ
الجارحة بين الرجلين قويا غير أنهما لم يتجاوزا لفظى «طاحونة الهواء»
و «الهلفوت» ، قال الأولى مصطفى كامل فى الشيخ على يوسف ورد
عليه الثانى بالأخيرة ، وهاتان الكلمتان تعدان من الأدب العالى

(١) للوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعة بمحمد كرد على .
المرجع السابق ، ص ١٠٣ - ١٠٨ .

بالنسبة الى ما يقرأ فى الصحف المصرية بعد ظهور الأحزاب الجديدة
فى سنة ١٩١٨ وما تلاها .

كانت الصحافة فى تلك الفترة ما تزال فى حدود الشرف
والأمانة ، فلم تبع ذمتها لأرباب الاعلانات ولا للشركات الأجنبية
والوطنية ولم تعتمد على الاعتمادات السرية .

هذه كانت أحداثا طفيفة بالنسبة لحياة أمة شرقية محتلة
سحكومة بطريقة استبدادية فى عهد أمير لا يخضع للدستور ولم
تحدث الا فى الطبقات العليا التى تأثرت عداوتها لأغراض شخصية
ولم يكن المال يلعب فيها دورا كبيرا . بل كانت الخصومة السياسية
والتطاحن على الجاه والسطوة .

أما قاسم أمين فقد كان ونا ب الذكاء شديد الفطنة مخلصا
لدينه ووطنه وجنسيته المصريه وان يكن كردى الأصل ،
وعندى أنه فكر فى أصل البلاء فى مصر فرآه فى جهل المرأة لا فى
حجابها ولا فى مكانتها التى حددتها لها الشريعة الإسلامية ، فالف
كتبه راجيا ان تتحرر المرأة المسددة المصرية من قيود الجهل قبل ان
تتحرر من قيود الحجاب وأن تمارس حقوقها المعترف بها فى
الشريعة ، ولم يقصد أبدا الى التهنك أو التحرر من قيود العفة
والاستقامة والطاعة والأمانة الزوجية ، ولا يوجد فى كتبه جملة
أو نص يحيد عن هذا المأرب النبيل ، ولكن طبقة المتظاهرين بالغيرة
والتحمس على الأخلاق والدين والآداب أرادوا أن يتخذوا الرد عليه
ذريعة للشهرة بحماية الأخلاق والدين والآداب .

وانى لا أتعرض الآن فيما عاد على البلاد من مبادئ قاسم أمين
وسوء فهمها أو سوء تطبيقها وعدم تحميله وزر ذلك ان كان هناك
وزر ولكن أقرر ان سير لحوادث فى هذه البلاد كان سيؤدى حتما

الى ما نحن فيه خصوصا بعد الحرب العظمى الاولى ، فيعد قاسم اذن متقدما على جيله بأربع عشرة سنة ومعبرا عما كانت ستتمخض عنه تطورات الاحلاف فى بلد ممتزج بحياة الغرب كل امتزاج وخاضع لمؤثرات الافرنج فى معظم مدنه .

وبالجملة فقد تأثرت بالمفنى كثيرا كما تأثرت به مصطفى كامل وخاسم امين ، وكان كل منهم من أرباب المثل العليا ولم يكن بينهم وصولى أو مستجلب للفتية أو مثاق أو تميم مهنع ، فاحمد الله على هذه النعمة وان كان كثير مما صادفنى من الهفوات فى حياتى كان بسبب اتباعى مبادئهم السامية ، فقد حميتى تلك المبادئ السامية ورغبة التشبه بهم من الوقوع فى فخاخ اللؤماء والمنافقين والخونة وبائعى ضمائرهم ، وعلمنى الصبر على المكار و تحمل الشدائد فى سبيل ما أعتقده حقا ، وان كان ثلاثتهم قد توفوا متعاقبين فى سنتين أو ثلاث لأن اتصالى بهم لم يكن الا فى ختام حياتهم ، وكل منهم توفى مغضا محنقا وان لم يكن قانطا من رحمة الله ، ولكنه قانط من صلاح هذه الأمة فى الدين والسياسة والاجتماع .

(٧)

تأليف أول مجموعة قصصية مصرية « فى بيوت الناس »

فى هذه المرحلة كنت أطلع للتأليف والنشر ونشر التعليم رخدمة الأمة واشباع الفقراء - وأنا منهم - ومعالجة المرض ولا أجد السبيل +

وفى صيف سنة ١٩٠٠ بدأت أقرأ بعض كتب الأدب العربى
واخذت أحفظ الشعر القديم والحديث وأشتغل بتراجم بعض
العظماء ، ونقلت بعد فترة وجيزة قطعة « ماكث » من الانجليزية
الى العربية نقلا رديئا ومثلها لكيف من تلاميذ المدارس ، وقلدت
المؤلفات التمثيلية فى قصة اسمها « اللصوص الكاسرة فى الجبال
المقفرة » وبقيت خجلا عشر سنوات من هذا العنوان وخاطرت بمال
فى طبع هذه القصة ولكن لا أدري أين هى ولا ما جرى لها .

وفى سنة ١٩٠٢ كنت أقرأ مزيجا من مؤلفات تولستوى وكونان
دويل وفيكتور هيجو وسكسبير والمعرى والشيخ محمد عبده وغير
مرشد ولا غاية ولا خطة مرسومة ، لأن مناهج المدارس كما ذكرت
كانت قاصرة خاطئة ناقصة ، فكنت أتسقط الكتب والمجلات وأوجه
نفسى توجيهها حرا أساسه الشوف الشديد الى المعرفة .

وفى سنة ١٩٠٣ كنت فى قطار المرج فلما تركنا محطة الزيتون
رأيت شارعا كبيرا محازيا لخط الحديد وفى الشارع مركبة أنيفه
يقودها حوذى نظيف حسن الهيئة ، وتبينت فى المركبة سيدة حسناء
تتلفت نحو القطار وكذلك الحوذى ثم اختفت المركبة والحوذى
والحسنة لأن الخيل لا تدرك القطار ، فكان هذا المنظر كافيا لتوليد
الفكرة التى أنتجت مجموعتى القصصية القصيرة « فى بيوت الناس » .

لقد اتخذت كل مركبة وكل حوذى شأننا خاصا ولا سيما اذا
كان فى المركبة حسناء مضطجعة ، وأخذت الحوادث ترتسم فى
ذهنى ، وبطولة الحوذى الأنيق وغموض الحياة المحيطة بالحسنة
والمركبة ، ووصلت منزلى وأخذت أكتب على الورق أسماء ووقائع
قبل أن أعرف ما هى القصص .

وهكذا بدأت قصص « فى بيوت الناس » وهى أول قصة
مصرية كتبت فى العصر الحديث ، وفيها قصص قصيرة فكانت جرة

منى على طريقة لم يعرفها الكتاب ولا القراء في مصر . فهذه القصة التي ولدت في صيف سنة ١٩٠٣ فيها وصف الحياة المصرية بحيرها وتترها كما مرت بذهن شهاب في نصف العقد الثاني من عمره عقيب امتحان السنة الشامية الثانوية وفي بداية عطلة الصيف المدرسية (١) ، وقد تم الكتاب بجزئية وطبع الجزء الأول منه ونشر بعد ستة أشهر (يناير سنة ١٩٠٤) ، ولم أشأ أن أضع اسمي خشية النقد ، ولكن حافظ عوض الذي أصبح بعد ذلك صاحب جريدة كوكب الشرق كتب في إحدى الصحف الكبرى ولعلها المؤيد يقول ان الكتاب تأليف شهاب ينظر الى الحياة من نافذة المدرسة ! .

وانى اذ أرجع بذهنى الى اقاخيص هذا الكتاب أسائل نفسي :
الم يصدق هذا الناقد ؟

نعم نظرت الى الحياة من نافذة المدرسة بلا غرض معين سوى التعبير عن بعض المبادئ التي كانت تزدهم بها نفسي ولم أكن أعرف شيئاً عن قواعد فن الفصحى ولا طرائق التأليف الخيالى ، ولكن أولادى الذين قرأوا قصتي منذ أربعين عاماً يكتبون الآن في قواعد فن القصة ، والذين كتبوا منهم قصة انما ترجموها أو اقتبسوها وألبسوا « جورج » طاقية أو عمامة أو طربوشاً بعد أن خلعوا عنه قبعته ، وكذلك جعلوا من « اينيل » أو « ليلى » - بكسر اللامين - فاطمة وزاهية وعائشة ! ، ونقلوا أحداث « بيكاديللى » الى عماد الدين ، « وهامر سميث » الى باب الخلق ، وشارع « ريفولى »

(١) عن مجموعة قصص « فى بيوت الناس » ، راجع الفصل المعقود عنها فى كتاب أحمد حسين الطماوى « محمد لطفي جمعة فى موكب الحياة والادب » ، عالم الكتب ، القاهرة ، سنة ١٩٩٣ ، ص ٧٥ - ٨٩ ، كتاب الدكتور محمد رشدى حسن عن « اثر المقامة فى نشأة القصة المصرية الحديثة » ، هيئة الكتاب ، ص ١٥٤ .

جعلوه شوارع المغربى ، والمعادى جى « سان كلو » و « أنبير »
وهكذا !!

ثم جاء أبطال للقصة انفردوا بها واعتلوا صهوة براقها
واستعملوا المال والنوال ونفوذ الأب والعلم والخال فى الدعاية لهم
وترجمة حالهم وترويج خصائصهم ليربحوا شهرة محرمة بالباطل .

ثم جاء الرمزيون والغمازون وجعلوا لهم طبالين وزمارين
ومهرجين يكتبون فيهم المقالات لقاء « تعريف » و « مرتب »
و « هدية » ويقولون فيهم ما قال أبو نواس فى الخمر ! • ولعمري
انه لا يفرأ تلك الرمزيات سوى مؤلفيها ومادحيها .



(٨)

جليد هانم

منذ انتهت لى من غفوة الطفولة - اى فى حدود
الثانية عشرة من سنى ، وكنت اذ ذاك تلميذا فى مدرسة طنطا
الابتدائية سنة ١٨٩٨ - شعرت بشىء من الكبرياء •• وحاولت
التخلص من هذا العيب واكثر من تلاوة القرآن ، ولكنى لم
أتخلص من شعور الكبرياء والتعالى واخذت أحس - على رقة حالى -
باختلافى عن بقية الناس واننى من طبقة تخالف طبقة عشرائى ورفقائى
الدرس •

وما زالت هذه الحال تنمو معى ونصونى عن الدنيا وتحفظنى
من التمدنى ، فكنت أحفظ نفسى من اظهار عواطفى لى بلغت

الرابعة عشرة من عمرى وهى سن شديدة الخطر لأنها سن المراهقة ،
فحاربت عاطفة الحب فى نفسى وأخذت أقاوم الظهور بالمرح والمرح
وأقاوم الطيش والرعونة وهى من مقتضيات السن ، فكنيت تارة
أحسب أن هذه الكبرياء ميزة أرادها الله لى ، وطورا أعتبرها مرضا
أبذلانى به الدهر .

لم يكن لى الا اعتماد محدود من الأصحاب ولا بد ان يكون لأحدهم
ميزة تسوغ صداقتى إياه ، فمنهم من كان نابغا فى اللغات ،
ومنهم من كان جميل الصوت ينشدنى الألحان ويحسن توقيفها ،
ومنهم من كان حسن الأخلاق جدا ومنهم من كان يناقشنى فى
السياسة الخارجية وتاريخ الاحتلال الانجليزى ووجوب مقاومته
حتى يخرج الانجليز من مصر ، ومنهم من كان يقرأ معى شكسبير .

وكنيت أترك رفقاءى فى الدرس وأسعى للتعرف بأعظماء فى
عصرى ، فاتصلت بالمرحومين الشيخ محمد عبده ومصطفى كامل
والكاظمى الشاعر العراقى وحافظ ابراهيم (١) وفرح أنطون (٢)
ومحمد مسعود (٣) وتعرفت بالمستتر بنيامين موزلى الذى أطلعنى
على كثير من خبايا السياسة الانجليزية فى مصر ، ومن لم ألقه
أخذت أراسله بغير معرفة سابقة ، وكلما لقيت واحدا من هؤلاء
حسبت أن بيننا مودة قديمة واتحادا فى الأخلاق والميول ولا سيما
المرحوم مصطفى كامل وعبد العزيز الثعالبى (٤) .

وبالجملة داخلنى دلال وغرور وانخداع بالنفس ولون من
التمرد ، فافضيت بشعورى الى الشيخ طنطاوى جوهرى - وكان

(١) . (٢) ، (٣) ، (٤) للوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعة
بحافظ ابراهيم وفرح أنطون ومحمد مسعود وعبد العزيز الثعالبى ، راجع كتاب
« محمد لطفى جمعة وهؤلاء الاعلام » ، المرجع السابق ، ص ٢٦٢ - ٢٧٣ ، ص
١٠٩ - ١١٩ ، ص ٢٨٤ - ٢٩٠ ، ص ٣١٢ - ٣٢٢ على التوالى .

يعلمنا اللغة العربية - فاطرق ثم قال لى « ان شعورك بأن هذه الحالة ميزة ينمىك وظنك أنها مرض يضرك ، وهى ليست ميزة ولا مرض بل هى مزاج واستعداد فانسخ لى ما كتبته من تفسير القرآن ينفعك الله به واقرأ الرسالة الفشيرية وكتاب الاحياء للغزالى » . فعملت بنصيحته ونسخت له فى تفسيره وأخذت أقرأ الرسالة والاحياء .

فى تلك الفترة حدثت لى حوادث خدمتني فيها هذه الكبيرة بل خدمة ، فاننى سكنت فى بيت رجل شيخ مريض متزوج من امة جميلة صغيرة السن ، وكان بينى وبين مالك الدار وهو زوج امة ، نفور شديد ولكننى محتاج الى مجاورته لقرب داره من رسة ، فقد كان هذا البيت فى الحلمية الجديدة على قيد خطوات باب المدرسة فى تلك الفترة . . فتقدمت لى زوجة جارى صاحب ار بالوان من الفتنة والغزل ، لأننى رقت فى عينها فظنت أن فوقها بوصفها زوجة المالك تمتد الى المستأجرين فتتهوى من تشاء تستهوى من تشاء !

وأخذت تقدم الى الهدايا وتحتال على الرغم من غيرة زوجها ومراقبته الشديدة حتى دبرت خلوة على حين غفلة منه وعلى بغلة منى ، فادركت فى لمحة عين أن المرأة لا يقف فى سبيلها شىء وإن اسمها « جلييلة » ، واتخذت السيدة الشابة حيلة حتى رأيتها أمامى مزينة أجمل زينة ومشتعلة بنار الهوى وهى فى عنفوانها وقد سمعت معاشره زوجها الشيخ ولم تبال خطرا يقع لها أو لى .

فلما رأيتها على هذه الحال فى بيتى ، رحبت بها وقلت لها :
 ا تريدين يا جلييلة هانم ؟ قالت بغير خجل ولا تردد : أريد
 أتعدى معك وأجلس اليك لأننى راغبة فيك !

فغالبت نفسي وقهرتها وقلت لها وأنا أتصنع الابتسام :
لا بأس ! وأنا كذلك .. ولكن أنت في بيتي وأنا في بيت زوجك
وليس كل وقت صالحا للحب . وقالت لي : ان زوجي يبغضك
ويتمنى أن تخلى له مسكنك ولكنه يحب ان يقبض أجرة البيت
كل شهر وان يكن لا يحب شابا اعزب في بيته . قلت لها : ان ما قلته
يجعل توقيري له أكبر وأنا لا أحب الخيانة لأى انسان وأشفق على
هذا الرجل بذاته ولا أشفق عليك لأنك تخونين أمانته دون أن تعلمي
ان كنت أحبك أولا أحبك ، وان كنت تحبين كما تقولين فقد أحببت
مصادفة لأنك وجدت شابا يجاورك ، ولكن أسأت الى لأنك سوف
تجعلين حياتي جحيما ، فاما ندوم على الحب وهذا يقتضى الاستمرار
فى الغدروا ابتكار الحيلة حتى نتغلب على سلطة زوجك ، واما أضطر
الى ترك البيت وأنا أحبه لقربه من المدرسة وهدوء المسكن
وجمال المنظر ، وكلا الأمرين شديدا على نفسي ، فأنا لا أعرف الحيلة
ولا أميل الى الغدر .

فقلت لي : هذا كله كلام كتب ومدارس ولا بد لي منك .
فقلت لها : اسمعي يا جلييلة هاهم .. أتركيني ودعيني افكر يوما
أو يومين . فقلت لي : اذا كنت من غير تفكير تقول هذا فما بالك
وماذا تكون الحال اذا فكرت ؟! أريدك الآن .. الآن .. هذه
الساعة .

ودنت مني حتى أحسست أنفاسها ورأيت انفعالها ، وانتي
مازلت حتى الآن وأنا فى الستين من عمري أعجب للقوة التى بلمكتنى
وحفظتني وصاننتني من هذه الخيانة (١) .

فقلت وقلبي ينفطر : على رسلك ، ماقولك وأنا شاب ليس
عندى قدرة على النساء ؟!

(١) كتب لطفى جمعة هذا الفصل سنة ١٩٤٦ .

فتراجعت المرأة قليلا وقالت لى : لا غاية لى الا حديثك وسماع
صوتك . . ولم اقدر فى نىء اخر وانت لم تفهم مرادى فاسات
الظن بى .

تم جلست على مقعد من فرط انفعالها وخيبة أملها ورهبه
الموقف ، وفرحت ورضيت لنفسى تهمة العجز بدلا من الفضيحة :
وشعرت بقوة كبيرة فسالت لى : أرجوك ألا تخبر زوجى .
فلت لها : وكيف لم تبالى من قبل ؟ قالت : لو صح الحب لنا كان
السرى بطنى ويربطك ، أما الآن فقد صرت فى حل لا تبالى
لو اتهمتنى وبرأت نفسك . فضحكت وقلت : لا تخافى بشرط أنك
لا تحرضى زوجك على ولا تدبرى لى انتقاما . قالت : اطمئن .

وصعدت الى مسكنها ، وجلست أنا أردد بيتا من الشعر :
خرجت أجر الذيل نياها وانما
يتيه الفتى ان عف وهو قدير

وكننت أقابل الزوج بعد ذلك وكلما تحرش بى أضحك
والاطفه وأحاسنه وهو لا يدري ما كلفنى الحفاظ على عرضه من الكبت
والقهر والهوان فى عين أنتاه الجميلة جليلة هانم !

وبقينا على هذا الجوار ثلاث سنين ، ولم أغادر بيته الا لأسافر
الى فرنسا سنة ١٩٠٨ ، وكانت هدايا جليلة هانم والطفها قد
انقطعت ، ونقرها على السقف من أرض غرفتها وتعمدها فتح النافذة
عند مجيئى وانصرافى واخراج صوتها الرنان وأنا صاعد فى
الدرج قد تلاشت ، وبالجمله كل هياج الانثى لم يعد له أثر .

« روح يا زمن تعال يا زمن » الى سنة ١٩١٢ اذ عدت من
أوربا وصرت فى الخامسة والعشرين من عمري ، وكننت راجعا الى

دارى ظهرا فى عمرة وانا منعجب جدا وجائع جدا وفى يبنى من أحب
من الاعل (خالتى) • ولم اكذ ادخل واجلس حتى دق اباب دقا
عنيقا ، وفتح الباب واذا بسيدة فارعة القامة جميلة الوجه ، مهيبة
الطلعة تصحبها فتاة لا تقل عنها جمالا • فلما دخلت السيدة وفتاتها
قلت فى نفسى هذه قضية جديدة، ولكن كيف تحضر السيدة فى
هذا الوقت من النهار ؟ لعل القضية « تلبس » تقتضى السرعة •

وفى طرفة عين دنت منى السيدة وألقت بنفسها على صدرى ،
قلت : مجنونة ورب الكعبة ! وقد وقعت فى مشكل •

وجاء أهل البيت وضجوا، واذا بالسيدة التى تعانقنى وتقبلنى
تقول :

— يا حبيبى ! كبرت والنحيب وكنت أمرد ، ولكننى أحبك
على كل حال ألا تعرفنى ؟ ألم يدلك قلبك على ؟ •• انظر الى وجهى
•• أنا جلييلة !

لم تبال بمن فى البيت ولم تبال بابنتها ولم تبال بدهشتى
وانما استرسلت :

— أنت حبيبى الأوحده وأنت حفظتنى ، أنت صنتنى ، أنت
حرمت نفسك وحرمتنى لانيك أحببتنى حقا • كان هذا هو الحب
الصحيح ، أليس هكذا ؟ لقد اتهمت نفسك وصبرت ، أليس
هكذا ؟

— جلييلة ! أنت جلييلة ! الله ما أجملك •• لكننى متزوج الآن —
ولم أكن قد تزوجت بعد — وهذه زوجتى ولعلها تسيء الظن بى •

فضحكت وقالت : لا أبالي •• اذا كنت فى السابعة عشرة
عفيقا وهى سن الجنون أفلا تكون عفيقا الآن ؟

وجلسنا وأكلنا معا وتحدثنا وقلت لها : كنت تريد أن
تتغدى معي وأن تتحدثي الى وقد ضرب الدهر لنا موعدا من سنة
١٩٠٥ الى سنة ١٩١٢ ، وان الأمور مرهونة بأوقاتها .

فأطرقت وقالت لي : لم أنسك طرفة عين ، وقبل أن يتوفى
المرحوم زوجي وأنت مسافر ، وعندما اشتد مرضه اعترفت له ،
لم أستطع أن أكتب عنه ما جرى بيني وبينك . قل لي لماذا سخرت
منى . انك طول عمرك منكبر ، هذه الكبرياء هي التي حرمتك
لذات كثيرة وخيرات لا تحصى ، لم تكن العفة ولا الفضيحة ولا حب
وجي ولا احترامه هي التي منعتك عني ، بل كبرياؤك !

واستبقينا الأم وكريمتهما ، وقضيت العصر والمغرب والعشاء
نحضرتهما ، فلما استحق الانصراف ، قامت جليلة وبكت قليلا
ضحكت وقالت :

- لا أدري لم تعتريني هزة وحزن شديد في قلبي .
- فقلت لها : لعل ذكرى المرحوم زوجك تتحرك في قلبك .
- وودعتها وكان هذا آخر العهد بيننا .

* * *

(٩)

حياة القسم الداخلي بالمدرسة الخديوية

جمهورية تونس الهادي

في سنة ١٩٠٣ حدث لي حادث عائلي هو وفاة أمي ، فاضطرت
الى دخول القسم الداخلي بالمدرسة الخديوية ، وكانت محنة ليس

بعدها محنة ، ذلك النوم المحدث مع مائة ولد تحت رقابه الضابط
والعراش وتلك المذاكرة الليلية العقيمة بالاجماع فى غرفة سفلى
عاريه باردة تحت ادارة شاب من أهل الجبل وبعطرسه ، ثم النوم
والطعام والفسحه والوقوف والحمام والبيطة بمواعيد عسكريه
أليمه . وكنا فى فصل الشتاء فأردت مخرجا من هذا المأوى ،
فأسست جمعية باسم « شمس الهدى » لائقاء المحاضرات ومطالعة
الكتب المفيدة والاجتماع الحر فى اوقات فراغ الداخلية ، ووضعت
للجمعية شارة ووساما وأغرقت الأثناذية اخوانى بكل الوسائل
حتى انتظمت .

وكنا نجتمع فى كل غروب بين العشاء والمذاكرة ، وكان
المجدون منا موضع سخريه المهرجين والحاسدين من التلاميذ واختار
أحدهم واسمه عبد الحميد عمار لنكايتنا أن يحضر انعقاد الجمعيه
وهو جاثم فوق فروع شجرة فى حديقة المدرسة ليضحك علينا !

وبعد بضعة أيام وشى بنا أحد الضباط الى الناظر فاستدعانى
واستعلم منى ونظر الى شزرا ، ثم بدأ عهد الاضطهاد الحقيق ، فأولا
أباح لنا الاجتماع مرة واحدة كل أسبوع وتحت اشراف الضابط
المنوب وألا يلقى فى الاجتماع كلام دون أن تقدمه للناظر أولا
بواسطة سكرتيره ولا يلقى حتى يوافق عليه الناظر « شيرمان » .

ثم أخذ الضباط يرهبون التلاميذ ويوعزون اليهم أن ينفضوا
من حولى ، ثم تقصدتنى الناظر بالعقوبات الدنيئة مثل « العيش
الجاف » و « دريل الصبح » وهو الحضور قبل الساعة السادسة
لحمل الحديد تحت امره أحد عساكر الجيش .

كان الناظر يعطف على سائفا لاتقانى اللغة الانجليزية وظهورى
فى أوائل الفرقة ولا يقبل فى لوما ولا شكوى ، فانقلب على مرة

واحدة و-رمنى من ادارة مكتبة المدرسة وحددنى بالرفق وأنا لا اعلم السبب ، فلم نكن نفهم انهم لا يريدون التلاميذ يقرأون ولا يتعلمون ولا يتدربون على الخطابة والحياة العامة ، فشكوت الأمر الى مستر « فوستر سميث » ومستر « جونز » ومستر « تاتون براون » اساتذة الانجليزى والتاريخ والرياضيات وكانوا يعطون على لاجتهادى هوعدونى خيرا ، ولكن الاضطهاد استمر بل زاد ، وجاء الى يوما مستر « جونز » بعهد احد الدروس وعلى انفراد وقال لى بسر احد لم تدهشنى فى ذلك الوقت :

- ان الناظر والخوجات والضباط ناقهون عليك بسبب الابهنية السياسيه التى استنتها فى القسم الداخلى . وبين الانجليزى لاسف يا بسى ينظر الى مثل هذا الأمر فى مصر والهند وبقية المستعمرات (كندا) بعين الريب ختمية ان تكون معرا للمودة والامهيح ، وهذا أمر غير مرغوب فيه بشأننا وهو يعطىكم عن دروسكم ولم يسن أوايه ، فان كنت تريد أن تعود الى سابق مكانتك فى عين الناظر فاصرف هذه الجمعية وانفض بنيانها ، لانه لا معنى لاسم « شمس الهدى » . هذا رأى الناظر والأساتذة ، أما رأى أنا فهو ان هذا تقييد للحرية وكان يجب علينا أن نشجعكم وندربكم على الفصاحة والتفكير والخطابة مادام ليس فى مصر جامعة مثل اكسفورد أو كمبردج، بل مجرد مدارس فنية عالية ، فاختر لنفسك يا جمعة ما يحلو لك ، واعلم أن استمرارك سيؤدى الى رفتك من المدرسة ، وكل الخوجات ينظرون اليك بعين الارتياح وقد يكون لهذا عواقب سيئة فى الامتحان .

عندما قال لى « جونز » هذا الكلام الخصب العذب فى لهجة مؤدبة واخلاص ، أشرقت على « شمس الهدى » الحقيقية وفهمت السياسة الانجليزية ، وخرجت مطرقا مفكرا وخفت أن أطلع اخوانى على هذا الأمر فيفروا من يدي هلعاً أو يبقى بعضهم معانداً ، فصممت

على الاستمرار وقلت ان الناظر يمكنه أن يحل الجمعية بالامر الرسمي فليفعل هذا وصممت من ناحيتي على ألا أستجيب أبدا لعقوبة الدريل اللعينة وألا ألبى النداء مطلقا في الساعة السادسة ولو شفق المدرب نفسه أو بح صوت الضابط .

كان في سنى شاب اسمه يوسف كرم (١) يحب الفلسفة ويناقشني فقرأناها معا في العطلة المدرسية في صيف سنة ١٩٠٣ أو التي بعدها بمدينة طنطا ونزلت نشاط جمعيتنا الى المدينة ووقعت على السرعة أن ألقى المحاضرة الأولى عن أبي العلاء المهرى وليوتولستوى والمقارنة بينهما ، ولان تولستوى لا يزال على قيد الحياة ، فانقيتها في ليلة من ليالى الصيف سنة ١٩٠٤ في حديقة عامة ، ويظهر انه فلتت منى كلمة تقرب هؤلاء المنكرين المتزهدين الواهبين أموالهم وأعمارهم للانسانية من درجات النبوة أو الرسالة الربانية ، فهاج الناس وماجوا وترامت الشائعات وتحركت الأضغان والأحقاد لغير سبب .

وفي الاجتماع الثانى للجمعية رشتنا بعض السفهاء بالتجارة
ونناهروا مفاخرة كبيرة ، وكتب بعض الجهلاء ومنهم المرحوم دؤاد سليم أحد زملائنا وابن أحد الأعيان في كفر كلا الباب في بعض الصحف اليومية يصفون عملنا بالاحاد والكفر ، وكتبت جريدة يومية شهيرة مقالا افتتاحيا بعنوان « ظهور ملحد جديد » استعدي كاتبها علينا الحكومة ورجال الدين وطلب من الدين والنيابة تحقيق هذه الحادثة ، وطلب من المدير منع هذه الاجتماعات ومحاربة الكفر والفتن ٠٠ الخ ، فنصح لى بعض أصدقائى بالفرار

(١) للوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعة بيوسف سكرم . راجع كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الاعلام » ، المرجع السابق ، ص ١٧٦ - ١٨٣ ، عالم الكتب . سنة ١٩٩١ .

من طنطا خشية الانتقام ، فعدت الى القاهرة مندهشا من هذه
الحوادث .

وقد حدثت أشياء طريفة فتحت عيني لأول مرة للنفاق ، فقد
كان فؤاد سليم من أعز أصدقائنا ، ولكنه كان أول زاعق فى وجهنا
من وراء ستار ، فهو الذى كتب الى الصحف والموعز الى بعض رجال
الدين وأذنان الحكومة بالتحرش بنا ، وكان يلقانا قبل ذلك وبعده
ضاحك السن هاشا باشا فلما سألناه عن وشى هذه الوشاية
أنكر كل شئ ، وكان الذى حرض الصبيان على رشقنا بالحجارة من
أصحابنا ومن يظهرون الود وقد كشفتهم لنا ألسنتهم .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل قاطعنى ليف من الأصدقاء
الذين لا دخل لهم فى الفلسفة والعلم ، بل كانوا يجلسون معنا فى
مقهى عى شاطئ النهر ، وعللوا مقاطعتهم باختلافنا فى الدين
(كذا !!) ، وكان بعضهم ممن يشربون الخمر ولا يقيمون صلاة
ولا يتورعون ، ولكنهم يستبيحون المحارم فعلا ولا يطبقون أن
يسمعوا رأيا لا يفهمونه ويكفرون صاحبة تقربا الى الله ، فكانت
صورة عجيبة .

ثم أصيب يوسف كرم بمرض بسبب هذا الحادث ،
فلما انقطع ظننت أنه هو الآخر معاطع ، فلما ابل أخبرنى انه مرض
متأثرا بموجة التعصب الذى ظهر ، ولم أكن سمعت باسم التعصب
ولا أفهمه فقال لى : ان أساتذة الفرير يعلمونهم أن الشرق كله
متعصب ، وأن هذا التعصب يمتد الى أحرار الفكر ، وقال لى ألا ترى
ماذا أصاب قاسم امين بعد كتابته « تحرير المرأة والمرأة الجديدة » ؟
فقلت له ان الذين نقدوا رأيه انما أرادوا مناقشته للوصول الى
النتيجة . فقال لى : هذا هو التعصب بعينه ، اذ لو كانوا يريدون
مناقشته لبعثوا فى فكرته لا فى عقيدته ولحصروا ردودهم فى نقد
لا فى تكفيره .

وكان يوسف من أنور تلاميذ الفريز وكان هو من أشد الناس
تعصبا لعقيدته .

أما أساتذتي بالمدرسة الخديوية ، فكانوا مزيجا من المصريين
أفندية ومشايخ ، والانجليز والفرنسيين ، وفي مقدمة الأوائل
المرحوم ادوار فاندريك بجى المرحوم كرنيليموس فاندريك ، وكان
يعلمنا الترجمة والدروس ويسمى - سهر ابن السارضى ، وطالما خطا
هى الفرقة خطوات موزونة على الروى الشورى ناشدا موقعا
« كرة ضربت بصوالجة ، فتلقفها رجل رجل » . وطالما حدثنا عن
حياة والده ومؤلفاته ، وقد سلمنا الى الأستاذ على فوزى خريج كلية
بورودو وكان خير أستاذ للترجمة لأنه أتقن سبع لغات وكان مثال
الجد والاجتهاد والتدقيق .

ومن هؤلاء الأساتذة الشيخ طنطاوى جوهرى ، وقد بدأ من
ذلك العهد المعيد بتفسير القرآن على مبدأ النظر فى خلق السموات
والأرض وتطبيق العلم على التمسك والتوفيق بين الدين والمعارف
الحديثة ، وكان فى شجار دائم مع المفتشين لأنه لم يعط النحو
والصرف والمبنى للمجهول والمنوع من الصرف من العناية ما أعطى
للفلسفة والأدب والشعر القديم والحديث ومؤلفات الغزالي .

ولا أنسى عبد المجيد رضا وعبد الجواد عبد المتعال
وعبد العزيز خليل ومحمود على وأحمد سالم وفوستر سميت ، وكل
هؤلاء كانوا أساتذة لى فى المدارس ، ولكن توثقت بينى وبينهم
صداقة قوية ولكل منهم على فضل افادة وارشاد وعناية ، وسببها
من ناحيتى اعجاب بعلمهم وأخلاقهم ، وسببها من ناحيتهم أنهم
الذين فى حرمنا الذين بى وحسبوا أنى أبلغ شأوا فى الحياة ،
فأرادوا باخلاص ومكرمة أن تكون لهم عندى يد ، فلهم الشكر
منى جميعا .

مصداقات الثمباب

الحمد لله على أن الخير لم ينقطع من الدنيا ومظاهر الخير
كثيرة ولها نعم ، ومن تلك النعم توثق الصداقات بين الرجال ،
والصداقة المثينة لون من الحب القوي الشريف المنزه عن الغرض .

وقد من الله على بالصداقة في كل أطوار حياتي ، فمن
أصدقائي الذين لا أنساهم والذين لم يطروا على علاقتي بهم ما يذكر
صفاء المودة المرحومة الشيخوخة المشهدة شهادته والبروتون المستغنى كامل
ومحمد فريد والذين كانوا شهماً طالباً والليفرير مسكونين بلنت (١)
وادوارد لامير (٢) وعبد المحسن الكاظمي وأحمد شوقي (٣)
ومحمد حافظ إبراهيم «وجورجي زيدان» (٤) وفرح أنطون ومحمد كرد
علي وعبد العزيز الشعاللي وإبراهيم رمزي وأمين الريحاني (٥) ،
هؤلاء عرفتهم جميعاً وتوثقت عرى المودة بينهم وبينى في أوقات
مقاربة بين سنة ١٩٠٠ ، سنة ١٩٠٥ ، وقد دامت تلك الصداقة
إلى أن وافاهم الأجل .

وكانت أسباب تلك المودة من ناحيتي الاعجاب بهم وتوافق
الأمزجة وتفوقهم في المواهب بالنسبة لى ، فكننت مع معظمهم بمثابة
التلميذ للأستاذ .

(١) للوفوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لحظى جمعة بالمستر ويلفريد سنكريين بلنت وإدوارد لامبير وأحمد شوقي وجورجى زيدان وأمين الريحاني ، رابع كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الأعلام » المرجع السابق ، ص ٥٢ - ٧٨ ، ص ٢٥٦ - ٣٦١ ، ص ٨٨ - ٩٣ ، ص ٣٦١ - ٣٦٧ على التوالي .

وكان لي أثناء دراستي الأولى صداقات الشباب التي بقيت
مختلصا لها طوال حياتي ولم يخطئ ظني ولم يخيب أمل في واحد من
رفقاء الصبا الذين أحببتهم ومنهم يوسف كرم أستاذ الفلسفة
بجامعة الاسكندرية وإبراهيم رمزي ومحمد المنجوري وحنا حلاج
المصور من مدينة صور بسوريا وعبد الرحمن الطوير واسماعيل
كامل الحكيم وأحمد مختار بخيت وطاهر محمد ومحمد عثمان الفندي،
وكانت عصبة للخير لم أذكر أسماء جميع أفرادها أمثال الدنور
عبد العزيز اسماعيل وأحمد حسنين وعبد الحميد سليمان
وسالم هنداي ، كنا نجتمع على الدرس والبحث وأحيانا على التندر
والسباحة في أوقات الفراغ يتارينا حينئذ وصبر على وقد صار
فيما بعد من كبار الموسيقيين وأحيانا إبراهيم رمزي وقد وهب حياته
للفنون ومنهم محمود السبع وقد شغفه التاريخ حباً وعلى فزاد طلبة
وكنا نتبارى في آداب اللغة الانجليزية كتابة وخطابة وبعض أخوة
وهبي ، محمود وهبي واسماعيل وهبي .

وهذه الصداقات أقواها وأمتنها وأدومها على الدهر تبدأ عند
تفتح الحياة وتنمو بنمو الشباب وازدهار المواهب ، وكل حوادثها
تثبت في النفس وتنطبع في الروح وتستقر في الذاكرة ، فلا يموتورها
نسيان ولا يزعمها شيء من عواصف الحياة ، ومجرد التفكير فيها
على الكبر وعلى تغيير ظروف الحياة لذة وحنين يسبغ عليهما الزمن
ثوباً من الجمال واحساساً بالدفء يتجدد في كل حين ، ولكن الحياة
الاجتماعية في مصر ممقوتة ، تفرق بيننا وتحرمنا دوام الاتصال
فتذهب هذه الصداقات سدى !

ومصر وحدها هي التي يقال فيها للاعتذار بين الأحياب الذين
لا ياتقون « الدنيا تلاهي » ، ما أقبحها كلمة ! وما أضعفها عذرا !

قلت لم يخيب أمل في واحد من أصدقائي ولكن خاب أمل في
الصداقة نفسها ، كنت أحسب أن هذه مقدمة لصداقة الرجولة

والكهولة ، دع عنك الشيخوخة ، فاذا بصداقة اليفوع هي وحدها التي نمت وازدهرت ثم انتهت وصارت ذكرى وكان المامول والمرجو ان تكون أساسا لصداقة تتلوها وتقويها وتنميها وتسقيها وتتعهدها تعهد البستاني للزراع .

وأسباب هذا الفتور الطارئ على الصداقات في مصر ضعف الحياة الاجتماعية وتفكك الروابط وانصراف كل لنفسه الخائن وضعف روح الألفة ، ثم نكن صداقتنا صداقة أخلاق ومبادئ ومعايد ، بل كانت صداقة شباب وفتوة وميول متشابهة عندما مسمها اختلاف الوسائل عصف بها الزمن !

وما أوفر الزمن وما أكبر الفراغ في مصر ، وانه لا ييخـل علينا اذا أنفقنا بعضه في تنمية هذه الصداقة والانتفاع بها . ألسنت ترى الى صداقات تدوم العمر كله عند الافرنج وهي خلو من كل غرض ويكفي لحياتها تشابه النواصب والأمزجة ؟ ، ومن العجيب أن المصالح والمظالم تجمع في بلدنا هذا وفي زماننا هذا بين الرجال جعلا لا يقوى على تفريقه مغرف مهسا بذل !

ان صحبة ننشأ حول مائدة طعام وشراب وقمار تدوم ألف مرة أكثر من صحبة شباب وعلم وأدب ونقوى تدعمها قرابة أو مصاهرة !

عندما غدر بنا الزمن أنسا ولفيف من اخواني ورسبنا في الامتحان الثانوى وانقطعت بنا أسباب الحياة واشتغلنا بطلب الرزق ودخلنا صفوف المهزومين ، واتصل اخواننا بطلب العلم في المدارس العليا في أوائل هذا القرن ، نصبح الى أستاذى وصديقى على فوزى ورفيق صباى محمد النجار القاضى وابن الأديب الشاعر أن احاول الفوز فى الامتحان ، وكنت اذ ذاك مترفا متعنا معرضا عن العود الى العلوم الثانوية التي احتقرتها وازدريتها ، وكنت أربح من على

فى الصمخافه بجريده الظاهر واللواء اضعاف ارباح الموظفين ،
فصح عزمى على تحقيق امنية صديقى وبعض اقاربى وذلك فى اواخر
الربيع وقبيل الامتحان النهائى باسابيع تعد على الاصابع . فاتجه
فكرى اول ما اتجه نحو اصدقائى الذين خانهم الزمن وقبلوا وظائف
لا يزيد مربها على فروس اربعمائه فى وزارة المعارف لعهد دنلوب
وعصيته من السكرتيريين والتراجمة ، وكان اصحابى ورفاق صباى
يعانون شظف العيش فى نلك الوزارة الذميمة فى ذلك العهد ، وكان
بعضهم قد تزوج ورزق اولادا وتنع بدون القليل من الرزق وانصرف
عن التعليم والتعلم . فقصدت اليهم فردا فردا وفاتحتهم فى غايته ان
ينضموا الى ، وكان بينهم نوابغ فى الرياضيات واللغات ، فرحب
بعضهم بالفكرة وأعرب كثير عن يأسه وهزا البعض بالمشروع ،
فما زلت بهم حتى جمعت شملهم فى غرفة من مدرسة مهجورة وجعلنا
منها مدرسة ليلية ، وجمعنا اساتذة فى كل فن وبذلنا المال الفليل
بى المقاعد والمصاييح والنظافة واعداد الكتب ، واخفيت الأمر عن
كل اصدقائى المستجدين الذين يعرفون مظهرى وأبتهى ويسارى
ومجالس السمر والهو ، ودبت بينى وبين اصدقائى الاقدمين محبة
جديدة ، بل قل بعثت صداقتنا القديمة من مرقدھا وتحصنوا
لفكرتى .

كنا نبدأ العمل من السادسة مساء الى نصف الليل ، واذا
عدت الى منزلى بشوارع سنجر الخازن بالدلمية الجديدة ، واصلت
الدرس حتى الثالثة ونمت غرارا الى الخامسة وواصلت العمل من
الخامسة الى الثامنة شى بيتى ، ثم اتجهت الى عملى فى جريدتى
اللواء العربى والانجليزى حتى الاولى بعد الظهر ، ومن الاولى الى
السادسة كنت اخرج عائدا فى شوارع القاهرة خلال أشهر ابريل
ومايو ويونيو اطلب درسا خاصا فى اللغة الفرنسية بشمرا وآخر
فى الرياضة فى مقهى ثم الرجوع الى دار الكتب لأجل التاريخ
والادب العربى .

كانت نعرونا فترات يأس كلما دنا موعد الامتحان وهالنا كثرة المواد ، ولكن لم يتخلف أحد وتقدمنا للامتحان صفا واحدا كالمجاهدين في معركة حاسمة ولكن الله جبر كسر قلوبنا وكافانا على اجتهدنا ونجحنا جميعا وفاز أحدنا بأعلى الدرجات وكان ترتيبه الخامس مع الأئمة نبوية موسى ونحن الذين نوصف بأننا تقدمنا « من منازلنا » وهم أخيب الطلاب في نظر المستحقين .

وفي اعتقادي أن الفضل في هذا النجاح راجع الى فضل الله علينا ثم الى محبتنا واتحادنا وثقتنا وخشية النشل الذي يتولى قاضيا على آمالنا ، وهذه ثمرة من ثمار الصداقة والوفاء ، وقدر أحدنا من مرتب القروش الى عمادة كلية الطب وكانت مدرسا ، في عهد الدكتور كيتنج ، وكذلك رتب غيره وتغيرت حياته الى الأفضل وأوسع وأرحب بسبب الحب والصداقة والاتحاد وحصر الوجهة في هدف واحد ، وكان بيننا طالب فشل قبل ذلك في امتحان « البكالوريا » تسع سنوات ونالها معنا في العاشرة !

ومما لاحظته في الصداقة أنك لا تستطيع أن تجمع صديقين على كتاب أو حوار علمي أو نقاش أدبي لسرعة الملل وضيق الصبر ان لم يكن المجلس للسمر وتبادل النكات وذكر الموائد والنساء ، وقد صار بعد ذلك في الدرجات والعلوات والموظفين المتسعين وانصاف المستخدمين وشكوى الغلاء والكادر القديم والجديد والأوهلات والرسوب الوظيفي الى آخره !!

ولكن حدث مرة أن طلبت الى استاذي على فوزي أن يقرأ معي جمهورية أفلاطون بعد الافطار في رمضان ، فكانا نلتقي قبيل الغروب في دكان لبيع الألبان « ليتري دي بيراميد » ، فقرأنا الجمهورية بالإنجليزية وبعض كتب توماس كارليل ، وكان هذا أول لقاء مشترك بيننا وأفلاطون ، فبدأت أترجم « المجبة » (١) .

(١) نشرت « مائدة أفلاطون » عن مكتبة التأليف سنة ١٩٢٠ .

لذلك فرأت مع استاذي ادوارد فانديك كتاباً في المنطق
ودرسنا على فريق من أصدقائي منهم فؤاد سليم ومنصور فهمي
(صدار باشا) كتاب النفس في الحبحر ، فقرأنا في الفلك والمنطق
وبماثر أخصاء الكتاب وهي صبيحة من تأليف كرونيليوس فانديك ،
ولكن سرعان ما ملوا ما عدا منصور فإنه كان متعباً للدرس .

ومن أحفظ هؤلاء الشباب للود من صداقات الشباب على فؤاد
طلبة ابن أحمد ثوار عرابي وأظن أن والدته كانت من سيلان لأنه
كان يجيد العربية بقدر إجادته الإنجليزية ، وهكذا جعل الانجليز
من أبناء ثوارنا أبواقاً للغتهم كما فعلوا بالدكتور عبد المجيد محمود
الذي كان والده من أعظم رجال الحرب والمدفعية والتاريخ وهو
المرحوم محمود محمود فهمي باشا ، فعاد الابن الى مصر طبيباً يجرر أذيال
زوجة انجليزية !!

لقد عرضت لهذه الصداقات التي صادفتني في مقتبل العمر -
على قصر أعمارها وخلوها من روح البقاء والاستقرار وفراغها من
المعاني التي كنت أتلسمها وأبحث عنها - لسببين :

الأول : أنها حدثت في الشباب ، والشباب أجمل أوقات
الحياة وأعمرها بالعواطف الجياشة والمشاعر المتوثبة وأملؤها
بالآمال والطموحات على الرغم مما فيه من كفاح ونضال ومرارة ،
ولذا كانت ذكريات الشباب أعز وأغلى الذكريات عند الرجل لأن
الحياة كانت مصحوبة أثناءها بالقوة والفتوة والصحة التامة وخلو
النفس من الهموم ومرارة الخبرة وامتلاؤها بالآمال في المستقبل
الذي يبدو باسمها متفائلاً مستبشراً ومبشراً ، فتصبغ الأعمال والأقوال
بصبغة الورود والبهجة والتفاؤل ، فإذا صارت تلك الأعمال
والأقوال ذكريات لازمتها هذه الألوان الزاهية وأسبغت عليها
أثواباً من الجمال الذي قد يكون معظمه من نسيج الخيال . فان

الانسان لا يعرف طعم الحياه ويندر على وزنها الا فى بهولته واكتمال رجولته ولا يصدر عليها حكما الا عند اشرافه على مغادرتها ومفارقتها .

أما سبب خيبه آمال بعض الرجال فى الصداقات التى يرتبط بها فى تلك السن من الخامسة عشرة الى الثلاثين - وهذه هى فترة الشباب الحقيقى فى نظرى - فهو انعدام الحب بشاتا من قلوب الأصدقاء ، وهذا راجع الى سببين ، الأول عجز بعض النفوس عن المحبة شعورا وتبادلا لأن المحبة موهبة الهية ، فمن خلت نفسه من تلك الموهبة فلا يلام ولا يعتب ولا يبغض لأن الذنب ليس ذنبه بل الخطأ والنقص فى تكوينه ، وإن حبك اياه لا يحرك شيئا لا وجود له عنده وأنت لا تسمع من فى القبور .

والسبب الثانى هو النفاق السائد فى المجتمع الانسانى وبصفة أظهر وأوضح وأفجع وأفضح فى المجتمع المصرى .

فان الناس يظهرون لك الود فتصدقهم وتسرف فى الاخلاص لهم وفى حسن الظن بهم وهم لا يشعرون بك ، فان كان حفظك حسنا لم تحوجك الحياة لامتجانهم والاطلاع على حقيقة قلوبهم ، وان كان غير ذلك فهم يتكسفون لك عند أول فرصة .

وهذا النفاق قد تغفل فى النفس واستولى عليها وتصرف فيها وخلع على الوجوه أقنعة يخفون وراءها معاملها .

وقد أخذت أسائل نفسى عن هذه الحال ، فظننت - وما أزال أظن - أن النفاق قد يكون فطرة مثل الاخلاص فى القوة ، وقد يكون وراثة أو قدوة ، وقد يكون لمصلحة ملحة كال فقر والجهل ، ولزم المنافق فيهما ضعيف لأن عذره قوى ، ولكن الذى يغيظك هو النفاق الفطرى أو الذى لا تدفع اليه حاجة .

ان النفاق للأسف داء مزمن في الشرف عامة وفي مصر خاصة ،
ومن مصادره المهمة الفراغ وطول الوقت ونسرة الدرم وحلو النفس
مما يشتغلها من مهام الأمور ، فلا يجد المنافقون الا الدلام في الباطل
ويتأثرون به روايه منهم وسماعا من غيرهم ، فيذب الايحاء في انفسهم
بن الباطل حق ويتشعرون بالحاجة الى احماء الحق فيتخدون صورا
جديدة في الوجوه والحركات والسكنات والبسمات ثم تسرى هذه
الحالة التنزيه على جميع شئونهم •

قد لا أكون واضحا في هذا القول بالقدر الذي أريده مع اننى
أحب أن أجلى الحقيقة جلاء تاما •

ان مصادر النفاق متعددة ، أهمها الخوف من الأخطار الراهنة
والمقبلة ، والخوف من الظلم ، والخوف على الحياة ، والخوف على
الرزق ، والخوف من فقد الصديق أو الزوج ، والخوف على فرص
المستقبل التى قد تعرض للمنافق فيحتاج الى معونة من يريد أن
يصارحه ، الخوف المادى والمعنوى ، الخوف على المصلحة ، عدم
الايان بالله وعدم الثقة بالنفس ، الاقتناع التام - بحسب البيئة -
ان الحق وحسده لا ينفع صاحبه وأن الحق ينفر الناس منك
ويغضبك اليهم •

ان الحياة سياسة والسياسة صنعة ومداينة وحيلة وخديعة ،
فان كنت مخلصا واتخذت الحيلة وسيلة للخير ، لخير الطرف
الأخر وحده فلا تريب ، أما اذا خذت الحيلة لجلب الخير لك وحدك
فتنقلب الحيلة نفاقا وشرا •

وقد وقر في نفوس الناس أن الصراحة تضر صاحبها ، وفي
هذا صدق وصحة نظر ، لأن مجابهة الناس بما يسوؤهم محرم لأنه
ينطوى على أذى ، ولكن اذا كان فى تلك المجابهة ما ينفع الطرف

الاجر ، فالاعراض عنها دسب ، سواء أكان حبيبا لك أو غريبا عنك .
وهنا في مصر من يسمى ان تنصحه عدوا لك وان أظهر لك الشكر
أو الود فهو ينافق ، ان ولدك أقرب الناس اليك ينفر منك اذا
نصحته ، فما بالك بالغريب ١٩

فتصور تراكم هذه الأسباب في الطبيعة البشرية وفي الحياة
الاجتماعية وفي عهود الأسقام الظالمة منذ فجر التاريخ الى الآن ! ،
ولكن هذه كلها لا تقوم أعذارا للنفاق في نظري ولا يمكن استنباط
مبررات أو مسوغات له ، لاننى سرفت رجلا صريحين صادقين نصحوني
وهم لا يضمرن لي حبا فأحببتهم ، وعرفت المجتمع الأوربي في
أحسن أوقاته وهي أوائل القرن العشرين الى بداية الحرب العالمية
الأولى ، فلم أجد عشر معشار النفاق الذى لمستته في مصر في يوم
واحد وفي مكان واحد . وبالطبع لا يمكن المقارنة أو الموازنة بين
أوربا ومصر ، فان في أوربا تكوينا آخر وأخلاقا أخرى وتاريخا آخر
ونزعات للفضائل أولاها الحرية والكرامة الذاتية ، وهذه الأمة
المصرية بجميع عناصرها محرومة منها .

أنا لا أصف علاجا ولا أشخص داء ولا أدعى علما ولا أنعى
رذيلة على أحد ، ولكنى أقرر الواقع الذى لمستته في مجال واحد
من مجالات الحياة وهو مجال الصداقة . وأعزو هذا الواقع لأسباب
كثيرة قد لا تحصى ، منها الغيرة والحسد والعجز والطمع وطموح من
لا كفاية عنده ، وانتشار الغيبة والنميمة واعتبارهما صفات جائزة
مباحة ، وتدهور المعتقدات الدينية وانهيار صرح الأخلاق وانتشار
المفاسد والمظالم وعبادة المال والمناصب وتفكك روابط الأسرة
واشتعال الحروب في العالم .

يؤلمنى أن يعرض لى موضوع النفاق عند الكلام على الصداقة
ولا سيما الصداقة في الشباب ، ويحزن فى نفسى أن يقودنى قلبى الى

هذا الحزن والأسى وكنت فى أول القصد أريد أن أجعل كتابتى
عن أصدفائى كالغدير الصافى والبستان المرهر والصباح الضاحى
والوجه الجميل الضاحك فما حيلتى ؟

ان فى قلبى صورا كثيرة لوجوه باشة وقلوب نقية ولا سيما
بين أصحاب الصبا عندما كنا نجتمع فى فناء المدرسة ونتصافح ،
ونضحك ملء أفواهنا بقلوب لا تحمل هما ونفوس لا تعرف حسدا
ولا غيرة ولا رغبة فى منافسة ، ولا تعرف نيمية ولا غيبة
ولا دسيسة ، ولا ننظر للفوارق بيننا فى المكانة الاجتماعية ،
ولا نحقد على غنى أو ابن كبير ولو كان ناظر النظار .

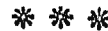
تلك كانت أياما جميلة . نعم لقد تنكرت لنا بعض الوجوه
وتعالت وصعرت حدودها وشممخت بأنوفها لا عن جدارة ولا عن خلق
كريم ولا مجد أثيل ولا عن عظمة حقيقية ، ولكن لمجرد مال ورثوه
أو لقب يتباهون به وليس لهم ولم ينله آباؤهم عن شرف أو اجتهاد ،
ولكننا أثناء الدرس لم نكن نفكر فى هذا ولا فيما قد يحدث فى
المستقبل . كل هذا كان جميلا وعذبا ويشعرنا شعورا باطنا بأننا
الآن نعيش عيشة راضية تبقى ذكرها فى أنفسنا الى الأبد وأنها
سوف نفتقدها يوما فلا نجدها وأنها سوف نأسف عليها .

لم نكن نذخن ولا نشرب الخمر خلسة ، ناهيك عن الحشيش
والأفيون والسموم البيضاء والسوداء ، ولا نذهب الى السينما
لأنها لم تخلق ولا الى المسارح ولا نجلس فى مقهى ولا نقرأ كتبنا
خليعة ماجنة ، ولا نتندر بأحاديث جنسية ولا نسيء الظن ولا نكتب
مكاتيب حب لمعشوقة معلومة أو مجهولة ولا نخدع آباءنا وأهلنا
ولا نكذب عليهم ولا نخفى حياتنا ولا نكذب على بعضنا بعضا
ولا ننافق ولا نوارى ولا نمارى . لم نكن ملائكة بل كنا فتيانا
أطهارا لا نعرف الا البيت والمدرسة والفكاهة البريئة ونعرف
الكرامة ونحافظ عليها ونعرف الرجولة ونعتز بها .

وقد اكتشفت بعد ذلك أن هذه الفترة بعينها كانت فترة عهد الانحلال فى الاخلاق والادب فى أوربا ولا سيما فى الجزر البريطانية، وكشفت أن هذا العهد نفسه هو عهد « أوسكار وايلد » وتهتك الأدباء فى الأدب شعرا ونثرا ، فانظر كيف أن انجلترا وألمانيا حاولتا التخلص من عيوب الأخلاق ونحن الذين كنا أطهارا تدنسنا وانحلت أخلاقنا وتدهورت قيمنا فأمسينا فى نصف القرن العشرين نشبههم فى أوله لأنهم حكموا واحتلوا وأفسدوا من أخلاقنا ما كان صالحا .

وليس معنى هذا أن نفوسنا لم تكن تشعر بالجمال والفن . نعم كنا نشعر بهما عن طريق الجديت والكتب والادب ولا نعرف الدنس ، وكان الفساد مستشرى فى الحياة السياسية ونهض مصطفى كامل وشرع يتكلم فى الوطنية ويحرك عواطفنا فى جريدة اللواء ، وكنا ننظر الى مشايخنا ووزرائنا على أنهم كبار وأهل وقار وعقل وأنهم سيصلحون الفاسد ، فلترك لهم هذه الأمور حتى نتم تعليمنا .

لم نعرف الأحزاب ولا الرشوة ولا المشايعة للزعماء ولا الأحقاد والضغائن ، ولم نعرف المداوات ولا كراهية الأساتذة ، ولكن كنا نشعر أن فى وجود الخوجات الانجليز شذوذا لم نفهم مداه ولا سببه لحدائنة سننا ، وكنا نحمل لبعضهم بغضا دفيننا لأشخاصهم ولكن لعنجهيتهم وصلفهم وكبرياتهم ونفختهم الكذابة ، وقد اضطهدناهم وعاكسناهم قليلا شعورا منا بأنهم أعداء يدعون السيادة ويريدون اذلالنا ، ولكن كان لبعضنا منهم أصدقاء مخلصون ، وهم الذين تتقارب سنوات أعمارهم بنا وبعض الكبار الذين كان لهم أبناء فى عمر كعمرنا .



(١١)

العمل بمهنة التدريس

والصحافة

أسلمتني الحياة المدرسية الثانوية بالمدرسة الخديوية لا الى مدرسة عليا ببقية رفاقي ، بل الى الجهاد في الحياة ، فأول ما وقعت وقعت في مدرسة المعلمين في درب الجمائز حيث تلقيت فنونا في التربية وآداب اللغة الانجليزية واجتمعت بشبان شبه ناضجين وتوطدت بيننا صداقة قوية ، وقد نجحوا جميعا وصاروا أساتذة ونظار مدارس ثانوية وبلغ بعضهم قمة الوظائف التعليمية ، ولكن الكثرة الغالبة منهم كان يشوبها خنوع وأظن مرجعه الى الحاجة الى الوظيفة والشعور بأن أمرهم أصبح في يد الخوجات الانجليز أمثال سوانسون وسميث وهاونون وآخر درجات السلم دوجلاس دنلوب غريق الغرور والاستبداد معبود عائلات المغاربة والمراكشيين الذين احتشدوا في ديوانه اخوة وأبناء عمومة وأصهارا وتهتكوا في عبادته والاخلاص له ولو بالتجسس على بعضهم بعضا وعلى غيرهم وكانوا أساتذة وتراجمة •

فلما نلت اجازة مدرسة المعلمين قصدت صباح يوم من شهر اكتوبر سنة ١٩٠٤ الى مدرسة القربية الابتدائية ومعى خطاب التعيين لأشغل وظيفة مدرس اللغة الانجليزية والترجمة والأشياء والخط الافرنجي والجغرافيا (!!) مقابل أربعة جنيهاً أنتقاضها مشاهرة من نظارة المعارف العمومية •

فلما دخلت المدرسة ، تقدمت الى ناظرها في غرفته وكان رجلا في الخمسين من عمره تبدو من كلامه طيبة القلب وسلامة النية

والاعتقاد بأن العمل الموكول اليه وهو ادارة مدرسة ابتدائية فيها نحو خمسمائة تلميذ أمر بسيط حين التدبير للغاية ، فلما لقيته ، قابلني ببشاشة ولطف ورحب بى على عادته مع كل قادم واهتم من سياق حديثه أنه من متخرجى الأزهر الشريف وقد وضع العصامه وخلق الجبة فيمن وضعوا العمائم وخلعوا الجبب وحلقوا اللحى فى العهد الحديث ليظهروا أمام السادة الجدد بمظهر القابليين للإصلاح والسائرين مع المدنية الحديثة قدما يقدم ! ، وقال لى انه سمع عنى ثناء تبين أنه فى محله وأنه يود أن أجد فى المدرسة مجالا لعملى ونشاطى ثم افترقنا .

قصدت الى غرفة الأساتذة المدرسين فاذا هى أسوأ وأردأ قاعة فى البناء ، دخلت فلفت دخولى نظر الجالسين اذ كنت لا أزال فى مقتبل صباى لا أزيد عن ثمانية عشر عاما ، نحيفا حاد النظر متأنقا فى ثيابى على قدر ما تسمح لى وسائل المادية ، وكان فى حركاتى وكلامى ما يدل على النزق والكبرياء ، ولم أكن فى الواقع نزقا ولا متكبرا ، ولكنى كنت خجولا متهيبا ومخدوعا بالمثل الأعلى فى كل شىء .

دخلت غرفة الأساتذة المدرسين فاذا بى فى حضرة مجمع علمى صغير حوى كل صنف من أصناف المعلمين أو « الخوجات » كما كانوا يسمون فى ذلك العهد فى المدارس المصرية ، كان معظمهم أساتذة ضرورة قضت عليهم الظروف بممارسة مهنة التعليم فمارسوها مرغمين مضطرين غير حاسبين لعملهم حسابا وهم عاجزون حتما عن تقدير مسئوليتهم نحو « النظارة » التى عينتهم والأمة التى وكلت اليهم أمر تهذيب الشباب والأطفال الصغار الذين ألفت بهم حوادث الأقدار بين أيدي هذه الفئة التى يقال فى أحسنهم قصدا وأكثرهم علما انه انما يمارس عمله هذا لأنه لم يجد عملا آخر !

لذلك كانوا جميعا ناقلين غاضبين ساخطين تبدو عليهم علامات التعب والضجر ولم أجد بينهم واحدا يقبل على عمله بسرور وغبطة ، ولم أجد استاذاً منهم يطيل الوقوف معي أو يستقبلني ببشاشة تسهل على عملي أو يقبل على شارحا ومفسرا بعض ما يحتاج المدرس المبتدىء الى شرحه وتفسيره .

صعدت الى الفصل فكانت دهشة التلاميذ لرؤيتي عظيمة اذ كنت اقل عن كبارهم في السن والطول ، وامتاز عليهم بحسن الحياة ، وكان التلاميذ على استعداد تام لانفساد النظام واحداث الجلبة والضوضاء وابتداع الحيل المعروفة في وسط المدارس المصرية ، لولا أن رأوا مني شيئا من المعرفة بأصول التعليم ومقدارا وافرا من البشاشة وحسن المعاملة واكثر اثارا عظيما بأداء الواجب ، وكنت أمني نفسي بالفوز لأول مرة في هذه الفرقة فأفوز في بقية الفرق وقد حدث هذا بالفعل ، فلم تنته الحصة الأولى حتى انتشر في المدرسة أن « الخوجة » الجديد قادر عمله ، لطيف العشرة ، سريع الادراك وأنه متنبه جدا الى حسن النظام في العمل .

وهكذا قضيت بقية يومي في القاء دروسى بهمة وسرور وأفرغت قصارى جهدى في اكتساب ثقة التلاميذ . ما أجمل وأعظم هذه الصناعة في نظر من يحبها ويدرك حقيقتها ويسعى في تفهم حقيقة عقل الطفل ، وما أفسح مجال العمل للرجل الكفء المخلوق بفطرته لأداء واجب التعليم اذا أقبل على تلك النفوس الطفلية يهذبها ويعلمها ويقوم اعوجاجها وهي في طور القبول لكل الصور !

ولكن ما أغرب حوادث الدهر التي قضت على مصر بوصول التعليم في مدارسها ومعاهدها الى هذه الحالة التي لا يمكن وصفها ، ووضعت في مصاف المعلمين أشخاصا لا يحبون الأطفال ولا يفهمون عقليتهم ولا يحبون صناعتهم اللذيذة الشريفة !

وفى هذه المدرسة فهمت للأسف أن المدارس الأميرية بكل ما فيها من ترتيب محكم وإدارة حسنة وبرامج ومناهج قائمه على قاعدة واحدة تنحصر فى الاجابة عن هذا السؤال : ما هى الوسيلة المثلى التى يستطيع بها ناظر المدرسة ومن معه من الأساتذة والضباط أن يحفظوا نظام المدرسة حفظا ظاهريا بدون أن يتعبوا أو ينزعجوا أو يصل اليهم أى ايلام أو توبيخ من الرؤساء ؟ وما هى أقل كمية من العمل يمكن بذلها للحصول على أكبر مقدار من التنظيم الظاهر ؟

وما عدا هذا من تهذيب التلاميذ وترقية نفوسهم وتوسيع مداركهم وتجميل الحياة فى نظرهم والبحث فى تحسين شئونهم وسلوكهم فى بيوتهم وتربيتهم بصفتهم رجال المستقبل أو أعضاء عاملين فى المجتمع المصرى ، كل هذا بعيد عن خاطرهم .

وقد خطر ببالي احداث عدة أمور فى المدرسة ، منها تكوين مكتبة للتلاميذ فيها كتب مختلفة وبعض الجرائد والمجلات ليتعودوا المطالعة الحرة فى أوقات الفراغ ، ومنها أيضا تأليف جمعيات من التلاميذ ليتعودوا الاجتماعات النافعة والخروج لزيارة الآثار والتنزه جماعات فى الجهات الخلوية .

وقد اخترت من تلاميذى أصدقاء واستبقيت صداقتهم ومنهم عبد الرحمن عزام وعبد القوى أحمد وعبد الرحمن الساوى ، وعرفت أولاد ادريس راغب وأولاد عمر لطفي (١) وصادقتهم وعلمتهم

(١) كان عمر لطفي بك (١٨٦٧ - ١٩١١) مدرسا بمدرسة الحقوق الخديوية فوكيلا لها ، ثم تولى رئاسة نادى المدارس العليا فى ٨ ديسمبر سنة ١٩٠٥ وكان من خاصة أصدقاء مصطفى كامل ويعتبر رائد الحركة التعاونية التى ظهرت فى مصر سنة ١٩٠٨ ، وله جملة مؤلفات فى القانون والامتحانات الاجنبية =

وأحببتهم وجمعتني الحياة ببعضهم بعد ذلك بأعوام في أوروبا ومصر ،
وتكتشف بعضهم عن مواهب باهرة وعن اخلاص ووراء وحس صحيح ،
وفي معارفهم الاساذ عبد الرحمن الساوى عميد كلية الهندسة الى
آخر سنة ١٩٤٦ وهو نموذج الرجل الكامل والصديق الوفى يكسر
من ذكر عهد دراسته مع ان عشرتنا وعلاقتنا المدرسية لم تطل أكثر
من سنة ، ولكنه لا ينساها وقد حباه الله جميع الفضائل من
شهادة واخلاص ، وشاعت الأقدار السعيدة أن يدخل أحد أولادى -
يحيى لطفى - كلية الهندسة وأن يكون للأستاذ الدكتور الساوى
بك عليه فضل التعليم والتعهد والعناية الى أن تخرج ، وقال لى مرة
« اننى سعيد سعادة مضاعفة لان الله من على بأن أخدم أستاذى
وابنه وأرد لك جميلك » ، فأسرني الرجل بأدبه وكرم أخلاقه
ونخوته ، ومرجع هذه المناقب والفضائل طيب الأصل ، فان حسن
الأصل وطيب النشأة فى بيوت المجد هي أعظم ضمان للأخلاق .
هذه مجموعة من الأصدفاء أشعرتنى بكرامة الصداقة ومنازعتها
وخلوها من الأغراض فسمت الى أعلى الدرجات .

لم يطل عهدي فى التدريس بمدرسة القربية الابتدائية
وانتقلت الى مدرسة حلوان الابتدائية ، وكان ناظرها رجلاً ضيق
الفكر فنازعنى حقى فى ترجمة بعض آيات القرآن الكريم الى اللغة
الانجليزية لأنه رأى فى ذلك مساساً بالدين على حد زعمه فأقنعته
بأن القرآن الكريم نفسه منقول الى اللغات الأجنبية فى عشرات
التراجم بكل لغة أوروبية وانه لا يوجد فى القوانين واللوائح ما يمنع
من تقديم نماذج عليا فى الترجمة أو التعريب ، وبادرت بتقديم

== والتعاون وله أيضا كتاب حق المرأة وكتاب حق الدفاع (د . عبد العظيم رمضان ،
مذكرات سعد زغلول ، الجزء الاول ، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ، الهيئة
المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٨٧ ، هامش ٧٧٠ ، ص ٤٧٠) .

استقالتى وأنا لا أملك شيئا ولا يوجد ما أعتمد عليه الا الله ، فاتصل الرجل بنظارة المعارف بالتليفون فحضر الى المدرسة فى نفس اليوم مستر سوانسون المفتش الانجليزى بالنظارة وفهم النزاع واقنع الرجل بخطئه فاسترضانى ، ولكننى تشبثت باستقالتى ، فعرض على أن ينقلنى الى الديوان العام بمرتب حسن فاعتذرت له وألح فازددت تمسكا وتركت هذه المدرسة غير آسف .

لم يكن أمامى غير الاتجاه الى العمل فى الصحافة فلم أقصد اليها ولكننى دعيت الى احدى الصحف فلبيت دعوتها ، ذلك أننى فى مدة سابقة كنت ألقى محاضرات وخطبا فى جمعية النهضة الحديثة فتعرفت على المرحوم عبد الفتاح بيهم الذى كان يعمل مترجما فى جريدة الظاهر لصاحبها محمد أبو شادى المحامى ، فالح على بالاستئغال بالصحافة ، وقدم على مصر سنة ١٩٠٥ المرحوم محمد كرد على والسيد عبد القادر المغربى والمرحوم عبد الحميد الزهراوى فاشتركت مع كرد على والسيد عبد القادر المغربى فى تحرير الجريدة بعد وفاة عبد الفتاح بيهم .

ومنذ ذلك التاريخ بدأت أعمل فى الأعمال الحرة واستمرت عليها أربعين عاما لم ألجأ خلالها الى خدمة الحكومة ولم أنظر الى وظيفة أو منصب لاعتبارات كثيرة قد يأتى شرح بعضها فى سياق هذه المذكرات .

وقد استمرت علاقتى بالصحافة ثلاث سنين ، وفى ربيع سنة ١٩٠٧ حصلت على شهادة البكالوريا « من منازلهم » على ما سبق أن ذكرت آنفا ، وأشار على المرحوم مصطفى كامل بطلب الحقوق فى المدرسة الفرنسية وخاطب الأستاذ دىروزاس فى ذلك ، ولكنى عدلت عن ذلك والتحققت بمدرسة الحقوق الخديوية لجهاد ناظرها المستر

هيل خليفة الأستاذ ادوارد لامبير الذى كان قد استقال سنة ١٩٠٦
من نظارة المدرسة عقب خلاف شديد نشب بينه وبين دوجلاس
دنلوب ، وكان هيل يدرس التاريخ لنا فى المدرسة الخديوية
التجهيزية على طريقة غير واقية بالمرام ثم صار فى بضع سنين
أستاذاً بمدرسة الحقوق ثم ناظراً لها خلفاً للأستاذ لامبير أستاذ
تاريخ القانون فى كلية الحقوق بجامعة ليون .

* * *

المستتر الى فرنسا لطلب العلم وخدمة الوطن

- ١ -

كلية الحقوق بليون

فى مارس سنة ١٩٠٨ ألقىت خطبة فى ذكرى الأربعين لوفاة
المرحوم مصطفى كامل أقامت المستتر هيل ناظر مدرسة الحقوق
الخدوية ولم تقعه ، فاضطهدتنى ادارة المدرسة وطلبت منى
الانسحاب من صفوفها ، فصح عزمنى على السفر الى فرنسا لأتم
دراستى بكلية الحقوق بليون .

غادرت مصر فى ابريل سنة ١٩٠٨ والربيع فى أوج ازدهاره
وسمت نضارته وكان هذا الصحو وذاك الجمال وتلك الحياة الوليدة
والنور المتدفق نعيننى على تخفيف آلامى والاقبال من قوة المعركة
الدائرة فى صدرى ، فقد كانت المسألة صراعا بين الحياة والموت
والنور والظلام والمستقبل البهائم والأمل الضاحك المستبشر وبين
المستقبل العابس واليأس القاتل وخيبة الرجاء ، وأنا الوحيد
الطريد الغريب الوجه واليد واللسان أهاجر فى طلب العلم والرفعة
وخدمة الوطن ولا أطلع أحدا من الخلائق على سرى ولا أبوح لأحد
بما انطوت عليه جوانحي ولا أعتمد على أحد ولا أنتظر معونة من
أحد .

كنت أشعر بقوة غامضة تدفعني وتشجعني وتأخذ بيدي
وتيسر لي الأمور المهمة في أوقاتها ، ربما كانت غريزة الحياة ودفعة
الشباب والقيظ من الظلم والغبن والكيد والأذى والخفلة المحيطة
بى وموت القلوب والأرواح • ان هذه الحالة النفسية لم تغادر
ذاكرتى وما زلت أشعر بها في كل الأوقات •

تركت أهلى وبيتى وكتبى وهى أعز الأشياء عندي وثيابى
وكل ما اقتنيتنه وأحببتنه فى ثمانى سنوات من أاثاث ومتاع وذكريات
وأشياء ألغت رؤيتها ولمسها ، تركتها فى بيت جميل فى الحلمية
الجديدة •

وجدت نفسى فى ثغر مرسيليا ومعى حقائى وركبت مركبة
الى محطة السكة الحديد لالحق بالقطار السريع الى مدينة ليون ••
وطال السفر حتى بلغنا ليون (محطة بيراش) عند نصف الليل
كانت المدينة كثيبة مظلمة ، تلك التى دعوتها بعد ذلك « ليون
الزاهرة » أين أزهارك فى هذا الليل البهيم وتلك الوحدة القاتلة ؟

ولو علم العالم حينذاك أننى كنت أحمل فى كيس حزام
تمنطقت به خمسة جنيهات انجليزية فقط لا غير ، لضربنى المشفقون
بالسيف ! •• تلك المغامرة فى سبيل العلم والوطن والشرف
لا يؤيدها سوى خمسة دنانير !!

قصدت فندق الغرباء ولم أنم فى البقية الباقية من الليل
وتيقظت مع الديكة وأسرعت بالنزول وقصدت الى كلية الحقوق
وسألت عن الأستاذ ادوارد لامبير فقال لى «البواب » وأسفاه
يا سيدى انه مسافر فى الريف ••• ان الجامعة مغلقة لعطلة عيد
الفصح • فعدت أدراجى يائسا وفهمت بالاشارة أن الأستاذ لابد
أن يعود وأن الكلية سوف تفتح أبوابها بعد أيام •

وقصدت نحت المطر مكنبه فى ساحه بدور وطلبت من الرجل كتابا فى القانون الرومانى واخر فى الاقتصاد السياسى وورقا وكراسات وقلما وعرضت عليه التمن ، وفهمت أنه يجهلنى الى ان اعود لآخذ بقية الكتب بعد عطلة عيد الفصح .

وعدت الى عرفتى بالفندق وفتحت حقيبة الكتب وأخرجت قاموسا وكراسة وقلما ، وبدأت أقرأ كتاب القانون الرومانى انك لا تدري مقدار اللذة النفسية والمتعة الروحية والحماسة العقلية التى شعرت بها فى ذلك المساء حتى كدت أنسى العشاء او أتهاون فى أمره لولا أننى خشيت أن صاحب المطعم يطمع فى مالى القليل فينكر ما قبضه .

وكنيت أشعر بالذل وأنا أخطو بعتبة المطعم لحقارته بالنسبة الى المطاعم التى عرفتتها فى مصر وفى أوربا فى سياحتى الأولى سنة ١٩٠٦ ، وقد أخبرت صاحب المطعم أنى لا أشرب النبيذ وأشرب بدله ماء فيشى أو ايفيان .

كنت فى حالة نفسية لا تسمح بالمرح وكنيت طريد الظلم من بلدى ومجبورا على ترك مدرسة الحقوق ومرغما على الانحراب ، قليل المال عديم العون ضعيف الأمل ، جاهلا بلغة البلاد مستهدفا لاضطهاد الانجليز والقصر والحكومة المصرية بعد نهاية دراستى التى لم أبدأها .

ولكن هذه الحال النفسية ذاتها سلاح ذو حدين ، فكما انها تقصى الشباب عن الشهوات فهى خليقة أيضا بأن تقريره بالاستمتاع ولو ترويجا للنفس وانتهازا للفرص ، ولكن الذى نفعنى لم يكن المنطق ولا موازنة الأدلة ، ولكن الغريزة وحدها ، غريزة البقاء

والطموح ولوفاء مع نفسى وبغضى الظلم ورغبتى فى أن أنجو
بتحقيق أملى والتخلص من شماتة الأعداء .

هذه حقيقة أقررها وقد علمت فيها بعد أن كل مرة انتصرت
فيها على نفسى ازدادت قوة على النفساومه كأنه تدريب على الجندية
أو رياضة بدنية تقوى العضلات وتشد أزر الرجل .

فى تلك الفترة فتحت الكلية أبوابها ولقيت الأستاذ ادوارد
لامبير والتحقت بالدراسة وبدأت أحضر المحاضرات مع الطلاب
الفرنسيين ولم يكن فى الكلية طالب مصرى واحد لأننى كنت
البادئ بالدعاية الى ليون فى مصر ، فأقبل الطلاب بعد ذلك زرافات
ووحدا ، وأنا أحتفظ لكل واحد من هؤلاء الشبان بأعمق الشكر
لأنهم لبوا دعوتى وأقبلوا وسمعوا نصيحى وأنسوا وحشتى
وشرفوا مصر ورفعوا ذكرها عاليا .

ولم يأت شهر نوفمبر التالى (من ابريل سنة ١٩٠٨ الى
نوفمبر سنة ١٩٠٩) حتى كان فى ليون أكثر من خمسين طالبا ثم
تزايدوا ونموا وربوا حتى بلغوا فى سنتين نحو من ثلاثمائة طالب
فى كليات الجامعة ومدرسة التجارة العليا وبقية المعاهد .

وتأسس المعهد الشرقى خصيصا للعلوم العربية والشرعية
الاسلامية واعتز لامبير بطلابه كما اعتزوا به .

فما قيمة المتاعب القليلة التى امتحننى الله بها فى سبيل
هذه الثمرة الحلوة الناضجة وتلك القطوف الدانية ؟

كنت أقصد الكلية صباح كل يوم وينظر الى الطلاب
الفرنسيون نظرة تعجب من الطالب الذى بدأ دروسه فى آخر
السنة الدراسية وهو فوق هذا لا ينطق الا بكلمات قليلة يتلقى

المحاضرات ويدون ما يسمع منها بأحرف عربية تارة وبأحرف لاتينية بنطق انجليزي تارة أخرى ، ثم اننى لم اكن ألبس ثيابا أنيقة كما يفعل معظمهم لأنهم من أبناء الأعيان ، وأجلس فى ركن قريب من الأستاذ لأتلقى كلامه حرفا وحرفا وأقول « اذا لم يكن من الموت يد فمن العجز أن أكون جباناً » .

ثم نظرت فى حالى فرأيت أن أقرأ الصحف صباح مساء وأحضر تمثيل المسرحيات وكان الأجر للطلاب زهيدا جدا وهو فرنك واحد ، وأقصد الى الاجتماعات العامة وألتقف الكلمات وأغشى المجالس وأتكلم خطأ وأرجو محدثى أن يصحح أغلاطى ، وأبدأ كلامى دائما ببضع كلمات محفوظة اشادة بفرنسا والفرنسيين مما يعين على نفخ أوداجهم ونفس ريشهم لأنهم دبكة أصلاء وانقلبوا رجلا ويهز المدح أعطافهم . وهكذا قليلا قليلا حتى شققت طريقى .

وأثناء ذلك مرضت مرضا خطيرا فى القلب والأعصاب وأظنه من صدمات نفسية ، الوحدة والاغتراب والفاقة والتعفف والكتمان والكبت وفقدت شهية الطعام والنوم ، ولكننى عند الصباح أجمع من ضعفى قوة تكفى لحضور الدروس . ونصحنى طالب طب بالذهاب الى الأستاذ الدكتور « مويسيه » ، وهذا الطبيب العظيم رجل لا أنسى فضله ما حييت وانى مدين له بعد ربه الى علمه وعطفه وأدبه ومواساته ، فقد تفرغ لى وفحصنى فحصا كاملا وهز رأسه وقال :

— ليس بأحشائك الباطنة أى مرض عضوى .

ولكن قال لى : هل لك صديقة صغيرة ؟

فاستفسرته حتى فهمت منه أنه يقصده الى عشيقه من
العاملات أو الطالبات آتتزه معها وأخلو بها وأغازلها واقضى منها
وطرا ، فأجبتة نفيا وعللت عفتى بخوفى من الامراض الجنسية ،
فهز رأسه وقال :

— ان اى مرض جنسى يصيبك انا كفيل بعلاجه ، أما المرض
الذى يصيبك من الكبت والحرمان فلا قبل لى بعلاجه ، فان امتنعت
عن سماع نصحي فخير لك أن ترحل الى بلادك ، فان الكبت
والرطوبة هنا وقيط الصيف تصطلح عليك فتؤذيك ويعقبها مرض
خطير .

ثم وصف لى نظام طعام خاصا ومياها معدنية .

وقد اتبعت نصيحته ولزمت عيادته طوال اقامتى فى أوربا ،
أما نصيحة العشيق فقد أضمرت أن أخالفها معتمدا على الله ،
وكذلك العود الى الوطن فقد صممت أن أموت بعيدا عن بلدى
وألا أعود الا اذا أتممت دراستى وجاهدت ضد أعداء الوطن فى كل
مكان ، لأننى بجانب ذلك الذى وصفوه بالعفة ، كنت مصحوبا
بخجل شديد ، فلا أذكر أننى تبعت فتاة فى الطريق ولا نطق
بكلمة غزل ولا شربت خمر حتى النبذ لم أذقه أثناء اقامتى ،
وما دخنتم قط .

أما مصادر رزقى فقد فتح الله أبوابها من مراسلة جريدة اللواء
وبعض مبالغ ضئيلة أخرى ، وكان مجموعها فى الشهر لا يزيد
على ١٢ جنيه ، فلما نشرت فى الصحف المصرية أن نفقات الطالب
لا تزيد فى الشهر على هذا القدر ، حقد على الشبان المقبلون على
ليون لأننى فتحت أعين أولياء أمورهم وقالوا لهم ان فلانا هذا
الذى يدعو الى التعلم فى ليون يعيش عيشة الكفاف بنفقة المحجور

عليهم ، ولم يحسب حسابا للملابس فى برد الشتاء ولا للملابس والكتب والدروس الخاصة ورحلات الصيف والشتاء وغشيان المجتمع وتبادل الهدايا فى الأعياد والمناسبات ، فأية عيشة هذه التى يرسمها لنا ويضع ميزانيتها ويكتفى بوصف جمال ليون وأنهارها وبساتينها وأشجارها وشوارعها وجنورها ؟

وأنا كنت أعلم هذا كله وأكثر منه ، وأعلم أننى ظلمتهم بنشر هذه الفكرة ، انما كنت أقصد الى تيسير الأمر على الآباء لبيادروا بارسال أولادهم أولا ثم يرغموا على تسديد مطالبهم بالاتفاق بينهم وبين لاميير ، ولكننى كتبت هذا الأمر خشية أن يحجم الآباء لأن معظمهم كان يخشى أن يضطهد أولادهم بعد عودتهم الى مصر ، لأن ليون كان منظورا اليها بعين المستخط وتعتبر البجالية المصرية فيها طلابا فائرين وكارهين للاحتلال الانجليزى وللحكومة المصرية الخاضعة ، وقد زاد موقفنا حرجا فى سنة ١٩٠٩ بعد المؤتمر الوطنى الذى عقد فى جنيف ، ثم ان المقالات التى كنت انشرها فى جريدة اللواء ثم جريدة العلم بتوقيع « قارىء ناقد » كانت بغضمة الى الجالس على الأريكة الخادوية والى الرجعيين المصريين .

- ٢ -

جان جاك روسو

كان من أوائل الكتب التى اشتريتها « اعترافات جان جاك روسو » ، فقد سبق لى أن قرأت كثيرا عن هذا الفيلسوف المجهيب الاطوار باللغة الانجليزية ، فأقبلت على الكتاب بشغف لأستطلع

اسرار هذا المعترف العجيب ، وجدت في شخص هذا الحكيم
المسكين شبهها شديدا بينه وبينى ، فقد كان طريدا شريدا وقد علم
نفسه بنفسه وألقى بذاته في خصم الحية وهو لا يحسن السباحة
فاجتهد حتى اتقنها ، وكان على الفطرة غير منصنع ولا متكلف ،
وكننت أنا كذلك ، وكان يحب الحق والبصراحة وقد هاجر من وطنه
الى اوطان أخرى في سن تقرب من سننى وكان لا يحفل بالمال ان
قل عنده او كثر ، الا خلة واحدة ذميمة كانت عنده أشفقت عليه
منها وهى تعلقه بأذيال النساء ، وخله جميعه زادنى به تعلقا وهى
حبه للحرية ودفاعه عن الضعفاء ونهوضه لمقاومة اعداء المساواة
الانسانية ، وكانت الرسائل الأولى التى قدمها لأكاديميه ليون عن
« أسباب التفاوت بين البشر » مثلت جاذبة ، هذه الأسباب كلها
مجمعة حبيت الى هذا الرجل .

لم يكتب العرب عن روسو شيئا فيه غناء لمتلى لأنه ليس مؤلفا
يغريهم فهو مشهور بانه من دعاة الثورة الفرنسية ، وكان المصريون
فى أول القرن العشرين يخشون ذكر الثورة لأن الانجليز أرهبوهم
وأرعبوهم ، وأعان الانجليز على العرب والارهاب وغرس بذورهما
فى نفوس المصريين ، حب الوزراء والكبراء وطبقة الباشوات
للمناصب والمال وطمعهم فى المناصب واعتقادهم - وكانوا على
حق - أن الانجليز وحدهم الحاكمون المطاعون ، وكانت جرائد
الانجليز تسميهم « أولى الحل والعقد » و « ولاة الامور » حتى بعد
حادثة دنشواى التى لم ينهض لمقاومتها أحد غير مصطفى كامل ،
وكان سعد زغلول نفسه وقتها وزيرا للحقانية (العدل) وكان
أخوه فتحى زغلول وكيل له فى تلك الوزارة ، بل كان أحد القضاة
الذين كتبوا الحكم فى قضية دنشواى ومهروه بأسمائهم وهو من
فريق الباشوات الذين نشأوا من طبقة الفلاحين كما كان أخوه
الأكبر سعد ، ويزيد فتحى زغلول على شقيقه الذى صار زعيم مصر

بعد حادث دنشواى بعشر سنين انه كان منفقا ثقافة فرنسية وكان عاكفا على نقل بعض كتبهم الى اللغة العربية ولا سيما ما كان ضد جرية الامم مثل مؤلفات جوستاف لبيون ، وكانت غاية فتحى زغلول أن يقاوم النزعة الدستورية فى مصر وأن يعنارب مصطفى كامل ومبادئ الحزب الوطنى .

وهذا أمر لم يكن منكورا فى زمنه لأن الانجليز كانوا اقوياء والمصريين كانوا جهلاء وضعفاء ولا يؤمنون بالوطنية ولا سيما الطبقة المتعلمة المنتفعة بالوظائف ، وقد أرادت هذه الطبقة أن تجعل من نفسها ارسنقراطية تتحكم فى رقاب الفقراء من الفلاحين وغيرهم ، ولم تكن لديهم طريقة غير الزلفى للانجليز واتخاذهم سادة ليتمكن أفراد هذه الطبقة من اتخاذ الفلاحين عبيدا .

أرى عند الرجوع بفكرى الى تلك الأيام أن الأفكار تتزاحم على لا كطالب علم فى بلد أوروبى أنا غريب فيه ، ولكن كشاهد على العصر وناقد متحرق على تحقيق العدل الاجتماعى فى وطنه ، أقارن حياتنا فى بلادنا بحياة هؤلاء القوم فى بلادهم ، حياة العقل والخلق والجسد والروح .

- ٣ -

الدفعة الأولى من الطلبة المصريين بليون - جمعية

**الطلبة المصريين بليون - اترك لنا شمال
افريقيتنا**

أقول قضيت ما بقى من السنة الدراسية من وقت وصولى فى ابريل سنة ١٩٠٨ الى أوائل يولية فى عذاب النار ، وكنت

أواصل الدرس ولا أطمع في التقدم الى الامتحان في الدور الأول، ولكنني أكافح وأكسب نفقتي بعرق جبينى بالتحرير فى جريدة اللواء وأعمل كشبان أمريكا أنفق معظم ما أربح فى التعليم والكتب. وكان قد وصل الى ليون عشرون طالبا بسبب دعايتى فى الصحف المصرية واقتداء بى على ضعفى ، ففرحت بهؤلاء الواردين واجتهدت فى جمع كلمتهم بتأسيس جمعية مصرية للطلاب المصريين (١) ، ولعلمى بحب الرياسة والتناطح عليها عند كبار الأمة وصغارها اكتفيت بايجاد الافكار حتى اذا انعقدت الجمعية العمومية قلت لهم : أقترح عليكم أن تكون جمعيتنا بدون رئاسة دائمة بل ينتخب

(١) أرسل لطفى جمعة الرسالة التالية باسم اعضاء جمعية الطلبة المصريين بليون الى محمد بك فريد وقد نشرت فى كتاب « أوراق محمد فريد ، المجلد الثانى ، المراسلات ، الجزء الاول ، تحقيق الدكتور مصطفى النحاس جبر ، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ، سنة ١٩٨٦ ، ص ٥٠ » .

سعادة الشهم الهمام محمد فريد بك رئيس الحزب الوطنى .

قرأنا بمزيد السرور خبر قدومكم الى الاقطار الأوربية لخدمة الوطن العزيز ، فدعونا الله أن يمدكم بقوة من عنده لتقوموا بأعباء المهمة العظيمة التى وكلت اليكم ، وسرنا تعريجكم فى طريقكم على مدينة لوزان لزيارة جمعية مصر بها ، كما انا فرحنا باجتماعكم بأعضاء جمعية مصر الفتاة بلندرة .

وحيث قد أسسنا منذ نصف شهر تقريبا جمعية لأبناء وطننا من الطلاب فى مدينة ليون ، ولدينا مشروعات علمية ذات أهمية .

وحيث أننا نود أن نحظى بلقاءكم كما حظى به اخواننا فى ذينك البلدين ، كما أنه يسر لذلك استاذنا العلامة لامبير. وللتعرف بسعادتكم . فنرجو ألا تكلفوا انفسكم كبير عناء فى عودتكم الى الوطن المحبوب فى تعريجكم بمدينة الزاهرة ، لنحظى بلقاءكم ولنجمع بينكم وبين العلامة الاستاذ لامبير (رئيس الشرف للجمعية) ونرجو أن نخبرونا بتاريخ قدومكم لنتحفظ لمقابلتكم وتكون مراسلتنا بهذا العنوان :

Bialy, Secrétaire de l'Association des étudiants Egyptiens,
= faculté de Droit, Lyon.

رئيس في كل جلسة أو على الأكثر لمدة قصيرة لا تتجاوز شهرا .
قال أحدهم : ولم هذه البدعة ؟ ولم لا ننتخب رئيسا دائما مثلك
لأنك صاحب الفكرة ؟ قلت : لسبب بسيط وهو رغبتى فى أن
يتدرب كل واحد منا على الرياسة ولأجل أن وجود كل عقل بخير
ما فيه من الأفكار . ففرحوا بهذا الرأى .

== ولنا كبير الأمل فى أن تلبى دعوتنا .

تحريرا فى ٨ يونيه سنة ١٩٠٨ . أعضاء جمعية الطلبة المصريين بليون
كما أرسل اهلئى جمعة الرسالة التالية الى محمد فريد ، وقد نشرت فى كتاب
« أوراق محمد فريد » المراجع السابق ، ص ٥٥ .

ليون فى ١٤ يونيو سنة ١٩٠٨ .

سعادة الشهم الفضال محمد فريد بك رئيس الحزب الوطنى .

بلغنا كتابكم الكريم وسرنا وعدكم بالقدوم لزيارة جمعيتنا الزاهرة . اما
ثناؤكم علينا فقد تقبلناه شاكرين وان كنا نعتقد اننا لم نبغ غايتنا من أداء
الواجب نحو الوطن العظيم العزيز ، واننا وان كنا بعديين عن تلك الغاية الشريفة
الجليلة بمراحل ، فاننا نسير نهوا سيرا حثيثا ونعمل للوصول اليها .
وثبات ، فكلنا مجاهدون فى هذا السبيل كما كان يجاهد فقيد الوطن مصطفى كامل
باشا وكما تجاهدون انتم الآن .

هذا وقد سر العلامة لامبير فى تفضلكم بزيارته ، فلعل وراء تلك الزيارة
للشبيبة المصرية « خير عظيم » ، وهو لا يفادر ليون قبل ٢١ يوليو القادم ، وكنت
أود من صميم قواذى أن أكون بليون لأهظى بلقاؤكم ولكن ستعوقنى الظروف
عن ذلك إذ عرّمت فى عدة أيام على حضور دروس فصل الصيف فى مدرسة لوزان
الجامعة لأشتد فى اللغة الفرنسية ولامتلك ناصية فنون أدابها ، فان كنتم تملون
بجنىف كما وعدتم أعضاء جمعية مصر بلوزان ، فأننى سأسّر بلقاؤكم وأمتع نفسى
بحديث رئيس الحزب الوطنى المصرى .

وتذكرون اننى بعثت اليكم بكتاب من ليون قبيل مبارحتكم القطر المصرى وودت
لو القاكم هناك ، ولكن يظهر لى أن كتابى لم يصلكم الا بعد أن مرت الفرصة .

ان هذه الدفعة الأولى التي وردت أواسط سنة ١٩٠٨ وأواخرها وأوائل سنة ١٩٠٩ قد انطلوت على أنبغ الطلاب ، ومثلهم كطلّاع المهاجرين من مكة الى المدينة وقد أعانهم الله على النجاح فحلّقوا في أجواء القانون والأدب والتاريخ والاقتصاد والسياسة وسائر العلوم الفرنسية باشتياق واقبال حتى حازوا أعلى الدرجات وظهر منهم نوابغ وفحول هم دعائم النهضة الحديثة التي بدأت في أوائل القرن العشرين في مصر ، فالحمد لله على ذلك ، وهم الذين أجابوا دعوتنا لعقد المؤتمرات الوطنية في جنيف وباريس

== هذا وفي الختام. تقبلوا تحيتي واحترامى وتكرموا بتبليغها سعادة الوطنى الدكتور عثمان بك غالب .

المخلص

محمد لطفى جمعة

طالب علم بليون

كما أرسل لطفى جمعة الرسالة التالية باسم جمعية الطلبة المصريين بليون الى محمد بك فريد ، وقد نشرت في كتاب أوراق محمد فريد ، المرجع السابق ، ص ٥٦ :

سعادة المفضل محمد بك فريد - رئيس الحزب الوطنى .

وانانا خطابكم يوم الأحد ١٤ يونيه ، وانا لنتشكر لعزكم هذه العواطف التي تمثلت بأجمل مظاهرها وتلك العبارات التي زففتها الينا ، تحيى بها آمالنا وتبشّرنا بمستقبل مصر الجليل ، جعلكم الله خير قائد لخير شعب يتعلّق بّمن يجاهدون في سبيل اصلاح احواله .

ولقد أوصلنا العلامة لامبير ما شئت من آيات الشكر والتسليم ، وسالته عما طلبته ، فاجاب بانّه لا يسافر الا في أواخر يوليو ، وعليه فهو يستقبل حضوركم بكل سرور وترحيب ، كما نستقبله نحن كذلك بالبشر والسلام .

١٦ يونية سنة ١٩٠٨ .

أعضاء جمعية الطلبة المصريين بليون

وبروكسل ، فكانوا جيش مصر المجاهد وتلاميذ مصطفى كامل
وابناء البكر ، وهم الذين نهضوا بأعباء ثورة سنة ١٩١٩ بعد أن
غرسوا بذورها وتمهدوها بالسقيا ، وهم الذين نفخوا في رماذ
الإمة فأشعلوا النار المقدسة في قلوبها .

ان التربة الفرنسية صالحة لنماء النهضة بلا ريب اذا لم
تكن لفرنسا مصلحة أو فائدة في اخمادها واطفائها كما شهدت
بال تجربة . فقد حدث في تلك الأيام أن تقدم جزائري اسمه ابن
على فخار الى امتحان الدكتوراه ونجح وقدم أطروحة في القراض
وهو نوع من المعاملات المعروفة في الشريعة الاسلامية ، وقد تأثرت
جدا بنجاحه وأردت أن آتخذة قدوة وأؤدي له تحية وأشجع
المصريين ، فكتبت مقالا مسهبا في وصف الاحتفال بأطروحتيه
ونشره اللواء وجاء فيه عفوا قولي « ان أهل الجزائر وشمال افريقيا
عرب مثلنا ومسلمون يتطلعون الى الحرية والاستقلال ، فمتي ياتي
اليوم الذي ينضم فيه شمل جميع العرب تحت لواء الحرية بعد
خلع نير الاستعمار والاستبداد ؟ . انني أرى في الأفق وميض
بوق ، وأنخيل السيد الأستاذ ابن على فخار من حملة الشمعة التي
تضيء المستقبل » .

ونشر اللواء هذه المقالة في صدره وورد في البريد على بعض
الطلاب المصريين بامضائي « قارئ ناقد » في شهر يونيه سنة
١٩٠٨ .

وحدث في يوم وصول البريد بهذا العدد من اللواء أنني
مغادرت الكلية مبكرا وقابلت ابن على فخار ولكنه لم يرني ، ورأيت
في يده اللواء منشورا ووجهه غاضب وممتقع ولم أفهم لهذا
الامتناع سببا ، وقصدت الى منزلي ، وبعد قليل وافاني رسول من

قبل الأستاذ لامبير يطلب مقابلتى ، فأسرعت إليه فوجدت فى يده
عدد اللواء ووجهه أصفر كالكرم يقطر غيظا ، فجبهنى بقوله :

- يا عزيزى لطفى انك خربت بيت ابن على فخار تحت ستار
الوحدة فى الدين والعواطف ، وسوف يطرده المجلس البلدى فى
ليون من وظيفته التى هى مصدر عيشه وأسأت اليه من حيث
أردت الاحسان !

فقلت له : وكيف كان ذلك يا أستاذى الأعز ؟

قال : خذ • السمت كاتب هذا المقال ؟

قلت : نعم •

قال : انك تدعو الى الثورة فى الجزائر وفى شمال افريقيا •
اعمل معروفا فىنا واترك لنا جزائركم وتونسكم ومراكشكم واصنع
ما بدا لك فى الانجليز دواعى عن مصر •

قلت : اننى أمجد كلية الحقوق وأستجلب الطلاب المصريين
والوح لهم بالمجد وأعمل على جمع كلمتهم حولك وأنت حامل لوائنا
ووالدنا والداى لخيرنا ومؤسس نهضتنا وصديق مصطفى كامل
وشريك جهاده فى آخر سنة من حياته •

فلم أزل من الرجل غايته وام تنفع معه حيلتى ، وقال لى :

- ولو ! اصنع جميلا واترك لنا شمال افريقيتنا (هكذا)
واصنع بالانجليز لأجل وطنك ما بدا لك • لقد أسأت الى شخصيا •

فقلت له بحزم يكاد يكون يأسا :

— لم أعلم قبل اليوم أن تونس والجزائر وشمال إفريقيا
ملك لكم بل هي ملك أصحابها •

قال : لو رأيت رأس ابن علي فخار (أي وجهه) وما عليه
من الغضب والقنوط لفهمت قولي •

قلت : ولكن يا سيدي انه ليس كاتب المقال بل أنا ، وليس
الموعز به لأنه لا يفهم شيئا ، ولو كان يفهم لعنه مفخرة ، فانا
لا أبالي به • تم انك علمتنا التضحية والبذل في سبيل الكرامة
فاستقلت من منصب نظارة مدرسة الحقوق الخديوية لأجل
كرامتك ولم تخضع للانجليزى دنلوب ، فكيف تعيب علينا الدعوة
للحرية ؟ • سلام عليك •

وخرجت غاضبا وصممت على أن أطلب تحويل اسمي الى
كلية باريس أو بوردو أو ديجون •

فبعث لامبير في أثرى بالأستاذ عزيز ميرهم وكان طيب
القلب فقال لي :

— خير وسيلة للمخرج أن تعذر للأستاذ لامبير وتكتب
خطاب أسف لابن علي فخار •

فلم أر جوابا على كلام هذا الرجل الطيب الا نظرة جهنمية
أدركها ميرهم وأدرك ما وراءها وقال :

— أنا مالى ومالك • قل وافعل ما بدا لك ، أنا واسطة خير
ليس الا •

قلت : أنت تحلم يا عزيز وتتكلم كأهل الكهف . ثم اطمئن
فاننى عقدت العزم على مغادرة ليون الى الأبد .

فقال : كيف تترك ليون ؟ ان لامبير يبني عليك كبار الآمال
ويتنبأ لك بمستقبل عظيم .

قلت : لو كان هذا حقا ما صدمنى فى أعز شئ لدى ، ومع
ذلك فالبركة فيمن دعوت من الاخوان ولبى دعوتى . السلام عليك

وعدت الى منزلى ، وبعد قليل تنازل الأستاذ الكبير ادوارد
لامبير بزيارته فخرجت واعتذرت اليه عن خلو دارى من مظاهير
الفخامة والغنى ، وقلت له اعتبرنى مجاورا فى الأزهر ، فضحك
ثم قال : ما هذا الذى سمعته من ميرهم ؟ انك اعتزمت على الرحيل ؟
ومن ذا الذى يتركك تفعل ما تشاء قبل أن تدخل الامتحان الأول ؟
الا ترى لى حقا عليك أرشدك الى ما فيه الخير حتى تتم دراستك ؟
هل تكبدت كل هذه الأهوال ليشسمت بك دنلوب وهيل (ناظر
مدرسة الحقوق الخديوية) وقمحة (وكيلها) وكل أعداء مصطفى
كامل وتزيد فيك شماتة ديروزاس (ناظر مدرسة الحقوق
الفرنسية بمصر) ، ذلك الفرنسى الذى نسى وطنه ؟ أما زح أنت ؟
ومن يقابل فريد بك عند وصوله بعد أسبوع ؟ ومن يلقى دروس
الشريعة الاسلامية بالفرنسية على اخوانك فى العام المقبل ؟ أتريد
أن تهجر المعسكر بعد التجنيد وتفر من خدمة وطنك ؟

فضحكت وقلت له : ان ميرهم لم يفهم قصدى ، انا أسافر
بعد زمن فى أواخر يوليو لآستريج فى سويسرا أو هوت سافوا
الى نهاية العطلة المدرسية ليس الا

وفى نهاية الحديث قمت مع أستاذى وصحبته الى باب داره
زيادة فى تكريمه لتنازله بزيارتي وأنا أضعف أبناء وطنى وأقلهم
شأنا .

- ٤ -

ضحك كالكاء !

لقد قاسيت أثناء اقامتى الأولى فى ليون صنوف الحرمان
بأنواعه ، وذقت ألوان المرض وشعرت بألوان من الآلام بسبب
لا يدركه أحد الا اذا وقف عليه . قاسيت الحرمان فى كل شيء
لا يترواح عنه من كان فى سننى ، وقاسيت القبط فى ليون وهو
أشد من حر مصر ثلاث مرات ، وحكمت على نفسى بقصر غذائى على
الخضر والفاكهة دون اللحم والنشويات ففقدت المقاومة مع الاجهاد
فى الدرس ، واعتكفت فى كسر بيتى معظم الوقت لأحفظ نفسى
من التبذل مع اخوانى الطلاب المصريين وكان بعضهم ينظرون الى
نظرة الاعزاز والتعظيم فأردت أن أحتفظ بهذه المهابة لأخدمهم ،
واكتشفت أخلاق ثيابى وتمزيق نعالي ، ولم أعود أن أرقعها لأننى
كنت فى مصر أربح ثلاثين جنيها فى الشهر وأصنع ثيابى من أجود
الأصواف وكذلك أحذيتى من أفخر الجلد . وقرأت فى تلك الأيام
شعرا لدانتى يقول فيه : « ليس أقسى على النفس من تذكر النعيم
فى أيام الشقاء » .

ولكننى لم أسخط ولم أغضب ولم أذرف الدمع ولم أحن الى
الوطن والأهل لأننى كنت قوى الأمل وأتوهم أنني قوى الإرادة .
وقلت لو لم أفرض على نفسى العفة عن النساء واللحوم والخمر

والدخان ، فماذا كانت تكون حالى ؟ • لقد ألزمت نفسى الحرمان
فلم أشعر بكل آلامه •

وحدث أننى شعرت من لامبير أنه أشار من طرف خفى فى
استحياء أنه مستعد لمعونتى بقرض حتى يصل المال الى يدي ،
فضحكت أمامه وشكرته وعدت الى غرفتى لأبكى وألزم الفراش
ثم تجنبته لقاءه ، ولم يتركنى الطلاب المصريون بالسنتهم فى تلك
الفترة فاتهمونى بالتعاطف والتعالى والتعالم وغموض الحياة ،
وأنتى لا أقابلهم لأننى أخلو بمعشوقة غريبة الأطوار مثل ، وذهب
بهم الخيال الى وصفها كأنهم رأوها ، وترامت الى غيبتهم فعذرتهم
والله وضحكت ذلك الضحك الذى قيل انه البكاء ! •

وحدث ذات يوم أن دق جرس الباب الخارجى للخان الذى
كنت نازلاً به ، ودخلت على صاحبة الخان بغير استئذان وهى تلهث
وقالت : ان رجلاً رسمياً بالباب فى يده محفظة كبيرة وهو يسأل
عنك يا سيدى •

فقلت لها دعيه يدخل فوراً •

وبعد لحظة دخل الرجل ويده قبعة نابليونية وحيانى بأدب
جم وقال :

— هل أنت السيد ماهوميت (محميد) لفتى (لطفى) جوما
(جمعه) الطالب بالجامعة ؟

قلت : نعم أنا •

قال : ألدبك يا سيدى وثيقة اثبتت شخصيتك ؟

قلت : نعم •

وابرزت له تذكرة الكلية وبها اسمى وصورتى ، فنظر فيها
بغير اكتراث وقال : اشعار من بنك كرىدى ليونيه .

وناولنى اياه فوقعت عليه باسمى ، ثم فتح محفظته وأخرج
نقودا ذهبية وأخذ يعد ألف فرنك . ثم أخرج اشعارا آخر فيه
مائتا فرنك وعدها من أوراق البنك الفرنسية ، ثم أخرج اشعارا
ثالثا فيه مائة وخمسون فرنكا وعدها ورقا وقطعا فضية ثم قال :

— ألف وثلاثمائة وخمسون فرنكا . تمام يا سيدى ؟

فنظرت الى النقود مكدسة على المنضدة وأنا ذاهل ، ثم طلبت
منه كل اشعار على حدة لمراجعتها فى ظنه ولكن المتأكد من أنها
باسمى حقيقة ، لأننى دهشت من وصول هذه النقود بهذه الكمية
وأنا فى أشد الحاجة اليها وخشيت أن تكون لغيرى لآلى وأن البنك
وعماله قد أخطأوا ، فلما تبقنت أنها باسمى ابتسمت . وحيانى
الرجل وخرج مسرعا لا يلوى على شىء .

فجلست خائر القوى لأننى ممن يدخرون الانفعال من طول
ما مارسنه ، جلست صامتة مذهولا . كيف وصلت الى يدى هذه
النقود فى تلك اللحظة ؟

لقد استعثت بطلب المدد من أهلى منذ أشهر ولم يصلنى
جواب ولا رد ولا بشرى ولا انذار بهذه النعمة ! . . . أ يحدث أن
كل مطالبى استجيبت فى وقت واحد ووصلت الى يدى فى هذا
اليوم السعيد ؟ هل فى تعففى وصبرى سر الاستجابة ؟

لقد احتقرت المال فى هذه اللحظة . . . لم أرض أن أمس
النقود ورأيته كجذوة من نار . . . اننى لا ريب مريض أو أن
الحرمان والوحدة وسوء المظهر قد أصابت نفسى بعقدة نفسية
من نوع جديد !!

من يوميات سنة ١٩٠٩

سجل لطفى جمعة أحداث العام الدراسى سنة ١٩٠٨ -
سنة ١٩٠٩ فى صورة يوميات وكان قد عاد الى القاهرة لزيارة
الأهل والأصدقاء قبل أن يعود الى فرنسا لمواصلة الدراسة بكلية
الحقوق بجامعة ليون .

وفيما يلى مقتطفات مما سجله فى هذه اليوميات :

الاثنين ٤ يناير سنة ١٩٠٩ :

اليوم الثانى من عيد الأضحى . اجتمعنا فى نادى المدارس
العليا (١) لنعنى بعضنا بعضا وكان الجمع قليلا وحضره فريد بك
رئيس الحزب الوطنى ، فخطب عمر لطفى بك وهنا الأعضاء وحثهم
على التكافل والتضامن ، وتلوته الى المنبر - وكانت هناك اشاعات
عن عزم الحكومة على مصادرة النادى - فخطبت فى استراحة مثل
هذا العمل وبينت خطره اذا تم وقلت : ان اغلاق نادى المدارس العليا
يسبب افتتاح ألف ناد سواه فى طول البلاد وعرضها وبينت مبدأ
ستيوارت ميل فى ذلك الموضوع .

الثلاثاء ٥ يناير :

ذهبت الى حلوان ٠٠٠ ولقيت هناك الشيخ طنطاوى جوهرى
وبعض الأصدقاء ، كان حديث الشيخ طليا وتكلم عن أصل الحياة
وأظهر حرية فكرية عظيمة ، وحثته من طرف خفى على الخروج .

(١) تأسس نادى المدارس العليا سنة ١٩٠٥ وكان أحد معاقل الوطنية فى
مصر وتعبيرا عن تطلع الوطنيين المصريين للتخلص من النفوذ الأجنبى والسيطرة
الاستعمارية على الوظائف والمهن والصناعات ، وقد انتخب عمر لطفى رئيسا
٠ ٤

من خدمة الحكومة لخدمة مبادئه الفلسفية ليلتف حوله تلاميذه
ومريدوه ، ولكن يظهر لى أن الأستاذ مع فضله وعلمه وذكائه
يحتاج الى شىء من العزم والشفاعة للقيام بمثل هذا العمل ،
ولكننى لا أشك فى حدوثة .

الجمعة ٨ يناير :

لقيت فى هذا اليوم حامد العلايلى . بعد أن افترقنا فى
لوزان فى صيف هذا العام فسرنا لمشاهدة المظاهرة الكبرى التى
نشرت الصحف أخبارها ، فلما بلغنا باب الخلق . استأجرنا
مركبة وزيناها بالأعلام وبلوحتين كتب عليهما « ليحيا الاستقلال
والدستور » ، وقد رأينا من أصحاب المحال الوطنية والعامة
مساعداً غربية عند علمهم بأن العمل وطنى وأنه فى سبيل انقاذ
مصر من العدو الأجنبى ، وطفنا بالمركبة سائر الشوارع ونحن
نصيح والشعب معنا « لتحيا مصر . . ليحيا الوطن . . . ليحيا
الاستقلال . . . ليحيا الدستور » .

وتجمع الناس حولنا تجمهر عظيم فى ميدان عابدين وكان
كلهم طوع اشارتنا ، ودخلنا حديقة الأزبكية فجمعت الناس حولى
فى لحظة وخطبت فى معنى الأعياد وقلت ان عيد الأمة أهم بكثير من
أعياد الملوك والأمراء .

السبت ١٦ يناير :

لقيت عرضا المستر يانز محرر الاجبشيان ستاندارد سابقا
متحدثنا فى المسألة الايرلندية وأرشدهنى الى أسماء كتب كثيرة
يمكننى مطالعتها قبل سفرى الى ايرلندا وهو ما أنويه لأخدم الوطن
المصرى فى البلاد البعيدة وأسمع الأجانب صوتنا من جديد .

الثلاثاء ١٩ يناير :

أوشكت معدات سفري أن تتم وأرجو من الله أن يكون كل شيء لما فيه الخير . عزمت على اهداء دائرة المعارف الانكليزية الكبرى الى المدرسة الجامعة المصرية وكتبت اليها بذلك لارساله من يتسلمها .

الخميس ٢١ يناير :

أعد اليوم مواد محاضرة ألقيا مساء في نادي اللجنة الفرعية للحزب الوطني بالسيدة زينب . ستكون المحاضرة ذات ثلاثة أجزاء ، الأول عن الحرية ومعناها وأنواعها ، والثاني عن كيفية نيل انواع الحرية للأفراد والأمم ، والثالث عن ضرب مثل بالامة الايطالية التي نالت الحرية بأكملها .

الثلاثاء ٢٦ يناير :

آخر يوم أقضيه في القاهرة قبل سفري ٠٠٠ لقيت حافظ ابراهيم فقال لي « اذهب ولا تعد الا بعد اكمال دروسك » فاثرت هذه الوصية في نفسي سيما وأنها هي التي كانت تجول في رأسي .

الأربعاء ٢٧ يناير :

كل يوم أرى أدلة جديدة تثبت لي أن الشيخ عبد العزيز جابيش أساء كثيرا الى القضية الوطنية بمقاتلته التي طعن فيها على اخواننا الأقباط ، فليس أقدر على الخدمة الحقيقية من القبطي الأمين .

أبحرت الباخرة شلزوج في الساعة الثانية . هذه هي المرة الرابعة التي أركب فيها هذه الباخرة ذاتها . كدت أبكي عند

صغير الباخرة ، ولكن الواجب والخدمة الحقيقية للعلم والوطن
أعظم من حب الأهل •

الخميس ٢٨ يناير :

البحر لا يزال هائجا والسفينة في اضطراب لا مثيل له •
وقد تعرفت هذا اليوم بالمستر بيربوهم ترى الممثل الانكليزي
الشهير ، فاخبرني أنه جاء مصر ليدرس بعض الشئون الخاصة
بتمثيل رواية « النبي الأبيض » التي وضعها « هول كين » ولكنه
متردد لأنها ضد السياسة الانكليزية على خط مستقيم ويخشى
أن يضر به تمثيلها في الدوائر العالية ، فشرحت له تاريخ المسألة
المصرية وأظهرت له أن قول الحقيقة للرأي العام الانكليزي هو
أعظم خدمة يمكنه أن يقدمها لانكلترا كرجل يحب وطنه وقد أقنعت
بعد ذلك فاقتنع ووعدني بحذف بعض الأمور الشخصية المتعلقة
بكرومر وأن التمثيل سيكون بلندن في شهر سبتمبر القادم ودعاني
لزيارته هناك ، وتكلم كثيرا عن غمينا وبارنل ستون وكوكلان وقد
قيدت بعض الملاحظات لكتابة مقالة عما دار بيننا من الحديث •

الاثنين أول فبراير ١٩٠٩ :

خرجت عصرًا وكان البحارة يعدون الجبال والآلات للميناء
ورأيت شواطئ فرنسا البنفسجية •

ركبت القطار من مرسيليا الى ليون •

فكرت بعد وصولي الى الفندق في سياحتي في بلاد الأندلس
ومراكش والجزائر وتونس ، لابد لي من زيارة العالم الاسلامي كله
لاكتب عنه كتابا ولاخطب في أبنائه •

الأربعاء ٣ فبراير :

شرحت لاخوانى مشروع سياحتى فى العالم الاسلامى ودعوتى
أمم شمال افريقيا للاجتماع لتأليف وحدة سياسية تربطها عدة
روابط أدبية ومادية .

الجمعة ٥ فبراير :

فى الساعة الثانية بعد الظهر ذهبت لزيارة الأستاذ لامبير
فوجدته فى المدرسة وسرنا معا نتحدث فقال لى ان الحركة الوطنية
فى مصر ينبغى أن تكون فى أيدي الشبيبة وأن فريد بك من الأعيان
(ارسنقراط) وهو بعكس مصطفى كامل الذى فهم أن الحركات
الكبرى لا تقوم الا بالطبقات الوافرة العدد ، وذكرونى بما تكهن
به عن مشروع الجامعة المصرية من أنها ستكون أهوية فى أيدي
الانكليز ، وقال : ان عيب المصريين هو ان كل واحد منهم يريد
لنفسه الظهور والصيت مع أن العمل الحقيقى لا يتم بالضيضاء .

قابلت على الشمسى وحادثنى عن المؤتمر المصرى فى
جنيف (١) .

(١) هو مؤتمر الشبيبة المصرية الذى عقد فى جنيف فى ١٣ سبتمبر سنة
١٩٠٩ لمحاولة الحصول على التأييد الدولى ازاء حصار الاحتلال البريطانى للحرب
الوطنى محليا ودوليا .

أما على الشمسى فكان من ضمن أعضاء الحزب الوطنى وعمل مع محمد
فريد أثناء هجرته ولكن فريدا كان يشك فيه لعلاقته بالخديو ، ثم انضم الشمسى
بعد ذلك للوفد المصرى بعد قيام ثورة سنة ١٩١٩ واشترك فى وزارة سعد زغلول
الاولى سنة ١٩٢٤ كوزير للمالية ثم وزيرا للمعارف العمومية فى وزارات عدلى
يكن وثروت ومصطفى النحاس .

السبت ٦ فبراير :

فى الساعة الخامسة حضرت درس « الهيروغليفية » على
الأستاذ لوران ووعدنى بالبداية فى الهجاء مساء الأربعاء القادم
وأوصانى باسم كتاب وللحال عزم على دعوة اخوانى غدئ
لمناقشتهم فى هذا الأمر .

الأحد ٧ فبراير :

قصدت نادى جمعية الطلاب المصريين بليون بشارع الجمهورية
فالتقينا هناك ودارت المناقشة حول ثلاث مسائل مهمة ، الأولى
مسألة الاحتفال بذكرى مصطفى كامل يوم الخميس الآتى ١١
فبراير ، وسألنى خطابا بالعربية يترجمه الى الفرنسية فؤاد أفندى
برسوم .، والمدعوون طلاب فرنسيون وبعض رجال الصحافة .
ثم اقترحت على الاخوة الاقبال على تعلم اللغة الهيروغليفية فكانت
الأغلبية فى صفى ، وفى الحال قيدت أسماء ثمانية طلاب دفع كل
منهم عشرة فرنكات لشراء كتاب النحو الهيروغليفى .

أما المسألة الثالثة وهى مسألة الخطاب المتعلق بالاسلام
فأجل النظر فيه الى وقت آخر .

الاثنين ٨ فبراير :

قرأت فصولا فى كتاب القانون الجنائى تأليف العلامة جارو
ثم أخذت فى كتابة الخطاب الذى سألقيه يوم الخميس الآتى فى
الاحتفال بتمجيد ذكرى مصطفى كامل .

الثلاثاء ٩ فبراير :

فى الساعة الرابعة قصدنا الجمعية (جمعية الطلبة المصريين
بليون) ، ولما تكامل العدد تلونا الخطب كلها وقامت بعض

الاعتراضات على خطاب عزيز أفندي ميرهم لذكره الخديو ونحن لا نريد ذلك احتفاظا بحيادنا .

أدهشنى جدا خبر تعيين الأمير حسين كامل فى مجلس الشورى رئيسا لعدة أمور وسأكتب عن هذا مطولا فى مذكراتى السياسية .

وان خبر طرد طلاب الأزهر بعد قرار مجلس الجامعة الأعلى المرعوس بالخديو مهم جدا ، لأن هؤلاء الطلاب ينتشرون فى سائر القرى وينشرون أفكارهم التى تشبعوا بها .

الأربعاء ١٠ فبراير :

قصدت المدرسة الجامعة فحضرت درس القانون الإدارى وخطبت فى طلاب السنة الثانية الفرنسيين داعيا إياهم للحضور غدا بنادينا لمشاركتنا فى الاحتفال بتكريم ذكرى مصطفى كامل . وقد تقبل بعضهم هذه الدعوة بسرور واحترام .

وفى الساعة الخامسة قصدت الى المدرسة الجامعة حيث كان أول درس فى اللغة الهيرغليفية ألقاه علينا الموسيو مونيت أحد طلاب مدرسة الآداب ، وكان عددا يزيد على عشرين وقد تعلمنا الحروف وأهم المقاطع وبعض الرموز التى لا ننطق .

الخميس ١١ فبراير :

قصدت بعد الظهر غرفة الجمعية لأن الاحتفال يكون فى الساعة الثالثة والنصف وقد أم مكان الاحتفال عدد عظيم من الفرنسيين وكان على أحسن ما يرام ، وقد ألقى خطابى الذى أعدته منذ يومين للترجمة .

نحدثت طويلا مع الموسيو مونتييه الذى يعلمنا الهيروغليفية
عن تاريخ مصر القديم ، وذكر لى أن نسخة هيروغليفية من حكم
بتاحوتب موجودة بدار الآثار بليون وقد حدثتني نفسى بنقلها الى
العربية (١) .

الجمعة ١٢ فبراير :

طالعت الفصل الأول من كتاب « موت قصر أنس الوجود »
تأليف بيير لوتى وهذه أول مرة أقرأ فيها بالفرنسوية وكنت أمتنى
نفسى بذلك من زمن طويل . ثم تناولت كتاب الهيروغليفى وقرأت
منه أكثر من عشرين صفحة تفهمت نقوشها ، ووجدت نفسى مساء
أقرأ الفصل الرابع من كتاب الموتى فكنت أظن فرحا وإندهاشا
وسبب ذلك أننى منذ عهد طويل كنت أرجو أن أتعلم هذه اللغة
واحل رموزها .

السبت ١٣ فبراير :

طالعت فى القانون المدنى من كتاب بلانيول .

زارنى موسيو مونتييه وتحدثنا عن مصر وعن الاحتلال
فشرحت له المسألة المصرية وكسبته لجانب الوطنية المصرية ووعدنى
بخدمة مصر على قدر استطاعته .

(١) نقل لطفى جمعة فعلا « حكم فتاح حوتب » الحكيم المصرى القديم الى
اللغة العربية ونشره سنة ١٩١٢ مع ترجمة « جولستان » أو روضة الورد للشاعر
الفارسى سعدى شيرازى وكتاب « التعليم الراقى للمرأة فى اليابان » فى كتاب
واحد بعنوان « الحكمة المشرقية » .

. الأحد ١٤ فبراير :

لاحظت أمرا غريبا وهو أن أغلب أيام الأحد تكون عادة ذات جو حسن وهنا من كرم الطبيعة التي تجود على الناس براحة يوم من زوابعها وأمطارها ، ولعل في اختيار هذا اليوم للراحة سرا .

خرجت واستلمت بعض رسائل بريديّة أحداها من مدام ذا مانسكى (١) ، وقصدت زيارة الموسيو لامبير فقابلني في مكتبه وتحدثنا ساعة قال لي فيها انه ليس لمصر ولا له أمل في الطبقة القديمة أنصار العهد العتيق ، وانما الآمال كلها في الشبيبة المتعلمة ، ثم قال لي عن فريد انه يخشى ظله وأنه يخاف الانجليز جدا وأنه أنساء الى الوطنية المصرية بحضوره الى أوروبا كرئيس للحزب . ثم تكلم عن مصطفى كامل فأسف لموته قبل الاوان ولا سيما في هذه الظروف التي كان يمكنه فيها أن ينتفع بأشياء كثيرة خارجية وداخلية ، وقال ان انكثرا سعيدة الحظ بموت أشيد أعدائها .

الجمعة ١٩ فبراير :

ذكر لي عبد السلام الجندي مساء أن غدا يكون موعد اللقاء محاضرة عن الاسلام طلبتها منا جمعية التعليم اللاييكي (العلماني) ، فكتبت خطبة جعلت همى فيها البحث فيما يوجه نحو الاسلام من التهم وفندتها ورمى الاسلام بالتعصب ورميه بالتأخر والتقهقر العلمى .

(١) انظر ما كتبه لطفى جمعة فيما يلى من هذه المذكرات عن الادبيّة الروسية أوجستاد امانسكى وعلاقته بها .

الجمعة ٢٦ فبراير :

وصلت المكتبة بالمدرسة واشتغلت بالقانون الجنائي الى الساعة اربعة والنصف حيث لقيت مونتيه فتحدثنا مليا عن آراء المدرستين الفرنسية والالمانية فى مسألة الحروف المتحركة فى النحو الهيروغليفى .

تسلمت كتابا مؤثرا من مدام دامانسكى قالت فيه انها ستسافر الى روسيا عما قريب .

السبت ٢٧ فبراير :

لم يكن حديث المائدة (بالبنسيون الذى أنزل به) متعلقا بموضوع خاص ، ولكننا تكلمنا مليا عن الأدب الفرنسى وذكرنا موديسى باريس وجول ليمتر ٠٠٠ وبهذه المناسبة ورد ذكر الموسيو هريو محافظ المدينة ، وأنا شخصيا أظن أن هذا العالم السياسى الشاب سيكون له شأن مهم فى المستقبل لا سيما اذا دخل مجلس السناتو ولا يستبعد أن يكون يوما رئيسا للجمهورية .

الجمعة ٥ مارس ١٩٠٩ :

تحدثنا على المائدة ٠٠٠ وتناقشنا فى هل نشر أخبار الجرائم والفضائح فى الصحف السيارة يشجعها ويزيدها ، وكنت ضد من يقولون بهذا الرأى وان كنت أبغض الصحف المهولة كالماتان . وفى نحو الساعة الثانية لقيت مصادفة الأستاذ لامبير فبقينا معا ساعتين نسير فى الطرق وكان معظم الوقت يحدثنى باهتمام عظيم عن مصر وأحوالها ، وقال لى انه ينوى تشغيل طلابه فى تأليف كتب للحقوق واختارنى لكتاب فى الشريعة الاسلامية

والقانون المدنى وقال لى ان حركة الأزهر تسره كثيرا لأنها حركة
صادقة (١) .

الاثنين ٨ مارس :

طالعت بعض أعداد اللواء ، وحوادث الأزهر تهمنى جدا لأن
فيها علائم المستقبل ، لو كان فى مصر أبطال حقيقيون لا انتهزوا
فرصة هذه الحركة ليثبتوا أن حياة الأمة فى اتحادها وقوتها .

من المصادفات العجيبة أن اللواء نشر مقالتي عن « المحكام
فى الشرق والغرب » فى العدد الذى نشر فيه خبر استجواب
النيابة لخليل حمادة باشا ودلاور بك (٢) وكلاهما متهم بضرب
طلاب الأزهر واهانتهم (راجع عدد ٢٥ فبراير سنة ١٩٠٩) .

الأربعاء ١٠ مارس :

وضعت هيكلًا لرواية مصرية للملعب المصرى ، ان لم تمثل
اليوم فقدا .

(١) انتلر عن ثورة الأزهر وأسبابها سنة ١٩٠٩ ، مذكرات سعد زغلول ،
الجزء الثانى ، تحقيق الدكتور عبد العظيم رمضان ، هامش رقم ٣٧٢ صفحة
٨٩٦ ، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،
سنة ١٩٨٨ .

(٢) خليل باشا حمادة مدير الاوقاف منذ نوفمبر سنة ١٩٠٨ وقد اسندت
ليه ادارة الأزهر واتهم بضرب الطلبة وقدم للتحقيق ، وقد هاج الأزهر لذلك
هياجا عظيما ، أما محمد بك على دلاور فقد كان مدير الادارة والحسابات
بوزارة الاوقاف .

(انظر الجزء ٢ من مذكرات سعد زغلول ، المرجع السابق ، ص ٩٠٠
وما بعدها) .

طالعت بعض أعداد اللواء وقرأت تفصيل حوادث الأزهر
فبكيت واقشعر بدني واعترااني ذهول من الحزن . من العجيب أن
تهان أمتنا مثل هذه الإهانة ونحن سكوت لا نرفع صوتا ولا نحرك
يدنا ، انه قد آن لنا أن ننهض مرة أخرى لنضرب ضربة قاضية ،
فاما حياتنا كشعب حر شريف واما موتنا الى الأبد .

الاثنين ١٥ مارس :

طالعت في القانون المدني والجنائي طول الصباح وقلبت
صفحات كتاب كوشري عن مركز مصر الدولي فأعجبت به جدا
وسألت في هذا العام لدرس القانون الدولي العام لتطبيقه حرا
بحرف على مركز مصر في الوقت الحاضر ، وهذا يكون ان شاء
الله اساس بحثي عن المسألة المصرية عند تقديم أطروحة الدكتوراة .

أخذت أنقل ما سودته منذ عامين من كتاب « الأمير » لميكافلي
في دفتر جديد الأنجز التعريب والترتيب بأسرع ما يمكن (١) .

وبدأت أيضا في تبليض « حكم نابليون » (٢) .

(١) ، (٢) كتب لطفى جمعة في كناشه مؤلفاته عن كتاب الأمير ما يلي
« الأمير تاليف ميكافلي شرعت في تعريبه من زمن طويل ولم أنجزه الى الان
ثم كتب « أنجز في يوليو سنة ١٩١١ بجنيف » وقد طبع هذا الكتاب ونشر
في القاهرة سنة ١٩١٢ ، كما كتب في الكناشة سألقة الذكر عن كتاب « حكم
نابليون » ما يلي « نقلتها من الانجليزية الى العربية عام ١٩٠٧ ولا ينقصها
الا التبليض مع بضع صفحات من حياة بوناپرت بايجاز » وقد طبع هذا الكتاب
ونشر بالقاهرة سنة ١٩١٢ .

الأربعاء ١٧ مارس :

قابلت ليلا بن على فخار وتحادثنا عن تركيا ومصر والجزائر
وقال لي انه سيكون مصطفى كامل الجزائر فسرني هذا التصريح
منه وقارنت بين شجاعته هذا العام وجبنه في العام الغابر (١) ،
وقال لي كلما أساء الفرنسيون لنا كان ذلك في مصلحتنا .

الخميس ١٨ مارس :

كان حديث المائدة متعلقا بتهذيب المرأة المصرية وعلاقتها
بالدين والتربية المنزلية . اننى أقبل كل ما تقتضيه الحرية
العاقلة لأجل المرأة المصرية وان العلم يكمل أخلاق المرأة وينقص
معايبها .

الثلثاء ٣٠ مارس :

وصلتني أعداد كثيرة من الصحف العربية أخصها اللواء
ومصر الفتاة ، فرأيت فيها مسألتين تشغلان رأى العام حاليا ،
مسألة الأزهر وقانون المطبوعات وهما جديران بالنظر ، ورأيت
أن الانكليز يخدمون أمير البلاد كثيرا ويسهلون له الصعب ليقعوه
فيما يريدون له .

(١) انظر صفحة ١٣٥ من هذه المذكرات .

الأربعاء ٣١ مارس :

الجرائد تصلنى مفعمة بأخبار قانون المطبوعات الذى يسعى الانكليز والخبديو فى تنفيذه (١) . انهم حسنا يفعلون لأنهم يزيدون النار اشتعالا ويعلموننا كيف نستتر أفكارنا وكيف نعمل كثيرا ونقول قليلا . ان مصادرة الحرية فى تركيا لم تمنع الأحرار من الثورة وعلان الدستور .

الخميس أول ابريل سنة ١٩٠٩ :

عند الظهر فاجانى على المائدة أحمد السيد بخبر مزعج للغاية وهو اعادة العمل بقانون سنة ١٨٨١ القاضى بتقييد حرية الصحافة والمطبوعات وقد أثر فىنا هذا الخبر تأثيرا شديدا ، فأسرعت حالا الى دعوة سائر أبناء الوطن المقيمين فى ليون وفى الضواحي جميعا لعقد جلسة فوق العادة للنظر فى هذا الأمر المهم بأسرع ما يمكن . وفى الساعة الثامنة كمل عقدنا فى غرفة رحيبة من غرف قهوة الأوبرا فخطبت فى اخوانى ساعة شرحت لهم أثناءها ما اتصل بنا وتكلمت عن حرية الصحافة وتاريخها ومعنى تقييدها وعواقب ذلك ووضعت أمامهم ثلاثة اقتراحات نعمل بها لساعتنا للملاقة الحوادث ، الأول الاحتجاج فى الصحافة اليومية ، والثانى عقد جلسة علنية نلقى فيها الخطب ، والثالث تأليف كتاب عن حرية الصحافة والمطبوعات والاجتماع وتوزيعه فى مصر بأى الوسائل ، ثم النظر بعد ذلك فى طرق عملية لمقاومة المظالم .

(١) جاء بمذكرات سعد زغلول يوم ١٧/٢/١٩٠٩ أن بطرس غالى وضع بمساعدة مستشارى الخديو مشروع قرار وزارى بتنفيذ بعض نصوص قانون المطبوعات الصادر بتاريخ ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٨١ (مذكرات سعد زغلول ، المرجع السابق ، الجزء الثالث ، سنة ١٩٩٠ ، ص ٢٣) ، وللوقوف على مزيد من المعلومات عن اعادة قانون المطبوعات ، راجع كتاب سعد فريد لعبد الرحمن المرافعى ، ط ٤ ، سنة ١٩٨٤ ، دار المعارف ، صفحة ١١٨ - صفحة ١٢٢ .

وفي منتصف الليل زرنا ادارتى جريدتين وتركنا فى كل.
ادارة مقالة احتجاج للنشر .

الجمعة ٢ ابريل :

أخذت فى جمع المواد واعدادها لأجل خطاب الغد لأننا قررنا .
امس أن يكون الاجتماع غدا بمقر الجمعية الجديد . ان المواد فى
رأسى كثيرة أريد أن يكون الخطاب موجزا وشاملا لكل ما أريد .

السبت ٣ ابريل :

زرت بعض أصدقائى الفرنسويين لأدعوهم الى احتفال اليوم
وأسرعت الى مقر الجمعية وألقيت خطبتى على الاخوان لأرى موافقتهم
عليها فوافقوا عليها بالاجماع .

ورأست الجلسة رغم ارادتى وكانت الحفلة غاصة بالمدعوين
الفرنسويين بينهم أربعة من محررى الصحف وبعض منسدوبى
جمعية الطلاب . وألقيت خطابى ثم تناقشنا فى مسائل شتى لها
علاقة بالموضوع .

الاثنين ٥ ابريل :

نهضت صباحا وأعددت متاعى للسفر وفى الساعة السابعة
تحرك القطار الى جنيف وطالعت ما كتبته جرائد ليون (البروجيريه
والنوفليست) عن اجتماع يوم السبت الماضى .

الثلاثاء ٦ ابريل :

خرجت صباحا الى شاطيء الرون وفكرت فى وضع كتاب
باللغات الثلاث اسمه « مصر تتهم انكلترا » أشرح فيه المسألة
المصرية شرحا عادلا . ان من أعظم آمالى فى الزمن الماضى أن أكتب
مهما يكون له شأن عن المسألة المصرية .

الخميس ٨ ابريل :

أشتغل على الدوام بأعداد المواد اللازمة للكتاب ، مصر منهم
الانكلترا ، .

الأحد ١١ ابريل :

أطلع كتاب فروست في « الجمعيات السرية في أوروبا »
وهو كتاب في غاية اللذة ويرينا بوضوح وجلاء لا ريب فيهما
ان كل الأمم نالت حريتها بأمرين ، الأول حركة سرية تدبر من
زعماء القوم المخلصين ، والأمر الثاني بمقاومة حربية أى بثورة .
فان تمت الثورة بلا دماء فنعمنا بها ، وهذا ما رأيناه أخيرا في تركيا
ونتمنى حدوثه في وطننا الأسيف .

الاثنين ١٢ ابريل سنة ١٩٠٩ :

احتفلت اليوم احتفالا عقليا قليلا بمرور عام على حياتي
العلمية في أوروبا ، فانه منذ عام بالضبط في مثل اليوم لمست
قديماى أرض فرنسا بميناء مارسيليا .

الثلاثاء ١٣ ابريل :

استلمت من البريد كتاب « خطابات مصطفى كامل » وقرأتها
كلها في ليلة واحدة ، قرأت في ليلة واحدة تاريخ رجل عظيم منذ
كان طالبا في المدرسة الى أن صار زعيما الى أن مات ، وهذا زادني
اعجابا به . ولكن لا أزال أنتقد شيئا واحدا فيه وهو التصاقه
بالخدو في أول الأمر وسعيه في التقرب منه بعد حادثة ديفون

الشهيرة (١) • قال ابسن في إحدى رواياته على لسان رجل سييء
الحظ « لقد اكتشفت شيئا مهما وهو أن الرجل لا يكون قويا
الا إذا كان وحيدا » أى يعمل بمفرده •

الخميس ١٥ ابريل :

حمل الى شاب فارسي يحضر معنا على المائدة اسمه « غلام
رضا خان » - حمل الى كتابا فارسيا عن تاريخ الحركة الدستورية
في بلاد فارس ، وقد علمت أن هذا الكتاب يدرس للتلاميذ في
مدارس الفرس الابتدائية فسرني شرح الأفكار الوطنية لهم وهذا
ما أود صنعه في كتاب للتلاميذ المصريين ، وغرضي من هذا الكتاب
أن يكون تاريخا للنهضة الشرقية الحديثة •

الأربعاء ٢١ ابريل :

طالعت في القانون الجنائي وقد وجدت لذة عظيمة في
الأبحاث الجنائية • أريد أن أكون محاميا جنائيا •

طالعت في الجرائد أخبار تقدم جنود حزب تركيا الفتاة
وأرجو أن يفوزوا في اتحاد نار الفتنة البتقهرية • ان الثورة

(١) كانت مسألة زواج الشيخ على يوسف بابنة السيد عبد الخالق السادات
محل خلاف شديد بين مصطفى كامل الذي كان يقف منها موقفا معارضا وبين
الخدوي عباس حلمي الذي كان يساند الشيخ على يوسف في هذا الزواج ،
وفي لقاء مصطفى كامل بالخدوي في ديفون بفرنسا في أغسطس سنة ١٩٠٤ ،
أخذ يلوم الخدوي على مداخلته في هذه القضية ، مما دعا الخدوي الى الاحتداد
على مصطفى كامل ومغادرة الاجتماع ، فكانت القطيعة بينهما (مذكرات سعد
زغلول ، مقدمة الدكتور عبد العظيم رمضان لها ، الجزء الأول ، مركز وثائق وتاريخ
مصر المعاصر ، سنة ١٩٨٧ ، ص ٨٢ وما بعدها) •

التركية الأخيرة. أخذت شكلا جديدا وهو ما يسمى فى فرنسا
بالثورة المضادة أى أنها ثورة ضد ثورة الصيف الماضى ، وان أعداء
الشرق والاسلام يقولون ان هذا دليل على عدم صلاحية الشرقيين
للنظامات الدستورية ، وأنا أقول انها دسياسة مدبرة • ان السياسة
القومية محتاجة الى القوة لحمايتها •

طالعت صحفا كثيرة فى كتاب الموسيو جون نينه عن الثورة
العراقية وأهم ما فى هذا الكتاب تدبير فتنة الاسكندرية ومذبحتها
التي دبرها الخديو توفيق ومحافظ المدينة بايعاز قنصل
انكلترا أو وكيلها السياسى •

حضرت اجتماعا فى غرفة « هاندويك » بساحة بلا نبلية
خطب فيه برتونى زعيم الفوضويين فى سويسرا وصاحب جريدة
اليقظة وقد طعن فيها على البوليس السرى وأعمال المجلس العمومى
بجنيف ، وهذا الرجل مع كونه عاملا بسيطا - رأيت خطيبا
مقتدرا ويستند فى خطبته على معلومات حقيقية وتواريخ واحصاءات
وحوادث •

السبت ٢٤ ابريل :

أتممت مطالعة كتاب لومبروزو « الانسان المجرم » • اننى
أخذ التربية الأولية والوسط الذى عاش فيه المجرم عاملا مهما من
عوامل سقوطه الأدبى وكذلك حالته الصحية ، وعلى ذلك فأنا أعتقد
اعتقادا لا أتحوّل عنه أن الاجرام مرض ينبغي معالجته لا ذنب يليق
بالانسانية الانتقام من المجرم بسببه والبحث فى هذا الموضوع
يطول • لا أظننى أكون قاضيا جنائيا لأننى سأطبق فى أغلب
الأحيان قانون الرحمة وأضرب بقانون المحاكم عرض الجنائز •
علموهم قبل أن تعاقبوهم واذا عاقبتموهم فكونوا بهم مشفقين ،

فمنذ أن ارتفع معدل القراءة والكتابة في فرنسا هبط معدل الحرائم ، فهل بعد هذا برهان ؟

الأحد ٢٥ ابريل :

سررت بحوادث الأستانة وباحتلال جنود الثورة لها واني أشدد في خلع السلطان لأن بقاءه مجلبة للضرر ، وانه لنذل جبان حانت يمينه ، فلو أبقوا عليه هذه المرة فانهم يقضون على آمال الشرق والشرقيين في الحرية والدستور .

الثلاثاء ٢٧ ابريل :

اليوم أقيده بسرور عظيم خبر انتصار حزب تركيا الفتاة أو « لجنة الاتحاد والشرقى » وهذا ما كان ينتظر ، لأن فتنة ابريل لم تكن في الواقع الا دسياسة مدبرة من أنصار النظام القديم الذين لا يرون لأنفسهم نجاحا في ظل العدل والحرية والمساواة . واني بقدر ما كنت من أنصار إبقاء عبد الحميد على العرش بعد حركة الصيف الماضي ، أراني الآن من أنصار خلع له وأرى في عدم خلع له أعظم خطر يهدد البلاد العثمانية ، ولا أرى أكثر من ذلك وهذه عادة اسلامية جعلت الأمم الاسلامية تكتفى بخلع ملك ظالم ، وهذه عادة حسنة ولكن قد يكون أثر العمل بها سيئا :

لا تقطعن ذنب الأفعى وتتركها
ان كنت شهما فأتبع رأسها الذنبا

الخميس ٢٩ ابريل :

قرأت اليوم نبأ سقوط السلطان وفرحت للغاية وعلمت أن ذلك الحادث هو بدء حياة جديدة للبلاد العثمانية ، لأن أنصار العهد

القديم سوف يختفون كلهم باختفاء السلطان الأحمر ، ذلك الشيخ
الذى عطل الحياة الدستورية نحو أربعين عاما وذهب إليها البلاد
الإسلامية ، ولن يكون لخلعه تأثير سيئ لأن الأمم الإسلامية في
الشرق تحققت الآن معنى الدستور ، وهو السلطان المسلم الثاني
الذى تم خلعه بعد السلطان العزيز الذى أسقطه العدل ، ويبقى
ثالث لابد من إسقاطه هو الظالم الغاشم شاه العجم .

أعددت مقالة عن الحالة السياسية في مصر لأنشرها في
جريدة جنيف .

الجمعة ٣٠ أبريل :

ذرت اليوم ادارة جريدة جنيف Journal de Genève
وأعطيت رئيس التحرير المقالة التى أعدتها أمس عن حالة مصر
السياسية وعن قانون الصحافة .

السبت أول مايو سنة ١٩٠٩ :

تناولت اليوم كتابا ممتعا تأليف بطرس أو بولس ليروا
بوليو عن الشرق الأقصى وهو خاص بالصين واليابان . وقد
استفدت كثيرا من فصل خاص بشورة اليابان ودستورها وخالتها
الاقتصادية ، وآخر في نهضة الصين البطيئة ، واننى ألخص هذه
الفصول أو أنقلها بمرتها لتكون مواد نافعة لكتابى « تاريخ
نهضة أمم الشرق الحديثة » (١) .

(١) لمن هذا الكتاب كان بذرة كتاب لطفى جنتى « حياة الشرق » دولة
وشعوبه وماضييه وحاضره » الذى طبع سنة ١٩٢٢ بمطبعة دار احياء الكتب
العربية لعيسى البابى الحلبي .

شاهد - ١٦١

الأحد ٢ مايو :

خرجت في الصباح فلقيت على الشمسي أفندي من أعضاء لجنة المؤتمر (١) وقال لي ان العطار أفندي سأله اهل تعتقد في نفع المؤتمر ؟ فقال له الشمسي كيف تكون عصوا في اللجنة ونستال هذا السؤال ؟

وعدت الى المنزل واشتغلت بتحرير بعض المراسلات ومنها رسالة الى « شيامدجي كريشنا فارما » بباريس .

قصدت الغرفة الوسطى Salle Centrale مساء هذا اليوم، وخطب شمس طهن في الاسلام زلم آختمن لئانك ونهضت وخطبت باللغة الفرنسية نحو ساعة وفندت تهمه وذكرت أن دين الاسلام دين حب وتسامح وان النبي دعا اهل الأديان الأخرى للاخاء . وهذه أول مرة أخطب فيها بالفرنسية ارتجالا .

الاثنين ٣ مايو :

هذا اليوم موعد زيارتي لبرتوني زعيم حزب العمال بسويسرا وصاحب جريدة اليقظة Le Reveil التي يحررها ويظبعها وينشرها باللغتين الفرنسية والاطالية ، وقد وصفوه بأنه فوضوي ولكنه لا يخشى المجاهرة بأرائه . لقينا برتوني باكرام وتواضع وروى

(١) كانت لجنة مؤتمر الشبيبة المصرية بجنيف الذي انعمد في سبتمبر سنة ١٩٠٩ مكونة من بعض الشباب الوطنيين وهم محمد فهمي وعلى الشمسي ومحمد لطفي جمعة والدكتور سامي كمال وحامد العليلى والأمير العطار وحلمي مسلم وعثمان فايد والدكتور سيد مرعي (اوراق محمد فريد ، المجلد الثاني ، المراسلات . الجزء الأول ، تحقيق الدكتور مصطفى النحاس جبر ، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٨٦ ، ص ١٥٦) .

لنا تاريخ حياته وقال انه لما شب أخذ يفكر فيما حوله حتى رأى الحقيقة فى رفع الظلم عن كاهل العمال فأعطى نفسه لهذا الغرض الشريفة ولا يزال يعمل لتحقيق أهدافه . وقال ان كل الأعمال السياسية الكبرى لا تنجح الا اذا كان وراءها مجموع العمال والحركات والثورات لا تفوز الا اذا عضدها الشعب . اما ما يبقى فى يد صفوة القوم Elite فماله الزوال والفشل ، ثم باع لنا مؤلفات البرنس كورتيمكين الروسى وأهدانا عدة رسائل ومجلات اشتراكية .

الجمعة ٧ مايو :

اشتغلت صباحا بالقانون الادارى والمدنى .

وبعد الظهر طالعت فى كتاب « الاستعمار عند الأمم الحديثة »
La Colonisation Chez Les Peuples Modernes
تأليف ليروا بوليو . ان هذا الرجل المسكين يعبد انكلترا والنظامات الانكليزية ويكاد يؤله سياستهم وينصح لفرنسا أن تنسج على منوالهم . ان الكتاب يغيظنى كلما توغلت فى صفحاته ، انه مكتوب للماضى لا للمستقبل ، وسبب ذلك هو أن النظريات الاستعمارية التى يضعها المؤلف كانت نظريات الاستعمار فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وأن نظريات الاستعمار فى الوقت الحاضر قد تغيرت جدا . ثم اننى أقول بكل صراحة وسرور ان الاستعمار قد زال من العالم أو كاد يزول وأنه لا يأتى آخر القرن العشرين حتى تكون كل أممه متمتعة بحريتها وحقوقها مهمة كبن همدارها بين الأمم . ولى فى ذلك نظريات يطول شرحها . انظر الى القارات الخمس ، أمريكا ليس فيها الا مستعمرة واحدة وهى كندا ، وأوروبا ، ايرلاندا وبولندا ، آسيا الهند وحدها وهى تحارب لأجل الاستقلال ، أفريقيا مستعمرات انكلترا فيها مستقلة استقلال اداريا . فهل

تسمى بلاد مستقلة استقلالاً إدارياً مستعمرة لا شمال إفريقيا ،
مصر حرة ومحتلة احتلالاً مؤقتاً ، أما تونس والجزائر فنهضة
الاسلام ضامنة استقلالهما . ومع ذلك فهذه بقايا النظام الاستعماري
القديم وسوف تزول .

الأحد ٩ مايو :

كتبت الى أحمد شوقي بك الشاعر أذكره بالجزء الثاني من
كتابي « في بيوت الناس » وأطلب اليه أن يرده الى اذا لم يكن في
طوعه طبعه .

الثلاثاء ١١ مايو :

تسلمت اليوم كتابا من كريشنا فارما الزعيم الهندي المقيم
بباريس يحادثني فيه عن حركة الشرق وينصح للمصريين بأعداد
أنفسهم للحكم الذاتي بالعلم والعمل ويقول لي : انه ينشر جريدته
الهندي الاجتماعي Indian Sociologist في لندن لئلا
تصادر اذا نشرها في باريس ويدعوني لزيارته اذا مرت بباريس .

السبت ١٥ مايو :

كتبت اليوم مراسلات كثيرة منها واحدة الى الأستاذ ادوارد
براون أطلب منه أن يدلني على كتب عن فارس بالانكليزية
والفرنسية أستعين بها في وضع كتاب « تاريخ نهضة الشرق » .
فقد قرأت له كتابا صغيرا في تاريخ الدستور الفارسي ينفي فيه
عن الشرق والاسلام تهما كثيرة عاتقة بأذهان الأوربيين ورأيت
يذكر كتابا يؤلفه أوفي من هذه الرسالة ، وأسأل الله ألا يفرغ
منه حتى يكون الفرس قد فرغوا من جهادهم المؤلم الذي تصلني

أخباره في كل يوم عن يد غلام رضا خان أحد طلاب العلوم الأدبية
بجنيف . فأين لسائر أمم الشرق برجال مثل ادوارد براون
مسموعى الكلمة في بلادهم ثم هم يقولون الحق ؟

وكتبت للشيخ طنطاوى جوهرى أطلب منه أن يدلنى على
آيات قرآنية وأحاديث شريفة وكلم لفلاسفة العرب عن . الحكومة
الدستورية « لما اشتهر به هذا الشيخ الفاضل من الاهتمام
بالتوفيق بين العلم والدين »

الجمعة ٤ يونيه سنة ١٩٠٩ :

ذكرت للأمير العطار خبر سفرى غدا الى ليون فأسف للفراق .
عند العشاء لقيت محمد فهمى أفندى رئيس لجنة الشبيبة
الدائمة لأول مرة ، فاحتفى بى وحدثنى عن سياحته فى انكلترا .
وسألت فهمى أفندى عن المعدات التى أعددتها اللجنة للمؤتمر
(مؤتمر الشبيبة المصرية الذى يعقد فى جنيف فى سبتمبر سنة
١٩٠٩) - فلم يحر جوابا . فسألته عن البرنامج فقال انه لم يعد
موضوعا واحدا ، فأخذت أملئ عليه برنامجا وأسماء لموضوعات
تامة عندى أردت تقديمها للمؤتمر (١) ، ورسمت له خطة ذلك
وكان يكتب بسرور ما أملئ عليه . وتكلم عن مقابلاته للخديو مع
الشبان وقال ان الخديو لم يعطه فكرة حسنة كما تكلم عن على
الشمسى وسفره المفاجئ الى مصر وأظهر مخاوف من انقلابه .

(١) تقدم للمؤتمر الكثير من الموضوعات باللغات الفرنسية والانجليزية
والعربية ، وألقى لطفى جمعة فى هذا المؤتمر موضوعا باللغة الفرنسية عن
« نهضة الشرق ومصر » وآخر باللغة العربية « عن نهضة المصريين وواجباتهم »
(انظر كتاب محمد فريد لعبد الرحمن الرافعى ، المرجع السابق ، ص ١٣٠
وما بعدها) .

السبت ٥ يونيه :

نهضت صباحا وتركزت غرقتى فى المنزل ثمره ٨ شارع
بونت دارف • وبلغت المحطة وتزودت منها بكتب وصحف وركبت
القطار الى أن بلغت ليون ، واهتديت الى غرفة جميلة جدا •
فأخذت أرتب أعمالي استعدادا للامتحان •

الأحد ٦ يونيه :

خرجت لزيارة الأستاذ لامبير ودعاني الى العشاء بمنزله ،
وقبيل ذهابي الى وليمة لامبير شربت لبنا كثيرا • قالت لى زوجته
اذ رأتنى لا أكل لحما ولا أشرب نبيذا ولا قهوة « أنت ملك !
Vous etes un ange • ان حديث لامبير ينعشنى ويحيى آمالى •

الثلاثاء ٨ يونيه :

حضرت درس لقانون الدولى على الأستاذ بول بيك • والدرس
الثانى - وهو فى القانون الجنائى - أحب الدروس الى قلبى ،
هناك الأستاذ جارو العالم الجنائى ، انه يدرس مثل علماء الأزهر
الشريف ويبصق مثلهم من حين لآخر وينهض من كرسيه ويشمر
ويشخط ولا ينقصه الا ولد أعشى يضرب على رأسه عند النقطة
المهمة مثل بعض أساتذة الأزهر ، ولكن درسه واضح جلى ومملوء
بالأمثلة المقربة للذهن ، والجميل فى عمله وتعليمه انه يسير
خطوة بخطوة مع كتابه ، فنحن لا نحتاج الى تدوين مذكرات بل نفتح
كتاباه ونقارن بين قوله ومؤلفه •

الخميس ١٠ يونيه :

قابلت الأستاذ لامبير ويدور حديثه معى على نقطة واحدة
وهى أن الإصلاح فى البلاد الاسلامية مثل مصر لابد أن تكون له

ضبيغة شرقية وأن خروجه عن تلك الصبيغة يضربنا . ويضرب لى مثلن اليابان التى جعلت المدنية الأوربية يابانية . وعلى نقطة أخرى وهى أن الانكليز لا يتركوننا نفر من أيديهم بالمسألة أو بالطرق الودية ولكن يظهرون قوتنا المعنوية والعملية ، والأستاذ لامير لا يتعب من الحديث بهذا المعنى وأنا لا أتعب من سماعه ولو طال الحديث الى آخر الدهر .

الجمعة ١١ يونيه :

اليوم يوم الاقتراع لتاريخ الامتحان معنا للمشكوى ، لأن أيام الامتحان تمتد من ١٤ يولييه الى أواخره ، وقد سحبت قرعتى فكانت فى يومى ١٩ ، ٢٠ . أمامى الآن شهر وأسبوع يمكن صرفهما بغاية الاهتمام للوصول الى الغرض المطلوب ، ولا يشغلنى من جهة الامتحان شئ ولكن الذى يشغلنى حقيقة هو حيرتى المالية ، فان نقودى قليلة بل دون القليله .

السبت ١٢ يونيه :

أخبار مصر عنى منقطعة فلا أكتب ولا أكتب ما عدا المقالات التى أبعث بها الى اللواء ، ولكن فى اللواء أشخاصا يعاكسوننى فلا ينشرون مقالاتى ، منهم الطرابلسى أمين الرافعى والمصرى المطبعجى اسماعيل حافظ ، وقد كتب لى عبد العزيز جاويش بهذا المعنى خطابا لطيفا ويقول انه قصير الحيلة ولا يملك شيئا !

الأحد ١٣ يونيه :

نهضت صباحا وحررت خطابات الى مصر ، بدأت بالكتابة الى جريدة اللواء التى صارت شركة وقد أخلف هؤلاء القوم معى وعودهم وعهودهم ، فقد وضع لى المرحوم مصطفى كامل قاعدة وهى

أن يكون أجر كل مقالة تنشر جنيها وذلك منذ التحققت بمدرسة الحقوق ، ورغب هو ألا ينقطع قلبي عن التحرير باللواء ، وهذه كل علاقتي المالية بهذه الصحيفة من أكتوبر أو نوفمبر السنة الماضية ، ولما مات المرحوم مصطفى كامل لعب مجلس الإدارة بذلك في معاملتي فلم أخاطبهم في شيء وبقي لي طرفهم مبلغ ضخم ، ثم بعثوا إلى خطابا وصلني في العام الماضي في لوزان علمت منه رغبتهم في استمرار المراسلة فراسلتهم ولكنهم منذ ذلك العهد السحيق لم يبعثوا إلى ثمن المقالات التي تربو على الستين ، فضلا عن أن كتاب « تحرير مصر » (١) الذي أودعته عندهم لم يصلني من ثمنه شيء ولا أعلم نتيجة مخاطبتي إياهم .

الاثنين ١٤ يونيه :

وصل إلى خطاب من طنطا حيث توجد جدتي وخالتي . هذا خطاب لم أفهم معناه ولكنه مملوء بتلميحات غريبة أدركت منها استدعائي ، فلما خطر ببالي هذا الخاطر وظننت إمكان حرمانى من اتمام تعليمى - صممت على الهجرة إلى تونس لأتناول عملا ما يمكننى معه اقتصاد مبلغ أستطيع الاتمام به ، وهذه فكرة يمكننى تنفيذها إذا تحتمت عودتى إلى مصر .

أعجزون أنا حتى أجعل نفسى أضحوكة أعدائى فلا اكمل عملى الذى قاسيت فى سبيله الشدائد ؟ اننى أفضل الموت على الهزيمة وأفضله أيضا على طلب المعونة من أحد .

(١) كتاب ترجمة لطفى جمنة عن الانجليزية ونشره بمطبعة النيل سنة ١٩٠٦ .

هذا الانسان العجيب احمد زكى باشا سكرتير الجامعة (١) ،
 كتبت اليه مستنجدا للتحق بارساليتها التى يبعثون فيها جماعة
 من الجهال اكرا ما لأقاربهم وأصحابهم فلم يجيبنى ، وهم يسعون
 أنهم يساعدون العلم والمتعلمين ، ولكن اظن أن أفكارى السياسية
 هى التى تجعلنى شوكة فى حلقهم ، فالحمد لله على ذلك (٢) .

الثلاثاء ١٥ يونيه :

اليوم دفعت رسوم الامتحان مبلغا ضخما وهو الذى كنت
 أحجزه وأصونه لهذا اليوم ، دفعته ذهبا ، جنيهات انجليزية من
 نقود مصر التى أتيت بها ، الأمر الذى أدهشنى أن الأستاذ لاميير
 لقينى مصادفة وأنا أمام السكرتير أستعد لدفع الرسوم ، فأخذنى
 جانبا ولا طفنى ثم قال لى هكذا « يا لطفى اذا كنت فى احتياج الى
 نقود فأنا أدفع لك ما تريد ريثما تصل اليك نقود من مصر »
 فشكرته من أعماق قلبى ثم لم أتمالك نفسى من البكاء من مجموعة
 الحوادث والأحوال المحيطة بى (٣) .

(١) للوقوف على مزيد من المعلمات عن علاقة لطفى جمعه باحمد زكى باشا
 الملقب بشيخ العربية ، راجع كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الاعلام » ،
 المرجع السابق ، ص ٤٤١ - ص ٤٤٨ .

(٢) ظهرت فى سنة ١٩٠٩ حركة فى نظارة المعارف ونظارة الحفائية ترمى
 الى اصلاح نظام التعليم فى مدرسة الحقوق ، وكان من مظاهرها ايفاد وزارة
 المعارف فى شهر اكتوبر سنة ١٩٠٩ لاول بعثة علمية من خريجي مدرسة الحقوق
 للجامعات الفرنسية للتخصص فى العلوم القانونية .

(٣) انظر صفحة ١٧٩ من هذه المذكرات .

الخميس ١٧ يونيه :

اليوم تكلم الأستاذ بيك عن الحماية وسمى العهد الانجليزى فى مصر « حماية مقنعة » ، فقابلته واحتججت عليه فقال لى : اننى أشعر معك بالأسف ولكن هذا لا يمنع الحقائق الثابتة • اذا كنتم تغضبون من حكم الانجليز فما عليكم الا أن تقاوموه الى أن يزول • وقابلت لامبير وحكى له ذلك وأظهرت له غضبى •

وحدث اليوم أيضا حادث من هذا القبيل وبيانه ان الأستاذ جوناك مدرس الاقتصاد السياسى تكلم فى درسة عن حكومة مصر فيسماها « الحكومة أنجلو اجبسيان » ، فاحتج عليه الطلبة وأوعزت إلى على فوزى بكتابة خطاب احتجاج وارساله اليه ، وفعلا تحرر الخطاب ومعناه أن حكومة مصر هى مصرية محضة وأن وجود الانجليز مخالف للقوانين ورغبة البلاد وأمضيها جميعا وتقدم الى جوناك وفيه بعض العبارات الشديدة ، فامتعض الرجل ولم يبد اعتذارا مقبولا ، وحادثه لامبير فى ذلك فأظهر نطاعة • انه بغض لنفوسنا هذا « الجوناك » ! • وقد علم الطلبة الفرنسيون بذلك وكانوا فى صفنا •

السبت ١٩ يونيه :

بلغتنى اليوم أخبار سيئة من مصر وهو خبر مصادرة الحكومة لجريدة اللواء لسان الحزب الوطنى ، واننى هتسائم منذ أعادت الحكومة قانون المطبوعات المنحوس الذى احتججنا عليه • ان عهد

سعيد باشا الوزير (١) عهد القوانين الاستثنائية والرجعية وعهد سجن رجال السياسة والفكر ، يقول البعض هذا وأنا أقول ان الانجليز أنفسهم هم الذين يضيّقون الخناق علينا لأن الحرية التي نركبها كرومر لم تنفع في التوفيق بيننا وبينهم ، فهم يجربون الاستبداد ، والتخديو عباس متفق معهم ضدنا لأجل مصالحه الذاتية وهو أول عامل على مجاربة الوطنية خوفا من الدستور الذي يقيدده . وما سعيد باشا ومصطفى فهمى قبله الا أدوات في يد الانجليز .

الثلاثاء ٢٢ يونيه :

علمت اليوم أن ما أشيع عن غلق جريدة اللواء غير صحيح خسررت ولكن لا بد من حدوث أمر أدى لهذه الاشاعة .

الخميس ٢٤ يونيه :

اننى لما وصلت ليون وجدت بها مصريين اثنين فقط ، الأول عزيز ميرهم والثانى محمد صالح . وعلمت بعد ذلك بوجود اثنين آخرين وهما ناجى المحب للتصوير وأحمد طاهر . ولكن منذ

(١) كان محمد سعيد باشا مستشارا في محكمة الاستئناف سنة ١٩٠٥ ثم اختير وزيرا للداخلية سنة ١٩٠٨ في وزارة بطرس باشا غالى فأعاد احياء قوانين القمع وعلى رأسها قانون المطبوعات الذى كان قد أبطل استخدامه وهو القانون الذى يقيد حرية الصحافة ، وقد أثارت اعادة العمل بهذا القانون سخط الشعب والهيئات الوطنية ، فقامت المظاهرات احتجاجا على تقييد حرية الرأى والكلمة في ٢١ ، ٣١ مارس وأول ابريل سنة ١٩٠٩ ، ونشر الشيخ عبد العزيز جاديش مقالة باللواء عن ذكرى دنشواي في ٢٨ يونيه سنة ١٩٠٩ عدتها النياية الحسنة طعنا في حق بطرس غالى رئيس المحكمة المخصوصة التي حاكمت المتهمين في الحادث وفي حق أحمد فتحى زغلول أحد اعضائها وأقامت عليه الدعوى الجنائية حيث قضى عليه بالحبس ثلاثة أشهر .

حضرت وكتبت في اللواء عن المدينة وأهلها وعيشتها تواتروا
وتتأبعا وقسم بعضهم أنفسهم فرقا ، فتوجه عصابة الفتوات ٠٠٠
وفريق لاعبي الطاولة ٠٠٠ وفريق الحشاشين ٠٠٠ وفريق القيافة
والعياقة ٠٠٠ وفريق الفقهاء ٠٠٠ وفريق النصابين ، واني أعادي
كل هذه الفرق لأنني لا ألتزم مع واحد منها ولا أتفق معها رأيا
ولا مذهبا ، على أنني أعطف عليهم جميعا وأتمنى لهم النجاح لأنني
مستول شبه مسئولية معنوية عن وجودهم .

الأحد ٢٧ يونيه :

نهضت في الصباح تلبية لدعوة الموسيو لامبير وأخوانه
للإحتفال بمدينة شاربونير بالنظام المدني للتعليم Mission Laique
فلبست أفخر ملابسى وقابلت الأستاذ على رصيف محطة سان بول
وهو لا يركب الا في الدرجة الثالثة لأجل المبدأ ، فلما بلغنا
شاربونير نزلنا فقابلنا عدد كبير من المصريين المقيمين بها أهمهم
فوق نظرى على فوزى وعبد الحليم البيلى ، وهناك أيضا قابلنا أعضاء
المجلس البلدى والموسيقى ، فتكون موكب يتقدمه تلاميذ المدرسة
ثم الأعيان ثم نحن ، وكنت أسير بجوار الأستاذ لامبير ، فلما شعر
بالخطوة العسكرية قال لبورت بجواره : هذا يذكرنا بالخدمة
العسكرية .

وأخيرا وصلنا الكازينو وهناك صعدنا الى المسرح وخطب
لامبير في فضل المدارس الحرة وفضل التشارها على الأمة وأن
خلاص التعليم من قيود الدين وفتح المدارس لجميع الطبقات يعود
منه خير على البلاد عميم ، فأعزت اذ ذاك لعبد الحليم البيلى أن
يحمل وردا ويقدمه للأستاذ بعد القاء خطبته ففعل .

السلالة ٢٩ يونيه :

الأمم المتحدة هو شغل الشاغل بتون ريب ولا يمكننى أن أغفل
عن الاستعداد له اللحظة ، لأجل هذا شرعت فى تلخيص المطولات فى
دفاتر صغيرة ولم أجد صعوبة الا فى تدبير ثمن الدفاتر الصغيرة
فان دراهمى أقل من أن تعد !

ان مصر فى ذهنى الآن كأنها بلاد أحلام سعيدة ومزعجة
تربطنى بها روابط ضعيفة من ناحية أهلى وقوية من ناحية حبنى
للوطن الذى يخفق له قلبى .

الأربعاء ٣٠ يونيه :

لما كنت فى جنيف منذ شهرين كنت أتردد يوميا على مكتبتها
الجامعة وكان همى منصرفا الى مطالعة كل ما كتب عن الشرق عامة
ومصر خاصة ، وهناك نشأت عندى فكرة وضع كتاب « تحرير أمم
الشرق » أو « نهضة الشرق » بمناسبة ما نراه من نهوض اليابان
فالفرس فتركيا فيقظة الهند ومصر ، وقد جمعت ما استطعت من
المعلومات لأسبكه فى قالب كتاب مفيد .

الخميس أول يوليه سنة ١٩٠٩ :

وصلنى أخيرا كتاب من حضرة فريد بك يقول فيه ان شركة
اللواء مقصرة جدا فى حقوقى ووعد بإرسال المتبقى فى ذمتهم .

السبت ٣ يوليه :

طالعت فى جريدة الديلى ميل خبر مقتل أحد أصدقاء الموظفين
« الانكليز فى الهند واسمه السيد كيرزون ويلى فى احتفال رسمى

بيد طالب هندي اسمه دنجرا وقد جاءت الجريدة بتبيان شافه لهذا العمل السياسي ، وذكرت أن القتل سياسي محض وأنه لم يكن هناك أى عدااء شخصي بين الطالب والقتيل * وقد رمت هذه الجريدة الى الانتقام من الصحافي الهندي الحر شيامدجي كريشنا فارما المقيم ببافيس وصاحب جريدة الهندي الاجتماعي ونسبت اليه تحريض الشبان على القتل بنشره مقالات عديدة قال فيها : ان القتل السياسي ليس قتلا بالمعنى العادي ، ثم قالت : ان أصل هذه الشرور هو البيت المسمى « انديا هاوس » الذي يقيم فيه الطلاب الهنود بلندن ويتفق عليه كريشنا فارما ، وأن هذا المنزل هو مركز ثورة في البلاد الانكليزية وطلبت من الحكومة الانكليزية مصادرته .

الاثنين ٥ يولييه :

أفتتح هذا اليوم بما يسمى « سخرية الأقدار » Comédie de La destinée . فقد وصل الى البريد وفيه خطاب كبير من أمريكا داخله شهادة باسمي تدل على أن مجمع الأكاديميين Academy of the Immortals قد انتخبني عضوا لمدة تسع وتسعين سنة بعد أن ثبت لهم أنني استحققت الخلود ... الخ الخ . فدهشت جدا من هذه الشهادة لأنني لم أفعل شيئا يدعو اليها . وضحكت من المقارنة بين استحقاقى للخلود في نظر جماعة من الأمريكان وعدم قدرتي على الحياة المادية في نظر الحقيقة !

الثلاثاء ٧ يولييه :

حضر الى هنا ابراهيم دسوقي اباطة وهو فرع من تلك الشجرة الاباطية الكريمة (١) ، وتحادثنا فى شئون مصر لانه من أشياخ وأنصار أحمد لطفى السيد رئيس حزب الأمة ، فتكلم عن مجلس الشورى ووظيفته فى مصر .

الخميس ٨ يولييه :

وصل الى خطاب من احد الأصدقاء المصريين يخبرنى أن علاقة بجريدة اللواء وأنه ذهب مصادفة الى البوسطة فوجد خطابا من خطاباتى لم يسلم لأن عليه ضريبة بريدية قدرها مليمان ، فامتنعت ادارة اللواء تحت اشراف الشيخ عبد العزيز جاويش واسماعيل حافظ وايحاء امين الرافعى وأخيه عن استلامه ودفع الضريبة ، فاستلمه صديقى بعد دفع المليمين فوجد به احدى مقالاتى ، ثم سأل عما اذا كان يوجد غيره فعلم أن هناك أكثر من ثلاثين خطابا على هذه الصورة ، فدفع عنها ستة قروش صاغ وهى عبارة عن ثلاثين مقالة لى حررتها فى شتاء وبيع هذه السنة ولم

(١) تحدث لطفى جمعة فى كتابه « قطرة من حداد لاعلام المتعاصرين والانداد ، نراجم مصرية واجنبية » عن عرفهم من الاسرة الاباطية ومنهم ساكر اباطة واسماعيل باشا اباطة وابراهيم دسوقي اباطة وفكرى اباطة وقال عنهم « كلهم اصدقاء أوفياء ولكل منهم معنى مكرمة ، والاسرة الاباطية من خير الاسر فى مصر وفيها رجولة ووفاء ووطنية وعلم وأدب ، ولا أدرى ان كانوا من اصل تركى أو فوازى أو عربى وللمهم الى غرب أسبا أقرب ، ويعجبنى فيهم تضامنهم ونظافة أيديهم وطباسة ذمهم ووفائهم لأصدقائهم ولبلادهم فى غير تعصب ولا حرج ولا ضيق عطن ، وهم وان كانوا جميعا فضلاء ، الا أن كل فرد منهم قد استقل بفضيلة أو خلة جميلة ، تميزه عن سواء » .

نشر وكنت اظن أنها مزقت أو القيت في سلة المهملات بفضل
صداقه أحبابي وأقراني في الجهاد الوطني وبفضل سلامة نية
الرئيس فريد بك ، فاذا بهم سلكوا طريقا آخر هو قتل تلك
المقالات وهي في المهد لتتحرق بواسطة البوسطة بحجة عدم دفع
مليمين !

فيا سماء ويا أرض اشهدى ! ثلاثون مقالة تعبت فيها ودونتها
في نحو خمسة شهور يهلكها زملائي في العدل وهم يعلمون كم
تكلفني كتابتها ، كل هذا في سبيل الوطن .

السبت ١٠ يوليه :

خطر لي هذا الخاطر صباح اليوم وهو وضع رسالة بالعربية
للمصريين لتوضيح حقوقهم بعنوان « حقوق المصري وواجباته »
أعتمد فيها على اعلان حقوق الانسان الذي وضعه رجال الثورة
الفرنسية وذلك بمناسبة مطالعتي للقانون الذي نشر حقوق
الانسان في فرنسا أيام الثورة .

ولكنني لما تأملت في الحقوق المذكورة وجدت أنها مواد
أملتها روح برجوازية فيها مبادئ الاشتراكية وحرية الفكر ما يبرر
إذا عثتها في مصر .

حقيقة أننا في مصر مهضومو الجانب مغلوبون على أمرنا
وخصوصا الفلاح ، وحيث أن مستقبل العالم يسير في طريق
الاشتراكية الكاملة وهو ما يسمى هنا : Socialism in Legal
فانا أفكر أن الأصلح عدم افساد هذا المثل الأعلى بتقديس المبادئ
البرجوازية ، بل نترك الباب مفتوحا للمبادئ الاشتراكية ، ومركز

فرنسا فى سنة ١٧٩٠ غير مركز مصر فى سنة ١٩٠٩ لأننا
لا نعرف ما يخبئه القدر لوطننا السعيد الشقى بأهله وغاصبيه !
وعلى كل حال فأننى لا أستطيع أن أعطى هذه المسألة كل انتباهى
قبل الامتحان .

الاثنين ١٢ يوليه :

اليوم انتهت الدراسة بالجامعة انتظارا لامتحان .

الثلاثاء ١٣ يوليه :

خرجت بعد الظهر الى الطرق فوجدت الاستعدادات قد تمت
للاحتفال غدا بعيد ١٤ يوليو الشهير ، اننى لم أشهده فى فرنسا
الا هذه السنة لأننى فى العام الماضى سافرت فى أول يوليو الى
سويسرا . لا يمكننى وصف هذا اليوم لشدة الزحام وكثرة
الزيارات وأغربها ما وضع أمام منزلى فى ميدان امير الرياضى
الشهير ، فقد شبعت آداب الخلف الصالح أن يخفق تمثال هذا
الرياضى بحبال من الزينة ليجعلوا لهم ساحة للرقص بحيث تمتد
من رقبة التمثال حبال بها رايات وفوانيس يابانية ، يظهر أن
الحفلات الوطنية تفقد معناها بمضى الزمن ، فان الذى أراه الآن
هو تهتك فى المسرات وقد أعدوا أماكن للشرب والرقص فى كل
حى لحياء ذكرى هدم الباستيل وأعدوا على شاطئ الرون تجاه
الجامعة ألعابا نارية وكل الاحباب تواعدوا للمساء ولتحيا الجمهورية !

الأربعاء ١٤ يوليه :

خرجت عند الغروب لأجوس خلال الطرق فاذا الزحام يذكرنى
بمولد أحمد البدوى مع الفارق : رأيت مناظر فجور تقشعر

منها الأبدان، اما الرقص والعريضة والسكر والقتل بين « الأباشى »
وبعضهم فحدث ولا جرج !

وعند المساء حصل الطواف بالمشاعل وهى زفه عسكر
بالموسيقى مثل خروج المحمل ، وهذا شئ عظيم عند الفرنسيين .

وبعد مرور هذا الاحتفال أمامى بالمنزل نزلت لمشاهدة الألعاب
النارية على شاطئ النهر ، فوجدت ليون كلها نزلت ووجدت
الظلام مساعدا على الغرام بين العشاق فضجرت واشمازت نفسى ،
ان الحكومة تضحك على عقول هؤلاء الدهماء بالألعاب النارية
ولتحيا الجمهورية راقصة مغنية !!

الأربعاء ٢١ يوليه :

نتوقف على هذا اليوم آمال كثيرة .

حدث امتحانى فى قاعة « الكتبخانة » وتقدمت بقدم ثابتة
وقلب خافق أمام الأستاذ فلورير فقال لى : اجلس يا سيدى ،
تكلم عن الرهن وأنواعه . فتكلمت ، فقال حسن . ثم ألقى على
أسئلة دقيقة لم تحز اجابتي عليها كل رضائه ، فقال لى : هذا
يكفينى شكرا يا سيدى ! ثم تقدمت الى الأستاذ اميو
فألقي الى أسئلة فى البيع والتعهدات فأجبتة اجابة حسنة .

ثم تقدمت الى الأستاذ ليمير وهو رجل ربح الصدر والبطن
والفكر أيضا ، فامتحننى فى القانون الدولى العام فسألنى عن
مراكز المستعمرات والحمايات وقال لى ان مصر محمية مقنعة
وسيرفعون قريبا هذا الحجاب عنها اذا سنحت الفرصة ، ثم سألنى
عن التحكيم الدولى فأجبتة وشكرنى .

اعلنت نتيجة الامتحان فكانت بين من هناتهم اللجنة ، وفرح
بى لاميير .

الخميس ٢٢ يولييه :

الأستاذ بروييه ممن يتولوننى بعطف ومراقبة جدية منذ
وضعت قدمى فى هذه الجامعة ، وقد ظهر هذا النهار اذ ألقى على
أسئلة فى غاية الصعوبة من الوجهة العلمية وهى مسائل اقتصادية
فرنسوية محلية محضة ، ولحسن الحظ ذكرتها لحضوري الدروس
التي ألقى فيها مذكراته ولولا ذلك لعجزت .

وفى الجنائي كان حظى سيثا لأن جارو كان عنده عسر هضم
فأخذ يشخط وينظر ويقول لى « تكلم لى على المسئولية المخففة وأشرح
لى جميع النظريات الحديثة » ، وبالرغم من اتقانى علم هذا الأستاذ
فقد وجدت صعوبة فى إرضائه كل الرضا . أما الأستاذ ابلتون
الصغير فقد سألنى أسئلة تقليدية فأجبته اجابات جيدة .

النتيجة نجاحى فى جميع المواد ، وقد هنأنى الأساتذة
ولاميير وخرجت فرحا جدا بنتيجة الامتحان .

الثلاثاء ٢٧ يولييه :

اعداد الخطبة الفرنسوية للمؤتمر (١) (مؤتمر الشبيبة
المصرية الذى انعقد فى جنيف فى سبتمبر سنة ١٩٠٩ وشارك فيه
الحزب الوطنى برئاسة محمد فريد) .

(١) كان موضوع خطبة لطفى جمعة فى هذا المؤتمر « نهضة الشرق ومصر » .
(كتاب محمد فريد لعبد الرحمن الراقى ، المرجع السابق ، ص ١٣٠) .

الخميس ٥ أغسطس سنة ١٩٠٩ :

سافرت صباحا الى ايكس ليبيان واخترت فندقا بسيطا .

الجمعة ٦ أغسطس :

سافرت من ايكس صباحا أقصد قرية جراند بورنان في هوت سافوا ، ونزلت هناك في بنسيون اسمه « جراند هوتيل دى لافيكتوار » ، انه بنسيون غاية في الرخص ونقودى قليلة جدا وأنا انتظر الفرج من مصر .

الاثنين ٩ أغسطس :

حدث اليوم حادث غير منتظر وهو أنني اذ كنت في أشد حالات الضيق المادى ولا أملك نفقة الفندق ، صبح عزمى على مفاتحة صاحبة الفندق في حقيقة أمرى لتمهلنى أو تطلقنى بعد أن أكتب على نفسى سندا ، فشرعت أنفق الصلادى القليلة الباقية معى في حلقة لحيتى لأظهر أمامها بمظهر حسن فيكون طلبى أكثر قبولا .

وفعلا كلفت الخادم بدعوة حلاق فعاد الى بعد قليل « بشحط » طويل يلبس قبة مثل صائدى الاسفنج بالاسكندرية وله شوارب كثة مخيفة وفى يده قفة صغيرة ، فأخرج منها موسى كأنه نصف ساطور وصابونة جافة . فقلت له : هل أنت حلاق ؟ قال : لا انما أنا فران . قلت ولماذا حضرت اذن ؟ قال : لأننى أشتغل فرانا شتاء وحلاقا صيفا وليس غيرى بالقرية !!

فاستسلمت له ، واننا لكذلك واذا الباب يدق ودخل على ساعى البريد يحمل الى حوالة بأربعة آلاف فرنك ، فدفعها الى

بعضها ورقا وبعضها ذهبيا ووضعها على المنضدة أمامى وأمام الحلاق
الفران ، ثم حوالة بألف فرنك تم نفودا أخرى بشيك على بنك
كريدى ليونيه ، فدهشت من هذا الفرج بعد الشدة ، ورأيت
الحلاق الفران - وشغلته الحديد والنار - يرمقنى ويرمق الذهب
وينظر الى النافذة وكانت واطئة جدا ، فخطر ببالي أنه يفكر فى
ذبحى وخطف المال والفرار ، فنهضت وقلت له : أنا عدلت عن
الحلاقة ، وكان قد حلق نصف ذقنى ، فدهش جدا ، وأعطيتـه
خمسة فرنكات فكاد يجن من الفرح وأخذ ينظر الى حتى غادرنى .

الثلاثاء ١٠ أغسطس :

شرعت فى كتابة خطبتى التى أزمع القاءها فى مؤتمر جنيف
الوطنى المصرى الذى سيعقد فى سبتمبر القادم .

بدأت أتكلم فى السياسة مع الأستاذ بيك فاذا هو رجل
مستعمر واذا امرأته على أعظم نصيب من الجهل بكل شىء ولكنها
تعرف أين الجزائر لأنها وزوجها اشتريا أو ورثا قطعة أرض هناك
وينويان الانسحاب اليها بعد انتهاء مدة الخدمة ، فلما كلمتهما فى
حرية الجزائر ووجوب استقلالها نظرت المرأة الى شزرا وقالت لى :
هذا مستحيل لأننا سننقض شيخوختنا هناك . فقلت لها : هل
يا سيدتى لأجل شيخوختك تذلى أمة بأسرها ؟ فقال لى بيك :
اعمل معروفا أترك لنا جزائرننا وتكلم عن مصرك .

وهذه هى عين العبارة التى سمعتها من الأستاذ لامبير
لما نشرت فى العام الماضى مقالة عن الجزائر وتونس فى اللواء .

ان الموسيو بيك لا يوافق مطلقا على أفكارى السياسية وقال
لى : لا أستطيع كيف تتصور مثل تلك النظريات . والعجيب أن

هذه النظريات هي التي قضى عامه في تعليمي اياها في القانون الدولي العام ، فانظر بعد المسافة بين العلم والعمل !

الجمعة ١٣ أغسطس :

مللت الاقامة هنا من كل وجه وتولاني ضجر لا مثيل له وعزمت على الرحيل غدا لضعفي وتعبى من الاقامة في الجبل .

السبت ١٤ أغسطس :

ركبت صباحا المركبة الحافلة وقصدنا طون Thones التي جئت عن طريقها ، وهناك ركبت قطارا الى مدينة آنسى Annecy فوصلتها في الغروب . ان لبعض المدن روحا مطمئنة ومن هذه المدن آنسى ، فأننى اطمأنت لها بمجرد رؤيتها وضمنت أن أقضى بها يوما وأنا بلا ريب قادم على أعمال متعبة في جنيف .

الاثنين ١٦ أغسطس :

سافرت صباحا من آنسى قاصدا جنيف فبلغتها ظهرا ، وإذا المدينة مزدانة من أقصاها الى أقصاها بالرايات والأعلام والمصابيح والاعلانات احتفالا بمؤتمر الموسيقى الدولي .

الثلاثاء ١٧ أغسطس :

اجتمعت هذا الصباح بأعضاء اللجنة (لجنة المؤتمر) ولم أجد اهتماما من أحد ، فقط رأييت محمد فهمي يعاق أهمية على المؤتمر بصفته موسما في جنيف ليس الا ، ولكن اعتمادى أنا على الشبيبة الحاضرة من أطراف البلاد ، وأبديت للجنة مزيد اهتمامى واستعدادى للخدمة بكل قوتي لأنه لا غاية لى الا خدمة وطنى بأى شكل كان .

الأربعاء ١٨ أغسطس :

انقطعت لتحرير خطبتي وموضوعها « نهضة الأمم الشرقية »
وهي باللغة الفرنسية .

الخميس ١٩ أغسطس - ٢٣ أغسطس :

حضور حامد العلايلي ومحاضرة اللجنة معنا لدعوة المدعوين
الانكليز (١) والفرنسيين لحضور المؤتمر وذهابنا الى هارديال
والتعرف به واعداد برنامج السفر الى باريس ولندن .

الثلثاء ٢٤ أغسطس :

ركبنا قطار اكسبريس من جنيف الى باريس وودعنا على
المحطة على الشمسي ومحمد فهمي وبعض الاخوان المصريين وأقرضني
الشمسي ثياب السهرة لأستعملها في بلاد الانجليز .

غاييتي هي أنني أتمكن باكراً من زيارة أمهات الصحف في
باريس ونشر اعلان فيها عن المؤتمر .

نسيت أن أذكر أن هارديال الذي تعرفت به أمس حضر الى
المحطة وودعنا وأعطانا جملة خطابات تعارف ومن ضمنها خطاب
لدام كاما بباريس وشهد علينا في مقابلتها .

(١) اشترك في المؤتمر من احرار الانجليز المستر كيرهاردي والمستر باريز
والمستر كتل والمستر هازلتون من اعضاء مجلس العموم (عبد الرحمن الراقعي
كتاب محمد فريد ، المرجع السابق ، ص ١٣٠) .

الأربعاء ٢٥ أغسطس :

وصلنا باريس السادسة صباحاً وبدأنا بزيارة الجرائد المهمة فزرت جريدة « الطان » وقابلت رئيس تحرير الشئون الخارجية وذكرت له مهمتنا واسم مدام جوليت آدم لأؤثر عليه فكان جوابه أن مدام آدم لم تعد لها أهمية الآن في فرنسا لا في عالم السياسة ولا في عالم الأدب وأن ذكر لجنتنا أهم وأدعى للعطف ، ووعد بنشر اعلاننا . ثم زرنا جريدة « الديبا » وقابلنا المحرر وطلبنا منه نشر النبذة المطلوبة . ثم زرنا « الجورنال » و « الماتان » و « الاكلير » وقابلنا من يحل محل ارنست جوديه ووجدنا بغرفته صورة مكبرة لمصطفى كامل ففرحت كثيراً .

وبحثنا طويلاً عن عنوان مدام كما فلم نهتد اليه للأسف .

عدنا عند المساء للمحطة لنركب منها الى ديب ومنها الى « نيوهافن » :

الخميس ٢٦ أغسطس :

ركبنا القطار من نيوهافن الى لندن ولا يوجد منظر أجمل في الطريق مما رأينا ، وأظننا كنا نقطع مقاطعة كنت Kent الشهيرة بخصبها .

وصلنا لندن الساعة السادسة صباحاً ٠٠٠٠ وعكفت على تحرير منشور للأمة الانجليزية ، وفي الساعة الخامسة قابلنا رونسيتين في موعد سبق أن ضربته له بتلغراف من باريس وأطلعتني على المنشور فوافق عليه ونقح بعض الفاظه من الوجهة اللغوية وكلفته بطبع ألف نسخة لارسالها لأكابر النواب والكتاب في انجلترا .

وتوجهنا مساء للبرلمان وقابلنا كيتل فأحسن لقاءنا وأعطانا موعدا لمقابلته باكر .

الجمعة ٢٧ أغسطس :

حضر الينا بعض المصريين مثل توفيق دياب والبشيشيني ولم يظهر أحدهما أى اهتمام بعملنا .

وفى الساعة الثالثة بعد الظهر ذهبنا كموعدا الى مجلس العموم وكان توم كيتل العضو الايرلندى فى انتظارنا ، فأحسن وفادتنا وعرفنا بجملة أعضاء من الايرلنديين وهم « ريد موند » و « ديلون » و « هازلتون » ، وقد شجعنا ديلون بالفاظ قوية وقال انه يعرف مصر ويعرف مصطفى كامل ويدعو لنا بالنجاح ، وقال **ريد موند ان الانجليز لا يخرجون باللطف ولا بمقالات الجرائد** ودعا لنا بالنجاح وهو الآن زعيم الايرلنديين فى البرلمان .

وقدما كيتل الى بعض أعضاء حزب الأحرار وتحدثنا معهم وقد تكلمنا طويلا عن المؤتمر والأعضاء الذين سندعومهم ، وطبعا ليس أمامنا الا الحزب الايرلندى وحزب العمال ولا أظن أن أى حزب آخر يعيرنا أعضاءه أو يمد لنا يد المساعدة ، وقال لنا كيتل انه مسافر غدا ليتزوج فى وطنه وأنه سيحضر الينا فى جنيف مع عروسه .

السبت ٢٨ أغسطس :

فى هذا الصباح ذهبنا لمقابلة بعض محررى الجرائد مثل جريدة « وستمنستر جازيت » وجريدة « جلوب » وجريدة « ديلى نيوز » فقابلنا مقابلة حسنة .

وفي العصر ذهبننا للبرلمان الانجليزي وقابلنا كيرهاردي لأول مرة ودعوتنه للمؤتمر واستعملت كل ما آتاني الله من نعمة الفصاحة والتأثير لأقنعه بإجابة دعوتنا فاعتذر بأنه سبق وأعطى مواعيد ولا يستطيع إجابة دعوتنا ، فكلمته بشدة وقلت له : أنت كنت تبكي لأجل الشعب الجائع منذ عام واحد والآن شعب مظلوم يستغيث بك ولا تساعده لأنه شعب شرقي ، إذن اشتراكيتك قومية لا انسانية . فهت وتركنا *

الأحد ٣٠ أغسطس :

تعودت أن أذهب الى البرلمان كل يوم وأجد لذة في ذلك ، متى يكون لنا برلمان ؟ يجب أن تكون الأمم مستقلة وقوية حتى يشعر أعضاء البرلمان فيها بالقوة والملة . *

في الساعة الثانية بعد الظهر حدث حادث عجيب لي فقد رأيت مكدونالد (سكرتير حزب العمال) ببدلة زرقاء وربطة عنق حمراء (رمز الاشتراكية) جالسا يكتب خطابا ، فجلست أمامه وكتبت خطابي اليه أستعطفه وأطلب انتداب بعض أعضاء الحزب للسفر معنا الى جنيف وكتبت العنوان على الطرف فلمحه وقال : سيدي لا أستطيع منع نفسي عن قراءة اسمي . فقلت له : هل لي شرف التحدث الى مستر ماكدونالد ؟ فقال نعم سيدي أنا هو نفسه . فأعطيته الخطاب وقراه فورا + ثم قال لي : اننا سنعقد جمعية اليوم مساء وستكون هذه المسألة في مقدمة المسائل التي نبحثها ووعدني خيرا ووعدني . *

وعدت الى هازلتون ورويت له كل ما جرى فهأنى على هذا النجاح وقال لي انه أقوى رجل في الادارة الحزبية . كما أن هاردي أقوى رجل في النفوذ . *

وعرفنا هازلتون ببعض أعضاء الأحرار والعمل ومنهم
سنودون ، وتعرفنا أيضا بفيكتور جريسون العضو الاشتراكي
المتطرف وله تاريخ غريب اهتم به ستيد وألف عنه رسالة صغيرة .

الثلاثاء ٣١ أغسطس :

فضينا في الصباح وقتا في ارسال الدعوة الى مختلف الجهات
معتمدين على Year Book وقد خذلنا بعض المصريين أمثال محمد
توفيق موسى دياب الذى يقيم فى البنسيون ولا يظهر أى اهتمام
بعملنا .

وصل الينا فى الساعة العاشرة تلفراف من المستر بلنت
يدعوني فيه أنا والعليل الى العشاء وقضاء ليلة فى قصره العتيق
الفتحيم واسمه « مقر المباني الجديدة » New Building Place
بجوار هورشام بسسكس بجثوب انجلترا الشرقى .

سافرنا على عجل من كلايهام جنكسن وكنت فى غاية التعب
والاعياء ، وفى محطة هورشام كانت تنتظرنا مركبة تجرها جناد
الخيول العربية لمسافة ساعة تقريبا فى وسط الحقول والأحراش
النضرة ، ولما بلغنا الدار استقبلنا رئيس الحشم وأبلغنا تحية
السيد واعتذر لنا أنه نام بعد الظهر ليقوى على السهر معنا .
فصعدنا الى غرفنا ، وأخبرنا أن العشاء يكون بثياب « السموكنج » .

وفى الساعة السابعة مساء دخل علينا فى غرفة الانتظار
الرجبة رجل مديد القامة نحيف ذو لحية كثة يلبس الثياب العربية
من عباءة وكوفية وعقال وقفطان وبيده عصا طويلة كالعكاز ولكنها
الى رقة العود اقرب منها الى ضخامة الهراوة ، فجيانا باللغة العربية

بصوت جميل رقيق كأنه صوت فتى في مقتبل العمر وقال لنا انه
يفضل أن يلبس الثياب العربية في منزله .

ثم جلسنا على المائدة لتناول العشاء على ضوء الشموع ،
وقد بهرنا ذكاء الرجل وحضور بديته ووافر أدبه وحلو حديثه
وأيقنت باختلاصه عند وقوع نظري عليه ، وكان يتكلم أثناء الطمام عن
مشاهير من عرفهم من المصريين كلاماً وجيزاً يدل على شدة حبه لمصر
وأهلها .

وبعد العشاء انتقلنا الى قاعة الجلوس وهي قاعة فسيحة جدا
وعالية جدا وقد زينت بأثاث قديم يدل على عراقة أصحاب العصر في
النبل والثروة ، ولها مدفأة من المرمر الملون ضخمة جدا نقلوا اليها
شجيرات بأسرها للاحراق ، فكان منظر تلك الشجيرات وهي تحترق
وذلك الشيخ الجليل العربي الشوب والمنطق وهو يتكلم في
ضوء تلك النار وذكرياته القديمة الواضحة الجليظة بصدقها ودقتها ،
يجعلنا نتخيل أننا في إحدى خيام أمراء العرب الكرام الذين مثلوا
في تاريخ الانسانية دورا عظيما وقد عادوا الى بيوتهم ليقتضوا الأيام
الآخرة من حياتهم بعد طول الجهاد في هدوء وسلام ويروون على
خلصائهم ما يذكرون من أيام الشباب والكهولة الناضجة .

لقد دام هذا المجلس خمس ساعات من الساعة الثامنة الى
الساعة الاولى صباحا ولا أذكر أنني قضيت أمتع منها ولا أنفع
ولا أكثر لذة ، وقد كان شوقي الشديد لرؤية هذا الرجل العظيم
الذي كان قطعة حية من حياة مصر العزيزة وصدقته في روايته
وتحمسه مع شيخوخته لكل ما فيه نفع لمصر - من أكبر العوامل
على جعل ذلك المجلس من الذ المجالس وأمتعها وأنفعها .

كان التحديث عبارة عن أسئلة وأجوبتها ، أسئلة منا وأسئلة منه ، كل يريد أن يقف على الحقيقة من صاحبه فى مسائل تحيره وتهمه •

سألناه عن رأيه فى عرابى فقال لقد انقطعت المراسلات بينى وبينه من زمن طويل وآخر اتصال به كان بشأن مراجعته ترجمته التى كتبها بيده ونقلها الى كتاب « التاريخ السرى للاحتلال البريطانى فى مصر » ، وقد ارسل الى بعد ذلك برسائل لم أتمكن من الرد عليها ، لقد كان عرابى صادقا ومخلصا فى وطنيته حقا ، ولكنه كان كثير الكلام قليل العمل ، وكان ذا استعداد خطاى عظيم ولكنه كان ضعيفا فى السياسة والحرب ، ويظهر أن لتعليمه الدينى دخلا فى تكوين حالته هذه ، لقد كنا نود جميعا أن يموت فى ساحة الوغى لأن فراره وطاعته لخدمته قد أساءت سمعته فى نظر الأجانب والمصريين معا ، ولم يكن عرابى مطلقا خائنا ولا مرتشيا ولا بائعا وطنه ، ولكنه كان شديد التردد وشديد الخوف من أوروبا •

وسألناه : ماذا يجب على المصريين نحو هذا الرجل ؟ • أجاب : لايجوز لهم أن يحرقوه أو يمتقنوه ولا يليق بهم أن ينصبوا له تمثالا بل يكفى أن يقفوا على تاريخه ويعذروه ، ومعاملته بالاحترام والتسامح أولى وأجدر •

سألناه : هل كان دخول الانجليز مبنيا على غلطة من عرابى أم أنه كان أمرا محتما من حيث الحرب والسياسة ومنطق الحوادث ؟

أجاب : الخطأ الوحيد الذى أدى الى دخول الجيوش البريطانية اقتصره عرابى بمخالفته رأى المجلس العسكرى العالى الذى عقد قبل معركة التل الكبير بأيام وهو الذى حضره أركان حربه وعبد الله

النديم وجان نينيه المؤرخ السويسرى المحب للمصريين ، فقد اجمع رأى هذا المجلس على تعطيل مساء اسويس تعطيل ما ديا يمنع الجيش الانجليزى من الوصول الى الشاطئ الغربى لها ، فامرسل عرابى تلغرافا الى ديليسبس يخبره فيه بان الانجليز يخرقون حياد القناة وأنه مضطر لتعطيلها مادامت دخلت في ميدان الحرب ، فرد عليه فردنان ديليسبس بتلغرافه الشهير « لا تمس قناتى (١٤) بسوء وأنا الكفيل لك بانزال عسكرين فرنسيين مع كل عسكرى انجليزى ! » فتمسك عرابى بهذا التلغراف ، وقال له أعضاء المجلس ديليسبس هذا مجنون وكاذب وليس فى قدرته أن يفى بوعده وليس تحت سلطته قطان فرنسيان فضلا عن الجنود وأنه لا نفوذ له فى بلده وان أعمال الهندسة شئ والحرب والسياسة شئ آخر ، فلم يعمل عرابى بصحهم وقال أنا خائف من أوروبا . وفى الليلة التالية دخل الجيش باسياسة بعض الضباط وبعض الباشاوات المصريين (وهنا ذكر لى واحدا واحدا) .

سألتناه عن المرحوم مصطفى . امل لنقف على رأيه فيه لاننا كنا نعلم ما بينهما من الصداقة والمعونة فى خدمة مصر فائتى عليه ثناء كبيرا وشكرا من نراخى فريد بك وقال : فقد كان مصطفى كامل هذا الشاب عجبيا وكانت له حدة ذكاء ونشاط لم أر مثلهما عند كبار الأوروبيين ، فقد كان عندي هنا فى سنة ١٩٠٦ (عام دنشواى) وكانت صحته ضعيفة ولكنّه بعد الغداء استمر يكتب أكثر من خمسين رسالة ومكتوبا لأصدقاء مصر باللغة الفرنسية التى كان يجيدها كاحد آبائنا ، وقد أسفت كثيرا لموته قبل الاوان لأنه كان يرجى على يديه لمصر خير كبير .

وتكلم عن علاقته بالخدو فقال : انه لا يحبّه وان علاقته به قد انقطعت منذ بضع سنين ، وقد حاول سموه تجديد المودة بعد ذلك فلم تمكنه من ذلك الظروف .

وتكلم عن فريد بك فقال اننى معجب به بوصف كونه رجلا مهذبا من أسرة شريفة (جنتلمان) ولكنه سيئ الحظ لأنه خلف زعيما عظيما بنفسه ولم يكن لديه مواهبه ، ان فريد بك رجل طيب فحسب .
وهو صادق أيضا •

وسألناه عن رايه فى بلاد العرب فقال انه ينتظر للجزيرة العربية مستقبلا عظيما ولا بد أن يتحد العرب لتأسيس دوله حرة مستقلة ، وقال ان أخلاق العرب اعظم أخلاق فى العالم ولهذا فهو لا يخشى عليها صياعا ولا استعمارا •

وباحثنا فى انشاء جمعية سرية على غرار جمعية الاتحاد والترقى التركية ، فقال لنا اننى أعتقد أنه من العبث وضياح الوقت تحويل أو محاولة تحويل انجلترا الى فكرة الجلاء عن مصر ، فان عقول الانكليز غير مستعدة للاقتناع بذلك ، ولكن يمكن أن يتحولوا عن فكرتهم فيما لو أحسوا وتأكدوا من أن قبضتهم على مصر سوف تثير لهم الأخطار والمتاعب •

تم سألنا عن بنيامين موزلى وظهر لنا أنه لغاية الآن لم يكن يعرفه ولم يره ولم يعلم بالدور الذى مثله موزلى فى السياسة المصرية بمهونة الخديو وبعض رجال سياسة انكلترا ، فأفدناه بما نعلمه عن الرجل وحيه مصر ورغبته فى اتفاقها مع انكلترا على قدم المساواة وحيه للخديو حبا شخصيا وبغضه للورد كرومر وحقه عليه (١) •

(١) يذكر سعد زغلول فى مذكراته أن امرأة قدمت عريضة للنيابة العمومية بأن هناك جمعية سرية تألفت من سبع سنوات لمعارضة الحكومة الانجليزية وتهيج الرأى العام فى انجلترا على ادارتها فى مصر ، وأن الخديو كان مشجعاً لهذه الجمعية مع بعض الانجليز والوطنيين وأن لدى هذه المرأة أوراقا تؤيد =

ثم توسط بنيت بيننا وبين مستر روتستين على أن يدفع له ثلاثين جنيهًا ليسافر مندوبًا عن بعض الصحف الانكليزية ليصف المؤتمر ويكتب عنه ما يجب أن يكتب خدمة لمصر لوقوفه على المسألة المصرية وقوف خبير صديق ، فوعده بأن فريد بك يفي بدفع دين صحف الحزب الوطني لروتستين مد كان مديونًا لها في لندن ، وأخبرنا بلنت أن روتستين يعد كتابًا عظيمًا عن مصر وأنه يستخدم مبدأنا بلا ريب .

كان بلنت يود أن يطيل السهر معنا ولكن صحته لا تسمح فاستأذنا في نهاية المجلس مراعاة لصحته وشيخوخته وكان يطيب لنا أن نبقى معه أيامًا متتالية ولم تغض لنا عين بعد فراقه ، وكانت الغرفة التي نمنا فيها حافلة بمؤلفات حميه بيرون فقرأنا فيها حتى الصباح .

في نظري أن بلنت من أجهل الرجال وأفضلهم ونفسه طاهرة جدا وأخلاقه لم تكن تسمح بنجاحه في السياسة لأنه صريح وصادق ومحب للحق مثال .

= دعواها ، وأن موزلي متهم فيها (مذكرات سعد زغلول ، تحقيق الدكتور عبد العظيم رمضان ، الجزء ٣ ، سنة ١٩٩٠ ، ص ١٢٤ ، ١٢٥) .

وينكر محمد فريد في مذكراته أن موزلي كان قاضيًا بالحاكم وكلف بالاستعفاء فاشتغل بعد ذلك بالحمامة وأنه كان من شركاء الشيخ على يوسف في الأمور السياسية وتوصل إلى أن صار رسول الخديو لدى بعض كبار الانجليز بلندن وكان يأخذ منه مبالغ جسيمة لهذا الغرض .

(أوراق محمد فريد ، المجلد الاول ، مذكراتي بعد الهجرة (١٩٠٤ - ١٩١٩) ، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ، اعداد الدكتور عاصم الدسوقي ، سنة ١٩٧٨ ص ٥٦) .

وقد اعطانا نصائح كثيرة وخطابات توصية عديدة منها الى
اسرة مينيل الشاعر وزوجته الشاعرة أو الكاتبة .

لقد تبددت من ذهني عند لقائه كل الشكوك والاشاعات التي
نابت نهبه في مصر أنا، صنيعة الانجليز وأنه كان يعمل لمصلحته
الاستعمار . هذا كذب ليس هذا الرجل من هذا النوع ، انما هو
صديق وعود الانجليز وآمن بحرية حزب الاحرار لاسيما غلادستون
وظهر أن في مصر رجلا فخاخته الفاروف في الأمريين .

هذه حقيقة الرجل ، والذي نفعه وستره والذي أضر به في
انقوت ذاته هو ماله وثروته ، ان المواهب مع المال قد تموت وقد
نجنى على صاحبها .

الأربعاء أول سبتمبر سنة ١٩٠٩ :

نهضنا في الصباح مبكرين وأفطرننا مع بلنت وزرنا بفيادته
مربط أفراسه وكان يذكر لنا كل جواد باسمه ولقبه وسلسلة نسبه
ووصفه العربي كقوله « هذا محجل اليمين » وهذا « الأغر » وهكذا .

واعطاني خطابه الى المؤتمر باللغة الفرنسية وحتم على أن
أقرأه بنفسى نيابة عنه وطلب منى رده اليه لأنه ليس لديه نسخة
أخرى منه فوعده بذلك . وزودنا بصورته باهدائه وهي تحمل
تاريخ أول سبتمبر سنة ١٩٠٩ .

وقد علمنا منه عرضا أنه يعيش منفصلا عن زوجته
لادى آن بلنت حفيدة اللورد بيرون ، وأن ابنه البكر مات في
السابعة عشرة من عمره وأن ليس له سوى بنت واحدة وهي التي
وهبت أرضا للشيخ محمد عبده بنى بيته بعين شمس على جزء منها
وباع جزءا منها وأنها عاشت في مصر وصحبت بلنت في أسفاره
وأثقت اللغة العربية .

فهمنا من بلنت أن ونستون تشرشل سيزوره ظهرا ، ولأجل
هذا عزمنا على السفر قبل حضوره لأنه لا يسرنا أن نراه ولا أمل لنا
فى تشرشل ، وعلافة بلنت به نرجع الى صداقته بإيـه رادولف
تشرشل .

وصلنا لندن بعد الظهر وذهبنا نوا الى البرلمان حيث روينا
لهازلتون مقابلة بلنت ، وقابلنا كير هاردى وقال لنا : انه لن يحضر
المؤتمر لأنه ارتبط بمواعيد سابقة فتوسلت اليه واستعملت كل
وسائل الفصاحة والاستهواء بحضور هازلتون وبارنز وحامد العلـلى
فكان كلامه الرفض كما أن حزبه رفض أيضا حضور المؤتمر بكتاب
أرسله اليـا وقالوا انهم لا يستطيعون الاشتراك فى المؤتمر (١) .

الخميس ٢ سبتمبر :

زينا ويلفريد مانيل فى بيته بشارع اكسفورد بلندن وتعرفنا
بزوجته وابنته وهو صديق حميم لبلنت وتعشنا عندهم ، ولكن
العلـلى أزعجهم بقوله انه يتمنى احتلال انجلترا بالألمان ليدوقوا ألم
الحكم الأجنبى (١٩) ، فتأملت المرأة وكظم الزوج غيظه وصار مركزى
حرجا ، وانصرفنا بعد أن دعوناها للمؤتمر فرغبت المرأة واعتذر
الرجل ، ولعله كان يقبل لو لم يفسد علينا حامد قلبه بفكرته .

(١) سجل بلنت فى مذكراته اليومية زيارة لطفى جمعة له يوم ٢١ أغسطس
سنة ١٩٠٩ ودعوته لحضور المؤتمر ، كما سجل ماتلا ذلك من علاقة بينه وبين
الـلى جمعة والرسائل المتبادلة بينهما .

(راجع :

— My Diaries, Being a personal narrative of
events, 1888-1914, by Wilfrid Scawen Blunt,
P. 2, 1900-1914, London, P. 278, 282, 290, 296, 329, 332 : 3:4, 410)

تم زونا الزعيم الهندي خابردى فى منزله وهو قادم ليدافع عن صديقه تيلاك المسجون فى الهند وأعطانا تقريراً عن القضية ، وزودنا بنصائح استفادها الهنود من طول الاحتكاك بالانكليز أهل المهارة السياسية ، وقال لنا اكنتموا ما تريدون تنفيذ من الاصلاح واعلنوا الأمور التافهة لانكم اذا صرحتم بكل شيء تجدون من يعرقل أعمالكم .

الجمعة ٣ سبتمبر :

ذهبنا الى مجلس النواب الانجليزى وحادثنا بعض الاعضاء الايرلنديين والانجليز وقد فابدنا مستر ويلسون وأخبرنا أن حزب العمال قبل الحضور للمؤتمر ، ووصل الى يدنا تلفراف من كيرهاردى جاء فيه أنه سيحضر المؤتمر مع عضو آخر بالنيابة عن حزب العمال ، وأخذنا نتساءل عن العضو الآخر الذى سيحضر مع كيرهاردى ولكن المهم هو حضور كيرهاردى نفسه .

الثلاثاء ٧ سبتمبر :

سفرى من لوندرة ووصل الى باريس مساء واشتغالى بالخطبة الفرنسية المزمع القاؤها بالمؤتمر .

الخميس ٩ سبتمبر :

سفرى من باريس مساء ووصل الى القطار الى محطة جنيف الساعة السابعة صباحاً . لم أجد احداً فى انتظارى على الرصيف سوى عبد الحميد سعيد فحسبت أنه حضر للقائى ولكنه سرعان ما بدد الوهم بسؤالى عن أحمد لطفى السيد بك وهل هو معى فى القطار فقلت له اننى لم أره وفهمت من حديثه أنه سمع ان لطفى السيد يحضر غداً فجاء لاستقباله . فتركته .

السبت ١١ سبتمبر :

وصلت برقيات تنبئ بوصول كيرهاردى وهازلتون وروستين فأخبرت الجماعة (أعضاء اللجنة) وذهبنا فى المساء الى محطة السكة الحديد لاستقبالهم ، فلما رأنى هاردى هال لأنه لا يعرف سوى ، فعرفته بالجميع ، وكان هازلتون هاسا باشا وأخبرنا أن كيتل يصل عما قريب • وقد أحدث وصول كيرهاردى الى جنيف طنة ورنه فجاء مكاتبو الصحف لمقابلته واجراء أحاديث معه ، فكنت أترجم له من الفرنسية الى الانجليزية وبالعكس وعملت على راحته فى فندقه والقيام بكل مطالبه ورأيت معتمد فهمى يتزلف اليه ويستعمل على الشمسى فى الترجمة له •

الأحد ١٢ سبتمبر :

اشتغلت فى الصباح قليلا فى تنقيح الخطبة وذهبت لزيارة تيرهاردى فوجدت فريد بك قد ذهب لزيارته ومعه بعض أعضاء الحزب الوطنى أمثال اسماعيل لبيب والشيشينى بك والدكتور منصور رفعت • ثم جاء محمد فهمى وعلى الشمسى ، فلما رأونا انقبضوا وقالوا باللغة الفرنسية بلفظ سقيم : اعملوا معروفًا يا سادة لا تتعجلوا الرجل ولا تجعلوه يتأثر بأى فكرة سابقة فاننا هملكننا فى سبيل قبوله الدعوة للمؤتمر (١١٩) •

فسألنى هاردى عن أقوالهما فنقلتها اليه مخففة فقال : أنا لا أتأثر بأحد وأتبع دائما ضميرى ولا أعرف شيئا الا الحق •

وفى المساء اجتمعت اللجنة فبدأ محمد فهمى يلقي خطبة خلاصتها أنه ساخط لمجيئ الحزب الوطنى وأنه مستغن عن اشتراكهم فى المؤتمر وأن هذا المؤتمر من عمل اللجنة الدائمة فى جنيف ، ثم نظر الى وقال : « اعمل معروف يا أخى ماتخليش مبادئ حزبك

تؤثر عليك لأنك عضو في اللجنة فقط ولست تمثل الحزب الوطني « (١) • ولم يتكلم الشمسي لأنه متفق معه على هذه الخطة ، وكان حامد العلالي مأكرا في كل المسالك ويوعز الى اللجنة سرا ضدى مع أننى أنا الذى أحضرت كيرهاردى وأقنعتهم بقبوله •

الاثنين ١٣ سبتمبر :

عقد المؤتمر جلسته الأولى هذا الصباح فى قاعة كبيرة للحفلات تستعمل مسرحا •

وألقى محمد فريد بك خطبته قراءة من الورق (٢) • وحضر المكاتبون والسكرتاريون وأرسلت الأخبار بالتلغرافات الى أنحاء العالم •

وكان عثمان غالب باشا حاضرا وكانت له هيئته كما حضر جميع المصريين الذين قدموا من مصر ومن أنحاء أوربا ، وقلقت لعدم حضور كيتل •

وعند الظهر توجهنا لتناول الغداء فى حديقة Park de Eaux Vives وجلس بجوارى لطفى السيد بك وابتداء يغمز ويلمز محمد فهمي ويقول انه لا يليق لرئاسة اللجنة ، فقلت له انها رئاسة اسمية والجلسات تعقد تحت رئاسة رجل ممتاز بالدور •

(١) انظر فيما يلى خطابات الدكتور منصور رفعت والأمير العطار الى محمد فريد بشأن قرار لجنة المؤتمر بفصل لطفى جمعة من هيئة المؤتمر « لكونه جرمي وثورى وينتمى للحزب الوطنى » ، وكذلك فصل حامد العلالي لكونه صديق لطفى جمعة « وغير مؤدب ! » •

(٢) راجع الخطبة فى كتاب « محمد فريد » لمعبد الرحمن الراجعى . ط ٤ . دار المعارف ، سنة ١٩٨٤ ، ص ١٣٣ - ١٣٦ •

وحضر أثناء جلسة بعد الظهر جون كيتل وزوجته ، فرحبنا
بهما وقضيت سهرتي معهما ومع هازلتون في شرفة الفندق .

الثلاثاء والأربعاء والخميس ١٤ ، ١٥ ، ١٦ سبتمبر (١) :

اليوم هائل جدا ! ألقى كيرهاردي خطبته المنتظرة في حفل
حاشد لم أر أكثر منه عددا ، فالتحى على مصر باللائمة ومدح كرومر
والاحتلال وامتن علينا بالاصلاحات في الري والزراعة ، فغابت
آمالنا ودهش أعضاء البرلمان وصفق له الجميع ونجح نجاحا بالغا .

وفي الحال نهضت وطلبت الكلمة فرفض محمد فهمي ، فرجوته
أن أقول كلمة لشكر الرجل ، وهذه حيلة مني ، ولما وقفت دهش
الناس الذين سكروا بكلام الزعيم دون أن يفهموا مغزاه ، فالتقيت
خطبة من نار ورددت عليه كل آرائه كلمة كلمة وقلت له أنت جئت
تسمعننا مدحا في كرومر ومدحا في الاحتلال وليس هذا أملنا فيك ،
هذه صورة طبق الأصل من كلام الانجليز في مصر وأنت زعيم حزب
العمال تقول الحق وتدافع عن الحرية ، وهنا لم تقل الحق ولم تدافع
عن الحرية ، بل قويت ساعدهم علينا ، فنحن لا نقبل كلامك ، وإن
الذين صفعوا لك لم يفهموا الانجليزية ولا يمكنني أن أترك هؤلاء
الناس في حيرتهم ، نحن نطلب الحرية والاستقلال كاملا ولا نرضى
بهما بديلا ، وإذا كنا نقبل الصبح بالصبر والرضا فلم إذن عقدنا
هذا المؤتمر ؟ وهل تسميت حادثة دنشواي سنة ١٩٠٦ وتقييم
الصحافة وحبس الزعماء وفيهم جاويز الذي في السجن ؟

(١) للوقوف على مزيد من المعلومات عن مؤتمر الشبيبة المصرية بجذيف
(سبتمبر سنة ١٩٠٩) ، راجع كتاب « محمد فريد » للمرحوم عبد الرحمن الرافعي ،
ط ٤ ، دار المعارف ، سنة ١٩٨٤ ، ص ١٣٠ - ١٣٦ .

فحدثت موجة جنون في المؤتمر وهللوا وصفقوا وحدث اضطراب شديد وهرب هاردي بدعوى أنه غضبان .

وكاد محمد فهمي وعلى الشمسي يجنان جنونا ، وحملني الطلبة والأعيان على اكتافهم وطير البرق نص خطبتي الى العالم بالتلفراف .

وعاد النظام بالتدريج وقام بارنز عضو البرلمان مع هاردي والقي كلمة هادئة عن صاحبه وقال نحن استكلنديان لا انجليزيان .

وخطب هازلتون وكيثل خطبا يؤيدان فيها وجهة نظري ، وبالجملة فزنا فوزا عظيما وأفسدنا الخطة التي وضعها هاردي وحزبه في الخفاء وهي انه يخطب خطبة معتدلة ليحسن علاقته مع حكومته ولا تهمه السياسة الخارجية ، لأنه لو خطب خطبة حامية لهاج سخطهم ، وهذه خطة دبرها ماكدونالد بعد أن ظن أننا نكتفي بأعضاء ايرلنديين وبدعوة جريسون Groyson وهو اشتراكي متطرف ، فجاء هاردي ليحيط أعمالنا مع أنه كان يرفض الحضور ، وقد فطن هاردي الى أنه فشل وسقط في نظرنا وأن مجاملته للسياسة الانجليزية لن تفيده فتيلا .

وحقيقة أننا لم نشفق معه على شيء ، ولكن كان معلوما أنه جاء لنصرتنا لا لأجل خذلاننا ، وكان محمد فهمي يتملقه وهو يوافقه مع الشمسي على هذه الخطة الخبيثة والا خرج المؤتمر من أيديهم ، وظنوا أنني عملت هذا باتفاق مع فريد بك ، ومع كذب هذا فان فريد لا يفهم هذه المسائل ولا هم له الا اللقاء خطبته وحضور الولاثم .

ولأجل هذا كانت دهشة فريد عظيمة حتى انه قبلني وبكى وضمني الى صدره وقال لي : أنت ابني ، أنت خليفتي ، أنت زعيم . . الخ ، ولكنني لم أكثر لكل هذه المسائل وكان كل همي أنني أحضرت كيرهاردي من انجلترا وتكبدت

مشيقاته ، فضميرى لا يسمح لى أن أراه يخون فكرتى ويخيب آمالنا فيه ونظرت اليه بعين الاحترار ، ولكننى أخذت بحق أمتى ووطنى .

وبعد الظهر حضر الى بارنز وقال : ان هاردى عاتب عليك لأنك لم تطلعه على خطبتك وردك عليه . فقلت له : أنت مازح يا مستر بارنز كيف أطلعه على خطبة ارتجلتها ارتجالا ردا على خطبة ارتجلها هو ولم أكن أعلم ما يقول ، ولو أطلعته أو أخذت اذنه لذهبت الفرصة ، واذن كان الموت أحب الى من أن أفرط فى هذا الحق . فقال بارنز : أرجوك بالنظر الى سنه ومقامه أن تأخذ بخاطره لأنه اعتذر عن وليمة العشاء ، فقلت له . ان عدل خطته فأنا صديقه وتلميذه ولكن ليس قبل هذا .

وخطب بارنز وهارديال الهندى والهلباوى ولطفى السيد وحامد العلايلي كما خطب هاردى خطبة عظيمة جديدة مدح فيها مصر وأندز الظالمين بعاقبة كالتى أصابت فرعون موسى لتعذيبه بنى اسرائيل ومدح الوطنية المصرية وانتهى المؤتمر وسافرت الى ليون .

الجمعة ١٧ سبتمبر :

لقد تعبت فى هذا المؤتمر تعباً شديداً ووجدت خيانات ودسائس حتى من صديقى حامد العلايلي الذى ناصبني العداء منذ رآنى أعمل باجتهاد وأن أعمالى تكلل بالنجاح وقد اتهموه بأنه من حزب الخديو ، بل انه مبعوث الخديو مع أنهم هم كانوا أتباع سموه والمؤتمر يعمل لحسابه سرا وقد أمدهم بأموال وأنا لا أعلم شيئاً عن هذا ولم أطلع على أسرارهم .

كان فى المؤتمر تياران ، تيار الحزب الوطنى وتيار الخديو وأنا لا أعلم ولكننى اتبعت تيسار الحق والوطن ولذا كتب الله لى التوفيق ، وأصبحت جنيف مبعوضة فى نظرى فلم أودع أحداً غير

كيتل وزوجته وهازلتون وقد أقاموا لى مع هارديال الهندي حفلة صغيرة لتكريمى وهم يعتقدون أننى قمت بعمل ناجح بمقاومة كير هاردى وقد فهموا روح محمد فهمى هو ومن معه (١) .

وصلت الى بيتى فى ١٤ شارع رامبار دينى بليون وأنا مريض منهوك القوى .

الاثنين ٢٠ سبتمبر :

بداية تعريب خطبتى فى المؤتمر .

عزمت عزمًا ثابتًا على تمثيل الأمة المصرية فى مؤتمر الأمم المظلومة « الذى سيعقد فى لوندرة فى الشهر القادم .

الفراغ من ترتيب كتابى الحديث « نفثات الروح الجائر » .

(١) نورد فيما يلى خطابات الدكتور منصور رفعت والامير العطار الى محمد فريد بتاريخ ١٨ ، ٢٠ ، ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٠٩ بشأن قرار لجنة المؤتمر بفصل لطفى جمعه وحامد العلايلى من عضويتها ، وقد نشرت هذه الرسائل فى كتاب « أوراق محمد فريد » ، المجلد الثانى ، المراسلات ، الجزء الأول ، تحقيق الدكتور مصطفى النحاس جبر ، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٨٦ ، صفحات ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ، على التوالى .

ليلة ١٨ سبتمبر سنة ١٩٠٩

سيدى العزيز فريد بك .

بعد السلام يحزننى أن أفيدكم بأن لجنة المؤتمر انعقدت بعد ظهر اليوم وطلبت حامد العلايلى ليكون ضمن الأعضاء ويعدها قررت ما يأتى :

اولا : طرد لطفى جمعة من هيئة المؤتمر بناء على كونه جرمى وثورى وينتمى للحزب الوطنى .

ثانيا : طرد العلايلى بك لكونه صديق لطفى ولأنه غير مؤدب .

الثلاثاء ٢١ سبتمبر :

وصول جواب من هازلتون. ومقالة عن المؤتمر في الديلي نيوز
بقلم روثستين ومقالة في المورننج ليدر بقلم كيتل ومقالة ما نشسستر
جارديان بقلم هازلتون *

زيارة عبد الحميد سعيد ومشروع تأسيس لجنة جديدة على
شروط أحسن من اللجنة القديمة *

= وحيث أن هذا الأمر يهمكم جدا ، فقد أسرع بتسديره اليكم . وقد أخرجوا
العلالي من الجلسة بعد أن طعنوا طعنا مرا على الحزب الوطنى وقالوا انهم كانوا
فى غنى عنه وعن مساعدته لهم ، وأنهم لجنة دائمية منفصلين عن كل الأحزاب ،
فهل هذا نتيجة مجاهدتكم وسعيكم لتتريفهم ؟ . يأسف الانسان من أمثال هؤلاء
الجهلة الأغبياء وان ذلك مما يدعو لتثبيط الهمم ، وقد وعدت اللجنة بتسديره
بهذا المعنى لكل من العضرين المرفوتين وسأرسلها لكم عند الحصول عليها وبعدها
تقروا الرد عليهم وغضهم واطهار خبث نواياهم المصريين حتى ينبذوهم
ويتبرأوا من أعمالهم ، وفى الحال نعتد مؤتمرا مكونا من أعضاء جدد ويكون
مركزيا حتى نقضى على هؤلاء الأسفقال ، وان كل الطلبة ناظمون عليهم ، سأخطون
على أعمالهم *

فأرجو أن تفيدنى عن رأيك فى هذه المسألة ، وفى حالة صدور الجوابات بهذا
الشكل وبهذه الالفاظ ، سأوجه أنا والعلالي وخالد بك الفوال الى ليون لمقابلة
الشهم البطل املفى جمعة الذى توجه امس الى ليون ، ونطلبك بالتلغراف حتى
تحضر وتقرر ما يمكن عمله . لأن الأوباش قرروا ارسال جوابات الرفع عند
صدرها لحرائد مصر وجرائد أوربا ، فيدنى عن رأيك . وتقبل سلامى *

منصور رفعت
عنوانى كوك حنيف

يوم ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٠٩ *
سيدى العزيز سعادة محمد بك فريد
أهديك سلامى ٠٠٠

الأربعاء ٢٢ سبتمبر :

تلغراف من فريد بك استدعائي لباريس وسفري الى باريس
ووصولي الساعة الواحدة بعد نصف الليل .

الخميس ٢٣ سبتمبر :

اليوم الأول في باريس . وحديث مع فريد بك عن
مصطفى كامل والخيرو وغناء مع طلعت حرب .

مكاتبه فرح أنطون في فندقه بباريس وزيارة
عثمان غالب باشا .

أما مسألة عزل لطفي جمعة وحامد العلالي فقد وقفت الآن ، حيث أن باقي
أعضاء اللجنة وجدوا أن الرأي العام معضد لطفي جمعة وزميله ، ولذلك أدركوا
خطأهم وأرسلوا مصطفى الشمسي كي يستسمح العلالي بك فرفض هذا طلبهم ،
ولأن لم يرسلوا جوابات الرفق إليهم ، وقد نصحت الى العلالي بأن لا يجتمع
عليهم ولا يتشاكل مع أحد منهم ، وأنا ممنون جدا لأن أغلب الطلبة والزائرين
ناقمين على فهمي (يقصد محمد فهمي سكرتير لجنة الشبيبة بجنيف) وشركاء ،
وان كل الاحتياطات ستعمل للمسير في خطة التعقل والتروي ، وكل شيء مهم
سنحيطك علماً به أولاً بأول سواء في مصر أو في باريس

وتقبل اخلاصى واحترامى .

صديقكم المخلص

منصور رفعت

٢٩ سبتمبر سنة ١٩٠٩

سعادة والدنا المفضل محمد بك فريد .

وصلنى كتابك الكريم ، وعليه فأخبركم بأن اللجنة (يقصد اللجنة الدائمة
لجمعية الشبيبة المصرية فى أوروبا ومقرها جنيف) كانت قد نظرت فى إحدى جلساتها
فى أمر لطفي أفندى ومعه العلالي أفندى بحضور الأخير ، وفى نهاية الجلسة =

الجمعة ٢٤ سبتمبر :

صباحا مع فريد بك ومحادثات سياسية معه .

السبت ٢٥ سبتمبر :

صباحا مع طلعت حرب وفريد بك وآراء الأول في المسألة المصرية .

بحثت مع فريد بك في شأن اللجنة الممثلة للحزب الوطنى
فى باريس وتحرير جريدة « ليتندار اجبسيان » (١) .

الأحد ٢٦ سبتمبر :

غداء مع فريد بك ومدمازيل بيه (٢) وزيارة مدام آدم
وقضاء المساء مع فرح أنطون ومحادثات لذيذة .

== عند أخذ الاصوات ، طلبت من السكرتير أن يكتب ما أُمليه عليه بخصوص
العضوين المذكورين ، وعليه رفعت الجلسة وأنا فى البدء ، ولم ترد اللجنة أن تقر
شيئا حتى تتم جميع ملحوظاتى التى أتعشم ان نهيننا لقبول الحق واسه ولى التوفيق .
وفى الختام تقبل منى فائق التحية وعظيم الاحترام .

ولدكم المحافظ

الامير

(١) تأسست فى سنة ١٩٠٦ شركة مساهمة لاصدار جريدتى « ليتندار
اجبسيان » و « اجبسيان ستاندر » ، الاولى تصدر فى المساء والثانية تصدر
فى الصباح ، وقد صدرت جريدة ليتندار اجبسيان يوم ٢ مارس سنة ١٩٠٧ .

(٢) مدمازيل بيه : Biais سكرتيرة جمعية النساء الفرنسيات
بباريس .

الاثنين ٢٧ سبتمبر :

- سفرى من باريس صباحا ووصولى ليون فى الساعة ١١
- حديث حامد العلايلى عن أعمال لجنة المؤتمر فى جنيف وإساءتهم اليه

الأربعاء ٢٩ سبتمبر :

- تغدينا فى وليمة أولها لنا الدكتور منصور رفعت مدير سياسة اللواء فى قهوة بلكور وتحادثنا مليا فى الشئون السياسية
- استلمت كتابا مهما من المستر بلنت عن المؤتمر وفيه نصائح نافعة

السبت أول أكتوبر ١٩٠٩ :

- بعد الظهر حررت جوابات لبلنت وكتلت عن المؤتمر الدولى
- ودصر كما حررت خطابا لمحمد بك فريد (١)

(١) نشر هذا الخطاب فى « أوراق محمد فريد » ، المجلد الثانى ، المراسلات ، الجزء الاول ، المرجع السابق ، ص ١٧٤ . ١٧٥ ، وهذا نصه :

- ليون نى أول أكتوبر سنة ١٩٠٩
- سعادة الرئيس الهمام محمد فريد بك حفظه الله
- السلام عليكم ورحمة الله
- أرجو أن تكون متمتعا بتمام الصحة والعافية وأن تكون سفرتك الى بلاد الانكليز عادت بالمنفع المطلوب
- أخرجنى عن الكتابة اليك منذ فارقت باريس مرض لازمنى الى أمس وقد خفت وطأته والحمد لله

كتب الى مستر بلنت مفسرا لهجة روتستين بأن ادارة الديلى فيوز شوهت المقالة ، وذهن قد نقبل هذا العذر واكن هذا لا يرد الضرر الذى وقع ، ومهما تكن الحال فلا أظن أن هذا المكاتب القديم يعود يخدم غرضنا باخلاص ، ان الاغاضى وان لانت ملامسها ٠٠٠ الخ .

الاثنين ٤ أكتوبر

لقيت مسيو لامبير فقضيت معه ربع النهار فى محادثات علمية وسياسية فنصح الى بحث أبناء وطنى على تأليف جمعيات لتشجيع التعليم كما هى الحال فى فرنسا وقال ان أمل مصر الحقيقى هو فى شبابها لا فى المتقدمين فى السن ، وتكلمنا عن الشريعة الاسلامية فأثبت لى بالأدلة العقلية والنقلية أن ديننا هو دين تطور evolution وترقى .

= هذا وان اقامتى معكم ببائرس اكدت لى من جديد علو همتكم واخلاصكم فى خدمة متجدد مصر الشريف ، واننى واثق أن هذه المهمة لن تضعف وذلك الاخلاص المتأمر لن يتحول ، لذا جئت من جديد مؤكدا لكم تمام موافقتى على هذا المسلك الشريف ، راجيا من الله أن يوفقنا جميعا الى ما فيه خير الوطن .

واننى منتظر بفارغ الصبر بروجرام المؤتمر الوطنى المصرى الذى سينعقد فى مصر تحت رئاستكم يوم ٢٥ ديسمبر ١٩١٠ ، والذى سيكون - كما تفضلتم باخبارى شبيها بالمجالس النيابية من وجهة المناقشة ومدة الانعقاد - (عقد هذا المؤتمر فى ٧ يناير سنة ١٩١٠ بدار اللواء تحت رئاسة محمد فريد وألقى فيه فريد خطابا جامعا تناول فيه المسائل الوطنية والديمقراطية والاقتصادية وحقوق الفلاحين وتشريعات العمال ، تراجع الخطبة فى كتاب « محمد فريد » لعبد الرحمن الرافعى ، ط ٤ ، سنة ١٩٨٤ ، ص ١٣٧ - ص ١٤٨) .

وانى أؤكد لكم - يا سعادة الرئيس - أنه أن تم كما تريدون ونريد ، كان له أعظم تأثير . سيما عقيب مؤتمر جنيف الذى لا يرتاب أحد فى أنه كان ذوقا ذا أمل أصدق أصدقائنا .

أرجو تبليغ تهيتى واكرامى لسعادة الهمام الفاضل عثمان بك غالب الذى شجعنى كثيرا بتصاحه وحكمه الخلسة .

ربما مر بكم اخونا حامد العليلى بعد يومين . نحن منتظرون قدومكم الى ليون كذلك الدكتور منصور رفعت .
تقبلوا تهيتى واكرامى .

المخلص

محمد لطفى جمعه

وصور خطاب من فريد بك وقدمه .

الثلاثاء ٥ أكتوبر :

هضت صباحا وطأنت شى تاريخ الفلسفه .

كان حديث المائدة متعلقا بالحب والطبيعة البشرية ، وأخبرتني السيدات عن صديقنا ناجى المصرى وما يعمل من الأعمال الدالة على الجنون ، فدافعت عنه بكل قواى ، وأنا أنتظر رؤيته لأحادثه فى ذلك . زارنى الدكتور رفعت منصور وتحادثنا فى سفره الى مصر فنصحتة نهائيا بالسفر الى مصر فقبل نصيحتى وقرر السفر .

الأربعاء ٦ أكتوبر :

ذهبت صباحا الى منزل الموسىو لاميير وتحادثنا عن مشروع كتاب « مقدمة لدراسة الشريعة الاسلامية » ووعدنى بإعطائى بعض المعلومات النافعة ، والغرض الأكبر من وضع هذا الكتاب هو التوفيق بين العلم والدين والاثبات بطريقة نهائية أن الدين الاسلامى هو دين تقدم وترق لا تأخر وانحطاط .

بدأت بعد الظهر فى كتابة مذكراتى عن مؤتمر جنيف .

فى الساعة الخامسة وصل فريد بك ولقيه لفيى من الشباب واجتمعنا جميعا فى منزلى واشيرنا فريد بك عن تصريحات المسبدر الأعظم فى جريدة « الطان » وودعه عليها ، وقررنا ارسال احتجاجات برقية للصدر وللصحف الكبرى وللمصر .

وفى الساعة ١١ مساء ودعت فريد بك وكذلك منصور رفعت . بعد أن خلونا (فريد ومنصور وأنا) قررنا سفر الدكتور منصور الى مصر .

الخميس ٧ أكتوبر :

استلمت تذكرة بحثها الى فريد بك مع الدكتور عثمان غالب
من هورشام اثناء زيارتهما لبلنت كما استلمت كتابا من روستين
يشرح لى فيه سبب نشره مقالة الديلى نيوز عن المؤتمر وتعليقه
غريب جدا .

الجمعة ٨ أكتوبر الى الأربعاء ١٣ أكتوبر :

كتابة مذكراتى عن المؤتمر وذهابى الى نيوفيل وسماع خطبه
لامبي عن المدارس العلمانية Ecole Laïque
مطالعات فلسفية .

الخميس ١٤ أكتوبر :

وصول جواب من عزيزة دى رشبرون وطلب مقالة منى لأجل
العدد الأول من مجلتها واعداد مواد تلك المقالة .

اللاثاء ١٩ أكتوبر :

انجاز مقالة « نهضة الشرق » وارسالها الى مجلة « الشرق »
بباريس .

الاثنين ٢٥ أكتوبر :

اعداد كتب الحقوق للعام الهادم . مشروعاتى العلمية فى هذا
العام المييمانس والاعداد للدكتوراه فى العلوم الاجتماعية ودراسة
الفلسفة .

الأربعاء ٢٧ أكتوبر :

جواب من أهلى بمصر فيه توبيخ شديد على اشتغالى بشئون
الأمة !

السبت ٣٠ أكتوبر :

- كتابة تقريرى عن المؤتمر والاستمرار فى كتابته .
- تحمسي لكتابة روايات تمثيلية وشروعى فى ذلك ليلا فى
قهوة بلكور بكتابة رواية « هرماكيس » (١) .

الأربعاء ٣ نوفمبر سنة ١٩٠٩ :

- افتتاح المدرسة الجامعة بصفة رسمية وابتداء الدروس .
- فراغى من كتابة كتابى عن المؤتمر .
- نقلت الى اللغة العربية التقرير المنشور فى جريدة ليتندار
اجبسيان عن المؤتمر الأول وقد بعثت به الى عثمان بك غالب .

الاثنين ٨ نوفمبر :

- حضرت فى الصباح درس القانون المدنى والتجارى .

(١) كتب لطفى جمعة بتاريخ ١٤ نوفمبر سنة ١٩٠٩ فى الكناشة المتضمنة بياناً
بمؤلفاته عن هذه الرواية ما يلى « هرماكيس المصرى اسم لرواية تمثيلية فى فصل
واحد وضعتها خلال شهر نوفمبر سنة ١٩٠٩ وخلصت منها فى يومين ، وهى من
حوادث التاريخ المصرى القديم وبطلها نبي جاء قبل موسى ، ولكنها لا تزال فى
حاجة الى بعض التنقيح والتصحيح » .

وفى الساعة الخامسة توجهت لمقابلة الموسيو لامبير فلم أجده
فى المدرسة فقصدت منزله فلم أوفق كذلك للفائه فتركت له ملخص
الدرس الذى سألقيه غدا فى الشريعة الاسلامية ليبدى فيه رأيه .

وعدت الى منزلى فكتبت مقالة عن « قنال السويس » وبينت
الخطرين العام والخاص اللذين يهودان على مصر من مد أجل امتياز
الشركة . ان الامة المصرية اذا فازت هذه المرة فستستقل قريبا .

الثلاثاء ٩ نوفمبر :

قابلت الموسيو لامبير وتحادثنا مليا فى الدرس الذى سألقيه
عصر هذا النهار لاخوانى المصريين .

اتفاق غريب ! اليوم يمر عام بالضبط على نجاحى فى امتحان
السنة الأولى ، واليوم ألقى درسا باللغة الفرنسية !!

بعد لقاء الدرس حدثت مناقشة لطيفة وانتقدنى الموسيو لامبير
وأرشدنى الى الطريق المثلى . أريد جمع الدروس التى ألقيتها على
الطلاب المصريين فى مدرسة ليون الجامعة فى الشريعة الاسلامية
وقد أفادنى الأستاذ لامبير بنصائحه وارشاداته كثيرا (١) .

الأحد ١٤ نوفمبر :

صباحا كتابة مراسلات ومنها الى هارديال بايطاليا .

(١) كتب لطفى جمعة بتاريخ ٢ ديسمبر سنة ١٩٠١ فى الكناشة المتضمنة
بيانا بمؤلفاته « أريد جمع الدروس التى ألقيتها على الطلاب المصريين فى
مدرسة ليون الجامعة فى الشريعة الاسلامية ، وقد فرغت من درس حالة العرب
قبل الاسلام ، وسأدرس بعد ذلك اصول الفقه الاربعة . وقد أفادنى الأستاذ
لامبير بنصائحه وارشاداته كثيرا . هذه الدراسة علمية محضة مع المحافظة على
مبادئ الدين كل المحافظة » .

محاضرة الأستاذ جازو في قضية ستانهيل لكتابة مقالة في
اللواء عن ذلك .

الأربعاء ١٧ نوفمبر :

دراسة الحقوق صباحا . ودرس الفلسفة بعد الظهر في كلية
الآداب على الأستاذ جوبلو ومحادثتي معه ونصيحة الأستاذ بقراءة
طريقة ديكاوت ، شروعي في ذلك نوا سروري بدرس الفلسفة .

الأربعاء ٢٤ نوفمبر :

مطالعة حياة وفلسفة ديكاوت .

دراسة الحقوق صباحا ودرس الشريعة الاسلامية بعد الظهر

شروعي في وضع كتاب عن « فلاسفة العرب » (١) .

الجمعة ٢٦ نوفمبر :

لما رأيت على المنضدة كتب الفلسفة لم يقر لي حال فأسرعت
الى المطالعة والى انجاز حياة الفارابي التي بدأتها واننى لا أفدر أن
أقيس شيئا بسعادتي التي وجدتتها عند تقييد رأي الفارابي في

(١) هو كتاب « تاريخ فلاسفة الاسلام » الذي طبع ونشر بالقاهرة سنة
١٩٢٧ بمطبعة المعارف ، ثم أعيد طبعه سنة ١٩٩٩ عن طريق مكتبة عالم الكتب ،
وقد كتب لطفى جمعة عن هذا الكتاب بتاريخ ٤ ديسمبر
سنة ١٩٠٩ في الكناشة المتضمنة بيانا بمؤلفاته « فلاسفة العرب كتاب شرعت
فيه في ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٠٩ لذكر تراجم فلاسفة العرب وشرح مبادئهم
والمقارنة بين هذه المبادئ وبين الفلسفة الحديثة » . ثم كتب بتاريخ فبراير
سنة ١٩١١ عن هذا الكتاب « نجح هذا الكتاب وهو لا يزال بدون تنقيح وكان
تمامه بجنيف في أواسط أكتوبر سنة ١٩١٠ ، وقد طرقت بابا جديدا في تأليف
هذا الكتاب وانجزت على النمط الجديد الكلام على الكندي » .

مساعدة أهل المدينة الفاضلة التي ورد وصفها في كتاب « مبادئ الموجودات » ، فقد كنت أظير فرحا لتوافق أفكارنا .

قطع على أحلامي الفلسفية عبد السلام أفندي الجندى جاء يقول لي بالفتوح ان معه الأغلبية في الجمعية المصرية وأنه قد ترشح أربعة للرئاسة منهم هو وآخر اسمه سامي أفندي كمال وآخر اسمه محمد جمال وأنا ، وأن الجمهور افر على ألا تكون لي أغلبية وقد انحصر الانتخاب للرئاسة فيه وفي الشابين الآخرين ، وجاء يطلب صوتي ، فدهشني ذلك لأنني مخالف على خط مستقيم لهذه النظامات الاستبدادية وقد هدمتها في نوفمبر العام الماضي ولأن حديثه أنزلني من سماء الفكر الفلسفي إلى الأحقاد وحب الرئاسة التافهة فقلت له انني وإن كنت أحبه كصديق ، فأنني أحب مبادئ أكثر منه .

السبت ٢٧ نوفمبر :

اشتغال بالحقوق في الصباح ، وبعد الظهر حديث مع مدام Melien في الروحيات Spiritism .

الأحد ٢٨ نوفمبر :

في هذا الصباح قصدت مركز الجمعية المصرية برقم ٦ شارع لا بار وتكامل العدد عند الساعة العاشرة وترأس اللجنة حسن الديواني أفندي ، وتلا سامي أفندي كمال تقريراً عن مالية الجمعية ، ثم دارت مناقشات بشأن نظام الجمعية وقلبها .
دستورية بدون رئيس أبدى إلى رئاسة ذات رئيس ، وهي المسألة التي قامت عليها حرب العام الماضي وتم الرأي على الانتظار لفحص هذه المسألة في الأسبوع القادم بهيئة دستورية .

استلمت مكتوباً من البريد أدهشني لأنه من محمد كرد علي محرراً من مرسيليا وقد التقينا في الساعة الثانية فحكى لي ما جرى له من الاضطهاد في سوريا وتهمة بالارتجاعية أولاً وبالانداء بالخلافة العربية ثانياً ، وظهر لي من الحديث أن الخطأ نشأ من تسرعه وعن وصع رجال العهد القديم في وظائف الحكومة كناظم باشا الذي كان والياً على دمشق • وكرد علي في طريقه الى باريس وهو يؤمل الحكم ببراءته وقد قضينا اليوم معا وتحادثنا في شئون شتى وافترقنا قبيل نصف الليل •

ذكر لي كرد علي أن رجالاً ممن كانوا أحراراً ونالوا المناصب في الوقت الحاضر لاهم لهم الا الحصول على المال والنفوذ في البلاد العثمانية •

وذكر لي أن أمين الريحاني الشاعر اللبناني الأمريكي قد أنجز كتابين ، الأول رواية تمثيلية شعرية اسمها « علي بن أبي طالب » بالانكليزية وقد سمعت عنها عندما كان بمصر ، والثاني عن علاقة الشرق بالغرب في قديم الزمان (١) •

الاثنين ٢٩ نوفمبر :

طالعت في الجرائد المصرية خبر الافراج عن الشيخ عبد العزيز جاويز بعد سجنه ثلاثة أشهر بسببه بطرس غالي وفتحى زغلول ومحمد يوسف ، وقرأت وصف الحفلة التي أقيمت لتقليده وسام الشعب في فندق شبرد يوم ٢٢ نوفمبر الجاري عقب خروجه من السجن وقد قالت الجرائد انها كانت فوق الوصف •

(١) للوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفي لطفن بجمعية التأمين الريحاني راجع كتاب « محمد لطفي جمعه وهؤلاء الأعلام » ، المرجع السابق ، ص ٣٦١ - ٣٧٦ •

الجمعة ٣ ديسمبر سنة ١٩٠٩ :

انجاز حياة الفارابي في كتاب « فلاسفة العرب » والشروع
في تدوين ترجمة ابن سينا وفلسفته .

الأحد ٥ ديسمبر :

صباحاً انعقدت الجمعية المصرية وانتصر الحزب الدستوري
الذي يريد أن يكون تعيين الرئيس لجلسة واحدة فقط على الحزب
القائل بتعيين رئيس لمدة طويلة وتمت الموافقة على ذلك بأغلبية
عظمى وحدثت فوضى في الاجتماع .

الثلاثاء ٧ ديسمبر :

اعداد درس الشريعة الاسلامية .

محادثة طويلة مع لامبير وطلبى منه أن يتوسط لى فى لقاء
محاضرة بجمعية الميسيون لايك Mission Laïque عن مصر
والاسلام .

السبت ١١ ديسمبر :

مقابلة سكرتير الميسيون لايك وانجاز خطبتى عن الاسلام
ومصر واعدادها واستلامى كتاب « الهند » تأليف بلنت وكتابة
مقالة عن هذا الكتاب .

الثلاثاء ١٤ ديسمبر :

محادثة لامبير بشأن محاضرتى التى سألقياها بجمعية الميسيون
لاييك وحضور جلسة اللجنة الادارية للجمعية برئاسة هريو محافظ
المدينة بصالة الموزايك فى المجلس البلدى .

ترشيحي عضوا بمجلس ادارة المسيون لاييك بواسطة
المحافظ وانتخابي وانتخاب الأستاذ لامير والموسيو بورت
وعضو آخر .

الجمعة ١٧ ديسمبر :

حزنى الشديد لاختفاء جريدة الدستور مع ما كنت أملت من
نجاحها .

موت ملك بلجيكا وانهدام ركن من أركان الاستبداد الأوربي
فى أفريقيا .

انهاء المحاضرة التى سألقيها فى جمعية المسيون لاييك يوم
الثلاثاء القادم .

بعد الظهر مراسلات لبلنت ودريهرست وغيرهما .

الثلاثاء ٢١ ديسمبر :

اشتغلت باعادة النظر فى بعض النقاط المهمة فى الخطبة التى
أريد أن ألقيا هذا المساء .

وعند الساعة السابعة أعدت المصعدات اللازمة وكان محل
الاجتماع (سرائى التجارة) حافلا بالمدعوين . وفى الساعة الثامنة
ونصف حضر كثير من الأساتذة والأطباء والصحافيين والطلاب
الفرنسيين وحضر معظم الاخوان المصريين ، قدمنى أستاذى لامير
ثم خطب فى الحركة الاسلامية خطبة بليغة ثم تكلمت من الساعة
التاسعة وعشر دقائق الى الساعة العاشرة الا ربعا ، ودخل ادوارد
أريو عمدة المدينة أثناء الخطبة وترأس الجلسة .

اقتُرحت في ختام الخطبة تاليف هيئة رعاية للطلاب الاجانب
وخطب العمدة فشكرني وعضد اقتراحي وذكر موافقة الجمعية عليه
وتبرع الموسميويك باشتراك جمعية الشئون الاجتماعية مع
الميسيون لاييك للقيام بهذا العمل وقبل اقتراحه .

تم خطب هريو العمدة خطبة بليغة عن التوفيق بين فرنسا
وأمم الشرق .

وانفض الاجتماع في الساعة الحادية عشرة تماما . وانضم
المصريون الحاضرون الى عضوية الميسيون لاييك وتعهدت الجمعية
بأن تقدم لهم كل الخدم النافعة التي يطلبونها .

انتصار عظيم لي لأنها اول مرة ألقى فيها خطبة فرنسوية الفاء
بدون تلاوة وكان لها وقع حسن وانتصار عظيم أيضا للإسلام
والشرق ومصر لأنني شرحت حالته الحقيقية لجمهور فرنسوي فتأثر
واعتبر ، وهنائي لامبير وبيك وابن علي فخار وصافحني كثيرون ممن
لا أعرفهم وشكرني الطلاب المصريون مع أن عملي تافه ولا يذكر
وأتمنى أن يقوم الكل بعمل واحد تظهر فيه آثار التضامن
والتكافل .

الأربعاء ٢٢ ديسمبر :

قابلت الأستاذ لامبير واستأذنته في السفر الى الجنوب
لاسترداد صحتي وحييته فأذن لي مبتهما (١) .

(١) سجل لطفى جمعة رحلته في دفترين مستقلين ابتداء من ٢٠ الى ٢٩
ديسمبر سنة ١٩٠٦ تحت عنوان « رحلة الشتاء الى شاطئ الذهب ، جنوب
فرقسا - سان رفايل - نيس - كان - مونكارلو » . ولكني لم أعر الا غلتي
دفتر واحد من الدفترين المشار اليهما .

اجتمعت الجمعية المصرية في الساعة الثامنة والنصف
للمناقشة فيما ينبغي عمله غدا لأنه يوم عيد الأضحى ، وطرح على
الأعضاء إيفادهم أثناء المسامحات (العطلات) القصيرة الى مدن
فرنسا الكبرى لالقاء محاضرات عن الاسلام والشرق ونهضة مصر ،
فقبل اقتراحى بالاستحسان وأجل النظر فيه الى يوم الأحد .
الخميس ٢٣ ديسمبر :

عيد الأضحى المبارك ! ٠٠ هذا هو العيد السابع الذى أقضيه
بحسرة وألم ٠٠ كل عيد من أعياد الأضحى أجدى فى حال أسوأ
من الذى قبله :

عيد بأية حال عدت يا نبيد بما مضى أم لأمر فيه تجديد !

نشرت جريدة البروجرية فى عددها الصادر اليوم وصفا
لمحاضرة يوم الثلاثاء التى ألقيتها تحت رعاية الارسالية الفرنسية
الحرة Mission Laique وذكرت أن عدد الحاضرين يقدر بثلاثمائة
وأربعين شخصا .

الجمعة ٢٤ ديسمبر :

صحتى رديئة للغاية ٠٠ ان الناظر الى وجهى لا يعرفنى ،
فاننى نحيل جدا فضلا عن أن لون بشرتى كلون أديم الأرض وأسباب
ذلك ثلاثة :

أولا : رداءة جوليون .

ثانيا : سوء التغذية فان مآكل البنسيون أضرت بى كثيرا .

ثالثا : وحدتى وكثرة همومى (١)

(١) هذا آخر ما سجله لطفى جمعة فى يومياته عن سنة ١٩٠٩ .

أوجستا دامانسكى

ذكرى ١٩ مارس سنة ١٩١٠

لقد مضى على هذه الذكرى سبع وثلاثون سنة وهى تتجدد فى خاطرى وقلبى وذاكرتى وعلى رأس قلبنى ، فأعدها وفاء مفروضا على وأعد مرورها بخاطرى نعمة من الله تستحق الثناء والشكر (١) .

فى مثل هذا اليوم - وكان يوم الأحد - التقيت بمدام أوجستا دامانسكى فيليبوفنا كاتبة وأديبة عارفة باللغات والآداب وخبيرة بالفنون الرفيعة وعريقة فى تاريخ الثورة الروسية ومخلصة للجمال والحق والخير .

التقيت بها فى بيت ريفى فى ضاحية « بيتى لانسى » بجنيف لأسرة راسين ، رأيتها فعرفتها وتجددت بيننا صداقة أحكمت المصادفة البحتة عروتها من صيف سنة ١٩٠٨ فى مدينة لوزان ، وكان اليوم السابق على اللقاء ١٨ مارس يوما مطيرا عبوسا قمطيرا مثل نفس اليوم السابق للذكرى فى هذا العام ١٩٤٧ فى مصر .

ففى ذلك اليوم من سنة ١٩١٠ أمطرت السماء مدرارا فى ليون حيث كنت وفى جنيف عندما بلغتها واستمر انهمار المطر

(١) كتب لطفى جمعة هذا الفصل من هذه المذكرات فى ليل ١٩ مارس سنة

طول اليوم وكنت بغير مأوى ولا صديق ولا رفيق ولا انيس قادما من
ليون مقر دراستي شبه عارب من الظلام والبرد والوحدة ، ضعيف
البدن منكش الروح منطويا على نفسى ، شاعرا بحزن عميق .
وان عندى الآن كتابا ما يزال جلده ملطخا بأحوال المطر والكتاب
ترجمة حال يوسف متزيني البائر الايطالى اقلبه بين يدي فى مثل
هذا اليوم فيحرك أشجانا مضى عليها نحو أربعين سنة وما تزال
تعتلج فى صدرى .

ولما تعديت ٠٠ آنست لطيفا ودقة فى وجه السيدة التى قدمت
الى الطعام فسألته عن مستقر لى الى حين فى ضواحي البلد فقالت لى
عليك بنى « بتى لانسى » واقصد الى بيت آل راسين تجد ما يسرك .

وسرت هائما لا أدري أين أقصد وقد مال ميزان النهار ودقت
الساعة السابعة ولم يبق على الغروب الا دقائق معدودة . وفجأة
رأيت نورا ينبعث من نافذة ، فلما دنوت من البيت . أدخلوني
الى قاعة استقبال . وظهرت سيدة تتقن لقاء الضيف وأجلستنى
ورحبت بى ثم قالت لى : هنا بيت راسين . هل تقصد إلينا ؟
أين متاعك ؟ . على بالايصال لأبعث فى طلبه . فقدمته اليها واتصلت
بالتلفون وعادت فرحة وقالت : بعد ساعة يصل اليك متاعك .
وبعد ساعة أقبل حوذى ينقل حقائبى . وتقدمتنى السيدة الى غرفة
فسيحة ذات أثاث جميل ونور ساطع ومقاعد وثيرة وفراش رطب
ومتناضد للكتب وخزائن للثياب وتوجهت الى الحمام . لله ما أعظم
الشعور بنعمة النظافة والراحة بعد هذا اليوم الاليم المضنى ! .

قالت لى مدام راسين بعد ذلك بأسبوع : لقد أقبلت علينا
فأشفقنا من غبرة وجهك . لشد ما عانيت من المطر ! وقد صدقت .

... ودعتنى السيدة الى غرفة الطعام للعشاء ، وللمرة الأولى رايت
زوجها واسمه جان راسين ولم يطل العشاء وعرفت السيدة أننى

لا أكل اللحم ولا أتذوق النبيذ ، فتضاعف تقديرها لى لأن الضيف
الذى يوفر اللحم والخمر فى نزل عائلى (بنسيون دى فامى)
نعمة من السماء .

وعندما صعدت الدرج للنوم تبعتنى السيدة وقالت : سوف
تلقى مفاجأة سارة عدا صباحا . فأسألتها عن تلك المفاجأة ، أجابت
فى صوت خافت : ان عندنا سيدة تعرفك ! قلت : تعرفنى انا ؟
لا بد أن تكون مخطئة فاننى لا أعرف أحدا فى جنيف . قالت انها
تعرفك باسمك وصفاتك وقد اعتذرت الليلة عن العشاء لأنها
متوتعة . فقلت لها : ما اسمها ؟ . قالت : عدا تعرفها لأنها
لم تأذن لى بذكره .

وقد تعود الأرق أن يلرمنى فى الليلة الأولى أينما كنت كلما
بدلت فراشى ولو كان فى جنة الفردوس فلا بد لى من الأرق .

ولكننى تيقظت فى الصباح فرحا نشطا متفائلا مرحبا باليوم
الجديد ، وقضيت ساعتين فى اخراج كتبى من صندوقها وتصنيفها
وعطفت خاصة على كتاب « متزىنى » الذى قاسى معى برد الجو وأنهار
المطر وشعرت أن مؤلفه شاركنى محنتى ، فأكبرنا مات فى الغربه
مكافحا فى سبيل وطنه وقد اقتديت به فأصدرت من ذلك البيت
جريدتين للدفاع عن وطنى احدهما بالعربية « صوت الشعب »
مطبوعة على الحجر والثانية « مصر Egypt » بالانجليزية مطبوعة
عند فيفر ، وكاتبت صحف فرنسا ولا سيما اكليز (البرق) لصاحبها
ارنست جوديه ، وفيها رددت على تيودور روزفلت الرئيس الأسبق
لجمهورية الولايات المتحدة وكان قد حمل على مصر حملته شعواء فى
القاهرة ولندن لأن أبناء عمومته الانجليز واليهود أكرموا مثواه على
حسابنا فى السودان ومصر فرد تحيتهم بالطن فى الوطنية المصرية
ولم يخجل هذا الرجل السخيف أن يحرض علينا الانجليز ويدعوهم

الى استعمال الهراوة فى معاملتنا ، فان لم يرغبوا فليبتخلوا عن مصر
لتحكمها الجمهورية الامريكية ١١ (١) . وهذا الرجل هو عم رورملت
الآخر الذى توفى سنة ١٩٤٥ وكان اسوأ اعلان لاحلاف الامريكان
وشر نذير لسياستهم فى الشرق والغرب وكشف الفناع لنا وغيرنا
عن خليقة الامريكان منذ أربعين سنة .

فى الساعة الحادية عشرة صباحا نزلت الى قاعة الجلوس
فتلقنتنى صاحبة البيت بالبشر وقدمت الى مدام أوجستا فيليوفنا
دامانسكى وحيثنا وانصرفت .

- أين رأيتك يا سيدتى ؟ نعم فى فيلا بيانكا منذ عامين
فى لوزان فى بيت الكونت دى نافا ، ثم فى فيلا ترميدور فى ضواحي
لوزان ثم فى فندق مارتان المطل على البحيرة حيث قضينا سهرة .
ثم فى منتزه مونيونان وفى دكان الكتب وفى مكتب البريد .

(١) يشير لطفى جمعة الى زيارة الكولونيل نيودور روزفلت رئيس جمهورية
الولايات المتحدة الامريكية الأسبق لمصر عن طريق السودان فى مارس سنة ١٩١٠
والقائه خطبة سياسية بمدينة الخرطوم مجد فيها الاحتلال ودعا الى الخنوع
لحكمه ، ولما وصل القاهرةلقى خطبة أخرى بالجامعة المصرية عرج فيها على
حركة المطالبة بالدستور التى كانت على أشدها حينذاك معارضا تلك الحركة
ومؤيدا لسياسة الاستعمار ، فاثار سخط الرأى العام واستياءه ، وأرسل اليه
محمد فريد بركة احتجاج نيابة عن اللجنة التنفيذية للحزب الوطنى ، كما اقام
الحزب اجتماعا لطفى فيه على فهمى شامل خطبة ردا على خطبة روزفلت ، وبعد
انتهاء الاجتماع سار الحاضرون جميعا فى مظاهرة صاخبة يرشرف عليها العلم
المصرى يؤمهم محمد فريد الى فندق شبرد حيث كان روزفلت ينزل به ، وهناك
هتفوا بالاستقلال والدستور وسقط روزفلت ، ولما وصل الى الاسكندرية ليستقل
الباخرة قوبل فى المحطة بمظاهرة كبيرة نودى فيها بسقوطه وبحياة مصر
والاستقلال . (كتاب عبد الرحمن الرافعى ، محمد فريد ، المرجع السابق ،
ص ١٨٣) .

نعم ! انى سعيد برؤيتك ، تظنين أننى جئت قصدا اليك ؟ كنت اود ذلك من صميم قلبي ولكن كيف اعرف مقرك ؟ ٠٠ انها مصادفة باحته لعبه من القدر ٠٠ وانت بذكرين حتما أننى كنت دائما أشكرك ولا أطيل الحديث معك ٠٠ نعم أذكر جيدا والدتك وطفلك « بوريس » وقد رأيته وهو نائم وأذكر قولك حين حنوت عليه « ان من يمسك يد الطفل يميناه يقبض على قلب الأم بيسراه ! » ٠٠ كنت صادقا فى تلك الليلة واطن صدقى هو الذى أخافك ٠٠ لقد قلت لك وأنا أذكر أنه كان فى الساعة الأولى بعد نصف الليل « يتجمل الى أننا اجتمعنا فى حياة سابقة من زمن طويل جدا مثل هذا الاجتماع فى هذا المكان وهذا الوقت » (١) ، وأذكر أن القمر كان مضيئا على جبل مون بلان وعلى مياه بحيرة ليमान، وأذكر أنك نهضت فجأة وقلت لى : يا سيدى قد آن أوان الرحيل ٠٠ فنهضت وقلت لك : الرحيل رحيلي ٠ فضحكت واعتذرت ، وتيقظت وكنت شبه نائم وقلت : نعم لقد أطلت المجلس وأمك لابد تنتظرك فى الغرفة المجاورة ٠٠ طاب ليلك يا سيدتى وشكرا على الشاى الذى شربته والحديث الطلى الذى سمعته ٠٠ وقد تركت بيتك الساعة الثانية صباحا ، فلم أتم لأننى عزمتم على السفر الى باريس وكتبت الى بروشيه صاحب فيلا ترميدور وقلت له سافرت لأن تلك السيدة الروسية أقلقت راحتي وأقضت مضجعى فتركت لها لوزان بمن فيها، وبعد ثلاثة أسابيع وصلنى خطاب من بروشيه قال لى فيه انك لعمركت بى الى باريس وذهبت الى فندق فوياجير وهو عنوانى الذى

(١) سجل لطفى جمعة هذا الشعور فى مقال بجريدة الدستور فى مايو سنة ١٩٤٤ عنوانه « رجوع النفس الانسانية الى الماضى واشرافها على المستقبل » ذكر فيه ذلك الحديث الذى دار بينه وبين أوجستا فى تلك الليلة من ليلالى أغسطس سنة ١٩٠٨ ، كما سجله أيضا فى روايته « الفتى العادل » التى نشرت مسلسلة فى حلقات بجريدة البلاغ اليومى سنة ١٩٣٠ ، وفى روايته الأخرى « عائدة » التى نشرت أيضا فى حلقات مسلسلة بجريدة البلاغ سنة ١٩٣٢ ، وفى روايته « سوسن هانم » التى لا تزال مخطوطة ٠

تركته لموسيو يروشيه ولم تعجديني وأنت تبحثن عني : كل هذا علمت به مصادفة ولكنني سسيته . . . لعلك أردت أن تفسري لي سبب ذعرك وتناقض مسلكك اذ كنت تلحن على أن أزورك وأن أشرب فنجان شاي في بيتك ثم انقلبت بعد ساعة تقولين : يا سيدي لعلك متعب حتى خطر ببالك هذا الهاجس وهو اننا انسينا قبل الليلة في حياة سايقة فخير لك أن تؤوي الى فراشك . وأحب أن اوكد لك أنني كنت صادقا في قولي وفي شحوري ولم يكن ما قلته لك مصطنعا ولا مفتعلا ولم يكن هذا هذيان محموم ولا حلم محروم ولا استدراج خبير بقلوب النساء لعذراء مفتونة . . لا تغضبني ، ان لقاءنا هذا حل عقدة من لساني . . ان ما قلته لك في شرفة بيتك في لوزان كان لمحة قصيرة كالالهام الذي ينعم به شاعر أو مصور في طرفة عين . ولكنه يكون واضحا وضوحا أليما لا بد أن يعبر عنه . . هذا كل ما أردت أن أقول لك قبل أن تنمقي لي كلمة جديدة أو تدبري لي فتنة !

وكادت السيدة أوجستا تنفجر من الغيظ والغضب . . ولكنها ملكت أعصابها وكتمت ما بها وتحكمت في لسانها وعواظنها وقالت لي :

- شكرا لك على صراحتك التي لم أعود مثلها الا في وطني ولأجل النفاق الأوربي نحن نحتقر أهل هذه البلاد كلها ، وشكرا لك على أنك لم تجاملني لئلا كنت أفر بعد أن استقرت بي النوى في هذه الضاحية لاكون قريبة من ولدي الوحيد . . وما دامت الصدفة قد جمعت بيننا فاقول لك أنني أعتقد في الأقدار ولا بد أن للأقدار من غابة جمعتنا ! . . فان كنت قادما تنته الصحة ففي خير مكان وقمت ولن تجد من يعكر صفاء خلوتك ، أما أنا ففي شغل شاغل أرقب تنشئة ولدي وهو في العاشرة من عمره وأكتب للملحان في موسكو وبطرسبرج وستصل الأنسة « زينا » في مساء هذا اليوم

وهي كاتبة يدى ومساعدتى فى تربية ابنى واعداد المواد لانتاجى
الأدبى وهو مصدر عيشى ٠٠ انها فتاة طيبة القلب من الحزب
الاشتراكى الديمقراطى مثل كل فتياتنا اللواتى ينتسبن للأحزاب
ويفكرن فى مستقبل بلادهن قبل التفكير فى الزواج .

ونفضت السيدة الروسية وعزفت على البيانو وقطعة « حديقة
تحت وقع المطر » من وضع ديبوسى وقطعة أخرى من وضع
تشايكوفسكى ثم نهضنا الى المائدة .

وامتدت تلك العشرة وطابت وان لم تطل ، ففى جنيف بضعة
أسابيع ، وفى شاربونير شهر ، وفى ايطاليا شهر ، وفى جنيف
شهر وفى مصر خمسة أشهر وفى بوفريه شهر ثم فى ليون شهران
ثم فى جنيف شهر ، ولم تزد هذه الفترات فى مجموعها عن عام بدأ
فى مارس سنة ١٩١٠ وانتهى فى نوفمبر سنة ١٩١٠ .

واجتمعنا بضع ساعات فى يونيو سنة ١٩١٢ فى فيفى ثم
افترقنا الى الأبد ولم نلتق الا فى رؤيا كالحقيقة .

وما زال الدهر يجد فى القطيعة بيننا حتى سنة ١٩٢٧ فجاءنى
منها خطاب أهملته لسوء حظى فى الرد عليه وقد ندمت على تقصيرى
ومازلت نادما ، لأن هذه السيدة أدت الى من الفضل والجمال
مالا يحصى وتحملت بسببى آلاما كثيرة واستهانت فى سببى
بما لا يستهان به وادخلت الى عقلى وقلبى وروحى خواطر ومبادئ
ومشاعر تركت فيها أثارا لا يمحوها الزمن ولم يكن اليها من سبيل
او ذريعة غيرها ، وقد تفتحت فى ظلها كل مواهبى ورغائى ،
وتجسدت كل حقائق الحياة فى نظرى بفعلها وقوتها وإيمانها ،
وأرشدتنى الى مطالعات ودراسات لم أكن أنالها بدونها ، وأعانتنى
على قراءات وتحصيل علوم ومهارات على سهر الشقيقة والزوجة

والصديقة والأم الرؤوم ، جمال المرأة وخلالها وعقل الرجل وشمن تصرفه •

ولكن حيال هذه النعم كلها ادنتني بفعله واحدة من الموت المحقق لولا عنايه الله ورحمته ، فأزهدتني في الحياه احواسا وأفقدت ثقتي في جنس الانسان وأخرجتني من حلم الأديب الى غيظ المنتقم فكتبت رواية « قلب المرأة » وبالغت في تسويد صفحتها وما كان ينبغي لي أن أفعل هذا (١) •

نعم لقد عراها الندم فترة ولكنني كنت اذ ذاك على شفا حفرة عميقة من اليأس ، التمس الشفاء فلا أجد شفاء النفس والقلب ، وأجوجتني الى الضلال والعريضة أياما معدودة وما كان ينبغي لي لولاها •

ولكن غفر الله لها ، فقد علمت أنها تأملت كثيرا ، وأشد ما ألمني منها أنها هتكت أستارا وإباححت أسراراً كنت أظنها مصونة الى الأبد •

غفر الله لها لقد كهرت عن سيئاتها ، ولا ريب أنها قضت نحبها وقد اجتمعت بها بعد موتها مرة واحدة اجتماعاً لا شسك فيه ورايتها في الرقوى مرات عدة ، واننى أسعر بها الآن بجانبى ، ولأجلها وقفت اليوم والليلة على احياء ذكراها عافيا مصافحا سامحا متسامحا •

(١) « قلب المرأة » مسرحية وضعتها لطفى جمعة ومثلت بدار الاوبرا الملكية سنة ١٩١٦ ، وتدور أحداثها عن « أوجستا دامانسكى ، وقد قامت بتمثيلها فرقة جورج أبيض والشيخ سلامة حجازى ، وحازت جائزة التأليف التمثيلى سنة ١٩٣٦ • وقد قام الدكتور سيد على اسماعيل الأستاذ بكلية الدراسات العربية بجامعة المنيا باصدارها ضمن أربع مسرحيات أخرى للطعن جمعه سنة ١٩٩٧ عن طريق مكتبة زهراء الشرق بالقاهرة •

لقد نظرت الى الدنيا والحياة خلال شخصيتها وأدركت للمرة الأولى فضل المرأة على الرجل الناشئ في تفتيح ذهنه وعينه وقلبه للجمال والحق والخير ، وأنه لا سبيل لبلوغ هذه الدرجة الا في كنف قلب مخلص وروح صافية وعقل مدبر يخلق نوعا من الصداقة وسطا بين الحب والمودة وأداة لتهديب النفس وكمالها واظهار ما كمن فيها من الخير ويعمل على تنقيتها وتطهيرها ، وليس كل النساء بموهوبات هذه النعمة المزدوجة التي يسيطر بها العقل والفكر على الجسد ، وتتحكم المشاعر العالية والعواطف السامية على ما يتطلبه البدن ، وهذا ما يطلق عليه بعض الكتاب صفة الصداقة العاشقة (٢) .

ليل ١٩ مارس سنة ١٩٤٧

(٢) كتب لطفي جمعة عن هذه الصداقة العاشقة كتابا ممتعا عنوانه « تذكارات الصبا » ، ذكرى ١٩ مارس « تحدث فيه عن ذكريات لقائه بالسيدة أوجستا دامانسكي وما تلاه من أحداث وسياحات معها الى ربوع ايطاليا » . وقد شر هذا الكتاب سنة ١٩٩٩ عن طريق مكتبة عالم الكتب

العام الدراسي ١٩٠٩ - ١٩١٠

[١]

زيارة جون نيينه - امداد صحيفتي صوت الشعب ومصر -
عيد العمال في أول مايو - ظهور المذنب هالي

قرأت في العام الدراسي ١٩٠٩ - ١٩١٠ كتباً كثيرة وكتبت كثيراً وجعلت في كل يوم أربع ساعات لمواصلة مذاكرة دروسى وتلخيصها واستعرت من كلية الحقوق فى جنيف كتباً ضخمة فى الاقتصاد والاشتراكية وكانت جزءاً من مقرر الاقتصاد السياسى ومن القانون التجارى ، وقرأت كتباً فى الاستعمار تعليقاً على القانون أو التشريع الاستعمارى فى فرنسا ، ومن هنا جاء تخصصى فى مكافحة الاستعمار الانجليزى ، وواظبت على قراءة المجلات الفرنسية والانجليزية وكبريات الصحف اليومية وارتبطت ببعض المكتبات لاستجلاب المطبوعات الحديثة فى كل فن .

وكان حى كاروج فى تلك الفترة مقر الثوار وكنا نلمحهم فى ذهابهم الى الحفلات السياسية وسماع الخطب التى يلقيها أمثال جوريس والمساجلات بين الساسة والزعماء فى بيت الشعب بساحة بلانبلية ، وأصغيت الى الأوبرات للمرة الأولى وان كنت شهدها كثيراً فى مصر وباريس ولم أفهم لها معنى ولم أطرب لموسيقاها ، ولكننى سمعت لوهنجرين وطائفة من موسيقى فاجنر فرأيت عالماً روحياً كان مغلقاً دونى ، وعجبت لمن كانوا من أهل مصر

يعرضون عن الأوبرا ويدعون أن لا فائدة فيها الا لمناظرها ويقصدون
جمال النساء ورقصاتهن !

وذهبت في هذه الفترة لزيارة جون نينيه Ninet
الكاتب المحارب السويسرى وضيف مصر فى عهد الخديو اسماعيل
ومستشار عرابى أثناء الثورة العربية وهو الذى أفتى له عشية التل
الكبير قبيل الموقعة بساعات بردم قنال السويس وعدم الثقة بوعود
ديليسبس فجبن عرابى خوفا من أوروبا فكان جبنه سبب نكبة مصر
فى التل الكبير ، لأن القنال لو ردم فى تلك الليلة ما استطاع
الانجليز هؤلاء اللصوص الحمر الشباب والوجوه والسود القلوب
والأرواح أن يصلوا الى جيشنا أو يدخلوا بلادنا كما فشلوا فى
كفر الدوار .

كان نينيه عندما رأيته فى التسعين من عمره ، أبيض الشعر
مجعد الوجه مهيب الطلعة خافت الصوت أكبر من بلنت الذى زرتة
فى العام الماضى (سبتمبر سنة ١٩٠٩) بخمس عشرة أو عشرين
سنة على الأقل ، ولم يكن الرجل فى تمام وعيه ولكنه أدرك أننى من
مصر وأننى عدو الانجليز وأننى جئت لزيارته لشكره ، وكنت قرأت
كل ما كتبه عن مصر منذ سنتين «بلد الخديوين» و «اسماعيل باشا»
و « عرابى باشا » و « ضياع مصر على يد أوروبا » . ويعد نينيه من
مفاخر سويسرا وقد تأثرت كثيرا بهذه الزيارة وشربت عنده قهوة
وهو مخدوم خدمة فائقة وبينه فى غاية الأناقة والجمال وقد توفى
بعد ذلك ببضع سنين (١) .

(١) جون نينيه رجل سويسرى أقام فى مصر أكثر من أربعين سنة منذ أن
قدم اليها فى عهد محمد على فى عمل يتصل بزراعة القطن ، وقد خالط أهل مصر
من جميع الطبقات وعرف أحوالها معرفة وثوق كأنه من أهلها ، وقد شهد بنفسه
ماساة الاسكندرية فى ١١ يونية سنة ١٨٨٢ والتي اتخذتها انجلترا ذريعة لضرب

لم تطل هذه الفترة الأولى الا أسبوعين رحلت بعدها الى ليون
 ٠٠ فزرت الكلية وحضرت بعض المحاضرات وقابلت الأستاذ لامبير ،
 وحاولت البقاء في بيتي ولكنني لما شعرت بالضعف يعاودني عقدت
 العزم على العودة الى جنيف ، وشهدت رحلي على أن أعود في يونيو
 قبل الامتحان بشهر على الأقل ، وعلى ألا أقطن ليون وأقيم بضاحية
 شاربونير وهي ضاحية باسمة فيها هواء وبساتين وحمامات
 وملعب للتمثيل ٠

وفي هذه المرة أصدرت الصحيفتين اللتين ذكرتهما « صوت
 الشعب » و « مصر » وتوجد منهما نسخ في كل مكتبات أوروبا العامة
 ولكنهما صودرتا ومنعتا من الدخول الى مصر ، وبالرغم من ذلك
 تمكنت من ايصال بعض النسخ بطريقة سرية ٠

ومن أهم ما أذكره في هذه الفترة الثانية عيد العمال في أول
 مايو سنة ١٩١٠ وكان الاحتفال به في جميع أنحاء أوروبا عظيما جدا
 ما عد انجلترا ، وكانت حركة العمال قد قويت في فرنسا بتأثير
 جوريس وفي ألمانيا بتأثير أوجست بييل وفي انجلترا برياسة
 كيرهاردي ، ولكن الانجليز لا يفهمون المظاهرات الا نادرا ٠

وفي هذا اليوم خرجنا الى المدينة لنشهد المظاهرة الكبرى التي
 اشتركت فيها جميع طوائف الشعب ولم أر مثلها الا في مصر أثناء
 ثورة سنة ١٩١٩ ، وأثناء تلك المظاهرة السلمية الجميلة لم يمد
 البوليس يده ولا لسانه ٠

= المدينة بالقنابل أثناء الثورة العربية وما تلا ذلك من أحداث الاحتلال الانجليزي
 لمصر ، وقد وصف في كتاباته حادث الاسكندرية وصف شاهد عيان وأورد ما دار
 بينه وبين عمر لطفى محافظ الاسكندرية حينذاك ولومه على موقفه السلبي من
 هذه الأحداث وطلبه من ادميرال الأسطول الانجليزي أن ينزل جنودا بالمدينة لان
 عرابي لن يقوى على حفظ الأمن فيها !! ٠

ان طبقة العمال مثلومون ومغلوبون على امرهم في اوطانهم
ويظهر أنهم يشعرون أن عدوهم المشترك هو الرأسمالية ، فهم
يحتجون عليها ويجدون لهم متنفسا في أى مناسبة ممكنة •

كانت حياتي في تلك الفترة شسبه انتصار في معركة على
الموت والمرضى والخمول الذهني واليأس والغربة ، فأراد الله لي
أن أفوز في المعركة وأن ينصرني على عوامل الضعف والخيبة ،
وقد هيا لي أسباب النصر وعناصره ، واني الآن - بعد نضج العمر
ومذاق الحياة والوصول الى غروبها وظهور الشفق في الأفق -
لأدهش من تلك الذكريات للحوادث والأيام المواتية !

نعم • أصابتني في تلك الفترة صدمات تحطم القلب وتهد
القوى وتضعف الجهد وتتهدد السعادة وتكاد تعصف بها • ولكنني
صمدت لها جميعا وتغلبت عليها واجتزت جميع عقباتها •

كان شهر مايو هذا من عام ١٩١٠ عجيبا ، فقد ظهر فيه مذنب
هائل ورئى في جميع أنحاء العالم وأخيرا قالوا انه سيظهر في سما
سويسرا في ليلة حدودها ، فسهرنا في تلك الليلة وعولنا على ان
نسير الى المرصد الفلكي من كل أهل الدار وكنت أكره أن أترك
فراشي ليلا لأشهد تلك الظاهرة ، ولكنني علمت أن هذه الظاهرة
لا تبدو للمعيان الا في كل ثمانين سنة مرة ، فتحملت المشقة وقمت
في منتصف الليل ، ولم أكد أخطو خارج الدار بضع خطوات وأرفع
رأسي الى الأفق الأعلى ، وفي ظني أن الكوكب لن يبدو الا بعد ساعة
أو ساعتين ، واذا بي أرى منظرا فخما رهيبا لا ينسى ، واني آسف
على أن الصور المتحركة لم تكن سنة ١٩١٠ قد بلغت ما بلغت
الآن لتسجل هذا المشهد الرائع الذي لا ينسى •

فجأة رأيت سباعيا من النور مكونا من عشرات الكواكب
الكبيرة المصحوبة بعدد آخر أصغر حجما ومذيلة بسلسلة نورانية

وقد ملأت الأفق نورا وبهاء ، وهى تقطع أجواز الفضاء بسرعة عجيبة كأنها القطار السريع من الشمال الى الجنوب ، وكانت لشدة جمالها فى موكبها ولغرابة المنظر وجلالته ولاعتقادك أنه لن يعود لك فى هذه الدنيا ، تكاد الروح تطير شعاعا اليه ، فبقيت فى مكانى كما لو أن أقدامى شدت الى الأرض بأمراس كتان ، مشدوها سابحا سائحا فى عالم الجمال والدهشة !

لقد مرت بى فترة من الأزلية ولمستنى يد علوية وأظن كل من شهد هذا المنظر يذكر هذا الشعور العجيب ، لقد كان المذنب العظيم أغرب من القمر لأنك ترى القمر ثابتا وينتقل فى منازل ببطء شديد ، ولكن المذنب يجرى لا مستقر له ، وناهيك بهذا الكون الذى يتسع لأن يذرعه هذا الجرم المزدحم بالكواكب والأقمار ويطوف ركننا من أركانه مطافا مئينيا بحيث لا يظهر لأهل الأرض - ذلك الكوكب القاتم المظلم - الا فى كل قرن مرة واحدة !

وعندما عدنا الى المنزل قابلت فتاة بدرتنى بسؤالها : هل رأيت يا سيدى الكوكب ؟ • وكان وجهها مضيئا مملوءا عجبنا واعجابا وإيمانا ، فقلت لها : نعم وأنت ؟ • قالت : نعم رأيت ولم أعرف نعمة رؤيته الا بعد أن مرق فى السماء مروق السهم المخترق جوف الفضاء العلوى ، ويا حبذا لو كنت أراه مرة أخرى • طبعاً لن أراه لأنه لن يظهر الا بعد ثمانين سنة أخرى وأين نكون بعد ثمانين سنة ؟ طبعاً سنكون تحت التراب • قلت لها : من يدري ؟ قالت : أترضى لى أن أعيش ثمانين عاماً أخرى ؟ قلت : ربما ولكن لعلك تكونين بحيث يكون هذا الكوكب من أصغر ما تتمتع روحك برؤيته • فنظرت الى السماء وقالت : من يدري !؟

كنت أتمنى فى هذه الفترة بالمطالعة فى أوقات الفراغ وأغشى
عيني عن العالم واسمع الى محاضرات القانون وأصرف همى فى

الدرس وأروح عن نفسى بكلية الآداب ودراسة الهيروغليفى على
الأستاذ لورتيه وكان من رفاقى فى الدرس « بيير مونتيه » الذى
اكتشف مقبرة « بشفنس » فى صان الحجر والمرجوم أحمد زكى .
وكنت أحاضر فى قاعات المحاضرة وأشارك لاميير وهريو فى تكوين
المدارس العلمانية « ميسيون لايبك » ومن بينها الليسية الفرنسية
التي تأسست فى مصر لمقاومة الفزعة الدينية فى مدارس الفرير .

ولقد عشت عيشة سعيدة ، وكنت أنسلم بريدا ضحما ،
فانى لم أقطع صلتى بأصدقائى الايرلنديين والهنود الذين عرفتهم
فى مؤتمر جنيف المصرى سنة ١٩٠٩ وكان كثير من الفضلاء
يبعثون الى مكتبهم المطبوعة .

(٢)

فترة جديدة

جان جاك روسو - سباستيان فور - جان جوريس -

برتونى - مجلة ميركوردى فرانس -

الراقصة العالمية ايزدورا دنكان

غادرت بيت آل راسين فى ضاحية بيتى لانسى ووصلت
شامبل ونزلت بفيلادى روز لصاحبيتها مدام فارين ، وبدأت فترة
جديدة فى حياتى ، وصار قريى من جنيف أنفع لى فى الوصول الى
المكتبة الجامعية ، فان الطريق كان قصيرا بين شامبل وساحة

بلانبايه وساحة الملعب وميدان الجنرال ديفور بطل سويسرا الوحيد مثل الميجور دافل فى لوزان ، ومن هناك الى كاروج فشارع مونبلان والجسر الكبير وجزيرة جان جاك روسو وساحة بلير وموقف الكهرباء الموصل لبيتى لانسى ، وحرصت على الاطلاع على روائع الادب الفرنسى ولا سيما مؤلفات جان جاك روسو « الاعتراف » و « العقد الاجتماعى » و « أسباب التفاوت بين البشر » فالتهمتھا ، ودرست حياة جان جاك وكتبه وداومت على تفھمھا وصممت على أن أفتتح بفلسفته وأفكاره وآرائه ومبادئه محاضرات ألقیھا على المتأدبين من أهل مصر عند عودتى الى وطنی ، فهو لابد أن يكون أقرب الناس الى قلوب هذه الأمة فقد كان للحق وللحرية وللضعفاء .

وكننت أحضر خطبا ومحاضرات فى بيت الشعب وسمعت سياستیان فور وجان جوريس وبرتونى ، وسياستیان هذا كان كهلا مكافحا وكان يتحدى خصومه المنازلة فى ميدان الفصاحة والتاريخ والفلسفة ، وكان اذا تحمس يخلع سترته ويشمر عن ساعديه ويفيض بنهر منهمر من البلاغة المرتجلة .

أما جوريس فكان نوعا آخر من الرجال يشبهه خطباء اليونان والرومان الاقدمين ، وكان اسناذ فلسفة وادب فى السوربون وقد غادر منصب التدريس لينصر الشعب المظلوم وينشر الاشتراكية ، وقد تعودت من ذلك العهد أن أقرأ جريدة الانسانية « هيومانيتى » .

وكان برتونى عاملا سويسريا فى مطبعة يعیش من عرق جبينه وجهد ذراعيه (١) ، ولكنه كان ينشر مبادئ العمال فى أنحاء سويسرا ويتنقل ويرحل ويؤلف اللجان ويكتب الرسائل ويبيع

(١) كتب لطافى جمعة مقالا نشر بالبلاغ الأسبوعى فى ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٢٩ عنوانه « صفحة من حياة العمال فى أوربا ، كيف مات برتونى الشهير بساحة =

الكتب ويجمع المال لنصرة المبدأ الذى يدافع عنه ، وقد زرناه فى بيته ، وعشنا فى جنيف حتى رأينا البوليس السويسرى - وهو مطبوع على الغدر والتفريق والانتقام - يلصق بـ تـ نـى وثلاثة من أنصاره ورفاقه تهمة التحريض على الثورة والشروع فى قتل الشرطة وأنه ورفاقه كانوا يعلقون منشورات ويلصقونها بالجدران تدعو الى الفتنة وزعزعة الأمن الى آخر تلك التهم الحاضرة فى أذهان البوليس فى كل مكان . والعجيب فى أمر هذه التهمة فى تلك البلدة الضيقة العقل المحكومة بجمهورية رجعية وحكومة رأسمالية . أنها عندما وصلت الى محكمة الجنايات ، تقدم للدفاع عن برتوى ليف من المحامين متطوعين فشكرهم واعتذر لهم وقال انه سيتولى الدفاع عن نفسه بنفسه ، فبهت الرأى العام لأن برتوى لم يكن على علم باجراءات المحاكم ولكنه قال ما دام فى المحكمة محلفون فلست أبالى فان تهمة البوليس أوهن وأضعف وأخرى وأكذب من أن تقف على قدم واحد فضلا عن قدمين . وقد كان وصح نظره وصدق رأيه وتحطمت التهمة وحكم قضاة جنيف ببراءته بعد أن أبدى المحلفون رأيهم بأن لا جناية ، وهلل الناس فى المحكمة وهتفوا للعدل ولبرتوى .

وانتهزت فرصة زيارتى المكتبات واطلعت على مجلة « مركودى فرانس » ، ولم أكن قد سمعت بها ولا قرأتها ، فكان اهتدائى اليها ظفرا لى ومصدر معرفة واسعة بالأدب والفنون الحديثة ، فاقبلت على المجلة فهى تنشر للأساتذة الراسخين والنوابغ البادئين وتميل الى التجديد فى كل شئ وتلخص الكتب والمجلات الأوروبية وتصدر مرتين فى الشهر وتطبع كل مرة أكثر من مائتى

= بلانبلية بمدينة جنيف « وصف فيه اعتداء الشرى كوشو نورمان على بيرتوى زعيم العمال على اثر ضبطه متلبسا بـ لصق منشورات بساحة بلانبلية وحى مون بلان حتى لفظ أنفاسه نتيجة الضرب على الرأس والبطن والظهر والدوس بالاقدام . »

صفحة بفرنك ونصف ، فبادرت الى الاشتراك فيها ومازلت مشتركا الى عام ١٩١٨ او ١٩٣٩ واحصيت بمجموعتها ، وساءت الاقدار ان اكتب فيها ملاملا سنة ١٩٣٠ (١) ، وتنامت مخبئتها فمدنني بالذنب الجديدة ، وفيها اطلعت على الحركة الجديدة في فرنسا والمانيا وايطاليا وحتى انجلترا والمدارس الادبية نورا وشعرا وتعرفت في صفحاتها الى انابر انساد وتسلسلهم كابرا عن نابير ، وكانت جريدتا « الطان » و « الميجارو » ومجده «مركوردي فرانس» تغذى نهى في الأدب وتربط الماضي بالحاضر ، فلم قرأت لبول فرلين وآرتور ريمبو وجان ريشبان وفرنسيس جام وريمي دي جورمون صاحب الشهريات الباهرة وهي مزيج من الفلسفة والأدب والعلم ، أما نقد الكتب والحركة العملية وتلخيص الرسائل والبحوث الممتعة المسهبة فحدث ولا حرج .

وفي هذه الفترة دعيت الى حفلة لمشاهدة الراقصة العالمية ايزيدورا دانكان وكانت ترقص في كازينو الكورسال وكنت شغوفا برؤية هذه المرأة لكثرة ما قرأت عنها في الصحف الانجليزية لأنها اسكوتلاندية متحررة وأوربية النزعة عالمية الشهرة كونية الفن !

كانت الساعة التاسعة عندما رفعت الستار عن مسرح ايزيدورا دنكان ، ولهذه الفنانة العظمى مناظر خاصة وديكور خاص يقوم به عمال تابعون لها لأنها ذات فرقة كاملة ولها أوركسترا كاملة ولها حواريون وتوابع كالنجوم التي تتبع الكواكب السيارة في أفلاكها ، وهي الكوكب السيار ، فأكون قد رأيت في هذا الربيع

(١) عنوان المقال الذي كتبه لطفي جمعه في مجلة Mercure de France

بتاريخ ١٥ ابريل سنة ١٩٢٠ هو :

« A propos du tour hindou de La Corde Rigide ,

ص ٨٥٢ - ٨٥٥ .

كوكبين سيارين ، أحدهما رامج وهو مذنب هيلي والثاني راقص وهو ايزيدورا دنكان ، فلم يقل أحدهما في نظري في الجمال والروعة ودقة الحركة ، وان كان يصح اطلاق صفه الكوكب على امرأة ممثلة أو راقصة ، لصح اطلاق هذا الوصف على ايزيدورا دنكان دون سواها ، لان كل كواكب الفنون المسرحية عيال عليها .

وهذه المرأة لها بدن نيس مثل الأبدان ، فهو طوع اودادتها كأنه خال من العظام ، تنشره وتطويه وتفرده وتثنيه وتمده وتمطه وتطيله وتقصره وتسهب فيه وتختصر ، وأعصابها طوع عقلها وعضلاتها طوع أعصابها ، وميزتها وحدتها كالثقيفة الملتحمة أو الأغنية الموقعة ، ثم مع هذا كله مجموعة من المناظر العجيبة النابضة بالحياة .

وعندما ترقص تنفس وتختلج تبعاً لرقصتها وكل عضو من أعضائها طروب يتبع النغم الرتيب ، وكأنها بمجموعها ساعة دقيقة الصنع شديدة الضبط تتبع الكواكب في حركتها الفلكية ، وهي لا تنطق ولا تغنى ، ولذة النفس منها بصرية سمعية ، فأنت ترى هذا البدن اللين اللدن المرن ، وتسمع تلك الأنغام العجيبة ، وتتجدد اللذتان فتوحدان لذة عقلية تمثل اللذة التي نسيبها عند سماع موسيقى فاجنر .

ولقد حبست أنفاسي مرتين بغير قصد مني وطال احتباسها ولم أشعر بضيق ، المرة الأولى عند سماعي أوبرا لوهنجرين والثانية عند مشاهدة رقص ايزيدورا ، وفي كل منهما لم يكن لغير العقل لذة مطلقاً ولا دخل لعاطفة الجمال ، ولا أدري ان كنت أقول ما يطابق آراء النقاد والخبراء ولكنني أقول ما شعرت به .

هذه المرأة قالوا عنها انها أحبت الرقص اليوناني القديم وانها تقلد رقص الهياكل في الهند وفي ذلك ، قالوا كثيراً ، ولكن

أقول انها تبثكي دفصا نوعيا مثل « رقصة الأوزة » ، و « رقصة
 النعام في الدب » وهن الفتيات اللوانى يتعقبهن « بان » ، وهى
 تجعل هذه الأشياء والكائنات صورة ذهنية تفسر بها المعانى تفسيراً
 بالحرثات ، حتى الجماد تعطى الحياة ، فقد رقصت فى تلك
 الليلة « رقصة الأوعية Les Vases لا نقصد الصحن والسلطانية ،
 ولكن نقصد الى الأوعية من الصينى والفاشانى والخزف والذهب
 والعاج والكريستال والمرمر التى تفنن النحاتون والمصورون فى
 صنعها فى العهود القديمة لأسباب دينية أو فنية ، وهى الأوانى التى
 تعرض فى المتاحف وقد حذقها أهل الصين واليابان ، تخيل ونصور
 أن هذه الأوانى ترقص أمام عينيك ! ، أو أن امرأة من لحم ودم
 وعظم تتخذ أوضاع تلك الأوانى المختلفة فتتبع الأوضاع بعضها
 بعضاً فى أناة حتى تملأ عينيك ويتم تخيلك وتدرك النسبة بين
 الحقيقة والتقليد ، وترى الحياة تنبض فى الجماد وترى الجماد
 الجميل يندمج مع الحياة وصورة امرأة عارية لا يسترها الا مهلهلات
 من الأقمشة الشفافة بلون البحر أو الورد أو الفل أو الشفق
 أو الفضة !

وأرجو أن أكون صادقاً عندما أقول اننى لم أر من بدنها
 الا التوقيع ، وكانت فى رقصة الأوزة تبثكر أوضاعاً وحركات
 برأسها ويديها ورجليها وجذعها تجعلها كالأوزة فى سباحاتها وفى
 طيرانها وحركة أجنحتها وفى طول رقبتها !

وكانت الموسيقى الموضوعية لكل منظر خاصة به تتمشى مع
 المناظر والحركات تمشياً مدهشاً ، ولم يكن الناس مسرورين
 أو مدهوشين أو معجبين ، بل كانوا مجانين وصرعى ومأخوذين ،
 وكان أغرب الشيء أن المرأة المخلصة لفنها كانت هى أيضاً طروباً
 رفخوراً ومنتشبة بنشوة الرقص الذى أبدعته وحققته لاهرة الأولى
 فى تاريخ الفنون •

هذه ساعات يقول العوام انها لا تحسب من العمر ، ولكن حقيقتها أنها دون سواها هي التي تحسب من العمر !

ولم أشهد ايزيدورا بعد ذلك أبدا ، ولكنني تتبعت أخبارها بشغف شديد وشهدت احدى تلميذاتها « بافولوا » في مصر وهي مقلدة لا مبتكرة ولم يظهر لها ذكر ولا شأن الا بعد موت شبيخة الطريقة ومؤسسة المدرسة .

وقرات بعد ذلك بسنوات أن ايزيدورا دنكان عشقت شعاعا روسيا شابا فتنت به فعذبتها وأذاقها مرارة العيش ومرارة الحب من امرأة في خريفها لولد في ربيعها ، وقد دونت ذلك في مذكراتها التي نشرت في كتاب ، وكان لها ولدان ماتا باهمال مربية مستهترة وهما يتنزهان على أحد جسور باريس ، ومن ذلك التاريخ فقدت الفنانة العبقرية عقلها وحظها وانتحرت ، ولكن أصدقاءها صاغوا خبر موتها في صورة فنية فزعموا أنها كانت تقود سيارتها فاشتبكت أطراف شال حرير بالبحل والتفت على عنقها فراحت ضحية الشال والجل مشنوقة ، ولم أصدق هذه الرواية في وقتها .

(٣)

الاستعداد لامتحان اليسانس - الإقامة في شاربونير
خلوة الشرق - حياة الريف الفرنسي - حالة العالم في أوائل
القرن العشرين

كان يخيل الى في تلك الأيام التي بدأت برحلتى الى جنيف أنني مقبل على عهد سعيد جدا . وقد تحقق ذلك التخيل كما يتحقق

الحلم ، فقد نواضرت لى سبه أسباب السعادة المادية والمعنوية والعقلية والروحية ، وكان شعورى بالواجب وانتظار الامتحان لشهادة الليسانس من عناصر هذه السعادة التى تكاثرت أسبابها ، ولم تكن قلة المال والحرمان من بعض الكماليات بمنفصة هذه السعادة . بل لعلها كانت من أسباب زيادتها .

بانت فترة الاقامة فى شامبل امينا من الاقامة فى بينى لانسى ، وكان يدهشنى ما واتانى الله به من قوة وتفتح ذهن واقبال على العمل وشعور بالسرور ونضارة العيش ، وقد زادنى فرحا أننى أخذت أنظم فكرى وعملى وأجعل حياتى مطابقة لتفكير منطقى وأكلف نفسى فوق وسعها فى القراءة والرياضة ولا أجد لذلك الا استجابة واستعدادا .

وكان يرد الى فى كل يوم بريد ضخيم من مختلف الجهات وأتمكن من الاجابة عن كل مكتوب وخطاب، وأساير الحركة الفكرية الأوروبية والحالة السياسية العامة وأتتبع أنباء مصر وكانت هذه الأيام اليمية فى نفسى لوجود بعض القضايا السياسية فى القاهرة التى كانت تصلنى أنباؤها فى الصحف .

ووصلنى فى يوم خطاب من رفيق الدرس فى الكلية ينبئنى فيه أنه لم يبق على الامتحان سوى ستة أسابيع وأن الأساتذة يلخصون المحاضرات ويتناولون المبادئ العامة وأن الطلاب يجتمعون ويتناقشون وأن بعض الأساتذة ولا سيما هوفلان وكوهندى وإيمانويل ليفى قد سألوا عنى ، فصممت على الانتقال الى ليون لاستعد للامتحان فى ميدان العمل وفى جو الجامعة وفى وسط الأساتذة والطلاب ، وخشيت عاقبة الوحدة والرطوبة ، ففكرت فى عدم العودة الى ليون والاقامة فى شاربونير إحدى ضواحيها وفيها خضرة وماء وهواء طلق وجبال عالية وبساتين ، وحددت يوم السفر فى اليوم الأخير من مايو .

وصلت شاربونير في يوم شديد القيظ في أوله شديد المطر وهو أول يونيه وكان الامتحان يعقد في أواخر يوليه وشددت رحلي في آخره واهتديت الى مسكن جميل مستقل نفلت اليه متاعى ثم نظمت عملي وقصدت الى الكلية وأعدت صلات المودة وحضرت المحاضرات ، وفي أسبوع واحد اتصلت اتصالا وثيقا بدراستي فلم يفتنى شيء وأكثر من التردد على الأساتذة أسألهم وأناقشهم لأفحص نفسى وأقيس استعدادى ، وأخذت أعمل بعد الظهر فى بيتى ويزورنى فيه الطلاب المصريون المقيمون فى شاربونير ومنهم المرحوم على فوزى وعبد الحليم البيل ومحمد بيومى وغيرهم .

وزارنى فى هذا البيت الأستاذ محمد ناجى المصور وكان طالبا بالحقوق معى فى فرقة واحدة وروى لى وصف سياحته فى إيطاليا وزيارته المتاحف فى روما وفلورنس ، وذكرنى بسياحتى إليها منذ أربعة أعوام (١٩٠٦) ولكنه تكلم بلسان الفنان الذى عرف ودرس فلزمت الصمت خشية أن أكشف عن جهلى وأنا شديدة العسيرة ونذرت أننى اذا نجحت فى الامتحان فلا بد لى من السفر الى فلورنس .

كانت هذه الفترة من أسعد فترات حياتى ، فأننى كنت فى جوار العلم وأحضان كليتى وبين أساتذتى وإخوانى الطلاب ، أقصد الى ليون فى كل صباح أتابع دروسى وأشهادك فى تكوين « خلية الشرق » وهى المعهد الذى أسسه ادوارد لامبير لمواصلة بحثه فى الشريعة الإسلامية ومقارنتها بالشرائع الأخرى ، وقمت بقسطنطين من اللقاء المحاضرات العامة فيها وفى الكلية ، وقد خلفنى الأستاذ مصطفى عبد الرازق فى فترة غيابه ، وكنت ألقى تلك المحاضرات بالفرنسية ثم بالعربية لمصلحة اخوانى المصريين والتهرب من الاصطلاحات الفقهية .

وقد وجدت سرورا كبيرا في حياة الريف الفرنسي لما فيها من الطرافة والعراقة ، فكان لحياة الريف الفرنسي لذة وجمال يفوقان لذة الحياة في ضواحي جنيف ، فانك هنا تشعر بأنك في وطن لا في اغتراب ، وتشعر بأن الناس لا يستغلونك لأنك سائح بل يعاونونك ويقدرونك ويألفونك ولا ينافقون في معاملتك كما يفعل أهل جنيف بقصد المكسب والمن عليك بأنهم أصحاب البلد والأرزاق والجبال والبحيرات والأنهار ويؤجرونها لك ويبيعون لك جمال الطبيعة بيبعا ، ثم ان للجمال في ليون وضواحيها طابعا خاصا ، طابع الفطرة لا طابع الاصطناع .

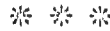
كانت هذه الأيام زاخرة بالحياة والحركة والمعركة الحامية في كل أنحاء العالم ومن بينها مصر وكذلك انجلترا ، وكانت تتمخض عن حركة العمال الاشتراكية على طريقةهم الجامدة الباردة ، وصار الجمهوريون في فرنسا شيوعيين والأحرار ملحدين وأحزاب الشمال فوضويين ، ونزل أناطول فرانس وأندريه جيد ومارسيل سامبا الى الشوارع لقيادة الحركات الجديدة .

وبالجملة كانت الدنيا تغلي كالمرجل المقبل على الانفجار ، وأظن أعظم الأسباب لهذه الحال كانت سلطة الرأسمالية وحرب الطبقات وانتشار الفقر وفحش الثروات الطائلة في بريطانيا وأمريكا وفرنسا وانحصارها في أيد معدودة وحرمان الكافة .

فلا عجب ان كان الشباب المتعلم قد تأثر بهذه النهضة التي كانت تخفي وراءها تحفز أوروبا للحرب سنة ١٩١٢ ثم كظمت أوروبا غيظها سنتين ريثما تستكمل استعدادها لتخوض غمار الحرب العالمية الاولى .

لقد ازدهرت الحضارة الأوروبية ونمت وتضخمت ، والأذهان تفتحت والنفوس اشتعلت والأمزجة توهجت وأندرت بنهاية هذه الحضارة التي عجل بنهايتها سياسة إنجلترا أمثال اسكويث ولويد جورج وكتشنر وغلبيوم الثاني وفرانسوا جوزيف والسلطان عبد الحميد وتيودور روزفلت ، وكان بعض المفكرين رأوا علامة الخطر ونذير الهلاك وإشارة آخر الزمن ولا سيما أرفالد شينجلر في ألمانيا وماكس نورداو في النمسا ورومان رولان وأناطول فرانس في فرنسا وأجست بييل في ألمانيا ، وحاولوا تفكير الدنيا وتذكيرها بواجبها ، ولكن الزمان أفلت من أيدي هؤلاء وتقدم الجناة والسفاحون وخدام المستبدين وأذئاب المستعمرين وعباد المال الى المعركة التي كانت الضربة الأولى .

وأظن هذه الحالة وما تلاها يفسر الغليان الذي كنا نشعر به كأننا نودع العصر الحديث الذي لم تكن قد قضينا منه الا عقدين من الزمان ، فقد كان عمري في مستهل العهد الثالث ولم أتمتع بالوعي والادراك وقتها الا منذ خمس سنين .



النجاح في امتحان اللميسانس

كان من أهم الأمور أن أسارع الى جواز الامتحان لاتحرج من قيود الدراسة ، وان لم تكن الدراسة عاقبتني عن المساهمة في مؤثر جنيف (سبتمبر سنة ١٩٠٩) ، ولم تعقني عن الاتصال

رجال السياسة والأدب في أنحاء العالم ، ولكنني مازلت طالبا ولا ينظر الى قولي وفعل الا نظرا لرجال الى طالب في ريعان الشباب ، وكانت ترد على خطابات ومكاتيب من المشهورين « بلنت » و « كلير هاردي » و « نوم تيتسل » و « هزنون » و « روشسنين » والقيف من السياسة الانجليز والفرنسيين ، وقد انصبت منذ عام بالهنود ولا سيما شيامدجي كريشنا فارما صاحب مجلة « انديان سوسميولوجست » ومدام كاما وهارديال وسافاركار ، وكانت تصالني كتبهم المطبوعة والمخطوطة واخبارهم المتنابهة .

عندما حل يوم الامتحان - وكنت سأؤديه في ثلاثة أيام - تبعت حمية خاصة وانقطعت عن المذاكرة وقضيت يومين في الرياضة البدنية والسير في الحقول وفي غابة قريبة من شاربونير .

وحدثت لي في هذا الامتحان بعض الحوادث العجيبة ، منها أنني في عشية الامتحان رأيت في الرؤيا بعض الأسئلة في القانون التجاري والدولي ، فاحتطت لذلك بمراجعة خاصة لهاتين المادتين ولا سيما الأسئلة التي رأيتها في المنام .

ودهشت اذ صادفتني هذه الأسئلة نفسها في الامتحان وأجبت عنها اجابة حسنة جدا .

وفي اليوم التالي كنت اتوجس خيفة من امتحان عمانوئيل ليفي الاسرائيلي لأنه شديد الفطنة وشديد مع الطلاب في الامتحان ولا سيما الغرباء ، وهو خطيب سياسي اشتراكي النزعة وثقة في القانون المدني ولا يرجع الفضل في نجاحه الا لاجتهاده ويحقد على الارستقراطية والبورجوازية حقدا في محله .

فلما كان يوم امتحاني أمامه - وهو اليوم الثاني - أقبلت عليه وأمامه طالب ياباني. وقد اضطرب ابن طوكيو اضطراباً شديداً ، فألقى عليه ليفي. سؤالا لا يعد سهلاً ولا صعباً ولكن بين بين ، فأحمر الياباني لأنه أصفر بالفطرة وقال له : أرجوك يا سيدي الأستاذ أن تكتب لي السؤال لأجيب عنه . فنظر الى ليفي وتنهّد واستجمع قوته لأنه مصاب بربو مزمن وقال : وأسفاه يا سيدي الياباني ان خطي أردأ من نطقي . أشكرك وأرجوك الانسحاب ! .

فلما جلست بين يديه بعد الياباني قال لي : وانت أيها السيد المصري ، أجب عن السؤال الذي عجز عنه سلفك ان شئت .

فأجبتّه بتوسّع فقال : لا عجب فقد كانت عندك فرصة الاجابة بينما كان صاحبك مضطرباً ، فهذا لا يدل على شيء فأجبتني عن كيت وكيت . فأجبتّه باسمي ، فقلب أوراقي وقال : بما أنك تعرف مقررك فما سبب الشائعة بأن الطلاب المصريين لا يستعدون ؟ . فقلت له : لا علم لي بهذه الشائعة . فألقى على سؤالا ثالثا وقال لي : لا تغضب ولكن أسألك ليطمئن قلبي ، ما الفرق بين القانون المدني والقانون التجاري في آراء الفقهاء ؟ . قلت : أجيب من المراجع أم من واقع درسك فقال : يكون أوقع . قلت كالفرق بين الحسنة المحتشمة والدميمة اللعوب ، فافتّر ثغره عن ابتسامه عريضة لأن هذه كانت نفس ألفاظه في محاضراته فقال : أشكرك لا فائدة في تعذيبك وتضييع وقتي . فابتسمت وتركتّه .

ومررت أمام كل اللجان وفي كل منها ثلاثة أساتذة محلفون وعميد الكلية ، وفي اليوم الثالث كان امتحاني في التشريع الاستعماري وتشريع العمال والمبادئ الاقتصادية .

وفى اليوم نفسه ظهرت النتيجة وهى نجاحى بتهنئة المحلفين وهى نتيجة تعلن والأساندة وقوف وتلوها تصفيق جمهور الطلاب وأهلهم ، وكانت هذه هى المرة الثانية التى نلت فيها هذا الشرف فى كلية الحقوق ، وخرجت مسرورا ووصلت الى شاربونير فى الساعة الثانية بعد الظهر .

وفى تلك الليلة سهرت فى الكازينو وحضرت التمثيل الموسيقى وشعرت بحرية وسعادة لم أشعر بمثلها منذ أربع سنوات أو ثمان وهى مناسبات الشهاداتين الابتدائية (١٩٠٠) والثانوية (١٩٠٧) وكل منهما تدل على قضاء مرحلة من الحياة والدخول فى المرحلة التالية ، ولكننى عزميت على أداء امتحان الدكتوراه ، وإن كنت مجبرا على أداء امتحان المعادلة فى مصر بعد عام ، ولم أكن أعلم أننى فى شهر سبتمبر من تلك السنة نفسها (١٩١٠) سأكون فى باريس وبروكسل فى سبيل المؤتمر المصرى الوطنى الثانى ، وكنت أظن أن الدهر يسمح لى براحة ثلاثة أو أربعة أشهر على الأقل قبل استعدادى للدراسة الختامية .

- ٥ -

عقب النجاح فى امتحان الليسانس

إن الأيام السعيدة التى تعقب نجاحى فى الامتحان هى وحدها التى استمتعت بها وحسبتها أعيادا يجب على الاحتفال بها وهى أيام معدودة فى سنوات معدودة وكانت تتخللها أعوام شقاوة وعناء وعنت من الدهر فيخفف الله عنى أهوال تلك السنوات بأيام غر مججلة يعقد للحرية فيها النصر لوطنى .

ومن الآلام التي تخللت تلك الأعوام انشغالى الدائم على رزقى
اثناء دراستى ولم يكن لى مصدر محدد معلوم الا جهادى بقلمى
وما وجود الله به على من فيض نعمائه فتغنيى عن الناس •

ومن أحزان تلك السنوات وفاة المرحومين الشيخ محمد عبده
ومصطفى كامل وقاسم أمين وفى تلك اليمامة (١٩١٠) اعدام
المرحوم ابراهيم ناصف الوردائى ، وكانت قضيتته فى نفس ايام
الامتحان تنظر امام محكمة الجنايات بمصر ، وكانت الصحف
المصرية تحمل الى مرافعات المحامين وفى مقدمتهم محمد على علوبة
بك ، وكانت مرافعة الهلباوى لا تهزنى لأننى كنت أشعر بأنه
يحاول الاخلاص ويبذل أقصى جهده ليمحو عن نفسه وصمة المرافعة
ضد الفلاحين اخوته وأبنائه الذين شادوا مجده وأغنوه وأوصلوه
الى مكانة العظماء فى غفلة الزمان ! •

وقد لاحظت أن جريدة الطان الباريسية كانت تعنى بذكر
الحوادث المهمة التى تحدث فى الشرق ، فهى وحدها التى نشرت
فى العام الماضى نص الصلاة التى وجهها « دنجرا » قبل اعدامه فى
لندن لقتله سيركيرزون وايلي وطبيب هندوسى مماليء للانجليز ،
وبسبب هذه القضية قبض على سافاركار مؤلف كتاب الثورة
الهندية الذى وصلنى فى مارس بجنيف وهو ربيب وتلميذ مدام
كاما المقيمة فى باريس وصديق شيامدجى كريشنا فارما ، وقد
قبض على سافاركار فى لندن ونقل الى الهند وحكم عليه بالهفى
المؤبد فى جزيرة لاكاديف المشهورة بسوء جوها وفضاعة طقسها •
وفى تلك الصلاة التى وجهها دنجرا الى أمه الهند « باندى ماترام »
تمنى أن يموت ثم يبعث مرات لا عداد لها وفى كل مرة يتاح له
أن يقتل عددا من أعداء وطنه •

ونشرتها جريدة الطان وقرأتها أيضا في جريدة « ديلي ميل »
وعلمت أن الشيخ عبد العزيز جاويش حكم عليه في مصر بالسجن
سنة أشهر لأنه كتب كلمة في اللواء يوم « اعدام دنجرا » عنوانها
« اليوم يعدم دنجرا » وكان وكيل انجلترا المدعو الدون جورست
صديق الخديو عباس .

كانت مثل هذه الحوادث تعكر صفو أيامي ولكنها تستحسني
على المثابرة والمصابرة حتى أتم دراستي وأقوم بنصيب أوفى وأوفر
في خدمة وطني .

ولم يكن نشر جريدتي « ايحييت » و « صوت الشعب »
بكاف مع أنني كنت طالبا وقانون وزارة المعارف الفرنسية يحرم
الاشتغال بالسياسة على الطلاب في جامعات فرنسا ، وقد لقيت
عنتا شديدا من الموسيو اريستيد بريان وزير الداخلية ومن
« دومرج » وزير المعارف ومن عميد الكلية الأستاذ فلورير ، ولكنه
كان أقلهم تشددا وأكثرهم فهما ولطفا ، لأنني ذكرته بأنه الزاسي
الوطن والمولد والنشأة وأن كراهيتي للاحتلال البريطاني تشبه
كراهيته لاحتلال ألمانيا للالزاس واللورين مسقط رأسه .

وكان من أثر انفعالي بتلك الحوادث أنني اتجهت في انتاجي
الى نوع جديد من النشر الشعري أو الشعر المنتور هو الذي ظهر
في ليالي الروح الحائر ولا سيما مصرع طيبريوس أحد طقاة روما
وجوديت قاتلة هولفرن وقد جاء في حقها سفر في التوراة من
الأسفار المجدوفة باسم « يهوديت » وكنت أوجه اخواني المصريين
وأدعوهم لسماع تلك النبل التي كنت أعدها تجديدا في الأدب .

سياحة إيطاليا

- ١ -

قراءة مؤلفات « رينان » - زيارة معالم جنوا

زيارة مسقط رأس « متزيني »

حاولت أن أستريح عقيب الامتحان في شاربو نير ولكن القبط اشتد كثيرا ففضلت أن أرحل الى إيطاليا وأن يكون مقصدي الأول شواطئ البحر الأبيض الى جوار جنوا ، وودعت شاربونير وسافرت من محطة برانش الى حدود إيطاليا ثم ركب قطار باريس السريع الذي يهدف الى رومة فبلغت جنوا بعد ظهر اليوم الثاني ، ونزلت في فندق قريب من المحطة ، وكانت رحلة جميلة تتخللها لمحات من جمال فرنسا وإيطاليا وشاطئ البحر أحيانا ، ولكنني شعرت في أعماق نفسي أنني مقبل على المجهول وأرجعت حالتي النفسية وأوهامي الى مزاجي العصبي ومخاوف المشتغلين بالدراسة والأدب أمثالي ، فانهم كثيرا ما يتوهمون خيرا وشرا فلا يأتي هذا ولا يقع ذاك ، ومن بين تلك المخاوف ما كان يصيبني من حداثة سني كلما شرعت في وضع كتاب مثل « في بيوت الناس » ، و « تحرير مصر » ، وكنت أتوهم دائما أنني سأموت فجأة قبل أن أرى نسخة مطبوعة من هذين الكتابين ، وقد رايت أن هذه المخاوف لم تغادرني حتى بعد أن تقدمت السن بي ، فكانت تعاودني تلك

الحال اثناء اعداد كتبى للطبع ولا سيما اننى اجعل لها فى وهى
شأنا خاصا مثل « حياة الشرق » و « تاريخ فلاسفة الاسلام »
و « اكشهاب الراصد » ، وكانت هذه المخاوف تصيبنى قبيل
الامتحانات المهمة والأسفار ذوات النتائج الحاسمة فى حياتى ،
ولكن الله كان يلطف بى فى كل حال ولهذا صرفت من ذهنى هذه
المخاوف .

وأذكر فى هذه الأيام أننى تعلقت بقراءة كتب « رينان »
تاريخ شعب بنى اسرائيل وحياة المسيح ، ولست أدري سبب هذا
الشغف برينان فى تلك الفترة ، ولكن أسلوب الرجل سحرنى
وتاريخ حياته وشجاعته، وحرية عندما خلع ثياب الكهنوت بهرتنى،
وأعجبنى منه قبل أن يكتب حياة المسيح وأعمال الرسل أنه ساح
فى الأرض المقدسة ، وقرأت صلاته الى منرفا آلهة الحكمة والجمال
عند الأقدمين وقد ألقاها الرجل عند زيارته الاكروبول بأثينا ،
وقد ألف رينان كتابا عن ابن رشد فيلسوف الاسلام فى الأندلس
وكننت قرأته بالعربى فى ترجمة المأسوف عليه فرح أنطون منذ
بضيع سنين وقام بالرد عليه المرحوم الشيخ محمد عبده فى مجلة
المنار ، وأعلم أن رينان احتفى بجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده
فى باريس سنة ١٨٨٢ عندما كانا فى باريس وكانت نقطة الخلاف
بين المفتى وفرح أنطون أن أنطون استنتج من كتاب رينان عن ابن
رشد أن الاسلام أضيق عطنا بالفلسفة وحرية الفكر من المسيحية،
فرد عليه المفتى ذاكرا قتل فلاسفة النصارى بأمر الكنيسة ولا سيما
برونو وأمثاله ومحاكم التفتيش .

وفى اليوم التالى خرجت لزيارة كنائس جنوا الشهيرة ورايت
اللوحات الباهرة ولا سيما التصاوير من صنع الأساتذة الأوائل
والمباني الفخمة للمعابد وبعض قصور جنوا القديمة ، وزرت

الذامبو سانتو وهو قصر الموتى ورأيت هناك من آيات الفن وبراعته
التصوير وحذق المثاليين والنجارين والحفارين فى المرمر ما يدهش
الآلباب ويبهز الأبصار ويذهل العقول ، فلكل قبر تمثال لصاحبه
مرسوم فى المرمر ، الوجوه وسائر الأعضاء ناطقة شاخصة كأنها
أحياء ، ان تلك المناظر تبدل الأفكار وتسرى لرؤيتها رعدة خوف
وهزة اعجاب ، فان الصور والأشباح تكاد تنطق وتحل فيها أرواح
أصحابها !

وجلسنت فى الجاليريا وهى أفخم أسواق جنوا وأزخرها
بالبضاعة الحديثة وأثمنها ، وفيها أفخر المفاهى ومشارب المثلوجات
ودكاكين الحلوى والأقمشة النفيسة والتحف والألطف ، ولحمت
تماثيل لكريستوف كولومب واندريا دوربا وجوزيف مازينى
وأذكرتنى المدينة وخليجها الفخم بناپولى والبندقية فى وقت واحد .

وزرت متحف الصور وفيه لوحات عظيمة من صنع الأساتذة
الأقدمين ، وكنت لا أحب أن أزور متحفا الا اذا قرأت عن محتوياته
كلأما كثيرا من آراء النقاد وتاريخ المصور ورأى الباحثين فى فنه
والا فاكون كالقروى الذى يزور العاصمة أو البندر ويتنقل فى
بلاهة وغفلة بين الأسواق .

كان معى كتاب متزىنى الذى صبحنى فى يوم ١٩ مارس
وتحمل معى المطر والبرد وهطول الأمواه كأفواه القرب فى ذلك
اليوم الذى لا ينسى وقد تلطخت جلده من أثر ذلك اليوم ولم
أحاول ازلتها لتبقى ذكرى لما عانيت . . . ها أنا ذا فى مسقط رأس
متزىنى نفسه وقد جذبتنى روحه الى وطنه ورأيت تمثاله ، ان مثل
هذه المصادفات فى الحياة لها أثر بالغ فى نفس الانسان ويظن

الناس أنها مصادفات ولكننى أعتقد أنها خطة مرسومة وثابتة ولا بد من حدوثها وتنفيذها حتى خطواتنا محدودة ومحسوبة :

مشيئناها خطى كتبت علينا
ومن كتبت عليه خطى مشيئناها



- ٢ -

فلورنسا

عزمت على الارتحال من جنوا ، وحزمت أمتعتى وقصديت الى المحطة فوجدت قطارا فخما يقف بضغ دقائق فتبوأ مقعدي وقطعنا مسافة بعيدة لم يمر بنا رقيب ولا مفتش ، وبعد ساعة وصلت الى محطة جنوا ووقف التفتار فترجلت وذهبت لأخذ التذاكر ، وبعد نصف ساعة تقدمت الى افرين القطار فوجدت مركبة عليها كلمتان « جنوفا - فيرنزة » وأخذت مكانى فى مركبة الدرجة الثانية وسألت أحد الموظفين عن موعد وصول القطار الى فلورنس فأجاب الساعة الرابعة عشرة يقصد الثانية بعد نصف الليل .

والعجيب فى هذه البلاد أن « الكوميسارى » يكاد لا يرى وجهه لأن أحدا منهم لا يتهم مسافرا بالانقلاب واستغلال الحكومة بالباطل ولا يقبل على كرامته أن يركب قطارا بغير أجر كما هى الحال فى بعض بلاد الشرق .

وأشرف القطار على تورينو ودخلنا أرض توسكانيا السعيدة
ودنت ساعة النزول ، وعند وقوف القطار نزلت واخترت فندقا له
مركبة تنتظر الواصلين فى تلك الساعة المتأخرة من الليل ، وبعد
ربع ساعة وصلت الى الفندق وعزمت على ألا أغادر الفندق الا فى
اليوم التالى بعد أن أكون رسمت خطة منظمة لعيشتى فى المدينة
ولا سيما وأن للغرفة التى اخترتها شرفة مطلة على شارع نهر الأرنو
وشباك يطل على حديقة غناء ، ورأيت من بعيد جسرا هو الذى التقى
عليه دانتى وبياتريس ملهمته التى صعد مع روحها الى السماء
لينظم جنته وجحيمه •

وفى صباح اليوم التالى ٣٠ يوليو سنة ١٩١٠ خرجت من
الفندق واتجهت الى ساحة القصر العتيق « بلانزوفيكو » وكان
الوقت مبكرا والجو مشبعا برائحة وروح الأزهار والربيع والجمال
والتاريخ والجلال والذكريات •

شعرت للمرة الأولى بأننى فى بلد عجيب خالده ساحر ،
ونظرت فى وجوه الرجال والنساء والأطفال ، فاذا طابع خاص من
طوابع الجمال والفتنة والنبيل ، شعبي رافع رأسه يحلم بالماضى
ويستمتع بالحاضر ، وثيق الصلة بالمستقبل وخاصة النساء
والعذارى بنات توسكانيا وكلهن ذوات خفر وحوور وسمرة جذابة
وشعر أسود فاحم وأعين ساحرة وأهداب طويلة وأفهام دقيقة
كثمرة الكرز وقودود فارعة وخصور نحيلة وسيقان جميلة وأقدام
مستوية وأيد ناطقة وأنامل كالعنب وحواس مرهفة ورؤوس كرؤوس
الطير فى لفتاتها وأعناق كأعناق الأطباء ، رأيت هؤلاء رائحات
غاديات كأنهن يتمتعن بكل لحظة من الزمن وبكل نظرة تلقى
عليهن أو يلقينها على الناس والأشياء فى ثياب فضفاضة ثمينة

تزينها محاسنهن ، ذوات أطراف موشاة وذياال تجر وراءهن
ولا يعلق بها تراب لأن شوارع فيرنزة لا تراب فيها وبعضها من
الممرر وهى محفوفة بالحدائق والبساتين والتلال العالية المكسوة
بالخضرة الدائمة .

سبحان الخلاق العظيم ! هؤلاء النساء والفتيات هن حفيدات
ربات الجمال والحجال اللواتى أخلدهن المثلون والمصورون فى
ألواح تزداد حسنا كلما تقدمت العهود عليها . وأية خسارة
أصابتنى بما قضينته فى السياحة والأسفار قبل أن أرى تلك
المدينة !

لم تكن الوجوه والأبدان وحدها ولكن المباني المشيدة
ومنعطقات الطرق والجمااد ، الوجوه توحى وتلهم والجمااد ينطق !

وللمضوء هنا تأثير عجيب ، ولا بد أن يكون فى جو هذا البلد
وفى هوائه وأرضه وسمائه ما لا يوجد فى بلد آخر . . . ان الله
أعد بقاعا من الأرض وشرفها وجمالها وزينها وأحسن خلقها وجعلها
فتنة خير وأبدعها وجعلها كنوزا وجنات لخلقه ، وهذه المدينة
فلورنس فى مقدمتها ولعلها تبعث يوم القيامة على صورتها وحالتها
وهيأتها ! .

ما رومة وما باريس وما لندن وما برلين وفيينا ؟ . . .
فيرنزة وميونخ والقاهرة تلك مدن الجمال والجلال والسحر
الجلال .

وددت أن أعيش فيها وأن أسكنها وأن أعشقها وأعشق
أهلها ولا أموت فيها أبدا لأن من يعيش فيها لا يموت أبدا . ليت

لى حظ كتابة كتاب كامل عن فيرنزة ، تاريخها ومعالمها وجمالها
وأبطالها وفنونها وماضيها وحاضرها ، اذن لكتبته بشغف وسعادة
لا تحسد !

وقد حدث لى أننى رأيت الكنيسة الكبرى التى تسمى
« الدومو » أى القبة ، وأقسم غير حانت أننى استنبت فيها عنصرا
من عناصر الطبيعة مع أنها من صنع الانسان ، بناء ضخيم كالجبل
من المرمر الملون ، وأؤكد أن مهندسيها وواضعى خططها وراسمى
تصميمها وبانيها ومشيديها كانوا من عباد فينوس ومنرفا وكل
أرباب الجمال العتيق العريق . . . وكانوا يستلهمون الجمال
وحده فى وضع الأساس ورفع الجدران ونصب الأعمدة وتنسيق
الزوايا والأركان ، ولا أدرى عدد أساتذة الفن الذين اشتركوا فى
صنعها ، ولكن أعلم أن « جيوتو » الجبار صنع بابها من مصراعين
من خشب الساج وزين كل مصراع زينة على حدة ، الأولى جملة
للجنة والثانية للنار فى صورة بارزة من البرونز والنحاس .

وجلس فى مقهى فى ساحة القصر العتيق ، ومن العجيب
العاجب أن هذا المقهى يشبه بعض مقاهى القاهرة التى تصف
مقاعد فى الطريق وبينها مناضد نحاسية صغيرة وكل شئ
مصنوع يسيطر عليه الفن والجمال .

وكننت اذ ذاك مأخوذا بواجهة القصر العتيق وساعته الكبرى
التي تشبه وجه الزمان وتزرى بألف ساعة لـ « وستمنستر » ،
فنظرت ورائى وإذا بى أرى سقيفة ذات شرفة عالية من مستوى
الطريق بضلع خطوات وقد صفت فيها تماثيل من البرنز فى
مجموعة منسقة على ضخامتها وفخامتها تشبه الدبرارى المنتظمة فى
سلك ، والسلك صار عقدا ، والعقد فى جيد والجيد لحسناء
فاتنة والحسناء الفاتنة هى المدينة فلورنس ، تلك السقيفة اسمها
« لوجيا » وهى أفخر وأعرق ساحة .

أرجو ممن يقرأ هذه الصحف أن يعفو عني ويعذرني إذا لم أعد إلى ذكر المحاسن والمفاخر والمباهج والمشاعر التي هاجتها في نفسي تلك الإقامة السعيدة في هذا البلد ، فأنني أذن لا انتهى ولا أفرغ ولا أشبع ولا أكل ولا أمل ، بل إن القول يتجدد ولا يتكرر ، والعواطف تنهال والمعاني تنثال ، والمجال يتسع والطرق تتشعب والذكريات تنداغ والأعلام تنثر ، ويصبح الحديث مزيجاً من الجمال والنايخ والأدب والسياسة والفن والشعر والدين والحق واليمان والتقوى والعدل والظلم والفساد والباطل والجور والقسوة والفسوق والاحقاد ، ولست أنا بسبب هذه أو بعضها ، فقد وضعت قديماً كتاباً عن نهضة الأحياء ، أحياء العاوم والآداب والفنون ودرست هذه الفترة من الزمن دراسة وافية (١) ، ونقلت كتاب الأمير « ليكيا فليلى » أحد أعلام هذا البلد (٢) ، وأحببت « ليونارد دافنشي » و « ميكل أنجلو » و « بوتشيلي » بعض سادة الفن الإيطالي ، وترجمت « ليجورو لومو سافونا رولا » أحد أتقياء وشهداء هذا البلد ، وقرأت نعيم دانتى وجيجمه في كوهيديتيه الإلهية التي نظمها مستوحياً حبه لبياتريس إحدى فانتات فلورنسا ، وكذلك قصص « بوكاشيو » أكبر قصاصيها وواصفى حياته في جده ولهوه وفي صحته ومرضه وفي شقوته وسعده ، وإنني لأحب فيرنزو وأعيش وفي قلبي ركن لها وفي نفسي حنين يجذبني إليها كأنه حنين لوطن الجمال .

بادرت بشراء « دليل الغريب النازح إلى ما في فيرنزه من المساكن والمطابخ » والتعريب من عندي ، وأخذت أطوف بالبيوت

(١) انظر هذه الدراسة في كتاب لطفي جمعة « مباحث في التاريخ » ، عالم الكتب ، سنة ٢٠٠٠ م .

(٢) ترجم لطفي جمعة كتاب « الأمير » إلى العربية ونشره سنة ١٩١٢ ثم أعادت مؤسسة النوري بدمشق نشره سنة ١٩٩٠ . كما أعادت دار قرطبة بليما سول بقبرص نشره سنة ١٩٩٨ .

حتى اهتديت الى بيت فيه غرفتان وحمام ومطبخ وشرفتان تطلان على الشارع والحديقة وهذه النعمة كلها لقاء خمسين قرنكا فى الشهر ، والفضل فى هذا السر لدليل الغريب النازح !

وحدث فى هذه الليلة أننى جلست أقرأ فى كتابين الأول لهيبوليت تين والثانى لجون رسكن وكلاهما فى وصف آثار فيرنزه وشرح لغونها وتراجم مقتضبة للفنانين والكتاب والمفكرين من كتب السياحة الراقية وليس لهما منيل فى اللغات الأخرى ، لقد ودعت رينان بتوديع جنوا وافتتحت عهدا جديدا ورسمت خطة فوضعت بيانا للمصورين والمثاليين وحصرت المتاحف وما احتوى كل منها من صور وتماثيل ، وعرفت على الخريطة من دليل فلورنسى للسائحين أماكن الكنائس الشهيرة وبيوت أبطال التاريخ لأزورها .

ان حياة الفن تقتضى حياة فنية ، والحياة الفنية هى « البوهيمية » وأنا لست فنانا ولا ناقدا فنيا وانما أنا طالب حقوق فى اجازة ، ولكننى شديد الشغف بالفنون الجميلة ، وحيث حطت رحالى ادعو ربهى زدننى علما .

كانت الرابطة الأولى بينى وبين فيرنزه أنها كنز فنون ومعرض جمال ومدينة نادرة مثل أثينا فى العصور القديمة ، بل هى أثينا القرون الوسطى . نعم لم يظهر فيها فلاسفة كسقراط وأفلاطون وأرسطو ولا شعراء كهوميروس وسوفوكليس وأوريبيد وايشيل ، ولكن ظهر فيها فلاسفة وشعراء وساسة وفنانون ، ألم يكن نيكولا ماكيافلى فيلسوفا فى الاجتماع والسياسة والتاريخ وقد تطورت الأزمان ؟ ودانتى اليجيرى كان شاعرا حكيما ألم بالدنيا والآخرة والجنة والنار ، وسافورنارولا ألم تكن له فلسفة فى الأخلاق والاصلاح لقى فى سبيلها حثفه ؟ وليونارد دافنشى لم يكن مصورا ومثالا فحسب ، بل كان فيلسوفا ومؤلفا ومخترا ومكتشفا وعابدا من عباد الجمال والحق والخير .

لكل زمان أفكاره ومبادئه، وهذا البلد ليس كغيره من البلاد،
انه يحمل طابعا خاصا به وانه لتفوح منه عطور التاريخ ،
وقد مرت به عواصف قواصف وحداثت فيه أحداث كالتى مرت
بأزينا ورأى طغاة وجبابرة كالذين رأتهم أثينا أمثال أسرة مديتشي
وبورجيا ، وتحمل واقعات حروب وذاق آلام الجوع والمرض وذل
الحكم الأجنبي ، وكان جمهورية وطمع فى جيرانه وطمع فيه
القريب والغريب .

هذه المدينة كانت دائما كالمملكة المتوجة الباهرة الجمال لا يفنى
شبابها ، تحمل وتلد وتقذف الى الحياة فتينا فتينا وفتيات منهم النوابع
والعقريون الذين يحملون الشعلة المقدسة .

وقد حملت نفسى تبعة جديدة ، لابد أن أستعين بنسخة
إيطالية فى اتمام ترجمتى لكتاب الأمير ، ومادمت فى بلد ميكافيلي
فلا بد أن أتتبع مواطنه فازور بيته ومغانيه وأقرأ من مؤلفاته
ما أستطيع ، ولابد أن أزور قبره فى كنيسة سانتا ماريا نوفيللا ،
وبيته ما يزال قائما فى رقم ١٧ فى جوتشاردينى ومؤلفاته محفوظة
فى بيته ، كما رأيت آثار سافونارولا وخط يده وتفسيره الانجيل
وبعض ثيابه والصليب الذى صلب عليه ، أما بدنه فقد أحرقوه
وذروا رماده فى نهر الأرنوكما فعلوا فى أشلاء بعض الأولياء عند
المسلمين فى بغداد (الحلاج) قبل ذلك بخمسةائة عام !

وما دمت بصدد هؤلاء العظماء فكيف لا أدرس حركة النهضة
كلها « رينسانس » فى القرون الثالث والرابع والخامس والسادس
عشر ، يقظة أوروبا بعد القرون الوسطى المظلمة . ألم أكن متهوسا
فى حب المعرفة ومجنونا بالوقوف على كل شئ اجمالا وتفصيلا ؟
نعم . انها كلها أشياء خليقة بالدرس والبحث وانها جديرة بأن

توقف عليها الأعمال والأموال ، ولكن أين الأعمار بل العمر الواحد الذى أستطيع وقفه على هذه الأمور كلها ؟ وأين الأموال التى يحتاج لها بعض فروع أصل واحد من هذه الأصول ؟ وهل يمكن لرجل واحد أن يحب كل هذه الأشياء ويتقنها ؟

اننى أكره التخصص وأمقت الرجل الذى يصغونه بأنه متخصص فى قراءة الوثائق الخاصة بعلاقة فرانسوا الأول بليونارد دافنشى أو بصلة ليونارد بكونت سفورتزا وبتاريخ صورة جيوكندا وبتحقيق شخصية السيدة التى جلست للمصور حتى أتم رسم وجهها وعينيها وفمها وصدرها ويديها ، ولكننى إذا شغفت حبا بموضوع أجد نفسى كأحد هؤلاء المتهوسين بالتحقيق والتدقيق ، وفيهما تذهب الأعمار !

لقد قرأت قبل زيارة فلورنس كتاب « الزنبقة الحمراء » لأناتول فرانس وأعجبت بها ، انها قصة غرام وغيره للكاتب نفسه وقد وصفها وروى واقعاتها فى ذلك الاطار العجيب ، اطار فيرنزه ٠٠٠ لا بلد فى العالم يصلح للحب مثل بعض مدن ايطاليا كالبنديقة وروما وفيرونا وبادوا ، ولذا اتخذ شكسبير بعض هذه المدن مسرحا لقصصه الغرامية العنيفة ، « أوتلو » و « روميو وجوليت » ، وحتى شيلوك فى « تاجر البنديقية » اتخذ لها اطار ايطاليا ، فلم يكن أناتول فرانس مخطئا بل ترسم خطوات سابقيه ولا سيما الناجحين منهم فوفى توفيقا عظيما فى اختيار الزمان والمكان ، ولعله لم يحسن اختيار المعشوقة فقد اکتوى بنار حبها .

فلورنسا مدينة الفن والتخيل والجمال

فلورنسا بين بلدان أوروبا - أثر فلورنسا في
النفس والعقل والعاطفة - جولة في متاحف
فلورنسا - زيارة بيت مايكافيلي ودير سافونارولا

أظن أنني كنت أعالي في تقدير آرائي قبل أن أسافر إلى
الأقطار البعيدة عن وطني ، ولو أنني خلدت إلى أرض مصر التي
نشأت فيها لعشت ومنت على وتيرة واحدة ، ولكن نعمة الله على
بالأسفار إلى سوريا ولبنان وتركيا واليونان وأنا في السابعة عشرة
من عمري ، ثم مواصلة الرحلة بعد ذلك بأعوام إلى أوروبا وانجلترا
والإقامة في فرنسا ، غيرت حياتي وبدلت نظرتي إلى الوجود والوجود
والى شخصي ، وجعلت الأفكار التي ظننتها ثابتة الأساس راسخة
الأركان تتهاوى وتتداعى كالحجارة في جدار يريد أن ينقض ، وإذا
بكثير من الحقائق التي غرست في نفسي أوهام وأخيلة ، وأن بيني
وبين حقيقة واحدة - لا جملة حقائق - أبعاد شاسعة ومسافات
بعيدة .

ثم ان أسفاري في ثلاث ممالك في العهد الأخير وفي أكثر
عهود الدنيا رخاء ، من شأنها أن تتيح للإنسان من سعة العقل
ورحابة الصدر ما يجعله قابلاً لكل صورة من صور الفكر البشري ،
وكأن الحوادث نفسها التي تتولد عن التنقل تطلعك على اختلاف
أطوار الجنس الإنساني اختلافاً لا يكاد ينتهي ، وكل خلق من
الأخلاق المختلفة قد اكتسب حق البقاء لصاحبه مستقلاً عن سواه .

ومنذ حلت مدينة فلورنس مهد الاحياء - لمحت فى فرح
ورغبة بعض الاشياء الازلية أو القوانين العامة ، وأظن المرجح
لهذا الكشف يعود الفضل فيه الى روح البلد .

رأيت تحت هذا الاختلاف بين أهل سويسرا وفرنسا وإيطاليا
- وكنت من قبل أعرف بريطانيا وإيرلندا وألمانيا والنمسا - رأيت
وحدة جامعة ، ومظهر هذه الوحدة احساس عميق بتقدير قيم
الاشياء وهذه القيم تكاد تكون متشابهة فى أصولها عند جميع
الأمم فى كل عصر وهى الحق والخير والجمال . وفى فيرنزه هذه
بالذات ، رأيت العناصر الثلاثة مجتمعة ، وفى سويسرا رأيت الحق
يعلو أحيانا على الرغم من قوة الظلم والباطل ، وفى فرنسا رأيت
كثيرا من الخير .

ان فيرنزه نفسها لا تحتوى الفنون الرفيعة وضروب الجمال
والشعر فحسب ، بل هى نفسها آية متجسدة ومعجزة مجسدة
وكتلة من نور الطبيعة والعقل الانسانى والالهام الربانى تشع
بأروع المعانى الخالدة . ان يد الطبيعة الصناع هى وحدها ذات
الفضل الأول فى هذه المدينة ، فقد وضعتها فى واد جميل وجعلت
حولها تلالا سندسية ذات مناظر فتانة ، وشقت ذلك النهر
لونجارنو، ثم توجتها بمرتفعات فيزوليه التى تبسط للنظر ما خفى
من الجمال السالك الوادى وتفسح أمامه الأفاق فتبدو آيات الله
فى محاسنها .

وان الطبيعة هى التى كونت الأرض الخصيبية والأجسام
السليمة والقذود المشوقة والأعين الساحرة ، وهى التى كونت
العقول والأخلاق والمواهب ، ووضعت فى الأعين من قوة النظر
ودقة الفهم والتقدير، وفى الأيدى من القدرة على الحركة والاتزان ،

وفى الذوق من خلال التمييز بين الألوان فى الطبيعة وبين الاستطاعة على تمثيلها بالمزج والخالط بينها حتى تحاكي صنع الطبيعة أو تدنو منه ، وأودعت القلب كتوزا من الجمال وأوحت الى صاحبها أن يفسرها ويعبر عنها ويبرزها ويظهرها بالألوان تارة وبالنحت والحفر فى الأحجار والمعادن تارة أخرى ، كما أودعت فى اللسان الانسانى وما وراءه من ذاكرة وبلاغة وحسن انتقاء وعاطفة جياشة تمكنه من التعبير بالشعر والنثر ، فان التعبير بالموسيقى والشعر والقصة والتصوير والنحت هو وظيفة هذه المدينة ، فمقامها بين المدن - بحسب فهمى فى تلك الفترة - كمقام العباقرة والمصلحين بين الأمم ، ودليل على ذلك كثرة ما حشد فى تلك المساحة الضيقة من العباقرة والنوابغ وأرباب الفنون وأصحاب العقول وربات الجمال وذوات المحاسن الفاتنة ، ونطقوا جميعا فى فترة واحدة من الزمن أو فى فترات متقاربة .

كانت هذه الخواطر تملأ نفسى وفكرى طول اقامتى فى المدينة وفى كل خطوة وعند كل نظرة .

لست بصدد ذكر حوادث الحياة اليومية ولا خطط المدينة ولا يسرد معالمها وأعلامها أو الامعان فى ذكر تاريخها ، فهذا كله قديم ومدون ، وكذلك لست بسبب تعداد الآثار الفنية فى متاحفها وقصورها فكتب المؤرخين وأهل الفن كفيلا بذلك ، ولكن الذى أكتنرت له هو أن أصور أثر العالم الجميل فى نفسى وفى عقلى وفى عواطفى ومشاعرى ، واننى كلما كتبت أو شرحت أو حاولت التفسير والوصف ، أشعر بعجز اللغة عن التعبير وقصور الشعر والنثر عن التمثيل أو تقديم صورة تقرب مما يختلج فى النفس .

ان فيرنزه مثل المولدة الماهرة الحاذقة ، تعين كل ذات حمل على وضع حملها ، تولد بنات الأفكار ولا يدخلها قط انسان عنده

مثققال ذرة من موهبة ثم يبطىء فى التوليد ما لم يكن عقيما كالصخرة الصلدة أو الأرض الجرداء ! ، ولم أفر بشئ من هذه المواليد لفقر طبيعتى وجمود قريحتى ولم يزد حظى عن تفتح ذهنى وشعورى بنور جديد لم أكن من قبل أرى منه شعاعا ، وأخذت معنى جديدا للحياة ولونا جديدا للأشياء والعواطف وهذا ظفر كبير وخير كثير .

لو كنت من أرباب المواهب - ولو كامنة - لخرجت من فيرنزه شاعرا أو ناثرا أو مصورا أو مثالا أو على الأقل ناقدا ، ولكننى - وآسفاه - خرجت صفر اليدين ، باكيا على أن الأقدار لم تهبنى موهبة أو لم تتح لى فرصة كافية للحضانة والتوليد .

لما سافرت الى أوربا فى سنة ١٩٠٦ أقبلت على المتاحف اقبال الجائع المحروم ولم أترك متحفا لم أزره فى نابلى وروما وفينيسيا وبولونيا وبادوا وفيرونا وجنوى ، فانه لا تخلو بلدة ايطالية أو قرية من متحف مهما صغر ، لأن فى كل قرية أو بلد كنيسة ، وفى كل كنيسة تصاوير قديمة وحديثة وتمائيل ، وقد شهدت ألوف اللوحات فى ايطاليا وفرنسا وهولندا وبلجيكا وسويسرا وميونخ وفيينا والوفر ولكسمبورج ، خصوصا وكان يعيننى دليل « بديكر » وهو دليل أدبى فنى يلفت أنظار الجهلاء أمثالى الى شأن اللوحات والتماثيل المهمة . وأذكر أننى رأيت عشرات الآثار الجميلة ، منها تمثال لاوكون ودرس التشريح لرمبرانت وتمثال فينوس العارية المكسورة الذراع وتمثال موسى فى الفاتيكان من صنع ميكال انجلو ، واهتممت بتصاوير روفائيل ، وانقبضت من الفن الانجليزى بقدر ما انشرح صدرى للفن الأسباني لازدهار ألوانه وبراعة مصوريه .

وبعد أن عدت الى مصر جعلت همى أن أدعو الى تأسيس مدرسة للفنون الجميلة رأيتها فى باريس بشوارع بونا بورت ، وكانت الدعوة الى مثل هذا العمل فى سنة ١٩٠٦ تعد من هراء القول وصاحبه من السخافة بمكان ، ولكن الله أدركنى بدليل خاسم وهو أن المرحوم مصطفى كامل - وكان على قيد الحياة - تقدم الى مجلس نواب فرنسا بعريضة باسم مصر تستنجد فرنسا ضد بريطانيا ورفح الى المجلس فى نفس الوقت لوحة مصورة بالزيت تمثل مصر مقيدة بالأغلال الانجليزية وقد وقف لفيف من أهل مصر منهم مصطفى كامل والشيخ على يوسف وغيرهما يرفعون العريضة الى فرنسا وتمثلها الصورة فتاة جميلة كريمة ، فأتخذت من هذه اللوحة التى تقدمت سنة ١٨٩٣ على ما أتذكر حجة لضرورة تعليم التصوير وصنع التماثيل لأنها على الأقل تنفع مسألتنا السياسية . ولكن الحكومة المصرية فى سنة ١٩٠٦ كانت واقعة تحت أقدام الانجليز وعلى رأس الوكالة البريطانية عتلى زعيم معتد بعد ذلك أنثيم ، فكان يسخر من كل نهضة أو حركة فكرية وكان يحب أن تبقى مصر فى جهالة عمياء لترنسف فى أغلال الذل والاستعباد الى الأبد ، فكيف يسمح - وهو القابض على زمام المال والمعارف - بتأسيس مدرسة للفنون الجميلة أو تشجيع النحت والتصوير ؟



ما هذه الثروة يا رباه وما هذه النعم ؟ ما هذا الغنى ؟ سبحانك ما أعظم كرمك وعطاءك لمن تحب وتختار ، ما مال قارون وما كنوز الذهب والفضة ومن هم الأوغاد وأرباب الملايين وملوك الحديد والبرنز والجاز والكهرباء والزيت والسموم حيال هذه الكنوز من العقول والمواهب والجمال ؟ ان الذهب والطين والأوحال

والرجال والمصارف والبنوك كلها فانية وهالكة، ولكن ذرة من هذه
المواهب تزيد في الوزن عنها لأنها خالدة أزلية ، لأنها معان ومن
فيض الله ومتصلة بالله وباقية لأنها أشعة من نوره .

ان أضعف مصور أو شاعر أو فنان وأفقره وأحقره ولو كان
لاصقا بالتراب، يعد انسانا وقدره أعظم ألوف المرات من أقدار الأغنياء
جميعهم ، لأن فنه وموهبته ونبوغه جزء منه وهو من صنع الله ،
أما أرباب الأموال وحتى الملوك ، فكل ما يملكونه ويتحكمون فيه
منفصل عنهم لا يخرجون من الدنيا بشيء منه وقد يورثونه أبناءهم
وأحفادهم ولكن حكم هؤلاء حكم أسلافهم ومورثيهم ، ولهذا يتفاني
الذين يسمونهم عظماء ويتهاكون في اقتناء آثار الجمال ، ويبذلون
أموالهم في سبيل اقتنائها ويتشرفون بالحصول عليها ولو أنفقوا
في سبيل ذلك مئات الألوف ، وقد يكون الشاعر أو المصور
أو الموسيقي أو المثال مات جائعا عاريا مرتجفا من البرد وتباع
آثاره بالألوف بل بالملايين لأنه خالد وكل الآخرين زائلون .

وهذه المدينة نفسها فيرنزه كانت دليلا على هذا ، فهؤلاء
الكوزمات والمديتشات واللورنات وبيتى وسفورزا وستروز مثلوا
أدوار حماة الفنون والآداب مثل خلفاء المسلمين الذين اشتهروا
بحماية الشعراء والخطباء والكتاب ، فخلد الخلفاء في أبيات من
الشعر ولو لم تكن تلك القصائد ما عرف أحد أسماءهم ولا اُكثرت
بهم .

لك الله يا فيرنزه ولكل من تنفس في جوك وعاش على أرضك
واظلت سماؤك في كل الأجيال !

اننى لا أستطيع ولا في بضعة مجلدات أن أحصى ما رأيت
أو أسرد ما أعجبنى وأدهشنى ، لا لوفرة التحف وتعدد اللطاف ،

بل لوفرة المزايا الفنية والمجاسن النوعية والمعاني التي لا تحصر لتلك الآثار من تماثيل ولوحات ٠٠٠ انظر الى تماثيل السقيفة (لوجيا) وفيها ميدوزا أفرغها تشيليني في البرنز ، وانتقل منها الى تمثال النبي داوود في شبابه في ساحة بيانزا لميكل أنجلو والى تمثال ليديا وفرخ الأوز في وضع غرامي خيالي وهي من صنع ميكل أنجلو أيضا ، وتخيل اليد التي أنتجت تمثال موسى وداوود هي التي أنتجت تمثال ليديا ذات الجفون الناعمة نقبل منقار طير وترقد له رقدة عجيبة لتطفئ شهوتها وقد نشر الفرخ عليها جناحيه ، بينما يصعد المصنور الى عنان السماء في موسى وداوود تراه يهبط ليروى بلغة الحجر حب انسية لطير جامح ، ولكن لا فرق في الجمال والمعنى والموهبة بين تمثال موسى البالغ أربعين مترا مكعبا من المرمر والفن والجمال وبين تمثال حجري صغير لا يتجاوز حجم اليد والمعصم من حجر الطلس الأحمر في زاوية متواضعة من زوايا متحف الفن الحديث *

ومن أميز اللوحات تصاوير من انتاج ليوناردو ومنها جيوكندا وجان باتيست وفرانسوا الأول ودوقة سفورزا ، ومن أعجبها في التقديم العشاء الأخير • ومن اللوحات ما أبدعته يد ساندرو (بوتشيلي) وهو يستعمل الألوان كما في لوحة «جوديت» وفي فنه ميل ظاهر نائر للتجديد بالنسبة لعصره القرن الخامس عشر ، ولكن انتاج بعض معاصريه من أبناء فيرنزه لا يضارع انتاجه في صورة الربيع « بريما فيرا » وميلاد فينوس وصورته الرمزية « عقوبة التهمة » •

ولطالما بهرتني معجزة الألوان ومزجها وأظنها للفنان بمثابة دقة المثال ، لأن اللون يعطي الحياة ، فإن اللون الأخضر في صورة البريما فيرا لا يقل شأنا عن لون اللؤلؤ والدر والأصداق التي

تمتلك الألباب في ميلاد فينوس ، وكذلك الأحمر الأرجواني في
تساوير دوفائيل والخمار المخطط في ثياب العذراء من صنعه .

قد تتضاءل خصائص القيم في أخص خصائص الفن كما
نرى في الريالزم والسيرباليزم وتشويه الخلقة البشرية والاكتفاء
بشكل ثلاثي للتدليل على الرأس البشرية مثل صورة البهلوان
وتساوير البحر الجديد وليس فيها من البحر الا ألواح خشبية
يفترض الناظر والناقد - رغم أنه - أنها تمثل بقايا السفن !!

ولنعد الى مهارة مصوري فيرنزه في رسم الوجه البشرى ،
فمن صنع بوتشيلي صورة ثلاثة رجال الفتى والرجل والشيخ
وقد جمع فيها من الفن ما لم يسبقه أحد في التأليف بين السداجة
والدقة وعمق المعنى وبعد الآفاق .

ولكن سيد المصورين في كل ما تناوله ولا سيما الوجه
الانسانى هو ليوناردو دافنشى مصور الجوكندا ولم أرها في
فلورنس لأنها من كنوز اللوفر وقد سرقت سنة ١٩١٢ وكادت
الدنيا تبح لفقدها ، انها صورة امرأة ساحرة بابتسامتها ونظرتها
وليس فيها غيرهما ، ولم يصور أحد ابتسامة أو نظرة كما رسمها
ليوناردو ، انها ممجزة الأسرار والغموض والخفاء ، فقد فتنت بهذه
الصورة أمدا طويلا وما أزال أتحرك لها كلما رايتها أو تذكرتها ،
وسرها لا يعلمه أحد الا مصورها ، ويمكننى أن أفسر النظرة
والابتسامة ولكن أفضل أن أحتفظ بسرى لنفسى فان فيه فتنة
لغير صاحبه .

وبين الأسماء العظيمة لأرباب الفنون الذين رأيت لوحاتهم
دوناتيلو وبيليني وجير لانداجو وفرا بارتوليو ورفائيل وسيليو
ليو وفيروكيو وجيوتو وبنفنتو تشييليني وعشرات غيرهم ، وقد
تأثرت بأعمالهم ولا سيما عوذة جوديت وهى فى متحف اوفيتشى
بفيرنزه وهى من صنع بوتشيلي ، كذلك العذراء (المادونا) له
أيضا .



كانت حياتى فى فيرنزه مرتبة وخططى معدة ممهدة ، فى
الصباح أقصد الى معهد من معاهد العلم او متحف من المتاحف
لزيارة أثر من الآثار المشهورة له علاقة بدراستى فى الأدب
أو التاريخ أو الفنون .

ومن هذه الآثار التى زرتها بشغف عظيم بيت ماكيافلى وهو
ما يزال قائما فى شارع جويتشاردينى كما كان فى أثناء حياة
صاحبه ، قرأت أثناء تلك الفترة كتابا عظيما هو تاريخ الجمهوريات
الاطالية تأليف سيسموندى ، وشهدت تمثال ماكيافلى فى متحف
أوفيتشى ، وزرت قبره فى كنيسة سانتا ماريا نوفلا وقد لحقه
البلى والتهدم ، ولكن اسمه مكتوب عليه بوضوح ، وكذلك تاريخ
وفاته ، وجمعت ما استطعت من الكتب عن ماكيافلى من المكتبة
العامة ، واشتريت من الكتب مما له علاقة بتاريخ الرجل وعصره
حتى وجدت الجو التاريخى وشملت عقبه كأننى أعيش فى زمنه ،
وترى هذه الفكرة مجسمة فيما كتبتة فى مقدمة كتاب الأمير .

وفى يوم تال زرت الدومينيك وهو الدير الذى نشأ فيه
جيورولومو سافونارولا وله تاريخ حافل وقد أصبح الدير كله

متحفا لهذا الرجل الذى ضحى به وحوكم وصلب وأحرق ، لا كتبه وحدها بل جسمه وذرى رفاته فى النهر ، وكل ذنبه أنه عندما استشرى الشر والفساد فى المدينة ، أراد أن يدعوها الى الخير والاستقامة وحاول أن يحكمها حكما دينيا فيه حزم وشدة ، ولولا مخالفته كنيسة روما وحملته عليها ما تعرضوا له ، ولم يكن سافونارولا ممن يحرقون فن استغلال الأمم : بل كان ثائرا على كل المظالم ولم يكن لبقا ولا مداورا ، فلقى حتفه جزاء اخلاصه واستقامته .

وفى الدير آثاره وصومعته وفراشه وكتبه ومخطوطاته وتماثيله ومحابره وأقلامه ، لقد كان شخصية جذابة وان يكن على نصيب وافر من الدمامة ، وقد كان لهذا الرجل أثر فى نفسى وتبينت منه رسالة وديانة سلبها الانجليز فيما سلبوا من مخطوطاتى وأوراقى عند تفتيش منزلى فى مصر سنة ١٩١٦ وهو ما كان أدباء العرب يسمونه « كبسة » ، وهذا عمل الشرطة فى عهود الظلم .

فيرنزه مدينة نابغة عاشقة ، ونابلى مدينة مستهترة فاسقة ، وروما مدينة خالدة منافقة ، وقد عشت فى المدن الثلاث ، ورأيت أكثر من عشرين ألف أثر فنى بين تماثيل منحوتة ولوحات منقوشة ، ولم أر فى فيرنزه شيئا من مناظر الفجش والدعارة التى يحمر لها وجه الشيخ الأشيب والعجوز الشيخطاء فضلا عن الفتى الأمريد والمأراء ، لأنها مدينة حماها الله من السيب فى أدبها وفنونها . فلا تقع العين منها على ما يؤذى النظر أو يخدش الذهن النظيف .

هنا ثروة لا تحصى من الألوان وهنا مهارة وحذق على مدى الأجيال ، هنا أفكار وعواطف ومحاولات من الروح للتعبير عن انفعالها فى كل أحوال النفس ، هنا تنطق الأيدي بدلا من الألسنة

وتسمع الأعين بدلا من الآذان ، ولكن نشعر بأن كل الحواس
تتشارك في هذه المتعة ، العين والأذن والعقل والقلب ، حتى ان
اللمس نفسه يحاول أن يشارك بقية الأعضاء في الشعور .

ليست هذه المذكرات قصة ولا سردا للمتخف ، انها تسجيل
للأحاسيس والمشاعر والعواطف في فترة قصيرة ، ولكنها من أكثر
الفترات سعادة بل لعلها أسعدنا في تلك الأيام وكل ما سبقها
ومعظم ما لحقها .

المؤتمر الوطنى المصرى فى بروكسل سنة ١٩١٠

— ١ —

السفر الى باريس — عزيزة دى وشبرون —
التجسس على المؤتمر — اشتراك الهنود فى
المؤتمر — كريشنا فارما — مدام كاما

بينما كنت عند مكتب البريد بميدان القصر العتيق أسأل
عن المكاتب التى ترد الى وتحفظ به ، قدم الى أمين البريد رسالة
برقية صادرة من باريس ، ففضضت غلافها فاذا فيها طلب سفرى
فورا الى باريس لمباشرة تنظيم المؤتمر الثانى الذى تجدد انعقاده فى
١٤ ، ١٥ ، ١٦ سبتمبر سنة ١٩١٠ بعاصمة فرنسا ويستحلفنى.
كاتبها وهو المرحوم الدكتور المخلص منصور رفعت بكل عزيز
ومقدس لدى ألا أتخلف وأن أبادر بالسفر وأن أتذكر وطنى
وحاجته الى خدمتى ، ولم أكن بحاجة الى ذلك لأنى أتلف على قيامى
بالواجب ولا يقف بى ولا يعوقنى الا ضيق ذات اليد . وأرسلت
اليه برقية أطمئنه فيها بمبادرتى الى اجابة طلبه وليبلغ تحياتى
الى محمد فريد بك الذى ذكر أنه فى انتظارى .

وقد شعرت بهزة اذ كنت فى أقصى درجات السعادة العقلية
وكنت هادى البال مشغولا بالدراسة الفنية واتمام تعريب كتاب
« الأمير » لميكافلى ، ثم حملت هموم الرحلة الطويلة الشاقة .

وأخيرا حان الحين وأخذت أعد الحقائق وحددت يوم السفر وشددت رحالي وركبت القطار في المساء في طريقى الى ميلانو وبقيت في القطار ساعات طويلة حتى بلغت لوزان وأخذت أضجع مشروعا لنزولى باريس ومقابله اخواني وعزمت على ان انصرع لعملى .

بلغت باريس في اليوم الثانى ونزلت بشوارع فوجيرار رقم ٣٢ فى غرفة علوية عند كهلة مترملة لقاء الثلاثين فرنكا مشاهرة ، وبعد وصولى واستقرارى لبست ثيابا حسنة وقصدت الى العنوان المكتوب لى وهو « فاميلى هاوس » على قيد خطوات من بلاس ايتوال (ميدان الكوكب بالشانزاليزيه) ، وهو خان اقرب الى الفندق منه الى المشوى العائلى (ينسيون دى فامى) ، وصعدت الدرج وكان أول من لقيت وجه امرأة دميمة صفراء هزيلة اسمها « الأنسة دى رشبيرون » (١) هى نفسها التى كانت تكاتبنى منذ سنة تطلب منى مقالة فى مجلة تزمع اصداؤها نجدة للمسألة المصرية وقد بعثت اليها فعلا بمقولة عن الثورة العربية وعن جهاد مصطفى كامل .

(١) الأنسة عزيزة دى رشبيرون هى مدام فيبار المعروفة لدى المصريين ولدى الكثيرين ممن يعتقدون أنها تزوجت من محمد فريد ، وكانت تعيش فى الخمسينيات بعنوان ٤ شارع كلواتر نوتردام خلف كنيسة نوتردام بباريس ، وعقب قيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، زارت مصر سنة ١٩٥٤ فأكرم رجال الثورة وفادتها وظلت مقيمة بمصر حوالى ستة اشهر .

وقد اخبرنى الاخ زكريا لطفى جمعة انه زارها فى بيتها بباريس اكثر من مرة وشاهد عندها بعض اثار الزعيم محمد فريد وعصاه ومظاهرة « المونكل » ، ل.٢. شاهد تمثالا له من المرمر واطلع لديها على بعض مذكراته ، وكان يقوم على خدمتها ورعايتها حينذاك رجل من الروس البهض ظل فى خدمتها اكثر من خمسين عاما الى ان مات وقد نأتهى الامر بدمام فيبان فى اواخر ايامها الى تركها منزلها والدخول فى احد ملاجىء العجزة .

كانت تلك المرأة تعمل كاتمة أسرار لجنة المؤتمر الوطنى
الثانى فى باريس ، عينها فى هذه الوظيفة محمد فريد بك رئيس
الحزب الوطنى بعد أن سمعت للتعرف اليه منذ أشهر .

قابلت هذه المرأة وحدها تدق على الآلة الطابعة فى الغسق ،
وكنت أظن سأقابل فريد بك والدكتور منصور رفعت والدكتور
عثمان غالب باشا قعيد الوطنية المصرية فى باريس وحامد العلايلى،
فانقبض صدرى عندما رأيت وجه تلك البنت الديمة ، فلما عرفتها
بنفسى تظاهرت بالفرح بهذا اللقاء المفاجئ وأخذت تثرثر بلسان
درب فسيح وعبارة بليغة ضاعت كلها محجوبة بتلك الدمامة التى
لم أشهد مثلها فى أقطار أوربا ولا سيما فى باريس المشهورة
بمحاسن النساء ، فسمعت إليها على مضض فوعيت من أقوالها أنها
تتكلم عن الزعيم الوطنى فريد بك بقولها « فريد » وتصف حامد
العلايلى بأنه « الأسمر الجميل الذى لا يعرف الفرنسية
ولا الانجليزية » وعن غالب « الباشا الدكتور العجوز » وأنهم كلهم
غائبون وأنهم يعيشون فى هذا الخان وتسالنى لماذا لم أحضر متاعى
وأين نزلت وكيف أصنع لأحضر جلسات اللجنة وأنا سكرتيرها
وأنا سكرتيرة مساعدة لى ؟ ثم أخذت تهذى بقولها انها صدمت
بلقائى لأنها كانت تتخيلنى عملاقا ملتجيا بلحية بيضاء وأن أكون
من أبطال التاريخ كما دلت على مكاتيبى ومقولاتى التى قرأتها منذ
عام وأنا وجدتنى على نقىض ذلك فتيا أجرد أمرد قصير القامة وأنها
تعانى خيبة أمل deception ، فلم أجب على هذا التودد وقلت
لها : يا آنسة . . . قالت : الآنسة عزيزة دى رشبرون ، فأنى
فرنسوية نبيلة كما تعلم من تقديم لقبى بنسبة « دى » والكنى
مسلمة ، أسلمت حديثا هدانى الى الايمان فريد .

فلم أجب ولم أدهش وقلت في نفسي « يا لسوء حظ الاسلام » .
وهممت بالقيام فقالت : الى أين ؟ قلت : أطوف وألف لفة في مقهى
حتى يحين وقت مجيئ الباسمات والبنكوب وبقية الزعماء .

وهبطت الدرج وأنا أشد ما أكون حزنا ، وحمدت الله على
أننى اخترت مسكنا بعيدا عن هذا المستقر الذى تحرسه عزيزة ،
وسرت في الطريق فبهرنى جمال باريس ورأيت مقهى بدعيا عليه
اسم « كافيه فوكيه » فأعجبني واخترته مجلسا وأخذت أفكر في
الأيام المقبلة ، فتذكرت أن على خطابا ألقيه في المؤتمر وأن استبقى
عزيزة للنقر على الآلة الطابعة وأن أشرك العلابي في كتابة السر .
فصممت على أن يكون موضوع خطابي في المؤتمر عن « وجوب حياد
مصر حيادا دوليا احتراما لقناة السويس لأنها طريق بحرية
دولية » .

وأردت أن أحدد علاقتي بالزعيم محمد فريد والكواكب التى
تدور فى فلكه أمثال غالب باشا والدكتور منصور رفعت وهو
شقيق اسماعيل البيب بك أحد أصدقاء المرحوم فريد بك المخلصين،
وأحمد لطفى بك المحامى ، فأبقيت هذا الى أن نجتمع بعد ساعة .

ولما انتهيت من التفكير ودونت رؤوس أقلام وعنوانات ،
تمثلت لى فرصة سانحة لوجودى بباريس وهى أن أتردد على المكتبة
الوطنية لأتم بحثى ودراستى عن عهد الاحياء « رينيسانس » فى
ايطاليا لاستكمال فوائده اقامتى فى فيرنزه .

وفى تمام الساعة السابعة قصدت الى « فاميل هاوس »
فوجدت الحفل حاشدا بالسادة والأعيان وقد حضروا لتناول العشاء
لأنهم مقيمون عائشون نائمون يقظون فى الخان على حساب المؤتمر

الوطنى المزمع اجتماعه ، لأنهم وقفوا أيامهم ولياليهم على خدمة الوطن ، فوجبت على الوطن نفقاتهم وهى الأموال التى جمعت بالاكنتاب ولا أعلم من كان أمين الصندوق !!

وفى تلك الليلة الأولى رأيت فريد بك وعشرات من البكوات الذين هاجروا من مصر جماعات وأفرادا ليساهموا فى خدمة الوطن وبينهم الدكتور محبوب ثابت ، وجاء الأستاذ حسين هيكى مستخفيا لأنه كان طالب بعثة يخشى أن عرف أمره أن يقتص منه بالحرمان لأن شوكة الانجليز قوية ، ورأيت أحد أبناء ادريس راغب بك وهو أكبر أنجاله سنا وكان لا يحسن التكلم بالعربية ، فقال على المائدة وهو يهمس فى أذنى : لماذا لا تعملون مثل التركى الصغير ؟ فاستعدت السؤال لأفهمه ، وبعد عناء فى الاستفسار والاستقراء والتخمين والتنجيم وتقليب الألفاظ والمعانى ، ضحكت ضحكا شديدا على غير عادتى لأننى اكتشفت أن ابن البيك المصرى العظيم يريد أن يقول لماذا لا تعملون كما عمل حزب تركيا الفتاة !!

فانطلق يخاطبنى بالانجليزية فصحى لأنه كان فى جامعة اكسفورد وهو يعبر بها أبلغ تعبير ولا يعرف العربية ولا الفرنسية ، وهو الآخر جاء مستطلعا مشتركا بقلبه وبعض ماله كغيره ، ولكننى أحبته لجهله وسلامة قلبه لأنه كان بمعزل عن كل شئ يهم وطنه ، ولا عجب فان هؤلاء الناس ترك فى دمائهم خضعوا لعبد الحميد طول القرن ، فلما ظهر حزب تركيا الفتاة أرادوا تقليده ، فأفهمته بالانجليزية التى يجيدها أننا لا نستطيع تقليد « حزب تركيا الفتاة » لأنه ليس عندنا جيش ولا سلاح ولا أنور ولا نيازى ولا طلعت حتى تقوم بالثورة *

ومحمد بك راغب هذا عنوان على عدد كبير جدا من أهل مصر الذين يعيشون فيها وينتمون الى الدولتين الحاكميتين قديما

وحديثا (تركيا وانجلترا) ، ولم أجد وطنيا صادقا الا الفلاح المصرى المتعلم الخالى من مطامع الوظائف ، وكان المال دائما عتبه فى سبيل الوطنية فى الأمم الضعيفة المستسلمة ، لأن الحكام يهددون الأغنياء فى ثروتهم ، كما كان الفقر عقبة أخرى لأن الفئير النابغ عاجز عن التعليم ومحتاج الى القوت . وفى الحق لا ذنب للفقر أو الغنى وإنما الذنب للصغار والضععة ودناءة النفوس ، ولكن على كل حال كان الناشئون فى الطبقة الوسطى أميل الى التقدم والعواطف السامية أمثال مصطفى كامل .

وفى هذه الجلسة العثمانية عرض على فريد بك وألح أن أنزل معهم بالخان لأنه أقرب الى وأجدى لأننى أكون ضيفا على الجماعة (أى أموال المؤتمر) ، فاعتذرت بأننى ألفت النزول بأحياء الطلبة مادمت طالبا وأننى أستمتع بخلة عذبة وأننى طول اليوم أكون فى صحبتهم أعمل معهم وأننى لا أستطيع الطعام معهم لأننى أتبع تديرا طبيا وحماية غذائية ، فقبل عذرى وأعفانى من ذلك الاختلاط المشوش . ذلك لأننى علمت أنهم ينفقون من الأموال التى جمعت فى مصر على ذمة العمل السياسى ، وقد درجت ودأبت طول حياتى على الاعتماد على الله ثم على ما أملك فى الانفاق على كل عمل عام أستطيعه ، ولم أعرف ولم أقبل معونة مادية من أحد لأن من يفعل هذا يكون أجيرا غير مأجور . ودهشمت اذ علمت أن البكوات والسادة والأعيان ينفقون من الأموال المجموعة على معيشتهم وفيهم أغنياء أمثال عمار بك وفؤاد حسيب بك والدكتور بدران حتى حامد السلايلى ، ويرون هذا جائزا وحلالا لأنهم يقومون بعمل وطنى ، ولعل بعضهم اكتسب بمال فاشتركوا جميعا فى الاعتراف منه ، فاعتذرت لهم بأننى لم أكتسب بغير عمل ذهنى ومجهودى الفعل فلا حق لى فى أن أعيش على نفقة أحد ، خصوصا وأننى لست ممن يميلون الى الترف والاناقة فى الماكل والمشرب .

وسألتني صاحبي العليل كيف وصلت ؟ قلت له في الدرجة
الثانية ، وسألتني على المدينة الايطالية التي كنت بها ، فلما كنت
له « ديرنزه » ضمتك وقال ماذا كان عنوانك يا لطفي ، قلت نمر ،
٦ شمسارح ليونارد دافنشي ، فأغرق في الغمشك لأنه لم يسمح
باسم المدينة ولا باسم الفنان الكبير ، ودعاني الى غرفته وألح من
جديد على ضيافته وأنها توفر على كثيرا وكيف أستطيع لنفسي البعد
عنه بـ « بطة الحمى » (يقصد الحمية !) والـ « بدير » (يقصد التدبير !)
فضحكت كثيرا ثم افترقنا وعدت الى ركني السعيد في شارع
فوجيرار على أن أعود في الصباح الباكر لنبدأ العمل .

وفي اليوم التالي قابلت فؤاد حسيب وكان كاتباً بالفرنسية
طارنا على الوطنية وقد تخرج في دير مسيحي ثم ألقى ثياب الرهبان
وانضم الى المصريين يكتب في الصحف الفرنسية ، ورأيت عمدا
ومشايع بالعمائم والقفاطين ولقيت المرحوم شفيق منصور وكان
حديث الانضمام الى الحزب الوطني وحديث العهد بالنجاة من قضية
الوزداني وتهمة الاشتراك في اغتيال المرحوم بطرس غالي باشا ،
وكان معهم خالد الفوال بك وهو من أعيان دمياط وموظف بديوان
الأوقاف ، فعجبت لحاله ومجيئه ، فقال لي خبير به انه جاء
ليتمجس على المؤتمر وقد دفع مائة جنيه قيمة استراكه وهي طبعاً
من المصاريف السرية وكان يتظاهر بالسكر ليأمن المؤتمر جانبه ،
والكن أمره لم يكن خافياً على أحد لأنه لا يعقل أن يجمع بين وظيفة
الحكومة وخدمة الخديو وبين الوطنية الشائرة على الاحتلال
وعلى الخديو .

وعلمت أن الحكومة المصرية أرسلت لفيما من المصريين
الموظفين والعاطلين وجعلتهم جواسيس على لجنة المؤتمر ومنهم خالد
الفوال المذكور وعبد اللطيف سعودي بك وكان موظفاً في محافظة

مصر وآخرون ، وقد تظاهروا بأنهم وطنيون لأول مرة فى حياتهم ،
كذلك أرسل الانجليز جواسيس من الرجال والنساء وكثرة أخرى
من المشبوهين المتدسسين رسل فيليبس وهارفى باشا ووزارة
الداخلية •

فلما خاطب بعض المخلصين فريده بك فى أمرهم ضحك
وقال : يا اخوانى لا تظهروا علمكم بأمرهم ، فأولا نحن نستفيد
من أموالهم التى يدفعونها بمثابة اشتراك ، وثانيا ليس عندنا
أسرار نخشى عليها ، واننا لو أظهرنا اهتمامنا بهم لبلغوا أمانهم
عند سادتهم وكادوا لنا كيلا •

ثم اتجه الى وقال :

— ان صاحبك الروح بالروح الذى اصطفتيه فى مؤتمر
جنيف حتى جعلناه سكرتيرا (يقصد حامد العلايلي) ها هو ذا قد جاء
هذه السنة وقد قيل انه محمل بأموال الخديو عباس ليقتضى
لبانته من التجسس علينا وعليك أنت بالذات لأنه موظف رسمى
بالمعية السنية (ديوان الخديو) ومصاهر أحب الناس الى الخديو
والصقهم به (يقصد أمير الشعراء أحمد شوقي بك) هل يمكننا أن
نجاهره بالعداء بتهمة التجسس ؟ يا لطفى دع الخلق للمخالق والله
منتقم جبار •

فقلت له :

— ياسعادة البيك أنا لا يهمنى هذا الأمر لأننى لست موظفا
ولا عينا ولا مليونيرا لأخشى عواقب تجسسهم ، ومادمت أنت ترى
هذا الرأى فالقول لك ، على أننى لا أعرف أحدا من هؤلاء الناس
لغيبتي الطويلة عن مصر •

فربت على ظهري وقال :

— أنا أعرف المصريين جيدا ، ان هؤلاء الكلاب جميعا غدا ينقلبون ضدنا لنا وعبيدا عندما تظهر قوتنا ونصبح ذوى الشأن ، فهذه صنعتهم فى كل عهد ودولة ، يعبدون الأقوياء ويخضعون لصاحب الأمر •

وفى هذه الأيام رايت الأستاذ محمد حسين هيكى وكان يطلب الدكتوراة وكان يقابلنا وتحدث ونسير معه ولكنه كان يتعد قدر طاقته عن الظهور بمظهر الوطنية المنتظرة ، لأنه مبعوث على نفقة الحكومة المصرية ويخشى أن يفصله من البعثة المدرسية •

وكان رئيس الوزراء فى الحكومة الفرنسية ارستيد بريان قد ثبت علينا العيون والأرصاء ولا سيما الفتاة التى انتحلت الاسلام وأطلقت على نفسها اسم « عزيزة دى رشبون » ، وكان لها تاريخ طويل • ولما أدركت جو المؤتمر حمدت الله ألف مرة على انفرادى وعزلتى واتخذت مسكنى فى غرفة فى الدور الخامس فى شارع فوجيرار عند أرملة مسنة ، فكنت أتناول وجبات الطعام فى مسكنى واجتمع باخوانى فى أوقات العمل قبل الظهر وبعده •

وجاء الينا عنصر جديد من الرجال والنساء ، هؤلاء هم الهنود المقيمون فى باريس تحت رئاسة السيدة الفاضلة طيبة الذكر والأثر الوطنية المخلصة « مدام كاما » (١) ، وكانت تقيم على قيد أمتار من « فاميل هاوس » بشارع بونتيو رقم ٢٥ وهو حى ارستقراطى متصل بالشانزليزيه ، ويعيش فى كنفها رهط من

(١) نفاخر لطفى جمعة فى الحديث عن هؤلاء الهنود فى رواية « الفتى العادل » التى نشرت منجمة بالملاغ اليومى عام ١٩٣٠ •

الوطنيين الهنود أمثال هارديال وشاتو يادايا وأكبرهم سفاركار
الذى فر من لندن عقب اغتيال سير كيرزون وإيلي رأس الجاسوسية
الانجليزية على الطلاب الهنود والذى قتله « دنجرا » الشهير وسجن
الشيخ عبد العزيز جابوش بسبب تمجيده بمقال فى اللواء نشره
فى ١٧ أغسطس سنة ١٩٠٩ بعنوان « اليوم يقتل دنجرا » .

وكان سفاركار الطالب الهندى السابق مقيما فى لندن
فاتهموه بالتحرىض كما اتهموا الوزير الهندوكى القديم « شيامدجى
كريشنا فارما » ، وكان الوزير يصدر جريدة « الاجتماعى الهندى »
ويحمل فيها على الاستعمار البريطانى فى الهند حملات صادقة ،
وكان الانجليز يطبقونه رغم أنوفهم لمكانته السياسية والعلمية
ولوفرة ثروته ولأنه تلميذ الفيلسوف الانجليزى « هربرت سبنسر »
وقد وقف ثلاثين ألف جنيه على عالم يلقى دروسا فى فلسفة سبنسر
فى كلية اكسفورد ، فكان الانجليز يخرجون أن ينفوه أو يطردوه
لأنهم فتحوا أبواب بلادهم لكل لاجئ سياسى ، فوجب أن يعتبروه
لاجئا حرا وأن يحموا كما حموا ماتزىنى ، وكما كانوا يحمون فى
هذا الوقت نفسه لينين وهو يصدر مجلة « اسكرا » الشرارة ،
فتحملوا كريشنا فارما على مضض وهم يتربصون به الدوائر
ويحرقون الارم كلما أصدر عددا من مجلته الشهيرة « The Indian
Sociologist » وقد زاد النار ضارا أنه خصص جزءا كبيرا من
ماله لتأسيس وتأسيس بيت الهند : India House لياوى اليه
الطلاب الهنود المغتربون صيانة لهم وحفظا لصحتهم وأخلاقهم ،
فقد علم القاصى والدانى ان عمل « كيرزون وإيلي » كاد أن يضل
الشباب الهندى وهو رئيس لجنة استقباليهم والاشراف
على اقامتهم وتعليمهم ، وقد ثبت فى قضية « دنجرا » أن كيرزون
وإيلي كان ينصح المشبان الهنود أن ينزلوا منازل ظهر للملا أنها
مواخير لينصرفوا عن العلم والأدب والوطن الى اللهو والغزل

والدعارة فتنهد قواهم ويمرضوا ويموتوا ، ولأجل هذا قنله دنجرا
وقتل معه طبيباً هندياً مسلماً اسمه « محمد علي خان » كان شريك
كيرزون وإيلي ، وقد قال دنجرا في دفاعه أنه يفضل ان يموت في
سبيل وطنه لينقذ مئات الشبان .

وكان « شيامدجي كريشنا فارما » ماهراً جداً في الفرار ،
ونجا معه في سفينة واحدة الى فرنسا « سافاركار » فلما هجم
البوليس السرى على بيت الهند لم يجد فيه هندياً واحداً ، فحطم
أثاثه واستولى على كل ما وجده من أوراق ووثائق وخرب البناء
نفسه حتى لا يعود اليه أحد يستظل بظله . وكان كريشنا فارما
حصيفاً ، فلم تكن قدمه تطفأ أرض فرنسا حتى بعث بهبة قدرها
عشرة آلاف فرنك اعانة للمصائب بفيضان نهر السين سنة ١٩١٠
وأرفقها بخطاب الى رئيس الجمهورية قال فيه انه يعتذر لضالة
قيمة المنحة ، ولكنه غريب الديار مطرود من انجلترا ومظلوم في
تهمة باطلة ، فلما طالبت انجلترا بتسليمه ، اعتذرت حكومة باريس
بأنه لاجئ سياسى ولا ترى الحكومة في مسلكه عيباً ولا عليه
غباراً .

وأقام كريشنا فارما في بيت جميل في أحياء الأعيان وكانت
معه زوجته وطالما تغذيت عنده وقضينا ساعات طويلة في الحديث
والنقاش .

أما سافاركار فكان فقيراً فلجأ الى مدام كاما يعيش في
كنفها ، وكان بين كريشنا وكاما عداً شديداً سببه التنافس في
خدمة الوطن ، ولأن كاما كانت كالرجل الحازم العازم الواعى
بل أشد رجولة وقوة ، وكانت سخيّة كريمة وهى أرملة في
الخمسين من عمرها من « البارسى » سلالة الفرس المقيمين في

بومباى من تلك القبيلة التى نزلت الى جنوب ايران عند رحلة القبائل الآرية التى كانت نازلة قبل التاريخ حول البامير فنزح أكثرها الى أطراف الهند وايران ، وكانت أكثر تلك القبائل النازحة الى ايران نفوذا وقوة قبيلة « بارسيان » التى نزلت فى جنوب ايران واتخذت مدينة « اصطخر » مستقرا لها وعاصمة للملكها ثم اضطهدوا فى وطنهم الأصلى فرحلوا منذ ألف سنة الى الهند وهم طائفة « البارسى » الموجودون فى بومباى التى تنتمى اليها مدام كاما (١) .

وقد أسست مدام كاما بضع جرائد أشهرها جريدة باندى ما ترام ومعناها « نجيبك أيتها الأم الرؤوم » أى الوطن أو « عمى صباحا يا أمنا الهند » .

وأنفقت ثروتها فى قضية الحرية الشرقية وعاشت عيشة الزهد والتقشف فى نيويورك وشيكاغو ولندن وباريس وجنيف وشتوتجارت ولوزان وتوفيت منذ بضع سنين فى السبعين من عمرها فى سويسرا وأحرقت رفاتها على غير مذهبها ، لأن مذهبها يقضى بأن يوضع الجسد عاريا على بناء يسمى « برج الصمت » ويبقى معرضا حتى تأكله الطير !

كانت مدام كاما سمراء اللون جميلة التقاسيم حلوة الصوت عذبة الحديث قوية القلب ذات جمال ومال وأخلاق عالية ، كما كانت واسعة الحيلة ذات هيبة خاصة وفصاحة نادرة وسلطان أدبى على كل من يقرب منها ، وقد أخذت تنشر الدعوة للحرية

(١) كتب لطفى جمعة مقالا عن « مدام كاما » عنوانه ، وطنية البارسى فى الهند « نشره بمجلة الرابطة العربية ، عدد ٧٠ فى ٦ / ١٠ / ١٩٣٧ .

فالتف حولها فريق من خيرة شباب الهند ومكنوا لها عقد الاجتماعات والقاء المحاضرات الانجليزية التي كانت تجيدها ، فخطبت فيها واكتسبت جانبا كبيرا من الرأي العام ونشرت الصحف الأمريكية صورها وأحاديثها ومحاضراتها .

وبعد أن أقامت كما في نيويورك وشيكاغو نزحت الى انجلترا سنة ١٩٠٧ وخضع لها كريشنا فارما واتفقا معا على التعاون في انجلترا فأسسا جريدة « انديان سوسولوجيست » التي وصفوها بأنها جريدة هندية ثورية ، وكان فارما كاتباً بليغ العبارة حاضر النهن ، خبيراً بتاريخ العالم والاستعمار ولا سيما في وطنه وله أحيانا أسلوب كأنه قطع من نار ، فنال من بعض الظالمين نبلا وانتصر لمهاتما تيلاك الذي قام في الهند قبل مهاتما غاندى وأسس جريدة كيسانارى أى الأسد وقضى في السجن بضع سنوات قبل موته .

ثم حدث خلاف بين كريشنا فارما وبين مدام كاما للفرق بين الاثنين في طريقة الجهاد ، فان الأول لم يكن مهيجا بالمعنى المعروف بل كان زعيما فكريا وثائرا علميا يجادل بالعلم والاقتصاد والفلسفة ويقنع العقل ولا يكثرث للمعواطف ، ولذا كانت تلتفت حوله الطبقات أو العناصر الرشيدة من الناقمين والساخطين .

أما مدام كاما فكانت يبيتها مشتعلة بالشباب والاقدام والتضحية ومن أشبالها هارديال وسافاركا وشاتويا دايا وهم من أشهر رجال النهضة الهندية الحديثة وقد خدموا القضية قبل أن يتناولها غاندى .

وقد حضرت مدام كاما جميع المؤتمرات السياسية والاجتماعية التي عقدت في أوروبا من سنة ١٩٠٨ الى ١٩١٤ ، ومن

بين المؤتمرات التي حضرتها واشتركت فيها بعملها وقولها مؤتمرات
الوطنيين المصريين في لوزان سنة ١٩٠٨ وجنيف سنة ١٩٠٩
وبروكسيل سنة ١٩١٠ ولها خطاب ثابتة في محاضر اعمالها وفي
الصحف .

ولما أعلنت الحرب العالمية الأولى وتحالفت انجلترا وفرنسا
على الحرب ، انتقل كريشنا فارما الى سويسرا وتبعته مدام كاما
لأن الحكومة الانجليزية سمعت في حقها وشاية « أحمد خان
بها دور » أحد مشاهير جواسيس الهند من أنها كانت ذات يد
طولى في الاعتداءات السياسية التي وقعت في الهند على بعض
حكامه ولا سيما لورد هاردينج سنة ١٩١٠ ، سنة ١٩١١ ، وادعوا
أيضا أنها كانت على اتصال ببعض ثوار روسيا القيصرية وخصوصا
بورتزيف الصحفي الثوري الذي رفع القناع عن وجه « آذيف »
الشهير الذي كان أول عميل عالمي للاستخبارات ، ولكن هذه التهم
لم تثبت عليها وان كانت أخرجت موقفها مع الحكومة الفرنسية
فنزحت هي الأخرى الى سويسرا سنة ١٩١٤ ، واستمرت في
جهادها الى سنة ١٩٢٢ حتى قضت نحبا في نفس السنة التي
توفى فيها المرحوم محمد فريد بك رئيس الحزب الوطنى وكانت
بينهما صداقة ، وكذلك بينها وبين المرحوم الدكتور منصور
رفعت واسماعيل لبيب بك وبعض زعماء المصريين في الحركة
الوطنية المصرية الأولى .

أعود فأقول ان هؤلاء الهنود أقبلوا علينا لأنهم انضموا اليها
في العام الماضى سنة ١٩٠٩ في جنيف ، وجاءت مدام كاما بأبنائها
وبناتها وأحجم كريشنا فارما رغبة منه في عدم الاتصال بمنافسته،
وقد حاولت أن أكون حلقة اتصال بينهما فلم أوفق ، وقالت لى
مدام كاما :

— خل عنك يا ولدى ! فأنت لا نعرف عمق أحقاد كريشنا
ولا تحيط بدهائه وانا لا أطعن فى وطنيته ولكن أقول لك انه
موظف قديم عند الانجليز ولم ينل منهم كل أغراضه وهذا يكفى *

ولكننى احترمت كريشنا وأحبته لأنه أعان عشرات الشبان
على الكفاح ولا سيما سافاركار الذى ألف كتابا فى تاريخ الثورة
الهندية سنة ١٨٥٧ *

لم يكن سافاركار يدعو الى الثورة السافرة ولا الى اوراق
الدماء وان كان دنجرا من أخص أتباعه ، ولكن مدام كاما كانت
تدعو لها ولها يد حمراء فى قذف القنابل التى أصابت اللورد
هاردينج نائب الملك فى الهند ، فقد قالت لأحد خلائها انها
انتهزت وجود « بورترزيف » الثائر الروسى فى باريس واتصلت
به وجعلته يعلم بعض شبان الهنود صنع القنابل فصنعوها فى
بيتها وسافروا بها الى الهند وألقوها على نائب الملك *

**كان فريد بك ينظر الى هؤلاء الهنود شذرا وبغشاهم لأنه
يخشى أن يتهم أعضاء المؤتمر المصرى الوطنى بالتآمر مع الهنود
على الحكم البريطانى وهو يزعم أن يعود الى وطنه ، ولكن كان
ماخاف أن يكون ، وجاءه السجين والنفى عن طريق كتاب « وطنيتى »
وهو ديوان شعر نظمته على الغايانى (١) ***

(١) اكاد الدكتور عبد العظيم رمضان ان غياب محمد فريد خارج البلاد لم
يمنع من تقديمه للمحاكمة الجنائية كما يذكر بعض الباحثين ، وأن سعد زغلول
لم تكن له علاقة بهذه المسألة أو الحكم الذى صدر ضد محمد فريد (مقدمة مفكرات
سعد زغلول ، تحقيق الدكتور عبد العظيم رمضان ، الجزء الاول ، سنة ١٩٨٧ ،
ص ١٢٩ وما بعدها) *

كنت أقسم وقتى بين مؤتمرنا فى « فامبلى هاوس » وبين مجامع الهند ، ورأيت مدام كاما تتأهب للحضور معنا محفوفة بمشراته الشبان والفتيات وقد أعدت خطابا لالقاؤه فى المؤتمر ، كما أخذ الشباب المتعلمون فى لندن يكتبون لبعض أبناء الأعيان من المصريين المتعلمين فى اكسفورد وكمبردج خطبا يلقيها المصريون وهم لا يجيئون النطق ببعض الفاظها لقاء جعل معلوم الفقر الهنود على علمهم وغنى المصريين على عميق جهلهم ، وبعض هذه الخطب مطبوع ومنسوب الى الذى القاه كذبا ومينا وكاتبه هارديال الذى كان فى تلك الأيام فى غاية الفقر !!

وكتبت باسم فريد بك خطابا مطولا الى مستر بلنت ، فأجاب بمكتوب طويل الى فريد بك بوصفه رئيس المؤتمر ومعه خطاب جليل باللغة الفرنسية واشترط أن أتولى تلاوته ، وهذا الخطاب نشر بالعربية فى مصر مرارا فلا داعى لتكراره ، ولكن أقول ان كل ما تكهن به بلنت عن سياسة الانجليز الاستعمارية ومسالكهم الملتوية وخطبهم الجهنمية قد تحقق كانه كان يقرأ فى كتاب مبسوط !

لقد سرنى أننى قابلت ليفيا من رجال الثورة الهندية فى باريس وآخرين تجارا مقيمين بها يتجرون فى اللآلى ، وزرت شيامدجى كريشنا فارما ، فوجدت راحة وسرورا ومتعة فى عشرة هؤلاء الهنود وهم أبطال ومخلصون وثقات ومتعلمون ومطلعون ، وعليهم هم الآخرين ليف من الجواسيس الانجليز والهنود ولا سيما المسلمين منهم .

وقد رغب الوطنيون الهنود أن يشتركوا معنا فى المؤتمر وأن يشدوا أزرنا بخطبهم وبحوثهم ، وكان بعض الأغنياء من

المصريين يعارضون في ذلك بحجة أن هذا المظهر يجرح صدور الانجليز علينا ويزيدهم أحقادا خصوصا أن الهنود يلجأون في بلادهم الى القوة والعنف ، والمصريون يريدون أن يناضلوا على بساط القانون ويتخذون ما وصفوه بالطرق السلمية المشروعة التي تطمئن الانجليز ، وكان فريد بك يميل الى هذا الرأي الى أن أقنعتة وساعدني في ذلك الدكتور منصور رفعت وحامد العلايلي ، وأقنعتة بأن الهنود يتخذون من مؤتمرا متنفسا ولا يجوز لنا أن نمنعهم وأننا في العام الماضي (سنة ١٩٠٩) اتخذنا أنصارا من الأيرلنديين والألمان والاشتراكيين الفرنسيين أمثال روانيه وجوريس ، فكيف نمنع الشرفيين ، وشرحت لفريد بك أن الانجليز اذا علموا أن لنا أنصارا من أمم مختلفة يتهيمون جانبنا ويحسبون لنا حسابا ، وإن هذه كانت خطة المرحوم مصطفى كامل في فضاله وأنه نجح فيه في دنشواي وما بعد الاتفاق الودي بأنصاره من الفرنسيين وأحرار الانجليز ، فاقتنع رحمه الله ولكنه اشتهر على من يستأجرب منهم ، ولا سيما مدام كاما ، الا يذكر المقاومة بالقوة أو تبرير اهراق الدماء ، وكانت حوادث المرحوم الورداني ودنجرا يرن صدادها في الآذان والأذهان ، فتمهدت له أن أقنع مدام كاما بضرورة عرض خطبتها علينا قبل اللقاء .

وعملنا واشتغلنا وتعبنا أياما وليالي ، وكان في مقدمة مساعدينا الدكتور عثمان غالب باشا وهو مقيم بشارع بولانجيه بباريس وكان يروى لنا من أخبار مصطفى كامل الشيء الكثير لأنه كان أكبر أصدقائه من المصريين في فرنسا ، واتصلنا الصحافة وكافة الأوساط السياسية ، وحضر الينا من انجلترا مستر كيرهاردي زعيم حزب العمال ومؤسسه .

وكانت خطتنا أن ن عقد المؤتمر في أيام ثلاثة ١٤ ، ١٥ ، ١٦
سبتمبر وهى أيام الاحتلال البريطانى لمصر بعد موقعة التل الكبير .
وفى الأسبوع الأخير قبل الموعد المحدد تقاومت حوادث التجسس
حولنا وظهر لنا للأسف أن عزيزة دى روشبرون فى مقدمة
الجواسيس ، ولما بدأنا أن نكشفها تظاهرت بالغضب وتركنا .

وفى يوم ١٠ سبتمبر وصلت دعوة باسم فريد بك وأخوى
باسمى وثلاثة باسم حامد العلالى لمقابلة رئيس الوزراء ووزير
الداخلية ميسيو أريستيد بريان بقصر وزارة الداخلية برقم ٦
بميدان بوفو ، فلما وصلت هذه المكاتيب الثلاثة تناولتها عزيزة
روشبرون وخاطبتنى أنا وحامد العلالى بقولها « أيها الثوريان
- على سبيل المزاح - لقد وصل اسميكما الى وزارة الداخلية
وعرفت عنوانكما » . وضحكت ضحكة صفراء !

وذهبنا الى مقر وزارة الداخلية وقابلنا رئيس مكتب الوزير
الموسيو جينو وكان رجلا فى الخمسين أحمر الوجه ، فهدى الى
الحديث بأن انجلترا تنظر الى مؤتمرنا بعين السخط وأن حكومة
فرنسا متحالفة مع بريطانيا منذ سنة ١٩٠٤ وأن الأحوال الدولية
متحجرة وأننا أحسننا صنعا فى العام الماضى اذ عقدنا مؤتمرنا
بمدينة جنيف وهى جمهورية حرة محايدة . فأجبناه ورددنا حججه ،
فقال ان خلاص المسألة فى يد موسيو بريان . ودار بيننا الحديث
الآتى :

رئيس المكتب : لقد علمت الحكومة أنكم قائمون بعقد مؤتمر وطنى
مصرى فى باريس .

فريد بك : نعم وسيعقد فى صالة جمعيات العلماء (سوسيسيتى
سافانت) يوم ١٤ سبتمبر أى بعد بضعة أيام .

رئيس المكتب : هل أخذتم اذا بذلك من الحكومة كنص القانون ؟

فريد بك : ان الحكومة تعلم باجتماعنا وكثير من أعضائها ومن النواب والشيوخ مدعوون لحضور المؤتمر .

رئيس المكتب : هل يمكنك أن تذكر لى أسماءهم .

فريد بك : موسيو جوريس وموسيو روانيه وموسيو بالنفيه ...

رئيس المكتب : تعنى الاشتراكيين ؟

فريد بك : انهم على كل حال نواب فرنسيون .

رئيس المكتب : ان الحكومة تحب أن تلفت نظركم الى ضرورة نقل اجتماعكم الى مكان آخر غير باريس .

فريد بك : هل هذا طلب رسمى ؟

رئيس المكتب : اعتبروه كما تشاءون .

أنا : نحن لا نعتبره رسميا الا اذا كان صادرا عن رئيس الحكومة نفسه ، وحيث أن الدعوة صادرة لنا باسمه فنحن أن نراه ونسمع منه ما يريد الادلاء به .

رئيس المكتب : اذن فعودوا الى هنا فى الساعة الخامسة بعد الظهر لعلكم تتمكنون من مقابلته .

فانصرفنا وعند خروجنا وجدنا فى فناء الوزارة جيشا من الجواسيس تبيننا بينهم بعض الذين كانوا يترددون على دار المؤتمر باسم الرغبة فى الانضمام اليه وباسم حب الاسلام والشرق ومصر وما الى ذلك من الدجل والغش .

وأراد الجواسيس تتبعنا فالتفت اليهم وقلت لهم :

- أيها السادة اننا كنا في مكتب الوزير وسنعود فى الساعة الخامسة لمقابلة موسيو بريان فلا فائدة من اقتفاء أثرنا !

فلم تجد تلك الخطبة نفعا عند الجواسيس وتبعونا .

وفى الساعة الخامسة عدنا ودعانا موسيو بريان الى مقابلته
بعشور رئيس مكتبة ، وكان فى أول الأمر هاشا باشا ، ثم تغير
ودار بيننا الحديث الآتى :

موسيو بريان : لقد علمت ما دار بينكم وبين رئيس مكتبي وأنكم
تطلبون منى تصريحاً بصفتي رئيس الحكومة .

فريه بك : اليس لنا الحق فى ذلك خصوصا وأن فرنسا تخالف
سنتها للمرة الأولى مع المصريين الذين تربطهم بها مودة قديمة
وتقليدية ؟

أنسا : كما أنه لا يزال عدد كبير من المصريين يقصدون فرنسا
للتعليم والاقامة ويعتبرونها وطناً ثانياً ومصدراً للحرية
وملجأ لكل مظلوم .

بريان : هذا صحيح ، هل أنت أحد الطلاب فى جامعاتنا ؟
أنسا : نعم ولى الشرف وأعلم أن القانون لا يمنع اجتماعنا مادام
فى حدود النظام .

بريان : أنت طالب بكلية الحقوق فى ليون وتعلم أن القانون
لا يبيح لك الاشتغال بالسياسة .

فقلت له : نعم ولكننى لا أشتغل بسياسة فرنسا ولكن بسياسة
وطنى وفرنسا وطن ثان لكل ضيف وهى ام الحرية وحقوق
الانسان .

بريان : ألم تجتمعوا فى العام الماضى فى جنيف أو لوزان لست أدرى ، فلماذا لا تجتمعون هذا العام فى دولة صغيرة مجاورة ؟
فريد بك : اذا تركنا باريس فلا ندرى أين نجتمع وسوف يكون لقراركم مدى سبيء الأثر فى العالم كله .

بريان : نحن لا نريد منعكم ولكننا فى نفس الوقت لا نريد أن نؤثر فى عواطف الأغيار ، فان دولة أخرى ربما تكون محبة لفرنسا تتسلم من اجتماعكم فى عاصمتنا ، فنرجوكم أن ترحلوا « بالذوق » وألا تلجئونا الى

فقلت له : لم نعلم أن الأمر وصل بحكومة سعادتك الى تهديدنا بالطرد ، وان كنا قد لاحظنا أن الحكومة الفرنسية سمحت لأشخاص أجانب ربما ينتمون الى تلك الدولة الأجنبية أن يتجسسوا علينا فى نفس عاصمتكم وفى الإدار التى اتخذناها مقرا لمؤتمرنا .

فقال بريان بغضب مكظوم : لم يصل الى علمى ذلك ، ومع هذا فإنه خارج عن موضوع هذه المقابلة ، ونحن الى الآن لم نخرج عن المألوف فى معاملتكم .

فقلت : لا ينسب سعادة الوزير أن أعضاء من جميع برلمانات أوروبا ...

فريد بك مكمل : نعم ! ان نوابا من جميع برلمانات أوروبا مدعوون الى المؤتمر وسيحضرون الى باريس ولا نملك الآن فى بضعة أيام تغيير خططهم ، وقد تكلفنا جهودا شاقة ولم يبق بيشة وبين المؤتمر سوى ثلاثة أيام أو أربعة .

بريان : من هم هؤلاء الأعضاء ؟

فريد بك : من البرلمان الانجليزى مستر كيرهاردى ومستر بارنز
ومستر كتل ومستر هازلتون ومن الصحفيين مستر روشستين
ومن البرلمان الفرنسى موسيو جوريس وموسيو روانيه
ومن البرلمان الالماني الهر أوجست بيبل وآخرون من ايرلندا
وبافاريا والمجر وايطاليا والسمويد والنرويج وروسيا وبلجيكا
وايطاليا ورومانيا والهند وتركيا

فرد بريان ببرود تام : عندى خبر ، ولكن هذا لا يغير فى عزم
الحكومة ، يمكنكم أن تذهبوا الى جمهورية أخرى بجوارنا
إذا شئتم .

فريد بك : سنذهب ايكس لا شابل فى ألمانيا لأنها أقرب بلد
الى الحدود .

وقلت : وسننشر هذا الحديث بحذافيره وكل ما جرى بخصوصه
وما سوف يحدث لنا من الآن الى أن تغادر أرض فرنسا
الكريمة !

فريد بك : ولا ريب أن النواب الفرنسيين على الأقل سيطلبون
من الحكومة حسابا عن هذه المعاملة .

وتكلم فريد بك بعبارات بليغة ، فقال بريان :

- لأجل هذه الأسباب كلها أنصح لكم أن تعقدوا مؤتمرهم
خارج فرنسا وليكن فى سويسرا أو فى امارة لكسمبورج
لأننا لا نود أن نصدر أمرا بطردكم من فرنسا (كذا) ، وإذا
صدر هذا الأمر تحرمون من السخول وتقعون تحت مراقبة
الشرطة السرية .

فقلت له : ان فرنسا لا تفعل هذا ، لأننا دعونا عشرات من
أعضاء البرلمان الفرنسى والرايشتساج الالماني والبرلمان

الانجليزى ، وهؤلاء اذا صدر قرار نفينا يقدمون استجوابات
بشأنه ، على أننا مسالمون ولا يزيد عملنا في المؤتمر على
الخطابة والكتابة في حدود القانون .

فاعندل الرجل وقال : على الرغم من هذا فانى لا أريد أن أصدر
قراراً بطردكم ولا أريد أن يعقد مؤتمرهم عندنا وأنصح لكم
بمغادرة البلاد بطريق المودة .

فأشار فريد بك اشارة فهمت منها أن لا فائدة من مناقشة
هذا الرجل ثم قال له :

— وكيف يمكننا الآن أن ننتقل بقضنا وقضيضنا الى بلد
آخر ونغير خططنا وقد أزف الوقت واتخذنا أهبتنا فى هذه
العاصمة ؟

قال بريان : الحقيقة أننى بذلت جهودا كثيرة لاستبقيكم
ولم أتمكن .

فنهض فريد بك ونهضنا واستأذنا فى الانصراف ، فنهض
بريان لتوديعنا وقال :

— أيها السادة أستودعكم الله وأعبر عن أسفى الشخصى . .

فقلت له مبتسما : لم أكن أظن يا سيدى الوزير الأكبر
ورئيس المجلس أن كلمة دولة كائنة من كانت تكون هى العليا فى
باريس !

وأنا أقصد أن انجلترا تحكمت فيهم الى هذه الدرجة .
فقال الرجل : ماذا تريد أن تقول ؟

فقال فريد بك : أنت ونحن رجال قانون ونعد أفراد أسرة واحدة
وأنا أؤكد لكم أننا رأينا جواسيس دولة أجنبية يحيطون بنا
ويتبعون خطواتنا في كل مكان .

فابتسم بريان ابتسامة صفراء وتدلّت شفته السفلى وكانت
مثل شفة العجل الصغير وله شوارب متصلة بشعر كثيف حول
فمه وقال :

— ان الأوهام يا سيدي تجعلكم ترون الانجليز في كل مكان .

فقال فريد : سواء أكانت أوهاما أو حقائق فقد لمسناهم في
باريس .

وتظاهروا كلنا بالضحك لننقل هذا الموقف الأليم !

وخرجنا نجرر أذيال الأسف والندم على أننا وثقنا بدولة
تحكمها النساء والانجليز .

واجتمعنا وتحرينا ألا يكون بيننا ذو ريبة حتى لا يذيع
سر هذه الخبيثة ، وبحثنا وتناقشنا واستعرضنا كل الممكنات
والمستحيلات والمدن والدول التي نستطيع اللجوء اليها قبل أن
يعرف الأمر ويشمت بنا الانجليز أو يلجأون الى دسيسة أخرى ،
فأبدي المرحوم أحمد وفيق اسم بروكسل وكان فيها معرض دولي ،
فوافقنا على اختيارها وقررنا ايضاده في فجر اليوم التالي ليهيئ
لنا مكانا وجوا للاجتماع فيها بعد ثلاثة أيام .

وقضينا الأيام والليالي الباقية في فضيحة فرنسا والتشهير
بها باعلانات الجدران وتوزيع منشورات بالأيدي وفي التظلم الى
الصحافة ، وقصدنا الى بعض شركات السكة الحديد لنستأجر

قطارا خاصا فرفضت ، وبذلنا جهودا جبارة في لم شعشنا وحصرنا العمل في خمسة أو ستة أشخاص لم يعلم احد غيرهم بمقاصدنا ولا باتجاهنا ، وعقدنا النية على أن يغادر المصريون المدعوون باريس في القطار السريع الذى يسافر الى بروكسيل في أربع ساعات ، وقد وفق الله « وفيقا » فى اتخاذ مكان فسيح بديع فى قلب العاصمة البلجيكية وحجز ثلاث طبقات فى فندق كبير وكانت بروكسيل مزدحمة جدا بسبب المعرض الدولى (١) .

ومما يؤسف له أن الدهر دار دورته وأن عريضة دى روشبرون بعد أن طردت من المؤتمر وثبت تجسسها ، اشتغلت مع مصرى شهير وقيل انه تزوج منها وأقام معها فى اصطمبول وجاءت الى مصر قبيل الحرب العالمية الأولى ، ثم ظهر أنها كانت لها صلة لقاء بأمير شرقى كبير (الخديو عباس) واتصلت بالألمان وبلغت ضد شارل همبير صاحب مقالات « ذخيرة ومدافع » فى « الجورنال » وشهدت فى المجلس العسكرى لمصلحته فى سنة ١٩١٩ فشرتها ورئيس المجلس ، ثم اختفت وانهضت أخبارها عن الصحف .

وظاهر من ذلك أن بريان ساعد الحكومة الامبراطورية على مطاردة الوطنيين المصريين من باريس ولم يسمح لهم بالاجتماع ولم يجاملهم ولم يتبع القانون فى معاملتهم ، وكان فى أول أمره اشتراكيا متطرفا ثم صار معتدلا ثم حكوميا .

(١) سجل لطفى جمعة أحداث هذا المؤتمر وانعقاده فى بروكسل ومطاردة الوطنيين المصريين فى باريس وعدم السماح لهم بالاجتماع وعقد مؤتمراتهم فى العاصمة الفرنسية فى مقال له نشر بجريدة البلاغ فى ٢٠ مارس سنة ١٩٢٢ بعنوان « بريان والمسألة المصرية ، حادثة تاريخية عن مؤتمر سنة ١٩١٠ لا يزال بعض أبطالها أحياء » . وأشار فيه لطفى جمعة الى دور عريضة دى روشبرون فى التجسس على المؤتمر .

وقد أراد الله أن يعقد المؤتمر الوطنى المصرى الثانى فى نفس
موعد الذى كان مجددا لانعقاده فى باريس ، وقد حضر اليه كل
المدعوين والأعوان والأنصار وقد أبلنناهم الدعوة فى وقتها
المناسب ، وعددنا هذا العمل نصرا من الله •

ويوجد كتاب ضخيم مطبوع باللغة الفرنسية فيه أخبار
المؤتمر عنوانه :

Oeuvres du Congrès National Egyptien tenu à Brux-
celles Le 2, 23, et 24 Septembre 1910 Bruges St.
Catherine's Press, 1911.

فليطالع من يريد الوقوف على أعمال هذا المؤتمر (١) •



(١) للوقوف على مزيد من التفاصيل عن مؤتمر بروكسل ، راجع كتاب
« محمد فريد » لعبد الرحمن الرافعى ، المرجع السابق ، ص ٢١٦ - ص ٢٢٨ •
وقد نشرت مجلة الطليعة الترجمة الكاملة لجلسات مؤتمر بروكسل سنة
١٩١٠ فى أعدادها الصادرة فى ابريل ومايو ويونيه سنة ١٩٦٩ ، كما نشرت
الجلة فى عددها الصادر فى مايو سنة ١٩٦٩ ما جاء بمذكرات لطفى جمعة عن
الظروف التى لابتست انعقاد المؤتمر ومطاردة السلطات البريطانية له •

المحاضرة

(١)

أول حديث عن المحاضرة مع كبار المحامين - امتحان المعادلة -
طلب القيد في جدول المحامين - محاولة عبد الخالق ثروت معي للعمل
في النيابة العامة - القيد في جدول المحامين

لما كنت في باريس سنة ١٩١٠ (١) مع أصدقائي ورفاقي
من رجال الحركة الوطنية لنعد معاهدات مؤتمر باريس الذي عقد في
بروكسل في أواسط سبتمبر من تلك السنة ، جرى بيني وبين
المرحوم أحمد لطفي بك (٢) أول حديث عن المحاضرة ، وكان المرحوم
حسن العشرة جم الأدب ناعم الملمس ، قلت له : كيف يكون حالى
إذا عدت الى مصر لأشتغل بالمحاضرة ؟ قال : هذا من أبسط الأمور ،
فما عليك لدى عودتك الا أن تقابلنى فأرشدك الى امتحان المعادلة
وبعد أن تجوز هذا الامتحان بكل بساطة وسهولة (كذا) تعمل
معي في مكتبنا مع أخى وهو يعرفك جيداً ويحبك . فشكرت الأستاذ
كثيراً وآمنت بقوله واعتقدت لفرط حبه له وثقتى به أن هذا الأمر
من السهولة والبساطة حيث وضعه .

(١) كتب لطفي جمعة هذا الفصل سنة ١٩٤١ .

(٢) كان أحمد لطفي بك وكيلاً لـ الحزب الوطنى .

تم قابلت المرحوم اسماعيل الشيمى بك (١) فى باريس وكان ينزل فى بيت قرب ميدان المرصد ومرقص بوليه وينزل معه فى البيت نفسه المرحوم رشدى باشا والدكتور صادق بك رمضان ، وقد علمت أن البيت لأقارب زوج رشدى باشا الاولى التى اقلت قصصا مصريه باللغة الفرنسيه وكانت قد اختارت لنفسها اسما أدبيا هو « تى سليمة » ، وكان المرحوم الشيمى بك خفيف الروح ظريفا مخلصا لامل عشرته ، فسألته عن المحاماة فقال لى : اياك والاشتغال أمام المحاكم المختلطة فأننى كنت بها قاضيا ولا أزال أمامها محاميا ولكننا نحن المصريين سنبقى بها مستأصلين من جذورا وقال بالفرنسية على عادته رحمه الله : *déracinés*

قلت : لماذا ؟ قال : لأن كل متقاض أجنبى يشق فى مجازم من أبناء جلدته . قلت : هذا حسن ، وحينئذ يأتى لنا المتقاضون المصريون . فقهقه الأستاذ المغفور له طويلا حتى بانث نواجذه وبرز أنفه الأقرنى وكاد يقفز من فرط سروره لوقوعى فى هذا الخطأ ، ثم قال : يا عزيزى جمعة ! يا حبذا لو كان الأمر كما ذكرت الآن. لصرنا أكبر المحامين لكثرة الموكلين ، ولكن المدهش أن الفلاح المصرى نفسه لا يشق بالمحامى المصرى أمام المحاكم المختلطة ويقول لا يرتاح *والخواجات* الا الى خواجه ولا يفهم كلام الخواجه الا الخواجات . قلت : هذا عجيب ! اذن ليس أماننا الا المحاكم الأهلية . قال : نعم ولا يمكنك الجمع بين المرافعة أمام المحكمتين الأهلية والمختلطة الا اذا كنت مدربا على عشرة الضرائر ! . وقهقهه من جديد ، ثم دعانى - رحمه الله - الى فسحة لذيذة فى البولفار باعتبارى زميلا فى

(١) اسماعيل الشيمى هو أحد أقطاب الحزب الوطنى وقد أصدر جريدة البلاغ المصرى فى ٩ يويله سنة ١٩٠٠ والتى اتخذت موقفا غاية فى التطرف من الاحتلال والحديد الأمر الذى أدى بمحمد سعيد باشا ناظر الداخلية الى اغلاقها فى بداية ١٩١١ .

المهنة وكان يسميني : Mon Confier en embryon . وقد عاش
رحمه الله حتى لقيته وأكدت له بالاختبار صدق نظريته .

ولقيت المرحوم الأستاذ محمود عبد اللطيف بقهوة فاشيت
Vachette بباريس وتكلمنا عن المحاماة مليا وقال لي هو
أيضا انه يود من صميم قلبه أن يعيننى فى بداية عملى بأفكاره
وخبرته .

ولما عدت من أوروبا الى مصر فى سنة ١٩١٢ بعد خمس سنوات
من سفرى ، كان على أن أدخل امتحان « المعادلة » كشرط لفيد اسمى
بجدول المحامين ، وعرضت لى ضرورة الاستماع الى عالم ثقة فى
الموارث ، ولم يكن بينى وبين امتحان المعادلة سوى عشرة أيام ،
فدلتنى أهل الفضل على الشيخ محمد زيد الابياني أستاذ الشريعة
الاسلامية فى كلية الحقوق بالجامعة المصرية ، وكنت أقرأ كتبه
وأنتطلع الى درسه ولكنى لم أحضر عليه دروسا بمدرسة الحقوق
الخدوية فى سنة ١٩٠٧ التى دخلت المدرسة أثناءها ووقع نصيبى
فى الأستاذ عبد الحكم وكان رحمه الله نحويا غليظا ارتقى الى
التدريس بمدرسة الحقوق بحكم الأقدمية ، وكنت رأيت فى امتحان
شفوى يلج الحاج معلم الصبيان ويتعالم كأنه سيبويه ، فلما رأيت
على منصة التدريس فى الشريعة انقبضت نفسى وعزمت على
ألا أحضر عليه أبدا وتركت مصر ولم أسمع منه درسا ولا محاضرة
ولا أغبط تلاميذه .

فلما دلتنى أهل الفضل على الشيخ محمد زيد ، قصدت اليه
فى داره صباح يوم جمعة فى يونيه والحر شديد والنفس ضائعة
والقلب بين الرجاء وضده ، فاستقبلنى فى « المنطرة » فى بيته بجوار
مسجد السيدة صفية ، فرحب بى وأكرمنى ثم قال بصوت أجش
رنان : خيرا يا محمد أفندى . قلت له : أحمل اليك تحية الأستاذ

ادوارد لامبير وثناءه وقوله انه لا ينسأك • وكان لامبير قد عرفه
اثناء نظارته على المدرسة عام ١٩٠٦ وعرف قدره وأحبه ، فقال لى :
اكتب له بشكره عنى • ثم قلت : يا سيدنا الشيخ قصدت اليك
لمراجعة المواريت • فقال : مرحبا بك • ثم صفق بيديه وطلب ورقا
وقلما وأملى على احدى مسائل المواريت ، فلم أدر حلها ، فنظر الى
وقال : ان شاء الله فى العام المقبل يا محمد أفندى ! • اذا كنت
لا تجيب على هذه المسألة فلا أمل لك فى النجاح هذا العام ! •
فأسقط فى يدى وقلت له : ان تعطيل عام يعود على بخسارة كبرى ،
فأرجوك أن تلقى على درسك ولا تبعه لك • فقال : ضميرى
لا يهاودنى ، اما أضمن نجاح تلميذى والا فلا أضيع وقتى ووقته •
فقلت له : ستجدنى ان شاء الله مجتهدا •

وقبل الرجل بعد جدل طويل وبدأنا وقد بهرتنى طريقته التى
يحسده عليها أقدر أساتذة أوربا (١) •

وكان المرحوم عبد الخالق ثروت باشا - قبل قيد اسمى فى
جدول المحامين - قد عرض على وظيفة فى النيابة العمومية ، وكان
اذ ذاك نائبا عاما ، وما يزال شاهدا ببعض هذه الوقائع الأستاذ
رزق ميخائيل القاضى سابقا والمحامى حالا ، وكان سكرتيرا خاصا
لرئيس محكمة الاستئناف الأعلى وهو فى ذلك العهد
يحيى ابراهيم باشا •

(١) جاء فى الكتاب المئوى الذى أصدرته كلية الحقوق بجامعة القاهرة
سنة ١٩٨٠ بمناسبة العيد المئوى للكلية - أن محمد لطفى جمعة أدى امتحان
المعادلة سنة ١٩١١ (ص ٢٥٢) باعتباره من مشاهير دفعة سنة ١٩١١ الذين
أبرزت أسماءهم المهن القانونية فى مجالات القضاء والمحاماة والتدريس فى الكلية
والذاتيف القانونى وفرضت هذه المهن أسماءهم على الذاكرة •

فبعدما تقدمت الى محكمة الاستئناف بطلب قيد اسمى فى
جسودل المحامين احسن السريرى رزق بك سالى ووعدى حيرا ،
تم برددت عليه مرات فاخذ فى التسويف والتأجيل ، ثم لمح لى بان
التوظيف فى النيابة اجدى على من المحاماة واقرب الى منفعتى ، وكان
يسألنى من طرف خفى لماذا لا تدخل النيابة ؟ لماذا لا تقبل وظيفة
فى الحكومة ؟ لماذا لا تبدأ عملك فى المحاماة فى احدى مدن الريف
مثل طنطا او اسيوط . فكنت أجابه أجوبة سطحية وأنا أعلم
صداقته وإخلاصه وأضمر فى نفسى العجب من أسئلته وأردد فى
أعماق قلبى : كيف يعرض على العهل فى الحكومة وأنا خارج من
مؤتمرات سياسيه كل اسمائها اسماء اعمال الحكومة والمطالبة بحقوق
الأمة ؟ كيف أكون فى طليعة المشتغلين بالحركة الوطنية منذ تنبّهت
للحياة وأعود اليوم بمجرد حصولى على اجازة الحقوق أطلب وظيفة
ميرى فى النيابة والقضاء ؟

وكان رزق بك جزاه الله خيرا يلمح لى بأن الجهات المختصة
ترحب بى وأنها تضرب صفحا عن الماضى وتود الانتفاع بى فى خدمة
القانون .

وأخيرا أجبته بالصراحة التامة فقلت له :

— قد أكون مرغوبا فى لما يظن بى من الكفاية وأنا أنكرها ،
ولو فرضنا أننى ذو كفاية ، فلماذا لا تكون فى صف الشعب ؟
ان فى الحكومة كثيرين من أصدقائى ورفقاء شبابى القادرين العلماء
ولابد من حدوث التوازن بين القوتين ، فيكون للحكومة رجالها
وللشعب رجاله .

ولم تكن الحكومة فى سنة ١٩١٢ من الشعب واليه وبأذنه
وأمره بحكم الدستور كما هى الآن ، فلما يشس رزق بك مما اعتبره
نصحا لى يمليه عليه الاخلاص وحب الخير ، حاول تحويل عزمى

عن القاهرة وقال ان فى المدن الكبرى مثل طنطا وأسيوط مجالا عظيما لمثلك ويمكنك أن تقيم هناك حتى يشتهد عودك وتنمو قوتك وتملك الوقوف على قدميك واقصد بذلك حتى تجمع ثروة حسنة .

وعند ذلك دخلنى غرور وازدريت العمل لأجل المال وطننت أن مثلى لا يرضى بفتح القرى والبنادر ولا يقبل أن يكون الا فى العواصم ، فذكرت له الوسط العلمى والوسط العقلى والاتصال بالأدباء ووجود فطاحل المحامين فى القاهرة وان كنت لا أنكر أن فى الأرياف رجالا لا يقلون فضلا وعلمًا وشهرة عن مشاهير القاهرة .

فلما سمع رزق بك منى هذا وذاك ، هز رأسه وأيقن بلا شك أن « دماغى ناشف » وأنه لابد لى من خبط الجدار حتى أفيق من غشيتى !

لقد كنت ثملا بخبر البذل والتضحية فى سبيل الوطن والمنفعة العامة ، التضحية بالانصب والمال ، وأقول لنفسى اذا كان كل من أرى من العلماء والفضلاء فى صف الحكومة فمن يكون للضعفاء يدفع عنهم غوائل الحوادث ويرد عنهم كيد الزمان ؟ وأية وسيلة أقرب وأفضل من الحمامة ؟ . وفى حظيرة هذه الصنعة الكريمة الشريفة يمكن أن أكتب وأخطب وأدعو للخير والحق والحرية وأخدم العاجز واليتيم والأرامل الفقيرات . وهذا الجانب البراق اللامع الذى يخلب اللب ويخطف بالأبصار هو الذى استهوانى وجذبنى واستمالنى ، ولم يكن - وأبيك - لذلاقة اللسان أو حضور البديهة أو سعة العلم والاطلاع والاستعداد الفطرى لممارسة هذه الصنعة أقل أثر فى اقتناعى ، لأننى خلو من تلك الصفات ، ولأن الرجل فى وقت التصميم على أكبر الأعمال لا ينظر الى صفاته أو مراهبه وما يليق به وما لا يليق ، وإنما يطيع العاطفة طاعة

عشواء • وماذا كانت عاطفتي منذ دخلت مدرسة الحقوق الخديوية
فى خريف أكتوبر سنة ١٩٠٧ الى أن تقيده اسمى فى جدول المحامين
فى يناير سنة ١٩١٢ ؟

كانت الخدمة العامة رائدى ومرشدى وغايتى التى أرمى اليها •

ثم أشسار على رزق بك بمقابلة المرحوم عبد الخالق ثروت
باشا (١) ان كنت راغبا فى تعجيل طلبى ، فلقيته فأكرم وفادتى
وفاتحنى فى أمر الوظيفة ووجدنى بمرتب حسن وبالعمل فى القاهرة
فى قلم النائب العام • فدهشت من عرضه على وظيفة فى الحكومة
وللنت فى الأمر وسيلة لانضوائى وانضمامى الى خدمة من كنت
أنتقد فى المؤتمرات السياسية وفى الخطب وفى مقالاتى بجريدتى
سموت الشعب وايجبت اللتين أنشأتهما بجنيف • فكبر الأمر فى
نفسى وطلبت منه امهالى بضعة أيام للتفكير ، وخرجت مصمما على
الرفض، ولكننى أبست أن أجابه الرجل به وقد أكرمنى وأراد اسداء
المعروف لى •

وفى أول الأمر لم أفاتح أحدا وقلبت على أوجه وقلت اننى
لم أنتو الوظيفة والا ما سلكت مسلك الحرية فى السياسة ، وان
الحزب الذى أنتمى اليه ما يزال على قيد الحياة ، وأننى قيدت اسمى
فى المحكمة المختلطة ودفعت عشرين جنيها ، فماذا أقول لنفسى اذا
قبلت وظيفة بعد هذا الماضى القريب الذى لم أجامل فيه أحدا من

(١) تخرج عبد الخالق ثروت من مدرسة الحقوق سنة ١٨٨٩ وتدرج فى
مناصب القضاء الى أن عين فى أبريل سنة ١٩٠٨ نائبا عاما خلفا للمستتر كوريت
النائب العميمى ، فكان أول مصرى يشغل هذه الوظيفة واستمر فيها حتى سنة
١٩١٤ الى أن اختير وزيرا للحقائى سنة ١٩١٤ فوزيرا للداخلية سنة ١٩٢١
فرئيسا للوزراء سنة ١٩٢١ ايضا • (دكتور عبد العظيم رمضان ، مذكرات
سعد زغلول ، ج ١ ، سنة ١٩٨٧ ، هامش صفحة ٢٦٣) •

أهل السلطة ؟ فهل كنت خادعا أو مخدوعا ؟ وهل أكذب نفسى
بنفسى وأعرضها للقليل والقال ؟ وهل اتخذت الرأى المعارض لأتمكن
من دخول الحكومة من باب الانقلاب على حزبي وتطبيق مبدئي ؟
وكان هذا الموقف منى قبل الزميلين من أعضاء الحزب الوطنى
اللذين أعلننا تطبيقهما الماضى عنه قبول الوظيفة بعشرين عاما تقريبا ،
فلو بادرت بتوقيع الطلاق قبلهما فى سنة ١٩١٢ فأين كنت أصل ؟ ،
وكنت على الأقل مهدت لهما السبيل ، فانهما لم يفعلوا جزءا مما فعلت
ولم يجاهدأ فى أوروبا ومصر بل فنعا بتدبيج عبارة احتجاج مبتذلة
كان أحدهما ينشرها فى كل عام فى مناسبات معينة الى أن دخلا
الوظيفة فوفرا نفقة التلغراف المعهود !

ولو دخلت الوظيفة لكان انتصارا كبيرا للذين اتهموا الحزب
الوطنى بالطيش والرعونة والتهوئش كما فعلوا عند تعيين المرحوم
الشيخ عبد العزيز جاويش فى سنة ١٩٢٤ عندما قبل وظيفة كبيرة
فى وزارة المعارف بعد طول الجهاد وخاتمة المطاف ولم يعمر فيها
سوى عامين أو ثلاثة .

كنت جده خجلان من نفسى أكاد أتوارى متوهما أن كل الناس
قد عرفت بما عرضه على الباشا الرقيق الحاشية ، وكان يعرفنى من
سنة ١٩٠٦ أو سنة ١٩٠٧ فى إدارة اللواء ، فقد كان يحضر كثيرا
ويزور مصطفى كامل فى مكتبه فألقاه كل صباح وأحييه ، وكان
صاحب اللواء يقرأ عليه سطرًا من مقالة ليرى رأيه فيها ،
فاذا اقترح ثروت باشا تعديلها أو تخفيفها شدد مصطفى وزاد
عليها ، وقد رأيت ذلك بنفسى مرتين أو ثلاثا .

كنت أظن فى سنة ١٩١٢ عقيب خروجى من مكتبه أن أحجار
الأرض عرفت بما جرى ، فيا لها من فضيحة !! وعدت فتذكرت أن
الأمر لم يخرج عن ثلاثة ، ثروت باشا ورزق بك وأنا وليس لأحد

منا مصلحة في اذاعته ، فانشغلت بهذا الموضوع وتحيرت خشية ان رفضت بعنف أن يتصدانى النائب العمومى فيعطل قيد اسمى ، خصوصا وقد ذكر لى رزق بك أن لجنة القيد لا ميعاد لها ولا ضابط لقراراتها ، فقلت ان حدث ذلك فأنا أكتفى بالمحكمة المختلطة •

وعرانى هم ثقيل لأننى لم أكن ذا مال ولا مصدر رزق منظما وقد تكبدت وأهلى مشقات عديدة خلال ست سنوات ولم يكن لأحد على يدى، وكان بعضى المخاضين قد انتساع أنعمى تلقى العلم فى أوربا على نفقة حزبي ، فكذبت ذلك فى جريدة اللواء ونشرت التكذيب فى نوفمبر سنة ١٩٠٨ وقرأه الذين سمعوا هذه الوشاية ، ولو لم يكن شقيق الذى أشاعها عزيزا على لذكرت اسمه (١) ، ولكننى عندما شعرت بالضنك ، اتجهت كعادتى الى الله وجعلت عليه اعتمادى ، وقلت بصوت مسموع لى - فأننى لم أكتف بحديث النفس - كلما وقفت فى مفترق الطرق وخيرت بين الشرف والفضيلة مع الضنك المصاحب لهما وبين غيرهما مما قد تصحبه مذلة ويسر ماذى واخترت الطريق الأول ، رأيت توسعة من الله ولم يخذلنى أبدا ، وقد وقع لى مثل هذا بضع مرات ، فلم أتردد فى هذه المرة وصممت على أنه لابد من بقائى على رأبى الأول ، ففيه كرامتى وفيه تفويض أمرى الى الله وفيه بياض الوجه ولو كان خصومى سود الوجوه ، وما أقبح من قال وأظن اسمه كان سلما تلميذ بشار :

من راقب الناس مات غمما وفاز بالذلة الجسور !

وفى رأى الاول أيضا حريتى المطلقة وهى لاتعدل بمال وفيه رزق مستور قد يربى على أرباح الوظيفة ، وفيه بقائى فى القاهرة فى وسط الحركة العقلية والسياسية والكتب والأقلام والأدباء والأندية والحياة العامة • • الخ •

(١) هو المرحوم على فهمى كامل شقيق مصطفى كامل •

وان كان الباشا أفرانى بالعمل فى مكتبه ، الا أنه قد يترتب
فينقل فيجئى من ينقلنى الى أقصى الصعيد أو الريف فأقضى بضغ
سنين فى العلوات فى « بور » فاص جزبى ومأمور مرتز أو على
قهوة « ينى » أو « ماركو » وهى الوحيدة فى القرية أو البلدة
الصغيرة .

وقد ثبت لى بعد ذلك أن هذه كانت أوهاما قد اخترعها خيالى
لتقوية نظرية الرفض .

ثم ماذا أقول لأهلى وأصدقائى الأوربيين أمثال بلنت ولأمير ؟
وهل عجزت عن الكسب من المحاماة التى خرجت أمتال الهلباوى
وأبى شادى وأحمد لطفى وهم أصدقاءئى على فوارق السن وقد
وعدونى فى جنيف وباريس وبروكسل وليون ، كما وعدنى
أحمد عبد اللطيف ومحمود أبو النصر (١) وعثمان محمد ومحمد
عبد الوهاب فى باريس ورومة بأن يسهلوا لى خطواتى الأولى فى
المحاماة وقد استعددت لهذه الصناعة وأحببت فيها نصره الضعفاء
والأخذ بيد المهضومين والمظلومين ؟

وكانت الحجة الأخيرة هى الآتية : لنفترض أن لدى مواهب
كما يزعم الناس ، فإذا كان فى صف الحكومة أرباب مواهب معروفة

(١) محمود أبو النصر أحد أعضاء الحزب الوطنى القدامى الذين شاركوا
مصطفى كامل ومحمد فريد فى العمل السياسى وكان أول المكتتبين فى شركة جريدة
« لتندار اجبسيان » و « ذى اجبسيان ستاندارد » ، وله مواقف وطنية مشهورة
تحمل بسببها العنت من سلطات الاحتلال البريطانى (أوراق محمد فريد ، المجلد
الأول ، مذكراتى بعد الهجرة ١٩٠٤ - ١٩١٩ ، سنة ١٩٧٨ ، ص ٥١) والى
جانب ذلك كان من أصحاب الأقلام ، وقد رأس تحرير مجلة الموسوعات « بعد
تخلى أحمد حافظ عرض عنها .

يخدمون السلطة الحاكمة ، فلم لا يكون في صف الأمة أرباب مواهب
يخدمون الأمة المحكومة ؟ • هذا وأنا لا أعترف لنفسى بشئ بل أقوله
تمشياً مع أقوال الناس وتسليماً جديلاً بصحة رأيهم •

وشارفت الأيام التي حددتها لاعطاء الرأي للمخرجون ثروت باشا
على الانتهاج ، فقلقت وخشيت صدمة الرفض عليه وصدمة المقابلة
بالمثل على ، وأخيراً ذهبت وقابلت رزق بك وأفضيت إليه بكل ما جال
بنفسى ، فتأمل قليلاً ثم قال لى - وكان نوع من الصداقة قد
نشأ بيننا :

— اسمح لى أن أخطئك ، فكل الذى ظننته أوهام ، فلا أحد
يلومك على خدمة وطنك فى الحكومة ، واعلم يا أخى أن كل شئ فى
مصر بيد الحكومة ، ومن كان خارج الحكومة لا يعمل شيئاً ولا يصل
الى شئ ، ألا ترى أن كلهم ينتهون بوظائف الوزارة ؟ ولا يلومك
الاحساند أو حاقه أو جاهل ، انك تضمن عملك أولاً وتفقنه أينما كنت
ثم لا تبالي ، هل الحكومة وقف على فريق دون آخر ؟ هل كانت العقبة
فى طريقك ان سعييت فى التوظيف أن يحتجوا بأفكارك المعلومة لهم ؟
فما داموا قد تخطوها فلا بد أن تقبل • لا تؤاخذنى أنا لا أعرف
ظروفك ، فقد تكون غنياً جداً ولست فى حاجة الى العمل ولديك
ايراد وافر ثابت ، ولكن رغبتك فى سرعة القيد تدلنى على أنك تريد
أن تستثمر مسرتك وسوف تبقى عاماً فى التميرين حتى تعرف نظام
العمل ، فان العلم شئ والعمل شئ آخر ، ولا أدري متى يأتى
لك ربح ، ولا بد أن تندمج فى مكتب محام كبير قبل أن تستطيع أن
تقبل دعوى واحدة ، وليس الأمر بالسهل وليس الربح مضموناً
ولا منتظماً ، أما الآن فانك تقبض فى نهاية هذا الشهر وتنظم حياتك
وتستقر فبرقة ، بالك وتروق لك الحياة ، فان أردت رأيي فاقا
نصيحة الرجل •

فى تلك اللحظة حدث لى كما يحدث للغريق ، لقد استعرضت تاريخ حياتى فى طرفة عين ورأيت مواقفى فى الدفاع عن وطنى ضد الحكومة والقصر والاحتلال ومشهد مصطفى كامل وخطبى وكتبى ومقالاتى وقلت أبدا أسداً وأنتهى ثعلبا ! . ان قبولى بمنصب حكومى من أخلاق الثعالب ، وكنت واثقا من اخلاص رزق ميخائيل الذى اشتغل بالقضاء ثم المحاماة بعد ذلك وما يزال على قيد الحياة (١٩٤١) وهو صهر الأستاذ مرقص فهمى ، وانه خال من الغرض وبعيد عن الظن ولم يعرفنى من قبل وان سمع باسمى أو قرأ شيئا عنى فقد نسيه ، وتفضل فبشرنى بمستقبل حسن ثم قال : ألقايله اليوم . قلت : ان موعدنا غدا قال : خير البر عاجله . وكان كلما ألقى قويت المعارضة فى ذهنى وخشيت أن أضعف أو أتردد ، فنهضت وقلت : غدا ألقايله .

وخرجت ولم أعرض أمرى على أحد ولم استبشر أجدا ، وكان الناس يقبلون على فى الطرق بالتحية والتجمل فأظنهم يكرمون فى الآباء والمحافظة على المبدأ ، وأنهم لو اطلعوا على نيتى لازدادوا محبة لى ولو اطلعوا على ترددى لمقتونى !

هكذا كنت أقدم رأى العمام وأحترمه وانا الذى أعرف الناس منذ عشر سنوات على الأقل ومرت بى بعض الأحداث فى المؤتمرات وفى ليون كشفت لى عن كثير من طباعهم وتقلبهم ولؤمهم ، ولكن كنت أقول ان مصر لا تغلو من الأخيار والفضلاء والمخلصين الذين يقدسون الحرية والكرامة .

وذكرت ما قاله لى مصطفى كامل سنة ١٩٠٦ أو سنة ١٩٠٧ فى إدارة جريدة اللواء اذ كنت أقدم له نسخة من كتابى « تحرير

مصر « (١) فى جمع حاشده من الباشوات بعضهم لا يزال على قيد الحياة وبعضهم ذهب الى رحمة الله ، قال لى بعد أن هنأنى ووعدنى بقراءة الكتاب وتقريله فى اللواء :

— اسمع يا لطفى ، ماذا ننوى ان تعمل فى حياتك عند اتمام دراسته الحقوق ؟

قلت : لا أعلم والله يا سعادة الباشا ، وعندما آمنها يوجهنى الله توجيهها .

قال : اياك والاشتغال بالسياسة دون أن يكون لك عمل ثابت ومورد رزق معروف ، فانهم فى مصر يسمون الخادم العام المتفرغ لمصلحة الوطن بالنصب والاحتيال . كما يفعل الآن الشيخ على يوسف ضدى ، ولو اننى اشتغلت بالمحاماة ولم انقطع لخدمة الوطن عن طريق السياسة كنت ربحت اموالا وفيرة واحتفظت بصحتى وضمنت السعادة لأهلى وأسرتى ولكننى فضلت المصلحة العامة على المنافع الخاصة فكانت النتيجة كما ترى !

هذا ما قاله المرحوم بنصه قبل وفاته بسنتين فى محفل من الباشوات ذكرهم لى رحمه الله بالاسم عنده نهوضهم لتحيتى ، فأمنوا على ما قال وربما لم يفطنوا الى أنهم هم المقصودون بأسفه وألمه ، لأن منهم ومن أطيانهم تتكون الأمة والبلاد ، وفى سبيلهم

(١) كتب لطفى جمعة عن كتاب « تحرير مصر » ما يلى « هذا الكتاب نقلته من الانجليزية فى السنة التاسعة عشرة من عمرى بالقاهرة وعريته فى أسبوع منه أيام عيد الأضحى سنة ١٣٢٣ هـ (١٩٠٦) بمنزل نمرة ١٣ شارع سنجر الخازن بالحلمية الجديدة بالقاهرة . » وقد أهدي لطفى جمعة هذا الكتاب « الى الشعب المصرى الكريم » ، وقد نشر هذا الكتاب سنة ١٩٠٦ .

قضى فى ريعان الشباب ، رحمه الله رحمة واسعة ما كان أبعد نظره وأصدق فراسته وأعلمه بأخلاق أمته !!

ان المصريين أنفسهم هم الذين يصفون قادتهم بالتدجيل اذا اشتغلوا بخدمتهم العامة وليس الأجانب ، لأن الأجانب يقدرّون الحياة العامة والخدمة العامة ويقدرّون رجالها ، أما المصرى الذى تنفرغ لخدمته ، فهو أول من يصفك بالتدجيل ، بل لعله الوحيد الذى يفعل ذلك •

ما كان أشد حب مصطفى كامل لله والناس ! لقد نصحتنى وأخلص النصيح وأعاننى مادام حيا ، فلما مات خلف وراءه ذئابا وثعالب وأبقارا ، تجارثهم كلام ومبادئهم أوهام ورأس مالهم أكاذيب منمّنة وغايات مزوقة ، ومقاصدهم حياثل •

تذكرت كلامه وأنا أسير فى طرق القاهرة لا أأتمن أحدا على سرى خشية أن يشينى عن عزمى على رفض الوظيفة التى عرضها على ثروت باشا •

لقد كان فيها الأمن والضمان والمعاش وراحة البال وأبهة الحكم وتحيات الحجاب والشرطة والقاب الشرف وشمخة السلطة وفسحة الأمل فى الترقى وصحة البدن وفرحة الزواج من بيوت الكبراء الذين يفضلون أصغر موظف على أكبر محام ، والاجازة السنوية برزق جار وحفظ مستقبل السسل اذا أتى ، وكنت أقدر ذلك كله وأفهمه وأزنه بميزان المنطق وكان عمري اذ ذاك خمسا وعشرين سنة وكنت محاميا فى المختلط وعلى وشك أن أصير محاميا أهليا ، وقرأت ودرست واختبرت وكتبت وحطبت وطبعت ونشرت وخضت غمار السياسة والاجتماع ، فام اكن غرا ولا طائشا ولا عميا عن المنافع المادية ، وأعلم أن أصغر موظف محاط بضمانات أبدية ، وأكبر

عامل حر محاط بالمخاطر والأشواك ، ومع هذه كلها صممت على
الرفض •

قلت ان أهلى الأحياء الذين يهمنى أمرهم والد وجدة وخالة
وهم على حال من اليسار ، فلو مت قبل هذا كانت فجيعتهم فى
شخصى لا فى مالى ، فلاأفترض أننى مت وأننى بعثت محاميا ، فهناك
بعض الأمل لهم ، أما لو قبلت الوظيفة فإن روحى تموت وضميرى
يؤنبنى ، وصممت فى نفس الوقت على المحافظة على ميدئى •

ودخلت على الرجل الكبير فى مكتبه وحيينه فقال لى أهلا
وسهلا ان شاء الله تكون صممت ، وأخذ يدي بين يديه يما يدل
على العطف والتشجيع ، فقلت له ولعلنى كنت ممتقا :

- نعم يا شعادة الياسا صممت على أن أخبرك بعجزى عن
شكرك وعرفان جميلك وعدم نسيان يدك الكريمة ، وصممت على أن
أشتغل محاميا •

فانقبض الرجل واعتدل فى مقعده وحوله عنى قليلا
طلب لى قهوة وقدم لى سيجارة فاعتذرت عن عدم التدخين ، فأشعل
هى سيجارته ثم قال لى :

- هل فكرت أيها الشاب (كذا) فيما عزمت عليه ؟ وهل
صممت على رفض ما أشرت به عليك ؟ • لم يدفعنى اليه الا حذائى
والضن بك •

قلت : نعم فكرت •

قال مغضبا وهو يبتسم فأدهشنى :

— وهو كذلك .. أتمنى لك مستقبلا سعيدا .
 ونهض لتحييتي ، فلما اتجهت نحو الباب قال لى :
 — اسمع ان قيد اسمك لا يمنعك فى المستقبل القريب ان
 أردت أن تعود الى رأى .
 فقلت له : يفعل الله ما يريد .
 وخرجت « ولطعتنى » اللجنة بعد ذلك ثلاثة أشهر ، وعلم
 رزق بك بما حدث فازور قليلا وأخيرا قال لى : سنبلك ب خطاب .
 وفى اعتقادى أنه كان فى رأيه يريد لى الخير كله ولم يكن
 يعلم بكل ما جال بخاطرى .

وعدت الى بيتى فى شارع شيتى بك بشبرا ، وكم هموم
 كابدتها فى هذا البيت وكم عانيت فيه من التعب !

وفى يناير سنة ١٩١٢ تقييد اسمى فى جدول المحامين (١)
 فتقييد جسمى وفكرى وعقلى وقلبى بحبال من مسد اتقنت جدلها
 وأجادت حبكها صنعة المحاماة . ولا أحب أن أدعوها مهنة ، انها
 تفتن الراغب فيها ولا تزال تغريه بذاته حتى تملكه وتستأثر به
 وتتسلم زمامه وتخلب لبه وتسجر عقله فيمسى بعد بضع سنين
 وهو لا يستطيع الافلات منها ولا يفكر فى الخلاص من قيودها ويعود
 من استسلام لها بحيث لا يفدر على محاولة النجاة مما وقع فيه
 باختياره .

(١) بعد أن أمضى لطفى جمعة فترة التمرين اتخذ لنفسه مكتباً للمحاماة برقم
 (١٥٢) بشارع محمد على بوقف السيد شريف باشا الكبير ، وقبل للمرافعة
 أمام محكمة الاستئناف العليا فى ٤ مايو سنة ١٩١٥ ، وقيد اسمه بجدول المحامين =

قال الأستاذ ويصا واصف رئيس مجلس النواب وهو من
أمجاد أبناء هذه الصناعة في حفل تكريم الأساتذة المحامين الذين
صاروا وزراء (ابريل سنة ١٩٢٨) ان المحامي ملك عظيم لانه
لا يقدم حسابا لأحد الا لله ولضميره .

صحيح يجوز أن يكون في هذا التمثيل شبه حق ، يجوز أن
يشعر محام بهذا الشعور الجميل السامي ولكن في البندرة ، مرة في
العمر ، وهذه المرة لا تتجاوز برهة قصيرة ولا يدري أحد مقدار
الآلام التي يقاسيها ذلك المحامي للوصول الى هذه الدرجة من الرفعة
المعنوية الخيالية .

ويجوز أيضا أن يتمتع ببعض هذا الوصف محام فحل في
بعض جمهوريات أوروبا أو في مملكة الانجليز ، ولكن بعد أن يصل
الشبيب الى أهدا عينية من هول مواقف الشرف والنزاهة والحدق
والمهارة وحتى يصل به جلال العبقرية وجمال الفضيلة الى ذروة
الكمال الفني .



= المقبولين أمام محكمة النقض والابرار في مارس سنة ١٩٣٥ ، وظل يزاو المحاماة
بهذا المكتب الى أن تركه في مارس سنة ١٩٣٨ ولم يتخذ بعد ذلك مكتباً وان
ظل يزاو المهنة بمنزله برقم ٤ شارع الاسيوطى بمنشية البكرى حتى طلب
احالته الى المعاش في مارس سنة ١٩٤٨ بعد أن بلغ الثانية والسنتين من عمره
وبعد أن قضى في المحاماة ستة وثلاثين عاماً .

(٢)

اختيار « سجيل » الحرية والكرامة

لقد عدت من أوروبا وأنا أردد أنني لست الا ملك الوطن . فكيف أضن بنفسى على الوطن ؟ وكيف أنتقل من جهادى المتواصل من سنة ١٩٠٤ الى سنة ١٩١٢ الى وظيفة مستريحة ومكانة آمنة مطمئنة فى أحد دواوين الحكومة ؟ كيف أنتقل الى هذه كلها دون جهاد أو كفاح وأنا لم أشف نفسى من النضال فى معترك الحياة ، ذلك النضال المقترن بحرية الفكر والقول والعمل ؟

لم يكن يخيفنى من الوظيفة أن يتحكم فى رئيس مستبد أو يرغمنى على نفاق لا تقبله نفسى حتى يكسر من حدتى ويجعلنى قابلا كل صورة من الذل والهوان لأصبح موظفا مصرية نموذجيا يخضع لكل سلطة وينفذ كل أمر ويتبع كل اشارة ولو كانت بالعين والحاجب ويفقد شخصيته ليتفانى فى منصبه . . لم أتهيب جانب الاخضاع لأننى كنت أعتقد أنه لن يقدر أحد من الخلق على اخضاعى ، ولكننى تهيبت مغبة الخروج على مبادئى ، وأعترف بأننى لم أحسب حساب الحاجة المادية ولم يدخل فى نفسى رعب من هذه الناحية اعتمادا على عقيدة لم تفارقنى وهى ضمان الرزق فى الغيب اذا اقترن الاعتقاد بالاجتهاد والسعى والأمانة فى العمل .

وها أنا ذا قطعت فى هذا الشوط ثلاثين عاما ولم أغير رأى ورأيت أمامى كتاب حياتى منشورا ورأى صفحة صفحة وسطرا سطر . وتكدست التجارب حولى وأمامى أكواما حتى ليتمكننى أن أحكم حكما صادقا مبنيا على النظرية والعمل ، فأقول لو كنت فى

سنة ١٩١٢ - وأنا في الشباب - على خبرة سنة ١٩٤١ ،
 أى لو كشفت لى فى سنة ١٩١٢ حجب الغيب عما سوف ألقاه فى
 ثلاثين عاما من الاكاذيب والخيانات والفساد والنفاق وخيبة الأمل فى
 الناس والأشياء والمبادئ فى بلد كمصر ، لما تحولت عن فكرتى
 هذه ، أى أننى لو أتيت لى من جديد أن أختار خطة لحياتى مع
 اختياري الذى كسبته وآمالى التى خسرتها ، لاخترت الطريق التى
 سلكتها ، فأننى لم أندم قط ولم أسف ، فأهم شيء لى المعرفة ،
 فلو لم أختار هذه المسكة الشائكة لما تهيأت لى ظروف المأساة ،
 وأنه أحب الى أن أموت وقد ذقت الحلوى والمر من أن أنقض حياتى فى
 أقل الدقائق دائما ، هذا اذا كان فى وسعك أن تضمن أن تكون خطة
 حياتك التى لم تختارها آمنة من كل خطر وبعيدة عن كل مفاجئة
 رمسية من كل سوء ، وهذا أمر بعيد الاحتمال جدا ولكن لننخبه
 كذلك .

وها أنا ذا قد اخترت فيما مضى سبيل الحرية والكرامة ،
 فحسنت حالى فى كل مرة ولم يكن فى زمنى قد استجد عادة رجوع
 الوزراء الى المحاماة بعد التخلي عن مناصب الوزارة ولاقنع وزير بأن
 يعود الى القضاء ولو كان مستشارا ، فقد صاحب دخولى فى هذه
 الصناعة تأسيس النقابة لحادث أصاب محامين ألقى عليهما
 القبض ، أحدهما لأسباب سياسية والآخر لاعتداء أحد القضاة عليه ،
 وهكذا فى مصر لا يبدل مجهود فى حفظ الكرامة الا اذا ديست تلك
 الكرامة وأرغم أصحابها على الدفاع عنها بدمائهم ولا تسدد الحقوق
 الا اذا وثق المدين من أنه لا مناص له من الدفع حيا ل قوة القاهرة .

(٣)

فترة التمرين

التمرين في مكتب اسكندر عمون - العمل أمام المحاكم المختلطة
عدالة القضاة نيهولم

اكتشفت أول صدمة أخلاقية عقب عودتي من فرنسا سنة ١٩١٢ أى منذ ثلاثين عاما ، فإن جميع المحامين الذين عرفتهم في مصر وأوروبا وصادفوني وتطوعوا بوعود شتى خاصة بعمل في المستقبل ، أى بعد عودتي من اتمام الدراسة - قابلتهم في مصر بعد قيد اسمي في جدول المحامين وطلبت اليهم الوفاء بوعودهم فاعتذروا جميعا أعذارا ذميمة ما عدا اثنين هما المرحوم حسن صبرى باشا المتوفى في رئاسة الوزراء سنة ١٩٤٠ والمرحوم اسكندر عمون ، فإن الأول اعتذر عذرا جميلا والثاني استقبلني مسرورا وأشركني في عمله بعقله كريم .

فتد كان على أن أتقدم الى المحامين من مشاهير الطائفة لأقضى عام التجربة والتدريب في مكتب أحدهم ، وكانوا كلهم أصدقائي وكانوا كلهم وعدوني في ورطاً ردص أن يتعهدوا خطواتي الأولى في هذه المهنة المباركة ، فقابلتهم واحدا اثر الواحد ، فاختلفوا في حسن اللقاء والترحيب وتكرر معظمهم واعتذروا بأعذار واهية ، فقال أحدهم انه ليس لديه مكان ، أى غرفة بمكتب ، وأن مكتبه ضيق النطاق لا يتسع لمنضدة وكرسى فهو آسف ، وقال آخر انه لا توجد لديه قضايا جزئية بتاتا وتتل قضاياها في الاستئناف العالي والناقض والابرار ، وقال ثالث اننى استمتع أن اتقاضى أجرا على عملي وهو لا يملك أن يدفع لى اجرا ، فلما قلت له انى قابل أن أعمل

بغير مقابل مدة عام ، قال لى ان ضميره لا يسمح بتشغيلى مجاناً ! .
وقال آخر أمهلنى يا ابنى شهراً حتى افكر فى الموضوع
وأتخذ له عدته .

وكانت خاتمة المطاف عند المرحوم حسن صبرى بك (صار فيما
بعد رئيس الوزراء) ، فلفينى هاشا باشا الى أن عرف غايتى من
زيارته ، فلما رفض واطمان الى هدوئى قال لى وهو يودعنى :

— يؤلمنى أن تنصرف دون أن تعرف حقيقة الدافع لى على
الاعتذار ، وانى مصارحك لعلمى بأنك لا تبتئس ولأريح ضميرى
وضميرك . واعلم أن رجلاً مثلك لا يقبل على معاونته كبار المتهمين
لأسباب ، واولها أنك مشهور شهرة سياسية قد تخرج موقف بعضنا
من لا يالفون سياسة التزب الوطنى ، وثانيها أنك قد يدفك
حب العمل الكثير فتستدرج عملاءنا فيرغبون فيك كعادتهم فى التعلق
بكل جديد وقد سبقت لنا تجارب فى هذا الباب فزاحمنا الذين
رببناهم ، والسبب الثالث أن أحداً يهرن أخاه أو ابنه أو « ختنه »
أى الرجل الذى لا يخرج عليه أو رجلاً ظاهر العجز حتى اذا تركه
لا يفالج بعده ، فهو فى حاجة اليها أكثر مما نحن فى حاجة اليه ،
وكل من يقول لك غير ذلك فقد كذبك ، وكل من يعتذر لك بغير
هذه الحقائق فانما يخفى وراء اعتذاره خوفه على مصلحته وخوفه
منك لظنه الكفاية فى شخصك ، ولك أعمال قديمة فى الصحافة
والكتابة والخطابة ، وانى لا أقفل مكتبى دونك ، فأنا مستعد أن
أشير عليك أو أفتيك فى مستقبل الأيام اذا احتجت الى ذلك من
حين الى آخر ، أما العمل المنظم والارتباط ولو بغير مقابل فلا !

وكان هذا هو الرجل الوحيد الصريح الصادق الذى رأيت فى
خمسة عشر محامياً من فطاحل هذه الصناعة فى مستهل العقد الثانى
من هذا القرن ، رحمه الله وطيب ثراه فقد عاملنى معاملة الوالد

والصديق في هذه المسألة الوحيدة ، ولم أره بعد ذلك الا متراعا في المحاكم وقد حملت له حبا حتى نافرت المرحوم أحمد رأفت بك المحامي عندما رأيته يتراءى ضد حسن صبرى بك في قضية شخصية رفعها صبرى على وزارة الأوقاف مطالبا بتسوية مدفاته بعد أن كان رئيسا لقلم قضاياها وقد حل محله رأفت فرأى من حسن اللياقة أن يقف ضد زميله في مطالبته بحقه ، ولم ننزع الورقة نى ذلك الزمن - ولعلها كانت ما ترال ديوانا تحت اشراف أحمد شفيق باشا صاحب مذكراته في نصف قرن - لم تتورع عن تعريض كرامة الاثنين للضياع ، فكان صبرى بك ذا كرامة وعفة وأدب وعدل وكان رأفت متعاملا جافيا ، ولعله ظن أنه اذا خسر هذه الدعوى فقد منصبه في رئاسة قلم القضايا ، وسألت في ذلك فعلمت أنه متعاقد لثلاث سنوات أو خمس وأنه لا يفقده أبدا ، ولكن شدة حرصه دفعته الى ما فعل ، وسمعت المرافعة كاسف البال متألما ، ولكن رأفت نفسه وقف نفس هذا الموقف مع خلفه بعد ذلك ببضع سنين !! •

انا ادون هذه الحوادث كأننى أراها وأسمعها الليلة ولا أحرص على الوقت والقوة التى أصرفهما فى تدوينها ، فانى ان لم أجد الوقت لكتابة مالا يقدرو على كتابته عنى سوى فلا خير فى الحياة !

خرجت من مكتب حسن بك صبرى ضيق الصدر مرتاح الضمير فياله من تناقض ! ، وأخذت سمى الى رجل سورى فاضل كان يظهر لى المودة ، فكلمته فى الأمر وطلبت منه أن يدلنى على محام من غير هذا الطراز ولم أبد له الأسباب حرصا على كرامة قومى وكبار صناعتى وبعض قادة الراى واصدقائى الحميمين ، فدلىنى على مكتب المرحوم اسكندر عمون بك وهو رجل تشكره عظامى فى قبرها •

لم أكن رأيته من قبل ، فلما رأنى أقبل على اقبال الوالد الحنون على ولده وبذل فوق طاقته لتطمينى ولم يسألنى عن سبب

التجاني اليه دون الالتجاء الى المحول من أهل ديني وبلدى الاصلاء
الشرفاء ، ولكننى رأيت من واجبى أن أصارحه بكل ما حدث
بالتفصيل ، فابتسم وقال : لا عليك - طال عمرك - ستعلم الأسباب
الصحيحة بعد حين .

واننى أنتهز هذه الفرصة لأثنى عليه وعلى أهل بيته وأنجاله
وكريماته وعلى كل من يمت اليه بصلة . وقد عشت فى أكفاه
عاما كاملا وهيا الله لى أن أخدمه وأنفعه وأن أرضيه وأن أعوض
عليه كرمه وادبه وسمو نفسه ولكن جميل هذا الرجل الفاضل
الشريف لا يرد بقناطير الذهب ، فاننى لم أشعر عنده يوما بنقص
فى حريتى أو رغبة فى استغلالى أو تفصير فى مكافأتى أو تقصير
فى تعليمى وتدريبى أو رغبة فى حجبى عن خاصة عملائه أو عدم
اقرار بعمل مهمما كان تفها ، فضلا عن تشجيعى وتبشيري
بمستقبل حسن .

كان هذا الرجل الفاضل رئيسا لعبد الخالق ثروت باشا
أيام كان فى خدمة الحكومة المصرية ، فانه وصل الى منصب رئاسة
احدى المحاكم وكانت تربطه بثروت باشا أواصر صداقة متينة حتى
ان النائب العمومى لم يكن يرد له طلبا ، فقصده اليه زميل أرمنى
الجنس وطلب وساطته فى تعيينه فى وظيفة بالنيابة العمومية ،
فحكيت له ما وقع بينى وبين ثروت باشا منذ بضعة أشهر وعرضه
على ما طلبه الأستاذ الأرمنى لنفسه ، فعجب ثم سكت وسعى
للأرمنى فوظفه وما زال يترقى الى أن توفى فى منصب مستشار
بالاستئناف .

لم يكن التزامى على الوظائف فى تلك الفترة على شىء من
التكاليف الذى نراه الآن أو قبل الآن بعشرين سنة ، ولم يكن السادة
الباشوات قد تفتحت أعينهم الى أن الحكومة « تكية » مضمونة وأن

الكفاية فيها ليست لازمة وأن الابن أحق من ابن الأخ وأن الأخ أحق من الصهر والصهر أحق من ابن الصديق وابن الصديق أحق من المحسوب والمحسوب أحق من أنبغ الرجال وأصلحهم لاشغال الوظيفة المرموقة !! ؟ وأن تراب الميرى كان ما يزال نرابا عاديا ، فاصبح رملا ذهبيا ناعما ثم زعفرانا عطرا ثم تبرا ، فلا ينال التمرغ فيه الا كل أصـمـيل فى الغنـس ، عريق فى « النسب » ، مطواع فى العمل ، وان الوظيفة أمنية تبذل فى سبيل تهقيفها الأرواح والأموال وكل مرتخص وغال ، بل وما هو أعلى من الأرواح أحيانا .

كانت السنة الأولى فى المخاضة فى أكتاف اسكندر عمون بك
من أسمعده أعوام الحياة ، فقد رجاني حافظ رمضان باشا برابطة الحزبية أن أباشر قضاياه أمام محكمة الجنائيات لأنه ظن بى خيرا ، فعملت له بدون مقابل لأكسب خبرة ولأقيس قوتى فى محكمة عليا كانت نفسى تتوق اليها من زمن طويل ، وقد حصلت على أحكام كثيرة بالبراءة ولم أحصل على دائق ولكن كان يلد لى أن أدرس القضايا وأحسن الدفاع فيها وأنفق من مالى ووقتى لأفوز بانتصار ، وما يزال حجاب المحكمة الذين رأيته منذ ثلاثين عاما هم هم لم ينش عود أحدهم ولم تبيض شهرة فى رأس معظمهم ولم تتجدد خطوط جبينهم ولم ينحن ظهر أحدهم ولم تؤثر قصص الحياة ومآسى الدنيا فى عواطفهم ، ولم تضعف نبرات أصواتهم ولم يتغير لون ثيابهم الزرقاء المحلاة بزراير النحاس اللامعة ، ولم يتغير أدبهم ومجاملتهم وعفتهم فى طلب المكافأة البريئة عندما يؤدون لنا خدمة بريئة أو البشرى بنجاح قضية ، وهم عدا عن هذا كله كنز معرفة ومعين أحاديث طلية لا تنضب وذكريات لا تخلو من فكاكة وطرب ، وكانوا من الوفاء للقضاء بدرجة فائقة ، فان أحدهم - وكان حاجبا خاصا لمستر بوند وكيل محكمة الاستئناف ورئيس محكمة النقض طوال مدة وجوده - لم يطق الحياة بعد اعتزال القاضى الايرلندى فذبح نفسه بموسى فى محكمة الاستئناف نفسها ، وقيل انه لم يكن يرى

فيمىن استخخدمه بعد مستر بوند موضعا للحنان فرأى الحياة غير خليقة بأن يحرص عليها ، ولم أعلم برجل من كبار الموظفين فى هذه المحكمة أو صغارهم قد انتحر قبل هذا الرجل أو بعده ، وقد يكون أحدهم قد ناله من الهوان أكثر مما نال هذا الحاجب ، فهل كان أقلهم عقلا وإيمانا أم كان أكثرهم كرامة ؟!

كانت هذه السنة الأولى سعيدة حقاً ، فقد تقدمت الى المحكمة المختلطة فى قضايا كثيرة ، فأجبت تلك المحاكم واحترمت قضائتها ، ولا سيما الموسيو نيهولم اللندركى كان أعذل قاض وأعظم رجل على الفلاحين المصريين، ورأيت بهيئى يحطم رؤوس المراكين من اليونان الذين امتنعوا معظم دماء هذه الأمة ، أى حطم رؤوس أموالهم وكسر شوكتهم ودمغهم بأحكام عادلة بلغت أسباب بعضها سبعين صفحة .

وقد سمعت الحوار الآتى بينه وبين مراب كبير فى قضية مرفوعة من فلاح بسيط اسمه أحمد منصور العزب من إحدى قرى القليوبية :

الرومى : أنا غنى جدا .. أنا عندى مائة ألف جنيه .. أنا لا أسرق
هذا الفلاح الفقير .

نيهولم : اسكت يا خريستو والا أمرت باخراجك .

الرومى : أنا راجل غنى كبير .. ودى راجل مسكين مس يمسك
عسرة قرش .. أنا موش ممكن أكون حرامى (كذا) أنا رجل
سريف (شريف) أنا عندى مائة ألف جنيه .

نيهولم : لقد جمعت هذه الثروة من مجهود هذا الرجل وأمثاله ،
وهذه وقائع القضية تثبت ذلك .. فهذا الذى تقوله
عليك لا لك .

وصمت الرومى ولم يجب بشىء •

ولم يلبث نيهولم بعد ذلك ان نقل الى محكمة العدل الدولية
فى لاهى فاحتفل به القضاء والمحامون وقدموا له باقات الأزهار يوم
سفره وكان على افريز المحطة شيخ فان هو أحمد منصور العزب
يعتمد على عكاز ولسانه يلهج بالدعاء للقاضى ويهتف « روح الله
ينصرك وينصر كل مظلوم على يديك » •

نعمرك لا تظن أن أغنياء مصر وكثيرا من باشاواتها وأعيانها
أرباب الآلوف من الأقدنة يفلون عن خريستو الرومى ظلما لفلاحهم
ومستأجرهم ، ولكن رعب الفلاحين المظلومين من ظالميههم أكبر من
رعب العزب من ظالمه الأجنبي ، فانهم يؤجرون للفلاح ويأخذون عليه
عهودا وعقودا مهورة بامضانه أو ختمه ولا يعطونه مثلها زاعمين أنهم
موضع الأمانة والشرف وأن حسابهم لا تتسرب اليه شائبة وأنهم
ليغالطون ويفشون ولا يبالون ، ولولاهم ما تعلم الرومى ولا تجرأ
على نهش لحم ابن البلد ، ولو وجد الرومى من يعتذر له من بنى
جلدته أو مستخدميه وحاشيته ، فمن يعتذر لهؤلاء الباشوات
الاقطاعيين والأعيان أصحاب الأطيان التى يعجز عن حصرها العدد
والذين كدسوا فى حياة جيل واحد ما لم تستطع الفراعنة أن
تجمعه ، فمن لنا بنيهولم ثان بل عشرة من أمثاله !؟

كان الاستمرار فى العمل أمام المحاكم المختلطة والمحاكم
الأهلية أمرا مستحيلا ، لأن الأولى تقتضى أن تلازمها طول أيامك
وتنقطع لها ، وانهما كالضرتين ، ولكن الضرة الأهلية تسمح لك
بقضاء أعمالك فى سعة وفسحة من الوقت ، أما الثانية فشديدة
الغيرة ، ثم انها أوفى وأرحب للأجانب وكل متقاض لديها يقصد الى
بنى جلدته حتى المصريين يحسنون الظن بالأجانب لظنهم أنهم يتقنون
الفاهم مع القضاة بلغاتهم أحسن مما يصنع المصريون ، وهذا وهم

لا شك فيه ، ولكن الحق أن أقدامنا لا تثبت هناك حتى لو كان أحدنا قاضيا سابقا بتلك المحاكم كالمرحوم اسماعيل الشيمي بك ، أو كان ذا مكانة عالية في اللغات كالمرحومين عمر واحمد لطفى بك ، ولذا لم أحاول أن أتعلق بأهدابها طويلا ، ولم يرد الى الا مظالم الفلاحين المنهوكين المطحونين بعد أن خسروا كل قضاياهم يحملون أكواما من الأوراق التي لا يتبينها الا خريج مدرسة الوثائق التاريخية ! ، فلا أجدها بعد العناء الطويل تجدى نفعا أو تعود على صاحبها بثمرة ، فكان مجهودى معهم ضائعا •

وقد بليت برجل تركى ينتمى رغم تركيته أو شركسيته الى دولة أجنبية وكان يقاضى وقفا كبيرا فواصلت له العمل أعواما رأيت فيها المتاعب ألوانا وانتهى بصلح منفرد لم يطلعنى عليه كشرط خصومه ، فكانت هذه القضية آخر عهدى بتلك المحاكم •

وفي تلك السنة رأيت رجلا غنيا عرفته فى أوروبا وهو امام المشاغبة فى هذا العصر بلا منازع • كان هذا الرجل يعيش ويمسى ويصبح ويسهد وينام ويحلم ويتيقظ من لذيذ الأحلام فى القضايا ، ويأكل ويشرب ويزهد فى لذيذ الطعام بسبب القضايا ، ويسعى ويكد ويجتهد ويطوى الأرض على قدميه ويمكنه أن يشتري الخيول المطهمة والعربات الغالية ولكنه يضحي بكل هذا فى القضايا ، وقد أهمل تعليم ابنه الوحيد على ذكاء الولد وحسن استعداده ليمرنه على السير فى القضايا ، فالمال عنده كل شيء وغاية كل حى وفسر قوله تعالى « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » بأن البنين لا قيمة لهم بغير المال ولكن المال له قيمته بغير البنين !!

ولا يخطرن ببال أحد أن هذا النوع من الرجال قد انقرض أو خفت وطأته ، انه ما يزال موجودا وأفراده أقوى وأهمر مما سلف !

وهناك آخرون يشربون مجهودك بفنجان قهوة وابتسامة ،
وآخرون لو يستطيعون قطع الطريق وقطع الوريد - وهم من السادة
الأغنياء - لفعلوا ، وآخرون يجدون من لين طبعك وسهولة خلقك
مدخلا الى حصن نفسك ليسرقوا ما استطاعوا !

وكنت أغضب من الجهلاء والفقراء المستغلين الى ان وجدت
خاصة المتعلمين وخاصة الأصدقاء وخاصة الأذكياء يفعلون هذه
الفعال ويتقنون تمثيل أدوارها .

قد تعذر الفقير أو متوسط الحال أو الجاهل اذا طمع فيك
وتوهم أنك غنى وقادر على أن تخدمه بغير مقابل وأن تعطيه من عقلك
وفكرك وهمتك ما ينقذه أو ينجيه أو يحفظ حقوقه ، ولكنك اذا وقعت
مع صديق ومتعلم وذكى وخبير بأحوال الدنيا ، فهذا هو البلاء
الأكبر ، وقد يبدل في القمار وفي سباق الخيل وعلى موائد الخمر
فى شهر ما يكفى أسيرة فى عام ، ثم هو يطعم فيك ويحرمك حقك
بعد أن يجلب عليه مجهودك خيرا كثيرا .

فاذا تناسيت يوما كل آداب اللياقة وفاتحت بلباقة وحسن
تعبير ، فاعلم أن هذا هو نهاية عهد صداقتك وآية رفع قناعه عن
وجهه وتكره وإعلان عدائه لك وافتتاح مقولاته عليك وبسط لسانه
فى عرضك ، لأنه أدرك أنك كشفتته فلن تلين له بعد ذلك فأصبحت
معدوم النفع له فلا يبقى عليك ، فاذا حدث أنك قاضيته ، فهناك
المجزرة والمذبحة والمحملة وأخلاق الطبقات التى لم يذكرها
التاريخ !

ذكریات عن القضاء والمحاماة

الدعوة الى ادخال نظام المحلفين فى محاكم الجنايات - نظام تلخيص القضايا - النكتة فى مجلس القضاء - قضاة ومحامون

فى شهر أغسطس سنة ١٩٢٣ وجهت الدعوة الى ادخال نظام المحلفين فى القضاء الأهلى ، وقد بدأت الدعوة بخطاب وجهته الى الأستاذ داوود بركات رئيس تحرير الأهرام نشر بالصفحة الأولى تحت عنوان « اصلاح القضاء الأهلى ، وجوب ادخال نظام المحلفين » (١) .

ومما جاء فى هذا الخطاب اننا أصبحنا الآن على أبواب الحكم النيابى ، فأصبح واجبا على كل مصرى أن ينظر ما تضمرة نفسه من الأفكار والمبادئ التى يظنها نافعة لأبناء وطنه ، فإذا صح أن يتغير نظام الحكم فى مصر من النظام المطلق وسيادة الأجنبى الى نظام دستورى شبه استقلالى ، فأول ما يخطر ببال المصلح النظر فى النظام القضائى الذى عليه مدار تقسيم العدل بين الناس وانصاف الضعيف من القوى والضرب على أيدى الجناة حتى يكفوا أو يدفعوا دينهم للهيئة الاجتماعية .

(١) نشر هذا الخطاب المفتوح بالصفحة الأولى من جريدة الأهرام فى :

١١ أغسطس سنة ١٩٢٣ .

ان أهم تعديل أدخله قانون سنة ١٩٠٤ على النظام المصرى هو ايجاد محاكم الجنايات الجديدة ، وعندما شرعوا فى وضع نظام تلك المحاكم ، عرضوه على رجال القضاء والمحاماة فى مصر ، فاعترض عليه كثيرون منهم ، وبكى القول بأن كل قاض ونائب ومحام اشتغل بهذه المحاكم وسئل عن صلاحيتها لا يتردد فى سرد جملة أوجه الانتقاد .

وأولها بطؤها فأصبحت بعض القضايا تؤجل جملة مرات أشهراً متوالية لأسباب تافهة ، وبذلك ضاع الغرض الأول من العدل الجنائى وهو السرعة فى القضاء للدعوى ، وثانيها نظام قاضى الاحالة فانه لا فائدة منه بتاتا ويندر أن يأمر بتحقيق تكميلى أو استيفاء واجب ، وثالثها جلوس قاض أجنبى فى تلك المحاكم لا يفهم لغة البلاد وعاداتها ، فلا يمكنه مهما كان عالما مخلصا أن يعطى العدل للناس ، ورابعا تكليف المستشارين بالقضاء فى القضايا المدنية والقضايا الجنائية فى وقت واحد بحيث لا تكون للمقاضى ذهنية جنائية *Mentalité criminelle* تمكنه من ادراك أحوال الجرائم والمجرمين على حقيقتها ، وظاهر مما كتب البارون جافالو فى كتابه الشهير « الاجرام » أنه يلجأ فى نهاية الأمر الى نظام التخصص الذى أصبح شائعا فى سائر العلوم والأعمال مثل الطب والتدريس والهندسة وغيرها . وخامس أوجه الانتقاد التى وجهت الى محاكم الجنايات نظام انتداب المحامين للدفاع عن المتهمين المعوزين ، ويحدث كثيرا أن المحامى المنتدب لا يستطيع اعداد الدفاع والاستعداد له على الطريقة المثلى لأسباب كثيرة يطول شرحها ويعلمها حق العلم جميع القضاة والمحامين .

وخلاصة القول ان محاكم الجنايات قد عاشت مدة كافية ويصح الآن أن تذهب من عالم القانون المصرى ، لا سيما وقد دخلنا فى عهد جديد يحتم اشراك الأمة فى كل شئ ، فعندا يكون

الشعب في مجلس النواب شارعا وواضعا للقوانين ، فيجب والحالة هذه أن يكون الشعب أيضا جالسا على منصة الحكم في محاكم الجنايات على طريقة المحلفين كما هي الحال في جميع ممالك أوروبا وأمريكا المتحدة .

ان نظام المحلفين هو حجر الأساس في النظام القضائي الأوربي والأمريكي ، وقد كان معمولا به عند الرومان في المدينى والجناى ، ثم اقتبسه الانجليز وأخذة عنهم كثير من الأمم اللاتينية والسكسونية .

ومبنى هذا النظام أن يفصل فى وقائع الدعوى الجنائية عدد من الأهالى يجلسون مع القاضى ويسمعون الدعوى ثم يبدون قرارهم عن وقائعها وبناء على هذا القرار يحكم القاضى بتطبيق القانون على الوقائع التى أثبتوها .

ولا ريب فى أن التجاء الأمم المتقدمة الى نظام المحلفين راجع الى جملة منافع وفوائد أجمع القضاة والمحامون والمتقاضون على امتداد نظام المحلفين من أجلها . لأنهم مهما تباينت مداركهم يحكمون الذوق السليم فى تقدير الوقائع ، ويندر أن يجمع اثنا عشر شخصا من أوساط الناس على خطأ ، لأن دأب الناس أن يراعوا العدل والانصاف أكثر من مراعاة نصوص القانون ، ويوفقون بين حكم القانون ومقتضيات الحياة .

ثم ان نظام المحلفين يربى الأمة على العدل والانصاف واحترام القانون والشعور بالواجب العام والقيام به بالاشتراك فى ادارة القضاء والإسهام فى إقامة العدالة وعلى الاستقلال القومى فى اخص مظاهره وأدقها ، ويخفف من حدة القانون اذا تعارض مع ميول

الأمة ومقتضيات الأمن ، وقد قال العالم توكفيل ان نظام المحلفين أعظم مدرسة للشعب ، ونحن الآن في مصر في حاجة الى تكثير عدد مدارس الشعب ، فالبرلمان أعظمها والمحاكم تتلوه في الأهمية ، فيجب والحالة هذه أن يدخل هذا النظام الى البلاد المصرية من سنة ١٩٢٤ (١) .

لقد تكون عندي اعتقاد يفيني أن كثرة القضاة الجالسين لنظر الدعاوى لا يفيد فتىلا ، لأن الأمر ينتهى دائما أو غالبا بتحكم الرئيس ، وفي الدوائر الأخرى يتحكم القاضى الأقوى خلقا أو شيعة لا الأعلم ولا الأفضل خلقا ، ولذا أعتقد أن الأفضل أن

(١) لم تكده دعوة لطفى جمعة الى ادخال نظام المحلفين فى النظام القضائى المصرى تنشر على صفحات الاهرام حتى تصدى لها كثيرون من رجال القانون والمشتغلين به من القضاة والمحامين واساتذة الجامعة والصحفيين وغيرهم ، تارة بالموافقة والتأييد وطورا بالمعارضة والتفنيد ، وتشعبت المناقشة والمجادلة حول هذه الدعوة واحتدت واحتدمت بين المؤيدين والمعارضين على صفحات جريدة الاهرام أكثر من شهر .

وممن شاركوا بأرائهم فى هذه الدعوة داوود بركات رئيس تحرير الاهرام والدكتور عبد العزيز نظمي والاستاذ عزيز خانكى والاستاذ حسين رمزى الاستاذ بالجامعة المصرية وحسين عامر المحامى واسكندر داوود المحامى وأحمد الصاوى محمد الكاتب الصحفى وغيرهم (جريدة الاهرام فى ١٤ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٥ أغسطس سنة ١٩٢٣ ، أول سبتمبر سنة ١٩٢٣) .

وجدير بالذكر أن اقتراح لطفى جمعه باسهام الشعب فى اقامة العدالة بادخال نظام المحلفين فى محاكمنا الجنائية ، لم يتحقق الا بعد ثمان وأربعين سنة عندما نص دستور جمهورية مصر العربية الصادر فى سبتمبر سنة ١٩٧١ على الأخذ بنظام مشاركة الشعب فى القضاء ، وطبق هذا النظام فعلا فى محاكم الحراسات بمقتضى القانون رقم ٢٤ لسنة ١٩٧١ ثم فى محكمة القيم بمقتضى القانون رقم ٩٧ لسنة ١٩٨٠ .

تكون كل القضايا مهما علت من اختصاص قاض واحد الا محكمة النقض التي ترفع اليها أعوص المسائل القانونية .

وقد شهدت أن نظام تلخيص القضايا عقيم جدا ، فان القاضى الملخص يكون رأيه ويحكم فى القضايا سلفا وينقاد له زملاؤه حتى الرئيس بحكم أنه واقف على تفصيل القضية ، و اذا كان الملخص ميالا للادانة كما يقولون فانه يفضب اذا حكم بغيرها كأن المتهم خصمه الشخصى ، وقد رأيت هذا فى قضايا كثيرة وفى كل الأحوال ، لأن هذا القاضى يعتبر أن فى مخالفته مسا بكرامته وهذا عجيب !

وانى أحب النكتة الرقيقة البارة فى مجلس القضاء وان
كنت لا اتقنها ولكن أطرب لها ، وان لم ترد على لسانى فيكفى سماعها والتلذذ بها وتقدير أصحابها .

وفى انجلترا يسمون صاحبها Tester والنكتة الانجليزية ليست فاترة أو باردة كما يظن الناس لبرود طبع الانجليز وفتورهم وطول صمتهم ، فقد اشتهر منهم فى القديم الدكتور جونسون وسجلها له بزويل ، ودافيد جاريك الممثل الشهير ، وفى العهد الأخير أوسكار وايلد ، فكان ملك النكتة فى عصره ، وهم يفضلون أن يتخذوها وسيلة النجاح فى كتبهم فلا تضيع هباء فى المجالس .

وانى أحبها ولو فى مجلس القضاء المتمم ، لأنها دواء الخمول
والجهود وضيء الظلام المخيم على الخواطر والأفئدة ، فتشجذ
الكليل وتنمش العليل وتبعث الؤسنان وتوقظ الهاجع ، ولا يابأها
الا البليد والأحقق ، ولا يفضب منها الا المغرور وضيق الصدر .

كان محمد خالد باشات صديقا حميما وقاضيا بالمحاكم وقد اشتغل بالمحاماة عشرين عاما ثم انتخبوه للقضاء ، وكان صاحب نكتة بارعة لا يقل عن المرحوم البابلي وان تكن دائرته أضيق من البابلي وانما كانت كافية لاطهار موهبته ، وكانت شهرته في الدوائر القضائية مستفيضة بحذقه للنكتة البارعة ، فلا يكاد يقف ويبدأ الكلام حتى تشرئب الأعناق وتنطلع الأذان لما يقوله وتفتقر الشغور عن البسمات قبل أن ينطق ، والكل ينتظر منه أطرف النكات والطفها ، وكان هو أيضا يبتسم قبل أن يرسل النكتة ويعقبها بضحكة خافية لأنه أول من يعرف قوتها واصابتها وحدتها، وقد حاولت تسجيل بض نكاته في مقال لي في البلاغ سنة ١٩٣٠ (سبتمبر وأكتوبر من تلك السنة في الصفحة الأدبية) ، ولكن كل تسجيل لهذه الأشعة المضيئة وتلك الشرارات المنطلعة من وهج الذكاء والبدية يردّها باهتة خافتة .

ولا يفوتني أن باشات في قضائه كان رجلا في أعلى درجات النزاهة والعلم والأدب وله كرامة خاصة به ومظهر يدعو الى الاحترام ، وقد سألته ما يصنع ان «حزقته» نكتة أثناء النظر في القضايا ، هل يطلقها أو يكتمها ؟ فقال لي وهو يبتسم ابتسامة أعرف سرها : انى أمتنع لأن الوسط الرفي لا يلائم وأخشى أن يشهر عني التنيكيت في القضاء وهو يذهب الكرامة ، ولكن أقول الحق انى أحيانا لا أطيق الصبر فأرسلها . فقلت له : خيرا لك ان تقيدها وتكتبها أو تبقيها الى النطق بالحكم . فضحك وقال : هى حيثيات والا ايه ؟

وان صديقى العزيز باشات بجانب هذه الموهبة الجميلة ، يتلطف فى القول ويخرج من اللوم بأحسن العذر اذا اعتذر ، ويجعل من الكلام مصاييد للقلوب ويعمر المجلس ان جد أو هزل.

ويستولى على الآمد وهو وادع لأن الغريزة مواتية والطبيعة قابلة،
جزاه الله خيرا عن الأدب والأدباء والظرف والظرفاء ، فانه ذخيرة
أمنية وتحفة غالية ، فهيئات أن يجود الزمان بمثله •

كان محمد بك أبو شادى من أشد المحامين ذكاء وأكثرهم فصاحة
وأحضرهم بداهة وأقدرهم على الدفاع المرتجل ولو لم يكن ملما
بأطراف القضية ، وكانت له شهرة مستفيضة فى أنحاء القطر
المصرى ولا سيما فى صعيد مصر ، حيث كان الرجل يهدد خصمه
ويقول « أطبخ رصاصتين وأشد ولد أبو شادى » ، ضامنا صدور
الحكم ببرأته على يديه ، ولو أنه تعلم لغة أجنبية وانقطع للدرس
قضاياه لكان من أشهر محامى العالم ، كان ذا فطرة سليمة وروح
مرحة فأصابع الصحة والمال ، وكان فى آخر أيامه يخطب ويترافع
ساعات عدة فلا يتلثم ولا يتردد • ولا يرتج عليه ، وهو يفيض
بمناقب الكلم وآيات القرآن والأحاديث والشعر القديم والجديد
والنكت الطريفة المقبولة والنوادر الطريفة حتى يستلب الألباب ،
ويؤدى هذا كله ولا يمسه تعب ولا لغوب لأنه موهوب حقا ، وكان
أقدر من الهلباوى وأخف منه دما وروحا وأوسع حيلة وأشد ذكاء ،
ولكن الهلباوى علم نفسه ولم يكتف بذكائه وحضور بديهته ولم
يمعثر حياته ولم ينفق ماله فى غير ما جعل له •

كان أبو شادى صحفيا وكاتبا وصديقا لسعد زغلول فدخل
مجلس النواب وانتخب نقيبا للمحامين ، وعادى الشيخ محمد عبده
أكراما للمخديو عباس ولم يكن على حق فى معاداته ، فعاد واعتذر
للأستاذ المفتى واسترضاه ، وكان رحمه الله يعرف توجيه الحملات
الصحفية ضد السياسة الانجليزية فى دنشواى وبور سودان ،
ولذا عاداه القاضى بوند وكيل محكمة الاستئناف وكان يعرض عنه
فى مرافعته ليحقره ويؤذيه ويتنوعده بالاحالة الى مجلس التأديب
والمحاكمة •

كان أبو شادى يصدر جريدة الظاهر وقد تعرفت بالمرحوم
عبد الفتاح بيهم الذى كان يعمل مترجما فى الجريدة ، فألح على
بالاشتغال فى الصحافة ، وعندما قدم على مصر سنة ١٩٠٥ المرحوم
محمد كرد على والسيد عبد القادر المغربى والمرحوم عبد الحميد
الزهراوى اشتركت مع كرد على والسيد عبد القادر المغربى فى
تحرير الجريدة بعد وفاة عبد الفتاح بيهم .

وعندما حدثت فاجعة دنشواى سنة ١٩٠٦ وصفت على
صفحات جريدة الظاهر تنفيذ الأحكام وحملت على السياسة
الانجليزية حملة شعواء وأصبحت الجريدة فى مقدمة الصحف
الوطنية لا تزاحمها الا جريدة اللواء التى أنشأها المرحوم مصطفى
كامل منذ سنة ١٩٠٠ .

وقد ترجمت للمرحوم أبو شادى فى حفلة تأبينه التى كانت
تحت اشراف سعد زغلول وطبعت جميع الخطب التى ألقيت فى
هذا الاحتفال وبينها كلمتى ، وكنت قد اقترحت اقامة هذه
الحفلة ، ولكن الأحقاد جعلتنى الشاغل فى الترتيب ، وأخذ رئيسها
يرسل الى الرسل ليهمسوا فى أذنى بالاختصار ، وكان آخرهم
الأستاذ عبد الرحمن الجديلى فقال لى عفا الله عنه : كلفت أن
أرجوك الاختصار وأرى أنك خطيب الحفلة ، فاستمر فأنى أرى
دولة الباشا (سعد زغلول) مسرور جدا (١) .

(١) نشرت خطبة لطفى جمعة فى حفل تأبين أبى شادى تحت عنوان « عبقرية
أبى شادى وتقدير النبوغ فى مصر » من صفحة ٥٨ الى صفحة ٦٥ فى الكتاب
الذى جمع مواد السيد عبد الحميد الكيلانى وعبد الحفيظ الروبى وعنوانه « محمد
أبو شادى ، دراسة أدبية تاريخية » ، وقد طبع بمطبعة حجازى سنة ١٩٢٣ .
كما نشرت أيضا فى كتاب لطفى جمعة « قطرة من مداد لاعلام المتعاصرين والانداد » ،
عالم الكتب ، سنة ١٩٩٨ ، من ٢٤٥ - ٢٥٨ .

ومن زملائي في هذه الصنعة الكريمة محمود بك بسيوني
المخامي وهو رجل فاضل بحبوح محبوب من جميع من عرفه من
زملائه وعملائه ، وكان منذ شبابه وطنيا مخلصا من أنصار مصطفى
كامل وترافع عن الورداني مع جملة من مشاهير المحامين أمثال
الهلماوى وعلوبة باشا ، ثم اتصل بالوفد في أول حركته وكان
وزيرا للأوقاف ورئيسا لمجلس الشيوخ ورئيس الوفد الذى سافر
الى الهند لرد زيارة البانديت نهرو وأمير الحج فى سنة ١٩٣٨
أو سنة ١٩٣٩ ونقيا للمحامين مرات متتالية ، وبالجملة نال
باخلاصه وثباته ووفائه وحسن نيته كل ما تصبو اليه نفوس
الرجال عن جدارة واستحقاق ولم ينل شيئا محاباة أو مجاملة ،
وله كعب عال فى المحاماة وقدرة باهرة فى المرافعة وقد اختار
أسيوط مقرا لعمله منذ نشأته فحصل على ثروة جيدة ورعى أولاده
تربية حسنة وبوأهم المناصب العالية فى حياته .

وهو رجل بسيط المظهر طيب القلب لا تعرف العداوة طريقا
الى فؤاده ولا يتخذ من الحزبية وسيلة للبغضاء أو التقاطع ،
ولا يعتبر الخصومة السياسية سببا للتنافر ، ويعتبر كل الوطنيين
مخلصين وان اختلف مشاريعهم ووسائل عملهم .

ويظهر لى أن سبب السكوت عليه من الزعماء أنه هو نفسه
زعيم ورجل كبير وذو مكانة وحرمة غير منكورة ، ولما كان مسلكه
هو الصحيح والواجب الاتباع ، ومذهبه هو الأحق بالتقدير ،
فلم يعرض له أحد بالنقد ، فان عرض له أحد بنقد فلا يؤثر منصبه
على حريته ولا يبيع شهرته بالأفق الضيق مهما دفع له فيه من
تمن .

أما كامل بك أبو الذهب فقد كان من رجال الأقباط النابهين
النابعين ، توظف فى النيابة وترقى الى القضاء وتردد حيناً فى

ترك خدمة الحكومة ليشغل بالمحاماة فى وقت كان فيه وجه المحاماة مشرقا وفمها باسمها والدنيا مقبلة على ذويها ، ولكنه عدل بعد سنة من تفكيره وقد أنصف وأحسن .

وهو من الأفراد القلائل فى الطائفة الذين يحسنون التكلم والكتابة بالعربية الفصحى ، وفوق هذا فانه يتحرى البحث فى المعاجم والقواميس عن أصول الكلمات وغيره ممن يفصحون لا يتحرون .

والذين عرفتهم من المحسنين فى اللغة الأساتذة وهيب دوس ومرفص فهمى وتوفيق دوس ومكرم عبيد شبيب خطباءهم ، وهو يحفظ جانبها من القرآن الكريم والحديث الشريف ، وهؤلاء الأربعة خطباء بجانب انهم كتاب ، ولكن مقدمهم على التحقيق مرفص فهمى ، وكل من عداهم لا يحسنون النطق ولا يزنون اللمسان .

وكان كامل أبو الذهب فصيحاً ولبقاً ومحققاً وعلمه بالقانون جيد ولا سيما الجنائى وتحقيقه دقيق وأحكامه عادلة فى الأغلب ، وقد التقينا فى محكمة الجنايات مرات وهو فى كرسى الاتهام وكاتب هذه الأسطر فى موقف الدفاع ، فكان يقرع الحجج ويقيم الأدلة ويسرد البراهين بالمنطق الصحيح والنطق الفصيح ، فنشأت بيننا ألفة وصداقة وقد أيدهما الجوار فى السكن بمصر الجديدة .

وقد نقل كامل بك الآن الى المحكمة المختلطة لأن له الماما باللغة الفرنسية ، وحدث فى احدى القضايا أن مستشارا انجليزيا وهو كلابكوت تشاغل عن سماع مرافعته ثم غفا وأغمض عينيه فأيقظه الرئيس ، فقال الرجل بصوت مسموع سمعه كامل بك كما سمعناه « بربك أيها الرئيس ليس المتكلم ديموستين !! » .

وهو أشهر خطباء اليونان ، فابتسم كامل بك كما ابتسمنا وهي عبارة جارحة تقتضى مؤاخذه المستشير الانجليزى ، ولكن الذى يحتج على مثل هذه الاساءة كمن يؤذن فى مالطة وربما تكون شكواه سببا فى مؤاخذته ، وهذا قليل من كثير مما يرى ويسمع فى ساحة القضاء المختلط والأهلى فى عهد الانجليز وبعد عهدهم ، فان بعض الرؤساء المصريين لا يقلون كبرياء وصانفا عن أسلافهم السكسون .

وكان من أرذل المنتمين الى السكسون رجل مالطى اسمه « دربولغو » (١) يتحكم « ويشخط وينسر » وهو معتز بمنصبه ومعتز بصلته باللورد كرومر اذ كان يحسن احياء السهرات ، وكان ممثلا بالحقد على المصريين وكراهيتهم كابن وطنه السفيف الآخر « جريك منقوسود » ، وقد كان له من لقيه نصيب ، فقد كان يجاهر ببغضه وينشر المقالات المطولة فى ذم المصريين وهو قاض ثم محام فى محاكمهم .



حال المحاماة ووسائل اصلاحها

كم نقيبا تعاقب على مجلس النقابة وكم وزيرا تولى السلطة فى وزارة العدل وكم رئيسا لمحكمة الاستئناف فى مدى هذا العقد

(١) دربولغو هو القاضى الذى رأس محكمة الجنائيات التى حاكت ابراهيم الوردانى قاتل بطرس غالى باشا .

من السنين ولم يفكر أحد منهم فى انتشار جلال مهنة المحاماة من هذه المهواة والوهدة التى تردت فيها هذه الأيام (١) ؟

ان السكوت عمدا عن هذه المأساة وتشجيع الذى يمثلها وترك حبله على غاربه جريمة متعمدة للقضاء على تلك المهنة التى صارت فى هذا العهد مهانة ومذلة ومدرجة للنزول الى الدرك الأسفل !

لقد عجز المحامون الكرماء والأكفاء عن تحصيل أرزاقهم وعن سداد ديونهم ودفع أجور مساكنهم ومكاتبهم وعن تعليم أولادهم وتزويج بناتهم ، وحاروا فى أسباب هذه النكبات وحارت أفهامهم وأوهامهم ، فتارة يتلمسون الأسباب فى الأزمة العالمية ، وطورا فى حالة الحرب ومرة فى افتقار الفلاح وأخرى فى تكاثر عدد المحامين الشبان المتعجلين للكسب وأخرى فى تهافت أرباب القضايا على المرافعة بأنفسهم وتسيير دفة مصالحهم بأشخاصهم ، والصالحون منهم رموا الأقدار ودورة الأفلاك بالليل والنهار بهذا الكساد والخيبة والفشل ، والصابرون منهم قنعوا بالاضطرار ليدعوا الله بحالهم فيستجيب لهم ، فئة كبيرة من هؤلاء وأولئك أبقوا من الصنعة ذات الجلال والاکرام والتمسوا من الضيق مخرجا بوظيفة فى الحكومة أو بعمل حر لا يحتاج الى العلم والحكمة وسهر الليالى وكد الأيام . .

لقد سكنت جهات العدل وأصيبت بالعمى والعمى والصمم لينخر السوس فى عظم تلك المهنة ذات الخلال الجميلة ، لأن أولى الأمر وذوى الحل والعقد أرادوا اضعافها وافقار دمجها حتى تلفظ أنفاسها الأخيرة فى سكون وجلال خليقين بتاريخها العظيم !

(١) كتب لطفى جمعة هذا الفصل من المذكرات فى مارس سنة ١٩٤٣ . . .

وقد أمسى المئات من المحامين أقل من أبسط العمال ربحا
ومكانة بعد أن أفنوا أسعد أعوام عمرهم في التحصيل والاستعداد
للمحاماة ، وبعد أن أهرق أهلهم دماء قلوبهم في نفقات تعليمهم
واعاشتهم وبنوا على مستقبلهم القصور العالية وما هي الا قصور
من الرياح !

لقد اندثر الفضلاء وطفا الأوغاد واجهلاء وأيقن المتقاضون
والموكلون بهبوط هذه المهنة وبخسها وانحطاطها ، وهزلت كرامتها
في أعينهم وصارت قرينة الضعف والعجز والفاقة ، حتى لترى
الثلاح والعمال وابن البلد والأمرى الذى كان يتهيب الدنو من
المحامى ويحسب للتحديث اليه حسبا ، قد تحرر من قيود العرف
والأدب فيعشاه في مجلسه وموقفه وسيره لأنه عرف الدية التى
يدفعها ويملك بها ناصيته !

ومنذ شهر واحد كتبت مجلة المصور تسأل عن ثلاثة من
فطاحل المحامين وتقول « أين هم » ، فأجابها أول المسئولين الأستاذ
مرقص فهمى بك الذى لا ينازع أحد فى فحولته وكفايته واقتداره
ونبوغه بأنه « حى ميت أو ميت حى » وأجاب ثانى المسئولين وهو
الأستاذ وهيب دوس بك بأنه خرج بالقرعة من مجلس الشيوخ ،
وأجاب الثالث (١) بأنه « فى زمرة المطمورين الذين أظلمت عليهم غيوم
الحرب الحاضرة ولما يرد سجل الفناء بل ما يزال حيا يرزق » .

وهؤلاء الثلاثة من دعاءات العلم والفن الخطايب ومن أعلام
القانون والمحاماة فى مصر زعيمة الشرق العربى ومهد الفصاحة
والبلاغة من قديم الزمان ، وهؤلاء ثلاثة من مشاهير خطباؤها ومن

(١) كان لطفى جمعة هو المسئول الثالث (مجلة المصور ، العدد ٩٦١ ،

زعماء القانون والسياسة والأدب فيها ، أحدهم حتى ميت والثاني خرج بالقرعة والثالث مطمورا ، وهؤلاء ثلاثة ممن تشجع المصور على سؤالهم وغيرهم على الأقل عشرات ممن لا يقلون عنهم فضلا ونجاسة وكرامة قد تواروا وتداروا واختبأوا واعتزلوا وجمعوا أطراف ذيولهم ليكونوا بمنجاة عن أحوال المجتمع ، وكانت مهنتهم هي الوسيلة الوحيدة لرفع رؤوسهم وإظهار فضلهم وتمكينهم من العمل والخدمة ، ولكن أغرقهم الطوفان حتى قال لى أحد فضلاء المحامين فى بحر هذه السنة (١٩٤٣) انه يبذل من الجهد والعناء ويتكبد من المشقة ما لا يستطيع وصفه ليتمكن من التنفس للحياة مثل الغريق ، فشعرت بوخذ الحديد فى قلبى لا لفصاحته ودقة تعبيره وصدق عاطفته فحسب ، بل لأنى كنت فى نفس موقفه وأشعر شعوره وأصور حالته كتنصوير حالته ، ولأنه نفس عنى بنفثة صدره لأننى وجدتهنى غير وحيد وأن فى الغبراء رجلا يعانون ما أعانى ، وتحت ظل السماء قلوبا ولهى وأفئدة قلقة وأرواحا حائرة لأنها تمسكت بالمثل العليا وحافظت على كرامتها وتشبهت بأهداب الفضيلة والعفة والمروءة ودرجت على ما نشأت عليه من الاعتزاز بالذات وبجلال المهنة التى لطمخها الحاكمون والمحكومون بأحوال الأغراض والشهوات ، فلا حول ولا قوة الا بالله وانا لله وانا اليه راجعون !

ولئن كان وداء المحاماة فى القديم رمزا للشرف والمهابة والقدرة ومعونة الضعفاء ومكافحة الباطل ونصرة الحق كما علمنا الدين لميسوه من قبل أمثال سعد زغلول وإبراهيم اللقاني ونصر الدين زغلول والحسينى وأحمد عبد اللطيف وعمر لطفى وأخيه أحمد لطفى واسكندر عمون وعشرات من معاصريهم وأندادهم وبعض الأحياء أمثال أحمد مصطفى ووهيب دوس ومكرم عبيد

وغيرهم ، فقد صار الرداء في هذا الزمن القبيح علم المهانة والذل
والحقارة والاستهتار والدناءة .

ولما كان تعميم هذه القبايح شرا كبيرا ، فلم يبق الا استئصال
هذه العناصر الدنيئة من جسد المهنة ليعود الى الصناعة شيء من
كرامتها ، ولكن هذا الأمل مستحيل التحقيق ، لأن النقابة - من
المفروض فيها أنها تسهر على تنقية المحاماة وتطهيرها وتنظيفها -
هي التي ساعدت على تشجيع هذه الأدران وتنميتها وتقويتها
بالإهمال والسكوت عنها وغض الطرف وصم الأذن حتى استفحل
الشئ وكبر الخطب واتسع الفتق على الراتق ، فخليق إذن بوزارة
العدل وهيئات القضاء والجمهور ألا يكثر لمصايبها وألا يمد يد
المعونة أو يحرك لسان النصيح الجماعة يظن أنها من أرقى الجماعات ،
ثم هي تترك ذويها يتسدهورون ويتردون في المهواة لانشغال
رؤسائها بأنفسهم ومصالحهم ومنافعهم المادية ، ورغبة كل منهم
أن يحصل على أكبر قدر من الثروة وأكثر عدد من القضايا المهمة ،
ولا يبالون بما يحدث لسواهم ١٠١

لقد جعلوا هذه النقابة من سنة ١٩٢٠ الى هذه الساعة
(مارس سنة ١٩٤٣) ميدانا للتنافس السياسي ومسرحا لسيادة
الأحزاب ومعتزكا لأهل النفوذ من الرؤساء والأعضاء ، فيقفزون
منها الى مناصب الوزارة ووظائف القضاء . ان النقباء من سنة
١٩٢٠ الى الآن لم يعملوا على رفع شأن المحاماة لا بقوة ولا مجهود
ولا صدق عزيمة ، ولابد أن بعضهم حضر جلسات وشهد مذبح
المهنة « ذات الجلال والاکرام » على حد تعبير النائب العمومي
مما يدل على أن مجلس النقابة يشارك أعداء المحاماة في رغبة
القضاء عليها بكل وسيلة . وقد لاحظنا وغيرنا أن مجلس النقابة

فى سنة ١٩٣٥ قد تحول أعضاؤه الى أكبر المناصب ، فكانت
عضوية هذا المجلس قنطرة أو مجازا وثبوا منها الى المناصب ،

ان كتابة هذه الفذلكة ليس بقصد الخدمة العامة لأن وقتها
مضى وانقضى ، ولكن لأن هذه إحدى نكبات العصر الحديث وأنا
أحد شهودها *

هذه صورة من نقائص العصر الحديث فى مصر ونقائضه
وفضائحه وكوارثه وقد رسمتها بألوان باهتة التزاما منى جانب
الاعتدال والرفقة ، لأن الأمر أخطر من هذا بكثير !!

ولكن ماذا يظن أن تكون أسباب انهيار المحاماة فى مصر ؟

يجب على أن أبحث حقيقة فى أسباب انحطاط المحاماة :

فأولا : أن هذه المهنة دخيلة على البلاد وهى تقتضى جملة شروط
فيمن يمارسها كالاستعداد النظرى لها والذى يتوافر لأصحاب
الصحة الجيدة جدا والعقول الراجحة جدا والفصاحة
والبلاغة والخطابة والأخلاق القويمة وحب العدل وقناعة
النفس اما بثروة أصيلة واما بشرف مكسب يحول دون صاحبها
والانحطاط ، وعلم واسع بالقانون وثقافة واسعة فى كل
شئ *

ثانيا : أنه وان يكن المصريون لهم ذلاقة السنة وقدرة على الكلام
والخطابة بصفة عامة ، الا أن معظم الصفات المذكورة أعلاه
تنقصهم *

ثالثا : دخل هذه الصناعة أكبر عدد ممن ليس لهم استعداد فطرى
ولا أخلاق *

رابعاً : أن الروابط المعنوية والأدبية التي ترقى الهيئات معدومة بسبب المنافسة والجهل المتفشى .

خامساً : معظمهم متكالب على المال وكثير منهم ليس عندهم فكرة الضمير ولا الكرامة الشخصية .

سادساً : ان الوسط القضائي عند القضاة أنفسهم قد هبط والمرافعات نزلت درجتها والقضايا المهمة التي تشجع المحامي نادرة .

سابعاً : فقر الكثرة لساحقة عند المحامين أدى الى قلة أرزاقهم فتحولوا الى عمال عقليين يربحون لسد رمقهم ورمق عائلاتهم .

ثامناً : أن المبتدئين منهم لا يعرفون سابقينهم ، وإذا رأوهم لا يرون فيهم الا مزاحمين متقدمين في السن فيتمنون زوالهم حتى ان واحداً من المنتسبين الى المحاماة حمل على المحامين الشيوخ حملة نكراء في ورقة سماها تقريراً باقتراح اصلاح المحاماة ونسى « عمود الخشب » الذي في عينيه وذكر « الذرة » التي في عين الآخرين وهي الشيخوخة والعجز عن العمل .

تاسعاً : أن انتشار الروح المادية في مصر صبغ هذه الصناعة بهذا اللون ، فذهبت بهجتها وعظمتها .

عاشراً : أن كثيراً من القضاة يحترقون المحامين الجهلاء ويحسدون الأكفاء ، وقد درج بعضهم على الاساءة الى الجميع وقد انتزعوا من غرورهم وثبات مراكزهم وانتظام أرزاقهم طمأنينة أنسبتهم آدابهم المحترمة نحو المحامين .

هـادى عشر : اشتهر كثير من كبار المحامين بفساد الذمة .

اثنا عشر : المبتدئون لا يقتصدون ولا يحتذون بفطاحل المحامين ممن يدربونهم على حسن الذمة واتقان العمل .

ثالث عشر : كل شيء في مصر قد انحط بفعل الاحتلال والأحزاب
فتبعه هذه الصناعة بحكم التأثير العام .

رابع عشر : لا يدخل كليات الحقوق في العهد الأخير الا الذين
لم يتمكنوا من دخول الكميات الأخرى ، وإذا تخرجوا فيها
فلا يلجأ الى المحاماة الا الذين لم يتمكنوا من دخول وظائف
الحكومة .

خامس عشر : أن النقابة التي كان يظن فيها الخير والعمل على
تقدم هذه الصناعة ظهر من سنة ١٩٢٠ أنها هيئة لحماية
أعضائها وجلب الوظائف والمنافع لأنفسهم ويعتبرون العمل
للمحاماة سخرة ويعملون هم أنفسهم على الحط من شأن
المحاماة .

سادس عشر : أن الحكومة بصفة عامة والسلطات السائدة في
مصر عملت وتعمل على مدهاضة هذه المهنة لأنها قدمت الرجال
الذين قاموا بالثورات والاضطرابات منذ سنة ١٩١٩ الى
الآن ، وأن الحركة الوطنية من عهد مصطفى كامل قامت على
كواهلهم ، فوجب اضعاف هذه الكواهل وقد نجحوا .

سابع عشر : درج بعض رجال القضاء والنيابة بجميع درجاتهما
على التظاهر بالتفرع عن المحامين في علاقتهم الخاصة حتى
ولو كان هؤلاء القضاة والنواب ممن لا يداونون المحامي أخلاقاً ،
وقد سرى هذا المسلك الى عروق موظفي المحاكم تقليداً وتبعاً
لرؤسائهم ، فشعر المحامون بشيء من هوان شأنهم مما يعوقهم
عن شعور العظمة المؤدى للنجاح .

ثامن عشر : علاقة المحامين بموكليهم ، ذلك أنه لما كان بعض
الموكلين سواء أكانوا من المتهمين أو من المماطلين قد نتج عنه

سوء أخلاقهم فى معاملة المحامين بأكل حقوقهم والشح عليهم
والكذب فى أخبارهم .

تاسع عشر : طبقة الموظفين عند المحامين من وكلاء وكتبة وخدم
والمندسين فى أوساطهم من السباسة .

هذه كلها أسباب مكدره لأزمة المحاماة فى مصر ولكنها حقيقة
وذات أثر فعال فيما انتهت اليه المهنة فى هذه الأيام .

- ٦ -

قضايا

من ملداتى الحقيقية أن أدرس قضية جنائية مهمة وأعد فيها

المرافعة ، وان هذه الملدة لتطفى على جميع المتاعب التى أعانيها حتى
لا أشعر بها مطلقا ، وانى أثناء هذا الاستعداد أتخيل ابرازها عند
العمل النهائى فأزداد تحمسا ونشاطا ، وانى كنت بحمد الله أوفق
فى مطابقة النتائج لما كنت أتخيله أثناء العمل ، ومن أهم ما لاحظته
أن هذه الملدة كنت أترقيها قبل أن أدرس القانون ، وسبب ذلك
يرجع الى أمرين ، الأول رغبة شديدة من صغرى فى مكافحة المظالم،
وأخرى فى ازالة الغموض وحل المشكلات ، والأمر الثانى كثرة
مطالباتى فى الكتب والصحف التى تسرد وقائع القضايا العالمية
ولا سيما الصحف الانجليزية .

ومن القضايا التي كانت لي فيها ملذات كبرى :

قضية قتيل باب الشعرية سنة ١٩١٣ ، قضية محمد علي
نمر - طوخ سنة ١٩١٤ ، قضية عبد المعين خليل - روض الفرج
سنة ١٩١٦ ، قضية ابراهيم عثمان - قتل أسيوط سنة ١٩٢١ ،
قضية مقتل السردار السير لي ستاك سنة ١٩٢٥ ، قضية القنابل
سنة ١٩٣٢ ، قضية روزنفلد - تزييف نقود ، بورسعيد سنة
١٩٣٢ ، قضية آل الرميح - مخدرات ، العريش سنة ١٩٣٥ ،
قضية أولاد آدم ضد أولاد ذكرى ، العريش سنة ١٩٣٦ ، قضية
مصطفى الزيني ، بورسعيد سنة ١٩٣٨ ، قضية سالم الأقرع ،
مخدرات القنطرة سنة ١٩٣٨ ، قضية جبريل ايرانجيان ضد
جراييت جرجريان ، بيع وفائي سنة ١٩٤٣ ، قضية مقتل أمين
عثمان سنة ١٩٤٦ ، قضية ابراهيم محمود أبو الروس ضد فتحية
سلامة ، قتل ، الاسكندرية سنة ١٩٤٧ .

وقد ذكرت هذه القضايا على سبيل المثال ، وان بعض
القضايا من هذا النوع لو دفعت لأصحابها مالا لا ترفع فيها - وكان
ذلك في مقدوري - لفعلت ذلك .

- ٧ -

الاغتيال السياسي وأسبابه

تعاني مصر من الاغتيال السياسي منذ نحو أربعين عاما (١)
حتى أصبح داء مزمنًا ووباء فتاكًا مقيما لا ضيفا طارئا ، ونحن

(١) كتب لطفى جمعة هذه المذكرات سنة ١٩٤٩ .

نعالج كل حالة في وقتها فتنفجع ونذرف الدموع ولا ننظر في علاج قاطع مانع ولا نبذل في سبيل الخلاص من تلك الوصمة القومية بعض ما نبذل في محاربة الحميات المهلكة أو بناء الكوليرا ، مع أن القتل السياسي إذا استشرى يسمى أشد ضررا وأوخم عاقبة من بعض الأوبئة وإن اجتمعت ، فإن الاغتيال يفت في عضد الأمة ويظمنها في صميم حياتها وحدتها وتضامنها ويؤدي الى تفريق الكلمة وإلى زوال الهيبة والمحبة ، وناهيك بهاتيك المصائب إذا أصابت الوطن المصري *

لقد كان الشرق أقصاه وأدناه وأوسطه طاهرا مبرا من هذا الداء الوبيل ، وكان نادرا في الغرب نفسه فيصفون مقترفيه بالفوضويين أو العدميين « نيهليست » ، وهو وصف روسي كان أول من استعمله الكاتب السياسي والأديب المورخ تورجنيف ، ثم شاع هذا الوصف في أوروبا وأمريكا ، وأول من لجأ اليه مذهبا وتنفيذا الثائرون الروس في الربع الأخير من القرن التاسع عشر في زمن القياصرة ، ثم صار علما على جماعة مستهترة وطبقة فدائية دأبها اقتراف الجرائم والجنايات بالأسلحة الفتاكة حقدا على الطبقة الحاكمة والطبقة الغنية ، أى على المستأثرين بالقوة والثراء انتقاما منهم ونكاية بهم وسعيا في تبديد النظم الاجتماعية وتفكيك عروة الحياة العامة ، وكانت خططهم التآمر والاتفاق الجنائي في الظلام ، ولم يقدم على الاغتيال السياسي في أوروبا المتحضرة بعد يوليوس قيصر أحد وذلك بتأثير الأديان والمدنية ورهبة القوانين واعتبارا بما حدث للإمبراطورية الرومانية بسبب هذه الجناية من الضعف والتشتت حتى الاندثار *

ولما كان بعض الشرقيين يميل الى التقليد ويسهل انتقال العدوى الى أمزجتهم فقد سرت العدوى بهذا الشر الى مصر ، فقتل المأسوف عليه بطرس غالى باشا سنة ١٩١٠ ، ثم بدأت سلسلة

فظيحة من الاغتيالات السياسية تحت ستار الدوافع السياسية ، وفى مصرع المرحوم محمود النقراشى كان بعض الجناة يسوغون الاعتداء على الحياة بالظلم أو القسوة أو انحراف الزعماء عن سواء السبيل فى الوطنية والحكم ، وإن كان الفاعلون والشركاء لا يدرون فى الاجتماع والأخلاق والسياسة كثيرا أو قليلا حتى يميزوا بين الخير والشر ، فانه لا يحق لهم بحال أن يجعلوا من أنفسهم مشترعين وحاكمين وقضاة وجلادين منفذين .

ان القتل الذى يتم على هذه الصورة الوحشية يوصف بالاغتيال ، لأن الاغتيال ينطوى على الغدر والقسوة والخيانة والحسة . وقد بلغ تغليظ الزجر وتشديد العقاب على من اقترف هذه الجريمة أن تحدث النبى عليه الصلاة والسلام فقال « ليس للقاتل توبة ، يأتي المقتول يوم القيامة معلقا رأسه فى الحدى يديه متلبها قاتله بيده الأخرى تشخب أوداجه دما حتى يوقف بين يدى الله فيقول المقتول لله تعالى هذا قتلنى . فيقول الله تعالى : تعسست . ويذهب به الى النار » .

وان الناظر فى وقائع القضايا السياسية التى صاحبت مصر خلال النصف الأول من هذا القرن ، يرى أن الدافع اليها هو الاحتلال الانجليزى ومعاهدة سنة ١٨٩٩ الخاصة بالحكم الثنائى فى السودان ، فالانجليز حيثما كانوا هم السبب لكل كارثة حدثت فى مصر .

فقبل قضية الاعتداء على المرحوم بطرس غالى باشا بسنتين أو ثلاث ، عمل الانجليز على قتل الروح الوطنية فى مصر بمحاربة التعليم واضطهاد الطلاب وتخريب مدرسة الحقوق التى تخرج رجال القضاء والعدل ، وكانت هذه القضية خاتمة المطاف .

فبعد الاحتلال عمل الانجليز على محاربة الامة المصرية بوسائل شتى منها :

١ - افساد التعليم فى المدارس مثل اختصار سننى التعليم الثانوى وحذف تاريخ مصر والتاريخ الاسلامى ومقاومة مشروع الجامعة المصرية واستبداله بإنشاء الكتاتيب ، وفرض اللغة الانجليزية ومحو اللغة الفرنسية واضطهاد اللغة العربية .

٢ - التثكيل بالوطنية والوطنيين فى الحكومة وفى كل مكان .

٣ - محاربة الدين الاسلامى والشريعة الاسلامية والتقليل من شأن الأزهر وتشجيع الاستهتار بالأخلاق وتسهيل انتشار الفساد .

٤ - ترك الامة المصرية فريسة للفقر والجهل والمرض ، والدليل على ذلك ما كتبه الانجليز أنفسهم « شيرويل » والدكتور « بلفور » سنة ١٩٢٠ عن صحة الشعب المصرى .

وتركهم فريسة كذلك لليهود والأرمن واليونان المرابين حتى امتلك كثير من هؤلاء الأجانب الأملاك العقارية والأراضى الزراعية فضلا عن استمناعهم بالامتيازات الأجنبية وما كان يسمى حماية القناصل للرعايا المجرمين . وكانت غاية الانجليز من هذه الخطة كسب عطف الأجانب من الطبقات السفلى وهم أصحاب الخمارات ومقاهى الغناء والرقص عدا عن « البلطجية » والمقامرين والمجرمين المأجورين ، وكل هذا بقصد اذاعة الفوضى فى البلاد والاخلال بالأمن واطهار الامة المصرية بمظهر الامة العاجزة عن الاصلاح .

٥ - قتل النفوس المصرية ومجاربة عاطفة الحرية وتشجيع الطبقات المنحطة وتشجيع التجسس والخيانة ، وكبرياء الانجليز وعدم اختلاطهم بالمصريين بدليل مأساة النادى الانجليزى المصرى .

٦ - تلاعب الانجليز بالوزراء والحكومة والأحزاب (تلغراف جرانفيل فى ٤ يناير سنة ١٨٩٤) .

٧ - اتخاذ مصر والمستعمرات الأخرى أسواقا لتجارة الانجليز البائرة وتسخير مصر لزراعة الأقطان .

وبالجملة كل مضار الاستعمار بصفة عامة .

وقد حصن الانجليز أنفسهم فى عهد كرومر بالمحكمة المخصوصة وزيادة جيش الاحتلال من وقت الى آخر واستولوا على سادة البلاد ، فألهوا الأغنياء بالمال وأوجدوا طبقة « أصحاب المصالح الحقيقية » أى أرباب الأطماع والأموال للدعاية الواسعة لكرومر ، فسكنت كل الأصوات عدا صوت الخديو عباس حلمى ومصطفى كامل ، فوقف عباس لكرومر بالمرصاد ، أما مصطفى كامل فقد أيقظ الأمة بجريدة اللواء والخطب أى بقلمه ولسانه ، وأخذ الانجليز لجانبهم بعض علماء الأزهر واشتروا بعض الجرائد وقد اغتنى أصحابها حتى صاروا أصحاب ملايين وضمنوا الوزراء وموظفى الحكومة ، واستولوا على المدارس بالحوجات الانجليز وعلى المديرين بمفتشى الداخلية وعلى الوزراء بالمستشارين وعلى الخديو بتهديده بالخلع ، والنفى ، ولكنه - رحمه الله - لم يكن يبالى بالوعيد .

وما زالت الحال فى ارخاء وشبه حتى سنة ١٩١٤ فحدثت الحرب الأولى ورفعت بريطانيا الأفتنة السبعة من الاتفاق وأعلنت الحماية على مصر ونهبت الأرزاق وحدثت الرجال باسم التطوع حتى تفضى المتطوعون المرغمون بأغانهم « يا عزيز عيني أنا بدي أروح بلدى » .

تم نهضة سنة ١٩١٨ فتورة سنة ١٩١٩ ومحاكمات سنة ١٩٢٠ ، ١٩٢١ فى جميع أنحاء القطر ، فكانت القضايا السياسية بالجملة نتيجة لهذا كله لأنها أعقبت اعتداءات على الانجليز سواء أكانوا حريين أم مدنيين .

ومن القضايا السياسية الكبرى التى باشرتھا ، الأولى سنة ١٩٢٥ وهى قضية مقتل السردار ، والثانية هى قضية القنابل سنة ١٩٣٢ وهى أكبر قضية سياسية فى مصر ، والثالثة قضية الجمعية السرية التى قتل فيها أمين عثمان باشا سنة ١٩٤٦ وضرب بالرصاص بضعة جنود انجليز .

وفى الأولى أعدم رجيل من شبان مصر أمثال شفيق منصور ومحمود اسماعيل وعبد الحميد عنايت وجماعة من العمال الذين اشتغلوا بالسياسة .

والثانية سجن نجيب اسكندر وعشرة من الطلاب مكنى الله من براءة تسعة منهم وكان بطلها ابراهيم الفلاح .

وفى الثالثة حوكم ستة وعشرون طالبا من أنجب الشبان وأحسن العائلات منهم حسين توفيق ومحمود يحيى مراد والسيد عبد العزيز خميس ومحمد أنور السادات ومحمد ابراهيم كامل وأحمد وسيم خالد ومصطفى كمال حبيشه وآخرون غيرهم من طلبة الكليات والمدارس عدا أنور السادات فقد كان ضابطا بالجيش وفصل منه وعمل مقال نقل بالسيارات .

قضايا سياسية

قضية مقتل السردار السيرى ستاك سنة ١٩٢٥

كان سعد زغلول باشا رئيس الحكومة والهدوء سائدا في ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٢٤ ، وفجأة قتل السردار سيرى ستاك في رابعة النهار في الساعة الأولى بعد الظهر في شارع الطرقة الغربى على بعد خطوات من وزارة الحربية .

وهذه القضية بدأت بالغموض في الدافع وانتهت بالغموض حتى بعد تنفيذ أحكام الاعدام في جميع المتهمين كما طلبت الحكومة البريطانية .

وقد نظرت هذه القضية في شهر مايو سنة ١٩٢٥ وكان المتهمون نحو عشرين شخصا من أنواع أجناس مختلفة ، فمنهم العمال والطلاب ورجال الأعمال وموظف واحد ومحام واحد ، وكان القضاة عرفان باشا ومظهر بك ومستتر كيرشو ، وكان يجلس أثناء المحاكمة متقلدا مسدسا ويصحبه في غدوه ورواحه شرطيان انجليزيان ، وفي مقعد النيابة طاهر نور باشا .

واستمرت المحاكمة أسبوعين ، وكان عدد الشهود عشرين شاهدا وخبيرا واحدا ، وكان المحامون سبعة عشر محاميا بعضهم ما يزال حيا ، وقد بلغت أوراق ملف تحقيق القضية حوالى ألفين وخمسمائة صفحة وثمنه خمسة وعشرون جنيها ، ولم توجه الى المتهمين تهمة الاتفاق الجنائى ، وقد أخذت الاعترافات فيها قسرا من

عبد الفتاح عنايت عند القبض عليه فى برج العرب عند محاولته الهرب الى ليبيا ، ومن بعضهم فى السجن بالضرب والتعذيب بقفازات الملاكمة الانجليزية ، وقيل انه استعملت المخدرات فى انتزاع الاعترافات .

وقد أدت هذه القضية الى ضياع السودان وترحيل الجيش المصرى ومطردة اللنبى الذى دخل على سعد يمشى شاهرا سلاحه وتلا عليه انذارا خبيثا ، ودفعته الخزائن المصرية نصف مليون جنيه كم تأخذ منه أرملة ستاك باشا شلنا واحدا كما حصل التصريح بذلك فى البرلمان الانجليزى ، وسمح لشركة انجليزية أن تزرع وتروى مالا نهاية له من القطن فى ارض الجزيرة بالسودان ، وبعبارة أخرى انتهز الانجليز فرصة للانتقام لا مثيل لها .

وقد ظهر بعد ذلك أن اللنبى تعدى حدوده وقال وفعل أكثر مما كانت تبيح له الأوامر والنواهي ، ولكن سياسة لندن سكتوا عليه ونقلوه بعد مدة وراح على مصر كل ما اغتصبه اللنبى فى ساعة جبروت وطغيان ، لأن بعض المتهوسين من سياسة الانجليز أسفوا لأن اللنبى لم يشفق سعد باشا .

وفى هذه القضية ظهر من يدعى نجيب الهلباوى شاهد اثبات (١) ، وقد أخذ مكافأة عشرة آلاف جنيه لأنه مثل دورا عجيبا بعد وقوع الجريمة ليأخذ اعترافات جديدة .

(١) محمد نجيب الهلباوى كان مدرسا بمدرسة رأس التين واشترك مع محمود عنايت فى قضية القاء القنبلة على السلطان حسين كامل واندس بين صفوف الوطنيين بعد أن وثقوا به ، ولكن سرعان ما انقلبت وطنيته الى خيانة وغدر ، فتعاون مع سليم زكى وأحمد حمدى ورسل باشا حكمدار القاهرة فى الايقاع بالمتهمين فى قضية اغتيال السردار ونال المكافأة التى رصدتها الحكومة لمن يدل على الجناة ومقدارها عشرة الاف جنيه .

وما زالت هذه القضية غامضة في نواح كثيرة ، فلماذا قتل السردار مع أن الوفد كان حاكما ؟ وماذا كان دخل بعض الباشوات العظماء الذين حقق معهم بهذه القضية ؟ ومن وراء محمود اسماعيل أحد المتهمين بالعمو ؟ وكيف علم شفيق منصور بالجريمة قبل حدوثها ولم يبلغ عنها محافظة على موقف الوفد وسعد باشا ؟ وكيف لم تعارض الحكومة المصرية في الطلبات الظالمة التي طلبها الانجليز مع أن الحركة الوطنية كانت في عنفوانها ؟ وكيف أبيع للنبي أن يتعدى حدوده ولم تصلح انجلترا موقفها ؟ وهل كان المقصود قتل السردار لذاته مع أنه لم يعمل عملا ظاهرا ، أو كان المقصود إسقاط حكومة الوفد ولو بالتضحية بالسفير ستاك كما حصل في مصر غوردون في الخرطوم سنة ١٨٨٤ لأخذ السودان ؟ وأين اختفى المتهمون في يوم الجناية وبعدها حتى لم يهتد اليهم أحد مع اهتمام البوئيس والنيابة والانجليز بالعمو عليهم ؟ ... علامات استهفام كثيرة .

كان بين المتهمين في قضية السردار عامل اسمه على ابراهيم محمد كانت له نواح غريبة كثيرة ، فقد كان سببا في اتهام رئيس « جمعية العلم الأبيض السودانية » وحسبه ستة أشهر وقرار الدكتور محجوب ثابت الى الشام ، لأن ذلك المتهم يشبه كل الشبه رئيس تلك الجمعية الذي زار مصر في تلك الفترة ونزل ضيفا عند الدكتور محجوب ولكن لم تكن له علاقة بالقضية .

كان على ابراهيم محمد الذي توليت الدفاع عنه في هذه القضية درويشا للطريقة الخطابية ، وقد وجدت معه كناية فيها

= (عن دور الهلباوى راجع كتاب « الشديد الصى ، عبد الفتاح عنايت . » لايقته ابتسام ، الزهراء للاعلام العربى ، ط ١ ، سنة ١٩٨٧ ، من ٨٦ - ٩٩) .

بعض الأحاديث النبوية وبعض أبيات من الشعر عن الجهاد ، فرأيت أن أستدعى الشيخ خطاب شاهد نفى على بعض الوقائع ، فقصدت الى بيته ومسجده ورجوته الا يكتنم الشهادة ، فرفض الشيخ ا

وزعم ابراهيم محمد أن الحاج أحمد جاد الله العامل بالعنابر كان يفرق المسدسات على العمال ويحضهم على استعمالها ، وكان جاد الله نفسه مسجوناً ، فطلبنا احضاره شاهداً للنفى أو الاثبات فرفضت المحكمة لسبب غير ظاهر لنا فى ذلك الحين .

والحقيقة أنها أرادت أن تستبقه ليكون خميرة للقضية الثانية التى نظرت فى سنة ١٩٢٦ وكان المتهمون فيها المرحوم الدكتور أحمد ماهر باشا وغيره من المشاهير والعظماء ، وقد حكم لحسن الحظ ببراءتهم لأن الدفاع أظهر مخزيات كثيرة للجواسيس الذين بلغ التلفيق منهم أنهم كانوا يدفنون بجوار منازل المتهمين صناديق مملأة بالأسلحة والذخيرة لتكون أدلة على اجرامهم وهم أبرياء !

وفى ظنى هذه القضية الأولى التى تدرب فيها بعض رجال البوليس المصرى وصاروا بوليساً سياسياً بالمعنى المعروف الآن ، لأن بعض حيثيات البراءة بنيت على ظهور التلفيق .

وكان بطل الدفاع فى هذه القضية الأستاذ أحمد لطفى بك ، وقد لقى من العنت والمشقات ما أدى الى مرضه ثم وفاته بعد بضعة أشهر ، ولكنها على كل حال كانت سبباً فى زوال الأكدار وحلول الصفاء بين الحزب الوطنى والوفد .

كان المتهمون فى قضية السردار تسعة ، أولهم عبد الفتاح عنايت وأخوه عبد الحميد وكلاهما من أصل أفغانى ، ثم العامل

إبراهيم موسى والمهندس الشرکسى الجنسية محمود راشد والعامل على إبراهيم محمد وكان من نصيبى الدفاع عنه أمام المحكمة ، ثم راغب حسن وكان عاملا بالسكة الحديد . أما شفيق منصور فكان محاميا ودكتورا فى الحقوق وعضوا فى مجلس النواب وكان مرشحا لوظيفة مدير الأمن العام ، وقد رشح خلال سجنه للمجلس فى انتخابات سنة ١٩٢٥ فنجح ضد منافسه الذى كان حرا طليقا ، وكان أثناء المحاكمة هادئا ، فلما سجن وعلم باعتراف الأخوين عنایت عايه ، أدركه هزال شديد وتغيرت نفسيته واختل توازن عقله حتى صار كثير من كلامه لونا من الهذيان .

أما محمود اسماعيل فكان أظهر المتهمين كرامة ، متمسكا بموقف الانكار ، كلماته نادرة ونظراته هادئة ، واثقا من النجاة ولو فى اللحظة الأخيرة .

وكان شهود القضية خليطا من الانجائز والمصريين ، أولهم مستر كامبل ياور السردار وجليسه فى السيارة عند وقوع الحادث وقد أصيب فى صدره كما أصيب مارش قائد السيارة ، أما الشرطى محمود عبد الجواد الذى نال جائزة ألف جنيه مصدوبة بعبادة اللبى وتهنئته بالمستشفى لأنه الشخص الوحيد الذى اقتفى أثر الجناة وأصابته رصاصة فى قدمه - فام يتعرف على أحد منهم .

أما نجيب الهلباوى الذى حصل على اعتراف عنایت بحياة بارعة استغل فيها ماضيه فى الاجرام السياسى ونال عشرة آلاف جنيه مكافأة على عمله ، فقد سرد طريقة اتصاله بالمتهمين ووقوفه على المعلومات التى أدت الى القبض عليهم وكيف أنه أحدث الرعب فى قلب ولدى عنایت فحاولا الفرار الى طرابلس الغرب متخفين فى زى عربيين مسلحين بنفس الأسلحة التى اقترفت بها الجريمة ، وكان ذلك سبب القبض عليهما واعترافهما .

كان اشتغال الشاهد نجيب الهلباوى بهذه القضية عقب خروجه من السجن مباشرة سنة ١٩٢٤ لأنه كان محكوما عليه فى قضية الاعتداء على السلطان حسين هو ومحمد شمس وصدر عنهما العفو ، وهو ما جعله موضع ثقة للمتهمين ومنهم الأخوان عنايت .

وشهد فى القضية أيضا أحمد أحمد حسنين الضابط بمدرسة الفنون والصناعات وكان شقيق منصور صديقه الحميم الذى لا يفارقه ، وقد أحدث حضوره بالمحكمة هرجا ولغطا لأن الجمهور كان ينتظر ألا يشهد هذا الصديق على صديقه الحميم .

وشهد محمود محمد غالى طبيب الأسنان ضد موكلى ابراهيم على محمد ، وكان المتهم قال انه فى يوم الحادث ذهب الى عيادة الطبيب المذكور ، فجاء هذا الشاهد ليكذب هذا الدفاع وينقضه . وقد احتدم الجدل بينى وبين هذا الشاهد وتدخل فى المناقشة النائب العمومى كما تدخلت المحكمة ، وتلوت شطرا من المحضر الذى دونت فيه شهادة الطبيب ، فاعترض عليها فقال له رئيس المحكمة :

— اسمع يا دكتور أنت واقف أمام محكمة الجنايات وليس لك أن تتكلم الا اذا أذنتك المحكمة ، أما حضرة المحامى فانه يدافع عن متهم مطلوب الحكم عليه بالاعدام .

وشهد فى القضية أيضا الدكتور سسدى سميت الطبيب الشرعى المعروف فوصف اصابات السردار وأكد أن الوفاة كانت محتومة وأن المسدس الذى أصيب منه السردار ليس فى العالم مسدس سواه يعطى شكل الاصابة .

وهنا دارت مناقشة بينى وبين الطبيب الشرعى حول الرصاصية المستخرجة من قدم السردار ومدى انطباقها على شريحة المسدس المضبوط ، فقال رئيس المحكمة متحديا الدفاع : من فضلكم لا توجهوا أسئلة لا نتيجة لها . كما اعترضت المحكمة على توجيه بعض الأسئلة للشاهد ، وكانت حيننا تقاطع الشاهد وحيننا تتعجل اجابته وحيننا تقابل السؤال بنوع من التهكم .

ولم يدم استجواب المتهمين وسماع شهود الاثبات والنفى سوى جلستين الا قليلا عقدتا فى يومى ٢٦ ، ٢٧ مايو سنة ١٩٢٥ .

وفى حوالى نهاية الجلسة الثانية وقف النائب العمومى محمد طاهر نور للمرافعة وكان يقرأ مرافعته على صورة خطابية مؤثرة من أوراق كثيرة أمامه ، فوصف السردار بأنه قائد جيش الأمة المصرية (كذا!) وأعلن أسفه على وفاته ، ووصف المتهمين بالأغرار المغتوبين واستشهد بكلمة المرحوم مصطفى كامل « أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا » وقال إنها شعار الأمة المصرية ، وقال ان الاجرام وقع على المصريين أنفسهم قبل أن يقع على سواهم وأن الاستقلال لا يكفى لصوننا ورفع مقامنا ، بل يجب أن نعرف كيف نصون استقلالنا ، ووصف شفيق منصور بأنه بطل هذه الحادثة وحامل لوائها الأسود ، وسرد تاريخه من سنة ١٩٠٨ حتى سنة ١٩١٩ وتأسيسه الجمعيات السرية التى من وسائلها العنف وسفره الى أوربا ونفيه الى مالطة وعلاقته القديمة بمحمود عنایت شقيق الأخوين المتهمين ، ثم انتقل الى الكلام عن محمود اسماعيل فقال انه يكره الانجليز كراهية متأصلة فى نفسه وتعلم الفنون الحربية والبرية ابان عمله بخفر السواحل وشهد مواقع كثيرة فى العراق مع الجيش البريطانى .

ثم تكلم عن الأخوين عنايت عبد الفتاح وعبد الحميد فقال
انهما ضحية شفيق منصور ومحمود اسماعيل وضحية اهمال والدهما
الذى تركهما غصنين رطيين لعناية والديهما وتزوج من غيرها ، وأن
جميع أفراد هذه العائلة اشتغلوا بالسياسة منذ عهد بعيد وأولهم
محمود عنايت الذى مات بعد الافراج عنه من الاعتقال بأشهر
قليلة . أما عبد الخالق عنايت فقد سافر الى أوروبا سنة ١٩٢٣ بحجة
تلقي دراسة الطب ولكنه كان يحضر مؤتمرات الشرقيين فى
استكهولم وروسيا وله علاقات بالسوفيت ويتناول منهم مددا ماليا
ولكنهم ينظرون اليه بعين الريبة لأنه وطنى وداعية للجامعة الاسلامية
وشديد الحماس .

ومما يذكر هنا أن الصحف نشرت حوالى سنة ١٩٣٠ أن
عبد الخالق ارتد عن الاسلام ودرس اللاهوت وانتحل اسما أوربيا
وتخلى عن الجنسية المصرية .

ثم ذكر النائب العمومى أن سبب القبض على المتهمين تقرير
قدم اليه بعد وقوع الحادث بأسبوع (٢٧ نوفمبر سنة ١٩٢٤)
وأن المعاومات التى جاءت فيه أملاها نجيب الهلباوى على البوليس ،
وخيرا فعل البوليس باختياره اذ لا يقل الحديد الا الحديد !!

ثم ذكر النائب اعترافات الشقيقتين عنايت وشفيق منصور
راشد وقال ان شفيق كان يستنهض همم والده وأصدقائه لمساعدته
حتى يفوز فى الانتخابات فلما منه أن فوزه يخلصه مما هو فيه .

وختم النائب العمومى مرافعته بقوله « لقد أجهدت نفسى
حرصا على العدل وسبعة البلاد وقمت بواجبى ، فأطلب منكم أن
تستأصلوا اليوم هذه الجرثومة الفاسدة بأشد ما فى القانون ،
فليس فى ذلك قسوة اذ نحن فى ظروف عصيبة توجب ذلك » .

وقد كتب محمد بك مسعود تقريرا عن القضية قدمه الى الحكومة فى حينه وأعطاني صورة منه سنة ١٩٣٦ أى بعد مضي حوالى احدى عشرة سنة من وقوع الحادث ، وقد تناول هذا التقرير وقائع جلسة ٣٠ مايو سنة ١٩٢٥ وهى آخر جلسة من جلسات المحاكمة ، ومما جاء فيه عن مرافعتى عن المتهم ابراهيم على محمد أن « لطفى جمعه استهل دفاعه بمقدمة استرعت الأسماع وحازت إعجاب الحاضرين جميعا حتى المتهمين أنفسهم ، وقد ظل يترافع نحو الساعتين طالبا البراءة لموكله فلم يبق له اعتراضا على أسهابه من المحكمة لأن مرافعته كانت مرتبة تدلى مقدماتها الى نتائجها وقد تركت فى النفوس أثرا كبيرا لمصلحة موكله » .

وذكرت جريدة الأهرام عن مرافعتى فى القضية أنه كان يتخللها نكات كثيرة أضحكت الحاضرين حتى المتهمين جميعا فى قفصهم . وكتب محمود عزمى فى جريدة السياسة يوم ٣١ مايو سنة ١٩٢٥ تعليقا على هذه المرافعة يقول « أنا اعتزم حصر ملاحظاتي اليوم على واحد من المحامين فقط هو الأستاذ لطفى جمعة ، لكننى مقتنع أن المحامين يعذروننى وقد حضروا الجلسة كما حضرت واستمعوا الى مرافعة الأستاذ كما استمعت ، وأرجو أن يكونوا قد حكموا كما حكمت أن ما تخللها من العبارات اللطيفة والنكات الطريفة يصطبجها تلك الاشارات اللطيفة لا يمكن أن يسجل الا قائما بذاته ولا يمكن الا أن يفرد له يوم من أيام ملاحظتنا .

« كان الأستاذ لطفى جمعه كثير الاستعارات والتشبيهات فى مرافعته ، لكنه كان رشيق التعبير ، وحدث أن وصف المتهم الذى يدافع عنه بأنه كان كشافا يحمل طبلا ونفيرا ويمسك نبوتا ويلبس بنطلونا قصيرا على الرغم من أنه سنى ملتج بدل أن يترك الكشافة لابنه ، فلفت أحد المحامين نظره الى أن الأمير الجليل عمر طوسون

هو « كشاف مصر الأعظم » ، فتلقفها الاستاذ لطفى جمعه وهي طائفة وقالها للمحكمة مضمينا ان الناس على دين ملوكهم فأراد ابراهيم محمد - وهو المتهم - أن يتمثل ويتشبه وأن يكون كشافا أصغر » .

- ٩ -

قضية القنابل سنة ١٩٣٢

ان هذه القضية ما تزال أضخم دعوى جنائية سياسية في تاريخ مصر الحديث ، وقد استمر نظرها ستة أشهر متوالية في الجلسات ، عدا سنة ونصف سنة في التحقيق والاستعداد والتأجيلات ، وكان قضاتها المرحوم محمد نور بك و ابراهيم ثروت بك ومحمد نجيب سالم بعد فتحى محمود باشا غالب ، ورجل النيابة فيها محمود منصور ، وكان عدد المتهمين نحو من ثلاثين منهم الطلاب والعمال والأعيان ورجال الأعمال وهى القضية الأولى التى ظهر فيها شاهد الملك علانية فى شخص ابراهيم الفلاح ، وقد ترفع فيها اثنان وثلاثون محاميا .

هذه القضية كانت ملفقة من أولها الى آخرها وقد اشتد ساعد البوليس السرى ونما وزكا كالزرع النابغ ، واتفقوا نوعا من الاعتراف جديدا وهو الاعتراف الآتوماتيكى ، فابراهيم الفلاح يقول أنا ذهبت مع المتهم الثانى وفعلت كيت وكيت ، والثانى - وكان اسمه عبد الرسول - يقول أنا والمتهمان الثالث والزابع عملنا كيت

وكيت ، والثالث يقول عن الخامس والسادس وهكذا ، ولم يرحموا في نهاية الأمر الا الدكتور نجيب اسكندر بعد سجنه عاما ورجلا من أعيان بولاق وأعيان الوفد اسمه محمد حسن صاحب مطحن لأنه كان يتصدق على ابراهيم الفلاح لوجه الله لا ليتقى شره .

وفي آخر يوم سقطت القضية كما يسقط بيت مصنوع من ورق الكوتشينة ، واعترف الفلاح بكل شيء ، وكان يوما رهيبا ظهر فيه ثبات أخلاق بعض الرجال ، وحكم على الفلاح بالسجن سنة قبض جائزة الألف جنيه التي وعد بها .

أما الدوافع فقد بقيت غامضة وان كان الدافع الظاهر هو الغضب على حكومة صدقي باشا ، أما الدافع الباطن فهو ارهاب الأمة واطهار حاجة الحكومة للبوليس السرى والتدليل على أن رجال الوفد هم الذين يحرضون على الجرائم .

وكانت المرافعات في هذه القضية نموذجية والقضاة من الطبقة الأولى ، وقد جلسنا نحوا من مائة وعشرين جلسة خلال ستة أشهر مستمرة ، وكانت الدعوى ملأى بالمفاجآت ، فقد طرأت خلال نظرها أحداث عديدة ، من ذلك تنحى رئيس المحكمة عن نظر القضية وانسحاب بعض المحامين من هيئة الدفاع فيها وشروع المتهم الأول ابراهيم الفلاح في الانتحار وعدوله عن اعترافاته وتقريره بأنها موعز بها اليه من البوليس .

ففي الجلسة الثانية من جلسات المحاكمة نشبت مشادة بين رئيس المحكمة محمود غالب وبين رئيس النيابة محمود منصور ، فقد أراد الأستاذ مكرم عبيد سؤال المتهم ابراهيم الفلاح ، فاعتضت النيابة على ذلك ودار بينها وبين رئيس المحكمة الحوار التالى :

النيابة : نعارض فى استجواب المتهم من الدفاع .

رئيس المحكمة – للنيابة أن تثبت ما تريده فى المحضر وأن تطعن فى الحكم أمام محكمة النقض ولكن ليس لها أن تعترض على الاجراءات التى تتخذها المحكمة .

النيابة : أطلب اثبات ذلك

الرئيس : أمرت المحكمة باثبات ذلك قبل أن تطلبه

النيابة : وأن يثبت أن النيابة تتكلم بهدوء وأن رئيس المحكمة يرد عليها بانفعال .

الرئيس : اثبت أننى رددت على النيابة بأعلى صوتى .

النيابة : وأطلب اثبات اعتراضى على استجواب المتهم من الدفاع وأحتج على رئيس المحكمة لما وجهه للنيابة من اهانة !

عضو اليمين – هذا لم يحصل

الرئيس : فيه حاجة ثانية ؟

وهنا قال الأستاذ مكرم عبيد أرجو أن يثبت أن النيابة وهى تمنعنا من استجواب المتهم انما تخطئ فى تطبيق القانون وليس هذا من حقها سيما وأن هذا المتهم – ابراهيم الفلاح – ليس متهما فقط بل هو شاهد علينا ، فمن حقنا أن نستجوبه ، ومن جهة أخرى فهذا المنع معناه من الوجهة الموضوعية أن دعوى النيابة قبل المتهمين الآخرين لا أساس لها وأنها تخاف الاستجواب لأنها تخاف أن يظهر للمحكمة وللملأ أن الدعوى مبنية على أساس موهوم وأن الاثبات مبنى على التلفيق والتجسس من قبل هذا المتهم .

وهنا قال المتهم ابراهيم الفلاح « أنا موش عايز محامى ، أنا
أتكلم بنفسى ، أنا مصمم على الى قلته من أوله الى آخره ، وعايز
ذايرة ثانية تحكم لى ، وان حكمت الدائرة دى ما أقبلشى حكمها » .

وعاد رئيس النيابة يقول : لا يهم النيابة من اعتراضاتها
الا تطبيق القانون وهى فى اعتراضها مستندة الى القانون .

رئيس المحكمة : هذا يكون أمام محكمة النقض .

النيابة : أنا أطلب اثبات كل ما أريد قوله بكل هدوء !

وهنا توتر الجو وتكهرب الموقف ورفع رئيس المحكمة
الجلسة .

وفى الجلسة الرابعة من جلسات المحاكمة تأخر انعقاد المحكمة
على غير المعتاد وراجت الاشاعات بعد أن قيل ان رئيس محكمة
الاستئناف والنائب العمومى قابلا وزير العدل .

وفى الساعة الواحدة دخلت هيئة المحكمة وطلب الرئيس من
كاتب الجلسة أن يثبت ما يأتى « قد اجتمع لدى من الأسباب
ما يحملنى على التنحى عن نظر هذه القضية وأرى من الحكمة أن
أمسك عن ذكر هذه الأسباب ويكفى أن أشير الى أننى لم أخضع فى
تصرفى هذا الا لسلطان ضميرى وأبدى أسفى لما يترتب على هذا
التصرف من تأخير النظر فى القضية حتى يعين من يخلفنى ، وبناء
عليه قررت المحكمة تأجيل النظر فى الدعوى حتى يعين من يخلف
رئيس المحكمة » .

وخلف المستشار محمد نور رئيس المحكمة زميله المتنحى
محمود غالب .

وحدث في اليوم السادس من أيام مرافعة الأستاذ مكرم عبيد في القضية أن أرسل مكرم اعتذارا للمحكمة على لسان زميله سيد سليم لسبب عائلي ، ولكن المحكمة طلبت من المحامين أن يكونوا دائما على استعداد للمرافعة حتى لا تحصل مفاجآت قد يترتب عليها تأخير نظر القضية .

وعلى أثر ذلك قال سيد سليم المحامي بمكتب مكرم عبيد ان مكرم مستعد لاتمام مرافعته . فقالت المحكمة : الأستاذ مكرم يترافع في دوره ، فاعتبر مكرم عبيد هذا الرد رفضا جارحا مهينا لكرامته وأبلغ محمد نجيب الغرابلي نقيب المحامين بذلك للعمل على ما يحفظ كرامته وقال له « ان عبارة تأخير مرافعتي منسورة في الأهرام وهي تشعير باهانتني من المحكمة وأنا لا أقبل هذه الاهانة مطلقا واني أبلغك بصفتك نقيبا للمحامين أنه يستحيل أن أحضر للمرافعة في هذه القضية الا اذا كلمني رئيس المحكمة بالتليفون ودعاني للحضور لاتمام مرافعتي » . وقابل الغرابلي هيئة المحكمة لتعدل عن قرارها حتى يستأنف الأستاذ مكرم عبيد مرافعته في اليوم المحدد تجنبنا لكل ما يشير الاشكال ويعطل سير القضية ، وقبلت المحكمة أن تعدل عن قرارها اذا طلب مكرم منها ذلك لأنه لا يمكنها العدول من تلقاء نفسها عن قرار أصدرته .

ووجد الغرابلي أن في ذلك حلا مقبولا وأبلغ به مكرم عبيد ولكنه رفض هذا الحل وقال للغرابلي : « أنا أعتبر أن هذا اصرار من المحكمة على اهانتني وأبلغك بصفتك النقيب أنه يستحيل على مع هذه الاهانة أن أترافع في القضية الا اذا اعتذرت لي المحكمة في الجلسة العلنية » فقال الغرابلي « اني لا أرى فيما حدث أية اهانة تبرر أن أطلب من المحكمة اعتذارا بالجلسة العلنية ، والحل الذي قبلته المحكمة حل مقبول في نظري لأنه ليس فيما تقرره المحكمة بشأن أمر يقع في اختصاصها اهانة على محام » .

ولكن الأستاذ مكرم أصر على موقفه ، ودعا الغرابلى مجلس النقابة للانعقاد مع باقى محامى الدفاع فى القضية ، وحضر مكرم عبيد ضمن المدعويين وبعد أن شرح وجهة نظره رأت أغلبية المحامين الحاضرين أن لا اهانة فى تأخير مرافعة مكرم عبيد عن دوره ، ولم يشذ عن هذا سوى أربعة محامين من هيئة الدفاع هم زهير صبرى ومحمود غنام وسيد سليم ومحمد يوسف . واقترح البعض أن يحضر مكرم عبيد بالجلسة ولا يذكر شيئا عن قرار المحكمة ويقوم ويقول فقط أنا مستعد للمرافعة ، فإذا لم تجبه المحكمة الى ذلك يحتج وينسحب ثم ينسحب معه من يرى الانسحاب من المحامين . وعرض الغرابلى باشا هذا الاقتراح على هيئة المحكمة ، وانهقدت المحكمة فوقف الأستاذ مكرم عبيد وقال أنا مستعد للمرافعة بعد أن زال عذرى القهرى ، فسألته المحكمة عما اذا كان سينتهى من مرافعته فى ذلك اليوم فأجابها بأنها فى الغالب تنتهى فى نصف الجلسة المقبلة ولا يمكنه أن يعد بانتهاه من المرافعة فى اليوم المذكور . فانسحبت المحكمة للمداولة ، ولما أعيدت الجلسة نطق رئيس المحكمة بقرارها ويقضى بأن يترافع مكرم عبيد فى دور الدكتور نجيب اسكندر . وهنا طلب الأستاذ مكرم عبيد أن يشهد انسحابه من القضية وتنازله عن التوكيل بناء على هذا القرار الذى اتخذته المحكمة . وانسحب أيضا زهير صبرى وانضم اليه أغا ومحمود غنام . فبينت المحكمة أنها لم تقصد المساس بكرامة المحامين كما نفت المساس بكرامة الأستاذ مكرم ، ولكن الأستاذ مكرم أصر على الانسحاب وترك قاعة الجلسة ومعه أربعة من زملائه .

وبعد حادث الانسحاب طلب الى أن أقبل الانتداب عن توفيق العزب ، فطلبت امهالى لاستشارة بعض أصدقائى فى قبول هذا الانتداب ، فأشار على بعضهم بأخذ رأى الدكتور نجيب اسكندر وفى تلك اللحظة أقبل الدكتور نجيب اسكندر وابتدئنى

بالرجاء فى قبول الانتداب ، ووصل ذلك الى علم النقيب الغرابلى باشا ، فوقف الغرابلى وقال لهيئة المحكمة علمت أن الأستاذ لطفى جمعه يقبل الانتداب عن العزب ، فقال رئيس المحكمة لكاتب الجلسة اتبت انتداب الأستاذ لطفى عن توفيق العزب ، فقلت : هذا لا يمنعنى من الدفاع عن الدكتور نجيب .

الرئيس : أنت حر ونحن لا نمنعك من الدفاع عن الدكتور نجيب .

النقيب : المحكمة تريد تخفيف العبء عنك .

فقلت : اننى جئت هذه المحكمة لأكون بجانب الدكتور نجيب ولا يمكننى أن أتخلى عنه بأى حال من الأحوال .
الرئيس : وهو كذلك .

وبادرت الى الأساتذة المنسحبين وهم زهير صبرى ورافع ومحمود غنام وأغا ورجوتهم رحمة بالمتهمين وضنا بوحدة المحامين أن تتصدع أن ينظروا فى الأمر ويتقدموا خطوة نحو السلام وتصفية الجوى ، فاستلنا لقولى وعلقوا قبولهم على قبول مكرم عبید الذى كان حينذاك بالاسكندرية ، فعرضت عليهم السفر بنفسى والسعى لديه فوافقوا ، ثم لم يلبث أحدهم أن قال لا أظن أنه يقبل .

وقد بلغ عدد المحامين فى القضية أكثر من أربعة وعشرين محاميا انسحب منهم خمسة ، أما الباقون فمنهم كامل صدقى وسلامة بك ميخائيل وأنطون جرجس وسامى نجيب وعزيز مشرقى وميخائيل غالى وإبراهيم الهلباوى وراغب اسكندر ويوسف الجندى وبسطا شكرى وصبرى أبو علم وأمين عامر ومحمد احسان وآخرون غيرهم .

أما المفاجأة الثالثة التى ذكرت بها هذه القضية فهى محاولة المتهم الأول فيها ابراهيم الفلاح الانتحار بالسجن بشنق نفسه ، فلما لم يبلغ مقصده أخذ يضرب رأسه بالحائط ثم صب على نفسه البترول المملوء به الموقد الذى كان فى غرفته لصنع الشاى والقهوة ، فلما حاول حراس السجن منعه استشاط غضبا وهاج واجتاحته ثورة عارمة وحاول خطف بندقية أحدهم فأطلق عليه كونتسابل رصاصة أصابته فى ذراعه الأيسر ونقل الى قصر العيني لعلاج .

ولما تولت النيابة التحقيق فى هذا الحادث عدل عن اعترافه وأسند الى البوليس أنهم أوحوا اليه وحرصوه على صنع القنبلتين اللتين ضبطتا للايقاع بعبد الرسول وباقى المتهمين ، كما قرر أن البوليس أوعز اليه بأن يشهد زورا ضد الدكتور نجيب اسكندر .

ولم تر المحكمة عندما اطلعت على هذه الأقوال الجديدة بدا من أن تفتح باب المرافعة فى القضية من جديد بعد أن كانت قد حجرتها للحكم لتناقش المتهم فى هذه الأقوال .

وقد أثار نبا تلك المفاجأة اهتماما عظيما فى انجلترا وانهالت المكالمات التليفونية على ادارات الصحف ووكالات الأنباء للاستفسار عن تفاصيل الحادث ، وتناقلت مراكز الأخبار الصحفية فى الخارج نبا الافراج عن الدكتور نجيب اسكندر وبعض المتهمين الآخرين وفتح باب المرافعة فى القضية بعد قفله وتحديد يوم للنطق بالحكم نتيجة لعدول الفلاح عن اعترافاته وأقواله التى أدلى بها بوحي من البوليس وابعازه .

لقد كان ابراهيم الفلاح بطل هذه القضية الشهيرة ، لفقه وشهد فيها على المتهمين المظلومين ثم اعترف بالتلفيق ودخض أدلة العبوت فى المحكمة ثم عفى عنه ونال جائزة مقدارها ألف جنيه بددها

واقترف جرائم أخرى ، وهو شاهد الملك فى هذه القضية على غرار النظام المنقول عن القضاء الانجليزى الذى يشجع الوشاية والتلفيق ويعطى جوائز لمن يفعلهما .

كان الفلاح أثناء المحاكمة يقاطع المحامين والشهود وقد تطاول على بعض المحامين ، فقد حدث أثناء مرافعة ابراهيم الهلباوى عن موكله عبده عبد الرسول أن قاطعه ابراهيم قائلا : ده متشطر على قوى . فقال له رئيس المحكمة : اسكت ما يصحش تقاطع ، وأنا قلت لك من الأول انك حتمسمع كثير . وبعد فترة استأذن الفلاح فى الخروج فأذن له رئيس المحكمة فقال وهو خارج من قاعة الجلسة موجهها كلامه الى الهلباوى :

— اتشطر على فاطمة سرى !

فانزعج الهلباوى وقال غاضبا :

— الله ! فاطمة سرى دى ايه كمان ؟ هو أنا باعشق نسوان ؟

كان الاتهام الموجه الى المتهمين فى هذه القضية ، انهم صنعوا القنابل واستعملوها وفجروها فى بعض الأماكن وأطلقوا النار على بعض الشخصيات وعطلوا قطارات السكة الحديد وكونوا جمعية أطلقوا عليها اسم « جمعية الارهاب » وأن الدكتور نجيب اسكندر هو الذى يمول هذه الجمعية ودفع للعمال ثلاثمائة جنيه .

فقد حدث أن قام عمال العنابر والترسانة بالاضراب عن العمل فقامت الحكومة حينذاك — وكانت برئاسة صدقى باشا — برفتهم بسبب ما كان بينها وبين الوفديين من الخصومات السياسية، فقد غاضها أن العمال قاطعوا الانتخابات فاعتقدت أنهم يناوئونها

سياسيتها ففصلتهم انتقاما منهم وردعا لغيرهم ، وكان واضحا أن الزج بالدكتور نجيب اسكندر في هذه القضية هو أنه كان وفديا ونائبا بارزا من نواب الوفد وكان على اتصال بالعمال المغضوب عليهم لتوزيع اعانات مالية عليهم ، وكان هو همزة الوصل بين هؤلاء العمال البؤساء وبين لجنة السيدات لمعاونتهم لما انقطعت بهم أسباب الرزق واشتد عايمهم الضيق ، وقد تألفت هذه اللجنة برئاسة ام المصريين وجسعت المال وانتقلت الى أماكن هؤلاء العمال لتواسيهم وتعينهم ، وكان من بين أعضائها شريفة هانم رياض زوجة الوزير رياض باشا وزوجات العظماء والوزراء مثل خشبة باشا وبهى الدين بركات ومكرم عبيد وغيرهم .

لم تمض الا بضعة أشهر على اسدال الستار على هذه القضية حتى ظهرت فضائح اسماعيل صدقي ظهورا مخزيا ، فكانت فضيحة الكورنيش أضخمها وكان فشله في مفاوضة وزير الخارجية الانجليزية في جنيف ، وغضب عليه الملك فؤاد الذى كان يعتقد أنه اقوى سياسى فى مصر ونبذته نبد النواة واقصاه وعزله عن السلطة وخلع من منصب الوزارة ولم ينفعه الا الامسوال التى اغتالها واغتصبها بالحيل الذميمة ، فقد اتخذ القصور فى المصايف والمشاتى والذهبيات فى النيل والمساكن الأنيقة فى الضياع والأباعد ، وكانت له أثناء ذلك قصص ونوادير وتواريخ وأحاجى ، فكان عهده عهد من أدركته عهياء مجهولة وضغائن محمولة وأهواء متبعة ودنيا مؤثرة ، وما ساق الله به خيرا قط ولا منع سوءا قط اللهم الا لنفسه ولذويه وعن نفسه وعنهم ولا يرون احد عنه أنه أنصف فى مسألة ولا أقام العدل ولو ساعة من نهار الا لدى هيبة ومكانة يرحوه أو يشاه كالملك أو سفير دولة أجنبية أو وكيل شركة عقارية أو وسيط فى معاملة مربية أو دخيل يلتبس نفعا مؤاتيا مباشرا لقاء نفج مؤات مباشر ، وما يزال هذا الرجل يتدرج فى مراقى الثراء

المادى وينحدر فى مهاوى الفاقة الروحية ويكب على وجهه فى
حضيض الانحطاط الخلقى ، وكذلك يفعل هو وأمثاله !

لقد اغتصب هذا الرجل منصب الوزارة فى صيف سنة ١٩٣٠
وقلب نظام الدولة وألغى دستور سنة ١٩٢٣ وأتى بالمظالم والمغارم
فى ظل الملك فؤاد وأخمد أنفاس الحرية وتحكم بالقوة الغشوم فى
مسالك الحق فى هذه الأمة الضعيفة ولم يجد من يقاومه ، واننى
ألفت نظر المؤرخين ليتحفزوا لكتابة ما يجب أن يكتب عن عهد
اسماعيل صدقى من صيف سنة ١٩٣٠ الى شتاء سنة ١٩٣٤ ،
ولعل حياة أمثال هذا الرجل أن تكون أشد عذابا وتنكيلا له من
موته !!

أعمالى فى خدمة نقابات العمال فى القاهرة

فى سنة ١٩١٢ كانت هنا نقابة للعمال فى القاهرة أسسها
المرحوم عمر لطفى ووكل أمرها لموظف فى العنابر كبير السنة طويل
الأنياب أشيب الشعر أسمر اللون وكان هذا الرجل أبعد الناس
عن فهم مسائل العمال ومشاكلهم ، فرجاني المرحوم عمر لطفى بك
أن أتولى معونة الرجل فى ادارة شئون النقابة لوجه الله الكريم ،
فقبلت عن طيب خاطر ، لأن الزعماء ظنوا أننى محب للخير وقاصد
الى خدمة وطنى فى كل ناحية ، حتى اننى خاطبت المحاكم فى احالة
أكبر عدد من قضايا المعافاة القضائية على مكتبى ، وهناك فى النقابة
أعمال بر وتهذيب ومساعدة ، فاقبلت على النقابة - وكان مقرها
باحدى عمارات الأوقاف بميدان العتبة الخضراء - فاعطيتها كثيرا
من وقتى وعقلى وقلبى ، وفرحت بها فرحا شديدا ، اليسست عملا
عاما مما تتوق اليه نفسى ؟

وكننت أول ما وصلت من فرنسا الى القطر المصرى بدأت أكتب
فى الصحف فى خدمة العمال ، واتجه نظرى الى عمال العنابر
بالسكة الحديد ، فخطبت وكتبت منذ سنة ١٩١٢ ، خطبت فى بولاق
وفى اجتماعات عامة وفى مقر النقابة فى العتبة الخضراء ، فأحاط
بى جيش من الجواسيس المعينين والمتطوعين ، جواسيس الحكومة
والوكالة البريطانية ، وكان الحزب الوطنى - وهو حزبى - أول من
أرسل رجلا مغربيا تاجرا أشهل العينين ، مضطرب الأعصاب

يتعقبني حيثما ذهبت لأخطب تحت ستار الإعجاب بي وطلباً للفائدة العقلية ، فكان في كل مرة يعود بخفي حنين لمن أرسلوه ، ولحظت أنه كان يكتب خطبي ولكن لا أراها منشورة في جرائد الحزب الذي أنتمى إليه . فلما عرفت حقيقة أغضيت عنه ، وفي إحدى المرات تحررت أن أكتب خطبتي ، وقبل أن يبدأ بالتدوين في ضوء ضعيف قلت له « أرح نفسك يا محمد بك ، لقد كتبت لك الخطبة » وناولته أياها قبل أن ألقيا ليستمتع بالسماع ولو مرة واحدة !

وكان رئيس النقابة نفسه عينا وأذا وقد درج على العمل في قاعة مغلقة ، فكان مجلس الإدارة يجتمع سرا ، فلما صرت رئيسا سترت على خطته في الاجتماع سرا بمجلس الإدارة .

وبعد فترة يسيرة أخبرني ثقة أن اثني عشر عضوا من الثمانية عشر جواسيس لجهات مختلفة ، على أن عملي لم يكن يتجاوز علاج عامل مريض أو دفين فقير أو مساعدة أرملة وإيتامها أو عقد قرص لعامل في ضيق ، ولا أذكر أنني تكلمت على غير هذه الدائرة ، ولكن عدد الجواسيس كان يتكاثر وينمو ونشاطهم يزيد ، فأدرت أن الروح النقابية أو الصالح العام بعيدان جدا عن تفكير العمال ، فلم أر إلا وسيلة واحدة لاحتباط أعمالهم وهي أن أفتح باب غرفة المجلس على مصراعيه وأبيع لمن يشاء من الأعضاء وانجاز الأعمال في وضوح النهار لأقضي على مظاهر السرية فلا يملك أحد من الأعضاء المتجسسين أن يزعم نقل خبر ، لأن كل ما يحدث ويدور إنما يقع بمشهد ومسمع من الجميع وعلى رؤوس الأشهاد ويسجل في دفتر معروض لأنظار الجميع .

فلما تم ذلك أخذ أعضاء مجلس الإدارة يقل وحضور كثير منهم ولا سيما الاثنى عشر - يخف لأعداء واهية .

ثم ظهرت لجنة اسمها « تقويم اعوجاج النقابة » ، وكان دأب هذه اللجنة أن يخطب اعضاؤها في كل لحظة وفي كل موضوع وفي كل مناسبة ، فلما رأى الرئيس المتقدم في السن أن دوره بطل وأنه لم يعد صالحا للإدارة انسحب وترك العبء على كاهلي فاحتلمته واستمرت في هذا العمل عاما كاملا أدبت فيه ما استطعت داخل النقابة وخارجها وفي قضايا العمال الخاصة ، وهم من عرفت حالهم ، فكان على أن أخدمهم وأعينهم ، وقد صلحت الأحوال بعض الإصلاح .

وحدث أنني سافرت في نهاية العام الى أوروبا للاستشفاء ولأؤدى امتحان الدكتوراه في كلية الحقوق بليون وعدت بعد ثلاثة أشهر ، وفي اليوم الثالث ذهبت الى النقابة فوجدت جمعية عمومية لانتخاب مجلس الادارة والرئيس ، وكان حضوري مصادفة ولم أكن أعلم باجتماع الجمعية العمومية ، فلما دخلت سمعت هتافا وتحية ، ثم رأيت وجوها وارتبكا ، فجلست في احدى الغرف ، ثم سمعت جدالا ونقاشا حاميين ، فسألت عن السبب ف قيل لي ان رئيس الاجتماع عندما علم بحضورك فض الجمعية العمومية وأجل الانتخابات الى جلسة أخرى وأنهم يرشحون شخصا مرييا لا علاقة له بالعمال ، فسألت عنه ف قيل لي انه محمد البنداري المحامي وهو شخص لا يمت للعمال ولا للأحزاب ولا للحياة العامة بأية صلة وأنه مرشح لبوليس وقد رشحوه لأنه مأمون العقابة وأما أنا فنسبوا الى التهيج والعمل على الثورة !

وتطوع شخص فروى لي أمورا عجيبة أثناء غيبتى القصيرة وقال لي : أتدخل معركة الانتخابات يا أستاذ ؟ قلت له : أنني لم أتقدم لهذا العمل لدخول معركة انما أؤدى واجبا ظننت أصحابه اختاروني لصلاحيه معينة ، نادا رأوني أراحم غيرى عليه حسبوا أن لي فائدة ، وبما أن هذا غير صحيح فالأولى لي أن أعزل .

قال لى : ألا ترى نفسك أقدرهم على القيام بهذه المهمة ؟ .
قلت : لا ولكن العمال وزعماءهم هم الذين رأوا ذلك . قال : ان
المرحوم عمر لطفى بك توفى وقلت زمام النقابة من يد العقلاء
وأصبحت موضوعا للمضاربة ، ظنا أنها توصل الى مراكز سامية ،
فزعيم العمال يكون أبدا مسموع الكلمة ، وقد تعرض عليه الحكومة
وظيفة لتضمن سكوته وعدم تدخله ، ولذا جاء البندارى (الذى
كان يرأس الاجتماع) وخطب وأخذ يغمض أجفانه ويرفع حاجبيه
ويلين تارة ويشتد أخرى ويمد فى الفاظه وله غنة غريبة وأناقة
خاصة وعطور فائحة فلم « يدخل فى مزاج العمال » ، ولكن تيار
الضغط قوى عليهم من جهات عليا لينصبوه عليهم أرادوا أم لم
يريدوا ، ولذا اقترحت عليك دخول الانتخابات فتفوز ، ولكن أنا
أعلم أنهم سيضعون الأشواك فى طريقك ، وانما يفديك العمال
بأرواحهم ، والحقيقة أن العمال « كلمة تودهم وكلمة تجيبهم »
لأنهم ضعفاء وفقراء وجهلاء ، فيجب أن تصبر عليهم وتعاملهم كالسنة
الماضية ، ان جهة كذا تنذر وتهدد وجهة كذا تشجع الشخص الجديد
وتمدد ، وجهة كذا تضعه تحت التجربة .

فقلت له : كفى ! أهى معركة وترلو !؟ قال : أعلم يا سيدي
أن حركة العمال منظور اليها بعين الاهتمام ، وأن الجهات تخشى أن
يكبر أمرها ويستفحل فتشمل جميع الطبقات الفقيرة وتبدأ نضالا
لا يقل عن نضال الطبقات فى أوروبا ، وأنا أعلم أنها لن تسفر عن
شئ مطلقا لأن النفوس هنا غير النفوس فى أوروبا .

فنظرت الى الرجل وتخيلت أننى أرى فى وجهه إثارة من شبه
أزيف السياسى المزدوج الوجه أول من أطلق عليه وصف « ايجان
بروفا كاتور » ، فقطن بسرعة الى سوء ظنى به مع سابق معرفتى ،
فقال :

— أنت لا تصدقنى وقد تسىء الظن بى لأننى أطلعك على كل شىء ، ولكن ستثبت لك الأيام صدق كل حرف من كلامى ، فان كنت تريد النضال ، فناضل ، وان كنت تريد أن تعرف خواتيم الأعمال قبل بدايتها فها أنا ذا شرحت لك ، وقد عملت فى كل عمل ووقفت على حقائق الأمور لا أريد أن تتحطم آمالك على صخرة الكيد والدسيسة ، فاختر لنفسك ما يحلو .

قلت له : وبم تشير على ؟ • قال : حاول دخول الانتخاب • قلت : وهو كذلك • قال : ان الانتخاب قد حددوا له يوم الجمعة المقبل ، بيننا وبينه ستة أيام فاستعد له • وانصرفنا •

والحق أقول ان هذا الرجل كان صادقا وقد دامت صلتي به عشرين عاما وكان شريفا طاهر اليد ، شديده الذكاء كثير التجربة • وفى اليوم التالى قرأت فى الصحف خبرا يقف له الشعر وهو أن الجمعية العمومية لنقابة عمال العنابر قد اجتمعت فى الساعة كذا من يوم كذا وانتخبت بالاجماع (كذا) فلانا رئيسا ، وهو الشخص ذو العينين الناعستين والمناديل المعطرة ، وفلانا (وهو الشيخ الذى انسحب وهو موظف) وكبلا وآخرين أعضاء مجلس الادارة ، وقد تبودلت الخطب والتهانى ودارت أكواب الشراب والحلوى الخ •

والدهش حقا أن هذه الساعة وهذا اليوم المذكورين هما اللذان كنت جالسا فيهما فى غرفة النقابة بعد فض الاجتماع وتأجيل الانتخابات وانقسام الأعضاء !

وكان هذا أول تزوير فى الحياة العامة رأيته بعينى وشهدته بنفسى ، وأول مداواة ونفاق وخداع أذاعته جريده فى شىء لمسته

وكابدته ، حتى ليكاد المرء يكذب نفسه ويتوهم أنه كان في حلم
لا في حقيقة !

وسرت في الطريق بضع خطوات الى مكتبي الذي كان في شارع
البنديق نمرة ٢٥ تجاه الباب الخلفي لبناء الأوبرا الخديوية ، وإذا
بالرجل يلاحقني وهو الذي تحدث الى في الانتخابات أمس ، فلما
رأيتني قلت هذا المدحك الأخير على سير الحوادث وأنتى لست حائلا ،
فابتدوني بالتحية وببيده جريدة وقال : ألم أقل لك ، ولكن الحيلة
تفوق الخيال وتعصى على الفكر ، لم يخطر ببالي مطلقا أنهم يلجأون
الى هذه الطريقة .

قلت : والعمال أنفسهم ماذا يقولون ؟

قال : عمال ! انهم يعتبرونهم قطيعا ، فالمدركون يوعدون أو
يهيّدون بالطرد أو الرفق والبقية يقولون « ربنا يولى من يصلح ! »
أو « اللي يتجوز أمى أقول له يا عمى !! » ، وعلى الله الشفاء ، لقد
أراد الله بك خيرا ، لقد أظهرت نيتك وعزمت على النضال فكفك
الله شر القتال ، لأنه لم يكن ليسفر عن خير ، وانك الآن لو ذهبت
زائرا أو ضيفا أو مهنثا فلعلهم يغلقون الباب في وجهك !

قلت له : قل غير هذا يا رجل ! ان فلانا الذي انتخب رئيسا
صديقي على الرغم من « تسبيل جفونه » وتعطير ثيابه ، وهو رجل
لنهذب .

قال : قد يكون شقيقا !

وعلى كل حال فقد استثمرت في خدمة العمال أدبيا عن كسب .

وفى سنة ١٩١٩ تقدمت الى نقابة عمال الترام بواسطة
سكرتيرهم وهو رجل ايطالى وعرض على مرتبا شهريا فاعتذرت وقلت
له : اننى مستعد لخدمتهم بغير مقابل * فقال لى : ان المصريين
لا يقدرّون الرجل الذى يخدمهم بغير مقابل الا اذا كانت له أغراض ،
فالأفضل أن تقبل المرتب ، واذا أردت فتبرع به لناحية بر *

وفى سنة ١٩٢٢ وقع فى أيديهم المرحوم الأستاذ محمد كامل
حسين فذاق المر ثم أوردوه موارد الهلاك بعد أن أنفق كل ماله
وذهب عمره *

وفى سنة ١٩٣٩ تقدم الى عمال ترام القاهرة عن يد على شوقى
باشا ، فعاونتهم مدة طويلة ثم ظهر لى أنهم أعوان للشركة والبوليس
السرى وأضرب بعضهم عن الطعام *

وأخيرا ظهر الأمير عباس حليم ! ؟ *



التكوين الروحي

(١)

يسألونك عن الروح^(١)

الاشباح والأحلام والكونت دي جلازوا

انشغلت بالتفكير في العالم العلوى في الرابعة عشرة من
عمرى •

لا يوجد ما يدعو الى المبالغة في هذا الامر بعد أن تعديت
الخمسين ، وليس في هذا ما يدعو الى الفخار في عالم مادي شغلته
مشاغل أخرى وقد ينظر فيه الى تقرير مثل هذه الحقائق بعين
الازدراء أو على الأقل بابتسام الريبة والظنون •

وأصل تفكيرى يرجع الى اكتشافى أن الأرض ما هي الا كوكب
سيار من سبعة كواكب سيارة ، وكان ذلك في سنة ١٨٩٩ قبل أن
تكتشف سيارات أخرى ، فشنغفت بدرس الفلك ، ولما أقول الفلك
أقصد الى أننى قرأت كتيباً صغيراً من تأليف عالم هولندى اشتغل
بالتعليم في كلية بيروت الأمريكية اسمه كرونوليوس فانديك ، وهو
والد ادوارد فانديك الذى تعلمت عليه دروس الترجمة بعد ذلك
بعامين • وهذا الكتيب واحد من سبعة اسمه « النقش في الحجر »

(١) كتب لطفى جمعة هذا الفصل من المذكرات سنة ١٩٤٢ •

فى المنطق والفلك وغيرهما من العلوم التى كانت تتوق إليها نفسى
ولا أطولها فى التعليم الابتدائى .

وسكنت فى أعلى طبقة فى منزل ، فاصطنعت نوعا من
« التلسكوب » لأرغب الكواكب ، وكانت الفكرة فى ذاتها صبيانية
ومضحكة ، ولكنها دلتنى على اتجاهى ، فصنعت لنفسى نظرية عقلية
وهى أنه ما دامت الأرض كوكبا سيارا ، وهناك فى السماء سيارات
أخرى وألوف الكواكب التى لا تحصى ، فما الذى يمنعها من أن تكون
مسكونة بكائنات على شاكلتنا أو على غير شاكلتنا ؟ ! وما دام
الله خالق هذا الكون كله ، فليس من المعقول أن يعنى بكوكب واحد
ليس أكبر الكواكب ولا أعلاها ولا أسرعها ويترك بقية الكائنات
السماوية خالية ، ولم يخطر ببالى أن أهل الأرض أرقى جميع
المخلوقات قط .

وهذه أفكار وردت على عقلى من تلقاء نفسها ، فلم ألتمسها ولم
أبحث وراءها ولم أطل التفكير فيها ، ثم وقفت عند هذا الحد -
وقد قوى الفكرة فى ذهنى بعد حين ، ظننى أن فى العالم الأرضى
نفسه كائنات لا نراها ، ولا بد أن أقوال الناس وقراءة بعض
المقاصص كونت فى نفسى عقيدة عن هذه الكائنات التى لا ترى .

ولاحظت فى صلاة بعض أقاربى أنهم يلقون السلام ذات اليمين
وذاة الشمال عقيب كل صلاة ، فسألت عن السبب فقال ان على
كل كتف ملكين ، الأيمن يعد الحسنات ، والأيسر يعد السيئات .
وإذن يكون الدين الذى اعتنقه يقتضى أن أصدق بوجود كائنات
لا ترى تلازم الإنسان فى رواجه وغدوه وتستحق التحية بعد كل
صلاة . فإذا صدقت القصص - ولا سيما ما قرأت فى سيف ابن دى
يزن وألف ليلة - عن وجود الجن والمردة ومعونتهما للإنسان أو
معاكستهما إياه ، فلا بد من وجود هذه الكائنات غير المرئية .

ثم سمعت من إحدى النساء وصف حفلة « زار » ، فحتمت أن أراها ، فرأيت فيها مناظر بشعة تدل على الهمجية، فيها ذبح طيور وحيوان وتلطيف أيد بالدماء ، ثم التنادى بمخلوقات خفية بأسماء غريبة وتنسب إلى بلاد مختلفة كالهند والسودان والحبشة ، وفهمت أن هذه الشخصيات المستخفية تمس بعض النساء أو تحتازهن وتتحكم فيهن في الصحة والمرض ، وتحتتم أن تجرى لها رسوم وثنية كتقديم الضحايا ودق الطبول واعداد ملابس معينة ومصوغ غال وإيلاام ولأثم وهكذا .

نعم قيل لى انها خرافات وأعمال مخالفة للدين والآداب ، وأنها وثنية الأصل ، فاعتقدت ذلك ولكننى زعمت أنه لابد أن يكون لها أصل فى التاريخ أو الحالات الروحية لهؤلاء النسوة ، وكنت لا أعرف فى ذلك العهد شيئا عن علم النفس أو أمراض الجهاز العصبى أو التنويم المغنطيسى .

وكانت الحوادث تجرى سريعا ، فلما بلغت القاهرة لأدخل فى المدرسة الثانوية ، فقد لنا شيء ثمين ، فدلونا على امرأة اسمها الشيخة « رمانة » كانت تقطن حى باب اللوق ، فذهبنا إليها وقد صممت على أن أنظر إليها عن كثب وأدرس وسيلتها وأكشفت حيلتها ، اذ ثبت فى ذهنى قبل رؤيتها أن عملها لابد أن يكون نوعا من الخداع والرجم بالغيب ، وكان فناء هذه المرأة مزدحما بالرجال والنساء من كل الطبقات ، وكان أجراها قرشين ، فلما جاء الدور علينا نظرت الى المرأة - وكانت فى الأربعين من عمرها ضئيلة البدن ، نظيفة الثياب ، متحلية بمصوغ وعليها هيئة الذبول ، وعيناها نصف مغضبتين - فوضعوا بخورا فى مبخرة أمامها ، فلما صعد إلى أنفها انقلبت تتكلم بلسان طفل وصوت الطفل ، فقالوا هذا هو الشيخ الذى يصحبها ويطلعها على الخفايا . فكان أول ما تكلمت

أن نظرت الى ونطقت باسمي ، فلم يدهشني ذلك ، ثم قالت بلهجة الطفولة : جئتم لتسألوا عن شيء مفقود وهو طويل ونحيل وله يد ملتوية هو عصا ، فدهشت لأن الشيء المفقود كان كما ذكرت المرأة . ثم استرسلت « انه في المنزل في الدور الأعلى تحت السرير ، تحت المرتبة » فخرجنا وأنا أعلم يقينا أن أحدا ممن كانوا معي لا يعلم موضع العصا والا ما تعبنا في المجيء اليها ، ولما بلغنا المنزل بحثنا في المكان الذي عينته ، فوجدنا العصا ، فكان هذا الأمر حديثنا يوما أو بعض يوم ولم نفكر فيه بعد ذلك .

ومضت فترة طويلة ، وقابلت رجلا حليق الشاربين واللحية ، خفيف الروح ، يلبس ثيابا عجيبة ويده عصا صغيرة ، وهو يتحلى بخواتم وعلى رأسه طاقية غريبة الشكل، فقصد الى — ولم أكن رأيته من قبل ولم أره بعد — فقال لي « أنت يا فلان لقد نجحت في كذا وكذا ، فافرح ولا تحمل هما » . ثم انصرف ، فقال لي أحد الحاضرين « انه ولي وصادق ومكاشف » Clairvoyance أى مطلع على الغيب !!

كانت هذه بداية التفاتني الى عالم الخفاء ، وطنى بأن وراء الأكمة ما وراءها ، وأن الشاعر لونغفلو الذى حفظنا له في المدرسة مقطوعة شعرية قد أشار الى هذا اشارة واضحة عندما قال :

أنت تراب والى التراب تعود

ولا دخل للروح فى هذا

فليست الحياة حلما فارغا

وليست الروح الى الزوال

ان الروح خالد باق

وظواهر الأشياء لا تدل على بواطنها •

وعجبت أن شاعرا أمريكيا مسيحيا ينطق بهذا الكلام الذى كنت اظن فى حدائتى أنه من اختصاص الاسلام •

كنت فى تلك الفترة أقرأ كل شئ يقع لى ، ولا أدرى كيف وصل الى يدي كتيب اسمه « الدر المنثور فى أخبار أهل القبور » ، فقرأته فإذا هو ملآن بالعجائب عن خروج الروح من البدن وقت الموت ومراقبتها الجسم ، وحزنها من بكاء الأهل ، وفرحها بالخلاص ووحدتها واستعدادها للسياحة فى بطن الأرض أو فى ملكوت السماء ، وكان ثمن هذا الكتاب مليما واحدا ، وأن الذى وضعه مؤلفه فيه لا يختلف كثيرا عما أثبتته العلم التجريبي بعد قراءة اياه بأربعين عاما ، فمن كان يعرف هذا الكتاب فيقرأه ليقارن بين مادته وبين ما دونه علماء الروحية فى العصر الحديث ، وهناك أدلة قاطعة على أن مؤلفه - وهو شيخ غير معروف - لم ير ولم يسمع شيئا عن تحضير الأرواح على أيدي الوسطاء وسؤالها وجوابها وتحرير محاضر الجلسات بعد التحقق والمراقبة الشديدة •

ولكن العلوم الحقة التى تلقيتها فى المدرسة الثانوية وآداب اللغات والرياضيات والتاريخ والكيمياء والطبيعة حولت نظرى وشغلت بالى عن كل ما عداها ، فما كان لطالب فى المدرسة التجهيزية (كما كنا نسميها) أن يلهو بالبحوث الروحية ، وكنت أجتمع بمشايخ وطلاب أزهريين ، فلم يخطر ببالى يوما أن أسألهم فى شئ من هذا ، بل كانت مساجلاتنا فى الأدب العربى ومطارحات الشعر •

وحدث أن قرأنا فى كتاب المحفوظات المدرسية جزءا من قصة « هامليت » الشهيلية على يد أستاذ اسمه « ادجار » وكان شابا انجليزيا ذكيا مطلقا ، فلما وقع بصرنا على كلمة شبح Ghost

التي تمثل والد همليت • سألناه عنها ، وسألته أنا بالذات : هل يعتقد الانجليز في وجود الجحش والفقاريت ؟ • فقال لي : كان شعبهم يعتقد ذلك ، وعلى كل حال فالقصة دهرمية جرت وقائعها في هازنغفورد عاصمة دنمارك من سنين طويلة . وليس شكسبير مصري شاعر •

فنهض تلميذ اسمه محمد عفيفي (ولا أدري أين هو الآن) وكان متأثرا في ثيابه وكلامه ويقول دائما انه يعرف أكثر مما يعرف فقال للأستاذ : ما معنى Haunted-House أي البيت المسكون ؟ • فابتسم الأستاذ وقال له : أين قرأت هذه الكلمة ؟ • قال : في صحيفة انجليزية • فتعلقنا بأهداب هذا السؤال ، فقال الأستاذ : اقرأوا الشعر أولا وأنا أجبكم بعد ذلك •

فلما فرغنا من الشعر ، قال : يعتقد كثير من المجازن (كذا) والجهال أن بعض القصور القديمة في أرياف انجلترا — وهي التي حدثت فيها حوادث مفرقة أو جرائم شقية أحرقت فيها النيران — تلازمها أرواح القتلى الذين اشتعلهم اندوارهم أو دفنوا جثثهم في الجدران ، فتظلم بها كانت عاينه في هذه الحياة وتصبح أو تتكلم أو تؤذي السكان ، ولكن هذه أمور لم تثبت صحتها ولا يجوز لكم أن تنشئوا بها •

فأجاب محمد عفيفي الذي كان مسحوبا من لساننا : سواء ثبت أم لم يثبت ، فان ثبت فان عندكم عقاريت مثلنا ، وهذا ما لم نكن نعلمه ، وان لم يثبت فأنتم تعتقدون بالخرافات كما نعتقد ! • فأمر الأستاذ — وكان وديعا جدا — بإخراجه من الفرقة • وانتهى الأمر في هذا اليوم ، ولم أعد أفكر فيه حتى سنحت لي فرصة بعد أشهر ، فشهدت تمثيل همليت على مسرح مصري ، ولا تسأل عن

دهشتني عندما فهمت معنى ظهور الشيخ واتصاله بآبائه همليت وأصدقائه في الهزيع الأخير من الليل وشرح حادثة مقتله وكشف الستار عن جريمة حدثت في القصر الملكي وخيانة الزوجة والأخ ، وإن تكن هذه الواقعة قد أفادتني شيئاً له قيمة ، فتعريف بمؤلفات شكسبير ، فقد قرأت همليت ويوليوس قيصر وانطوني وكلوبطره في عام واحد ، وكان للمستر « ادجار » فضل في إرشادي إلى مطبوعة مشروحة ومفسرة جعلت غوامض هذه اللغة العتيقة وذلك الشعر غير المفهي ، وأظهرت لي جمال فن هذا الرجل القدير ، ويليم شكسبير .

وحدثت لي بعض أحلام سارة ومسيئة كنت أنساها عند اليقظة ، وكنت أرى أوجه بعض المؤلفين الذين أحب كتبهم ، وبعضهم موتى وبعضهم أحياء ، فلا أجعل لذلك شأنًا ، إلى أن رأيت رؤيا واضحة تحققت بعد أيام فدونتها ، وأخذت أسأل بعض إخواني فروى لي بعضهم رؤى له تحققت ، بعضها سار وبعضها محزن .

وكنت أحيانا أشعر بأشياء قبل وقوعها كوصول قريب من سفر بعيد أو مرض صديق أو حادث أمر سار أو رؤية أسئلة امتحان مكتوبة ، فتتأكد الرؤيا فأخفيها وأحرص عليها ، فسألت أستاذنا من أساتذة اللغة العربية فقال لي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الرؤيا الصادقة جزء من ثلاثة وأربعين جزءا من النبوة » ، ودلني على كتاب ابن سيرين في رؤيته ففهمتها ومرتيا علمي حينئذ المتبحر ، فقلبت صفحاته وعجبت الأمور التي ولدها خيال المؤلف في كل ما يراه النائم ، وعلمت أن الأحلام عالم قائم بذاته ، تقيه فيه العقول ، فأعزيت عن الكتاب وتركته وقلت إن الانشغال بالحقائق الراهنة أولى وأجدد من فحص هذه السباحات الليلية ، وانشغلت بما يشغل به الشباب .

ولقننا الشيخ طنطاوي جوهري مبادئ الفلسفة الإسلامية من كتاب « أحياء العلوم » و « مقاصد الفلاسفة » ، وبدأ هو يدرس اللغة

الانجليزية ويقرأ كتبها فيها ، ثم فكر في تفسير القرآن فكنت أعينه
بنسخ ما يكتبه .

وفي يوم دار الحديث بينه وبينى فى منزله بقلعة الكيش -
وكان رجلا عالما عاقلا منسغلا بالعلم ، لاهيا عن الدنيا ، وكنت أحبه
كثيرا وأقدره وأعتب عليه فى قلبى اهماله علوم النحو والصرف
والبلاغة فى دروسه - فقال لى : ان الذى أعلمكم اياه أفضل وأنفع .
والنحو سهل ، والصرف قواعد جافة ، والبلاغة ذوق ، فما حاجتكم
اليها وأنت على الخصوص ؟ . فاذا كتبتم فى الامتحان موضوعا جيدا
نحجتكم ، واذا حفظتم عن ظهر قلب كتاب ابن سبويه وألفية ابن مالك
ومقامات الحريري فلن نجدكم شيئا ، لأن العلم والأدب استعداد
لا اكتساب ، ولو بقيت واكتفيت بما تعلمته فى الأزهر ودار العلوم ،
لبقيت كاخوانى ، ولكننى اكتشفت على يد الشيخ حسن الطويل
ما هو أغلى وأنفع وأبقى .

ثم قال لى : كنت تسألنى عن الرؤيا الصادقة ، وفاتنى ان
الفتك الى ما ورد فى القرآن عنها ، ألا تذكر سورة يوسف ، انه نبي
الأحلام ، لقد آتاه الله معجزة تفسيرها تفسيرا صادقا ، لأن الأحلام
لا ترد على صورتها الظاهرة بل تكتنفها الرموز كحلم فرعون وأحلام
الخدامين فى القصر . قلت له : وما تفسير ذلك ؟ . قال : سمعت
الشيخ محمد عبده يقول فى بعض دروسه « ان للنفس رجوعا الى
الماضى واشرافا على المستقبل » ، فاقرأ له « رسالة التوحيد » .

وكانت هذه هى المرة الاولى التى سمعت فيها باسم الأستاذ
الامام ، فعولت على قراءة رسالة التوحيد . ثم قال لى الشيخ
طنطاوى : اقرأ مقدمة ابن خلدون وقرأ مؤلفاتى « جواهر العلوم »
و « ميزان الجواهر » .

ثم انشغلت بما يشغل به الشباب من تحصیل ولهو برىء وتطلع الى المعرفة ، واشتغلت بابن رشد والمعرى وابن سينا ورباعيات الخيام ومجلة المجلات الانجليزية ، فوجدت فى هذه المجلة بحثا عجيبة عن بقاء الروح وخلود الروح والاتصال بالارواح ، وأن صاحبها المدعو ويليم برستيد قد أسس فى ادارته مكتبا لمن دعاها « جوليا » ، وأخذ يكتب هو أو سواه - لا أذكر الآن لأن هذه الحوادث ترجع الى سنة ١٩٠١ أو سنة ١٩٠٢ - عن « الشخصية الانسانية » .

ومرت فترة طويلة وأحداث جسام فى حياتى بين النجاح والفشل والأفراح والأحزان والآمال والخيبات والميل والاعتدال ، الى أن كانت سنة ١٩٠٨ وكنت فى مدرسة الحقوق طالبا فى السنة الأولى ، وكنت فى ضيق شديد وحيرة ووله وزعزعة واضطراب وارتباك ، وكانت عشية أحد الأعياد الاسلامية ، وكنت أستقبل هذه الأعياد دائما بوجوم ويأس لأننى فقدت المرح بها ففقدت معناها ، ولم تكن لها قيمة عندى الا بزيارة قبور الموتى الأعرزة الذين واريتهم التراب ، وكانت هذه الزيارات تجدد أحزاني ، وكنت اذ زرت قبرا عزيزا لدى فى فجر يوم شديد البرد أن خلعت معطفى وغطيت الأحجار اشفاقا على المدفون فيه وأنا أعى تمام الوعى أنه عمل صيبانى ولا معنى له ، ولكننى شعرت بعده بارتياح عظيم ، فأصبحت الأعياد عندى أشبه بالمآتم منها بالأفراح ، وما زلت كذلك الى آخر حياتى أجدها أياما فارغة خالية من كل معنى ولا أعتبرها أياما عدة بل ساعات محدودة وأقضى بقيتها فى الدرس أو الراحة .

فى احدى ليالى هذه الأعياد الخلية من المعانى ، كنت أسير فى الظلام والبرد ، منهوك القوى ، منشغل البال ، شديد الكرب ، توهمت أننى رأيت شبحا حائرا يتبعنى أو أتبعه ، وتارة يلازمنى ويستولى على ذهنى ويوجهنى ، وما يزال كذلك ساعات .

وفى اليوم التالى قابلت صديقا لى فدعاني الى زيارة رجل عجيب الأطوار فى أحد فنادق القاهرة الكبرى اسمه «أحمد الغرض» ، فلما وصلنا اليه وجدت رجلا لا يمكن تحديد عمره يلتحف معطفا من نوع « الحرملة » أسود اللون ويتلفح بأطرافه الضافية ويتكلم لغات عدة وينطق بهدوء بالعربية الفصحى واسمه « كونت دى جالارزا » الاسباتى الأصل ووارث مناجم الفضة والزئبق ، اسلامى الثقافة ، وهو منشغل بدراسة الأرواح ، فكان كشفا غريبا لى ، وكان حديثه يدور على التقمص والتناسخ وأنه على اتصال دائم بالأرواح وانها تزوره وتكتب له رسائل على آلة من اختراعه اسمها « غرضو متر » ، وأن بعض هذه الأرواح دلته على كنوز ثمينة فى سفح الأهرام ، وأن بين يديه وثائق فرعونية تؤيد هذا الإلهام ، ولكن منظر الرجل وحديثه وأصدقائه وتفكيره لم يرقنى منها شئ ، وقد صار هذا الرجل بعد ذلك أستاذا للفلسفة فى الجامعة المصرية وقد وضع كتابا وخرج تلاميذ وأقيمت له حفلة تكريم وله صورة شمسية مع سعد زغلول باشا ، وقد حدث له ذلك بعد أطوار عجيبة ربما ذكرتها بالايجاز (١) .

(١) اشارة لطفى جمعة فى هذه المذكرات (يوم السبت ١٠ فبراير سنة ١٩٠٩) الى كتاب وضعه بعنوان « أحمد الغرض » ، كتب عنه سى. ثنائس. نفس بابا بجميع مؤلفاته المنسورة والمخطوطة سواء الكتب منها او المجلات التى نشرت بالمصحف والمجلات فقال « أحمد الغرض او المهدي المنتظر بعصره. أحاديث وحقايق ورسالات تتعلق بنفسه صديقى الكنت دى جالارزا الاسباتى بالنادرة ، أريد أن ادرس موضوع العلم الروحى وأن اخلط الحقيقة بالخيال لاخراج هذا الكتاب كاملا ، جمعت اقوال أحمد الغرض سنة ١٩١١ ولا يزال على هذا والكتابان الواجب درسهما لذلك هما « خطابات من جوليا » ناليف. و « ستيت و « كيف عرفت أن الميت يحضر » .

واقول - أنا كاتب هذه الأسطر - انى لم اعثر على أصول كتاب « أحمد الغرض » بين مؤلفات لطفى جمعة المخطوطة (ر.ل.ج) .

وأففى الى صديق وكان ابن مستشار مشهور توفىا جميعا الى رحمة الله - أن أباه المستشار المصرى الكهل الذى تلقى العلم فى كلية ايكس بروفانس يؤمن بالأرواح ويعتقد بوجود صلة وثيقة بين جميع الأديان ولا سيما دين المصريين القدماء ودين الاسلام ووحدة المعبودات فى مصر القديمة وأصنام الجاهلية (١) ، وكتب فى ذلك رسائل وألقى محاضرات ، وأن والده على اتصال دائم بعلماء أوربيين مختصين بهذه البحوث ، ومنهم سيدات يحضرن الى مصر فى كل شتاء ويقمن بالأقصر والقاهرة ويرين أرواحا قديمة متجسدة فى طيور وحيوان ٠٠٠٠ الخ ، فلما زرت هذا المستشار وفتحت البحث فى هذا الموضوع ، تكلم فى تحفظ شديد ونصح الى ألا أفكر فى هذا فانه لم يؤن الأوان ، وقال لى عليك بالتفكير فى القانون والفلسفة وعلوم الاجتماع والاقتصاد فانها تجدى أكثر من الاشتغال بما ذكرت ، ولكن ابنه كان شيطانا فاختلس من بيت أبيه أكثر من مائة خطاب كتبته سيده من المشتغلات بهذه الشئون باللغة الفرنسية وأقرضنى اياها فالتهمتها ، فقال لى لك أن تنسخها أو تنقلها الى العربية فاعل فيها فائدة ، فلم أفعل واكتفت بمطالعتها .

(٢)

كتاب نبأى الروح الحائر

وولت هذه الفترة بخيرها ، ولم أفكر فى شىء مما قرأت وسمعت تفكيرا طويلا ، الى أن كانت ليلة كالتى قضيتها منهوكا

(١) كتب لطفى جمعة مقالا عنوانه « هل عبد العرب والمصريون أربابا بذاتها ؟ » وقد نشر بالبلاغ الأسبوعى فى ١٧/٧/١٩٢٩ ، وأعيد نشره فى كتاب لطفى جمعة « دباحث فى التاريخ . عالم الكتب ، سنة ٢٠٠٠ م .

مهموما وعدت الى منزلى فى عشية عيد آخر ، فلم أكد أصل حتى شعرت بدافع قوى الى الكتابة دون أن أعلم ما أكتب ، وأذكر أننى لم أصبر حتى أضغ ثيابى أو أستعد فى مكتبى ، فجلست على منضدة فى المطبخ وعليها سراج ضعيف النور ، وكنت شديد الجوع ولكننى رفضت الطعام ، وأحضرت ورقا وقلما وبدأت أكتب بغير انتظار ولا انتظام ، ولعل فى حالة تشبه الدهول أو البحران ، كنت أشعر أننى غير واع بما أكتب ، وأشعر أن فكرة قوية تقودنى وتدفعنى ، فكنت كالنشوان تارة وكالصاحى اليقظ تارة أخرى ، وأخذت أكتب كالمسوق المرغم ، وكنت أنصعب عرقا ، وكان البرد شديدا وغرفة المطبخ باردة خالية من التدفئة ، فتنبهت الى معطفى فخلعته ، ولكن العرق لم يجف وحدث لى شئ واحد أدركته ادراكا حسنا ، وهو أننى كلما كتبت شعرت بأن جزءا من العبء الذى على كاهلى يخف شيئا فشيئا ، وأننى أستعيد وعيى وصحوى .

يا لها من ليلة تلتها ليال فى مصر وأوربا ! ويا لها من محنة قاسية ولذة لا تقدر ! .

ولم أبال البرد ولا العرق ولا طول السهر ولا شدة المعاناة فى الحياة ، ولم أدر فى الحق ما كنت أفعل ، ولكننى كنت أخشى على حياتى وعقلي ، وأكنم أمرى عن كل الناس .

فلما كان الصباح ، صباح العيد (أى عيد ١٩) ارتميت على فراشى بين الميت والحى .

وعند الظهر، جمعوا لى الأوراق المبعثرة على منضدة المطبخ وعلى أرضه ، فألقيتها جانبا ، ولما أفقت وثيقت واستطعت أن أقرأ ، وجدت كتاب « ليالى الروح الجائر » الذى بدأته فى سنة ١٩٠٨ ونشر فى مصر سنة ١٩١٢ ، وقد جاء فيه فى صفحة ١١ :

« واننى كذلك ، واذا بصوت خفى كأنه من جوف الأرض ينطق خافتا قال : أيها الباحث عن الحقيقة ، التائه فى بيداء الريب ! فوجمت لدى سماع الصوت الخفى وخاننى النطق للوهلة الأولى ، ثم استجمعت قوتى وقلت : من أنت أيها المتكلم الخفى ؟ قال الصوت بعد صمت طويل : أنا الروح الحائر ، روح صديقك ، أتيت مجيبا نداءك . قلت : لعلك أيها الروح العزيز جئت لى بجواب سؤالى وحل لغوامض الكون ؟ »

قال : أنى لى ذلك ولا فرق بينى وبينك سوى أننى تخليت عن بدننى وأنت لا تزال تجاهد ضد العناصر الأرضية فتغلبها مرة وتغلبك مرات . قلت : هلا أراك أيها الروح الصديق فأطمئن إليك ؟ قال : بلى ! انظر . فنظرت ولم أر شيئا . قال : انظر نحو الزاوية اليمنى . فأمعنت النظر ، فإذا شبح أبيض فى يده مصباح ، ولكننى لم أستطع تمييز تقاطيعه . قلت : وما هذا المصباح ؟ قال : انه دليلى فى حيرتى ، فيه شعاع من نور الحقيقة . قلت : حدثنى بشيء مما رأيت . قال : ليس لدى من الوقت متسع وموعدا ليلية الثانية أه ص ١٢ .

وتوالت الليالى والأحاديث الى صفحة ١٩١ وهى آخر الكتاب وفيها « فصرخت من أعماق قلبى : أيها الروح الحائر ! . فسمعت صوتا قصيا كأنه هاتف يقول : قل الروح المهتدى ، ألم تعلم أنها ليلة الدواع الأول ١٩ » .

كانت سننى اثنين وعشرين عاما اذ كتبت هذا الكتاب ، وقد ظن الناس أنه وفاء بوعد لذكرى صديق ، ولكننى لا أدري ما هو ، وقد مضى عليه ثلاثون عاما .



(٣)

رسائل واحاديث الشيخ محمد عبده

وفى سنة ١٩٣١ نشر المرحوم السيد رشيد رضا الجزء الأول من تاريخ الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، فشكرته فقال لى فى داره : لم الشكر وفيه بضع صفحات من قلمك اذ كنت صبيا ؟

وفتح لى صفحة ٧٩١ الى صفحة ٧٩٦ ، فاذا بها من انشائي ، فعجبت اذ كنت نسيت ما كتبت فى سنة ١٩٠٤ قبل كتاب « ليلالى الروح الحائر » بأربع سنين ، فليقرأه من يشاء كصورة لذهن ناشئ متطلع الى الحقيقة فى الثامنة عشرة من عمره (١)، وأكتفى بمتنفس يسره تنصب على مسألة الروح كقولى فى خطابى الذى بعثت به الى الشيخ محمد عبده فى فبراير سنة ١٩٠٤ « ثم نظرت فى أصل الروح وما هى وكيف خلقت ، وهل هناك قوة هائلة هى الله وكيف خلقت النفس البشرية (كذا) وما هو الانسان ذلك الحيوان الاله العجيب (كذا) وأين النفس من جسمه ، وما معنى أنها ملازمة للجسم ؟ . وأنا لا أعتقد بالبعث بالصورة الموضحة ، أى أننا نبقى أجساما ونفوسا ، ونظرت فى الجنة فقلت أن ليس فيها حور وولدان ، بل فيها كمالات نفسانية ، وأننا ننقل الى عالم أرقى من هذا العالم وربما كان كوكبا من الكواكب ، وهكذا حتى نصل الى أقصى درجات الكمال ، وكذلك ليست النار نارا كما يقال ، بل هى عبارة عن عذاب النفس . ها هى صورة منى والسلام » .

لو لم يحتفظ الشيخ محمد عبده بهذه الملاحظات ويوصى تلميذه ومريده الشيخ رشيد بنشرها بعد موته — الذى احتفظ بها سبعا

(١) نشرت رسائل لطفى جمعة الى الشيخ محمد عبده فى كتاب « حوار المفكرين ، رسائل اعلام العصر الى محمد لطفى جمعة خلال نصف قرن ١٩٠٤ .. ١٩٥٣ » ، ص ٦١ — ٦٨ عالم الكتب ، سنة ٢٠٠٠ م .

وعشرين سنة ، ولم أعلم بها الا بعد نشرها فى سنة ١٩٣١ وقد تجاوزت الأربعين - لما صدقت أننى كاتبها ، فان فيها جراءة الشباب وصراحة القول ما لا أستطيعه لنفسى الآن ، ولكن العالمين الفاضلين كانا أشفق وأوسع صدرا من أن يلومانى على ما كتبت .

وفى الكتاب الثانى وهو فى سنة ١٩٠٤ وبينه وبين الأول أيام ، وهو مكتوب من حلوان « الله قوة هائلة ، والمادة هل خلقت نفسها أو خلقتها تلك القوة الهائلة ، وهل المادة جزء من القوة الهائلة (الله) ، وهل وجدت المادة قبل القوة الهائلة . هاتان هما المسألتان اللتان تمنعان الكرى عن أجفانى (كذا) ، وهذا الكون المتناهى فى العظم والكبر والفخامة ، ما عمره ؟ انى أراه أيضا متناهى فى القدم ، وعبنا أن يخلق الله كل هذا الكون وهذه الكواكب وهذه الأقمار والشموس عبثا ، فلا بد أن يكون فيها مخلوقات لله ، وكان هذه الأشياء خلقت من المادة ، اذن فالمادة لها فضل على الخلق كبير (عود غير محسوس منى الى فكرتى الأولى فى سنة ١٨٩٩) . وهنا تاتى أم المسائل التى أعشقتها عشقا عظيما ، وهى النفس البشرية . أجب انها قطعة من الله ولا أقول شعاع من نوره ، أو أن الله مكون من عدد لا يتناهى من النفوس (كذا) ، وهى ليست موجودة فى أى جزء من أجزاء الانسان ، بل تظلل ولا علاقة مادية لها به ، ان الله والنفس شئ واحد ، هذا رب فى سمائه ، والنفس رب فى أرضها . أ ه الخطاب الثانى ملخصا .

وكان جواب أحد العالمين قول الله « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » .

وقد علق الشيخ رشيد - طبيب الله ثراه - على هذين الخطابين بقوله :

« وبحثه فى زمن التعليم فى أعلى مسائل الفلسفة وعلاقتها بالدين » .

والحقيقة أنني لم أكن أعلم في ذلك التاريخ (سنة ١٩٠٤) أن هذه أعلى مسائل الفلسفة ، ولا أعرف لها علاقة بالدين ، لأنني في سنة ١٩٠٤ في الثامنة عشرة من عمري لم أكن أعرف ما هي الفلسفة وما هو الدين ، لأن درس هاتين المادتين كان ممنوعا في المدارس الثانوية ، وكتبهما النافعة لم تكن في متناول يدي ، ولكن على ما يظهر كانت مسألة الروح والخالق والمادة تمنع الكرى عن أجفاني ! ، وقد حملت العبء الى الآن ، ولو شغلت بأشياء أخرى لكان أجدى علي ، ولكنني حملت رغم أنفي على غير استعداد للعيش في هذا المجتمع ، فعشت فيه غريبا لم أحاول فهمه ولم أقدم نفسي اليه .

وكان المرحوم الشيخ محمد عبده هو الرجل الذي عرضت عليه حيرتي وفتحت له مغاليق قلبي المفعم بالأسى ، ولم تصل هذه الخطابات الى يد الشيخ رشيد الكريمة الا لأنه كان مستودع أسرار الامام وكاتب يده الخاص والمعبّر عن أفكاره وآرائه ، وحلقة الاتصال بينه وبين الجمهور ، ولكنني لم أر الشيخ رشيد الا في سنة ١٩١٢ أو سنة ١٩١٤ لأن آراءه في السياسة المصرية كانت تخالف آرائي ، ولأن زعيمى وصديقى الأعز المرحوم مصطفى كامل كان لا يتصل به لأسباب طويلة ، شرحها كل منهما في مقالاته وكتبه ، وقد عرفت هذا الرجل الفاضل ، واتصلت به اتصالا قويا ، ولكنه لم يذكر لي قط أن لديه خطابات من قلمي ائتمنه عليها الامام ، ولو علمت بها لرجوته ألا ينشرها ، فليس لها الا قيمة تاريخية .

أما الشيخ محمد عبده ، فقد بادرت في سنة ١٩٠٤ بزيارته في داره بعين شمس واتصلت به في صحته ومرضه ولم أنقطع عنه الى أن انتقل الى رحمة الله . وكنت قد لقيت المرحوم محمد حافظ ابراهيم وتحدثت اليه فقال لي ان الأستاذ الامام يريد زيارتك اياه ، ولم يكن يعلم أنني متصل بالشيخ منذ سنة أو سنتين .

وقد روى لى الشيخ محمد عبده أن أول الفتوح لعقله وقلبه كانت قراءة رسائل كتبها السيد محمد المدنى لبعض مربيه وكان شيخا صوفيا ، وهى رسائل تحتوى على شىء من معارف الصوفية وكثير من كلامهم فى آداب النفس وترويضها على مكارم الأخلاق وتطهيرها من دنس الرذائل وتزهيدها فى الباطل من مظاهر هذه الحياة الدنيا ، فسألته عن السيد المدنى ، فقال لى انه والد الشيخ الصوفى الشهير الذى أقام فى اصطامبول فى عهد السلطان عبد الحميد وتوفى بها ، وأن الذى أوصل اليه هذه الرسائل هو أحد أخواله (أخوال الشيخ محمد عبده) واسمه الشيخ درويش وهو رجل ذو أسفار فى صحراء لوبيا وطرابلس الغرب وصار من مربدى السيد محمد المدنى .

أقول وقد اكتشفت بعد ذلك بزمن طويل أن للمدنى طريقة كبيرة شاذلية وقد رأيت بعض هذه الرسائل مطبوعا .

ويروى الشيخ محمد عبده فى نبذة كتبها بخطه أنه فى رجب سنة ١٢٨٢ هجرية رأى أمامه شخصا فى الدرس يشبه أن يكون من أولئك الذين يسمونهم « بالمجاذيب » ، فلما رفع رأسه اليه ، قال ما معناه « ما أحلى حلوى مصر البيضاء !! » ، فقلت له : وأين الحلوى التى معك ؟ قال : سبحان الله من جد وجد ! ، ثم انصرف فعددت ذلك القول منه الهاما (كذا) ساقه الله الى ليحملنى على طلب العلم فى مصر دون طنطا » .

وسافر الشيخ فى شوال الى القاهرة وطلب العلم فى الأزهر .

وفهمت عن الشيخ أن مرشده الروحى الأول قبل جمال الدين الأفغانى كان أحد أخواله الشيخ درويش من أهل محلة نصر ، وقد

صحبته وعلمه الزهد والبعد عن الناس سبت سنين من سنة ١٢٨٢
الى سنة ١٢٨٨ هـ ثم أمره أن يشتغل بالناس ليعلمهم ويرشدهم ،
وفي تلك السنة ودعه وبكى بكاء شديدا ومات في السنة الثانية .
والتصوفية من هذا الالهام والشعور ما هو معروف ومشهور .

* * *

- ٤ -

الشيخ محمد عبده والتصوف وخلود الروح

كان الكلام في التصوف أمرا غريبا على ذهني لولا أن كان
الشيخ طنطاوى جوهرى يحثنى على قراءة الرسالة القشيرية التى
كان لها شأن كبير فى نفسه ، وذكر لى أنها ترجمت الى لغات أوربية ،
وكذلك مقدمة ابن خلدون ، ولكننى كنت أنظر من التصوف ، تنقله
بالطرق التى كنت أرى موانعها ومشايستها واعلامها ، وأسهب فى
امتصاص الى أغانيهم وأنشادهم وأشهد متالما طرائق ذكرهم .
وقرات أن المتأخرين من المتصوفة المتكلمين فى الكشف وفيما وراء
الحس توغلوا فى ذلك ، غير أن ابن خلدون يؤكد أن الكلام فى
المجاهدات والمقامات وما يحصل فى الأذواق والمواجد فى نتائجها ،
ومحاسبة النفس على التقصير فى أسبابها (١) ، فأمر لا مدفع فيه
لأحد ، وأذواقهم صحيحة والتحقيق بها هو عين السعادة . وأما فى
كرامات القوم وأخبارهم بالمغيبات وتصرفهم فى الكائنات ، فأمر
صحيح غير منكر وإن مال بعض العلماء الى إنكارها ، فليس ذلك

(١) انظر الى حساب النفس فى كتاب « تاريخ فلاسفة الاسلام » ، لمحمد لطفى
جمعة ، طبعة أولى سنة ١٩٢٧ ، وطبعة ثانية سنة ١٩٩٩ عن عالم الكتب .

من الحق ، وسلف المتصوفة من أهل الرسالة القشيرية من أعلام الملة ، لم يكن لهم حرص على كشف الحجاب ولا هذا النوع من الادراك ، فلا ينطقون بشيء مما يدركونه ، بل حظاروا الخوض في ذلك ومنعوا من يكشف له الحجاب من أصبحا بهم من الخوض فيه والوقوف عنده ، وأن الخلوة والمجاهدة ثمران كشف حجاب الحس وادراك بعض العوالم الخفية ، فيتكلمون في حقائق الموجودات العلوية والسفلية وحقائق الملك والروح والعرش والكرسى ، وقا يرى صاحب الحال ويسمع وينسم ويدرك ما لا يشاركه فيه غيره ممن ليست له تلك الحال حتى انه ليزج به في عالم المثال يناجى فيه الأرواح تتجلى في صورة الأشباح بأغرب وأعجب مما يفعله مستحضرو الأرواح .

وقال الشيخ رشيد رضا في ترجمة الأستاذ الامام ص ١٠٦ « وكان يخرج عن حسه ويزج في عالم المثال فيناجى أرواح السابقين ، ولو كان يجيز شرح ذلك لشرحناه ، وكان يقول (أى محمد عبده رضى الله عنه) ان ما يحصل للمصوفية من الأحوال غير الطبيعية لا يجوز ذكره لغير العارف به ، ولا تجوز كتابته بحال ، لأنه يفتن كثيرا من الناس ولا يفيد أحدا » *

وهذا التصوف الذى لا نتعرض لتاريخه ولا شرحه قديم العهد فى البشر ومعروف عند براهمة الهند وعند أهل الصين وعند اليونان والفرس ، وهو بالاستعداد والموهبة أولا ، ثم بالرياضة النفس وللمتصوفين من هذه الأجناس كشف وخوارق العادات ، غير ان المسلمين يسمون ما يتم على أيدي المسلمين كرامة ، وما يتم على أيدي غيرهم استدراجا ، ولكن اجماع العارفين - الذين تكلموا أو كتبوا - على أن من يسلك طريقة الصوفية بالرياضة والمجاهدة يقع فى عالم المثال ، فى فى اليقظة الطبيعية - وهى غير ما يسميه الصوفية باليقظة - ما لا وجود له فى الخارج ، ويسمع من نفسه

تارة ومن الأرواح التي تتمثل له نارة أخرى كلاما لا يسمعه غيره وإن كان بجانبه ، ويشم روائح طيبة لا مصدر لها من المادة ، وتعرض له أذواق ووجدانات كثيرة لا يمكن التعبير عنها كما أنه لا يمكن للرجال أن يعبروا للأطفال عما هو خاص بهم من لذة أو ألم ، ويتبع هذه الأحوال معارف صحيحة وأفهام دقيقة ، وأن يكون لهم تأثير في شفاء المرضى واستهواء النفوس بأقوى من التنويم المغنطيسى .

ونحسب أن الشيخ محمد عبده قد وصل الى هذه الحال لولا أن أخرجه منها السيد جمال الدين لينتفع به في الحياة الظاهرية ، ولم يكن الشيخ محمد عبده بالرجل البسيط أو الهين أو محدود الذكاء أو المخدوع ، بل كان ذا عقل جبار وكيان أدبي كامل ، وشخصية قوية وتدير واسع وتفكير ناضج ، ولم يعقه تصوفه عن استكمال درسه وتعليمه واطلاعه على العلوم الغربية ودرس لغات أوروبا والاشتغال بالسياسة والقضاء والإصلاح والتأليف والخطابة والاجتماع والقاء الدروس الدينية والعلمية والتشريع والسياحة .

واعتقد أنه لولا سابقة تهذيبه الصوفى وترويض نفسه وجسمه واغترابه ومقاساته في بعده عن وطنه وتحمله المظالم بألوانها ، وما وصل الى ما بلغه من الفطنة وقوة التحمل ، والصبر على الاضطهاد ، وحسد الحاسدين ومكايد الحاقدين ، والصمود للأعداء الظاهريين والمخترفين ومقاومة الحكام الظالمين من كل جنس ودين ، ولما تمكن من ادراك الخير المحض في بيئة معظمها شر محض ، فلم يكتف بادراك الخير ، بل عمد اليه ونفذه وأخرجه من التفكير الى التنفيذ ، فترك في المجتمع الذي عاش فيه عشرين سنة أثرا لا يمحي ولا يقل عن آثار المصلحين والمجددين الذين يبعثون مرة في كل مائة عام .

فالعبرة اذن في حياة هذا الرجل كانت عبرة الروح لا عبرة الجسد ، وعبرة القوة المعنوية لا القوة المادية ولا المال ولا الجاه

ولا الحيلة . فانه كان على شدة رعب أعدائه منه وفزعهم من بطشه وبأسه وحسبانهم لتحفظه ألف حساب ، كان عديم الحيلة بمعنى المكيدة والدسيسة ، لا يعرفها ولا يلجأ لها ولا يقدر عليها الا أن يحكم تدبير أمر في سبيل الخير وما به أذى لأحد ، بل كان هو الذي يقع عليه الأذى من شياطين الانس ليجلبوا لأنفسهم منافع ثم يندمون على ما فعلوا وتسوء عاقبتهم دائماً وأبداً ، وقد شاهدت ذلك بنفسى ورأيت خاتمة الشرار من أعدائه حتى الذين صفح عنهم مرغماً بسنة الزمن والاحسان الى من أساء اليه .

هذا الرجل الفذ المدرك ، والفرد النادر ، كان يؤمن بالروح وخلودها ، وكان يعتقد أن للنفس البشرية بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن وأنها لا تموت موت فناء وانما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء ، وقد صرح بذلك في رسالة التوحيد التي وضعها منذ خمسين سنة وهي من أهم ما ألف بعد تفسير القرآن قال « ان المشعور العام بحياة بعد هذه الحياة ، المنبث في جميع الأنفس - موحدين ووثنيين ، ملين وفلاسفة وأمين قدماء ومحدثين ، متحضرين أو وحشيين - لا يمكن أن يعد ضلة عقلية أو نزعة وهمية ، وانما هو من الالهامات التي اختص بها هذا النوع بأن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للانسان في الوجود ، بل الانسان ينزع هذا الجسد كما ينزع الثوب عن البدن ، ثم يكون حياً باقياً في طور آخر وان لم يدرك كنهه .

* ذلك الهام يكاد يزاحم البديهة في الجلاء ، يشعر كل نفس أنها خلقت مستعدة لقبول معلومات غير متناهية من طرق غير محصورة ، شائعة الى لذائذ غير محدودة ولا واقفة عند غاية ، مهينة للدرجات من الكمالات لا تحددها أطراف المراتب والغايات ، معرضة

لآلام من الشهوات ونزعات من الأهواء ، ونزوات الأمراض على
الأجساد ومصارعة الجواء والحاجات .

« شعور يهيب بالروح الى تحسس هذا البقاء الأبدى وما عسى
أن تكون عليه متى وصلت اليه ، وكيف الاهتداء وأين السبيل وقبـه
غاب المطلوب وأعوز الدليل ، فماذا نؤمل من عقولنا وأفكارنا في
العلم بما في عالم الغيب ؟ » أ . هـ .

هذا كلام عالم ناضج ، يدل على شدة اشتياق ذوى العقول
الى الوقوف على حقيقة الحال والمآل ، وضرورة البحث عن طريق
الهدى والنجاة من الضلال .

ولكن هذا القول وما يماثله لا يعد موجهاً الى كل انسان ،
ولا يمكن أن يدرك حقيقته كل انسان ، مهما كان القارئ أو السامع
من الأذكياء أو الأتقياء ، ما لم يكونوا مستعدين ومتجهين ، مستعدين
للقبول ، ومتجهين للمعرفة . وهناك طرق شتى للوصول الى هذه
الغاية ، وأهمها ما نزل في القرآن الكريم على محمد عليه الصلاة
والسلام وفي الكتب المنزلة الأخرى على بعض الرسل ، فان من
مراتب النفوس البشرية مرتبة يعد الله لها - كما يقول الأستاذ
الامام في رسالة التوحيد - بمحض فضله بعض من يصطفيه من
خلقه ، يميزهم بالفطر السليمة ويبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون
معه للاستشراق بأنوار علمه والأمانة على مكنون سره . مما لو انكشف
لغيرهم انكشافه لهم لفاضت له نفسه أو ذهب بعقله جلالة وعظمة .

وكذلك أعد الله نفوساً مستعدة للتلقى ومشغوفة بالاطلاع
ومشتاقة الى الاتصال ، ولكنها قليلة بل نادرة في وسط كثرة غالبية
من مخلوقات مغلوطة بالمادة على أمرها ، ومحجوبة بالشهوات العاجلة

عن استجلاء حقائقها وحقائق غيرها ، وغارقة فى بحار الأثرة وحب الذات الى قمم رؤوسها لا الى أذقانها ، وفاقدة البصر والسمع والفؤاد وان كانت تملك فى الظاهر آلاتها وأدواتها .

- ٥ -

مجلة المقتطف وتذبذب الظواهر الروحية

كانت مجلة المقتطف - وهى مجلة رجعية جافة ، مادية النزعة فى ذلك العهد هى ومجلة الهلال ومجلة الجامعة - مصدر التنوير للراغبين فى العلم لولا أن هدانى الله الى الكتب الأوربية فى مكتبة المدرسة الخديوية ودار الكتب الخديوية ، فقرأت كل ما قدرت عليه ، وكنت أتردد يوميا على دار الكتب وكانت خالية من القراء ما عدا اثنين أو ثلاثة ، وهى قائمة فى بناء صغير على يمين الداخل من باب كبير فى شارع درب الجماميز ، وأصل من منزلى بشارع سنجر الخازن بالحلمية الجديدة عدد ٥ فى بضع دقائق ، وكان بها موظفان ، محمد صفوت أفندى (الآن باشا ووزير سابق) وعلى أفندى (بالمعاش وعلى قيد الحياة) . وقد واظبت على اتصالى بدار الكتب الى الآن (سنة ١٩٤٢) .

ويسوؤنى أن أقول انها كانت فى ذلك العهد السحيق أنفع لى منها الآن .

كان لمجلة المقتطف الرجعية المادية النزعة الجافة - تأثير كبير بالنظر الى فقر البلاد العقل وهيبة المصريين فى انشاء مثلها ، وأن

أنشأوا فانهم سرعان ما يفشلوا وتذهب ريجهم . وكان يزعمني أن
أرى تلك المجلة تنشيء مقالات طويلة عريضة عن سميتهم « رجال
المال والأعمال » فتشيد بمجد عجول الذهب والسراقين الأمريكان
الذين حصلوا على القناطير المفقورة من الذهب باسم الأمم واحتكار
المواد الأولية ، ثم تشرح أعمالهم وهى جرائم ، على أنها أعمال بطولة ،
فتبني لهم معابد وهياكل وتنصب تماثيل فى قلوب الشرقيين ،
فكانها كانت تبشر بدين جديد ، وقد نجحت هذه المجلة الخبيثة
فى ذلك العهد فى توجيه الأذهان فى مصر وفى الشرق العربى طبعاً
إلى عبادة الذهب وتمجيد المال وصرف النفوس عن المثل العليا ،
وكانت تعبر عن آراء أصحابها ورغباتهم ، ولعلها قتلت البقية
الباقية فى النفوس من حب الخير والعلم ، وحطمت المثل العليا التى
بدأت تتكون ، فكانت كالسموم التى تسرى ببطء فى العقول
والأجسام .

وان غيظى من هذه المجلة كان يزداد يوماً فيوماً الى أن رأيت
فيها مقالات عن التنويم المغنطيسى واستحضار الأرواح نقلاً عن بعض
المجلات الأمريكية ولا سيما «سيانتيك أمريكان» وغيرها ، وتمثلها
لنا كالوحى المنزل ، فقرأت هذه المقالات بشغف شديد ، ولكن
— وأسفاه — اكتشفت أنها كانت تنطوى على حيلة خبيثة ، وهى
أن تكذب كل الظواهر الروحية وتنفيها وتقيم الأدلة على خداع
أصحابها ، أى أنها لم تكن تؤيدها ولا تنشرها بغير تحيز ، ولكن
برغبة أن تكشف القناع عن تحايل القائلين بها لئلا تفسد عقولنا
بتصديقها .

وانى الآن أقرر وأصرح بأنه لو وضعنا كل ما قيل عن فائدة
تلك المجلة فى كفة ووضعنا الشر الذى صنعتته بنشر مقالات عجول
الذهب وتكذيب الظواهر الروحية فى كفة أخرى ، فإن شرها يرجح

خيرها وتخف موازينها وتمحو سيئاتها حسناتها ، وانها بلا ريب كانت أداة هدم وتجهيل وتقهقر فى المجتمع الشرقى العربى .

وانى لا أنكر ولا أخفى مهارة الذين صنعوا هذه المجلة ، فقد صنعوا سموهم وصبغوها بغششاء مسكر مطلى ليسهل تناولها ، وهذا الغششاء المسكر البراق هو مقالات الأدب الرفيع وتراجم بعض الشرقيين والعناية بالزراعة والصناعة ... الخ ، ولكن هذه المقالات كانت وسيلة لدس السم فى الدسم ، فاننا منذ بدأنا نفرا المقالات التى تمجد المال وأربابه ، وتضعف الثقة فى المعتقدات الروحية ، انتقلنا الى الماديات بحكم فطرة التقليد الكامنة فى نفوسنا وتصديق المتعلمين ودعاة المعرفة فى بلد معظم رجاله جهلاء ، والمتعلمون منهم مصابون بداء الجبن الوخيم .

وقد كانت المقتطف تزعم أيضا أن النجاح لا معنى له الا تكديس الأموال ، وتنشر سير زعانف وأجلاف ولصوص فى كل أنحاء العالم وما يفوهون به من أقوال عن سر نجاحهم وما ينصحون به للشباب ، فاذن كل الموضوع يدور حول المال ، ولو أن « الناجح » منهم يقترف الموبقات ويأتى الكبائر فى سبيل ذلك .

ومن هذا التاريخ - أى بعد الخمس السنوات الأولى من القرن العشرين - انتشرت فى مصر فكرة اقتران النجاح بالمال وتجريد كل المؤهلات والمواهب الأخرى من الفضائل ، فلا العلم فى عرف المقتطف ولا الأخلاق ولا الوطنية ولا الدين ولا الاستقامة لها أية قيمة بجانب المال ، عدا عن التشكيك المستمر فى العقائد الروحية والاحتياط على تكذيب المعنويات والتقليل من شأنها بكل الوسائل الخفية والظاهرة .

كانت هذه الأفكار تجول فى نفسى ، ولكننى كنت عاجزا عن التعبير عنها ، ولو استطعت التعبير ما التفت إليها أبدا ، فكان

المجال فسيحاً والميدان متسعاً لهذه المجلة وغيرها ، وكان رجالنا العلماء والأدباء كانوا مخدرين ومشتغلين بأمور أخرى يرونها أهم من انقاذ العقول من هذا البلاء ، ولذا أظن أن الله أحبط أعمال هذه المجلة المضللة ، فلم يحالفها التوفيق أبداً ، ولم يصحبها النجاح بما فعلت ، فلم تفز بكل ما رغبت وإن كانت في ذلك العهد تباهى بعملها وشيوخها وبما تحصلت عليه من أموال المصريين وغيرهم بفضل الباشوات المخرضين والمنومين . ولكنني للأسف لم أدرك هذه الأمور على حقيقتها في وقتها وكنت عاجزاً عن فهم مراميها ، دع عنك مكافحتها .

- ٦ -

دراستي الفلسفة

اخترت لنفسى طريقاً وسطاً واشتغلت بدراسة كتب الفلسفة بغير معلم ولا مرشد (١) ، فإن هذا الأمر كان مجهولاً ومحفوظاً في بطون الكتب والتاريخ ، ولم يجاهر أحد بالفلسفة ولم يشتغل بها أحد فيما أعلم ، وأظن أن الناس كانت تخشاهم فلم يظهر إلا جزء من رسائل اخوان الصفاء نشرت جريدة المؤيد وملخص تاريخ ابن رشد وفلسفته نشره فرح أنطون صاحب مجلة الجامعة بالاسكندرية . أما في مدارسنا فلا ، ولم تكن الجامعة المصرية قد ظهر مشروعها ، ولعل الاشتغال بها في الأزهر كان يعد ذنباً أو كفراً ، فقد رأينا السيد جمال الدين الأفغانى يخرج من مصر بليل !

(١) اقرأ فيما يلى من هذه المذكرات ما كتبه لطفى جمعة في الفصل المعقود

من « التكوين الفلسفى » .

كان صديقي يوسف كرم الشاب السوري هو الوحيد الذي قرأ معي بعض الشيء عن فلسفة سبينسر الانجليزى قبيل موت هذا الرجل بعامين أو ثلاثة ، ثم حصلنا معا على تراجم بالعربية لـسقراط وأفلاطون وبعض حكماء اليونان، بعضها بالعربية وبعضها بالفرنسية، ولكنها لم تكن تشفى غليلنا لأنها مختصرات وجيزة ، وكنا نقرؤها بفخر ونشوة ما دامت هى الوسيلة الوحيدة للاتصال بهذه النفوس الكبيرة ، وكانت دار الكتب مصدرا آخر لى ، لأن كرم كان مقيما بطنطا ، وصدد كتاب فى تهذيب الأخلاق لابن مسكويه فحصلنا عليه وقرأناه وقضينا وقتا طويلا فى شرحه وتفهمه .

وكان أن نشرت مجلة الجامعة خبرا قمنا له وقعدنا ، وهو أن عالما أثريا ألمانيا اكتشف فى العراق حفريات من بينها قصة آدم وحواء والتفاحة والحية ، وأن هذه القصة لم تكن محفورة وحدها ، بل كانت مصورة أيضا بالحجر فى عمود من الحجر يرجع تاريخه الى ألف السنين قبل الأديان المنزلة، وقامت ضجة كبيرة فى الغرب، واضطر الامبراطور وليم الثانى أن يعلن تمسكه بالمسيحية من جديد ، وأن يقلل من شأن هذه الحفريات .

وكان الشرق كعادته فى غيبوبة ، فلم يدركوا مطلقا أهمية هذا الاكتشاف حتى فسره لهم بعض المتطوعين وأفهموهم أن اكتشاف قصة الخلق وآدم وحواء على هذه الصورة يهدم الأديان من أساسها (١٩) ، فانها جاءت فى الكتب المنزلة على أنها وحي يوحى للمرة الأولى لموسى ثم لمحمد عليهما الصلاة والسلام فى التوراة والقرآن ، وأن عيسى جاء مكملًا لما جاء فى التوراة ، فاذا كانت هذه القصة معلومة من قبل بألف السنين لأقوام بابل وآشور من عهد حمورابى أو قبله ، فاذن قد نقلت هذه القصة بحذافيرها من ذلك الأصل الجبرى الذى لا شك فيه ونسبت الى وحي السماء !

وكان الاكتشاف بريثا من كل مظنة ، فانه عمل عالم ألماني
نزع الى العراق وهو يعرف اللغات القديمة واستأذن الحكومة
العثمانية في البحث فأذنت له ، فلما ظهرت له هذه الأحجار - ومنها
هذا العمود العجيب - فسره باللغات الحديثة وصوره ونشر
نصوصه ، فقرأها المستشرقون ونقلوا الآثار الى متحف برلين وذاع
أمرها وفطنت حكومة ألمانيا الى أن السكوت على هذا الأمر يعد تسليما
بصحته وبنقض الكتب المنزلة ، فأشارت على ويليم الثاني بإعلان
عقيدة المسيحية « على الرغم من ظهور هذا العمود الذي يروى قصة
آدم وحواء » .

وليس هنا موضع تفسير هذه المسألة ووقوفى على تحليل علمي
يؤدى الى تأييد الوحي بهذا العمود تأييدا مطلقا ، غير أنى أقول
الآن ان هذا العمود كان مسندا كبيرا للماديين الذين طاروا به فرحا
واعتبروه ضربة المعول الأخيرة فى صحيح الأديان ، فباضوا وصفروا .

وترددت قليلا ثم عزمتم على مسابقة الزمن وألقيت بنفسى فى
دراسة الفلسفة ، وكانت دهشتى كبيرة عندما سمعت سقراط يقول
« اعرف نفسك » ، وعندما علمت أن أفلاطون كان يتكلم عن الروح
وخلودها وخلقها فى عالم السر والخفاء ، ويوصل الحياة الدنيا
بالحياة الآخرة ، وغفلت حيناً عن الكتب المنزلة .

وكنت أبحث عن مرشد فلا أجد ، ولو كنت فى زمن غير هذا
وبلد غير هذا لبحث المرشدون عنى وعن أمثالى، ولكننى كنت أجهل
التصريح والطلب والشوق الى العلم تؤدى جميعها الى الغيرة والحسنة
والاضطهاد ، ولا سلاح عند الناس اذا عجزوا عن الأذى بالفعل
الا الأذى بالقول ، وأحد سلاحهم التهكم والسخرية ، وهما يمانان
عن سخائم أنفسهم ، ولكننى أعلم أن هؤلاء الأعداء الصغار يخفون
وراءهم أعداء أكبر وأضخم وأقوى شأننا وأحد أسلحة حتى لقيتهم

جميعا وجها لوجه ، حتى المقنعون منهم بسبعة أقنعة من النفاق .
أراد الله أن يكشفهم لي ويقيني شرهم ، ويحميني من هذه العداوات
لا لشيء الا رغبتى فى العلم واظهارى بعض ما أكن وأضمر من الشوق
والتطلع .

وجملة القول اننى شققت طريقى بنفسى على الرغم من المشقات والمعجزات ، وكانت أسماء داروين وسبنسر وكومت ودرابر ترن
فى أذنى ، وألقى الى أستاذ انجليزى هو مستر جونز مدرس التاريخ
اسم توماس بين وكتابه « عصر العقل » فقرأته ، وأوعز الى آخر
باسم ارنست هيكل الذى كان من أئمة العلم المادى ، ونشر شبلى
شميل كتاب بوختر الألماني ، وهو سابق لداروين ومؤيد لنظرياته .
وقد عانيت كثيرا فى قراءة أصل الأنواع بالانجليزية وتسلسل الانسان
The Deccent of Man of Universe ، وقد حول كتاب هيكل
The Riddle تاريخ الحياة الأرضية وأصل الانسان الى حقائق سهلة
الادراك ما دام خلق البشر لا يزيد على خلق الكتكات والفرخة
والأرنب . ثم قرأت تاريخ الثورة الفرنسية وهى ثورة على الأديان
والمعتقدات والملكية المطلقة وكل السلطات الدينية والدنيوية ، وورد
فى أثناء قراءتى اسم « فولتير » والحاده وسخريته من المتدينين ،
فكانت كتبه أول ما هجمت عليه وأول ما قرأت الفرنسية ، ثم
مؤلفات روسو الذى أحببته كثيرا ، وأيقنت أن أصل البلاء فى العالم
انتشار الأديان ونموها ، فانها تؤدى الى الجهل والفاقة وتولد حكم
الملوك واستبداد الحكومات ، وأن فرنسا لم تصل الى العظمة
العقلية والحربية والفنية والأدبية الا بعد أن خلعت نير الأديان
والملوك والأقوياء ، وكنت أعجب كيف ان فرنسا فى ثورتها قلدت
الانجليز فى ثورتهم وخلع ملكهم ، ولكن فرنسا طلقت الأديان
بينما حافظت انجلترا فى ظاهر الأمر على دينها وتعصبتها ، وفى
أحشائها نشأت المادية وداروين وسبنسر وستوارت ميل وآدم

سميث من أبنائها ، فاما أن يكون نفاقا واما أن الانجليز لم يقتنعوا
بآراء فلاسفتهم وعلمائهم *

وقد قضيت هكذا بضخ سنين حتى اتصلت بكتب المستشرقين
الألمان والنمساويين وقرأت كتبهم فى تاريخ الاسلام وحياة محمد
عليه الصلاة والسلام وتسليم بعضهم بصدق نبوته أمثال « جريمه »
و « ويلهاوزن » و « نولدكه » الهولندى و « تولستوى » الروسى ،
ورأيت أن هذا العصر المادى فى الفكر قد جر على العالم مصائب
الظلم والاستعمار واعداد المبادئ السامية بقوة الحديد والبنار ،
فهلنى هذا الأمر واعتقدت أن العالم صار جحيما مستعرا وأن
ليس فيه الا ظالم ومظلوم ، القلة ظالمة والكثرة مظلومة ، ورأيت
من الأحداث فى أوربا ما غير عقيدتى فى المادة ، ولكننى رأيت
طلوع فجر جديد ضئيل النور خافت الصوت ، رأيت حركات فكرية
ونزعات الى التحرير وكسر القيود ، ورأيت المظلومين يثورون على
الآديان لا تكديبا لها ولكن يأسا من قوتها لاصلاح العالم ورفع
المظالم ، لأن رجال الدين الذين كان يرجح أن يقفوا سدا منيعا
بين الحق والباطل ، والاكل والمأكول ، وبينه المفترس وفريسته ،
قد اشتراهم الأغنياء واستندرجتهم الحكومات حتى باعوا ذمتهم
ومالؤوهم وانضموا اليهم ، فأبغضهم الضعفاء وأبغضوا مصادر
سلطانهم ، فكان أكبر الملحدى فى رومه عاصمة الكشلكة ، ورأيت
بعينى فى سنة ١٩٠٦ البابا غارقا فى نعيم أكثر من نعيم الملوك
ويخب فى الحرير والمخمل والدنتلا ، ويأتمر بأمره فى مدينة
الفاتيكان ألوف الأحرار والبخس والكراذلة ٠٠٠ الخ ، فدهشمت
من أنه يمثل أحد القديسين الذين كانوا يرقدون على القش فى
هالليل ، ولا يعرفون الا عبادة الله والكفاف من الرزق .

أما المظالم فى الشرق ، فلنتركها على جانب !

واذن كان من المحتوم أن يسمع صوت الاصلاح والعودة الى
 شيء من الحق والانصاف والرحمة ولو قليلا، ولكن أين هذا الصوت؟
 ومن يطلقه وهو عرضة لاطلاق المدافع والبنادق وحبال المشانق وحيد
 السيوف ؟!

كان العجز يملكني والحيرة تسود على والاضطراب يستولى
 على ذهني ، لأنني - لبساطة عقلي - شغلت بالانسانية كلها لا بنفسى
 وأهلى ووطنى فحسب ، بل بكل العالم ، وصارت الآلام التى أراها
 أو أقرأ عنها تحز فى قلبى وروحى ، ولكن لا وسيلة الى دفعها
 أو تقليلها ، فتجلى لى الصراع المهول بين الانسان والعناصر على مدى
 الأجيال الطويلة السابقة ، وهو شيء تقشعر منه الأبدان وتضطرب
 له الأسنان ، ثم الصراع الأشد هولا بين الانسان وأخيه الانسان ،
 وهو الذى بدأ بين قايين أو قابيل وهابيل حتى قتله وحار فى مواراة
 جسمه واستحق عتاب الله وتحمل حزن والديه ، هذه القصة رمز
 للبشر الذى يسود حياة البشر ، وتجلى لى الصراع فى سبيل المبادئ
 وكان أشرف ، ثم فى سبيل السلطة والمال وهو أشنع .

واذن كان لابد لله من أن يبعث رسلا وأنبياء ومصلحين وأن
 يختارهم من هذا الجنس نفسه ، ولكن من عينة أرقى ونفسية
 أسمى ، فجعل الله النبوة التى حاول وصفها وتعليلها أبو نصر
 الفارابى .

ومن حكمة الصانع الحكيم القادر أن يخطط لارشاد الانسان
 طريقة الكلام للتفاهم ، والكتابة للتراسل ، فهو فى رسالة الأنبياء
 يجعل الاتصال عن طريق العقل والمنطق ، لا طريق التهويل
 والتخويف كما كان المظهر فى ديانة بنى اسرائيل ، فان المظهر
 الالهى لهذا الشعب كان مناسبا لحالتهم وتاريخهم وطبيعتهم ،

فاختار الله لهم موسى الكليم الذى لم يبعث الله له وحيا ، بل تجلى عليه تجليا ماديا بالصعق وظهور النار وسماع الصوت ، وكان موسى نفسه رجلا قويا عنيقا لا يعرف الدين ولا الهواة ، ولكنه على ما كان عليه من سعة الادراك ، قد انتقاد لعقل سام ، فاستطاع بالقوة تارة وبالحيلة طورا أن يقود جماعة من المتوحشين الغلاظ الاكباد حتى أصبحوا فى قبضة يده ، فجعل من هؤلاء القساة الجاهل أمة بقيت الى اليوم بفضل التعاليم التى بنى فيها فيهم ، وهم لا يزالون يدهشون العالم بمناعتهم المادية والمنوية بعد مرور بضعة آلاف من السنين عليهم (انظر كتاب « موسى » لسيجموند فرويد وكتاب « تحليل الأشياء » لبول جيبييه) . وان شأن موسى لظاهر جليا فى تاريخ حياته وأعماله المدونة فى التوراة ونسب سرد حاله فى القرآن الكريم لأنه أول نبي يستحق هذا الاسم بعد ابراهيم الخليل ونوح .

وهكذا نرى أن الله قد جعل من مراتب الأنفس البشرية مرتبة بعد لها بمحض فضله بعض من يصطفيه من خلقه ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، فميزهم بالفطر السليمة وبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه للاستشراق بأنوار علمه والأمانة على مكنون سره مما لو انكشف لغيرهم انكشافه لهم لفاضت له نفسه أو ذهب بعقله جلالته وعظمته ، فيشرفون على الغيب بأذنه ، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه ، ويكونون فى مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين الاثنيين ، نهاية عالم الشهادة وبداية عالم الغيب ، فهم فى الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها (أى والله صحيح !) ، وهم وفد الآخرة فى لباس من ليس من سكانها ، ثم يتلقون من أمره أن يحدثوا عن جلاله وما خفى عن العقول من شئون حضرته الرفيعة بما شاء أن يعتقده العباد فيه وما قدر أن يسخر فى سعادتهم الآخروية ، وأن يبينوا للناس من أحوال الآخرة ما لا بد من علمه .

معبرين عنه بما تتحمله طاقة عقولهم ووسع ادراكها حتى يملغوا عنه شرائع تجدد لهم سيرهم فى تقويم نفوسهم وكبح شهواتهم حتى ينالوا سعادتهم فى ذلك الكون المغيب عن مشاعرهم بتفصيله ، اللاصق علمه بأعماق ضمائرهم فى اجماله ، ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من الآيات حتى تقوم بهم الحجة ويتم الاقناع بصدق الرسالة ، وهذه الوسائل المعقدة فى ظاهرها البسيطة فى حقيقتها انما اختارها الله والتجأ اليها وهى من صنعه ، لأن هذه الوسائل ومظاهرها هى من نفس ما علم الله أنه حادث فى الأرض .

وقد جعل الله لكل نبي خصوصيات ثلاثم عصره ودهره وقومه ، ولم يكتب التوفيق لكثير منهم كما كتبه لقله ممتازة لتكون حجتة على أقوامهم أقوى وأقنع ، هذه سنة الله وهذه خطته .

ولا يبدو لى أن أفيض فى تواريخ الأنبياء ، ولذا لا ألم بتاريخ عيسى عليه السلام ، وانما أنتقل الى نبي آخر وقد بعث فى الصحراء وأنى بالحبج العاجب مما ينطبق عليه وصف الرسالة الصحيحة بأدق مبانيها ومعانيها (انظر كتابى ثورة الاسلام وبطل الأنبياء أبو القاسم محمد بن عبد الله) ، فان بداية حياته قبل الرسالة معروفة ، أما ابتداء أمره ففيه عظة وعبرة .

فما السر فى هذا ؟

لا سر غير النبوة واتحاد قوة الله بقوة رسوله ، فمده بالعقل والعلم والسياسة والحنكة والمال والرجال والسلاح والهيبة والتوفيق وحسن التدبير والصبر والنصر وحسن الختام ، وأعظم من هذا كله القرآن الكريم الذى نطق به محمد تلقيا عن الله بواسطة الملك وهو روح عظيم كان ينزل عليه تارة خفيا وظورا متجسدا .

وقد سماه الله جبريل أو جبرائيل وهو نفس الروح أو الناموس الذى نزل على موسى وعلى عيسى ، وقبل عيسى نزل لأمه مريم ودار بينها وبينه حوار صريح فى القرآن « فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا • قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا • قال انما أنا رسول ربك لاهب لك غلاما زكيا • قالت انى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا • قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا » •

وقوله تعالى « فتمثل لها » أى رآته فى عالم المثال حسب مقامها الذى كانت فيه وحالتها فى القلوات التى لجأت إليها نلبية لنداء الله بعد طول الصبر •

وجبريل هو المعلوم لليهود والنصارى والمسلمين ، ومعنى اسمه « خادم الله » من « جبر » بمعنى خادم و « ايل » بمعنى الله ، فهو روح خير خالده وظيفته نقل الوحي الالهى للمختارين من عباده ، وصفه سبحانه وتعالى بقوله فى سورة الشعراء « وانه لتنزيل رب العالمين • نزل به الروح الامين • على قلبك لتكون من المنذرين » ، وفى آية أخرى « ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين » التكوين ، ٢٠ ، ٢١ ، وفى سورة البقرة يوصف جبريل بأنه « روح القدس » لأن خدمته لله محصورة فى نزوله عليهم بالوحي ، فجاء لموسى اثم جاء لعيسى مؤيدا « وإلقه آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسول وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس » •

لم اكن فى تلك الفترة على شىء من العلم ، وما أزال كذلك ، غير انى سمعت أن جبريل هو الملك المختص بالاتصال بالانبياء منذ موسى وربما قبله •

فجبريل روح لا ترى لغير المقصود من الله أن يراه ولا يسمع لغير المقصود من الله أن يسمع ، ما لم يتجسد هذا الروح كما روى رسول الله محمد أنه جاءه في صورة دحية أحد معاصريه من العرب ورسول النبي الى عظيم بصرى •

واذن بدأت أتوهم حقيقة الوحي على هيئة اتصال روحي بنزول الروح القدس (جبريل) على قلب محمد حتى تحدث له حالات بدنية جاء وصفها صريحا في حديث البخاري على لسان النبي نفسه وعلى لسان عائشة وعلى لسان كثير من الصحابة الذين رأوه عليه الصلاة والسلام (١) •

ولابد أن فضيلة الأستاذ الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر قد فهم علاقة علم الأرواح الحديث بمسألة الوحي وتقريبها من الأذهان عندما كتب « والكهرباء وما نشأ عنها من المخترعات قربت الى العقل امكان تحول المادة الى قوة وتحول القوة الى مادة ، وعلم استحضار الأرواح فسر للناس شيئا كثيرا مما كانوا فيه يختلفون ، وأعان على فهم تجرد الروح وامكان انفصالها وفهم ما تستطيعه من السرعة في طي الأبعاد ، وقد انتفع الدكتور هيكل بشيء من هذا في تقريب قصة الاسراء فأتى بشيء طريف » •

واني أدري أنني أؤيد الاسلام بعلم الأرواح الحديث ، وأؤيد علم الأرواح الحديث بالاسلام ، فمسألة الوحي كانت عسيرة الإدراك على العقول ، ومثلها في الدخول الى بعض الأذهان كمثمل دخول الجبل بل الفيل في سم الخياط ، فالمعاصرون للرسول أنفسهم

(١) انظر مقدمة كتاب لطفي جمعة « نظرات عصرية في القرآن الكريم » ، عالم الكتب ، القاهرة ، سنة ١٩٩١ ، ص ٢١ وما بعدها ، ص ٢٦٦ ، ٢٧٥ •

كانوا لا يدركونها ولم يدركها الا الذين وهبهم الله نفوسا شفافة وقسطا من الذوق ، فيقيسون الكثير على القليل والجليل على البسيط ، أما المصدقون بشير فمحض ولا تمحيص بمجرد التصديق والايمان ، فهؤلاء لهم أجر كبير ، أما أبو بكر الصديق ، فقد كان يصدق عن بيئة واقتناع ، وكذلك عمر وعطى وبقية المبشرين بالجنة ، فقد كانوا يعلمون حقيقة الوحى وكيفية نزوله ، ولهذا كان أبو بكر الفرد المحمدى الأوحى الذى صدق حديث الاسراء بشير جدل ولا انتظار ، لأنه كان مقتنعا مدركا بصفة قاطعة ، فلم يجد فيها الغرابة التى وجدها المعاصرون حتى أهل بيت النبى أنفسهم ، لأنه يعلم أنه عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى ولا يقول الا الصدق .

فكان الملك أو الروح الأمين والروح البنس واسطة بين الله ورسوله ، وكان محمدا عليه أفضل الصلاة والسلام واسطة بين الله أولا والملك ثانيا وبين جميع الناس ، ولا شئ الا وهو به منوط . اذ لولا الواسطة لذهب - كما قيل - المتوسط ، وهذا نص من كلام عبد السلام ابن ميمش ، وفيه اشارة كافية للحقيقة ، اذ أن محمدا عليه الصلاة والسلام كان أعظم واسطة ظهرت فى الوجود وأعظم شخصية انسانية فى الكون ، لا بايمان المؤمنين كافة أو بادراك النابغين منهم خاصة أو باعتراف عقلاء علماء الأمم الذين فحصوا ودرسوا ، بل بأقوال الله مكررة ومعادة ومدعمة بأدلة من عالمى الغيب والشهادة .

فاذا كان علم استحضار الأرواح قد ظهر فى العالم منذ تسعين عاما ، أى من نصف القرن التاسع عشر ، فانما جاء لينقذ العالم من ويلات المادة والمذاهب المادية التى سلبت الانسانية ونهبتها وأقلقت راحتها ، فان العالم فى هذه الأجيال أردأ وأخبث

وأشقى منه فى كل زمن مضى ، ولم يعم البلاء فى وسط النعيم
المزعوم بمثل ما عم الآن وقبل الآن بمائة عام •

وها نحن أولاء نرى آلافا من الأحياء ، وكل واحد منهم له روح
لها قدرها عند الله - يبلون ويذبلون من الفقر والفساد ويسقطون
صرعى فى ميدان الكفاح فى الحياة ، ويموتون جوعا ومرضاً مع
كثرة الأموال والخيرات التى استأثر بها الطغاة والأقوياء ولم
يوزعوها توزيعاً عادلاً ، وهؤلاء الضحايا هم ضحايا أشخاص
مفتربين ومغتالين ومستغلين هم المسؤولون عن هذه الآثام لأنهم
اقترفوها بأنفسهم أو ساعدوا على ارتكابها عن طريق أثرهم
وجشعهم ، وسوف يحاسبون على ذلك حساباً عسيراً عندما ينتقلون
فى مواكب الخزي والعار الى العالم التالى حيث لا قيمة للحياة
الأرضية ولا لالقب ما يسمونه شرفاً ولا لقوة المال والجاه •

أى دنيا مجنونة حققاء هذه التى نراها ؟ •

أين الاعتدال والانسجام والعدل الاجتماعى والرحمة
والانسانية ؟

أين روح الأديان ووصايا الأنبياء ؟ بل أين كلام الله وأوامره
ونواهيته ؟

لابد أن الله كشف القناع منذ تسعين عاماً عن عالم الغيب
للجميع من جماح الانسان طاغية هذا الكوكب الأرضى ، ولم يبعث
رسولا لأن محمداً خاتم النبيين ، ولأن وسيلة النبوة لا تصلح لهذا
الزمان بعد التطور الذى طرأ على عقول الانسانية وقلوبها ، كما أن
الله يسر لبعض المخلوقين الممتازين وسائل الاختراع والاكتشاف ،

فظهرت فى هذه الفترة نفسها الكهرباء والبخار واللاسلكى والطيران والمحركات والصناعات الآلية ، أملا من الله سبحانه وتعالى أن تنشغل الانسانية بهذه الكمالات وتتخذها وسيلة للإصلاح من شئونها •

- ٧ -

الإيمان بالاعتناء

كان من دأبى حب الاقتناع فى كل شىء بالدليل ، لا اعتمادا على نص حفظته أو رأى سمعته ، ولكن خضوعا للعقل والمنطق العقل ، وسواء أكان الأمر متعلقا بالدين أو بالدنيا ، فان مجرد الكلام لا يكفينى ، وعندما كانت التجربة ممكنة فهى خير عندي من المشاهدة ، وإذا وجدت المشاهدة والخبر ، فهى خير من الخبر ، والخبر الثابت خير عندي من المبهم أو المشكوك فيه •

وقد كرهت التقليد بعقل ورأيت عواقبه فى نفسى وفى غيرى ، اذ كنت وقعت فيه مرة أو مرتين ، وهو فى العقائد عندي مرذول ودليل العجز وسخافة العقل ، وقد أبيت أن أكون مسلما مقلدا ، وذهب بى العناد مع أقرب الناس الى مذهبا عنيدا ، وفضلت البقاء بغير دين مدة من الزمن على أن أكون متدينا بالتقليد ، ولكن عنادى ومعارضتى كانتا للوصول للحقيقة المجردة ، وقد كان التقليد من أسباب عدم الاستجابة للدعوة المحمدية ثلاث عشرة سنة فى مكة ، فان حجة الوثنيين أنهم وجدوا آباءهم عاكفين على الأصنام ، وكان إبراهيم أول الخارجين على التقليد ، فانه رفض عبادة الأصنام مع

أنها معبودة قومه وأهله ووالده ، ونرى أهل مكة يقولون للنبي « بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا » فيرد الله عليهم « أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » ويقولون فى مكان آخر « انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آئارهم مقتدون . قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ » .

وكان عنادى وابائى الخضوع للتقليد سببا فى أضرار كثيرة أصابتنى فى الدنيا ، ولكننى لم أكرث لها فى وسط دنيا لا تهمها المبادئ ولا يعجبها الاصرار على الحق ، وينقاد معظمها للقوة أو للتقليد انقياد قطعان الغنم ، وقد رأيت هذه « الغنمية » أو « البهيمية » متجلية فيمن حولى تجليا فاجعا ، فزادنى هذا بغضا فى التقليد ، وعرفت أننى يوم أخضع للتقليد فقد فقدت روحى .

وكان بعض المجادلين لى يظنون أن البحث محرم وأن المعارضة تورث الكفر ، فلم أبال وقلت ان كان التدين بالتقليد واجبا ، فمعناه أن الدين لا يتحمل المناقشة ، وأنا لا أريد دينا لا يتحمل المناقشة ، وإن كان الدين يتحملها فأنعم به وأكرم ، وغفلوا عن الحق ، فان مفخرة هذا الدين المسمى أنه يصمد للبحث ويطيح العقل .

وانك لتجد الرجل منهم يجادل فى اللقمة التى يأكلها والثوب الذى يلبسه وكأس الخمر التى يتجرعها والمرأة التى ينكحها والأجر الذى يتقاضاه - ولو لم يؤد به عملا - والمبدأ الذى ينتحله - وإن كان مستعدا أن يخونه - والقسم الذى يؤديه - وإن كان يتأهب للحنث فيه - ولكنه يأبى عليك أن تجادل غيره فى دينك . أرايت قوما أشد عمى وصمما وجهلا من هؤلاء ؟

وما أزال كذلك حتى عثرت على ما يؤيد رأىى وهو أن آيات القرآن وأحاديث النبى وأخبار الصحابة لا يجوز الاستناد فيها الى

تقليد أصول العقائد ، وأن إيمان المقلد إيمان لا يعبأ به . والاسلام صادق النظر في هذا ، لأن الإيمان التقليدي إيمان بغير عمل ولا مجهود ، فكيف ينجو مؤمن من غير عمل ؟

وإذا صح في الأفهام أن ينجو المقلد بالتقليد لمجرد المصادفة لأنه اتبع أهلاً أو شيخاً كان مؤمناً ، فلما ذا يعاقب من كان كفره أو شركه بالتقليد والمصادفة لأن أهله أو مرشده كانوا كفاراً أو مشركين ، ولو أن الكافر اتبع طريقة العلم الصحيحة لكان له شأن آخر ، والمؤمن المقلد لم يتبع طرق العلم الصحيحة لأنه – وان اتبع الرسول – فهو لم يتبعه بعد أن قام الدليل عنده على صدقه ، بل اتبعه تقليداً ، ولو أنه اتبع الرسول بعد قيام الدليل عنده ، لكان ناجياً بلا ريب ، لأنه يكون قول المعصوم هدياً يصح الاستناد عليه ، ويكون كتابه هدياً يصح الاستناد إليه .

وعلى هذا الرأي كان المرحوم أستاذي الشيخ محمد عبده ، الذي لقي الآلام في هذا السبيل كما لقيها من بعده تلميذه ومريده الشيخ رشيد رضا ومن قبلهما ابن تيمية وابن قيم الجوزية ، وهؤلاء أربعة من الأئمة الكبار ، وخامسهم فخر الدين الرازي الذي قال « أكثر العلماء على أن التقليد لا يكفي في أصول العقائد ويجب النظر في الأدلة على كل واحد » . وهذا الرجل من أجل المفسرين وأفطن العلماء .

أما سادسهم فهو أحمد بن حنبل الذي كان أفضل أهل الحديث وأحد الأئمة الأربعة ، فقد أخبره شخص أن فقيهين أفتياه برأيتين مختلفين ، فقال « لا يجوز له العمل بأيهما شاء ، بل يعرض الآراء على قلبه ويتبع ما يطمئن إليه » وهو بذلك يفتي بما يكون للقاضي في الجرائم الكبرى من حق الحكم بالاعتناع الباطني

Convictin intime • وهو أقوى وسائل الاقتناع لانه نوع من نور البصيرة •

والسابع الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر فى أول العشرة السابعة من القرن الرابع عشر الهجرى (انظر اجتهاده فى تفسير سورة لقمان) •

كانت هذه القوة العقلية ورائى عندما كنت أجادل فى سن السابعة عشرة رجلا أسن وأعلم ولا يدركون من هذه الأمور شيئا غير أنهم يتهموننى بالالحاد ، فكنت أهزا بتهمتهم ، ولست فى طلب الأدلة بمغال أو طالب محال ، فانك لا تطلب دليلا على وجود الله أن تراه عيانا ، أو على صدق النبى أن تقرأ صكا سماويا على أيدى الملائكة ، أو تحتم العثور على حفريات ونقوش على أحجار لتعلم أن ابراهيم واسماعيل رفا القواعد من البيت وبنيا الكعبة بمكة ، فان هذا يكون تعنتا ومن شر أنواع التعنت ، وتمسكا منك بأن لا تقتنع ولكنك تخشى التصريح بنيتك ، ولا يمكنك فى مسائل الدين والروح أن تطلب أدلة جارية على قواعد المنطق فى الأقيسة ومقدماتها وأشكالها وضروبها ، ولا على قواعد الحساب والجبر والهندسة ، بل يكفى الاستنتاج السليم الذى يضى المحجة ، وليس اطمئنان القلب وحده بكاف الا فى بسائط الأمور ، ولكن اذا حصل الاقتناع فى الكليات وأمهاات المسائل فلا بأس بالاطمئنان فى الجزئيات والفروع ، وقد تفضل الله فنصب الأدلة وأوضح الحجة فى الأنفس والحوادث والآفاق •

ومن بين الأدلة التى أوضحها فى الأنفس والآفاق تلك الحركة الروحية التى يظنها الناس حديثة وهى قديمة بل مغرقة فى القدم كما نرى ، فليس بين الأديان القديمة والحديثة من لا يؤمن بخلود الروح والثواب والعقاب ما عدا التوراة التى لم ينص فيها عليهما •

فالمجوس الذين عبدوا زردشت وقدسوا النار ، كانوا يعتقدون
بأله واحد خلق النور والظلام ، وأن الأجسام تدخل النعيم مطهرة
مقدسة ، واليونان كانوا يعتقدون بهاديس وهي مقر الأرواح
الخالدة التي ذكرها هوميروس بالتفصيل في قصيدته أوديسة ، وكان
البراهمة الهنود يعتقدون بالتناسخ ، فإذا تم عقاب الروح بقدر
جرمها طهرت وانتقلت من الجسد الغريب عنها واجتمعت بجسدها
الأول وعاشت معه في نعيم أبدي . واذن فالبرهمية تقر الخلود
والعقاب والثواب ، وإذا مات البرهمي وأحرق ، تبعته امرأته
باختيارها لأنها تعيش عيشة أخرى هنية لا تنغيص فيها ولا نكد ،
وقد وعدهن البراهمة بأن كل امرأة احترقت مع زوجها فلها بعدد
شعر رأسها تمتع ألف سنة بالعيشة المرضية ، والبوذيون يعتقدون
أن الروح الذي يعمل خيرا يدخل دار السعادة أو يرسل إلى دار
الشقاء واسمها دسيجوكف ليعذب فيها حسب ذنوبه لا إلى الأبد ،
والى هذا يشير المعري :

خلق الناس للبقاء فضلت

أمة يحسبونهم للنفاد

انهم ينقلون من دار أعما

ل إلى دار شقوة أو رشاد

وان فترة العذاب تتلوها فترة تقمص في جلد حيوان ثم
العودة إلى الجسم الانساني الأول ، فالهناة الأبدية والغاية عندهم
خلاص النفوس من الآلام والهموم والوصول إلى هذه الدرجة يكون
بارتفاع الانسان من هذا العالم حتى يصير غير راغب في الوجود .

أما اعتقاد البابليين والآشوريين والمصريين القدماء بخلود
الروح والثواب والعقاب ، فأمر أشهر من أن يذكر ، وما بقي من

آثار هذه الأمم وتاريخها وكتبها شاهد بهذه العقيدة حتى مجلس
القضاة الجالسين لمحاسبة الأرواح منقوش في سقوف قبور كثيرة
للملوك في وادى الملوك الى يومنا هذا ، وقد شاهدهته بعيني ، عدا
عما ورد في كتاب الموتى وتصوير موقف المحاسبة ووزن الأعمال في
ميزان ووزن قلب المتوفى وامتحان الروح امتحانا عسيراً في تسمع
درجات يدخل بعدها الى عليين أو يرند أسفل سافلين في جسم
حيوان أو كيان شجرة •

وان الذى يراجع تواريخ هذه الأديان وظهورها واستقلالها
عن بعضها في البيئة والزمان واختلاف الأخلاق والمتنارب ، وتباعد
الشفقة بين كل أمة والأخرى ، واختلاف اللغات والثقافات ، يرى
بينها جميعاً مهما اختلفت في أمور أخرى اجماعاً تاماً كاملاً على أن
الروح كائن حى خالد يقضى حياته على ظهر هذا الكوكب في صالح
الأعمال أو طالحها أو مزيج من هذه وتلك ، ثم ينتقل الى حياة أخرى
خالدة فيها ثواب وعقاب بعد حساب دقيق ، ومهما اختلفت المشارب
والمآرب والأصول والفروع والأسباب والنتائج ، فإن شيئاً واحداً
لا يختلف فيه اثنان من هذه الأديان من أقدم العصور الى عصرنا هذا
وهو هذا الاعتقاد ، ولم يقم دليل على تواطؤ بينها ، والتواطؤ
مستحيل ، ولو تواطأت على هذا ، كان أولى أن تتحد في العقائد
كلها ، ولكنها مع بقاء التنافر بينها والتباغض بين شعوبها وتباين
درجاتها في العلم والجهل والقوة والضعف ، قد أجمعت على خلود
الروح وحسابها حساباً دقيقاً وثوابها على الخير وعقابها على الشر ،
كما أجمعت على وجود خالق مطلق القدرة والارادة ، مهيمن على
هذا الكون ، مدبر لشئونه ، واضع لقوانينه مشرف على تنفيذها
ومباشرتها • (انظر الكتاب الأول من روح الشرائع لمونتسكيو وهو
يكاد يقول بمذهب وحدة الوجود حتى اتهمه بعض ناقديه بأنه من
أتباع سبينوزا الهولندى الذى ألف كتاباً فى ثبوت وجود الله بأدلة

رياضية ، وشرح العالم ادوارد شوريه التاريخ السرى للأديان فى كتابه « كبار العارفين » ، وفى التطور الالهى من عهد سنفنكس الى المسيح ، والأماكن المقدسة فى الشرق القديم ، مصر واليونان وفلسطين . وهذه الكتب تحير القارئ فى أول أمرها ثم تثبتته بالقول الثابت فى صحة الخالق والمخلوق) .

وقد جاء القرآن الكريم مؤيدا لهذه الأدلة القديمة بآيات بينات وكذلك الأحاديث المحمدية الجليلة الواضحة ، فان الله قد سلك مع الانسانية مسلك الترقى والتطور وكشف لهم القناع بالتدريج حسب معقولية الأمم والدرجات التى وصلت اليها .

فهؤلاء البابليون الذين عرفوا قصة الخلق ونقشوها على عمود من الحجر الصلد لم يسمحوا للمصريين أن ينقلوها أو يتواطأوا مع اليهود على اذاعتها فى توراتهم ، ولم ينقل عنهم الاسلام فى كتابه المنزل ، وانما الأصل الواحد والمصدر الأول هو الذى أطلع البابليين ثم المصريين ثم اليهود ثم العرب .

تم هاهم أولاء أهل هذا العصر المادى الحديث يطلعون منذ مائة سنة على تلك الحقائق الأبدية عن طريق الأرواح ، فانه من العجب العاجب أن ترى هؤلاء العارفين فى الماديات والمنكرين للالهييات والطاعنين فى الروح ، قد اتجهوا رغم أنوفهم منذ مائة سنة الى البحوث الروحية فى أوربا ، فكانت بحوثهم الروحية على طريقة بحوثهم العلمية فى المختبرات بالدقة والحيطة والحذر والشك حتى جاءت البينات التى تقنعهم ، وأيد علماءهم الفحول فى أوربا وأمريكا تلك المظاهر الروحية وقيدها فى مئات الكتب والمجلات المنشورة بأسماء علماء اعلام لا يرتقى الشك الى أسمائهم وشهرتهم العلمية ، ومنهم من كان ينكر انكارا باتا ويتهم المتكلمين بالخداع حتى بعد ظهور العالم الرياضى سويدونبورج السويدى وهو من أهل الجلاء البصرى الموهوبين نعمة الكشف والناطقين بما رأوا وعلموا فى عالم

السِر ، وقد أُلّف كُتبه فطُبعت ونشرت بملايين النسخ فى اللغات
العالمية (١) .

ثم الآن يسمون استحضار الأرواح جلسة ويجعلون لها
محضرا يوقع عليه شهود عدول ، فما بالهم قد نسوا المحضر الأول
المسجل فى التوراة ؟

(١) كُتب لطفى جمعة فى الهامش ما يلى :

من العلماء الذين اشتغلوا بالبحوث الروحية هوم الانجليزى المتوفى سنة
١٨٨٦ وستانتون مويز المتوفى سنة ١٨٩٢ وكان وسيطا روحيا وانتسب مجلة
« الضياء النفسانية » ومن مؤسسى الجمعية الروحية بانجلترا ، وويليام ستيد
المتوفى سنة ١٩١٢ وصاحب مجلة المجلات ومؤسس « مكتب جوليا » والان كارديك
مؤلف كتاب كبير فى الأرواح وكان يعتقد فى التقمص ، والعالمان الألمانيان زولتر
وويبر ، والوسيطه الايطالية يوزابيا يلادينو التى قالت وهى منومة أنها عاشت على
الأرض قبل ذلك مرات كرجال وساء وترجمت مجلة المقتطف مقالات عنها سنة
١٩٠٤ ، سنة ١٩٠٥ ، ومورسيللى الايطالى صاحب الأبحاث الطويلة فى الروحية .
والبروفسور ريشيه الفرنسى وله كتب ومجلة مصورة ، وأنى برايت من ملبورن
باستراليا ولها مجلة « رسول النور » ، والسير جويك وويليام ياريت وإدموند
جرنى من الانجليز والذين أسسوا جمعية البحوث الروحية وأبحاثهم فى ٢٥ مجلدات .
١٥ كتابا كبيرا ، وكونان دويل الذى ألف كتابا فى تاريخ الروحية ، وهنرى
برجسون أشهر فلاسفة فرنسا وويليم كروكس أشهر الباحثين بقلمه وعلمه فى
الروحية ، وويليم جيمس فيلسوف أمريكا الأوحى ، وأوليفر لودج العالم الانجليزى
الشهير ووسيطته السيدة تومسون ، والعلامة الأمريكى هودجسون ووسينته
مسز بايير .

ويلاحظ أن هؤلاء الرجال والنساء كلهم صادقون وذوو شرف وعفة وخالفون
من الخداع والكذب ومعظمهم لا يطلب المال ولا يسعى الى كسبه عن هذا الطريق ،
وارأؤهم أن الناس يعيشون بعد الموت عيشة تشبه الدنيا فى المشاغل والمصالح ،
وهو رأى راجح فلسفيا وجيد أخلاقيا وموافق لما تقولهُ الأديان .

لا شك أنه لا مطمع لأحد من الماديين في أن يطعن في نصوص التوراة بالتزوير أو يتهم أحد أنبياء بني إسرائيل بالخداع أو الكذب لخدمة العلم الجديد .

انظر الى سفر صموئيل الأول في الاصحاحين ٢٨ ، ٢٩ تجد حديثاً من أعجب الأحاديث نصه الآتى « فقال شاول لعيبيه فتشوا لى على امرأة صاحبة جان فاذهب اليها وأسألها . فقال له عبيده : هو ذا امرأة صاحبة جان فى عين دور . فتنكر شاول وجاء الى المرأة ليلا وقال : اعرفى لى بالجنان وأصعدى لى من أقول لك . . . فقالت المرأة : من أصعد لك ؟ فقال : أصعدى صموئيل (سلفه الصالح) . فلما رأت المرأة صموئيل صرخت بصوت عظيم ، وكلمت المرأة شاول قائلة : لماذا خدعتنى وأنت شاول ؟ فقال لها الملك (شاول) : لا تخافى ، فماذا رأيت ؟ فقالت المرأة لشاول : رأيت انه يصعد من الأرض . فقال لها : ما هى صورته ؟ فقالت : رجل شيخ صاعد وهو مغطى بجبة . فعلم شاول أنه صموئيل فخر على وجهه الى الأرض ومسجد ، فقال صموئيل لشاول : لماذا أقلقتنى بأصعادك اياى ؟ فقال شاول : قد ضاقت بى الأمور جدا ، الفلسطينيون يحاربوننى والرب فارقنى ولم يعد يجيبنى ، فدعوتك لكى تعلمنى ماذا أصنع . فقال صموئيل : قد شق الرب المملكة وأعطاها لقريبك داوود لأنك لم تسمع لصوت الرب . . . » الخ .

فليقرأ بقية محضر الجلسة فى موضعه من التوراة من يشاء .

وترجمة هذا المحضر بلغة العصر الحديث أن هذه المرأة التي كانت تسمى « صاحبة جان » لم تكن سوى وسيطة معروفة تستحضر الأرواح ، حتى أرواح الأنبياء والملوك ، وشهود هذه الجلسة شاول والرجلان اللذان صحباه ، وتسجيل المحضر في التوراة وهو كتاب مقدس عند الكثرة المتدينة في العالم وهم النصارى واليهود .

التكوين الفلسفى

(١)

سبب دراستى للفلسفة

القراءات الأولى - محاولة التأليف - فكرة الالتحاق بالآزهر -

كيف السبيل الى الفلسفة ؟

• لا أحاول مطلقا أن أدافع عن نفسى ولا أحاول أن أدعى (١) .

فاننى شغلت بعلوم كثيرة وآداب كثيرة حتى تشعبت مطالبى ،
وأفرطت فى المطالعة والدرس وجعلت لكل فرع من فروع المعرفة
الانسانية جانبا من ذهنى .

وقد عشت فى زمن شاعت فيه فكرة التخصص ، ولست أزعم
أن التخصص ينافى العلم لأنه يضيق البحث ويحدد آفاق النفس
البشرية المتطلعة ، وإن كثيرين من المتخصصين يكونون خاويي
الوقاض من كل علم وأدب غير ما انقطعوا له ، ولا أنكر أن من انقطع
لشيء أحسنه ، ولكن أقيد ذلك الاحسان بشرط النبوغ الشامل
وامتلاك الملكات والمواهب ، والا فإن الرجل العاجز عن الادراك العام
يعجز حتما عن التخصص ويتدارى وراءه بحجة أنه لا يمارس عملا
سواه .

(١) كتب لطفى جمعة هذا الفصل من هذه الذكريات سنة ١٩٤٢ .

نعم ان التخصص جميل ونافع فى بعض فروع الطب كطب
العيون والولادة والجراحة ، ولكن ليس معنى التخصص أن يكون
الرجل جاهلا فى كل شىء ماعدا عمله الذى اشتهر به ، فقد قرأت
لأطباء فرنسيين كتباً فى الطب تكاد تكون من الأدب المصفى من حيث
جمال الأسلوب ودقة التعبير وبلاغة الوصف ، وهى صفات لا تكتسب
لمن انقطع للطب وحده ، بل لابد أن تكون له قدم عالية فى الأدب
والتاريخ وعلم النفس ، وقرأت لمهندسين متخصصين كتباً فى فنونهم
تعد آية فى بلاغة الكتابة ، وقرأت لكبار المحامين المتخصصين فى
القانون شعراً ونثراً وقصصاً ونقداً أدبياً يعد فى الدرجات العليا ،
وفى نظرى أن العلم عند ممارسته يعد علماً حتى اذا شاء العالم أن
يكتب فى علمه فقد صار أدبياً .

ولما كانت العلوم القانونية ولا سيما المحاماة تقتضى اتقان
البلاغة لأن الخطابة جزء منها فى المرافعة على لسان الدفاع والاتهام،
وكذلك عند القضاة عندما يكتبون الأحكام المسببة ، وكذلك عند
رؤساء النيابة العامة عندما يكتبون تقرير الاتهام أو تقرير الحفظ ،
وعند أساتذة الحقوق عندما ينبرون للتأليف – فقد صار فن الانشاء
الرفيع جزءاً لا ينفصل عن تخصصهم .

ولما كانت ميولى الى القانون منذ حداثنى ظاهرة ، فقد اتجهت
الى اتقان اللغات ما استطعت ، ثم اتقان البلاغة علماً وعملاً لأنها
جزء من صناعتي ، وان لم أكن بلغت فيها الشأو الذى كنت أتمناه ،
ولكن يشفع لى أننى تحريرت أن أثقن ما استطعت .

غير أن أهل زمنى وأهل بلدى لأسباب كثيرة ينظرون الى كل
شىء نظراً معكوساً حتى أنهم ليعروك بالفضيلة أو النعمة .

ولذا فقد اقترن حب العلم أو حب الاطلاع بآفات البغضاء
والحقد بدلا من أن يصحبهما التشجيع أو حب الخير أو الفرح بما
جاد الله عليك به .

ولذا نرى الرجل الذى أنعم الله عليه بموهبة اذا انطوى على
شئ ولو يسيرا من التواضع والتعفف والكرامة قد ديس تحت
الأقدام ووطأته المناسم وانمحي ذكره من سجل الأحياء ، لأن الوقحاء
والجهلاء وأهل الأحقاد الذين أتقنوا فنون الدس والوقيعه يتقدمون
بصفاقتهم ورذائلهم ليحتلوا الأماكن التى يستحقها ، لأنه ينتحى
احتفاظا بكرامته .

وقد أصبح المشاهد أنه لا يكفى أن تكون كفؤا أو فاضلا أو
عالما مع وداعة فى الخلق أو إباء فى الطبع ، بل يجب عليك - لتصل
الى ححك - أن تكون صفيقا رذلا منافسا متهجما لا تعرف الخجل
ولا الآداب ولا الحياء ، والا فلا سبيل الى شئ مما تستحقه أو
تتطلع اليه !

وعلى هذا دب الفساد الى الأعمال والمناصب لخلوها من أهل
الكفايات الذين لديهم خلق ، وتقدم اليها الجهلاء المتسلحون بالوقاحة
والغطرسة والطمع مع استعداد كبير للرياء والنفاق والانحطاط
وغيرها من الرذائل .

ولست هذا بسبيل البحث فى تعليل ذلك أو تفسيره ، فان
معظمه يرجع الى انحلال الأمة ووصولها الى درك الفناء الخلقى
واستيلاء العجز على مدبرى شئونها من جميع الجهات .

ترجع ميولى الى الالمام بالعلوم الى علة قوية وهى فساد التعليم
فى المدارس والمعاهد التى نشأت فيها فى أواخر القرن التاسع عشر

وأوائل القرن العشرين ، لأجل هذا كنا نسمع باسم الفلسفة ولا نراها ، وباسم الفلك ونشتاق اليه ولا نجد له وباسم المنطق ونحب أن نطلع عليه فلا نعتز عليه وهكذا .

فكنت أثنى الدرس أهجم على الكتب الواسعة والشمس الاستزادة وأشعر بظماً شديداً للاستيعاب واجمع ما أستطيع من المجلات والمراجع الكبيرة ، ولكن لا أجد المرشد والأستاذ الذى يقود خطواتى وأجد السخرية تجرى على لسان الأستاذ أو التلاميذ اذا لمجوا معى كتاباً من هذا القبيل ، فكانت هذه بداية الاضطهاد .

ولكن هذا كله لم يفت فى عضدى بل دأبت واستمرت وانفقت كل ما أملك فى شراء الكتب المنبوذة البغيضة الى أساتذتى واخوانى فى الطلب ، وليس هنا مجال ذكرها أو تعديدها أو تأثيرها فى نفسى .

ولكن يجدر بى أن أذكر الأستاذين أو الثلاثة الذين ساعدونى وشجعونى فى تلك الفترة من سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٠٥ .

ففى مقدمتهم المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى الذى كان وجوده فى المدرسة الثانوية فلتة ندم عليها رجال وزارة المعارف أى ندم ، لأن هذا الرجل كان لا يعبأ بالنحو والصرف وعلوم الرسوم والأشكال ، بل كان يلخص لنا كتب الغزالي ويدربنا على فصاحة القول وبلاغة الكتابة وشرح القصائد الكبار وتفسير القرآن .

وغير الشيخ جوهرى المرحوم على فوزى والأستاذ ادوار فانديك ورابع اسمه فوستر سميث .

أما فانديك فهو ابن المستشرق كورنوليوس فانديك مؤلف كتاب النقش فى الحجر الذى درست فيه مبادئ الفلك والمنطق

والنيات والفلسفة بارشاد ابن المؤلف ، وكان يقرضني كتباً في المنطق وأخرى في التاريخ وإن يكن درسه الرسمي هو الترجمة ، وكان ضنيناً بها ولكنه يتقنها .

وكان المرحوم على فوزى حجة في اللغتين العربية والانجليزية فأفادت بتعليمه كثيراً في دقة التعبير وتفهم النصوص .

أما فوستر سميت فكان رجلاً متحرراً مفتوح الذهن مشفقاً على التلاميذ ، وكان يلفت نظري إلى المطالعة في كتب الأدب الانجليزي ويرشدني إلى خيرها ويتحدث إلينا فيما لا علاقة له بالأجرومية والاعراب ويتوسع في شرح الشعر حتى حبيب إلى مؤلفات شكسبير ، وكان أول من ذكر لي الياذة هوميروس وفلسفة أرسطو وأفلاطون والثورة الفرنسية وتاريخ محمد تآليف واشنطن أرفنج ، فكان ذهني يشتهل عند سماع أسماء الكتب والمؤلفين فأبادر إلى الحصول عليها وقراءتها ، ولم أجد أن واحداً من هذه المؤلفات عطلني أو أخرجني أو حار علي وقتي الذي فرضته لمراجعة دروس المدرسة واتقانها .

وجاء رجل اسمه جونز متخرج في أكسفورد ومتخصص في التاريخ ، وكان أول وآخر من اتبع طريقة التدريس الجامعي ، فيلقى محاضرة في دروسه ثم يرشدنا إلى المراجع في الكتب ، فرفع عن أبصارنا غشاوة الجهل وضيق نطاق العلم ، ولكن الذين انتفعوا به قليل ، وكره الرجل أن يتواطأ مع رؤساء المعارف على تجهيل الطلاب ففسارق مصر بعد عام واحد واستمر يرأسني ويبحث إلى بأسماء الكتب والمؤلفين من إنجلترا تارة ومن الهند تارة أخرى ، وكان يرشدني عن تولى مستوى سرا ويرشدني إلى بعض كتبه ويملي علي أسماء كتب في التاريخ والأدب .

هكذا كانت البذور الضئيلة التي غرسها الله في نفسى على
أيدي هؤلاء الأفاضل خلصة وأنا فى الرابعة عشرة من عمرى .

أما قبل ذلك - أى أثناء التعليم الابتدائى - فكانت مطالعتى
فى غير كتب الدرس مقصورة على حديث البخارى ومجلة المفتطف
ومجلة الهلال وألف ليلة وليلة وسيف بن ذى يزن وشعر المتنبى
واعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بنى العباس وبعض القصص
الانجليزية مبسطة ، وكنت أجمع بمالى مجلات انجليزية مثل ستراند
مجازين وونزور مجازين ومجلة المجلات ومعظمها أعداد قديمة من
نفاية ما يبيعه خدم الانجليز فى الطرق .

ثم عثرت على مجموعات جرائد من عهد الثورة العربية وعلى
نسخة قديمة من كتاب مصر للمصريين ، ومن أهم هذه الصحف
أبو نظارة وجريدة المدرسة والأرغول للمرحومين عبد الله النديم
والشيخ محمد النجار وبعض مقالات من مجلة العروة الوثقى ومن
خطب الثورة العربية وشعر البارودى .

وكنت أرى قيمة لشعر أبى زيد الهلالي فجمعت أجزاءه ، وكذلك
شغفت بالأمثال العامية فجمعت فيها كتباً وهى أساس ما تعلقت به
من دراسة الفولكلور ، وأول من ألف فى هذا الفن المرحوم محمود
عمر وكان يجمع القصص والأمثال والأغاني الشعبية ، وهو أول
مصرى انتبه لهذا النوع من البحث دون أن يجعله للتسلية بل
للدروس والدلالة على أخلاق الأمم ، وقد توسعت بعد ذلك فى هذا
الباب وألفت فيه وجمعت قوموساً حسناً فى الملاحن Argot
واللغات السرية فى اللغة العربية (١) .

(١) للطى جمعة كتاب عنوانه « مباحث فى الفولكلور » ، صدر سنة ١٩٩٩
عن طريق مكتبة عالم الكتب بالقاهرة . ثم أعادت الهيئة العامة لقصور الثقافة
طبعة سنة ١٩٩٩ أيضاً ضمن سلسلة مكتبة الدراسات الشعبية برقم ٣٤ .

وكانت تصل الى يدي جريدة لسان العرب وروايات نجيب حداد ومؤلفات أخرى منقولة عن اللغة الفرنسية وكتب من وضع المرحوم أحمد زكي مثل السفر الى المؤتمر (باريس سنة ١٩٠٠) ، وتاريخ أمم المشرق وهو ترجمة موجزة لكتاب ماسبرو ، كما وصل الى يدي كتاب جمهرة أشعار العرب طبعه يوناني مستشرق وباعه لنا أحد أقاربه .

وهكذا كانت بضائتي قليلة ولكنها كانت تروى شيئا من غلتي .

وفي تلك الفترة كان الأستاذ فريد وجدي ينشر مجلة باسم الحياة وفرح انطون ينشر مجلة باسم الجامعة فكنت أقتنى منهما ما يصل الى يدي .

وفي تلك الفترة حاولت التأليف ، فوضعت رسالة في تاريخ مصر القديم وقطعة تمثيلية مسجعة ، وبدأت ترجمة مقولات فرنسيس باكون ، ولا أدري على التحقيق أين ذهبت هذه المخطوطات التي لا قيمة لها الا من حيث تاريخ عقلي وتطلعه .

فلما وصلت الى القاهرة والتحقت بالمدرسة الثانوية لم أجد في دروسها ما يشفي غلتي ، وأدركت أن هنا عقبات في الطريق مقصودة حتى هممت أن التحق بالأزهر بعد أن قرأت كتبه في صحبة صديقي المرحوم محمد عثمان الفندى الذي كان أبوه محاميا شرعيا وله أصدقاء معظمهم من مجاوري الأزهر الشريف كأفراد أسرة لطفي المنفلوطي والغاياتي ، ولكن علمت أن التعليم في الأزهر يقتضى أن أخلع زى الأفندية الذى درجت عليه وألبس العمامة والجبّة ، وتحدثت الى أحد أصدقائي فنصحتنى بالعدول عن هذه الفكرة وقال لى ان المشايخ يخلعون أزياءهم ليتزينوا بالسترة والبنطلون والطرش وانت تريد أن ترجع القهقرى ، ثم ان الأزهر لا يعلمك العلوم

الحديثة ولا اللغات الأجنبية ، فإذا دخلته خسرت كل ما تعرفه وان
يكن قليلا ولن تفيد شيئا بنفسك ، وأنت إذا جاورت تنقطع عن العالم
المتمدن (كذا) ولا تستطيع الامام بالجديد وهو الذى يسير العالم
فى طريقه ، بينما يمكنك وأنت فى المدارس الحديثة أن تلم بعلوم
الأزهر بأن تحضر بعض الدروس وتقرأ الكتب التى تدرس فيه ،
وان كان معظمها عقيما (كذا) ولا يصلح منها للدرس الا القليل .

وكان المتكلم لى أزهرىيا فاضلا ، فعملت بمشورته وحاولت
الاتصال بالأزهر جهد طاقتى ، وكان هذا سبب اتصالى بالمرحوم
الشيخ محمد عبده .

كل هذه الثورة العقلية حدثت فى قلبى سنة ١٩١٠ أو سنة
١٩٠١ ولا يشعر بى أحد من أهلى وأساتذتى . كنت أعد القاهرة
كعبة العلوم وقبلة المعرفة وأننى لابد أن أجنى من ثمارها أكبر
نصيب وأن أتفهم تاريخها القديم والحديث وأن أطبق ما أعلم منه
على ما أرى ، فكنت أطوف الشوارع والأزقة لأزور المساجد والمعاهد
وأتنسم ريح التاريخ من جدرانها الشاهقة وأنخيل بالأماكن حقيقة
ما وقع فيها من مآث السنين ، وأعتقد أن للأماكن أرواحا كالأحياء ،
وأن هذه الأرواح لا تغادرها .

وبدأت تتنازعنى أهواء شتى ، فاللغة العربية لها جمالها
وتاريخها وآدابها ، ولكن الذى لدى منها قشور يعطى على أيدي
الأساتذة ، وأمها الكتب ممنوعة علينا ولو أبيعحت فلا أجد من
يرشدنى إليها .

أسمع بالفلسفة العربية ولا أجدها ، وليس بين يدي منها
الا تهذيب الأخلاق لابن مسكويه ، وهو يذكر أرسطو وأفلاطون ،
ولكن كيف السبيل الى فلسفة أرسطو وأفلاطون ؟

وفلاسفة الافرنج لا أسمع عنهم الا ما يرد عرضا في المجلات
السورية كاسم سبنسر وأوجست كومت ، ولكن كيف السبيل
اليهما ؟

وأخيرا سمعت باسم ابن رشد فوجدت في المكتبات الأزهرية
كتابا له أو كتابين مشوهين في طبعهما ولا تنسيق فيهما وقد ملئت
هوامشهما بكتب أخرى ولم أكن درجت على قراءة الهوامش .

كما أنني في قراءة البخاري لم أعرف علوم الحديث وسلسلة
الاسناد وتحقيق الرجال ومرامى الأحاديث نفسها ، ومعظم قراءتي
فيه كانت للبركة لا للعلم .

ومجمل القول انني كنت في الخامسة عشرة من عمري في
حيزة تتنازعني أهواء شتى ، فقد بدأت بقراءة الكتب الانجليزية
وبدأت أفكاري تصبغ بالصبغة الانجليزية وابتدأت ميولي تتجه نحو
الاعجاب بها ، لأن الذي يقرأ أدب أمة أو تاريخها يصاب بالاعجاب
بها وبغرق في لجة تقليدها .

— ٢ —

تاريخ الثورة الفرنسية لكارليل — تاريخ محمد لواشنطن أرفنج
— البحث في أصل ومذهب داروين —
الفزالي ومبدأ الشك لديكارت

كان معنا ثلاثة طلاب أحدهم على فؤاد طلبه وهو مصري ولد في
سيلان وكان أبواه في المنفى ، والآخر هندی اسمه عبد الحميد من

جنوب افريقيا ، والثالث جاوى من بطاوى اسمه محمد صالح
عبد الله .

أما عبد الحميد فكان أنبغ الطلاب فى الانجليزية والرياضة ،
وكان يقرأ تاريخ الثورة الفرنسية لكارليل وأقرضنى اياه فلم
أستطع حل رموزه فاشتريت كتابا آخر وثالثا من تأليف كارليل
(عبادة الأبطال وسارتور ريزارطوس) وكل منهما على طريقة
جديدة انفرد بها هذا الكاتب الفذ ، فصممت على أن أقرأ كتاب
الثورة ولكنى لم أحظ بدرسه الا بعد أن قرأت مؤلفات جورج لينوتر
بالفرنسية ، أما عبادة الأبطال فكان فيه فصلان مهمان عن محمد
صاى الله عليه وسلم وآخر عن نابليون بونابرت قرأتها بسهولة ،
وقد شفى غليلى عن محمد كتاب واشنطن ايرفنج الكاتب الأمريكى
وهو أوضح وأنفع من السير العربية التى تجمع ألف قول وقول ثم
يقول مؤلفها « والله أعلم » فيخرج القارئ بغير نتيجة لأن المؤلف
لا يريد أن يتورط ببدء رأيه فى أصغر المسائل .

أما على فؤاد طلبه ، فيكاد يكون لا يعرف العربية ويتقن
الانجليزية كإبنائها ، فبدأ بينى وبين عبد الحميد وطلبة صراع على
الغلبة فى اللغة الانجليزية فعملت جهدى حتى بلغت شأوهما وكان
لى القدح المعلى فى التحرير فى مجلة المدرسة الحديوية بالانجليزية
وفى الخطابة فى أندية المناقشة والمناظرات Debating Club .

أما الطالب الجاوى محمد صالح عبد الله فقد أشعل خيالى
بوصف مسقط رأسه وعرفنى بناحية من العالم كانت مجهولة لدى
وهى الشرق الأقصى وغرائب مخلوقاته ونباته وحيوانه ودخول
الاسلام فيه ووصف مشاهدته ومعابده الوثنية قبل دخول الاسلام
فيه ، وكان يسافر الى وطنه فى كل عام ويراسلنى من بطافيا الى أن
انقطعت عنى أخباره ، ولكن اسمه وصورته مازالا حاضرين فى

ذهنى بسبب خبر غريب نقله الى وهو أن بجاوه قرودة قوية كبيرة تشبه الانسان شبيها كبيرا ، وقد بقيت هذه القصص مختزنة فى ذهنى الى أن قرأت بعد ذلك بخمس عشرة سنة أن الدكتور « ديبوا » الهولندى اكتشف فى جاوه فى سنة ١٨٩٣ هيكل عظيم من العهد السابق للتاريخ ، فجمع مؤتمرا من ستة علماء لفحص هذا الهيكل ، فقال ثلاثة منهم أنه هيكل قرد شديد الشبه بالانسان ، وقال ثلاثة انه هيكل انسان شديد الشبه جدا بالقرد ، وكان لهذا الاكتشاف ولهذا المؤتمر شأن كبير ، فانه جدد عهدا ذى البحوث الخاصة بأصل الانسان ودل العلماء على كثير من الحقائق .

وأرى أن أسجل هنا أن محمد عبد الله الجاوى افادنى أكثر من طلبة وعبد الحميد لأنه غرس بذور البحث عن أصل الانسان فى ذهنى .

وبدأت فى هذه الفترة أسمع عن مذهب داروين وأعى الطعن فيه وأنه مخالف للدين وناقض لقصة آدم وهادم لعقيدة من أهم عقائد الأديان ، فوجدت نسخة قديمة من كتاب « أصل الأنواع » *Origin of Species* لداروين فحصلت عليها ، وهذا الكتاب ينقض قصة التوراة عن خلق آدم ، وقرأت بالعربية فى المقتطف ما كان يكتبه الدكتور شبلى شميل وصاحب المقتطف نفسه الدكتور يعقوب صروف ، ثم هجمت على كتاب داروين فوجدت صعوبات هائلة فى أوله ثم لأن وسلس قياده بعد ثلاثين أو أربعين صفحة .

فرايت فيه غير ما يقوله الناس وأن داروين لم يجزم مطلقا بأن أصل الانسان من القرد ، ولكنه يشبث قوانين النشوء والارتقاء وهى لا تخالف مشيئة الله بل تؤيد قدرته سبحانه وتعالى .

وكانت مطالعة هذا الكتاب سببا في حصولي على كتاب « تسلسل الانسان » للمؤلف نفسه وهو آية في الايضاح والتبسيط، وعثرت أثناء ذلك على نبذة في مقدمة ابن خلدون تؤيده وهي بنصها الآتي « ثم انظر الى عالم التكوين كيف ابتداء من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بدیعة من التدریج ، آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات وآخر أفق النبات متصل بأول أفق الحيوان، ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد القريب لأن يصير أول أفق الذي بعده ، واتسع عالم الحيوان وتباعدت أنواعه وانتهى في تدریج التكوين الى الانسان صاحب الفكرة والروية » . انتهى .

فأدهشتني هذه النبذة دهشة عظيمة وأنها سابقة لمؤلفات داروين بمئات السنين ، ويكفي وجودها ليرشد العالم الطبيعي للبحث والتشقیب ، فان فيها تصريحاً لا تلميحاً باستعداد المخلوقات بإرادة الله للتطور والارتقاء .

ووجدت في ذلك العهد في كتب الغزالي العبارة التالية « لو لم يكن في ذلك الا ما يشكك في اعتقادك الموروث لكفي به نفعا ، فان من لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقي في العمى والحريرة » .

وهذه قبل ديكارت الذي ناحوا عليه بمئات السنين .

وقال الغزالي أيضا « اذا وجدت تناقضا بين العلم والدين فخير لك أن تعتمد الى التأويل من أن ترمى الدين بتهمة الضعف » .

لقد عثرت على هذه النبذة مصادفة فشجعتني وسلحتني بحجة قوية ولم أجار الطاعنين والناقدين ، وكان الشيخ طنطاوى جوهري

فى صفى وقال لى ان الببهة الاولى فى « احياء العلوم » وأن الشيخ محيى الدين بن عربى رحمه الله كان يحرم ايمان المقلد ويقول ان أعماله باطلة وغير مقبولة ، ولا بد للمؤمن من فحص ايمانه ودرس كل شىء بنفسه حتى يطمئن .

وذكر لى الشيخ طنطاوى ايضا أن الغزالى عند رده على الآراء المخالفة والمذاهب المعارضة لمذهبه — كان يشرحها ويحسنها ويوضحها كأنه يدافع عنها كما فعل فى كتاب مقاصد الفلاسفة حتى ظن الكثير من قرائه أنه منهم — أى من الفلاسفة — وكان يسميهم القدامى .

أعود فأقول انه ليس معنى ما قلت اننى أؤيد مذهب داروين أو أنفيه ، بل أقول ان نسبة هذا المذهب الى داروين وحده ظلم ليسابقه من العلماء الاعلام أمثال لامارك وجوردون وهوكسلى وارنست هيكل ، وكان ظهور كتاب داروين فى وسط القرن التاسع عشر ، ولكن علماء كثيرين قبله قد مهدوا له السبيل ، وقامت فى أمريكا وأوربا الآن حركة قوية لتفنن آرائه تحت تأثير تطور العلوم الطبيعية والفلكية ، ولكن كثرة من العلماء لا تزال تؤيده ، ولا أحب التعرض لهذا النزاع وأحب أن أبقى على ما وصلت اليه بالدرس الطويل ، غير اننى اصرح بأنه مهما كانت عقيدتى فى آراء داروين وأشياءه ، فلم يززع هذا عقيدتى الدينية .

ولكن داروين لم يكن عالما من علماء التشريح ، وقد أقبل على المسألة اقبال عالم بسيكولوجى لا اقبال عالم من علماء التشريح ، وبعد أن قضى سنوات عديدة فى الملاحظة الدقيقة والبحث والمقارنة ، اقتنع أن الفروق بين عقل الانسان وعقل القرد — على كبرها — هى فروق كمية لا فروق نوعية .

ولكن أين الآن مذهب داروين فى عالم التشريح وعلم النفس
وعلم تاريخ الانسان ؟

لقد ظهر كتابه « أصل الأنواع » فى سنة ١٨٥٩ بعد أن قضى
اثنين وعشرين عاما فى الدرس والبحث والتنقيب ، وظهر كتابه
« أصل الأنواع » سنة ١٨٦٨ ، وكان فى التشريح عالة على العلامة
هو كسلى ، فأخذ قوله كلاما مسلما به ، وكان هو كسلى - على
علمه - عدوا لدودا لسير رتشارد أون أكبر علماء التشريح فى عصره ،
وريتشارد أون جاء بأدلة يستنبط منها أن تاريخ ظهور الانسان
على الأرض أقدم كثيرا من التاريخ المذكور فى التوراة وهو ٤٠٠٠
سنة ، ولكنه صب جام نغمته وامتهانه على رأى القائل بأن الانسان
ارتقى من أصل قردى ، فصرح بأن الفروق بين القرد والانسان
كبيرة جدا لا يسعه معها الا أن يعين للانسان مقاما خاصا فى نظام
المملكة الحيوانية .

وانبرى له هو كسلى بكتاب فى سنة ١٨٦٣ « أدلة لاثبات مقام
الانسان فى الطبيعة » ، دلل به على أن مقام الانسان فى الطبقة
العليا من الحيوانات الثديية المعروفة « بالبريماتيس » ، وأن القردة
الشبيهة بالانسان أقرب الأحياء اليه ، وكان جمهور العلماء يعتقد
أن الانسان خلق خلقا منفصلا .

كنت أقرأ هذا وأسأل نفسى : اذا كانت القردة العليا قد
أنتجت الانسان ، فلم لا تنتج الآن وقد ارتقت بحكم الطبيعة عما
كانت عليه من نصف مليون سنة ؟ ولم لم يظهر بينها مخلوق
واحد - ولو على سبيل الاستثناء - يشبه الانسان ؟ وهل قانون
الارتقاء كان نافذا ثم تعطل ؟ ولم لم يحدث العكس والنقيض على
سبيل الرجعى وهو أن تلد امرأة مخلوقا شبيها بالقرد .

على أن البحوث الجيولوجية لم تمكن أحدا من العلماء من الحصول على الدليل القاطع على أن الانسان نشأ من أصل قردي شبيه بالانسان ، لأنهم لم يعثروا بعد على الحلقة المفقودة أى على أثر انسان فى طور الانتقال من أصل قردي شبيه بالانسان الى شكل انساني ، فكيف نقول ان الانسان فى أثناء نشوئه مر بدور كان يمت فيه بصلة الى القردة ونحن نرى الفروق الكبيرة بين الانسان والقردة فى التركيب والمظهر والتصرف ؟

لقد أسهبت فى هذا الموضوع لأنه شغل بالى فى صغرى أمدا طويلا وقرأت فيه كثيرا من الكتب والبحوث ولا سيما كتاب بوختر الذى نقله الى العربية شبلى شميل ، وكان المقتطف يجمع فى أعداده بين مقالة فى مذهب داروين وأخرى فى بحوث روحية تثبت خلود الروح ، فكانت الحيرة كبيرة فى أذهان القراء .

وقد وقفت هنا طويلا كما وقفت أثناء دراستى الشخصية فى شبابى ولم أكن اذ ذاك مقيدا كما أنا الآن بعقيدة دينية ، بل كنت أستبجح هدم كل شئ فى سبيل وصولى الى الحقيقة ، والآن - وان كنت مقيدا - فاننى مرتاح الضمير ، ولكن لاحظت أن الناس كانوا يعتقدون خطأ أن الانسان متسلسل من القرد مباشرة ، لأن الحقيقة التى قال بها العلماء هى أن جميع « البريمات » - من لفظ بريمو أى الأول - بما فيها الانسان والقرد نازلة من جد أعلى مفترض الوجود ويطلق عليه اسم ارشبريماس : Archprimas أى الأول الاكبر أوجد البريمات الأول !

والخرق الواسع فى هذه السلسلة هو أن الجد الأعلى هذا منقرض ومفترض الوجود ولم يعثر عليه هيكله أو جزء من هيكله أحد ولا ينتظر أن يعثر عليه .

بين الانسان والحيوان

لم أحب أن أتنازل عن الأصل الآدمي لأن آدم مخلوق على صورة الله وفيه عنصر روحاني لا شك فيه .

نعم ان الاختبار يدل على أن الانسان في الحضارة أخط من الحيوان وأقسى من الوحش ، فان أجناس الحيوان لا تعتمد الى هلاك أنفسهم ولا تعمل بأيديها ما يقودها الى حتفها ، وهي على قوتها وشدة ذكاء بعضها لا تفكر في الاجرام وهو خصلة انسانية ، وعند الناس للحيوان أباد مشكورة ، وكل الحيوان النافع للانسان كالأغنام والجمال والأبقار والخيل والحمير والبغال والكلاب الأصيلة لا يأكل اللحم ولا يتذوقه ، ولا يشبه الانسان في نهم اللحم الا الوحوش الضارية ، ومعظم الحيوان والطير - حتى الثعابين والعقارب - مقيدة بمواعيد معينة للسفاد ، حتى أن أنثى البقر لا تسمح للذكر بقربها أثناء الحمل ، والانسان يفعل ذلك وتشتهي أنثاه ، والحيوان لا يشرب الخمر ولا يقتل أخاه ولا يقامر ولا يسرق قوت رفيقه ، وكلاب الصيد لا تلتهم الأرانب والطيور التي تنالها مخالبتها ولو كانت جائعة ، فلو كان أصل الانسان حيوانيا لكان تشريفا له وانحطاطا للحيوان الذي تسلسل منه مهما كان نوعه !! ولو صبح هذا لكان جده الأعلى مزيجا من الذئب والثعلب وابن آوى والأفعى ، وقد بينا قال المعري :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى

وصوت انسان فكدت أطيّر !

فعلام هذه الثعلبية ؟

لا شك عندى أن الأرشبريماس الذى افترضوا وجوده لم يقتل
أخاه ، ولكن قابيل قتل أخاه هابيل لأمر تفه سجلته التوراة وأثبتته
القرآن .

نعم ان الانسان أشرف الكائنات ولكن جميع العلماء يسمونه
الحيوان الناطق أو الحيوان الضاحك أو الحيوان الماشى على اثنتين
(أى قدمين) ولم يخطر ببال عالم أن يسميه الحيوان ذا الروح
العاقل أو النفس الناطقة .

نعم ان الانسان مهبط الوحي الالهى ، ومع هذا فان هناك
اعتبارا مهما وهو أن الذين أوحى لهم من بنى الانسان عدد قليل
جدا بالنسبة الى عدد الناس والى تغلغل تاريخ البشر فى القدم ،
فلو كان مليون سنة - وهو عدل تقدير - فان الوحي الالهى لم
يتجاوز أربعة آلاف عام ، ووحى الله لعيسى لم يصل الى ألفى عام
ووحي الله لمحمد لم يبلغ ألف وأربعمائة عام ، فلو كانت حياة
الانسان على الأرض تشبه النهار ، فان الوحي لم يصل اليها الا عند
الغروب بالنسبة لأهل هذا الزمان .

فعلام هذه المعركة الحامية ؟

هل ترى شروق عالم الحيوان منذ الخليفة الى الآن تصل الى
جزء من ألف الملايين من شر الانسان وجنائته على النبات - وهو
كائن حي - والحيوان وعلى الانسان نفسه ؟

ولا أحب أن أتعرض لطبيعة الخير والشر ، ولكن أعتبر القتل
شرا والنهب شرا والاعتداء على الأعراض شرا الى أن يتبين لى أن
للقتل والفتك حكمة خافية تقلبه خيرا محضا ، أما الشر المحقق فهو

ما نراه كل يوم من الجرائم المعجزة للشياطين حتى استحق إبليس
أن يعود تلميذا لنسل آدم بعد أن كان فى أول الزمان معلمه
وعدوه !

لو قلنا ان الانسان أشرف الكائنات ، فلا ننس أن الانسان
ليس كله شريفا ولا سلميا ، وأن الكثرة الغالبة تعب الأنبياء
والمرشدون فى تقويمهم وتربيتهم وعجز الوازع الدينى عن
هدايتهم .

لم نر بين طوائف الحيوان قائد قطيع يظلم قطيعه ولا يستبد
به ولا يفسق فيه ولا يأكل قوته ولا يسد عليه طريق الماء ولا يتآمر
عليه ولا يستأثر بمنفعة ، بل رأينا هذا كله وأضعافه فى جنس
الانسان ، ورأينا الانسان يقتل ملكه ومعلمه وأباه وأمه والغريب
عنه طمعا فى دراهم معدودة أو استعجالا لميراث ، ولم نر وحشا هجم
على مروضه الا فى الندرة ، ولابد أن يسبق انتقامه اعتداء صارخ
وظلم فاضح من الانسان على الحيوان .

انى لا أنكر أننى لست متفائلا بجنس الانسان قاطبة ، فإن
الذى وقع على الحيوان من اليد الانسانية أخف بكثير من اعتداء
الانسان على الانسان ولا سيما فى الحروب .

ولا يعتدى الحيوان على الانسان الا مدافعا ، فالصيد الذى
يتسلح وينفق الأموال الطائلة كبعض أمراء مصر المعروفين ليبدد
ثروة مصر فى صيد الفيلة والتماسيح - انما يهاجم الأسد فى عرينه
ويفرق بينه وبين أنشائه وأشبالهما المجرى الشهوة واشباعا لداء
الساديزم (أى التلذذ بالأم الغير) ، فهل لا يستحق هذا الوحش
الانسانى أقل من أن يفتك به الفيل أو يبطش به الأسد أو يغتاله
النمر أو ينقر النسر عينه ؟

ومع هذا وذاك فان الانسان يعيش على لحم أكثر الحيوانات والطير وداعة كالغزلان والحملان والحمام الوديع والديكة الأليفة والارانب المسكينة ، ويستعمل الوحشية فى ذبحها ويتلذذ بلحمها ، مع أنه لم تظهر عدم فائدة التغذية باللحم وحسب، بل ظهر ضررها، ولذا تجد معظم الأطباء ينهاون عنها ويوصون المرضى بالاكثفاء بالخضر والفواكه والألبان وانك لترى أنباع التغذية بالخضر والفاكهة أصح أبدانا وأطول أعمارا وأقدر على العمل من الدمويين الذين يضيفون فى كل يوم ربما وجيفا الى رمثهم وجيفتهم .

لقد أسهبت ، ولكن هذا كان موقفا مهما من مواقف دراستي ولم أتناثر فيه بالمعري الذى بدأت قراءته من صغرى ، فقد كان متشائما وعلى غرار من بعده شوبنهاور ونيشته وهنرى هينه ، وقد ارتحت اليهم جميعا دون أن أتناثر بعقائدهم الدينية ، ولكن نظرهم فى الحياة صحيح وسوء ظنهم بالمشر صحيح وحكمهم بسوء طالع الانسان صحيح ، ولا يحسن الظن بالدنيا الا أحق !

ان قالوا ان الدنيا جميلة ، قلت نعم ، ولكن الانسان طمس جمالها ، وان قالوا كريمة قلت نعم ولكن طغى عليها لؤم الانسان ، وان قالوا الحياة لذينة . نعم ولكن غمرتها آلام الانسان .

ولا أنكر أن الله جعل فى الأرض خليفة وهو آدم ، ولكن هذه الخلافة لم تفهم ولم تدرك ، وربما يأتى الزمن بعد مليون آخر أو مليونين حتى يأتى الخليفة القادر على حكمها . ليس فى القرآن الكريم نص يفيد أن الانسان لم يفسد ولم يسفك الدماء وان كان فيه نص على أنه أعلم من الملائكة ، ومع ذلك فان ظاهر النصوص لم يدلنا على أنه استفاد بعلمه ، فقد عصى بعد أن رأى عاقبة العصيان فى ابليس ، ورأى الله بواسع حكمته أنه غير جدير بعيشة الجنة ،

وليس هذا بمستغرب ، فقد قال الله من الوهلة الأولى « اننى جاعل فى الأرض خليفة » ولم يقل اننى جاعل فى الجنة خليفة ، ثم خلق الله الأسباب التى أدت بآدم الى سقوطه سقطته لم ينهض منها بعد . ولم يشرف الجنس نفسه ولم يحترم أصله الالهى ولم يدرك حقيقته الا عند أفراد قلائل ، فقد أوسع الأنبياء والأولياء والحكماء ظلما وتقتيلا ، وقد نسى كل شئ الا الظلم والاضطهاد والانتقام والجسد وكل الرذائل التى كان خليقا أن يتخلص منها ويتخلى عنها اكراما لأصله الربانى .

فى صغرى التمسست مهربا من هذا العالم ، فلم أجد غير تفكيرى فى أن الكواكب - وهى أكبر من الأرض وأبهى وأبهج - لابد أن تكون مسكونة بأجناس أرقى من هذا الجنس ، وأن الله أكرم وأعظم من أن يشغل ذاته العلية بسكان قشرة هذه الكرة الأرضية دون سواهم ، وكان أهل زمنى يعتقدون أن المريخ أهل بالسكان ، ولعل الدافع لهذه الفكرة كان كدافعى اليها .

ثم أخذ أهل عصرى يفكرون فى فناء العالم وكيف يكون ، فظنوا أنه نتيجة تصادم يقع بين الأرض وبين الكواكب المذنبة أو السيارات الضخمة أو برودة الشمس أو الزلازل ، وطالما استعدوا للقاء يوم القيامة ، ولابد أنهم لم يفكروا فى هذا الفناء الفجائى الا لأنهم سثموا الحياة على ظهر هذا الكوكب ، والا فان من يعيش عيشة هنيئة فى بيت متين الجدران لا يفكر فى أسباب زواله .

ولعلمهم أيضا ضجروا وضجوا من معاصيهم فصدقوا قرب الساعة ، ولكنهم سرعان ما ينقضى اليوم الموعود حتى يعودوا الى

فسوقهم وفسادهم ويغرقوا مخاوفهم في كئوسهم ، وهم لا يدرون حقيقة الكئوس التي تعانها لهم الحياة في أرقى عهود الحضارة !



س ٤ -

من أين وإلى أين ؟

عندما كانت هذه الافكار نخالجني ، ولم آكن وصلت الى يمين في أصل الانسان أردت ان أتتبع نموه العقلي ، ولا يوجد وسيلة لاستقراء هذا النمو الا عن طريق الفلسفة ، وأول الفلاسفة أهل اليونان .

نعم كان المصريون أقدم منهم ، ولكن أهل مصر لم يتركوا كبا في الفلسفة ولكنهم تركوا كتاب الموتى وهو يثبت خلود الروح وحسابها وثوابها وعقابها .

كان لدى سؤالان لا ثالث لهما في تلك الفترة :

الأول من أين جاء الانسان ؟

والثاني الى أين يذهب الانسان بعد موته الأرضي ؟

أما الأول فقد تعبت في تحصيل الجواب عليه ثم طويت كاغده ووضعتة على أحد رفوف عقلي لشدة التناقض بين ما قاله العلم وبين ما قاله الله تعالى ، وكلام الله عندي أصدق ، وقد حاولت التأويل على حد نصيحة الامام الغزالي .

على أنه مهما يكن أصل الانسان ، فقد تجلى الله عليه بروحه
وأوحى اليه وعلمه واختاره وجعله خليفة .

فان كان آدم طينا فقد رفعه الله الى أسمي مكان ، وان كان
حيوانا فقد منحه الروح ونفخ فيه وميزه بالجمال والعقل ، وهذا
العقل أى الدماغ أى المخ الذى هو الفؤاد والقلب والفكر قد خلقه
الله وأعجب به كما جاء فى الحديث القدسي ثم وهبه الانسان ،
ولا ندرى فى أى وقت ولا فى أى تاريخ من الأزل المتناهي فى القدم
كان هذا الخلق السعيد ، ولكن الله خلقه ووهبه .

انك اذا نظرت للانسان - ولا سيما الأنواع الراقية منه -
لا تجد جمالا يعدل جماله فى الذكر والأنثى ، ومهما يكون الحيوان
جميلا فى ذاته فان جماله لا يصل الى جمال الانسان .

ولكن لم أر ولم ير غيرى قردا من « البريمات » يقرب من
الانسان ولا ترتاح العين الى النظر اليه طويلا أو قصيرا ، فالانسان
الجميل هو أجمل المخلوقات وبعبقوله هو أشرف الكائنات ، وان ظهر
فيه الانحطاط فمن فعله وهو سوء الوراثة فى بعض السلالات ، وان
كانت صورة المجتمع دميعة ، فان هناك الأمل الفسيح فى تحسينها ،
وقد باتى فرد واحد من هذا الجنس الانسانى بخيرات نعم ولا تحد
ولا تنقاس كما فعل موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ،
فان عشرين عاما من حياة خاتم الأنبياء ملأت العالم نورا وقضت على
أثقال من الشر ، وانها لحياة وجيزة ولكنها عامرة بالسعادة والجمال
والخير .

مكذا الدنيا ، قد تمتلئ بكل الرذائل وألوان البلاء ، ولكن
بين الأحياء فيها عشرة رجال كالذين ذكرت ، هم القابضون على جمال

النجاح وهم قادة قوارب النجاة وهم الذين يقتلون الجراثيم التي تحملها السفينة ، ولا تهدم الدنيا أفرادا امتازوا بالمكارم كأبي بكر في الصداقة وعمر في العدل وعلى في الوفاء وألوف من الشعراء والفلاسفة كسقراط وأفلاطون وهومر والمعري وشوبنهاور والمتنبي وبوذا وجوته وغيرهم من الأطباء والعلماء والأساتذة، فلن يخلو العالم من النفوس الكريمة والصحبة المباركة ، ولن يكون الرجل الصالح وحيدا ولن يشعر بالوحشة ان تعلم الأنس بسيد الخليقة .

نعم انك ترجو وتتمنى أن تشمل السعادة كل ماش على قدميه في كل بقاع الأرض وحتى يغمر الخبر ذوات الاربع والطيور والزواحف والزرع والضرع ، ولكن ما الحيلة في هذه الأرض الفاجرة وهذا الدهر الغادر وهذه الدنيا الغرور ؟



نعم اطماننت الى عاقبة الانسان وهي الموت والى بقاء الروح بعد الموت على الصورة التي نقلها لنا النبي محمد ولم يخطر ببالي **فهل أننا خلقنا للفناء الأبدى** ، وتخيلت في أول أمرى نظرية بقاء المادة عندما كنت أبرى قلما فأرى أجزاءه تتساقط ثم لا أراها تزول بل ينضم بعضها للأرض وبعضها يبقى على الورق ، وأن مداد الدواة قد يتبخر وقد يبقى في الطروس ذا معان شتى أكسبتها إياه يد الكاتب وعقله .

تخيل القلم والدواة والكاتب والمكتوب والقرطاس كلها خالدة باقية ، فقدت لنفسى اذا كان القلم والورق والمداد يخلد وتخلد الأفكار التي يملئها العقل وتقيدها اليد ، وهى أشياء قليلة ووضيعة بالنسبة للانسان ، فكيف يفنى الروح وهو أشرف منها جميعا ؟

ألمست ترى الوالد يخلد فى ولده وتمتد حياة الأب بحياة الابن ؟ ويرسم المصور صورة كالتى نقشها المصرى القديم فتعيتس أربعة آلاف عام وهى من سائل ملون بريشة طير على جدار مموه بالبياض ؟ فكيف بالروح ؟

كان اعتقادى بالله لاود مزيجاً من العبرة والمساهمة ومن الاعتزاز بكرامة الانسان والثقة بالله والشعور بأن الله لا يخلق الانسان عبثاً بعد أن أعده هذا الاعداد وجهزه وأهله بالنطق والعلم والبصيرة والضمير وجمال الصورة +

لقد كانت هذه أفكارى فى سن المراهقة وهى فى نظرى الآن تستدرجنى للابتناسام !

- ٥ -

وراء كتب الفلسفة

كان لابد لى أن أتخذ لى موقفا عقليا حيال العالم وأن أرسم لى خطة أسير عليها .

نعم كنت عاجزا وفقيرا فى العلم وبعيدا عن الكتب ولا أستطيع أن أخرج من تلك المدرسة الضيقة العطن ، الخديوية التجهيزية ، ولم أجد أحدا يأخذ بيدي أثناء هذا التخبط سوى الله ، ولم يكن بين الأساتذة فى القاهرة أحد يعرف الفلسفة أو يدرسها ، وكان

اسمها بغياضا الى الأزهرين ، وكان العهد قريبا بالأفغانى وقد سموه
فيلسوبا فكان هذا الاسم مقابلا للثورة والفتنة ، فاتجهت الى دار
الكتب الخديوية ، فطلبت قوائم كتب الفلسفة وقرأت أسماء تراجمة
العرب وأقبلت على ما فيه منها ذكر أرسطو وسقراط ، وقد دلتنى
فانديك على كتاب عيون الأنباء وفيه ترجمة حسنة للفلاسفة من
اليونان والعرب .

والكتب العربية تكتب عن الفلسفة وراء ستار من الدين ،
وقصد مؤلفيها أن يفتندوا أقوال الفلاسفة ويشبتوا منافاة الفلسفة
للعقيدة الاسلامية كما فعل ابن حزم والشهرستاني وغيرهما ،
لأنهم لم يدركوا مرامى فلسفة اليونان وكل أقوالهم وردودهم مأخوذة
عن مصادر منقولة عن السريانية .

نعم كان هناك كتاب الغزالي وكتب ابن رشد ولا سيما المقاصد
والتهافت للأول وجزء من الشرح الصغير لابن رشد . ولكن هذه كلها
لم تشف لى غلبا ، وقد طيب خاطرى ما قرأت فى دائرة المعارف
للبستانى لأرسطو وأفلاطون لأن البستانى كان يعرف اللغات
الأجنبية ، فأخذت أسأل نفسى عن مؤلفات هذين الحكيمين نفسيهما ،
فدلتنى مورتز مدير دار الكتب الخديوية على كتاب للفارابى اسمه
« الجمع بين الحكيمين أرسطو وأفلاطون » ، وهو الآخر كتاب يحاول
مؤلفه رحمه الله التوفيق بين الشريعة والحكمة أى بين الفلسفة
والدين الاسلامى لأنه كان تلميذ أرسطو ومسلما ، ولعله ألفه لينجو
من الاضطهاد الذى وقع فيه الكثير فى زمنه وقبل زمنه ، وقال لى
مورتز ان مؤلفات أرسطو كلها موجودة بالانجليزية والمانية
والفرنسية ولا سبيل اليها الا باتقان هذه اللغات الثلاث .

وكان الشيخ طنطاوى جوهرى يسألنى عن كتب انجليزية فى
الفلسفة ، فدفعته له بمؤلفات جون لوبوك (لورد آفهورى) ، فقتنع

بنا لأنه معاصر ويتخذ جمال الطبيعة وسعادة الانسان هدفا له ،
والشيخ كان مشغولا بالتأليف في هذه البحوث وفي بداية سلوكه
في تفسير القرآن ولا أظنه درس شيئا من الفلسفة درسا منظما ،
أي أنه لم يدرس المذاهب الفلسفية بحسب ترتيبها التاريخي وتقصى
بعضها بعضا على مدى الأجيال ، ولم يتخذ نظاما معيناً System ،
لان هذا لم يكن عمله ولا وظيفته ولا اختصاصه ، وكل أمره رحمه
الله أنه كان تلميذا حسنا للغزالي وهو مطمع شريف كريم .

وأخيرا أفضيت بالأمر الى فانديك فقال لي : اسمع يا فلان
أنت تنفعل كلية الأمريكان ببيروت ، فالمناهج هناك واسعة ومحبجة
(كذا) ، فاذا نجحت فلعلك تسافر الى أمريكا في بعثة » .

ولم يكن الرجل ليعلم أنني لا أستطيع فككا ولا أملك السفر
الى بيروت أو غير بيروت ، ولكنه ظن شوقى يدفعني أو يدفع أهلي
لا سام بهذه الهجرة في سبيل العلم .

وقد اتصلت في تلك الفترة بالمرحوم الشيخ محمد عبده بعد
ان راسلته وتقدمت اليه بالمسائل التي أتبتها المرحوم رشيد رضا
في الجزء الأول من ترجمة الأستاذ الامام (١) ، وكان الشيخ حديث
بالرد على كتاب ابن رشد الذي نقله فرح انطون ملخصا عن
أرسطو رينان ، ومدار البحث فيه عن اتساع صدر الاسلام للفلسفة
والمذاهب في ذلك على الدين المسيحي الذي اضطهد ذووه الفلاسفة
وكفرهم وعذبوهم وأحرقوا بعضهم ، ولكن هذا الكتاب لم يتناول
شيء من فلسفة ابن رشد ومعتز البحث فيه تاريخي وتسجيل
لما أصبح الاسلام مع الحكماء ، حتى ان عقاب ابن رشد لم يتهد نفيه

الى احدى مدن الأندلس ثم عفى عنه وعاد الى مكانته . وأين هذا من
محاكم التفتيش وخلع أوصال الفلاسفة في عواصم أوربا ، والقاء
العلماء من حالق في رومة واحراق الحكماء الذين نسب اليهم السحر
الحرام ... الخ .

ومى نهاية الأمر لم يكن هذا كله من عايتى فى شىء ، فقد كان
أنهى ما وصل اليه حكيم قرطبة شرح كتب أرسطو شروحا تختلف
طولا وقصرا واسهابا وإيجازا ، ولم يجدد ولم يبد رأيا شخصيا
خاصا به ولم يفعل أكثر من نقل خلاصة أرسطو ، ولكنه كان يفهمه
فهما جيدا ، وقد استوفيت هذا البحث فى كتابى « تاريخ فلاسفة
الإسلام » سنة ١٩٢٧ .

وقد أدهشنى أن العرب لم يكتروا بأفلاطون أكثر انهم لأرسطو
وقد سموه المعلم الأول وسموا الفارابى المعلم الثانى لأنه أول من
نقله وشرحه .

وقد استعجبت العرب بعد ذلك بسنوات وهو أن أفلاطون واسمه
الحكيم الإلهى كان يعتقد بالله وملكوت السموات وخلود الروح
والعقاب ، وهذه كلها تؤيد الأديان وتنبئها وتكاد تنطوى
على الأسس الإسلامية ، وفيها مظهر على عالم السر الذى لم يبدوا
به وانهم من التصوف وما وراء الطبيعة وعلم النفس وعلم النجيب ،
وكانت روح العرب الذين اشتغلوا بالفلسفة اليونانية روح مبارزة
بالمنال ونزوع الى المعارضة . فقاموا لعلماء الكلام الذين أصبح
أبرزهم غياث الأندلس طرازا قديما ومثلا غير خائفة بأن تحدثوا .

واذا كانت الفلسفة القديمة كلها يشتملها أفلاطون لا تكاد تختلف
عن الإسلام فى شىء . نهما حامتهم اليها ؟

لهذا اتجهوا الى أرسطو اقتداء بالكندى والفارابى وابن سينا
فى الشرق ، وكان أرسطو لا يؤمن بشيء ، لا باله ولا بالعالم الآخر
ولا بالجنة والنار ، بل حصر جهوده فيما يراه من حياة الكون الظاهرة
وجمع العلوم وقسمها ووضع قواعد المنطق والجدل والخطابة والشعر
والأخلاق وفرق بين الفضيلة والرذيلة ، وخالف أستاذه أفلاطون فى
كل شيء ، وكان عقله جبارا فلم يشغله تاريخ بلاده كما شغل
غيره ، وكان أول من بحث فيما وراء الطبيعة ، فكان هذا كله جديدا
على المفكرين فى الاسلام ، ففرحوا به وانتحلوه ، ولكنهم للأسف
الشديد لم يحاولوا تعلم اللغة الاغريقية القديمة وتركوا طلبها
لتراجمة النصارى أمثال حنين وزكريا ويحيى ويوحنا ، وهؤلاء نقاوا
الكتب الى السريانية ، ولكن ابن رشد تحرى الحق ما أمكنه وتوصل
الى الباب ما استطاع .



- ٦ -

دراسة الفلسفة بين الكلية الأمريكية ببيروت وكلية الآداب بليون -
سقراط - المهرى - عمر الخيام - سعى الشيرازى - مائدة
أفلاطون - تاريخ فلاسفة الاسلام - ابن خلدون - سبنسر

وفى سنة ١٩٠٣ نزلت مرغما الى بلاد الشام وقصدت الى
بيروت حيث الكلية الأمريكية وكان على نظارتها « هوارد بليس »
ومن أساتذتها المرحوم جبر ضومط ، وفى برامجها كثير من الفلسفة
والعلوم والتاريخ ، فاقنيت ما سمعنى اقتناؤه من الكتب وصحبت
الأساتذة والطلاب وقرأت للمرة الأولى بعض كتب الفلسفة فى اللغة
الانجليزية ، وعرفت الفرق الكبير بين المدارس المصرية والمعاهد

الأجنبية ، وحصلت على مراجع مهمة واستطبت الدرس على شاطئ البحر حيث كانت الكلية الأمريكية على هضبة صخرية اسمها رأس بيروت ، واتخذت كراسات لتدوين العلوم وتنسيقها وتدوين أسئلة والأجوبة عليها التي كنت قد استنبطتها من دروس الأساتذة أو نصوص الكتب .

وكننت خالي الذهن من تسلسل البحوث الفلسفية والفكر الفلسفي على مدى العصور ولا أرى الا اسمين أو ثلاثة أسماء لامعة في تاريخ الفكر البشري وهي أسماء سقراط وأفلاطون وأرسطو ، وكان سقراط في نظري بمثابة نبي مرسل لم يرد اسمه في الكتب المنزلة ، وكانت حياته التي انتهت بالاستشهاد والسجن والقتل مثالا لحياة الأنبياء الذين اضطهدوا وعذبوا ، وقد أفلح في تكوين رجال أولهم أفلاطون وفي محاربة الباطل ونصرة العدل وتأسيس المثل الأعلى في حياة الرجل المتصوف والحكيم الزاهد الذي لا يمنعه تصوفه وزهده عن حمل عبء الحياة العامة ، فلا ينجو من الحسد والحقد عليه والانتقام منه بمحاكمة صورية قضاتها فساق المدنية وأشرارها ، وقد أبى طوال حياته أن يكون مؤلفا على سعة علمه وفسحة آفاق تفكيره والهامة ، فاكتفى بتخريج الرجال وتلقين الشباب أصح المبادئ ولا سيما تلميذه المقدم أفلاطون الالهي .

وكان سقراط ذا عقيدة حسنة ويعتقد بوجود الإله للكون وخضوع الكون لنظم ثابتة وقوانين لا تتزعزع ، وهو أول من لفت الانسان الى النظر في باطنه بقوله « اعرف نفسك بنفسك » .

وفي الصيف انتقلت الى ربوع لبنان وواصلت الدرس على ضفاف الأنهار ومنابع المياه وظلال الأشجار الباسقة ، ولقيت كثيرا من الرجال فوجدت من أهل لبنان عقولا ناضجة وأخلاقا قوية والسنة

مستقيمة وطباعا حسنة وصديرا على البحث والدرس وديلا الى الجد
واحتقار المزاح ، وقد جعل كل منهم مبدءا لنفسه وخلافة قريمة لا يجيد
عنها ، فاستفدت كثيرا من أخلاق هؤلاء الرجال ومراهمهم ، وقد رأيت
أن الزمن الذي قضيته في هذه الربوع على قصره كان أبرك من
سنوات طويلة قضيتها في مصر .

ولما عدت من بلاد الشام ، كنت مستعدا بطائفة من الكتب
التي حملتها من هذه البلاد ، فكانت لي مددا أو معونة ودليلا فيما تلى
من الزمن .

وفد عرفت الفرق بين التعليم في البلاد التي يقوم على شئونها
حاكم حسن النية وان يكن مستبد ، والأخرى التي يتظاهر حاكمها
بحب الحرية وفي قلبه ألد الخصام ، وعلمت لم وقفت الحكومة
المصرية في وجه التعليم باللغة العربية ولم عارض الأقوياء في تأسيس
الجامعة المصرية واكتفوا بتشجيع الكتائب بحجة مقاومة الأمية ،
وان سوريا التي كان يحكمها سلطان مطاق كئيد الحميد قد نال
إبناؤها نعمة التعليم الغربي على أيدي الأمر بكان والمستشرقين ،
بما كان دجلال دتلوب يتحكم في وزارة المعارف المصرية ويحارب
الديانة ويختصر سنوات التعليم الثانوي ويقاوم تعليم البنات ويرقى
السفالة من الموظفين الى أرقى المناصب في وزارته ويستعملهم معزبين
في أعمالهم عام بعضهم بعضا وعلى النظار والأساتذة وحتى التلاميذ
أن ينجوا من التجسس .

ولما كنت في بلاد الشام أن العزى لم يكن فيا مبرونا ولا مكيديا
وانما كان شذرا متروكا بالقبيلة وزاهدا في نفسه رقة صبيها بلون
الشمس لا بسبب عاهته ولكن بسبب مزاجه وفطرته المضادة للتناسل
والحياة ، ولكنني ماؤلت احترامه وأعجب بتفكيره وهو لا يزيد

في دواهبه عن أن يكون صانعا ماهرا وصائفا حاذقا للألفاظ ، ولا أنازع في صفته الصوفية واتساع أفق تفكيره وحذقه في وصف مكاره الحياة وتنفير ذوى العقول منها ، وما تزال صحبتي وإياه متمينة - حتى أني لأقرأ اللزوميات بجزءيها في ليلة واحدة ورسالة الغفران كذلك في جلسة واحدة ، وقد طربت عندما علمت أنهم شادوا له قبرا وألحقوا به مكتبة وجعلوا من ضريح شيوخ المعرة مزارا ومججحة .

وفي هذه الفترة تعرفت الى **عمر الخيام الشاعر الصوفي الفارسي** ، وللأسف قرأته بالانجليزية لا بالفارسية ، وكان أيضا يدعى فياسوفا ولكنه شاعر حكيم متشائم ينادى بالفناء والشبور وعظائم الأمور ويفتن بكل ما يدل على فراغ العالم من الملذات الدائمة وينعش على الملوك عروشهم وسلطانهم ، وعلى الأغنياء أموالهم ونسبهم ، وعلى الشباب أفراحهم مادام مآل هذه كلها الى التراب !

وقد ساهم المعري والخيام في تكوين تفكيرى الجبال للزهادة والنقصاء على التثاقول الذي كنت أحلم به ، فلهما الشكر لتنبهى الى مكاره الحساسة والنظر الى وجهها الحقيقى من وراء سبعة براقع للنفاق !

ولكن أين هذا من الفلسفة ؟ . لقد نجح شوبنهاور في سبك مذنب فاندشى متبن أساسه حكمة المعري والخيام ، إن في شخص الشرق ومذنبه الشرق أهمية للنظام الفلسفية ، ولكنهم عاجزون عن استنهاضها بحالها فترتفع الى شجرة الفلسفة ، وقد يتقنون العلم التجريبي والرياضيات العليا والفلك والهندسة والأدب الرفيع وبعض الفنون الجميلة كالموسيقى والبناء ، ولكنهم عاجزون عن وضع نظام فلسفى محكم كما صنع أرسطو وداكن وديكارت وسبينوزا وسبنسر ، وقد

أنتجت أمريكا - على ركافة تفكيرها وانشغالها بالمال - فيلسوفا واحدا وهو ويليم جيمس ، ولكن العرب عجزوا عن انتاج مثله في كل القرون التي تلت ظهور الاسلام .

نعم كان ابن خلدون عالما اجتماعيا وباحثا لا يجارى سبق أهل أوروبا في علم الاجتماع والتشريع وتاريخ الحضارات وتحليل نفسيات الشعوب ، ولكن ابن خلدون كان فذا وقد نجح في مقدمته وفشل في تاريخه .

وقد شئت الأقدار والمصادفات الحسنة أننى نقلت الى العربية « جولدستان » أو روضة الورد لسمعى الشيرازى وهو كتاب فى التصوف ، ودلنى جبنى لهذا الكتاب واختيارى اياه على ميلى الفطرى للتصوف واعجابى بفكرة التأمل فى الحياة والبحث فى الالهيات .

وكنيت اذا عثرت على فكرة كهذه أستقصيها وأتبعها الى نهايتها ، فأننى سمعت باسم القشيري من الشيخ طنطاوى جوهرى ، وباسم محيى الدين بن عربى منه أيضا ومن صديقى المرحوم محمد عبد الوهاب المحامى الذى لم أجد أحدا مثله يمعن النظر فى مؤلفات الشيخ الأكبر ولا سيما فصوص الحكمة وهو الذى دلنى على الفتوحات المكية قبل أن أسافر الى أوروبا ، وقبل هذه الهجرة الثانية كنت أظن جان جاك روسو فيلسوفا وفولتير فيلسوفا وفيكتر هيجو فيلسوفا وجوته فيلسوفا وشكسبير فيلسوفا وفرنسيس باكون فيلسوفا ولا أعرف شيئا عن ديكارت ومالبرانش وهيغل وسبينوزا وأوجست كومت وبرجسون ما عدا سبنسر الذى كان يشيد بذكره أحباب الانجليز فى مصر لانجليزيتته لا لفلسفته !

فلما بلغت لندن فى سنة ١٩٠٥ أو سنة ١٩٠٦ اشتريت كتب الفلاسفة وغيرهم ممن كنت أحسبهم فلاسفة ، وكان على أن أفرق بين الفريقين .

ولما أراد الله بى خيرا ونزعت نزعا من برائن مدرسة الحقوق
 الخديوية وقصصت الى فرنسا - على ما ذكرت آنفا فى هذه
 المذكرات - كان أول همى تعلم اللغة الفرنسية وشغل وقتى الخالى
 من طلب الحقوق فى كلية الآداب بليون ، وكان أول من لقيت فيها
 الأستاذ جوبلو أستاذ الفلسفة ، وقد صار الآن عمدة ومرجعا وعلماء
 ولا سيما بعد تأليف كتابه فى المنطق ، فتلقانى الرجل الفاضل
 بصدر رحب وتعهدينى وصاحبى المرحوم على فوزى الذى توفى فى
 مستقبل العمر فى سنة ١٩١٤ بعد اشتغاله عاما واحدا بالمحاماة ،
 وكان الأستاذ جوبلو يجلس فى صومعة تكاد تكون لضيقها محرابا ،
 ولما أعربت له عن رغبتى ، صرفنى عن أرسطو وأفلاطون وقال لى
 تقرأهما فى أوقات الفراغ ، أما الآن فهليك بكتاب « الطريقة »
 لديكارت ، فهذه بداية الفلسفة الحديثة ، ولم يبق لأرسطو من اتباع
 فى أوروبا .

فأخذت برأيه وحضرنا دروسه وقرأت عليه « الطريقة » كلها
 وحضرت دروس المنطق التى كان يلقيها على فئة قليلة من
 الطلاب .

كان جوبلو رجلا متواضعا كريم الأخلاق ، حلما ، محبا
 لتلاميذه ، وقد استمرت صلتى به ثلاث سنوات ، وكان فى تلك
 الأثناء يؤلف كتابه فى المنطق وقد نشره بعد الحرب العالمية الأولى .

ولا أنس فضل الأستاذ « سانتيلانا » فى الفلسفة اليونانية ،
 وإن الذى بقى فى ذهنى من دروسه قد أودعت معظمه فى « مائدة
 أفلاطون » التى نقلتها الى العربية قبل سفرى الى أوروبا فى سنة
 ١٩٠٧ ، وجعلته بمثابة مقدمة مطولة للمائدة .

وكان يحز في قلبي أن العرب يخرجون بلا انتساج من هذه
الأمركة الفكرية الموهلة ، فدأبت على وضع « تاريخ فلاسفة الاسلام » ،
وبين نشر مائدة أفلاطون سنة ١٩١٢ وتاريخ الفلاسفة سنة ١٩٢٧ ،
خمس عشرة سنة قرأت خلالها فلسفة الفرنسيين ديكارت ، وارجنتس-
كرمت والانجليز لوك وهيوم وبنثام وسبنسر والامان يجعل وسليج
وشليجل والامان الحداثيين شوبنهاور ونيتشة وكلاهما نثر بأفكار
جوته ، وقرأت الهولندي سبينوزا ودرست كتب روسو وفولتير
والجانب الفلسفي من هيجو (الله والشاعر وأساطير القرون) وهو
مفكر واسع الخيال كثير الكلام ولديه معين لا ينضب من الأفكار
والأوزان والقوافي ولا يسمى فيلسوفا ، ولكنه نثر وقصص بارع
ومحب للعدل في وطنه وفي سائر الأوطان .

ولم ألق عنتا أكثر من الذي لقيته في الفلسفة الانجليزية ،
فانها ثقيلة معقدة وجافة باردة ، ولكنها لا تغلو من الفائدة ،
فان سبنسر لم يجد نفسه قادرا على أن يقول ما يريد في أقل من
أربعين مجلدا ضخما اتبع فيها نظاما محكما ولكنه منهك مضم
لقارئه ، وقد اتبع الطريقة القديمة في جعل الفلسفة أقساما تحكمية
كعلم الاجتماع وعلم النفس والحيوان والنبات ونظم الحكم والخير
والشر والجمال والعقائد الدينية ، وله هوامش وماحققات يفني
الشباب ولا تفني ، ولكن كان لابد لي أن أقرأه لأنه الفيلسوف
الانجليزى الوحيد في القرن التاسع عشر ، فكيف نعرف نفسية
الحاكمين لنا المحتلين لوطننا دون أن نعرف آراء فيلسوفهم ؟

ويجب على أن أسجل بالشأن والفخر لهذا الرجل أنه كان
ناقما على نظام التمسك البريطانية وعلى الاستعمار والمظالم وعلى
الأنانية وحب الذات والاستئثار والمظالم الطبقات ، فابنا جلدته لم
يكونوا يمثلونه في وقت من الأوقات ، وكفى على ذلك دليلا انهم

نم يلمتفتوا اليه ولم يجروا عليه رزقا ولم يعينوه على طبع كتبه ولم يندقوا عليه عشر معشار ما أغدقوا على ممثل ماهر أو راقصة لسوب ! .

تصور أنه عاش ومات منبوذا من أهل وطنه الذين ما فتنوا يفتخرون به ويباهون به الأمم وهو يتصور ويتحرق . ولكنه مات ميتة الأسد الجريح ، لم يشك ولم يئن ولم يتالم !

والعجب الساجب أنه لم يكن له بين لانجليز سرياً واحداً . بل كان تلميذه ومريده شيئا مدجى كرشنا فارما وهو الوحيد الذى خطب على قبره ، وهو الوحيد الذى وهب من ماله مبلغا كبيرا لتأسيس كرسى لتدريس فلسفة سبنسر فى جامعة اكسفورد ، لأن حياة الرجل انقضت ولم تدخل مذاهبه فى كليات هذه الجامعة أو سواها !

ولم تنقض على هذه « الوقفية » الفلسفية خمس سنوات حتى نفت الحكومة الانجليزية ذلك الواقف الكريم شيامادجى كريشنا فارما بتهمة سياسية بعد أن هدمت « بيت الهند » Indian House الذى شاده وجعله مأجاً لفقراء الطلاب الهنود ، ثم حكمت الانجليز أنفسهم على فيلسوفهم بأن مبادئه أصبحت عتيقة بالية لا تصلح لهذا الزمن !

ومن العجيب أيضا أن هذا الرجل عاصر ملكين كبيرين بل امبراطورين فخمين هما الملكة فيكتوريا والملك ادوار السابع ، وكان هذان الملكان يستقبلان الكتاب الهزليين القادمين من أمريكا أبطال مارك توين وينظران تمثيل سسارة برنار وكوكلان ويدعواهم الى رلائم القصر ويبدلان المسال للمهرجين والرقاصين ويهبانهم القلاب الروسية (سير) ، فجعللا سير هنرى ارفنچ وسير يربوهم وسير

جورج الكسندر ، وحتى السيدات وهبن لقب « لادى » ومنحن
أوسمة الشرف ، وقد عاش سينسر ومات ولم نعلم انه دعى للقصر
أو قلد نيشانا أو أجرى عليه رزق كثير أو قليل .

وئو أننا نقارن بين ملوك هذا الزمان في الشرق والغرب ، وبين
ما كان يفعله خلفاء المسلمين في بغداد والقاهرة ودمشق ، لا يسمنا
الا انشاء على المسجدة الخلفاء والأمراء من الأمويين والعباسيين
والفاطميين والأندلسيين الذين فتشوا قصورهم للكتاب والحكمة
والأدباء والشعراء وأغدقوا عليهم الأموال تكريما للعلم وتشجيعا
للحكمة ، حتى الملك النجشون منهم وهو الحاكم بأمر الله الفاطمى
أسس في القاهرة دار الحكمة وجعلها موثلا للعلماء وأجرى عليهم
الأرزاق وضمن لهم الكتب والورق والأقلام والمحابر ، وأكرم ابن
الهيثم الذى استدعاه من بغداد لينظر له فى مشروع خزان أسوان ،
فلما فشل ابن الهيثم لم يقطعه ولم يعرض عنه بل زاد فى إكرامه ،
وكان ابن رشد والفارابى وابن سينا جلساء الملوك ووزراءهم
وأصدقاءهم وموضع احترامهم وتمجيدهم .

أما ملوك هذا الزمان ، فهمم البحث عن فائنة أو قينة حسنة
تتقن الثوب والقفز وتحسن الغناء ، أو مهرج يضحكهم فيقلدونه
الأوسمة ، وان صورة العصر الحديث تكون ناقصة ان لم يكونوا
هكذا !!

(٧)

حب الحكمة

ما الفلسفة ؟ وما غرضها ؟

فى أثناء هذه السنوات الخمس عشرة (من سنة ١٩١٢ الى سنة ١٩٢٧) جمعت مكتبة حسنة فى الفلسفة ، وكان من أحب المؤلفين الى شوبنهاور ونيتشه ، وقد أدهشنى الأول بشدة ذكائه ودقة فهمه واختراق فطنته لمعضلات المسائل ، وأزعجنى الثانى بجراته حتى انك لتظن حيناً أنه مختل التوازن ، وان يكن قضى نحبه بعد فقد عقله حيناً ، الا أن جميع مؤلفاته تمت وهو سليم الادراك ولم يلحقه الداء الا بعد كتابه *Ecco Homo* .

وقد امتاز هذان الفيلسوفان باحتقار شعبهما وازدراؤه والسخرية من فلاسفة الاشكال والألفاظ أمثال هيجل وشليجل .

وهكذا يكون كل فيلسوف سابقاً لزمته .

ولكن فى ظنى من سببئسر أنه كان محافظاً وملازماً صيغ الأدب فى أمة لا تعرف غير الشلن والجنيه والبنس ! ، فكان الرجل الطيب كلما رأى أمورا لا توافقه بل تثير ضميره يلجأ الى طريقة الخطاب المفتوح فى جريدة التيمس وهى متبهر حر ، وقد اعتقد أن المجتمع كائن حى يشبه الانسان ، ولكنه خار فى تعريف الحياة بعد أن عقد لها فصلين من مؤلفه فى « مبادئ البيولوجيا » استعرض فيها كل ما تقدم به العلماء فى التعريف ، واقترح تعريفاً جديداً ، ولكنه اضطر فى نهاية الأمر أن يعترف بأنه لم يجد تعريفاً يشمل كل

ما هو معلوم فى مظاهر الأجسام الحية ويخرج ما هو معلوم من مظاهر الأجسام غير الحية ، وعكف أيضا على الوراثة وجعل لها قيمتها العلمية لأنه أراد أن يحارى داروين فى مذهب النشوء والارتقاء وجعله شاملا لحياة الجماعة كما هو ثابت فى الطبيعة .

واننى أتساءل ما بال سبنسر بالبيولوجيا فى القرن العشرين ولها أساتذة متخصصون يدرسونها فى كليات الطب ؟

فى نظرى أن هذا لا دخل له فى الفلسفة ، الفلسفة فى نظرى علم النفس وما وراء الطبيعة أى دراسة الانسان ودراسة الالهيات ، أما علم النفس العملى أو التجريبي فلا أعيره اهتماما ، وخير من كتب فى هذا العصر الحديث برجسون الفرنسى ولا سيما فى آخر كتبه « النبعان للدين والفضيلة » *Les Deux Sources* .

فترض الفلسفة فى نظرى الضعيف هو البحث فى أصل الانسان وفى نهايته ، أى موره ومصدره . أما حياته فى هذا العالم ، فهى من اختصاص الأطباء ورجال القانون والمهندسين وعلماء التعليم والاقتصاد ورجال الدين وليست من اختصاص الفلاسفة .

كان فرنسيس باكون الانجليزى رجلا عمليا ، ألف كتابا سماه « تقدم العلم » بحث فيه عن الأساليب التى تتقدم بها المعارف وعن كيفية جعلها مفيدة لنوع الانسان وارتقاء العمران حتى يهتم بهذا الناس كما يهتم رجال العلم أنفسهم ، ولذا نرى الذين يدرسون الفلسفة الانجليزية يتجهون الى فلسفة « أبيقور » كما فعل جيو Guyau ، وترى بين أبيقور وبنيتام آصرة قرابة عقلية ونسب ذهنى ، ولكن الفلسفة الصحيحة بعيدة عن فكرة المنفعة ، والمنفعة بعيدة عن الله وعن الخير والشر ، وهذه أخص مسائل الفلسفة .

ان حب الحكمة نعمة يمنحها الله ، وهو حيرة طويلة اليمة ، ولكنها ممزوجة باللذة ، وفيها تفتح الذهن ونمو المواهب ورغبة الوصول الى الحقيقة ، وعلى محب الحكمة ان يكون منتبها دائما مستعدا لسماع صوت الطبيعة ولو كان ركزا ، ورؤية اشارتها ولو خفيت عن الأبصار ، وأن يكون شجاعا صبورا .

واتباع الحكمة يخفف أعباء الحياة ويحبب الحكيم فى الانسانية ويصحح موقفه .

ولكن لم تجمع الآراء على نظام معين يتبع فى الفلسفة حتى يكاد يكون لكل فيلسوف مدرسة وأتباع الاتباع يتفرعون عن الأصل كأغصان الشجرة الواحدة ، ومن الصعب على الناظر أن يجمع بين شتات الفلسفة الهندية وبين فلسفة أوجست كومت ، أو بين آراء نيتشر وخطته وبين شوبنهاور ، ولكن كلا منهم يعد فيلسوفا كالسائر فى أحد شوارع مدينة كبيرة يقصد الى معبدها أو ديوان حكمها الذى بثوه على القمة وجعلوا جميع الطرق موصلة اليه ، ولا أدري كيف يعيش الانسان بغير التنير الطويل - ولو كان مضنيا - فى شوارع تلك المدينة ، ولكن أعلم أن من كل عشرة آلاف رجل لا يخطر بنفسه سوى رجل واحد فى تلك السبيل الوجرة الملتوية التى تتسع حيناً وتضيق أحيانا ويسودها الظلام الحالك كأنها نفق حالك السواد لولا أشعة من الأمل ونور الله تشجع الباحث وتدفعه الى الأمام .



(٨)

الفيلسوف

التعلق بتراجم الرجال - حب الخير والخق والعدل والجمال وحب
الانسانية - علم انطواء الفيلسوف - موهبة حب الحكمة - المال
والشهرة والشهوات - قوة العقل والارادة عند الفيلسوف - اعتزاز
الفيلسوف بشخصيته

درجت منذ نشأتى شديد التعلق بمعرفة الرجال ، ولا يكفينى
قراءة كتبهم ، فاذا وقفت على طرف من ترجمة بطل أو كاتب أو
شاعر ، أصبحت مشغولاً بتقصي أخباره وتطبيق حياته على أعماله ،
ومحاولة التعرف على شخصه من عمله وعلى عمله من حياته لاعتقادي
أن لكل انسان - وربما أرباب المواهب - شخصيتين أو ثلاث
شخصيات ، وما أزال أتذكر أن الجانب الشخصى من حياة أرسطو
طاليس وحياة أستاذه أفلاطون يستهوينى ، وكنت أشعر بغيظ عندما
لا أجد من تفصيل تراجم علماء الشرق وأدبائه ومفكره ما أجد عن
أهل الغرب من قديم الزمان .

وكنت طوال حياتى مشغولاً بالفلسفة والفلسفة ، شديد
المواظبة على القراءة ، عظيم المسرة كلما اشتغلت بها ، فلا أجد
معاناة ولا تعباً ، ولا أشعر بانقضاء الزمن مهما طال مادمت مكبا على
كتاب من كتبها . وكلما وردت مكتبة عامة أو خاصة ، كان أول
همى أن أبحث عن الكتب التى تبحث فيها ، ثم التهم التهاما كل
ما له علاقة بموضوعاتها ، حتى أن قلبى ليسرع فى دقه كلما لمحت
بين الأسطر كلمة فيلسوف أو فلسفة !! . لم تكن حماسة بل كان
تهيجا ملحوظا فى نفسى وانفعالا يحدث لى كلما لمحت هذه الكلمة ،
ثم لا أجد صعوبة فى الفهم لشدة الشوق ، ولكنى أجد طربا ونشوة
كلما صادفت فكرة توافق تفكيرى أو سبق أن عرضت لى بغير قراءة .

ولم يخطر ببال قط أن أكون فيلسوفا ، ولكن قلت إن كنت معاصرا لواجد من هؤلاء ، لكنت أطوع تلاميذه وأشدهم تعلقا به .
ولم أشعر قط بحاجة إلى الجفّظ أو التدوين ، لأننى أشعر بقوة الذاكرة والقدرة على الاحتفاظ بكل ما أطلعته فى هذه الكتب والرغبة السريعة فى الإدراك والفهم .

ويجذبني الى هؤلاء الرجال حبهم الخير والحق والعدل والانسانية ، لأن حب الحكمة - وهو خصلتهم الأولى - تدعوهم الى ذلك ، ويعزىنى - ان لم أكن فيلسوفا - فقد أشاركهم فى حب الحق والعدل والانسانية والخير وأبغض أصدادها وأمقت كل من يحب الباطل والظلم ويدافع عنهما وينتصر لهما .

وخلة أخرى وهى حب الجمال ، فقد كان ديدنى حتى أصبحت أتشبع أشهر التصاوير والتماثيل فى متاحف أوربا وأرى الجمال جزءا مكبلا للعقل ، وما شهدت أجمل من شواطئ اليونان ووادي الأرنو ومدينة فلورنسا وضواحيها ، ولا أتخيل فيلسوفا ينشأ فى وسط دميم أو يقيم فى مكان واحد بصبر طويل غير سقراط .

وأدركت أن حب الجمال والخير وانطباع النفس عليهما جزء من الفلسفة ، وإن يكن الجاهل عميا عن العلاقة بين الجمال الظاهر وسمو العقل ، وكذلك لا يسع الفيلسوف إلا أن يكون محبا للجمال وشديد التأثير به كما أنه شديد التأثير بالانسجام ، ولذا يجب للموسيقى والغناء والرقص الفنى والتمثيل وسائر الفنون الجميلة ويجعلها مع حب الجمال والخير جزءا من نظامه الفلسفى ، وقد أذن اخوان الصفا للحكيم أن يستمتع هؤلاء جميعا لأنها تابعة لنظام حركة الكواكب والأجرام السماوية التى لها فى حركتها ودورتها أصوات مطربة يسمعها الموهوبون والذين لا تحجب جواسهم موانع من المادة ا

والفيلسوف وان لم يكن شاعرا ، فان فيه مواهب المشعراء ودقة احساسهم وتلبية أنفسهم لنداء الجمال في جميع صوره وأشكاله وأوضاعه ، حتى انهم ليروا الجمال في الجمار والمبطن والنبات والحيوان كما يرونه في الانسان ، وفهمت أن الفلاسفة ان لم يكونوا مطبوعين على تلك الصفات ، لا يستطيعون أن يدركوا جمال الكون والخليقة وجمال الحق وجمال العدل وجمال المعاني وجمال الترتيب الرباني وسائر أنواع الجمال المعنوي . فمن لم يكن محبا للجمال ومجذوبا اليه لا يكون فيلسوفا ، لأن الحكمة جميلة فلا يحبها الا اذا رأى جمالها . وقد يهفو الفيلسوف ويخدع ويغر بنوع من الجمال ، ولكن الأعذار له ملتزمة وحسن التعليل منه مقبول .

ولا ينبغي أن يكون الفيلسوف منطويا على نفسه ، مبالغا في الوقار والوحدة مثل ايمانويل كانط أو سبينوزا ، ولا عابسا مقطبا حزينا مثل نيتشه ، ولا ضيق العطن حرج الصار مثل كارليل والمغري ، ولكن كان مزجا طروبا - كما كان ديكارت وسقراط وأفلاطون - فهو خير .

ولا يكون الفيلسوف ضيقا محدودا الا اذا كان مريضا ، فالمرض يغل توازن الأمزجة ، وان يكن لا يحزم العقل من مواهبه ، فان الفيلسوف مخلوق من شيئين مختلفين في الظاهر ، عقله المركب تركيبا خاصا كمية ونوعا ، ومزاجه الفطري ، فان ساد التوفيق بينهما كان الفيلسوف عظيما حقا كما اتفق لأبيقور وبرجسون وهيجل ، والا فنصيب العالم من الفيلسوف بقدر قوة عقله واعتدال مزاجه وقوة بنيته التي تسمح له بالعمل الطويل المضني ، فانه لابد له من الصبر الطويل والجهود المتواصلة حتى يفهم مسألة ، ويلزمه أن يتلقى الإلهام قائما أو قاعدا أو راقدًا على جنبه ، فان كثيرا من الفكر الفلسفي يأتي على صورة الخواطر التي تشرق عليه

كأشعة نادرة أو شرر متوالى الاشتعال ينقذ متتابعاً لعين عقله وحتى يكاد يشعر به ، فهو أبداً متيقظ كالصائد المترقب ، وبدلاً من أن يكون الصيد غنيمة ، فإن فكرة الفيلسوف التي تشرق عليه نعمة يتلقاها وكلاهما رزق .

ويخطئ في نظرى كل من يحسب الفلسفة وحب الحكمة تسلية أو لهواً أو هواية ، لأن الفلسفة وحب الحكمة ليست تسلية ولا لهواً ولا هواية ، وإنما هي موهبة واستعداد وصناعة شاقة ومهنة قاسية وحرفة غيور على محترفها تقتضيه الوقت والجهد والتضحية ، فالفيلسوف يجب عليه أن يحافظ على ذاته من الانخداع بالمال والجري وراء الشهرة والاندفاع فى الشهوات ، فهذه الأشياء الثلاثة التي هي نعم الحياة ومآرب الحياة وغاية الرجال والنساء فى الوجود ، هي آفات الحكمة وعدواتها للدورات وأضدادها ونقائضها ، ومن ينشغل بها أو بواحد منها فلا أمل له فى الفلسفة ولا نصيب له منها مهما كان اجتهاده ، ولو جاهد الفيلسوف على هذه المرغبات الثلاث ، فلا يعد نفسه ناجياً من المعركة ، فإن أمامه ووراء أعداء آخرين كحقارة الأوساط الاجتماعية ومعاكسة الأقدار وحسد الأصدقاء ونكد العيش الناشئ من حياة الأسرة وحاجات البدن الضرورية ومطالب الحياة التي يحتاج إليها المتعلقون بعنق الحكيم واللائنون به. واللاصقون بأهدابه من أهل وأقارب وولد .

ولأجل هذا كان الزهد والخمول – أى الفرار من الشهرة أى خمول الذكر لا خمول العقل – والقناعة والعزوبة وقطع العلائق العادية من أهم الأسباب فى نجاح الفيلسوف ، وإن يكن ما تقدم ذكره – ما عدا المال والشهرة والشهوات – لا ينفي الفلسفة ولا يحزم الرجل من ممارستها حرماناً باتاً وإن كان يصعب الطريق ويزرعه بالأشواك إلا أنه يستطيع أن يكون فيلسوفاً ، فقد كان أشهرهم متزوجين وأرباب أسر وعيلات حتى سقراط وفيثاغورس ولقمان كانوا آباء وأزواجاً .

فى نظرى أين الفيلسوف رجل شاذ فى أظهر أموره ، فهو يخالف
 عامة الرجال فى طباعه وميوله ورغائبه ، بل فى تقسيم قواه العاقلة
 والمبركة وتغلب بعضها على بعض ، فان قوة العقل عند الفيلسوف
 تكون عادة أكبر من قوة الارادة ، وقوة الارادة هى المظهر الأكبر
 للحياة العملية ، ولذا نرى الفيلسوف قليل الحرص فى كل شىء
 ما عدا عقله وتفكيره ، ان الارادة كلما قويت فى الرجل جعلت نظره
 الى الحياة ماديا ، والعقل كلما قوى فى الرجل جعل نظره الى الحياة
 معنويا ، ولذلك كنت أنظر دائما للرجل ، فان كان ميله الى نفسه
 ونظيره الى شئخصه واشغاله بطاعة هواه ، كان فى نظرى غير صالح
 للفلسفة ، أما اذا كان نظره مندفعاً الى الأمور الخارجة عنه كالكون
 والطبيعة والفلك والأشياء المغايرة لشخصه والمخلوقات المختلفة
 عنه ، كان أقرب الى الفلسفة ، وقد تقوت هذه العقيدة عندى بالاختبار
 والتجربة ، فالإنانية فى الحركات والسكنات تمنع الاتصال بالحكمة .

بيد أن الفيلسوف اذا اتبع الخطة التى ذكرتها ، لا يكون
 متبعاً برغبته ولكنه يتبعها رغماً لأنه هكذا خلق ، وهى خطة لا يمكن
 تقليدها ولا يمكن املأها على النفس ، فالفيلسوف ليس مقلداً
 ولا مطيعاً لمعلم إنما ملبياً نداء فطرته .

وقد رأيت أن بعضهم يزعم أن الفلاسفة جماعة من المرضى
 والمحبين للراحة والخروج من ميدان الحياة والفرار من المعركة
 وأنهم شادوا لانفسهم حصونا من الوحدة والعزلة باسم الحكمة ،
 وما هى الا مظهر من مظاهر حب النفس والجبن عن خوض غمار
 الحياة .

والحقيقة أن الفيلسوف ليس معتزلاً ولا متوحداً ولا متباعداً
 عن غمار الحياة ، إنما هو معتز بشخصيته ، بعيد عن مواطن

الشبهات ، يتقى السقوط فى الهاوي والمخزيات ، ولكنه يعيش مع الناس ويغامر معهم ويخالطهم ويمتزج بهم كما كان يفعل سقراط وپروسو وأفلاطون ، فان لكل من هؤلاء تلاميذ وأهلا وأصدقاء وأشبعا وأتباعا ، ولا يمكن أن يكون الرجل فيلسوفا ان لم يذق آلام الحياة ، أى يشترك والجماعة فى معاناة شرور الدنيا والشعور بها شعورا تاما ، وهذا لا يتأتى بدون اختلاط .

أما الذين يزعمون أنهم يعيشون فى برج من العاج أو حصن من الذهب أو خيمة من الخز والديباج ، فهؤلاء مرضى ومخثون ومتكبرون وأدعياء ولا يعدون فلاسفة بحال من الأحوال ، ولقد أدركت هذا الأمر على مشقته بالخبرة وان تكن قليلة ، ولكن التجارب بنوعها لا بتعدددها وبلونها لا بكميتها ، خصوصا فى عالم معرض لتكرار الحوادث وتشابهها .

لم يسمح العصر الماضى بتحجب الفيلسوف ، فانه كان مقصودا فى كل مكان ومتبعا ومطلوبا لأهل العلم الذين ينشدون الحقيقة ، وكان للفلاسفة مدارسهم وطلابهم ، وكان الملوك يدعونهم الى بلادهم لينتفعوا بهم كما كانت حالة صولون اليونانى ، والعصر الحديث أشد حرصا على الاختلاط بالفيلسوف ، فهو اما أستاذ فى جامعة ، او مؤلف مشهور او محاضر معترف به فى عواصم الدنيا أو بحانة تتزاحم مطالب المطابع على بابيه ، وحتى هربرت سبنسر على شدة رغبته فى التحجب والهجرة والوحدة والفرار من المتطفلين وأهل الفضول لا أهل الفضل ، كان يكتب الى الصحف والمجلات ، وكان لا يغلق باب بيته فى وجه قاصديه ، حتى عرفه الأفغانى ومحمد عبده وويلفريد بلنت وعشرات من أهل الشرق والغرب ، وكان أحب تلاميذه اليه طالب هندى هو شيامدجى كريشنافارما .



(٩)

محاولة البحث عن فيلسوف يمثل الفلاسفة ومذهب يمثل مذاهبهم

كان كل همى كلما رقت على فلسفة رجل من هؤلاء المشاهير أن أتتبع تاريخ حياته وأقابل بينه وبين غيره في المواهب والميول لاستنبط شخصا يمثل الجنس كله ، كما نقول أن لقمان يمثل الحكماء أو قارون وروكفلر يمثلان الأغنياء أو هنرى بوانكاريه يمثل علماء الرياضيات وجوته يمثل الشعراء وبركليش يمثل الخطباء ، أخذت أبحث عن رجل يمثل هذه الطائفة وأبحث عن مذهب يمثل مذاهبهم .

وانك لتجد رجالا يسألونك عن دين الفيلسوف ، أمؤمن هو أم ملحد أم مرتاب ؟ أم متظاهر بالايان أو بالالحد ؟

وهذه كلها أسئلة آفنة باطلة ، فالفيلسوف فى نظرى لا يكون مؤمنا ولا ملحدا الا فى آخر حياته ، انما هو طوال حياته قد اتخذ موقف الفحص والنظر ، مستعدا ليحبذ أو ينتقد ، فقد يمدح وقد يذم وقد يناقش ، وقد تخلص نفسه من العقيدة ، وقد يكون فؤاده فارغا كفؤاد أم موسى ، حتى اذا قطع الشوط الملائم فى الحياة ، استقر قراره فى هذه المسألة كما يستقر فى سواها ، كالقطع بأن الانسان ميال للخير أو للشر أو كضيعة الأمل فى مستقبل الانسانية أو كالتسوية بين المذاهب الفلسفية بغير تفضيل ، هذه أمور يصل الفيلسوف فى أخريات أيامه الى حلها والوقوف على حقيقتها .

وجملة اقولى فى هذا الفصل الذى أنشأته ليكون تاريخا لنمو عقلى ، اننى حاولت أن أصل الى المعرفة الكاملة للفلسفة ، لا عن طريق الكتب والمذاهب وحدها ، بل عن طريق الرجال

أنفسهم ، كما تبعت هذه الخطوة في معرفة رجال الصوفية عندما تعلقت بها واتخذت منها أصدقاء كالحلاج وأبي سفيان الثوري والسهروودي والطوسي والقشيري والدباغ وآل عبد السلام (محمد ومحمود وسيد عبد السلام) (١) .

لقد اتخذت الاستدلال على صحة المبادئ من تراجم أصحابها .
كان كل جهدي على مدى خمس عشرة سنة من ١٩١٢ الى سنة ١٩٢٧ منصبا على استخلاص فلسفة عامة وانتهاج منهج ينطبق على الحقيقة ، وتنقية الفلسفة من التناقض الذي يبدو جليا في المذاهب المتتالية ، وهو - وان بدا جليا - الا أنه تناقض ظاهر وحسب ، لأن الفلسفة في كل عصر تتأثر بالزمن والعلم والاجتماع والسياسة والأخلاق ، فيكذب بعضها بعضا وينقضه ، والحقيقة أنها حلقات شديدة الاتصال متينة الأسر في سلسلة واحدة .

ولذا لزم الغيلاسوف أن يلم بكل شيء مما كتبه وقاله أسلافه وكل ما دونه وحرروه وأودعوه كتبهم ودروسهم وصنوبر تلاميذهم ، فقد يجد حلقة مفقودة في كلمة دراسة ، أو فكرة لازمة في كراسة مغمورة .

ولكن الأستاذ جوبلو قال لي عليك بديكارت ودع عنك أرسطو وأفلاطون لأن ديكارت أبو الفلسفة الحديثة غير منازع وقيمته أكبر من يكون الانجليزى ، لأن يكون عملي وديكارت نظري ، والفلسفة نظرية لا عملية وهي علم العلوم ، ويكون فيه بقية ميل للتجار

(١) للوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعة بال عبد السلام وخاصة الشيخ محمد عبد السلام وأخيه الشيخ سيد ، راجع كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الاعلام » ، المرجع السابق ، ص ٣٨١ - ٣٩٠ .

بالعقل وصيغ الفلسفة بصيغة التقدم والفائدة ، ولكن ديكرت
ذو فلسفة خالصة من شوائب المادة والمنفعة العاجلة .

ولأن ديكرت فرنسى وهو مواطن جوبلو ومن أسلافه فقد
نصحنى بديكرت ، ولو كنت فى انجلترا لنصحنى الأستاذ بدراسة
سبنسر ولوك وستوارت ميل، واذن فستكون خسارتى العقلية ضخمة،
لأن هؤلاء فلاسفة أسفار وأرقام واحصاء ومشاهدات ، سائحون فى
البلاد النائية ومعظمهم يميل الى درس القبائل البائدة والشعوب
الغانية .

وأنا أقر لهؤلاء السادة بالفضل وأدرس كتبهم عند ارادة
الاستقراء العلمى أو التعمق فى سوسيولوجيا أو اتنولوجيا أو تاريخ
الزواج عند الأجناس لأستنبط منها عن طريق القياس ما يستنبط ،
أما الفلسفة فلا .

ولا احب أن يظن أحد أننى انتقص الشعب الانجليزى أو أنال
من فلاسفته وادبائه وعلمائه ، فقد أدوا فى جملتهم لخدمة جليلة
للانسانية بغض الطرف عن مواضع النقد فى اخلاقهم السياسية ،
فقد رأيت أفرادا كثيرين من أعلى قمتهم الاجتماعية يتجرون الحق
وينفقون أعمارهم فى مناصرة المظلومين والأخذ بيد الضعفاء ،
ولو كان ذلك على حساب أنفسهم ، وقد ضحى بعضهم بماله وحياته
فى مقاومة عناصر الشر والفساد التى استشرت وتفاقت فى القرن
التاسع عشر .



(١٠)

«حقيقة الفلسفة»

طالما سألت نفسى عن حقيقة الفلسفة ما هى ؟

لقد اختلف الفلاسفة أنفسهم فى تعريفها . ان حبا الحكمة تعبير واسع جدا ، وقد كان أفلاطون يراها ادراك الأفكار ، أى معرفة حقيقة الأشياء أو معرفة كنه الأشياء وجوهرها وماهيتها معرفة تامة ، ولذا ابتكر نظرية المثل الأفلاطونية ، وقد جمع فيها بين السماء والأرض والروح والمادة والمعانى العلوية وأسس مدرسته لغرس مبادئه فى أذهان تلاميذه ولا سيما أشهرهم وأقدرهم أرسطو .

وقد بقيت لنا كتبه التى أهملها المسلمون واكتشفها اليونان عند سقوط القسطنطينية فى نصف القرن الخامس عشر ، فجاءت كاملة وقد اعتمد فيها على طريقة الحوار وهى أفضل الطرق لإبراز الأفكار وتوضيحها ، ولولا مؤلفات أفلاطون ما عرفنا شيئا عن سقراط ولا قرأنا دفاعه المجيد عن الحق وعن نفسه أمام قضاته .

وأهم كتب أفلاطون فى نظرى كتاب الجمهورية وحوار الخلود ، خلود الروح .

وقد شد عنه تلميذه أرسطو وجعل الفلسفة المعرفة الشاملة لكل الكائنات ، ولم يتعرض لعالم السر والغيب الا قليلا ، وان يكن قال ما يشعر باعتراده بخلود النفس واستقلالها ، ولكنه لم يتوسع كما توسع أستاذه ، ويعد ديكارت الابن البكر لأرسطو وأضاف اليه نظرية العلل .

وفى الحق كان اليونان أعظم من اشتغل بالحكمة وخدمها ،
وأول من نظر فى الكون نظرة شاملة ، وجعلوا لكل فكرة مذهبا
ومدرسة وبذلوا جهودا جسارة فى توضيح أغراضها ، فتارة يرون
سعادة الانسان غاية الغايات ، وطورا يرون تحليه بالفضائل
وتخلصه من الرذائل ، وهذه هى الناحية التى مال اليها فلاسفة
العرب ونسجوا على منوالها ليكونوا أقرب الى آداب الشريعة
الاسلامية ، ولكنهم لم يلموا بالفلسفة اليونانية لجهلهم باللغة
وتخالفه الاسلام للعقائد الوثنية القديمة ، ولذا كانوا يكرهون
اليونان ويحذرون التورط فى حكمتهم ، وان يكونوا قد اقتبسوا
منهم الرياضيات والفلك والطبيعة والكيمياء ونظرية أصل الأشياء ،
ولو لم توجد شروح ابن رشد لأرسطو قبل اكتشاف مؤلفاته فى
سنة ١٤٥٣ ما عرفتها أوربا الحديثة وما أملت بها ، فكانت اللغة
العربية فى القرون السابقة على عصر النهضة لغة العلم والفلسفة
والأدب والطب فى أنحاء العالم حتى ان أول كتاب طبعته مطابع
الإنجليز كان كتابا عربيا أولف مصرى فى محاسن الأخلاق .

ولكن العقول الغربية قد استقبلت الفلسفة استقبالا حسنا ،
ولم تكن لديهم شريعة تناقضها وتعطلهم .

غير أننى رأيت أن العرب أخطأوا اذ ظنوا أن بين الشريعة
والحكمة تناقضا ، ولم تدب هذه الفكرة فى أذهانهم الا فى عصور
الظلام والانحطاط ، والا فهن يزعم أن القرآن والسنة يحرمان النظر
فى الحكمة وهما يدعوان الى ذلك دعوة حارة ؟

وان لم يكن هنا مجال الدفاع عن سعة صدر الاسلام
للفلسفة ، ولكننى أروى من ذاكرتى طريقة تكوين عقلى ورغبته فى
اشباع شوقى وتطلعى .

أليس غرض الفلسفة الأول الوصول الى لم شمل النتائج النهائية لفروع المعرفة ، ونفى التناقض والتخالف بينهما ، وإثبات وحدة الوجود في المعلومات العقلية والأفكار كما هو الشأن في الماديات والأحياء حتى تستنبط القوانين الثابتة والقواعد الأساسية التي هي سنة الله التي لا تبدل ولا تتغير ؟

وهكذا تصير الفلسفة الكوة التي تطل منها النفس على عالم الروح ، والا فَمَا علة اختلاف الفلاسفة فيما بينهم ؟

ان الحال في العلم غير ذلك بالمرة ، فان كل عالم يسعى لتأييد رأى سابقه ولا يؤخذ برأى الا اذا سبق تمحيصه ، وحتى اذا استجد رأى فلا يحصل التحول اليه والعدول عن سابقه الا بعد التثبت والبحث الطويل ، ألم يحدث ذلك في علم أصل الانسان حتى ظفر داروين بنظرية النشوء والارتقاء ؟ وحدث ذلك أيضا في نظرية النسبية التي قال بها أينشتاين ؟

ولكن الفلاسفة يشبهون ويستقلون عن بعضهم بعضا حتى ولو كان الثاني تلميذ الأول ، فان تعاليم سقراط يثبتها أفلاطون ولكنه يحصرها ويؤيدها ويضيف إليها آراءه الخاصة ، فقد جعل الأول همه في محاربة السفسطائيين ، ولكن أفلاطون يشيد في جمهوريته بناء جديدا للمجتمع .

ولا بد لكل بيئة أن تخرج الفلسفة التي تلائم طبيعتها ، ولأجل هذا لم يخرج المصريون فلسفة لانغماسهم في المادية ؛ أقصد في "العصر الحديث" ، فان الشغوب المحبة لذاتها ليس فيها من الجهد ما يعين على انتاج فلسفة ، وكذلك الايرلنديون وأهل أمريكا الحديثة ، أما الألمان فقد أنتجوا فلسفة عظيمة في العصر الحديث أمثال فيخته

ووننت ووندلباند وريهل وليبس وهيجل وشليجل
وشوبنهاور ونيتشه .

لقد شغلني هذا التفاوت بين الفلاسفة مشغولية عميقة ، وعز
على أن يقصر كل فيلسوف جهوده على دائرة بحوثه ولا يعمل على
تمحيص ما سبقه ، ولكنني لم أنس أن التطور والتحول في حياة
العالم قد تحكما في حياة الفكر ، فليس لديكارت أن ينظر فيما نظر
فيه أرسطو الا فيما يتعلق بالمعلومات النهائية ، أما الطريقة والحكم
على الأشياء فقد تطورا بتطور الزمن ، ولذا ملت في فترة من الفترات
الى القول بأن هذا التناقض قد لا يكون الا ظاهرا لا حقيقيا ، فان
نيتشه لم يغفل النظر في الدين والأدب والاجتماع وأصل الكون
والمخلوقات والفنون الجميلة وعلاقة الرجل بالمرأة والحاكم بالمحكوم
والغنى بالفقر ، ولكنه جعل هذا كله في أسلوب غير الأساليب
السابقة ينطبق على نفسيته وروح زمنه وتطور الأفكار والحياة
في زمنه .

وفي الواقع لا يملك نيتشه او غيره أن يغفل الدين والعلم
والفنون ، ولا يملك سواه أن يرى هذا التقسيم في معرفة البشر
وكل ما يستجد عليها كعلوم الاجتماع والسياسة والاقتصاد وعلم
النفس ، وهذه لم تكن سوى افئنان للفصون التي تنمو وتتفرع من
شجرة العقل .

لقد أدهشني الا يكون للهنود فلسفة ولا للصين فلسفة
ولا لليابان فلسفة . . . قد تكون الغصوبة الأرضية وغازة الخضرة
وتواثر الأغذية وتكاثر الأنهار وقلة الحاجة الى الحركة والتزاحم في
ميدان الحياة من أسباب الحرمان ، وقد يكون فقد الحرية والاستقلال
وتحكم الأجنبي سببا في خمود النفوس وجمود المواهب وجفاف
العقول والأرواح .

ولكن الهند هذه كان لديها كتاب « الاوبانيشاد » وهي فلسفة دينية ، وكان عند الفرس كتاب « الأفستا » ، وكان عند الصين فلسفة كونفوشيوس ، ثم جفت الأقلام وتعطلت القرائح ، كما جفت الأقلام في مصر القديمة بعد كتاب الموتى وحكم بتاح حوتب ، وهذه كلها كتب دينية ولكنها كانت هي الفلسفة العصرية بالنسبة لهم كما كانت تعاليم فيثاغورس في عصره وكما كان تشريع حمورابي في عصره وكما كانت كتب التوراة بعد موسى على السنة الأنبياء ولا سيما أيوب وداوود وسليمان ، وقد تتخذ الفلسفة صوراً مختلفة كما شعرت وأدركت بفطرتي ، فسفر أيوب لون من فلسفة الحياة والأخلاق والدين وعلم النفس ، وكانت أناشيد داوود (المزامير) وتفجعه فلسفة عملية للندم والتوبة وقد كان أشجع أهل زمانه وأكثرهم مجازفة وأحبهم الى ربه فأطلقه بالحكمة وقربه وأنعم عليه ، وكان سليمان ابنه ملكاً وحكيماً وعادلاً .

وكان عهد الفلسفة الدينية في الهند قريباً من نبوغ اليونان ، وقد تأثر أفلاطون بحياة الشرق ولا سيما بزيارته للكهنة في وادي النيل ، كما سبقه اليه فيثاغورس فكتب حواراً في « فايدو » و « فايدروس » و « تيمائوس » ، وكلها فلسفة دينية وبحث عميق مستور في علاقة الخالق سبحانه وتعالى بالمخلوق الممتاز .

ولا أحب أن يظن أحد أنني اعتبرت النبوة فلسفة أو وظيفة اجتماعية ، وإن صح هذا في كل الأحوال ، فلا يصح في حالة محمد ابن عبد الله الذي اعتقد اعتقاداً صريحاً أنه نبي مرسل موحى اليه وقد تلقى الوحي من الله بروح جبريل الملك ، ولا أرفض نبوغ الرسول العربي في كل شيء ما عدا الوحي ، فإن حياته كلها لم تكن وحياً إلهياً ، بل كان فيها اجتهاد وتفكير وتدير شخصي إنساني كالذي ظهر في حروبه وتنظيم دولته ووضع دستور المدينة وتنسيق

العلاقات بين المهاجرين والأنصار وبقية القبائل ، وكانت له أفكار خاصة ووجهات نظر خاصة في الحياة والاقتصاد والتعليم والسلوك والزواج والاجتماع قد تكون في مجموعها نظاما فلسفيا ضخما عظيما ، ووصفه بالفلسفة هنا يقصد به أنه نظام حكيم .

ولا يدهش أحد من وصف التعليم الديني بصفة الفلسفة ، فان الدين لم يخرج في وقت من الأوقات عن تبين العلاقة بين الخالق والمخلوق .



(١١)

أصل الخير والشر وسبب شقاء الانسان في الحياة
ومحنة الروح بالحياة - وحدة الفكر الفلسفي - هل الفلسفة علم ؟

لقد ظهر لي بعد حين أن مجرد سؤال عن مورد الانسان ومصدره وتاريخ حياة الروح منذ ولادتها الى عودتها الى عالم السر ، ليس الا خطوة فطرية في سبيل الفكر الانساني ، وقد تفرع عليهما في ذهني ما لا يقل عنهما في هذا الشأن وهو أصل الخير والشر وسبب شقاء الانسان في الحياة ومحنة الروح بالحياة والعيش على قشرة هذه الكرة الأرضية ودرجة الرقي المطلوب منها أن تصل اليها في وسط الأشواك والعقبات والأخطار التي لا تعد ولا تحصى ، ومحاربة الشهوات والتغلب على المضاعب وخوض بحر خضم من التبعات ، وشرب كئوس العذاب في الوحدة والانفراد ، وفي الجماعة والألفة ، والتنازع بين الآمال والخيبة ، وظهور الأشياء بغير مظهرها ، كل هذه وثلك دون أن تبرز الى العالم الخارجي ، فليس الاقتصاد

والاجتماع ومحاربة الشر والحروب والسياسة من دائرة الفلسفة
الا اعتبارا وتجاوزا .

فالفلسفة في عالم العقل والروح وما وراء الطبيعة ، وقد تحاول
الفلسفة أحيانا أن تحدد العلاقة بين الفرد والمجتمع كما صنع سبنسر
في فلسفته ، فانه نظر الى دنياه هو وهى العالم الانجليزى فى القرن
التاسع عشر ومستقبل علاقة الفرد بالمجموع فى ضوء العلوم الحديثة
والحضارة المعاصرة ولكن سبنسر بعد عن الحقيقة لأنه حصر آراءه
فى وسط معين واستخدم كل علوم البشر لتأييد فكرته وهى أن
المجتمع كائن حى يصح عليه من الأحكام ما يصح على الكائن الحى .

ولا يقل خطؤه - مع عظيم احترامى له - عن خطأ أوجست
كومت الفرنسى الذى أشقى نفسه ليسعد العالم بخلق دين جديد
ومجتمع جديد بناء على ما تخيله من تقسيم تاريخ حياة الانسانية
الى عصور الدين والحروب والاقتصاد ، فى مقابل العصور الحجرية
والبرنزية والحديدية .

لقد أحببت أوجست كومت حبا جما عن طريق الاشفاق عليه
لأنه حاول انقاذ الانسانية من شروها ، ولكن نظرة واحدة كانت
كافية للحكم على مشروعه بالفشل ، فان فرنسا فى القرن التاسع
عشر لم تكن لتسلم فى نفسها لهذا الفيلسوف الصالح الذى أراد
أن يهدم كل شئ ليبنى بناء جديدا غير مأمون العاقبة .

عدت بذهنى الى محاورات أفلاطون ، فليس عندى وقت
للمراجعة الدقيقة لأنى لا أضع كتابا ولكنى أسجل خطوات عقلية ،
وعدت الى كتب أرسطو فى المنطق والطبيعة والحيوان والروح
والشعر والخطابة ، وتأملات ديكارت ومقولة كانط (نقد العقل

المجرد) وشوبنهاور وسجنسر ، رجعت بذهنى الى هذه الثروة الضخمة التى أخذت من عمرى نصيبا كبيرا ، فوجدتها مختلفة كل الاختلاف كأنها معارك وملاحم بشرية ، ولكنها بعد الاهتضام والتأمل تتكشف لى عن وحدة تامة كاختلاف القاصدين الى مركز الدائرة وقد سار كل منهم من أحد أقواسها أو من نقطة من محيطها ، فكل منهم يَضْرُغُ مسألة أو جملة مسائل ، ويفرغها فى قالب تفكيره ثم يسعى فى إيجاد حل لها باذلا جهوده فى تدعيم الحل الذى يفتح به عليه وتأييده بأدلة من عنده على طريقة علمية واضحة .

غير أن سجنسر يسمي هذا نظاما System وكانط يسميه نقدا وشوبنهاور يسميه تحكم الارادة فى العالم وماخ يسميه تحليل الاحساسات وديكارت يسميه تأملات .

ولكن هل اعتبر الفلسفة علما كما اعتبر الفلك والكيمياء ما دامت الأدلة الواردة على صحة الحلول قائمة على أساس على طريقة علمية ؟

لم أستطع أن أجيب عن هذا السؤال بالإيجاب أبدا ، وإن كنت تأكدت صدقه عند محاولة التمدوين فى مسألة فلسفية . ولكننى ما أزال أقول ان الفلسفة ليست علما ، اننى لم أعلم هذا الجواب ولم أتلق هذا الرأى عن أحد ولم أجده فى أحد الكتب ، ولكننى كنت منذ نشأتى ولأول احتكاكى بهذه المسألة ، أنفر منه وأحكم بغفلة من يقول به .

ان العلوم التى يطلق عليها هذا الاسم معروفة لدينا ، فهل الرياضة كالفلسفة ؟ وهل الطب كالفلسفة ؟ وهل الفلك كالفلسفة ؟ لقد قرأت فى بداية أمرى أن من اليونان من كان يتعلم الفلسفة عن طريق الاشراق والتلقى من الأستاذ مباشرة ، واذاً يكون الفرق

الجوهري بين العلوم والفلسفة أن العلوم تنتقل بواسطة التلقين والمران والتدريب والتجربة ، أما المعرفة في الفلسفة فقد تأتي عن طريق الالهام ، لأن مادة العلوم حقائق ثابتة ، أما مادة الفلسفة - أن صبح هنا ذكر المادة - فهي أفكار وخواطر ، وهذه تستلهم ويوحى بها ويتلقاها الحكيم أو محب الحكمة بدون واسطة ، انها تشرق عليه كالنور الطبيعي الذي يعم العالم من الشمس والقمر ، وقد يأتي لك النور بمفردك وفي عزلتك اذا كنت متأملا ومستعدا ، وقد يأتي اليك وأنت لاه عنه أو مشغول بغيره أو غير منتظر اياه ، وقد يأتي اليك وأنت في صحبة صديقك أو حبيبك ، أو في مناقشة خصمك أو عدوك ، فهو نعمة وفيض لا علاقة له بالخارج ، ثم ينمو الخطر أو الفكرة حتى يصير شغلا شاغلا ، وكلما أنعمت فيه النظر تفتحت لك أبواب وظهرت لك مسالك وتشعبت طرائق .

ولاجل هذا كنت أجيب بفطرتي أن الفلسفة ليست علما ، ولكنها شيء آخر ، انها ربح عقلي سببه التأمل وصفاء النفس والاستعداد والتلقى ، وأفلاطون يشير الى ذلك ، وبلوتين صاحب الأفلاطونية الحديثة يستلهم ، وسبينوزا يستلهم ويحاول الوصول الى الحقيقة عن طريق الاتجاه الروحي كالذي يصنعه المتصوفون ، وأخذ هؤلاء الفلاسفة يتلقون الوحي والالهام ويشبتون وجود طريق للمعرفة غير التلقى والدرس ، ثم يهمسون به حتى صرح به شيلنج وسماه « الإدراك العقلي » . وأخيرا أثبت برجسون نظرية الافتطار

في كتابه « مواهب الوعي المباشر » Donnés imidiates de la sensation ، وكان ذلك ردا مفجما على فترة الغلطان التي أصابت الفلسفة في القرن التاسع عشر تحت ضغط العلوم المادية التي اقتصت بتطبيق التفكير على التجربة وهي الطريقة المتبعة في العلوم العبادية .

ولم أقتنع أبدا بأن الفلسفة خاضعة للعلوم لأنها لا تتبع قواعد ولا تقريرات ولا تخضع لما يخضع له العلم العملي كالرياضة والطب .

ان الفلسفة تلقى على العالم أسئلة وتسعى فى الاجابة عنها .
من أين جئنا وإلى أين نذهب ؟ وما الخطة المثلى فى سلوك الانسان
مدى الحياة ؟ وما الروح والنفس والعقل ؟ وكيف نفكر ؟ وكيف
نשמع ؟ وكيف نعيش وكيف نموت ؟ وكيف تحكم على الأشياء ؟
وما ماهية الأشياء وما جواهرها وأعراضها ؟

ان الفلسفة تقطع أشواطا يقصر عن مداها العقل وتتعنر أقدامه
فى الوصول اليها ويعجز عن التطلع اليها ، والفلسفة لاتكتفى بالروح
والالهيات وعلة الأشياء ، بل تبحث فى الحياة العامة ولا تعرض
عن البحث فى نتائج العلوم المادية كالأخلاق والآداب والطبيعة ،
وحتى علم الحياة والتشريح الحيوانى والانسانى لا يخرجان عن
دائرتها .

ان قلت ان الفلسفة علم العلوم والمهيمنة على المعارف الانسانية
بغير قيد ولا شرط ، فربما كان هذا التعريف قريبا من الحقيقة ،
لأنها غير معصورة ، فالفيلسوف يبحث عن الموسيقى لأنها مظهر من
مظاهر الانسجام كما فعل الفارابى ونيتشه .

هى أم العلوم وأصلها ونشأتها ، ولكنها مستقلة عنها ،
كالوطن الأكبر بالنسبة الى الولايات والأعمال والمقاطعات ، فان قلت
انها علم العلوم أو معرفة المعرفة ، كنت قريبا من الحقيقة ، وقد
يترقى بعض العلوم فيدخل فى حيازتها ويلتمس حمايتها .

فان بحث شوبنهاور فى الضوء ونظر الألوان بحث فلسفى ،
ولكن طريقة البحث عن الذهب ليست من الفلسفة ، والبحث فى

أصل الأنواع وتسلسل الإنسان معرفة فلسفية وإن كانت جزءاً من علوم شتى كالحفريات وطبقات الأرض والتشريح ، ولكن الطب نفسه الذى عليه قوام حياة الإنسان ، ليس من الفلسفة ، وتركيب الأجسام من عناصر أو عنصر واحد ، والذرة والتكهرب ، جزء من العلوم التى ارتقت الى درجة الفلسفة ، وتطور الأحياء كذلك سواء أكانت نباتاً أو حيواناً أو إنساناً جدير بنظر الفلسفة ، ولكن العمل على ترقية الأنواع لا يدخل فى نطاقها ، ويدخل تحت لوائها بلا ريب علم الفلك فى درجاته العليا والطبيعة العليا وعلم الحياة ، وقد رأينا جهاد سبنسر فى تعريفه وتخصيصه مجلدين من « نظامه » لدرسه ، وعلم النفس وعلم الاجتماع هما صفحات من كتاب الفلسفة الأعظم ، ولو أن جميع هذه العلوم تقوت وتوسعت واستقلت ، ولو أن جميع المسائل الناشئة عن الحياة فحصت ودرست وحلت حاولا موفقة ، فلا يزول مع هذا سلطان الفلسفة من عالم الفكر لأن الأفكار تتولد فى كل يوم ، ولأن سيل الإلهام مستمر لا ينقطع ، ولأن الحقائق تظهر فى كل لحظة وتدفع بالأفكار الى الظهور من عالم الخفاء ، وفى كل لحظة يشعر الإنسان بحاجة الى هذه البوتقة العظيمة المهولة التى تفرغ فيها الأفكار والخواطر لتصفى وتنقى ثم تصاغ .



(١٣)

أهمية الفلسفة

إنك تدهش إذا قرأ أو تسمع أن عصر الفلسفة قد انقضى ، وأن العصر الحديث لا يفسح لها مجالاً ، وأن تطور العالم يقتضى

زوالها ، وأن الذي حل محل الفلسفة هو درس تاريخها ، فتبتسم وتعلم أن الكاتب والقائل كمن يخبرك بوقف دولاب الحياة وانتهاء المواليد ، وأن عالم الأحياء ينتظر الموت الجارف الذي يذهب بالأخضر واليابس ، فالفلسفة لا تموت إلا إذا مات الجنس البشرى وانقرض ، وما دام العقل حيا ينبض ، فالفلسفة عائشة لا تموت ، وهي لا تنكسف ولا تختفى إلا في البلاد الميتة أو العائشة على الأوهام والشهوات كبعض بلاد الشرق الاسلامى فى هذا العصر الحديث ، وطالما عجزت كيف تعيش هذه الأهم بغير فلسفة ، لأن الفلسفة هى الشوق للمعرفة ، فكيف يعيش أحبانا بغير شوق الى المعرفة ؟ .

فغاية الفلسفة - غير ما ذكرنا - هى اشباع رغبة المعرفة عنده
 الإنسان المدرك حتى يستغرق ، وقد أعطى فيثاغور حياته لاشباع هذه الرغبة ، كما وهب أفلاطون حياته اجابة للدهشة من جمال الكون ، وديكارت للشك ، وكلاهما - الدهشة والشك - انفعال ناشئ من عدم الاقتناع العقلى أو من النهم الفلسفى ، كالطفل الذى يحب أن يعرف كل شئ عند تنبه مواهب الادراك فيه ، فالفيلسوف طفل كبير لا يسألك أسئلة الطفل الساذجة ، ولكن يسألك عن القضاء والتدر وسعة الكون وعلة انتظام الأجرام السماوية ، وهل هناك جنة ونار ونواب وعقاب ؟ ويعلل الحب والبغض ، وحقيقة الوحي ، والفرق بين العبقرية والجنون ، وهل تسلسل الانسان من القرد « البريمات » يمنع حلول الروح فيه ، وما حقيقة خلق آدم وحواء ، وما علاقة قانون الجاذبية بحياة الانسان ، وهل الانسان خالد أو فان ، ولم كان الحكم عليه بالخلود أو الفناء من أعلى مسائل الفلسفة ، وما أثر الموت فى الانسان ، ولم كان الاعتقاد بالشواب والعقاب مهما فى نظر الانسان ؟ وهل بينه وبين العدل ارتباط ؟ وما هو الله - جل شأنه - ذاتا وصفات ؟ وما علاقة الانسان به ، والقضاء والقدر والنبوة والرسالة والسعادة والشقاوة والبعث

والنشور ٥ . وما هية الذنب والمعصية ، وبالجمله كل ما هو عام
واجماعى وثابت يهتم الفلسفة ، وكل ما كان خاصا وافراديا ومعرضا
للزوال يهتم العلوم الفردة .

ينبغي ان تكوين الشروات الضخمة فى أمريكا عن طريق الاحتكار
والاجرام لا يهتم الفلسفة ، ولكن يهتم تقسيم الارزاق وتوزيع
الثروة ، لأن الأول يعود بالنفع المباشر على أفراد معدودين ملعونين
مبهوضين ، والثانى يعود بالنفع على الملايين .

وجود الله - سبحانه وتعالى - ضمان للخلود والعدل والرحمة
فى هذه الدنيا وما وراءها ، وتأمين من الضعف والألم وفقدان الحيلة
والحاجة للمعونة ومخاطر الوجود البشرى وقلق الانسانية وحيرتها ،
وفوق هذه كلها فان البحث فى الله - عز وجل - يشفى غليل الراغب
فى المعرفة العليا .

(١٣)

الاعتزال والتصوف

الأفكار الفلسفية بين النظرية والتطبيق - الفلسفة لا توثق

لقد أمكننى أن أدرك أن الاسلام قد أنتج جركتين فى غاية
الاهمية والتطورة وكبر الشأن ، ويزيدهما أهمية انهما نشأتا فى
حقبيل شبابه ، وهما الاعتزال والتصوف .

فالمعتزلة أو علماء الكلام هم فلاسفة الاسلام ، ولذا وجب على
أطالاب المسلمين بفلسفة بعد ظهور فلسفة الفرق التي رمت
بالكفر والزندقة وعذب كثير منها بالجلد والسجن والذبح وهم من
خيار الأمة ولم يعذبوا ولم يضطهدوا الا ارضاء للدهماء واحتفاظا
بسلطة الملوك المستبدين الذين كانوا يسمون بالخلفاء (الأمويين
والعباسيين) ، وهؤلاء خلفاء حقا لأنهم أفسدوا في الأرض وسفكوا
الدماء ، وما أعظم القرآن الكريم عندما يقول الله سبحانه وتعالى
« ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك
يفعلون » .

فقد شهدت قرية بغداد وقرية دمشق وقرية القاهرة من المظالم
باسم الدين ما يشيب من هوله الولدان ، كما شهدت روما وباريس
ولندن وآثينا وبابل وطيبة ومنف .

اننى رجل مسلم مؤمن أدين بالسلفية وبالتصوف وبرسالة
محمد عليه الصلاة والسلام وبالكتب المنزلة وبكتب الحديث الستة
وبآراء الخلفاء الراشدين ، ولكننى أحب أن أقول الحق ، فان الله
سبحانه يسمح لى أن أمارس العقل وأنتفع به وان أصرح بآرائى ،
وهو عز وجل أفسح صدرا وأعظم علما وحلما من كل الحكومات
العادلة ، فما بالك بالظلمة المستبدة ، وقد أمرنى أوامر صريحة
بالتفكير والتأمل والتدبر والتفكر ونهائى عن الجمود والجبن
والخوف ، فلذا أحزن على الذين قتلوا وان كانوا قد قتلوا وعذبوا
لحكمة أعرفها واحترمها ، ولا أرى أن حياتهم أفضل من موتهم ،
لأن موتهم كان أعظم وأنجى لهم ، وذهبوا فداء لغيرهم جاءوا بعدهم
ولم تمتد اليهم الأيدى بالسياط والسيوف .

فهؤلاء المعتزلة الذين صبروا ، بحثوا فى الجبر والاختيار
والقضاء والقدر والأعمال والأقوال والقدرة والارادة والسماء والجنة

والنار والثواب والعقاب والتبعية والحرية والعدل والرحمة والحساب والجزاء والذنوب والمعاصي ، هذه كلها مسائل في أعلى درجات الفلسفة ، فلا يضيرهم النقد والتعذيب ، ولا يضيرهم ما كتبه ابن حزم والشهرستاني ، ولم يمنع القتل والتعذيب ظهور غيرهم استقبلوا السمقاء والاضهاد بصدر رحبة ، لأنه لا توجد قوة على الأرض تمنع العقل عن البحث والدرس والنظر والتأمل والتفكير والتدبر والتمحيص والتشكك في سبيل الوصول الى اليقين ، وهذا فضل الاسلام بوصفه نظاما فلسفيا عاليا ، فهو يمجّد العقل ويعجب به ويأمر بالاستفادة منه ، ويذمّ البلهاء والغافلين والجامدين ، ويجعل العقل السليم قرين الايمان الصحيح .

لقد خدمت الفلسفة الأديان خدمة جليلة .

وأما الحركة الثنائية وهي حركة التصوف ، فقد قامت على نظرية المعرفة المباشرة والتلقى بالالهام والوحي ، وقد ذهبت لها ضحايا كثيرة كالحلاج والثوري وغيرهما .

ان كل فيلسوف مثل كل صوفى ، الصوفى يريد الاتصال بالله بغير واسطة ، والفيلسوف يريد الاتصال بالحقيقة بمجهوده الذاتي ، وكل حقيقة عنده مقدسة بشرط أنها حقيقة لا شك فيها ، ويدفعه الى البحث عن الحقيقة ما يراه من شغف الطفل بالسؤال لماذا ؟ وكيف ؟ وما يشعر به من منطق الأشياء وتسلسل الأسباب والنتائج والرغبة الكامنة في نفسه والقدرة على الفهم ، وقد وصفت الفيلسوف آنفا بأنه طفل كبير تختلف أسئلته عن أسئلة الطفل نوعا وكمية ، ويقصر الطفل عن ادراكها ، ولكن الطفل مدفوع للسؤال عما يقع تحت حسه المباشر بالنظر والسمع المباشر ، وكثيرا ما يجد أجوبة سخيفة على الأسئلة والديه أو أقارب سخفاء وان تكن

بعض أسئلته محيرة ، ولكن يدهشك أن الطفل يعرف السؤال ويوجهه : ولكنه لا يدرك الجواب عليه ولا يقنع به الا ظاهرا ، وهذه الحالة نفسها دليل على حاجة الانسان للفلسفة وأنها شوق فطري ملازم للعقل البشرى منذ نعومة الأظفار .

ويندر أن يسأل الطفل سؤالا ذا نفع عام ، ولكن الطفل الكبير - وهو الفيلسوف - فيسأل أسئلة جديدة عن الموت وعواقبه ، لأنه مشغول بضرورة العدل في الثواب والعقاب وتسوية الحساب ، وينتظر أن يكون خالدا ليرى انعقاد المحكمة السماوية وأخذ كل انسان نصيبه من الخير والشر .

وقد يكون الفيلسوف قانعا وزاهدا ومستغنيا ، ولكنه يسأل عن أسباب التفاوت بين البشر في الأرزاق والتقسيم والحظوظ والمظالم ، ولكن هذا الفيلسوف القانع أو الزاهد أو المستغنى يسأل هذا السؤال ليعود بالنفع على المجموع لا على نفسه ، فانه ان أعرض ودافع عن مصلحته ، هوى من درجة الفلاسفة ودخل في صفوف النفعيين وأرباب المصلحة الذاتية .

وقد يكون الفيلسوف عندما ثم يدافع عن مصلحة للأغنياء ، لأنها تنطبق في نظره على الحق والعدل .

ومهما تقدمت الحياة في العمر واستغرقت في القدم ، وتغلغلت في أغوار الأجيال ، فان أسئلة الحياة والموت والحظ والرزق والعدل والظلم ما تزال جديدة قشبية ، لأن كلا من الفلاسفة يجيب عنها جوابا يخالف جواب صاحبه .

غير أن الذي كابذته أن الفلسفة تغرى بالتفكير ولا تدفع الى العمل ، وهذا طبعى لأن الوصول الى أسمى الأفكار ، لا يستطاع

مع الحركة ولا يتفق مع التزميد ، ولأنه لا يوجد بين الأفكار الفلسفية ما يمكن تحويله الى حل عملي ، كتفكير التاجر الذي يتلوه الشراء للبيع بالربح ، أو تفكير المحارب الذي يتبعه التجنيد والتسليح والحشد والهجوم ، ان التفكير الفلسفي يعد وسيلة وغاية في ذاته ، هو سؤال يوجه من النفس الى النفس ، وينتهي المقصود منه بمجرد الجواب عليه .

والفيلسوف الصحيح لا ينتقل ولا يتحرك ولا يشغل بغير ما هو فيه ، وليس هذا معناه ان يقيم الفيلسوف في مكان واحد ، ولكن معناه أن ورود الخواطر واستعراض المسائل والعثور على حلولها لا يحتاج الى ابراز في عالم المادة والى تجربة عملية ، فأفلاطون لم يكن يرجو أن يرى خطة الجمهورية ونظم الحكم والتعليم والمشاعية والجندية وتسليم زمام الامور للحكماء في الدولة تتم وتنفذ في حياته ، لأن الأفكار الفلسفية نظرية وهذه هي ميزاتها البالغة ومكائنها العالية ، هي تمكين العقل الراقى من أداء وظيفته .

ويظهر لى أن الفلسفة الكبرى - شأنها شأن النبوة العظمى - لا تورث ، فلا يمكن الفيلسوف أن يجعل ابنه فيلسوفا ، ومعظم هؤلاء الفلاسفة الكبار يذهبون ولم يرزقوا غير حكمتهم ، ومن يخلف منهم نسلا يكون نسله في الأغلب فرعاً جافاً من تلك الشجرة التي امتصت ماء الحياة لنفسها ولم تستطع تغذية فروعها .

والفيلسوف يتأمل ويشاهد ويجرب ، في عقله معمله ، ومخبره ذهنه ، ولا حاجة به الى أدوات غير التفكير والقياس والفهم والذاكرة القوية والخيال القوى ، فغاياته أفكاره .

وقد يبدل الفيلسوف جهدا في مراقبة الكائنات كدعوة المؤمن الى رؤية آيات الله فى الآفاق ، ولكن الفلكى يبني مرصدا ويعد منظارا مضخما وعدسة مجدوة وارقاما لا تحصى ، وكذلك الرياضى والكيميائى وبعض علماء علم النفس التجريبي الذى ثبت فشله لأنه ولد ميتا .

فالفكر الفلسفى مستقل عن العمل وفى غنى عنه .

وقد يكون الفيلسوف نفسه محتاجا للعمل فى دائرة أخرى كالتدريس والصناعة ، فقد كان أفلاطون أستاذا وكان سبينوزا صانع ساعات وكان جوبلو أستاذا وكان كومت رياضيا ، ليرتزقوا ويعولوا من عندهم ، أما سفراط فقد كان صانع تماثيل فى أول أمره ثم طلقها .

فالفلسفة وظيفة ومهنة تستبعد سواها كالنبوة ، كان ابن رشد قاضيا وقيضا وابن سينا طبيا والفارابى موسيقارا وابن خلدون قاضيا وديكارت ضابطا وشوبنهاور من أبناء الأعيان ونيتشه استاذ لغات ، ولكنهم فشلوا فى صناعتهم ولم يربحوا منها ، ولذا كانوا فى ضيق أو عاشوا عالة على الأمراء والمجتمع ، ولذا فاني أعد المجتمع الانسانى فى طفولته لأن أعظم خدامه لا يصلون الى المال الذى يصل اليه الحائك والصباغ والجلاد . . . الخ .

ولكن وراء هذا الاستغناء عن العمل والحركة فكرة سامية وهى عدم الحاجة ، وكلما اكتفى العبد كان قريبا من الرب ، لأن الحاجة قرينة المذلة والخضوع .

ألا تلمح فى هذا الميل الى الزهادة خلقا صوفيا ؟ أليس الصوفيون زهادا وأغنياء عن كل أحد ما عدا الله سبحانه وتعالى ، ويرون السؤال مسبة وعارا ومخالفة للإيمان الصحيح ؟

وسواء أكان الفلاسفة متوكلين على الله حق التوكل ، فانهم عاشوا في ضنك أو فرح ، ولم يشكروا ولم يتألوا ، حتى الذي كان ملحدا منهم ، لم يعرض نفسه للمذلة الحاجة . فعلى الفيلسوف الصادق أن يكتفى بضروريات الحياة ولا بد له من الصبر على الحرمان وكبح جماح النفس ووقفها عند حدها :

والنفس راغبة اذا رغبتهسا واذا ترد الى قليل تقنع

ويتبع القناعة في الحياة رفض الامتلاك والمسررات والشهرة والمناصب وهو الذي يسميه الصوفيون « حالة الحمول » أى انطواء الذكر لا حمول العقل ، وقد وجد كل فيلسوف وسيلة للوصول الى هذه الغاية ، فقال أريستينس « ان شغلك بالحاضر وبالساعة التى أنت فيها يغنيك عن التفكير في المستقبل ، ويقيك شرور السعى والادخار » ، وقال أبيقور « عليك بهدوء العقل وهو لا يتأتى الا بتطبيق المطالب والآمال والتفكير فيما يجلبه الغد » .

ولا يصل الفيلسوف الى هذه الحالة الا بقوة الارادة والعزوبة والعزلة في الاكتفاء بالذات أى اكتفاء النفس بما لديها بغير نظر الى المال والجمال والنساء والأطفال والصدقة والمناصب ، لأن هذه النعم أو النقم تابعة للحظوظ وليست تابعة لأنفسنا ، وليست كلها خيرا ، فاذا حضرت وتوافرت فالفيلسوف يحظى بها ويأخذ بنصيبه منها ، وان لم تحضر ولم تتوافر فلا يجرى وراءها ولا يبحث عنها ولا يأسف عليها ولا يندم على حرمانه منها .

وفى هذا القدر كفاية .

الزواج

ان طريقتى فى كتابة هذا المخطوط (١) هى أن أنظر حولي ،
أنظر حولي فأجد عائلتي فأصحابي فأمتي فالعالم الخارجى الذى
يمثل مدنية هذا العصر ، وأحب أن أقول ان الأفكار الدينية
أو الفلسفية أو السياسية لا دخل لها فى بحوثى هذه مطلقا .

أقول اننى منذ سنة ١٩١٧ فقدت آخر عضو فى عائلتي التى
نشأت فيها ولم يبق الا والدى المرحوم الذى توفى فى أغسطس
سنة ١٩٣١ ، أى منذ عشر سنوات كاملة ، وكان اجتماعى به قليلا
جدا لأنه كان مقيما فى الاسكندرية ولم يكن فى مقدورى أن أقنعه
بالانتقال الى القاهرة ، وعلى كل حال فقد كان تأثيره على محدودا
فيما عدا الناحية الدينية لأنه كان رجلا صالحا جدا على طريقة
المتدينين لا على طريقة المعجبين بدين معين لأسباب عقلية ، وهذه
الطريقة الأخيرة هى التى أميل اليها لأنها تجعل التدين حياة فكرية
ونفسية تماشى الحياة العادية ، ولا أحب أن أسهب فى هذه الناحية
لأنها ليست من الناحيات المقصودة بذاتها .

أذن فى سنة ١٩١٧ فقدت آخر فرد فى عائلتي التى نشأت
فيها ونظرت حولي فإذا أنا فى حالة وحدة ، وكنت منذ بضع سنوات

(١) كتب لطفى جمعة هذا الفصل من هذه المذكرات فى يوم الاثنين

١٨ أغسطس سنة ١٩٤١ .

قد عولت على العزوبة التامة المطلقة التي لا أتجول عنها الى درجة
أننى كنت أعيب الزواج على رجل عرفته أعزب ثم أراه يتزوج ،
وكانت فكرة العزوبة متمكنة منى لأسباب كثيرة ، أولا لاعتقادي
أن المرأة المصرية فى العقدين الأول والثانى من القرن العشرين لم
تكن تصلح لمعاشرة رجل مصرى ، فضلا عن أنها بصفة عامة - حتى
ولو كانت متعلمة تعليما عاليا - لا يمكنها أن تعاشر الرجل العقل
intellectuel ، ولا تصلح لتربية الأولاد ولا تستطيع أن تصعد
مع الرجل من الدرجات الأولى فى سلم الحياة الى آخر الدرج .

وعدا عن هذا فقد كنت فى الحق أعتقد أن المرأة عنصر تربية
وضجر وضرر للرجل خصوصا الرجل الذى له أغراض مهينة فى
الحياة ، ولذا كنت كثير الاهتمام بتدوين كل ما يصل الى علمى
مما يؤيد نظرتى الى المرأة من الأفكار المعروفة كذكر الشرور التى
حصلت فى العالم بسبب النساء والأحوال التى اطلعت عليها
بالمطالعة أو المشاهدة ، ومن ذلك ما رواه لى فى سنة ١٩٠٤ أحد
موظفى المرصد فى حلوان عندما كنت معلما فى مدرسة حلوان من
أن الرئيس الانجليزى قال للموظفين عندما سألوه لم لا تتزوج
يا جناب المدير وأنت رجل صحيح الجسم والفكر ميسور الحال ؟
فقال : لقد سألته نفسى وخيرتها بين الكتاب (يرمز الى العلم والدرس
والمطالعة) وبين المرأة (يعنى الحياة العائلية) فاخترت الكتاب
لان الجمع بينهما مستحيل . كانت أمثال هذه الأقوال تستهوينى
وأرتاح اليها ، كما كنت أرتاح كلما عثرت على تاريخ أو قصة
أو حادثة تثبت صحة نظرى فى المرأة ، فكان لسورة يوسف فى
نظرى شأن كبير ولا سيما آية « ان كيدهن عظيم » ، فقد كنت
أقف أمامها معجبا لأنها صيغة نهائية a final formula مثل قوله
تعالى « ولكم فى القصص حياة » .

وهناك الحجة المشهورة وهى قضية حواء والفاكهة المحرمة
... الخ ، ولأبادرن بالقول هاهنا اننى لم أعتبر هذه القضية
الدينية الا رمزا بغيد الغور لا يجوز أن يؤخذ على ظاهره ، ومع
ذلك فان ظاهره يؤيد نظريتى فى ذلك الوقت .

ثم تواتر اطلاقى فى الأدب وانه لغنى جدا بتلك الأدلة بدءا
بقصة ماكبث فى شكسبير الى مدام بوفارى فى مؤلفات جوستاف
فلوبير ثم سومرسيت موجام وتوماس هاردى الانجليزيين وتاريخ
النساء الشهيرات فى العالم شرقا وغربا ... الخ .

غير أن امرأة واحدة فقط قد اغتصبت اعجابى وتقديرى
واحترامى وحنينى وهى السيدة خديجة بنت خويلد أولى زوجات
النبي محمد التى سميت بـ « أم المؤمنين » . نير اننى كنت أشعر فى
دخيلة نفسى أن هذه المرأة المتلمة الممتازة كانت من أهم أدوات
الرسالة المحمدية ، فلا يجوز لأى انسان عادى أن يطمع فى مثلها
فى أى زمان ومكان ، لقد كانت نادرة وهدية الهبة - اذ اصنع ان
أقول ذلك - ومجرد حدوث الزواج بين هذا الانسان الكامل وهذه
السيدة دليل قاطع على أهمية الدور الذى تقوم به المرأة الفاضلة
العاقلة فى حياة الرجل العظيم ، حتى ان الرجل المبعوث والمرسل
لا يستغنى عنها بل تقوم رسالته - فى جانب منها - عليها .

أحب أن أكون قد أوضحت هذه النقطة .

كنت قبل زواجى ببضع سنين أتهكم على فكرة الزوج الذى
يحمل ولده المريض الى الطبيب أو الذى يسير فى موكب من زوجته
وأطفاله أو الذى تبدو عليه أمارات الكهولة المبكرة بسبب حمل
همومه ، وفجأة توفى آخر عضو من أفراد عائلتى التى نشأت فيها،

وكان أبى رحمه الله يكتب لى خطابات فى أوربا يعرض على فيها زواجا من فلانة وفلانة قريباته وقريباتى أو من فلانة التى صفتها كذا وكذا ، فكنت أسخط حيناً وحيناً أسخر !

فلما حدثت هذه الوفاة ، شعرت بوحدة اليمية فى الحياة ، وشعرت بحاجتى الى من يؤنسنى ، وشعرت بضرورة المرأة فى حياة الرجل اذا كان يريد أن يعيش مستقيماً وأن يضمن السلام فى حياته الداخلية وأن يضمن التوازن فى حياته العقلية ، وبالجملـة شعرت بكل ما يشعر به صاحب العمل العقل من الحاجة الى مرفأ أمين يستريح الرجل لديه بعد الزواج الخارجية ، وكان هذا الشعور طبيعياً وانه لشعور عظيم اذ جرت المقادير به وبما تلاه ، هو شعور منطقى وطبيعى اذا نظرت اليه نظرة مثالية واعتقدت أن الوسط الخارجى يتلاءم مع نظرتك الى الحياة وأنت تجد من يعينك ويغهم ميولك ويخلص لك .

ولقد ثبت لى بطريقة قاطعة حاسمة جليلة واضحة أن الطبيعة البشرية هى فى كل زمان ومكان وفى كل الظروف ، وأن المرأة الشرقية كالغربية والمتعلمة كالبهالة والذكية كالبغية والصبيـة كالعجوز ، لا فرق مطلقاً ، وأن الزواج هو فـخ متين جداً تضافر على صنعه الطبيعة البشرية والدين والنظام الاجتماعى ، وهو بمثابة تقديم تضحية انسانية هى الرجل للمرأة التى تمثل الحياة ، ولا بد أن هذه التضحية تحترق وتنفى لتتم مراسم هذه العبادة !

لقد سبق لى أن عشت مع امرأة أوربية مثقفة وكانت قارئة وكاتبة وقد سحت معها فى بلاد أوربية كثيرة وأقامت معى فى مصر عاماً وبعض عام (١) ، فوجدت أن عنصر حياتى هو العنصر العقلى ليس العنصر المادى ولا الغذائى، ويضاف الى هذا العنصر العقلى عنصر الفن

(١) انظر صفحة ٢١٩ - ٢٢٧ من هذا الكتاب .

والجمال . وقد وجدت في هذه المرأة الأولى كل منعتي . فقرأنا كتبنا معا وزرنا المتساحف معا وتجولنا في الغابات وفي البحار والبحيرات وعلى ضفاف الأنهار معا ، وكانت هذه المرأة مخلصة وعاقلة وشديدة الذكاء ، وكان يجب على أن أجعل هذه الحياة دائمة ، ولكن عقبات شديدة قاسية قد وقفت في طريقي ، فضحيت بهذه السعادة في سبيل اعتبارات كنت أظنها أسمى من السعادة وهي الواجب العائلي ، ولكنني اكتشفت خطئي بعد ذلك ، وكان يجب على أن أكون مستائرا أنا نيا أنظر لحقوق نفسي على قبل أن أنظر إلى حقوق الغير ، ولكن هكذا جرى القدر ، فعلمت أن تضحيتي لم تنفع أحدا ولكنها أضرت بي ضررا بليغا ، ولكنني لم أندم لأنني تعودت أن أفضل الغير على نفسي سواء أكان قريبا و غريبا . وأظن هذا في ضوء العلم الحديث يعد نقصا أو مركبا واسمه العلمي الحقيقي « inhibition » ويكون ملازما لأمشلي ، ومن عناصره أو مظاهره التواضع ونكران الذات والايثار وانتظار نتائج معنوية كبيرة من التضحية والبذل ، ولكنني اكتشفت دائما أن الناس لا تعير صاحب هذه الخصال التفاتا ولا اهتماما ، وكثير منهم يسخرون منه في دخيلة أنفسهم ويضحكون في أكمهم لاتجاه الكثرة من الناس إلى استغلال الذين عندهم هذه الخصال التي لا تعد فضائل في كل الأوساط بل لا تعد فضائل الا عند القوي الجبار القادر على القهر واستلاب الغنيمة ، وأما الذي يفرط في حقوقه لأجل « المبدأ » فهيهمات أن يؤبه له .

وعلى كل حال فانني عدت الى وطني تحت تأثير فكرة خاطئة ، فقد كان من الميسور لي أن أعيش بعيدا أو أن أعيش سعيدا أو أنتج نتاجا موفقا وأن أعيش عمرا مديدا في سعادة محقة ، ولكن اعتبارات وطنية ودينية وعائلية هي التي حولت سفينتي الى شواطئ تلك البلاد « الوطن العزيز » .

كنت أرى في لندن وباريس وإيطاليا والنمسا عجائب هذا الوجود وعظمة الإنسان مما يجبر العقول ويسمى الألباب ، فأقول ان بلادي مع انحطاطها وسقوطها أجهل من هذا كله وأنى خليق بان أخدمها وأعمل على رفعتها لتصل الى هذا المستوى أو قريبا منه .

حقا لقد كنت أشعر مع الاعجاب بالغيرة أو الغبطة ، فأتمنى أن يكون لنا في وطننا أشباه ما أرى في الأخلاق والآداب والتعليم والحقوق والتعاون والكرامة الانسانية والحرية الرشيدة ولم أكن أعلم قط ما تخبئه الأقدار ! . كنت وأمثلة محمولين على أجيحة الخيال والمثل العليا ، وكنت أعتقد أن وجودي في وطني أمر ضروري ، ويزيدني تحمسا واعتقادا ما أسجمعه عن نفسي وقدراتي وملكاتى عن اليمين وعن الشمال فصدقت ، ولكن هذه كلها كانت أقرالا لا تتلوها أفعال ونفاقا ومراة وتدريب السنة ذربة على الباطل والخداع !

كان هذا الوطن في نظري قبل أن أكابد الحياة فيه بمثابة الجنة وكنت أصلى وأحارب الشهوات وأمرن نفسي على الصبر لأبر بوالدى وأهلى أو من بقى منهم وأزكى من مالى وان قل ، وأضحى بفكرى وعقلى وصحتى طمعا فى الوصول الى الأمل المنشود وهو رفعة الوطن ، ولم أبدأ فى رفعة نفسى ، وكان معى أناس قد رسموا خططهم وفرغوا منها فى تقلد الوظائف واقتناء الأموال وزواج النسوة الغنيات الخ .

لا أحب أبدا أن أظن أن الانسانية كلها مريضة بهذه الأدواء ولا أن كل الناس مصابون بهذه العلة ، ولكن المشاهدة والاختبار دلتنى على ذلك ، وأن العالم منقسم الى قسمين واضحين كل الوضوح ، أصحاب الآراء وضحايا المثل ، وأصحاب المنافع الذاتية والأطماع « فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم أثما أو كفورا واذكر

اسم ربك بكرة وأصيلا » • وان أفراد القسم الأول ينتهون بالخيبة والفشل والاحباط ، والآخرين « ان هؤلاء يجبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا • نحن خلقناهم وشددنا أزهرهم واذا شئنا بدلناهم تبديلا • ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا وما تشاءون الا أن يشاء الله • ان الله كان عليما حكيما • يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعدا لهم عنايا أليما » •

ان أصحاب المثل العليا - حتى اثنواغ منهم - لا يصلون الى شىء من أمانيهم الا اذا اتخذوا الوسائل المتتوية وعطوا مواهبهم التى تخيلت أنها لا تستقيم ولا تزدهر الا فى جو من الفضيلة ، ولكننى للأسف وجدت أن الفضائل حبر على ورق ووعود خلاصة ما لم يكن لديك القوة المنفذة وفراغ الفؤاد تماما من الموانع الأدبية، أما أبواب هذه الموانع والعوائق الأدبية والمعنوية فلا يجتهدون ، والتجاح هنا معناه جمع المال بآية طريقة والوصول الى بيئة النفوذ فى الأمة مهما كانت هذه الأمة ساقطة •

فما أجمل أحلامى وأحلام أمثالى وما أجمل آمالى وآمالهم فى وقتها وهى القائمة على الوحى والكتب المنزلة وأقوال الحكماء !

وفوق هذا كان فى نفسى اقتناع باطنى يشع من الضمير ، ذلك الضمير الذى لا يقبل غير هذه المبادئ الجميلة ، وكان هذا الاشعاع قويا بحيث أكذب المشاهد والمرئى والمسموع والملموس والمحسوس وأخدع نفسى بأن الذى أراه هو أشباح وصور ، وأن الذى فى نفسى هو الحقيقة المطلقة ، ولكن استمر ثبوت الأشباح والصور وطالت آجالها وتقوت أواصرها بينما أخذت مبادئ تقاوم وتنافح وتدافع ضد تيارات قوية جدا ، فأستمد تارة من الدين والقرآن ، وتارة من حياة العظماء ، وتارة من حبنى للمعرفة والاستزادة منها وثقتى التامة المطلقة بما كتب وقيل وأكد لنا •

وكان كلما يقترب اليوم الذى يحتم على فيه أن أحكم حكما .
قاطعا ، أتخذ كل الوسائل لتأجيله كأنه قضية مهمة معلق على رأسى
سيفها ، أى الطريقين حق وإيهما أحق بالاتباع ، أى الخطتين أصدقه
وأصح وأسلم عاقبة ؟

لا تظنوا أننى بقيت فى الحيرة زمنا طويلا ولكننى صممت على
أن أتبع الطريق الأول الذى اعتنقته واعتقدته على الرغم مما أعانى
فيه ، ولكن لم يغب عن ذهنى مطلقا أن وقت التضحيات الكبرى قد
مضى وانقضى ، وأننى أعيش فى غابة وحوشها مطلقة القيد وأفاعيها
منسابة وجوارحها منقضة •

ومن المصائب الكبرى أنك لا تجد بجانبك سندا ماديا من
رجال أو أشياء فتشعر بوحدة اليمّة وحولك الضحكات والسخريات
المكتمة الجبانة ، ووراء يومئذ الألسنة المسومة والأعين الخبيثة
والقلوب السوداء ، وحولك الغيبة والنميمة والتشغى والاشفاق
الكاذب ، وحولك الحسد وأمانى السوء وتربص الخونة والكلمات
البلاذعة تهمس وقد تذاق • وشيئا فشيئا رأيت الحقيقة ، وأن الأعوام
تجرى والدهر لا يقف والعمر لا يتناول الى تحقيق الأمانى ، والأهم
لا تنقى ولا ترقى ولا تهذب فى أعوام ولا فى عشرات الأعوام ، وربما
تتم تنقيتها فى المئات ما لم يكن الأمر مكتوبا ليتم على يد نبي عظيم
أى نبي ناجح ، وحتى الأنبياء ينجح بعضهم وتفشل الكثرة العظمى
ولا تبقى من سيرتهم الا نعيهم والأسف عليهم فى الكتب المنزلة •
وحتى هؤلاء الأعداء للحق وخصوم العدل وأنصار المظالم لا يتركون
لك جو الحرية لتعيش ضمن الرعايا المقضى عليهم بالصبر والرضا ،
فهنا معركة حامية حتى على حقل فى الحياة ! ، فلا يكفيهم أنهم
يسنئون بكل شيء ليخربوا كل شيء وينهبوا كل شيء ويعدموا
كل شريف وعزيز وغال ، بل يعملون على محاربتك لينتزعوا منك

مقعدك الصغير فى مضممار الحياة ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا .
 وحتى عندما تحصر غايتك فى ترقية نفسك وتهذيبها وتنقيتها
 وتكف عن الخدمة العامة ، فانهم ينفسون عليك ذلك ويعملون على
 عرقلتك بوسائل صامتة خبيثة كالنار التى تاكل الحطب ، وكلما
 أطفأتها ازدادت سعيرا واشتعالا .

وقد اكتشفت خطط « الشلل » والعصابات Cliques
 التى تعمل بانتظام وعمل اللصوص والمجرمين وعدتها وحدتها
 وعرفت وسائلهم فقد درج المصريون فى مطلع هذا القرن والتحدثون
 منهم أيضا على أن يكونوا شللا تتعاون على الوصول إلى أغراضها
 مثل المناصب والأموال والشركات ، وهى غير الشلل الأخرى التى
 درجت على تنظيم الفساد ، وهذه الشلل تجتمع وتذيع أنها ألفا خلق
 الله فى المشروعات السياسية والعلمية والأدبية . ومن قوة هذا
 المذهب فيهم أنهم قد يتناقضون أحيانا ، ولكنهم يتصدون هم أنفسهم
 لنفس الأعمال المتناقضة .

فمثلا بعض الوزراء الموقعين على دستور سنة ١٩٢٣ هم الذين
 أوقفوه وعطلوه سنة ١٩٢٨ أو ألغوه سنة ١٩٣٠ ، وعندما خطر ببال
 الحكومة وضع دائرة معارف مصرىة وهو مشروع فكرت فيه من
 سنة ١٩٠٩ وخاطبت فيه الملك فؤاد سنة ١٩٣٤ ظهر نفس
 الأشخاص المشهورين فى الأدب والذين لا تخلو منهم مجلة أو جريدة
 أمثال طه حسين ومنصور فهمى ولطفى السيد .

كان أفراد هذه الشلل والعصابات يودون أن يضمونى إلى
 صفوفهم ولكننى عرضت عنهم واحتقرتهم ولم أقبل أن أتواطأ معهم
 على وطنى ، وما الوطن إلا هؤلاء المساكين من الفقراء والضعفاء
 واللاهين والعائشين بغير شعور ، فكان ترفعى وابتعادى عن دوائر

هذه « الشبل » والعصابات المنظمة سببها لغيظهم وحقهم ، واتجه فكري الى تأليف عصابة من أهل الخير فاتصلت ببعضهم ووجدت كثيرا منهم على علم بما أعلم ولكنني لم أجدهم على استعداد للعمل بما يعلمون ، وكان جواب واحد منهم لي أن أهل البئر يسعون بالضعف ولذا يحتاجون الى الاجتماع والاتفاق لأنهم لا يستطيعون أن يعملوا أفرادا ، أما أهل الخير فأقوياء يملكون أن يعملوا أفرادا فلا يحتاجون الى الاجتماع والاتحاد ، ألا ترى أن الأسد يعيش في الغاب بمفرده في حين أن الذئب والنعالب تعيش في جماعات وقطعانا ... الخ ؟ . وكان هذا الكلام خطأ ومغالطة لأن الأسد ليس خيرا بالنسبة للحيوانات الأخرى ، وهو الآخر وحش مفترس وإن كان لا يفترس الا اذا جاع . وهذا الشخص نفسه صاحب هذه المغالطة ، لما ضاقت به السبل . انضم الى العصابات الأخرى وشايهم وسار في موكبهم مزعرا ومطبلا وقد أخطأت في حسن الظن به .

وبعد أن عرضت فكري على كثير ممن توسعت فيهم خيرا ، وكانوا على علم بما هو واقع ودعوتهم الى العمل والدفاع عن مصالحهم المشروعة دفاعا مشروعاً ، لم أجدهم من يصلح أو يرضى ، وقال لي واحد منهم ألا ترى الشر سائدا وأن قوة الشر لا تقاوم ولا تجارى ، يجب علينا أن نعيش الآن عملاً بالمثل السائر « يا حيط داريني » (كذا !) .

كان هذا عقب عودتي من أوروبا ، وكانت الأحزاب التي استظل بعضها بالخديو وبعضها الآخر بالاحتلال الانجليزى قد تأسست كحزب الأمة الذي ألف سنة ١٩٠٧ من حفنة من الباشوات والأعيان والأغنياء أعداء الخديو والأمة وخدام الانجليز لأن لهم مصالح حقيقية أى أطيان وأموال يريدون حمايتها في ظل

الاحتلال ، وجعلوا لسانهم الناطق أو الناعق أحمد لطفي السيد ، وحزب الاصلاح على المبادئ الدستورية الذي أسسه الشيخ علي يوسف سنة ١٩٠٧ أيضا بايعاز من الخديو والانجليز وضم أعضاء كانوا جميعا خدما للانجليز وللخدو وكانوا أرباب مطاعم ومصالح .

في هذه الفترة لفنت هذه الأحوال نظرى الى معضلة العائلة والزواج وظننت أن السلوى والمشوى والملجأ والحصن الحصين والركن الركين ، هو ذلك البيت أو المرفأ الأمين ، مستظل الزوجة ومملكة المرأة ومراح الرجل ومتنزه الوالد ومرنع هناء البنين ومسرح مسراتهم ومجتمع الأقارب والأصدقاء ومعبد الله وهيكلم المعرفة ومستقر المتعوب والمنهوك الى حين .

وأبادر فأقول اننى لست من أنصار ما يسمى بالحب الحر
 « amour Libre » الذى يبيع العشرة بغير تعاقد ويمحو القيود التى تربط الرجال بالنساء لمصلحة الزوجين والأولاد ، وأبادر فأقول أيضا مخاصمتى لهذا النظام ليست «احتراما منى للقوانين أو للنظم السائدة فان هذا الاعتبار خارج عن نطاق بحثى ، ولكن أرفض « الحب الحر » لأنه لا يقدم ولا يؤخر ، فها أنا - كمسلم - أملك الطلاق والانفصال عن المرأة ولا أخشى فى طلاقها لومة لائم اذا ثبت لى أنها غير صالحة للحياة الزوجية ، ولكن مادام الرجل ليس سكيما ولا مقامرا ولا زير نساء ولا مصابا بداء خلقى خفى ، وما دامت المرأة التى اتخذها زوجة ، عفيفة وأمينه على عرضه - ولو كانت سفیهة أو مبذرة أو سليطة اللسان كزوجة سقراط - فلا بد أن يبقیها فهو بها أولى وعلى صونها أقدر ، ولكن رجلا مثل ابراهيم لنكون ما كان يصح له أن يحتفظ بامراته ولكنه صبر عليها وهى تضع العقبات فى طريقه وتعطل حیاته واحتفظ بها الى أن مات مقتولا باغتيال سياسى ، وصبر سقراط على ذاتييب لأنها لم تعطل

فلسفته وتعليمه ولم تعترض حريته ولم تعرقل عمله ، يعاش كما يشاء ومات كما يشاء وأثنى عليها قبل موته ، وهى بلا ريب لم تفهمه ولم تفهم كلمة من فلسفته ، ولكنها لو فرت منه ما كان يسعى لاستجلايها فيسكى أن يصبر عليها دون أن يسعى فى استردادها .

وقد قوانى على نبذ نظام الحب الحر كراهية حياة الانسداد والاحتياج الى عشرة المرأة المباحة فى تحفظ ، ولا أقول ان مثل هذا النظام يفشل دائما ولكنه ينتهى دائما بأن الرجل يرغب فى النهاية على الزواج من المرأة التى عاشها ، كما فعل أوجيست رودان مع الخادمة التى أعطته حياتها أو أناتول فرانس ، ويسمون ذلك تصحيح الموقف ، ويدخل فى ذلك الاعتراف بالنسب بعد أن ينتضى الأولاد فترة من أعمارهم منسوبين الى أمهاتهم ، وأنا لا أطيق ذلك ولا أحب أن أرزق أولادا الا اذا ضمنت لهم الانتساب الى ، فكيف أرى بالحب الحر ، حاشا لله أن أفعل ذلك أو أقبله .

ألا ترى لقصة « المذنب » تأليف فرانسوا كوبيه ؟ ألا ترى لنسم ديماس الكبير على أنه رزق ابنه بغير زواج شرعى فلم يستطع التخلي عنه ولم يجن عليه الا الفضيحة مع نبوغ الابن حتى فاق أباه ؟

وبالجمله فان هذه النظرية التى هى زواج المتعة معذلا لا تروقنى ولا أقرها ولم أقرها فى شبابى ، فكيف كنت أقرها بهد بلوغ الثلاثين ؟

لقد حاول بعضهم أن يقضى على الزواج فى أوربا لأنه مبنى على التدين والتدقيق ، فاذا تقوض قبل أن ترسخ فى النفوس

أصول جديدة للآداب ، تقوض أعظم ركن من أركان المجتمع الرأسمالي الحديث ، فان المجتمع الحديث في أوروبا وأمريكا - على الرغم من تخليه عن العقائد الدينية - لا يريد أن يتخلى عن نظام الزواج . نعم انهم اباحيون تقريبا ولا يترفع أحدهم عن اتخاذ السراري والمحظيات كلما كثر ثروته ، وقد تنسرى المرأة الغنية باتخاذ رجال مأجورين لممارسة صناعة الحب المحرم ، وقد كتب كاميل موكليز في أوائل هذا القرن كتابا بعنوان « مقال في الحب البدني » أباح فيه عهارة الرجال ، وفي أوروبا وأمريكا في هذا العصر المضمحل وضعوا تسهيلات للطلاق لا تخطر على العقل ، فيأتي الزوج أو الزوجة ليعترف صراحة بأنه زنى ليحكم بالطلاق ويهاجر أحدهم الى ولاية مجاورة ليدفع رسم الطلاق فيتم في بضع دقائق ، وقد حكم قاض في سنة ١٩٣٨ في محكمة باريس بغرامة خمسة عشر فرنكا (١٥ قرشا !) عقوبة على زوجة زانية بحضور زوجها وحماتها وقد شهدا تلبسها بالجريمة !!

ولكن هذا المجتمع الغربي الذي وصل عنده العرض الى هذه الدرجة ، ما يزال مع ذلك متمسكا بالزواج الشرعي لاعتبارات اقتصادية وسياسية .

ولذا كان اعتقادي أن الارتباط بعقد الزواج ضروري لي أنا شخصا ، وأبيت أن أتزوج من امرأة أجنبية أوربية أو شرقية (كالتركيات والشركسيات) لأسباب كثيرة وجيهة في نظري ، وان كنت قد تذوقت السعادة العقلية في عشرة نسوة من هذا القبيل ، فعندى أن الجنس المتحد - ولو كان منحطاً - خير من الجنس المختلط المنوع ولو كان راقيا ، فان أولادى مهما كانت درجتهم العقلية سيحبون وطنهم ودينهم وأمتهم ولن يتبرأوا من أحدها كما أرى « أولاد الذوات » الذين يفاخرون بأنهم ترك وشركس وأكراد وأرانطة وروم ومغاربة أو خليط من هؤلاء جميعا .

وملخص القول اننى فى مستهل السنة الثانية بعد الثلاثين

تزوجت بامرأة مصرية صميمة (١) ، وهى سن حسنة ومعقولة بالنسبة لظروفى الخاصة وان كانت مناصرة قليلا بالنسبة للشرى ومصر والاسلام ، وكان يصح لى ما دمت مقدورا لى ان افح فى هذه « الحفرة السعيدة » ان اتزوج فى الخامسة والعشرين على الاكثر ، ولكننى من الخامسة والعشرين الى الثانية والثلاثين كنت فى ظروف اليمه بسبب مرض آخر افراد اسرتى مرضا خطيرا اقتضى حبنى له واحترامى لذاتى وتقضى لله ان اتفرغ لخدمته والعناية به طول هذه السنوات السبع من ٢٥ - ٣٢ وهى الان فى نظرى خير سنوات الحياة والشباب ، ولكن هكذا كان القدر .

اتعلم على من وقع اختيارى ؟ . لقد انشرت بالنسبة للفتاة التى اوصانى بها هذا القريب (وهو سيده) والتى قالت لى « لقد تبعت هذه الفتاة لتكون زوجة لك » . على كل حال وقعت فى « الفخ » وانا اظن ان هذه الفتاة تهملى أثرا أو عبقا وأمانة من هذا القريب العزيز (وهو سيده كما قلت) وانها وصلت الى عن طريق الوصية التى سمعتها بأذنى ، وأضيف الى ذلك ان البنت أظهرت من الولاء والاخلاص ما جعلنى أعتقد اننى ظفرت بدرة الدهر وبنينة الزمان وهجر الفلاسفة وخاتم سليمان !

كنت فى سنة ١٩٠٤ فى السابعة عشرة من عمري كتبت قصة مصرية « فى وادى الهموم » وذلك فى طفولة الشباب قبل أن أستدير الى العزوبة ، وقد جرى قلمي بوصف الزوجة التى أتمناها ، فكتبت بقلم طفل أننى أريد فتاة مخلصه طيبة القلب تقودنى بيدها البريئة فى دياجير الحياة ، وليس يهمنى جمالها ولا مالها ، بل اننى لا أريدها

(١) هى السيدة الحسبة السمنة نفيسة هاشم محمد فهمى حسن الامامى .

ذات مال بقدر ما تهمنى طيبيتها وإخلاصها وأمانتها ٠٠٠ الخ . طبعاً
هذه آمال طفل وأفكار طفل ونظرة طفل للحياة ، وقد عرفت فى
الحياة وقبل الزواج غير هذا النوع من النساء ، ولكننى حافظت
على حياتى واستقامتى على قدر طاقتى .

ولكن ما قولك أن هذه الآمال وتلك الأفكار بقيت فى قلبى
خمس عشرة سنة كاملة الى أن تزوجت ، وقد شئت المصادفة أن هذه
التي تزوجتها كانت تنطبق عليها معظم هذه الصفات ؟ وقد وقع
فى قلبى مدينتها . أنها ستلد لى أولادا ، ولم أدر كيف يتم هذا الأمر
ولم أفكر مطلقاً فى الزواج ، وهذان الأمران يجب أن أسجلهما
لغرابتهما ، لم أنفر منها عند رؤيتها للمرة الأولى وأحسست أنها
ستكون أم أولاد لى .

لقد كان من أقوى الأسباب الكامنة فى عقلى الباطن التى عجلت
بهذا الزواج كلمة أستاذ لى كنت أحبه وأحترم آراءه وهى « أن قلب
الرجل المحبوب من زوجته أعظم لها وأنفع وأجدى عليها وأبرك من
جامعة عليا تتلقى فيها علوم الدين والدنيا » . وقد فهمت هذه
الكلمات التى تلقيتها عنه وأنا فى الخامسة عشرة بالمعنى الذى
يقصد اليه وأعجبت بها ، ولكن أستاذى هذا وهو المرحوم على فوزى
المتوفى فى الاسكندرية وحيداً منفرداً فى سنة ١٩٣٥ لم يتزوج
وقد طاف أنحاء العالم وكان عالماً أديباً ولم يعلم عنه أحد سوءاً قط ،
وطالما عجبت فى رجولتى كيف أدرك الرجل هذه الحقيقة وهو لم
يمارس الحب على ما كان يظهر منا نحن فريق أصدقائه وتلاميذه ،
ولكن من يدرى ، فلعل حذره كان أكبر من حبه أو عقله أضخم من
عاطفته أو خوفه من المرأة أقوى من انجذابه اليها ، على كل حال
كانت هذه الكلمة ماثلة لذهنى .

فلما انقضت أيام الحد (وقد جعلتها ثمانية أشهر من ديسمبر سنة ١٩١٧ الى سبتمبر سنة ١٩١٨) ، وقبل نهاية الحرب الكبرى وقبل الحركة المعروفة باسم « ثورة ١٩ » بسبعة أشهر ، عقدت زواجى على هذه السيدة الحسبية النسبية نفيسة هانم محمد فهمى الابراشى .

كانت حياتى معها فى الجملة هادئة ، فان الله لم يسمح لاحد من الأقارب أن يكشروا عن أنيابهم أو يستدرجوا السيدة الى حظائر « الغضب الزوجى » أو الاحتجاج ، لأن السيدة نفسها لم تنشأ أن توافقهم ولم تمكنهم ، ولعلها أحست بفطرتها أن مجرد خروجها من بيتها بهذه الفكرة قد يغلقه فى وجهها الى الابد ، فاننى وان كنت لبنا هينا ، الا أننى لا أفهم نظرية « الغضب الزوجى » القائمة على الشجار والفراور والمفاوضات فالصلح فالرضا ! ولا أفهم عقلية الزوج الذى يعبد الى بيته زوجة خرجت منه غاضبة ، فان المرأة الغاضبة لا أمان لها على نفسها .

ويجب على أن أسجل للحق والعدل أن السيدة قد فهمت مبكرة وجهة نظرى وقامت بأعمال ايجابية عقلية وروحية دلت على أنها تشاركنى هذا الرأى وتحرص على رأى وارادتى من هذه الناحية .

واذا نظرت من ناحية أخرى الى حديثها وطريقة فهمها للأشياء والأشخاص ، فما وجدتها تخطئ فى فهمها جميعا فهما جيدا جدا الا نادرا جدا جدا ، مثال ذلك لا تخطئ فى نتيجة خطلة رسمت بواسطة أو بواسطة الغير ، ولا تخطئ فى تحليل حادث بل تجد بسهولة تامة كل حلقة مفقودة ، فأكثر فى حديث أو فى سلسلة وقائع ، فتكمل أخلاق شخص اذا عرفت طرفا منها ، يصدق حكمها دائما فى المسائل الخاصة بالذوق والجمال والحق والعدل .

ولقد فطرت على حب المعرفة والشوق الى الكتب والقراءة والكتابة وان لم أفض ساعات معينة فى كل يوم فى هذا العمل العقلى الهادى ، فلا يستقر لى قرار ولا أستطيع الحياة ، ويجب على أن أقرر أن حياة السيدة وهى لها قد مكنتني من التمتع العقلى الذى أريده مع التغلب بمجهود طفيف على العقبات .

اننى لا أؤمن بالزواج الذى يقوم على الحب ، لأن عمر الحب قصير وعمر الزواج طويل ، فاذا قصر أحدهما عن الآخر انهار البناء ، وهو كذلك ليس زواج مصلحة ، لأننى لم أطمع فيما تملك وإن طمعت هى فيما أملك فمن حقها ، فكان زواجى منها نوعا من التعاون المادى والمعنوى والاشتراك على قطع مراحل الحياة ، وكانت آمالى محصورة فى أن أعمل وأن أرزق أولادا من هذه المرأة بذاتها وأن أعنى بتربيتهم .

لم أكن أعتبر الزواج مقدسا كما ينظر اليه العامة ، ولكنه مقدس فى نظرى بالنسبة لأولادى ، ولأننى لا أحب أن أعتبر المرأة سلعة أو محظية أو أداة للملذات ، فلا بد أن أشعرها أن أولدها أولادا بكرامتها الانسانية وحريتها فى الحياة وحقوقها كزوجة ، ولكنها لم تشترط على أن لا أطلقها أو أن لا أتزوج من سواها ، وهو ما لم يحدث والحمد لله - ولم تحتفظ بهذين الحقين لنفسها وإن كنت عرضت عليها حق الاحتفاظ بعصمتها (أى يكون طلاقها بيدها) عند العقد أمام المأذون والشهود فرفضت .

ان الزواج الشرعى ان لم يكن مضمونا بالاخلاص والصدق والتقدير فلا قيمة له ، وقد كانت السيدة مخلصه وصادقة ومقدرة .

من يوميات سنة ١٩١٧

الأحد ٧ أكتوبر سنة ١٩١٧ . .

تقابلت مع وجيه بك سكرتير الجامعة بناء على طلبه وفأوضني
في تدريس القانون الجنائي وقبولي مبدئيا ووعده بارسال خطاب
مؤيد للاتفاق الشفوي .

الاثنين ٨ أكتوبر . .

" مقابلة صادق فهمي بسكتبه واخباره بما تم في شأن تدريسي
القانون الجنائي في الجامعة .، وقد أفضى الى بحدوث مناقشة في
هذا الموضوع .

الجمعة ١٢ أكتوبر . .

وصول خطاب من الجامعة المصرية مؤيدا للاتفاق الشفوي
ممهودا بامضاء محمد علوي باشا ومقابلة صادق فهمي ليلا والمحادثة
معه في هذا الموضوع ، وارسال رد على هذا الخطاب الى الجامعة
بالقبول .

السبت ٢٠ أكتوبر . .

ألقيت اليوم المدرس الأول على طلبة الحقوق بالجامعة المصرية
من الساعة الرابعة الا ربعا حتى الخامسة الا ربعا .

واننى انتهز هذه الفرصة للتذكير بحضرات الاساتذة الفضلاء الذين سبغوني فى تدريس هذا العلم الجليل وكان لهم القدر المحل وهم المرحوم عمر لطفى بك الذى مارس تدريس القانون الجنائى بمدرسة الحقوق والبوليس ووضع فيه « كتاب الوجيز » ، وحضرة الأستاذ عبد الحميد بدوى بك الذى ألقى فى الجامعة المصرية دروسا نافعة جدا فى القانون الجنائى المقارن ، وحضرة الأستاذ حسن نشأت بك القائم الآن بتدريس تلك المادة لطلاب مدرسة الحقوق السلطانية ، وحضرة حسين رمزى بك القائم بتدريس علم الاجتماع الجنائى بالجامعة ، وقد استفدت من علمهم ومذكراتهم جميعا ولهم فضل السبق والفضل للمتقدم .

ولا أنسى فى هذا المقام فضل أستاذى العلامة جaro الذى تلقيت عنه القانون الجنائى فى مدرسة ليون الجامعة والاقرار بالفضل لذويه من أهم الواجبات ، وأذكر بالثناء حضرات أعضاء مجلس ادارة الجامعة لخدمتهم للعلم وحسن ظنهم بى وحضرات الدكتورين محمد صادق فهمى وعبد السلام ذهنى أستاذى القوانين المدنية والرومانية والادارية بالجامعة لما يبديانه لى من النصائح النافعة ، وحضرة الفاضل محمد وجيه بك سكرتير الجامعة لما قدمه لنا جميعا من المساعدات التى يرجع معظم الفضل اليها فى قيامنا بواجبنا ، وأرجو أن يستنير طلابى بضياء هؤلاء الفطاحل وأن يعدونى واحدا منهم أستفيد مثلهم بالبحث والمناقشة لنستطيع جميعا الوصول الى غايتنا الشرفية والله الموفق :

من يوميات سنة ١٩٢٢

١٢ مايو سنة ١٩٢٢

حديث محمد نافع باشا عضو شورى القوانين عن الشيخ جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده والشيخ محمد درويش (١) :

حدثني محمد نافع باشا بحضور الدكتور فوزى أبو السعود بمصر الجديدة ، قال الباشا المذكور « لقد أدركت الشيخ جمال الدين الأفغانى منذ أكثر من أربعين عاما ، كان الأفغانى وسطا فى جسمه لا طويلا ولا قصيرا ولا بادنا ولا نحيفا ، ولكن كان عريض العظام واسع الهيكل ، وكان وجهه عريضا وله عظام بارزة فى الخدين بروزا واضحا ، وكانت جبهته كنصف هذه المائدة (وأشار إلى منضدة من المرمر) وكان لونه زيتونيا وشعر لحيته أسود ويلبس عمامة عالية وجبة وصديرية وسراويل مثل علماء الأتراك ، وكان يتهادى فى مشيته ويتكلم بغاية الثانى بصوت أقرب الى صوت الشباب من صوت الرجولة ، وكان فى نحو الخمسين من عمره وكانت عيناه واسعتين وحركات وجهه تدل على ما بنفسه ، وكان ساعرا خلابا بلفظه وأسلوب كلامه ونظرائه .

(١) كتب لطفى جمعة مقالا ضمنه هذا الحديث نشره بالبلاغ الأسبوعى « فى ١٣/١/١٩٢٩ وأعيد نشره فى كتاب لطفى جمعه « مباحث فى التاريخ » ، عالم الكتب ، القاهرة . سنة ٢٠٠٠ م .

ولم أكن أعلم شيئاً عن تربيته الخاصة ولا أين يسكن ولا كيف يعيش ، ولكن كنت أراه يأتي كل يوم إلى قهوة متانيا وكانت أوحده وأجمل قهوة بمصر ، فيجلس تحت إحدى قناطرها (البواكي) ويشرب الشاي ويدخن نارجيلة ، وبعد نصف ساعة يحضر نحو مائة شخص فيجلسون حوله ، وأقربهم إليه الشيخ محمد عبده وإبراهيم اللقاني والشيخ حسن الطويل ، وكان إبراهيم الهلباوي يحضر وهو يلبس عمامة . وكان الشيخ جمال الدين يبدأ يتكلم من حوله فيلقى محاضرة أو درسا ، ولم أكن في ذلك الوقت أفهم شيئاً مما يقول ولكن أدرك أنه لو كتب كاتب كل ما كان يلقبه لخرج كتاباً جسيماً .

وكان أعيان مصر وذواتها يتهافتون عليه ويتقربون منه ويتشرفون بمعرفته مثل ثابت باشا وغيره .

وكان الشيخ في كلامه يحض على الثورة والضيان ضد المظالم ويظعن على استبداد اسماعيل باشا ويهيج أفكار المصريين . وقد أتيج له أن يلقي دروساً في الأزهر الشريف فحدث عليها أقبال شديد ، ثم أن الوزير رياض باشا منعه من الاستمرار ، ولما استغفر أمره سفروه ليلاً إلى السويس .

كان الشيخ جمال الدين طروباً ويحب مجالس الأئس ويتكلم باللغة العربية في كل مكان . حضرته مرة في حفلة غناء حيث كانت تغنى ألحان الشهيرة وكانت عادة تغنى دوراً وتستريح ، فيقف « مطيب » لها اسمه حسن الصدفجي وكان مهرجاً ، وكان الشيخ قد طرب ليلة فوضع يده على جبينه ثم انقطع الغناء وبدأ حسن الصدفجي يهرج ، فنهض الشيخ جمال وقال : يا حسن يا صدفجي . فقال له الصدفجي بصوت ولهجة الهازي « نعم يا صيدى ! » فقال له : من تحب أكثر ؟ فأجاب الصدفجي : امرأتى . فضحك الشيخ وقال : أقصد من من أولياء الله . قال : سيدنا الحسين .

فقال الشيخ : حلفت عليك به أن تبطل التهريج والمسخرة ، فاما غناء باستمرار واما سكوت تام الى أن تعود الست الى الغناء . وعند ذلك صار الناس يهمسون باسمه وينهون المطيب عن الاستمرار في لهوه اكراما للشيخ .

ثم قال نافع باشا « ويغلب على ظني أن الشيخ حضر الى مصر مرتين وأقام في كل مرة مدة طويلة ولولا ذلك ما أمكن تلاميذه أن يتفقهوا عليه ، فقد اقتضى تفقهم مدة حسنة .

وقد أشأ الشيخ جريد « القاهرة الحرة لا انفصام لها » ، فصححت له تقصد « العروة الوثقى » . قال نعم وأيضا أنشأ القاهرة الحرة ، وأظن أن سبب الاقبال على الشيخ جمال وعظم تقديره بواسطة المصريين في زمنه أنه كان منفردا بعلمه وكان علمه واسعا بالنسبة لأهل زمنه ، وكان المصريون في غاية الجهل ، فكانوا يكتبون « بمشيقة الله سيمر الباشا لتفاد الأحوال » يقصدون « بمشيقة الله سيمر الباشا لتفقد الأحوال » ، وأن بضعة النبهاء الذين كانوا في البلد كانوا متعطشين لعالم مثله ، وأظن أنه لولا حضوره وزيارته مصر ما كان أحد يظهر ممن ظهروا بعد ذلك بالفكر وسعة العلم كالشيخ محمد عبده وأصحابه وتلاميذه .

ثم قال نافع باشا « وكانت عقيدته غير الاسلام الصريح ، Athée وعلى هذا كان أتباعه فيما أظن وان كان يتظاهر به (١) .

ثم استطرد الباشا الى وصف الشيخ محمد عبده فقال :

« كنت أراه في صباه اذ كان يحضر مجالس الشيخ جمال الدين ، فكان في مقتبل العمر وعليه علامات الذكاء الخارق

(١) هكذا سجل لطفى جمعة نقلا عن محمد نافع باشا .

والهيبة والجلال بالرغم من شبابه ، وكان أقرب المقربين للشيخ ،
 وكان يسميه اسما خاصا كانى به « روح الجماعة » أو « عقل
 الحلقة » أو ما أشبهه •

ثم استطرد نافع باشا الى وصفه اذ كان عضوا فى مجلس
 شورى القوانين حيث كان نافع نفسه عضوا فقال :

« لقد أوجد الشيخ محمد عبده فى المجلس لنفسه مركزا
 ممتازا ، فكان يدخل قاعة المجلس وعلى عينية نظارة وحول رقبتـه
 فرو وفى يده قفاز والآخرى خلو من قفاز وفيها سيجار كبير من طباق
 « هافانا » ، وفى يده عادة شئ يقرؤه ويستمر فى قراءته الى أن
 يصل الى وسط الغرفة فيقف له جميع الأعضاء ويتهافتون عليه
 لتحيته ، فيلمس اكفهم المبسوطة بأطراف بنانه ، وكانت مقابلتهم له
 أشبه بمقابلتهم للخويو وقد تكون أميز •

ثم استطرد الباشا الى ذكر قصة مدارها احتقار الشيخ
 محمد عبده لطلبة باشا سعوى وقال ان الشيخ رحمه الله كان يتصنع
 الكبرياء وكانت هذه الصفة مكروهة فيه ، ويظهر أنه كان يتكبر
 على بعض الناس ويتلطف مع البعض •

ثم وصف نافع باشا زيارته للشيخ فى مرض الموت فى بيته
 بعين شمس فقال انه كان مجلس علم وكان يخاطب زائرا أزهريا
 نجيبا فى مسألة علمية مدارها تحرى النبى فى أمور وتطبيق قواعد
 العلم عليها دون الاكتفاء بالدعاء أو الصلاة • وكانت ابنته الصغيرة
 تحمل له وردا من الحديقة وقد أجلسها بجواره فى السرير •

ثم تحدث نافع باشا عن الشيخ محمد درويش شريك الجبرتى
 فى تحرير التاريخ المشهور فقال « كان يوجد رجل شهير اسمه

محمد بك سيد أحمد والد أمين باشا سيد أحمد وكان يشغل منصباً مهماً في الحكومة ، وكان فوق ذلك مشغولاً بالعلوم والآداب ، فعلم بوجود رجس عالم فى بلدنا دمديط وكان شريك الشيخ الجبرتي أو تلميذه أو كاتب يده فى تأليف كتابه ، فأراد الاستعلام منه عن مسألة معينة وردت فى التاريخ المذكور ، فحضر الى بلدنا والى منزلنا فأحتفينا به وطلب مقابلة الشيخ محمد درويش ، وكان الشيخ المذكور يسكن فى حارة معروفة باسمه وكان رقيق الحال جداً شبيمة العلماء ، فلما علمت بقصد البيك ، قلت له : ان الشيخ يحضر الى هنا . فقال البيك : كلا لابه من ذهابى اليه . وأنا قلت ذلك لعلمى برقة حال الشيخ وكون بيته خالياً من مظاهر الغنى ، فملاً أرسلت حالاً بعض الخدم بسجاجيد وطنافس ففرسوها فى بيت الشيخ . وبعد قليل قمنا اليه ، وكان الشيخ عبارة عن قصص عظام ولكنه كان يستطيع النظر والقراءة الى آخر عمره ، وكانت سنة اذ ذاك ١٢٠ سنة وكان لا يدخن ولا يفرط فى شىء ، فلما دنونا وضع يده على جبهته لتظليل نظره ، ثم سأل عن البيك وقال له أنا أسمع أنك محب للعلم ومشتغل به ، وربت عليه ودعا له . ثم سأل البيك عن النقطة التاريخية المطلوبة ، فرواها له الشيخ وقال له : اننا كتبناها أولاً على الصورة الفلانية وهى الحقيقية ، ولكن الباشا (يقصد محمد على باشا) أرسل الى الشيخ فى بيته فى شبرا وطلب منه أن تكتب العبارة الفلانية وغيرها على صورة مخالفة للحقيقة وموافقة لهوى الباشا ففعل .

ثم قال نافع باشا « واننى لا أتذكر ولم أكن أدرك المسألة المذكورة . ثم انصرف البيك بعد أن قبل يد الشيخ لدى القُدوم ولدى الانصراف .

الاثنين ٣ يوليو سنة ١٩٢٢ ٠٠

● وفاة فرح انطون

فى الساعة السابعة صباح اليوم طرق بابى طارق من طرف
أجرخانة قيعانى بمصر الجديدة وأخبرنى أن « أنطون فرح » قد مات ،
فأدركت للحال أنه يقصد صديقى القديم « فرح أنطون » المريض
فى منزله منذ شهرين بتصلب فى شرايين القلب . وعند الساعة
الثالثة بعد الظهر قصدت منزله الذى هو فى الواقع منزل صهره
نقولا حداد بشبرا أمام المدرسة التوفيقية ، وقد صحبني بعض
الطريق صحافى مصرى اسمه « توفيق حبيب » ، فوجدت فى قهوة
صغيرة أمام المنزل فئه لا تزيد على عشرة أشخاص بينهم من الكتاب
خليل مطران ، وعلمت أن فريقا من الأصدقاء قد صعد الى شقة
المتوفى وهى فى الطيفه الرابعه - فلم أستطع الصعود للسنة
تأثرى .

وتكلم الجماعة عن وفيات الأدباء فذكر خليل مطران وفاة
جرجى زيدان فقال انه سمع نعيه ليلا من امرأة خرجت تشق جوف
الليل بصراخها وشرفة منزله وقال انه تألم لما أبفى أهله هذا المسكين
ليلة بطولها بغير دفن مندفعين وراء وهم حياته الذى وضعه فى رأسه
حسين همت أحد الأطباء الشبان ، ثم ظهر فساد زعمه .

وقال خليل مطران انه لا يرهب الموت وأنه رأى خمسين وفاة
وأن أشنع الموت موت الطبيب اللبيب ، فانه يعلم سير المرض ويراء
فى نفسه (أقول وقد وضع بول بوجيه هذه الفكرة فى كتاب
Les Deux Sources .

واننا لذلك نتحدث اذا بشخص من الجالسين خارج القهوة
يقول لنا : هذه جنازة عبد الحليم المصرى الشاعر سائرة . فذعرا

جميعا لعدم علمنا بوفاته ولغرابه هذه المصادفة المؤلمة . وفعلنا خرجنا
فرائنا أشخاصا وثقنا برؤيتهم من صحة الخبر مثل محمود باشا
شكري وبعض موظفي البلاط ، فسرنا في الجنازة مشيعين الى نصف
الطريق ثم عدنا ، وكانت جنازة فرح قد استعدت وكان عدد المشيعين
ضئيلا جدا وبينهم من الأدباء الشيخ رشيد رضا ووحيد بك الأيوبي
وخليل مطران وإبراهيم سليم النجار وداوود بركات وبعض أفراد
أسرته ، ولم أجد أحدا ممن له علاقة بالتمثيل سوى محمود جبر
وسليم أبيض ومنسى فهمي ، وكنت من حملة بساط الرحمة .

ولما ركبنا المركبات نضال العدد جدا ، فكنا في الكنيسة عند
الصلاة عليه لا نزيد على عشرة أشخاص وفينا أقاربه وأختاه وكان
منظرهما وهما تسيران خلف النعش يفتت الأكباد حقا ، وقد
صلى عليه في الكنيسة ، وأخبرني سليم أبيض أنه كان معه لليلة
العاشرة من مساء الأحد أى قبل موته بست ساعات وكان يكلمه
ويضحك ، وكان محمود جبر أشد الحاضرين بكاء وتأثرا .

ولما نقل الى المدفن حاول جماعة الدفانين تغطية الصندوق
بسرعة ، فاستوقفتهم ورثيته بتأثر شديد (١) ٠٠ ثم غطوه ونقلوه
الى حفرة وأهالوا التراب عليه الى الأبد وسألت جماعة عن المدة التي
يبقى فيها الصندوق فقالوا ثلاث سنين على الأكثر .

وفي العودة قال لي إبراهيم النجار ان عمر فرح كان خمسين عاما
وأن سبب موته حياة الفلاكة وعدم التنظيم في معيشته ، وأن التي
قضت عليه في الواقع امرأة أرمنية عرفها في سنة ١٩١٣ فأجهد

(١) نشرت هذه المروية تحت عنوان « كلمة الموداع الأخير » بمجلة الرجال
والسيدات ، عدد يولييه سنة ١٩٢٢ . وأعيد نشرها في كتاب لطفي جمعه « قطرة
من مداد لاعلام المتعاصرين والأنداد » ، ص ٢١٣ - ٢٣١ .

نفسه فى حبها خمرا وغراما وأنها كانت تستحوذ على كل ربحه من التآليف ثم تركته وعشقت ضابطا أجنبيا وكان هذا سبب هلاكه .

١١ يولية سنة ١٩٢٢

حفلة احياء ذكرى الشيخ محمد عبده بالجامعة المصرية فى ١١ يوليوس سنة ١٩٢٢ : كان المكان غاصا به جماهير الأزهرين وبعده قليل من ذوى الشأن لتقدم موسم الصيف وخلو القاهرة من الكبراء ، وكانت اللجنة مجتمعة حول مائدة خضراء وهى مكونة من الشيخ بخيت رئيسا ومن أعضاء أمنال الشيخ عبد الرحيم دمرداش باشا (صاحب الفضيلة والارشاد) وحنا بك باخوم والشيخ الدكتور الأستاذ طه حسين والشيخ زكلاوى وأحمد لطفى السيد وثلاثة أو أربعة على شاكلة هؤلاء السادة .

وخطب الشيخ بخيت من ورقة قرأها فقال ان الشيخ محمد عبده لم يكن له مثيل ولم يعقب ولم يخلف أحدا ، وكانت الناس تهمس بما كان بينهما من الحزازات وما اتهم به هذا الشيخ أخبرا من انتحال مقالة برمتها من مؤلفات الشيخ عبده .

ثم تلاه أحمد لطفى السيد وكانت تبدو عليه الكتابة والمرض وتكلم بصوت خافت من وراء نظارته فقال ان الشيخ محمد عبده عاش ومات فى سبيل الانسانية .

ثم تلاه الشيخ مصطفى عبد الرازق فألقى محاضرة سبق أن ألقاها فى ست جلسات فى جامعة الشعب منذ خمس سنين ، وقال فيها اليوم هذه المرة ان الشيخ عبده كان ضد حرية الاجتماع وحرية الكتابة والخطابة (!!) ، فذعر الحاضرون ، ثم عاد وقال انه كان

من أنصار حرية الفكر. وأغفل الجانب السياسي من حياة الرجل ،
وكان كلما وصل إلى نبذة ذات شأن خفت صوته كأنه فتاة مخطوبة
ونزل من المنبر مثل انطفاء السراج الضئيل .

ثم تلاه منصور فهمي فقرأ من ورقة وقال انه في عنقوان شبابه
رأى رجلا شاييا (كذا) فقيل له هذا الشيخ محمد عبده ، وسمع
الناس يقول انه عالم ومصلح وعظيم ثم مات . مع أن منصور لم يكن
اذ ذاك يدرك معنى العلم والاصلاح والعظمة ، وتعالى في القاعة صوت
يسمى : كم كان عمرك ؟ ثم خلط في الكلام عن العظمة ونزل من
المنبر وقد حزن جدا لخطبته .

ثم صعد الشيخ زكلاوى وقال ان اللجنة المحترمة منعتة .
الكلام ولكن الحظ ساعده وصعد على المنبر ، ثم تكلم على الاكاديمية
والاقلية بعبارات مبهمه ثم نزل .

وتكلم الشيخ رشيد رضا بلهجة سورية كلام من لم يستعد
لموضوعه ، فقال ان ابراهيم باشا نجيب قال له ان الشيخ عبده
سيعرف قدره بعد ثمانين سنة (كذا) فصفق له واحد فقط وهو
الياس شحاته صاحب مخزن نيويورك لبيع الاحذية ، ثم قال الشيخ
رشيد ان مختار باشا الغازي - وكان عالما جدا (كذا) - قال ان
دماغ الشيخ عبده لو وزن (٩٩) لكان أعظم من دماغ بيسمارك
بل أثقل من كل جمجمة في الأزمان القديمة والحديثة (!!) ، ثم
قال ان الشيخ عبده قال له لو وجد في مصر مائة رجل لثالت كما
أمانها ، وأن الدكتور يعقوب صروف قال ان الشيخ عبده امام
لأنصارى ولبس للمسلمين فقط (كذا) .

ثم صعد حافظ ابراهيم وألقى قصيدة كان نظمها رثاء
لحفيظي ناصف وهي قصيدة بائنة ثم حورها وحذف منها وأضاف إليها

بصفة ظاهرة ، فكان ذكر حفنى وذكر حافظ أول وآخر ما أُورِدَ
فى القصيدة ولم يذكر الشيخ محمد عبده الا مرة واحدة فقال واحد
من الحاضرين هذه قصيدة « روباياكيا » !

وانتهت الحفلة .

وقد نشر الشيخ الكاظمى قصيدة فى المآظم جميلة جدا ، منها :

يثرى الفقير بعلمه	والصدر كنز متفـل
ولربما عاد الغنى	لجهله يتسول
ويرى القنوع من الهنا	مالا يرى المتمول
لا شيء أفضل من يد	لهدى البرية تعمل
الذل ذل بدلوا	فى شكله أم عدلوا
فالى الأمانى أمة	عن جدها لا تعدل
والى النجاة سفينة	ربانها لا يغفل

وهذه القصيدة وحدها أفضل فى نظرى من الاجتفال الذى
كانت عليه مسحة من السخافة والنفاق والابتذال .

ووصف لى محمد بك فهمى حسين مجلس الشيخ محمد عبده
فى مصر فى أواخر القرن التاسع عشر حوالى سنة ١٨٩٦ فقال :

« كان ستة أشخاص يجتمعون معا دائما فى كل يوم ، الشيخ
محمد عبده وحسن باشا عاصم وقاسم أمين وسعد زغلول وفتحي

زغلول وكان رشيد رضا يحضر مجلسهم ولكن نادرا ، ولم يكن له شأن كبير .

كان الشيخ عبده ماهرا فى اللغة العربية وآدابها وكان يقرأ كثيرا من الكتب الفرنسية فى القانون والفلسفة ، وكان يحب المناقشة ويجيد الفرنسية ويقارن بين آداب العربية والفرنسية ، ولذلك كان يمتاز على قاسم الذى كان ضعيفا فى العربية ، وكان الشيخ عبده يدرس الأديان ويقارن بينها وفى الواقع كان متحررا جدا ولكنه كان يخفى ذلك وكان يرمى بدرسه وسياحاته الى أن يظهر اسمه وتعظم شهرته ثم يبدأ فى عمل غايته وهى جعل الدين الاسلامى موافقا لروح هذا العصر .

وكان قاسم أمين عمدة المجلس فى تفسير القوانين وهو مدين بالتشيع الكثير فى تحرير المرأة لهذه الجمعية ، ولذلك أهدى كتابه لسعد زغلول ولم يشأ أن يهديه للشيخ محمد عبده خوفا على نفوذه الدينى من العوار .

ولم يكن لأحد من هؤلاء الستة امتياز على الآخر ، ولكن لكل واحد منهم ميزة اختص بها ، فالشيخ عبده امتاز بسعة العلم والجمع بين آداب العرب والافرنج والأديان المقارنة وحرية الفكر ، وسعد زغلول بقوة الحجج وشدة المعارضة والحدق فى المناقشة ، وقاسم أمين بالمهارة فى تفسير القانون والأمور الفلسفية .

أعود الى حفل تأبين المرحوم الشيخ محمد عبده ، فقد بادرت الى مراسلة لجنة احياء ذكرى الامام بعد سبعة عشر عاما من موته وطلبت منها أن تتيج لى فرصة للتعبير عن عواطف احترامى وتقديرى واعجابى بأستاذى المرحوم ، وقد كنت أقرب اليه بالفكر والعقيدة

والمبادئ من كثيرين ممن دعوا الى هذه الحفلة ، ومهما يكن الخلاف السياسي بيني وبين الذين قاموا بهذه الحفلة ، فلم أكن أظن أنهم يفكرون في حرمانى أنا وغيرى من مريدى الأستاذ وتلاميذه من اظهار عواطفنا نحوه فى تلك الذكرى .

ولاجل هذا بادرت فى يوم ٨ يوليو سنة ١٩٢٢ بالكتابة الى صاحب الفضيلة الشيخ محمد بخيت أخبره بعزمى على تابين الأستاذ ، فتفضل حضرته وأجابنى بالكتاب الآتى :

الخرنفس فى ١١ يوليو سنة ١٩٢٢

حضرة ولدنا محمد لطفى جمعه

بعد اهداء السلام ، لقد استلجمت خطابك بيد السرور وعلمت ما فيه ، وانى لا أرى مانعا من أن تكون بين الخطباء خصوصا لما أعلمه من أنك مجيد عظيم ، غير أن مدة الحفلة ستكون ساعتين فقط فأرجوك أن تقابل الشيخ مصطفى عبد الرازق لكى تقسموا هذا الوقت على الخطباء ، ومع ذلك يمكنك أن تلقى كلمة وجيزة وفيّة بقدر الامكان وانى ممنون ومتشكر لهذه الصدفة التى جعلتك تخاطبى ، فانى أود أن تدمر العلاقة بينى وبين أولادنا النجباء أمثالك . واقبلوا فائق الاحترام . محمد بخيت .

فبادرت بالكتابة الى صديقى الفاضل السيد مصطفى عبد الرازق وأرسلت اليه صورة من نص كلمتى وكانت لا تستغرق أكثر من عشر دقائق لأننى اعتقد أن الخطيب الذى لا يستطيع أن يقول فى عشر دقائق ما يجب أن يقال ، فخير له الا يقول .

وانتظرت رد فضيلة السيد مصطفى عبد الرازق على خطابي ،
وبعد أيام ورد الى الجواب الآتي :

حضرة الأستاذ لطفى جمعه

قررت لجنة الاحتفال باحياء ذكرى الأستاذ الامام الشيخ
محمد عبده أن تشكر لحضرتكم ما تفضلتم به من اظهار الرغبة في
القاء كلمة بالحفلة ، ولقد كانت اللجنة حريصة على أن تجيب رغبتكم
النبيلة لولا أن اضطررها ضيق الوقت الى الاقتصار على عدد من الخطباء
محدود جدا لم يتسع لكثير من أصدقاء الامام وتلاميذه وأنصاره الذين
كانوا يودون أن تكمنهم الفرص من القاء شيء في الاحتفال .

واللجنة مع اعتذارها لحضرتكم ترجو أن لا يحرم الجمهور من
تلاوة مقالكم في المجموعة التي ستنتشر متضمنة ما يلقي في الحفلة
وما يختار من المقالات والقصائد التي ترد الى اللجنة .

وتفضلوا بقبول تحياتي الخالصة واحترامي .

مصطفى عبد الرازق

فلما وصل الى خطاب السيد مصطفى عبد الرازق عجزت
كثيرا ، ووقفت على الحقيقة وهي أن هناك أوامر معينة أو خطة
مرسومة تقضى ألا يخطب في هذا الاحتفال أى انسان لا يتفق
مع لطفى السيد في السياسة والمبدأ ، وكان اذا ورد أمامه اسم
شخص معين لا يحبه هو أو لا يريد خطابته - يقول « ما علينا
بأشيخ بقى احنا قاعدين علشان نظهر خطباهم على خطابانا !! » .

ومع ذلك حضرت الاحتفال ، وسمعنا فى تلك الحفلة المعجب والمطرب ، فقد خطب أحدهم وقال « ان الشيخ محمد عبده كان عظيما جدا ٠٠ رجل عظيم (كذا) ٠٠٠ » .

وبعد نهاية الحفلة أرسلت الخطاب الآتى الى صديقى السيد مصطفى عبد الرازق :

سيدي الأستاذ الجليل صاحب الفضيلة والكمال مصطفى عبد الرازق حفظه الله .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد ، فقد تسلمت بيد السرور خطاب فضيلتكم المؤرخ ٩ يوليو سنة ١٩٢٢ وقد علمت منه أن لجنة الاحتفال باحياء ذكرى الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده تعتذر عن اجابة ملتقى لضيق الوقت .

وعلى الرغم من أننى لم أدع الى الحفلة برقصة كغيرى من خلق الله ٠٠ فان حبى لاحياء ذكرى الأستاذ الامام دفعنى الى حضور الحفلة بغير دعوة ، فاعذر يا سيدي الأستاذ الأجل هذا الاندفاع منى فى سبيل العلم والأدب ، وكان من حسن بختى أن حظيت بسماع الخطباء ، فحمدت الله الذى ألهمكم فكرة عدم اجابة رغبتى الطائشة، فأين كان يذهب الضعيف كاتب هذه الأسطر بين هؤلاء الفطاحل الذين اعتلوا منبر الخطابة وفى أية سوق كنت أعرض بضاعتى الضئيلة ، وقد جعلتم من الحفلة ثكاطا أخرى ٠٠ اننى أؤكد لسيدي الأستاذ أننى حقا استفدت أولا وطربت ثانيا وحمدت الله ثالثا .

هذا واننى يا سيدي الأستاذ أقسم لك بقبر الأستاذ الامام الأبر اننى لم أظهر رغبتى فى الخطابة حبا بها أو سعيًا وراء شهرة

استفيدةا أو استشفاء من داء الكلام الذى أصيب به بعض الناس فى هذه الأيام ، ولكن كان ذلك قيما بواجبى واعترافا بجميل ، فقد تشرفت بمعرفة الشيخ محمد عبده فى سنة ١٩٠٢ ولدى منه رسائل شتى ، وكان مرشدى ومعينى فى التعليم ببيروت فى سنة ١٩٠٣ وبعلم ذلك جيدا كل من السيد محيى الدين حمادة والشيخ رشيد رضا ، ورثيته يوم ١٥ يوليو سنة ١٩٠٥ فى محفل كبير وفى جمعية النشأة الحديثة بالقاهرة وبعد أن اشتركت فى تشييع الجنازة فى الشجر وفى مصر ، وحفلة التأبين المذكورة مشبته فى الصحف فانظر يا سيدى الى عجائب الدهر التى جعلتنى فى العشرين من عمرى كفؤا لتأبين هذا الرجل العظيم والاشتراك فى تكريمه ، وحرمتنى هذه النعمة اذ شارفت على الأربعين ! • حقا ان فى ذلك لعبرة لمن يتأمل • • »

وبقيت بعد ذلك أفكر فى تنظيم الاضطهاد الذى أتقنه جماعة من المصريين أو « Clique » أى « شلة » معينة سواء أكان ذلك فى السياسة أم فى الأدب ، واننى أعتبر هذا العمل مضرا بالمجتمع ضرا بليغا ، فقد ظهر أن الخطباء الذين خطبوا فى الحفلة - ما عدا صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق المؤرخ الفاضل والكاتب البليغ والمفكر الصادق - كانوا كلهم خطباء ضرورة ، تغتم نفس الشيخ محمد عبده لو سمعهم حيا وميتا ، ولا سيما ذلك الذى قال انه عرف الشيخ من ظهره وقيل له انه الشيخ محمد عبده !! •

اذن لم يكن منعى لتقديم فطاحل الخطباء ولا لتفضيل علماء مصر على غيرهم ، ولكن لمجرد عدم انتمائى الى هذه « الشلة » سياسيا ولا عقليا ولا أخلاقيا ، وقد انفضحت هذه الشلة الآن تماما وظهر أنهم جماعة من الوصوليين ودعاة الهزيمة والاندحار وفريق من المغامرين فى السياسة والأدب •

ثم علمت أن لجنة قد تالفت في الاسكندرية لتأبين الشيخ ،
فبادرت بالكتابة اليها وبادرت اللجنة بدعوتي ، لأنه لم يكن بين
أعضائها دسائسون ولا مرءون ولا متنطعون مدعون .

وأرسل الى صديقي الدكتور الأستاذ مرسى محمود المحامى
الخطاب الآتى :

الاسكندرية فى ١٢ يوليو

عزيزى لطفى

سلاما وشوقا ، وبعد فقد وزعت لجنة الاحتفال بذكرى الشيخ
محمد عبده المواضيع على الخطباء وخصصتكم بموضوع دقيق ألا وهو
التكلم عن الأستاذ الامام كمصلح للقضاء ، وهو موضوع يتناول
البحث فى المشروعات اصلاحية كالمحاكم الشرعية وماذا كان يريد
بها الشيخ رحمه الله ، وكيف أنه فى الواقع لامس مسألة من أدق
المسائل الحيوية ، ولو تم كل أو أكثر ما فكر فيه ، لما شكنا الناس
هذه الشكوى التى نسمعها كل يوم .

سيكون الاحتفال بتياترو الحمراء يوم الاثنين ١٧ يوليو
سنة ١٩٢٢ .

واليك تحيتى وحبى .

وكان الاحتفال فخما وبين أعضاء اللجنة صاحب الدولة
محمد سعيد باشا وعرفان باشا وسليمان بك يسرى وكل قضاة
البلد الأهليين والشرعيين ومحاميهـا وأساتذتها وبعض رجال
النيابة .

وانتهت الحفلة في الساعة التاسعة مساءً بعد أن دامت أربع ساعات وقضيت وقتاً سعيداً في بيت صديقي سليمان يسرى بك وعدت الى القاهرة في قطار الصباح بعد أن أدت ديني للأستاذ الراحل (١) .

● ٣ أغسطس سنة ١٩٢٢ :

حديث حافظ جلال ابن عثمان جلال صاحب « العيوان اليواظ » :

قابلت اليوم حافظ جلال ابن المرحوم عثمان جلال صاحب كتاب « العيوان اليواظ » وهو أسمر اللون بادن جداً في نصف العقد الثامن ، بيضاوى الوجه لامع البشرة مقسم التقاطيع لطيف العشرة . كان فيما مضى يركب طول يومه فرساً زرقاء وقال انه ركب أيضاً هجيناً وحماراً ، وفي دمه على ما سمعت منه جرثومة « الخيالة » ، وقد تعلم الطب وأخذ فيه شهادة وربما كان ذلك من أكثر من خمسين سنة ولا يعرف لغة أجنبية ، وقد ترك الطب الحديث وتعلق بالطب القديم ، فهو يجمع الكتب المخطوطة ويطب من يحتاج الى علمه العتيق بوصفات من تلك الكتب التي لا يعتبرها عقيمة ، ورأيته يضع الكحل في أعين المرمودين في قهوة عامة ويقول انه « الاثم » الذي كانت تستعمله زرقاء اليمامة ، وقال انه يعالج الفالج وضعف الباه وسائر الأمراض من كتاب طب قديم سرقه الجن من سيدنا سليمان وعثر هو عليه في تل بوبسطة بين لوحين من الخشب مسمرين !!

(١) سجل لطفى جمعة ما جاء بهذه المذكرات عن الاحتفال بذكرى الشيخ محمد عبده في مقال له عنوانه « كيف حرمت من تأبين الشيخ محمد عبده في القاهرة ، وكيف وصلت الى غايتي في مدينة الاسكندرية » نشر بصحيفة البلاغ الأسبوعي في ٣٠ أبريل سنة ١٩٣٠ .

وتكلم عن كتبه التي في منزله ، فقال ان كلها مخطوطة وأنها موضوعة في صناديق « سخارات » وأنه فقد كتباً ذات شأن عظيم ، منها كتاب في الجفر أنبأ بحاضر مصر ومستقبلها وبه شمس المعارف بخط السلطان محمود وفيها الاسم الأعظم الذي كتب بأحرف من نور في خلوة مظلمة كان يتعبد فيها الامام على رضى الله عنه ، وقد أخذ هذا الكتاب أبو شادى بك المحامى مقابل دفاعه عن سعيد ابن الدكتور حافظ جلال في قضية جنائية ، ثم أخذه من أبى شادى الشيخ القاوقجى الصغير . والكتاب الثانى اسمه « المسكر » عن ظهور الامام المهدي من الشرق الاقصى ووصف حاله وحربه ووصف خور عزيمة الجيش الذى يحاربه وضعف همتهم وكيفية انهزامه أمام الامام المنتظر وقد أخذه أحد علماء الأزهر من منزله .

ثم تكلم الدكتور حافظ عن نفسه فقال انه يعيش الآن بعيداً عن الست الوالدة وقال ان عمرها مائة وعشرة سنين وأنها أخفت جميع مخلفات المرحوم والده واستأثرت بكل فائدة مادية أو أدبية تركها الشاعر الهزلى الشهير الذى ترجم مولير وبرناردين سان بيير ، وقال انه شفى بكحله سائلاً ضريراً فأبصر ، فباع من هذا الكحل بائنين وثلاثين جنيهاً . وقال ان والده كلف مؤنس الخطاط الشهير بكتابة هذين البيتين فى لوح محفوظ فى بيته الى يومنا هذا ، وهما من نظم والده :

وبلدة من ملل جمعت لا ينتظم حالها ولا تستقيم

كأمرأة ما أحصنت فرجها فهى على مر الليالى عقيم

والنكتة عند الدكتور حافظ عادية أقرب الى السوقية منها الى
نكتة الخاصة ، ومعظم ما يضحك من قوله خاص بالعلاقة الجنسية ،
وهو كاهل الأمم السالفة يعيشون في الجيل الحاضر مثل
« بيك فان وينكل » Pik Van Winkle ، وقد أعتنى بتربيته
أولاده فخرج أحدهم ابراهيم جلال قاضيا ومؤلفا ألف رواية العمدة
وغيرها •

من يوميات سنة ١٩٢٦

الاثنين ٢٠ فبراير سنة ١٩٢٦

— قابلت اليوم فؤاد صروف بالمقتطف وسلمته مقالة عن
العبقرية فوعد بنشرها في العدد الذي يظهر في أواخر مارس (١) .

السبت ٣ مارس سنة ١٩٢٦ .

— أرسلت خطابا للجنة النشر والترجمة بشأن طبع كتابين
من كتبي .

٢٨ أبريل سنة ١٩٢٦

قرأت كتاب « الابريز » لعبد العزيز الدباغ في حداثق
روض الفرج وهو كتاب عجيب مكتوب على طريقة غريبة وأقواله
صحيحة فأحدث لى أثرا حسنا وكانت قراءتى له فى صيف سنة
١٩٢٥ وهو من الكتب المهمة التى يجب أن تقرأ بامعان شل كتاب
« اللمع » و « عوارف المعارف » و « الرسالة القشيرية » .

ومما لفت نظرى فى هذا الكتاب كلام لطيف عن الفرق بين
الحديث القدسى والحديث الشريف والقرآن الكريم .

(١) عنوان المقال « كلام فى العبقرية » ، مجلة المقتطف ، مجلد ٦٠ (سنة
١٩٢٦) ، ص ٢٤٣ ، ٢٣٣ .

نوفمبر سنة ١٩٢٦

● كتاب الشهاب الراصد في الرد على كتاب الدكتور طه حسين « في الشعر الجاهلي » :

في شهر يونية سنة ١٩٢٦ حضر الى وفد من علماء الأزهر ومنهم يوسف الدجوى والشيخ مفتاح رئيس الوعظ (١) والخضر حسين وغيرهم وعرضوا على مبلغ خمسين جنيها لرفع دعوى على الدكتور طه حسين لما كتبه في كتاب الشعر الجاهلي ، وعرضوا على الكتاب فرفضت الآتعاب وصممت على تأليف كتاب في الرد على طه حسين وكان نتيجة هذا هو كتاب الشهاب الراصد الذي نشر في ١٥ نوفمبر سنة ١٩٢٦ .

(١) ولد الشيخ عبد ربه مفتاح باحدى قرى مركز اطسا محافظة الفيوم ثم التحق بمعهد القاهرة الدينى واكمل تعليمه بالأزهر ، وعندما تخرج عين اماما بالآوقاف ، ولما انشئ قسم الوعظ والارشاد بالأزهر سنة ١٩٢٨ عين مفتشا عاما له فنهض به نهضة واسعة ، وحمل الوعاظ مسئولية نشر الدعوة الاسلامية والثقافة والمعرفة بين الناس ومحاربة البدع والانحرافات وتقييم السلوك الاجتماعى ومحاربة الجريمة ، وقام الشيخ مفتاح بتأسيس مجلة « نور الاسلام » لتكون لسان علماء الوعظ والارشاد وعندما اصدر طه حسين كتابه « في الشعر الجاهلي » تصدى الشيخ مفتاح لتفنيد ، لا يخشى فى الحق لومة لائم ، معتصما بعزة نفسه وكرامته ، كما تكون مع لفيف من العلماء والادباء جمعية ادبية اطلق عليها اسم « اخوان الصفا » وجعل من بيته مقرا لها . وقد توفى الشيخ مفتاح سنة ١٩٣٨ .

(٢) للوقوف على مزيد من المعلومات عن الشيخ عبد ربه مفتاح ، راجع مجلة الأزهر ، عدد ابريل سنة ١٩٩٢ ، س ٦٤ ، ج ١٠ ، ص ١٢٣٠ - ١٢٣٣ . وعن نقد لطفى جمعة لكتاب طه حسين « في الشعر الجاهلي » راجع كتاب الأستاذ أحمد حسن الطماوى « محمد لطفى جمعة فى موكب الحياة والادب » ، مكتبة عالم الكتب ، سنة ١٩٩٢ ، ص ٣٥٩ - ص ٣٧٨ () .

ديسمبر سنة ١٩٢٦

تدور في ذهني فكرة مشروع كتاب عن المحاماة أتكلم فيه على
تذكراتي الشخصية عن هذه المهنة الشريفة وأتناول بعض مشاهير
المحامين والقضاة الذين عرفتهم ، وأتحدث فيه عن بعض القضايا
الشهيرة التي رأيته وبعض القضايا المهمة التي باشرتها ووصف
بعض المناقضين وأعمال المكاتب وعمالها والاصلاحات الواجبة
للهوض بهذه الصنعة .

من يوميات سنة ١٩٢٨

الأحد ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٢٨

ولد لي مولود جديد الساعة ٧ر٤٥ أسميته رابع .

من يوميات سنة ١٩٣٠

الثلاثاء ١٨ مارس سنة ١٩٣٠

لقاء الروائي العالمي توماس مان الحائز على جائزة نوبل بنادي
الضيافة بشوارع دير البنات بالقاهرة (١) .
الأربعاء ٢٥ يونيو سنة ١٩٣٠

فكرت في الاصطيف مع أولادي وخصوصا العناية بصحة معالي
ورابع ، خاصة وأنا لم نخرج من بيتنا بعد ذهابنا الى رأس البر
في رضاءة زكريا . وقد فكرت حتى وقع اختياري بعون الله على
بورسعيد فأخذت أولا أعد العدة بالمال وأظن أول يوليو يوما صالحا
للانتقال تبعا للاجازه القضائية .

ولا يمكننا النزول في فندق فلابد لنا من استئجار منزل ،
وسوف أسافر الى بورسعيد .

الخميس ٣ يوليو ١٩٣٠

لا أعرف أحدا في البلاد .

استحضرت كتبنا كثيرة وجرائد فرنسية « كانديد »
و « جرنجوار » . والأولاد يلعبون بالرمال ويبنون أهراما ومعهم
جرادل وأداة للحفر ، والفاكهة العنب والبطيخ كثير ورخيص وكذلك
الأسماك .

أكتب مقالاتي للبلاغ بانتظام ولا سيما « لعل وعسى » .

(١) كتب لطفي جمعة عن هذا اللقاء مقالا عنوانه « مع توماس مان في القاهرة » ،
نشر بجريدة البلاغ في ١٩٣٠/٤/٥ واعيد نشره بكتاب لطفي جمعة « في الادب
والنقد » ، عام الكتب ، سنة ٢٠٠٠ م .

السبت ٥ يوليو

أطالع كتاب كلود فاربر عن لوتى Lotti .

الأحد ٦ يوليو

أنزل البحر وأمرح مع الأولاد ولا سيما مطيعة التى عمرها ٨ سنوات ويحيى بعوم جيدا وكذلك أخوه زكريا والصغار تتولى أمهم استحمامهم .

الثلاثاء ٨ يوليو

أخبار القاهرة سيئة جدا .

قرأنا خبر عزم النحاس باشا على السفر الى المنصورة وعزم الحكومة على مقاومته بالقوة .

الأربعاء ٩ يوليو

اليوم وقعت الواقعة وحصلت معركة المنصورة بين الجيش والوفد وأهل البلد .

الجمعة ١١ يوليو

فى الصباح ذهبت لزيارة مراد محسن الذى هو مدير هنا أو المحافظ فأحسن الرجل لقائى ورد لى الزيارة .

السبت ١٢ يوليو

- الصحف حافلة بأخبار مجزرة المنصورة وقد طعن سنوت حنا بسنجة عسكري يقال أنها قاتلة وكان المقصود بها النحاس باشا رئيس الوفد وانفرد البلاغ بعدد بيع بعشرين قرشا .

- كتبت قطعة عن الثورة الفرنسية للبلاغ بمناسبة عيد ١٤ يوليو الذي يستعدون له هنا استعدادا عظيما .

الأحد ١٣ يوليو

كل البلدة مزدانة زينة باهرة في البر والبحر وقيل عن انطلاق الألعاب النارية .

جلست في إحدى قهوات البلد بالشارع الرئيسى وأعطانا جيد بك شكرى دعوة الى احتفال لشركة قنال السويس على شاطئ البحر حفلة نهائية فعولت على أخذ الأولاد للفرجة . ان تأثير الشركة الفرنسية قوى جدا .

الثلاثاء ٥ يوليو

- قامت مظاهرات وبدأ حشد الجماهير وحضرت الى بورسعيد « أورطة » يقودها ضابط اسمه اسكندر بك وعسكرت في الشوارع .

الأربعاء ١٦ يوليو

ان بورسعيد تحترق في هذا الصيف ، فقد أوقفت الحكومة الدستور وألغت دستور سنة ١٩٢٣ ووضعت دستورا جديدا مستعينة في ذلك بعبء التهميد بدوى ، وتعطل جورنال البلاغ ولم

يظهر يوم ١٤ يوليو • لقد وصل طغيان اسماعيل صدقي باشا الى
أقصاه •

الخميس ١٧ يوليو

قابلت الميرالاي اسكندر بك الذى جاء لقمع الفتنة ، وأهل
بورسعيد درجوا على رجم رجال البوليس بالحجارة وخصوصا فى
حى العرب والمناخ وكلمت اسكندر بك بشدة وقلت له : اياك أن
تطلق الرصاص على أهل وطنك • فقال لى : ان كفوا لا أفعل ولكنهم
يهاجموننا •

الاثنين ٢١ يوليو

زرت المحافظ مراد محسن ، انه يريد أن يبتعد عن السياسة
ويقول انه موظف ادارى ويظن أن سينقل الى منصب بالسراى بسبب
مصاهرته مع عائلة رشيد التى منها محمود و ابراهيم رشيد جناحا
اسماعيل صدقى فى هذا الانقلاب Coup d'etat ، ولا أعرفهما ولكنهما
سببان لتعريضهما هذا الرجل •

الخميس ٢٤ يوليو

الخوف من ثورة بورسعيد المنتظرة والافرنچ فى جزع من
التهب والسلب وتعدى أولاد العرب •

الجمعة ٢٥ يوليو

— يزداد الهياج يوما عن يوم •

— كنت أرسلت سبع مقالات للبلاغ ، فلما تعطل البلاغ لا أدرى مصيرها وبإدراك عبد القادر حمزة بتسوية حسابي معه الى نصف يوليو بحجة أن مصارييف الاصطيف كثيرة ، فعجبت لتعجله كأنه لا يرجو أن تصدر الجريدة مرة ثانية •

الأحد ٢٧ يوليو

فى الصباح قابلت المحافظ فرأيت بهجاً ومتبرماً فى وقت واحد وقد وضع على « كابينته » بالشاطئ حارساً من أرذل خلق الله يمنع المارة من مجرد المرور كأن الكابين هيكل مصرى قديم ! • وقد تطور مراد محسن ويسمونه الباشا المحافظ تملقاً • أما محمود عزمى وكيل المحافظ فرجل ديمقراطى •

الاثنين ٢٨ يوليو

— أترقب البريد الأوروبى فأقرأ •
Nouvelle Litteraire, Candide ; Gringoire, Detective,
Mercure de France

غير الكتب •

— أوقفت الكتابة لأن البلاغ تعطل •

الخميس ٣١ يوليو

كلما ينقضى يوم من الشهرين أشعر بأسف لأننى أشعر من الآن أن هذه أيام لا تعد من العمر ، ان أفراح الأبوة فى هذه السن للأولاد لا نعد وأهمها أنى أراهم يأكلون بشهية ويشبعون ويسبحون

ويجرون ويلعبون ويضحكون ويستريحون من عناء الدرس ومن حر القاهرة ، ولو أمكننى أن أبقى الى آخر سبتمبر فلا أتأخر غير أن فى أوله تفتتح مدارس الفريد ويبدأ الموسم القضائى .

الست كذلك تحسنت صحتها وكذلك معالى ورابع الذى يمشى وبدأت أنوار ورفيعة ٨ ، ٧ سنوات كالأولاد الصغار وأنا أحبهما جدا .

الجمعة أول أغسطس سنة ١٩٣٠

– اليوم الأول من الشهر الثانى . لم أغير نظامى وقد استفدت كثيرا .

– القلق يزداد فى المدينة .

– سمعت أن جيراننا الفرس بهائيون . رؤية البنت الفارسية التى أوجت الى قهوة « قرّة العين » (١) .

الثلاثاء ٥ أغسطس

اشتد النزاع فى البلد على المرور بين الأحياء ، والجند يهددون أبناء العرب ، والأفرنج يخشون ، وقد سمعت عرضا فى الطريق أنه فى سنة ١٩٢٢ شهدت بورسعيد مذبحه بعد أن حصل سلب ونهب فى دكاكين الأفرنج .

(١) « قرّة العين » قصة بهائية نشرها لطفى جمعة مسلسل فى حلقات بحريّة

البلاغ سنة ١٩٣٤ .

الخميس ٧ أغسطس

حضر الى المنزل المدعو على الألفى ومحمود الصفتى وآخرون ودعوني لحفلة المولد النبوى بمنزل الشيخ الصياد وانشاد الشيخ على محمود ، وبقينا للصباح وحضر المحافظ وجلس معى ومع القاضى الشرعى وسألنى المحافظ عن كتب فى الفلسفة بالفرنجى فأعطيته بياناً بها • وقيل لى ان على الألفى المذكور كاتب حسابات عند تاجر طيور وشاعر فى الوقت نفسه •

السبت ٩ أغسطس

اتصل بى المدعو على الألفى وقال انه مسافر الى دمياط عند على العزبى وعرفنى بأخوته وهم عصابة وقال لى المحافظ ان هذه العصابة هم سبب القلاقل فى بورسعيد لأنهم سياسيون وينتمون الى الوفد ، فدافعت عنهم •

الاثنين ١١ أغسطس

رأيت المدعو نجيب ريجانة (لا ريجانى كما يقول مينا وزورا) فرحب بى وقال انه قادم ليهتل بضع ليال ، وتكلم معى بما يشعر أن النجاح قد أفقده عقله ، فأنا أعرفه من سنة ١٩١٣ •

الأربعاء ١٣ أغسطس

أقيمت حفلة وداع للمحافظ لأنه نقل الى وظيفة فى القصر بسبب مصاهرته وحضرت الحفلة بالكازينو وألقى على الألفى قصيدة •

الثلاثاء ١٩ أغسطس

رأيت الشغب الذى حدث فى البلدة وتبادل الحجارة ورصاص الجيش وقدم مات بضعة أشخاص من الأهالى وجرح آخرون ، وكان الحكمدار هين الانجليزى يقود المعركة وقد أصيب بجرح فى صدره وآخر فى جبهته ، واستدعوا على الألفى وهو سكرتير لجنة الوفد ليهدى الضوضاء مع أنه هو الموعز بها .

الخميس ٢١ أغسطس

قابلت الميرالاي اسكندر الذى ضرب المتظاهرين بالرصاص ومد يده لمصافحتى فرفضت وقلت له : لا أصافح من لطم يده بدماء أبناء وطنه . فلم يتكلم .

الاتنين ٢٥ أغسطس

أكثر الدكتور محمد سليمان الطبيب بمستشفى الحميات من زيارتى والاحتفاء بى وقدم لى أشخاصا كثيرين من الوفدين لأنه ينتمى اليهم ، ومنهم ابراهيم عطا الله ومحمد الشردى وهو مفصول من الخدمة ولكنه خفيف الروح .

الخميس ٢٨ أغسطس

— قربت أيام السفر ! . ان هذا البلد جميل جدا ، ما أجمل الحياة لولا لؤم الانسان !

— عرفنى على الألفى بمن يدعى عبد الفتاح العايدى وولديه محمد وجمال وقال انهم من أغنياء الحرب الكبرى الماضية قعد بهم الدهر ، ويقيم الألفى حفلة أسبوعية لاهياء ذكرى أمه بقراءة القرآن وهذا وفاء جميل جدا .

شاهد - ٥٤٥٠

السبت ٣٠ أغسطس

شعرنا بروح الوداع للبحر فتملكتنا حالة حزن شديد وشعرنا بحب عظيم للشاطئ والبيت والجيران ، وكان بوجدنا أن نقيم شهرا آخر لولا موعد افتتاح المدارس لأن الإقامة هنا أفادت الأولاد كثيرا .

الأحد ٣١ أغسطس

هذا يوم السفر وودعت أصحابي بسرعة وودعنا الجيران وتحركنا الساعة الخامسة وحشدت المحطة بعدد وفير ممن عرفنا فتأثرنا كثيرا ولوحوا لنا بمناديل بيضاء عند تحرك القطار .

وصلنا الساعة الحادية عشرة ليلا وركبنا سيارتين الى المنزل بمنشية البكرى وحمدنا الله على سلامة العودة ، وتحدثنا طويلا عن الذكريات ولكن الأولاد ما زالوا صغارا لا يشعرون الا بالسعادة المؤقتة ، وقد تحسنت صحتهم واستعدوا للعودة الى المدرسة غدا صباحا ، أما مطيعة فتعود بعد شهر في أكتوبر الى المدرسة .
والحمد لله .

الثلاثاء ٢ سبتمبر ١٩٣٠

قابلي خالد بأشأت وقال لي انه اشتاق الى كثيرا أثناء غيابي ، وقضينا سهرة جميلة جدا وهو كثير التنكيت ، ان لباشات عبقرية في التنكيت العالي وقيل لي انه يشبه أباه في هذه الناحية وأنا أحبه كثيرا واسمه عندي أبلو

الأربعاء ٣ سبتمبر

زرت عبد القادر حمزة في دار البلاغ الجديدة التي بناها
وتحدثنا فأتيت له أنه يكفي إصدار جريدته باسمها بعد المساء
بنص القانون الذي أصدره صدقي ، ففرح جدا وأخذ يستعد وعجبت
أنه لم ينتبه لذلك قبل الآن ، وتحدثنا طويلا ونفى وصول الظرف
الذي به سبع مقالات كنت أرسلتها من بورسعيد ويظهر أنها فقدت
أثناء الانتقال .

الجمعة ٥ سبتمبر

قابلي محمد علي الطاهر وذكر لي أن الأستاذ عبد العزيز
الشعالبي (١) حضر إلى مصر وهم أزه من سنة ١٩١٣ وقال لي انه يريد
مقابلي لتحديد الصحبة خصوصا وقد أقام طويلا الى سنة ١٩٢٦
بمصر ولم أتصل به وكان أصحابه في تلك الفترة بيت عبد الرزاق
ومنصور فهمي وطه حسين ومن اليهم .

السبت ٦ سبتمبر

قابلي الشعالبي في القهوة وهو يدمن الشيعة .

الاثنين ٨ سبتمبر

يحضر محمد علي الطاهر مجالسنا الليلية وهو نابلي ينشر
جريدة الشورى للدفاع عن وطنه وعن الاسلام ، وهو شديد الولاء
للشعالبي .

(١) لمزيد من التفاصيل عن علاقة لطفي جمعة بالشعالبي ، راجع كتاب « محمد
لطفي جمعة وهؤلاء الاعلام » ، المرجع السابق ، ص ٣١٢ ، ٣٢٢ . وايضا
كتاب لطفي جمعة « قطرة من مداد » ، المرجع السابق ، ص ١٤١ - ١٥٧ .
سنة ١٩٩٨ .

ونحن نجلس في قهوة فينكس أو عماد الدين ويدخن الثعالبي
الشيشة ويروي أحاديث سندباد بحرى عن حوادث وطنه تونس
ورحلاته في الهند والشرق الأقصى ، وهو رجل لطيف فشبهته بأبن
بطوطة وابن خلدون (١) .

الأحد ١٤ سبتمبر

يظهر أن الثعالبي في كل رحلة الى مصر يعاشر فئة من الناس
ويترك السابقة ، وهو في هذه الكرة مراقب من حكومة العراق على
بعثات الطلاب العراقية من قبل الملك فيصل ويتقاضى خمسين جنيها
شهريا وله صفة رسمية مع وزارة المعارف ، ويدب الشقاق أحيانا
بينه وبين محمد على الطاهر بسبب رعونة هذا الأخير فيقاطعنا أياما
طويلة ثم يعود لأنه يحب الحديث اللذيذ الذي يصل الثعالبي حباله
طوال الليالي والأيام ، وهما كالدون كيشوت وتابعه بانزا .

الثلاثاء ١٦ سبتمبر

لمحمد مسعود قضية على البرنس يوسف كمال وكلمنى فيها
وخطبني كعادته بصوت منخفض وبطء شديد .

الجمعة ١٩ سبتمبر

حرية أفكار المرحوم الكواكبي :

(١) كتب لطفي جمعة مقالا عنوانه « السيد عبد العزيز الثعالبي ، زعيم
شرقي ومفكر مصلح » نشر بجريدة المساء في ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٣٠ جاء به
« انك اذا سمعت حديث الثعالبي رأيته مزيجا معقولا ، مصريا من ابن خلدون
وابن بطوطة وجمال الدين الافغانى »

— روى لى الاستاذ عبد العزيز الثعالبي أن المرحوم الكواكبي كان يبحث دائماً عن الأعمال المثمرة مادياً ، وكان ينظر الى الأدب والسياسة كهواية لا يربح منها صاحبها ، وكان اغترابه وارتحاله لثلاث علل :

الأولى : أن يفر من ظلم الترك في وطنه وأن يشن عليهم غارة شعواء في الشرق العربي ، فكتب « طبائع الاستبداد » وأعطى الدواء في « أم القرى » .

الثانية : البحث عن أخلاق الأمم وأحوالها الاجتماعية والسياسية .

الثالثة : أن يربح من التجارة وما يماثلها ، فمول ابنه ليفتح قهوة في مصر اذ رأى عمل المقاهي هي أنجح الأعمال ، وهو في ذلك على رأى بعض فلاسفة اليونان (أفلاطون وأرسطو) اذ كانا يتجران في الرقيق كأهل بلدهم في زمنهم ، أما الفلاسفة فهواية . وقد أصاب الكواكبي لأن كل الأدباء في الشرق جاعوا لانقطاعهم للأدب .

وكان الثعالبي يقلده ، فانه اشتغل طول حياته بالتجارة وكان يقرض ماله مع أصحاب المتاجر الكبرى في الشرق الأقصى والخليج الفارسي أمثال سيد علي زينل والسيد الكاف بسنجافورة ويتجر في الأرز وغيره .

وروى لى مرة أنه فاته تجارة « أنديجو » عرضت عليه بثمان بخس ورفضها ولو اشتراها لاقتني الملايين .

ولكن أصحابنا الأفغانى والشيخ محمد عبده ومصطفى كامل ومحمد فريد لم يتركوا هذا الباب وأنفوا أن يشتغلوا بالماديات ،

وكان ويلفريد بلنت من الأغنياء بسبب الزراعة وتربية الخيل الأصيلة ، أما كتبه وأدبه فهواية ولذا جاءت على غاية الاتقان .

• سنة ١٩٣٠ :

* اللغات الرمزية :

اللغات الرمزية Aryot اشتغلت بها وبما يتفق عليه منها أهل الاجرام وكتبت فيها بحثا طويلا وألقيت محاضرة في العشرة الثالثة من هذا القرن (حوالى سنة ١٩٢٥ أو سنة ١٩٢٦) وعملت لها قاموسا في مصر (١) وقرأت أخيرا في مجلة لوكار بقلم Gaston Esnault مقالا عن لغة رمزية جديدة اكتشفت في ٨ أكتوبر سنة ١٩٢٩ بواسطة مجرمين لمحاربة البوليس الدولي وضبطت ألفاظها مع من يدعى بنتو Pinet من المجرمين واسم اللغة Gyria (انظر اعداد المجلة المذكورة سنة ١٩٣٠) .

وادمون لوكار المذكور آنفا طبيب شرعى وخبير جنائى بليون وصار عالميا خليفة للدكتور Lacassgne أستاذنا في المادة نفسها بليون سنة ١٩٠٩ أنشأ مجلة Revue Criminalistique سنة ١٩٢٨ وله جملة طرق مبتكرة لمعرفة المجرمين منها نفى ملابسهم لاجراج الآثار التى تعلق بها فى محل الجريمة مثل نشارة الخشب ويزادة الحديد والمعادن أو البصرة التى كانت فى جسم المرأة القتيل ، وقد أثقن تحقيق الأنامل والخطوط واللغات الرمزية وهو كاتب ممتاز وعالم صادق ، وقد تخرج من تحت يده المدعو

(١) انظر دراسة عن هذا القاموس مقال رابع لطفي جمعة « اللغة السرية لبعض الطوائف والمهن الشعبية فى مصر » ، مجلة الماثورات الشعبية ، الدوحة - قطر ، العدد ٣٧ ، السنة العاشرة ، يناير سنة ١٩٩٥ ، ص ٤٣ - ٥٧ . وانظر أيضا كتاب لطفي جمعة « مباحث فى الفولكلور » ، المرجع السابق ، عالم الكتب ، سنة ١٩٩٩ .

محمد زكى وهو وكيل تحقيق الشخصية بمصر وأثبت فى العدد ٤ من السنة الثانية من مجلته (سنة ١٩٣٠) أن الشرقيين فى الأقصى لا سيما الصين عرفوا الاستفادة من السمات لتحقيق الشخصية هند مئات السنين ، وأن الفضل فى الاستعمال الحديث لها لرجل انجليزى وآخر من بوهيميا (شيكوسلافاكيا الحديثة) .

أهم أحداث سنة ١٩٣١ (١)

- تأليف كتاب حياة الشرق .
 - الأولاد فى المدارس ، والحياة البيتية ، والعمل فى المحاكم .
 - تأسيس محكمة النقض والإبرام المدنية .
 - عهد اسماعيل صدقي وإرساله إلى الأستاذ وهيب دوس لانضم إليه ورفض ذلك .
 - حصول حادثة القنابل أثناء وجودى فى السويس يوم ١٨ و ١٩ يولييه .
 - أهل السويس والشيخ اسماعيل الباز والأيام التى قضيتها فى المدينة .
 - سفرى إلى بورسعيد لأعداد منزل الاصطياف .
 - مقابلة غاندى والعظماء الواردين معه فى ٧ سبتمبر سنة ١٩٣١ ، شوكت على وأساليبه .
-
- (١) لم يدون لطفى جمعة الكثير من مذكراته عن هذه السنة واكتفى بكتابة رؤوس مواضيع تحت عنوان « أهم أحداث سنة ١٩٣١ » .

- النزاع السياسى فى بورسعيد .
- السفر فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣١ من بورسعيد وحفلات توديعى بالمحطة .

من يوميات سنة ١٩٣١

٨ يناير سنة ١٩٣١

اليوم الساعة الثامنة مساء الاحتفال فى حارة اليهود بذكرى موسى بن ميمون وقد حضرته وكتبت عنه فى مجلة الصباح وهذا كان أصل الاحتفال الرسمى به بدار الأوبرا بواسطة الحكومة ولم ادع اليه .

٩ يناير

اقامة حفلة شاي للثعالبي بمحل ليمونيا وقد خطبت فيها .

١٥ يناير

محاضرة لى بجمعية الشبان المسيحية الساعة السادسة عن الشاعر أحمد العاصى (١) وحضور عبد الرحمن الجدبلى وظهر أنه قريبه .

(١) أحمد العاصى أديب وشاعر ولد سنة ١٩٠٣ بمدينة فارسكور ومات منتحرا فى سبتمبر سنة ١٩٣٠ وله ديوان شعر مطبوع وكذلك رواية مطبوعة عنوانها « غادة لبنان » ورواية أخرى عنوانها « الأديب المنكود » لازالت مخطوطة ، وقد كتب لطفى جمعة عن هذا الشاعر تفصيلا ضائفة بجريدة المساء عقب وفاته (انظر مقال الأستاذ رجاى النقاش بمجلة الدوحة وعنوانه « الشاعر العاصى ومأساته » عدد ٤٣ ، يوليو سنة ١٩٧٩ ، ص ٤٠ - ٤٤ ، وكذلك مقال رابع لطفى جمعة بالمجلة ذاتها وعنوانه « الشاعر أحمد العاصى ، أضواء جديدة على مأساته ورواية مجهولة له » ، عدد ١٢٣ ، مارس ٨٦ ، ص ٢٨ - ٣١) .
وانظر مقالات لطفى جمعة عن العاصى فى كتاب لطفى جمعة « فى الأدب والنقد » ، عالم الكتب ، سنة ٢٠٠٠ م .

الجمعة ١٦ يناير

تفديت عند حامد العلايلي • وفي الساعة الرابعة حفل شاي
عند أحمد زكي باشا (١) مع الثعالبي ووزير تونس سيدي عمر
البكوش وفي الساعة التاسعة مساء حفل بالأوبرا •

الأحد ١٨ يناير

— عيد ميلاد ابني زكريا •

— زواج خالد باشات ، حضرنا الحفل وكان معي الثعالبي •

الثلاثاء ٢٠ يناير

موعد السفر الى فلسطين لثراء المرحوم محمد علي الهندي •

الخميس ٢٩ يناير

افتتاح المعهد التمثيلي الاهلي الساعة الثامنة مساء •

الجمعة ٣٠ يناير

محاضرة الثعالبي الساعة الثامنة والنصف في جمعية
الشبان المسلمين وبعد أن ألقاها تكلم شوكت علي وهذا كله ملخص
في كتابي حياة الشرق •

(١) لمزيد من التفاصيل عن علاقة لطفي جمعة بأحمد زكي شيخ العروبة ،
راجع كتاب « محمد لطفي جمعة وهؤلاء الاعلام » ، المرجع السابق ،
ص ٤١١ - ٤٤٨ • وكتاب لطفي جمعة « قطرة من مداد » ، المرجع السابق ،
ص ١١٣ - ١٢١ •

١٤ سبتمبر

لقضاء غاندى :

لقيمت غاندى على ظهر الباخرة راجبوتانا فى ميناء بومبي
قضيت فى صحبته ثماني ساعات كانت أسعد ساعات الحياة ،
كان الزعيم الهندى فى طريقه الى مؤتمر المائدة المستديرة ، وكان
فى صحبته بعض أقيال الهند ورؤسائها وأصحاب الفكر فيها .

وصلت الباخرة الساعة الثالثة صباحا وألقت مرسها على
رصيف الميناء ، فانتابنى قلق وخوف من عدم تحقيق الأمل برؤيته ،
ثم صعدنا الى الباخرة ، وفى حوالى الثالثة والرابع ظهر غاندى فجأة
ومعه المس سليد .

لقد دهشت دهشة عظيمة لدى رؤيته ، فقد كانت رؤيته
بالنسبة لى أملا عظيما تحقق عندى ، وبعد أن أفقت من نشوة
لقائه ، شدتنى اليه شدة أمره وقوة جاذبيته النادرة .

ان وجهه وثيابه تخالف الحقيقة وكافة الصور الفوتوغرافية
التي شاهدناها والأوصاف الكتابية التي قرأناها ، فبدنه أشبه
بأى قروى فى أى قرية من قرى الوجه البحرى أو القبلى فى مصر ،
ولكنه نظيف جدا ، وأعتقد أنه فى منتصف الحلقة السابعة من
عمره ، رأيت حليق الرأس قد شاب شعره وعيناه صغيرتان
سوداوان يبدو فيهما الذكاء والألم ، وتجل فيهما الزهادة والاغضاء
عن كل شئ من أعراض هذه الحياة الدنيا ، وعندما يتكلم تلمح فى
عينيه بريقا خاطفا كأنه نور الفئسار الذى يضيئ ظلمات المحيط
ليكشف الطريق للسفن الحائرة فى خضم الأمواج ، أما أذناه

فكبيرتان مما يدل على قوة حاسة السمع لديه ، ولا يستتر جسده الا قطعة من قماش القطن ، وهو في جلسته يشبه بوذا ، لأن جلسته يرى قدميه ظهرا وباطنا ، ويداه مشغولتان بالغزل على مغزل يدور مفروش أمامه على الأرض ، ويده اليمنى تدير العجلة واليسرى تملأ الخيوط .

ان كل ما نعلمه عن غاندى سابقا بالدرس أو بالقراءة يتحقق لديك عند رؤيته كحقائق مادية واقعية ثابتة ، ومن هنا ينشأ شعور لديك كأنك تعرفه وتجبه من قديم الزمن ، فقد شعرت لدى رؤيته بهذا الشعور .

ان منح هذا الرجل أداة من أعجب أدوات الخليقة انتظاما وتركيبا ، ويمتاز بمظهرين هما العقل وقوة الارادة ، ومما لا شك فيه أنه شديد الذكاء والدهاء ، انه شخص قد في العالم في الوقت الحاضر ومظهر الهى في الكون ، وسره العظيم يكمن في روحانيته لكونه روحا حرا طليقا ليس بينه وبين الحقيقة حجاب ، وهذا دليل على أن قوة الروح تتغلب على الجسم وتفوز عليه .

ان الرجل الذى وصفه نيتشه وتخييله وتمنى وجوده ، يمكن تحقيقه بالقوة المعنوية فى شخص غاندى ، وفى ذلك تكذيب للفلسفة المادية .

ومعلوم أن نيتشه كان تلميذا الفيلسوف شوبنهاور الذى تعلم فلسفة الهند وتشيع بالفكرة الهندية عن الانسان الكامل ، وقد تحققت هذه الفكرة فى شخص غاندى بعاء موت شوبنهاور بخمسين عاما .

ان الشرق مصدر النبوات ومهبط الوحي الالهي ، وقد أرا د
الله سبحانه وتعالى أن يظهر « السوبرمان » في هذا الشرق ،
فغاندى رجل مفرد فى التاريخ ، وسبب تفرده أنه جعل من التصوف
الهندي حياة عملية فعالة فى المدنية الحديثة ، وقد تشبع بفلسفة
راماكريشنا وفيفيكنندا وهى فلسفة روحانية ظهر بها المهاتما بمظهر
رجل سياسة ، ولكنها ليست كسياسة أوروبا ولا من ذلك النوع
التقليدى الذى ظهر فى الشرق ، بل انها رسالة فى صورة سياسة
لإنقاذ الإنسانية المتألمة المعذبة .

قال لى فيما قال : لقد كانت حياة راماكريشنا مثالا حيا وفعالا
فى بارامهسا (١) - أى الاعراض عن العنف - وكان حبه كاملا
وشاملا تاما وعاما ، فليبارك الله وليجعل خيرا وحبا والهاما طاهرا
لكل من يقرأ حياة راماكريشنا ، فلا يمكن لإنسان أن يقرأ هذه الحياة
دون أن يقتنع ويؤمن بأن الله هو الكائن الحق وحده دون سواه
وأن كل ما عداه ومن عداه خيال متخيل أو أباطيل مبطل .

لقد اصطلح غاندى بأعظم قوة فى العالم وهى قوة بريطانيا ،
ومع ذلك فهو غصة فى حلق بريطانيا وشوكة فى جنبها يقلقها ويقض
مضجعها ويصيبها بالحمى بالرغم من تكوينه ونشأته من عناصر
أوربية بحكم تعليمه ، وأعتقد أن عمله الذى اشتغل به فى حياته
وهو المحاماة كان هو نواة حياته الحالية .

(١) الالهسا أو اللاعنف وبعبارة أخرى الحب فى أسنى صورة كان
هو منطلق أفكار غاندى ويقول عنه « أن عدم العنف هو أعظم القوى فى خدمة
الجنس البشرى ، انه أقوى من كل سلاح ابتدعه الإنسان » ، راجع كتاب « كل
الناس أخوة ، حياة المهاتما غاندى وأراؤه كما رواها » ، اعداد كريشنا كريالانى ،
ترجمة يونس شاهين ، دار الكتاب العربى ، القاهرة سنة ١٩٦٩ ، وخاصة الفصل
الرابع المعنون فى « الالهسا » أو طريق التنزه عن العنف ، ص ١٥٤ .

تقوم فلسفة وسياسة هذا الرجل جميعها على الحب المطلق الذى بدأه بمحاولة انقاذ أبناء وطنه فى جنوب أفريقيا وفى الهند ، والسر فى نجاحه انه اخذ كل شئ فى الحياة من زواج وذنوب وجهاد وفكر بجدية ، فهو خال من المزاح أو التهكم أو الاستهتار ، وإن رجلا كهذا لابد أن ينجح .

وفى اعتقاده أن اقبال الناس عليه فى بلاده وخارجها هو فى الواقع تلبية من نفوسهم لدعوة الحب العظيمة الكامنة فى نفسه وفى وجدانه وفى ضميره .

انه لا يريد شيئا من العالم ، فهو اذن أكبر من العالم ، يهزا لقوة المادة لا احتقارها لها ولا استخفافا بها ، ولكن لأنها لا تناله ولا تؤثر فيه ولا تغلبه ولا تقهره ، فقد تحرر من جميع قيودها ، انهم يسجنونه ولكن لا يعذبونه ، وعقوبة السجن لا تغيظه لأنه متحرر روحيا فلا يجد فى السجن ضيقا لشعوره بالحرية .

قال لى ان الفرق بين القرون الوسطى والعصر الحديث أن دولة مثل انجلترا لا تقتله رميا بالرصاص مع امكان ذلك ، وأن الانجليز لا يقدمون على ذلك بدافع من الانسانية أو العطف – فانهم يقتربون فى العالم مع الأفراد والجماعات ما قد يزيد على اعدامه أو تعذيبه – ولكنهم موقنون بأن اعدامه سوف ينتج عنه عشرات أمثاله ، فقلت له : ربما كانت هذه الفكرة وهمية أو خاطئة لأنك لست فقط نتاج الظلم أو الضغط ، بل أنت مكون من عناصر روحية، ولكن الانجليز يتوهمون أنه ربما يكون فى بلاد الهند التى أخرجتك شخص أو أشخاص يشبهونك ، فقال لى هذا لحد ما صحيح .

وقلت له ان بلادا تخرج مثلك هى بلاد عظيمة وهى فى الحق لا تموت ولا تضيع ، وأنه من الظواهر الخارقة أنه بعد مائتى سنة من الاستبداد والادماج وتعليم الانجليزية يظهر رجل مثلك يكون بمثابة احتجاج ضد كل هذه المظالم ، انك رد فعل للشعب الهندى ضد محاولات تغييره وابتلاعه والقضاء على شخصيته الشرقية الغنية بالعجائب ، لقد أظهر الهنود من قديم الزمان تقدما عقليا وثقافة عريقة قبل مجيئ الاسكندر المقدونى بألفى سنة كما تدل على ذلك أناشيد الفيدا وتبحرهم فى الرياضيات والفلك والفنون الرفيعة ، وظهر فى الهند فى العصر الحديث كتاب وشعراء وعلماء اشتهروا فى الغرب وصارت لهم مكانة عظيمة مثل طاغور والسين بوز الذى نبغ فى العلوم الطبيعية .

ثم تجددت معه عن اتصالنا بالطلبة الهنود فى لندن ودعوتنا اياهم الى المؤتمرات المصرية الوطنية التى عقدها الحزب الوطنى أيام رئاسة محمد فريد للحزب فى جنيف سنة ١٩٠٩ وباريس سنة ١٩١٠ وبروكسل سنة ١٩١١ ، كما حدثته عن علاقته ببعض الزعماء الهنود أثناء وجودى بفرنسا ومشاركته فى هذه المؤتمرات أمثال هارديال وسافاركار وشاتو دايا ومدام كاما وشيامدجى كريشنا فارما صاحب جريدة الهندى الاجتماعى والذى كان معجبا بالزعيم مصطفى كامل ونشر خطبته فى جريدته عن كارثة دنشواى . وقلت له ان الدكتور منصور رفعت قد شارك فى تحرير هذه الجريدة وانك كنت على علم بذلك بدليل أنك كنت تذكر مصر دائما وترحب بكل مصرى تلقاه أو يتصل بك وأن بعض الزعماء من مصر سافروا الى الهند واجتمعوا بك .

فقال لى انكم فى مصر تشبهون الهند فى جهادكم ضد مبادئ الامبراطورية البريطانية وان كانت أقدام الانجليز فى بلادنا أرسخ

وتاريخهم أطول وصفحتهم أكثر سوادا ، ولذلك يجب عليكم في مصر أن تستهذوا بحركتنا. كما أننا في الهند نستنير بحركتكم فان زعماءنا كثيرا ما ضربوا المثل بالاتحاد بين المسلمين والأقباط عندكم في مصر ودعوا أمثنا من هنالك ومسلمين الى مثل هذا الاتحاد في الهند .

فسالته عن علاقة الهنالك بالمسلمين في الهند فقال ان المسلمين اخواننا وأصلنا وأصلهم واحد ولا يوجد غزاة منهم الآن ، وزعمائهم العاملون في مجال السياسة. أصدقائي وشركائي في الجهاد مثل محمد علي وأخيه شوكت علي وعشرات غيرهما ، وكلنا نفهم خطر الانقسام بيننا ، فانه لا يستفيد به الا خصومنا وأعداؤنا .

ثم تحدثني عن المسائل المعضلة التي يعانيتها عقله وهي مسألة الماع وسياحتته التي قام بها وقبضت عليه الحكومة بسببها في مايو العام الماضي ، كما تحدث عن رأيه في العنف والجرائم السياسية ، فاستنكرها وقال ليس معي سلاح ولا قوة الا العصيان المدني وعدم التعاون ومقابلة الشر بالخير وانكار العنف ولكن الى درجة وهي الا يبلغ انكار العنف حالة الجبن ، وسلاحى الثانى هو الصوم عن الكلام يوما في الأسبوع هو يوم الاثنين والصوم تكفير عن ذنوب بعض أتباعى ، والصوم اذا حصل خلاف بينى وبين السلطة .

ثم قال لى لقد شعرت على الدوام وصرحت بناء على هذا الشعور بأن عطية الحرية العظيمة لن تنالها أمة بالإحسان والتصديق ، اذ ان علينا أن نكتسبها قبل أن نفتنيها ، وستأتى للهند فرصة اكتسابها عند ما تثبت لذلك الشعب الذى يحكمها بحق الفتح أن أخلاقنا أسمى من أخلاقه وأن عندنا من الرجولة ما يجعلنا تكف عن معاملة المحتلين حتى يرحلوا عن بلادنا .

فاذا ما أغرونا بأقمشتهم الجميلة صمدنا للأغراء دون أن
نخضع ، بل نعود الى أقمشتنا التي نسجتها الايدي الهندية فنلبسها
ولا نبالي هزؤ المستهزئين ٠٠٠ اني ادعى هذه الدعوى وهي أنه عندما
أضاعت الهند مغزلها أضاعت معه إحدى رئتيها ، فالمغزل هو الشيء
الذي يجب علينا جميعا أن نلجأ اليه في الهند ٠٠٠ لقد كان غرامنا
بالأقمشة الأجنبية هو الذي كسر المغزل ، ولذلك فأننى أرى انه
ذنب كبير نرتكبه اذا نحن لبسنا الملابس الأجنبية ٠٠٠ اننى
لا أرسم خطا فاصلا بين الأخلاق والاقتصاد ، فان الاقتصاد الذى
يؤذى أخلاق الشخص أو الأمة يجب أن نعه من الذنوب الدينية ،
فمن الذنوب التي يجب أن لا نقترفها أن نأكل القمح الأمريكى بينما
انترك التاجر الذى يتجر بالقمح الهندى يموت من الكساد ، ومن
الذنوب التي أكف نفسى عن اقترافها أن أشتري الأقمشة الانجليزية
الجميلة ، وشعورى بهذا الذنب يجعلنى أحمل ما أملكه من الأقمشة
الأجنبية وألقى به فى النار وأطهر بذلك نفسى وأرضى بهذا القماش
الجافى الذى غزله ونسجه أبناء بلدى ٠٠٠ انكم هنا فى مصر
لا تستطيعون أن تستعملوا المغزل ، ولكن يمكنكم أن تستعملوا
النول وأن تعمموه فى القرى والمدن وفى البيوت المصرية ٠٠٠ ان
القماش المصرى يجب أن تجعلوه أساسا للأخلاق الفاضلة فى مصر ،
فتطالبوا زعماءكم وطلابكم وكافة رجالكم ونسائكم أن يلبسوا الملابس
المصرية التي هى فى النهاية عنوان الكرامة والاستقلال الاقتصادى
وحب أبناء الشعب بعضهم لبعض .

أقول ان هذا الرجل صادق فى أقواله ، مخلص فى أعماله .
ليس فيه رياء ، جمع من الصفات والفضائل كل ما يحير العقول ،
وانى لا أعلم أن رجلا ولد فى الهند بلغ عظمة غاندى وقداسته ومجده
وعلو خلقه وكرامته سوى انسان واحد اعتبره الهود الها وهو
بوذا .

وفى الحق أن هذا الرجل رسول عظيم للسلام وللإنسانية ،
يفيض قلبه حبا للجنس الانساني فى كل مكان ، ولا تعرف روحه
الا المحبة والاخلاص والتضحية ، ولذلك أحبته الأمم وأحبه الأغنياء
والفقراء ، وأحبه الصغار والكبار ، وأحبه عدد كثير من رجال
السياسة والمال فى الممالك الأجنبية القوية ، سواء فى ذلك الذين
رأوه وخاطبوه أو الذين لم يروا وجهه ولم يسمعوا صوته .

ان رسالته هى تحرير الهنود وتخليصهم من العبودية
بمجموعة من الأسلحة الأدبية أو السلبية هى نفسها القوة المعنوية
التي تنال بها الحقوق فى النهاية ، فمهما اختلفت الظروف وتنوعت
الأسباب فان الهدف الاوحد والأول والآخر لغاندى هو استقلال
الهند وتخليصها من الظلم والطغيان والفساقة والجهل والأمراض
والذل ، وحبه ليس مقصورا على أهل جنسه وبنى ملته ، بل هو
شامل للمسلمين والهنود وكل من يعيش على أرض الهند (١) .

أهم أحداث سنة ١٩٣٢ (٢)

— قضية القنابل وما يتبعها .

— قضية حامد العلايلي وموت أخيه عبد الحليم .

(١) لمزيد من التفصيل عن علاقة لطفي جمعة بالمهاثما غاندى ، راجع كتاب
« محمد لطفي جمعة ومؤلف الاعلام » ، المرجع السابق ، ص ٥٣٥ - ٥٤٩ .

(٢) أكتفى لطفي جمعة بكتابة رؤوس مواضيع تحت عنوان « أهم
أحداث سنة ١٩٣٢ ، سنة ١٩٣٣ » دون أن يدون شيئا عن هذه الأحداث خلال هاتين
السنتين .

على أنه بالنسبة لقضية القنابل والمرافعة فيها ، فقد تحدث عنها لطفي جمعة
عند الكلام عن « المحاماة » ، أما قضية روزنفلد فقد سجل واقعاتها فى كنانشة
مستقلة .

من يوميات سنة ١٩٣٣

٧ فبراير سنة ١٩٣٣ :

وقوع المظالم على الفلاحين في بلادهم من حكومتهم ومن الأجانب

نشر مستر هانن سوافر في ٧ فبراير ١٩٣٣ مقالا في جريدة ديلي هيرالد قال فيه « يعيش الفلاحون على ما يقرب من العدم وقد اغتنى الملاك بالرى دون سواهم ، وهم يزرعون ويتعبون والملاك يجنون الثمر والبوليس يضربهم علنا ، وفي سنة واحدة لأسباب سياسية وقعت ٢٦٠٠ حادثة تعذيب وضرب ، وكلهم يعيشون في اكواخ من الطين من عهد الفراعنة ، فماذا صنعت لهم الحضارة وماذا صنعت لهم بريطانيا ، وأن الفلاحين ضحايا الحكومات والأغنياء والمستعمرين من ٥٠٠٠ سنة » أه المقال عن مصر . انظر بلاغ ١٩٣٣/٢/٧ .

٧ فبراير سنة ١٩٣٣ :

قبر عبد الرحمن الكواكبي :

وجد قبر الكواكبي في قراة باب الوزير في سنة ١٩٢٦ في حالة متهدمة ، وقيل ان الذى اكتشفه ثلاثة السيد عبد القادر

- قضية روزنفلد (تزوير عمالة) وقضايا مدنية وجنائية أخرى .
- بلوع معين سن سنة واحدة .
- المرافعة في قضية القنابل في ١٥ أغسطس وسفرى الى دمياط قبل ذلك في مولد النبي .
- الحياة العائلية وحركة الصيف بين مصر وبورسعيد .
- ختام السنة والأولاد في المدارس .
- وفاة شوقي الشاعر الشهير .

أهم أحداث سنة ١٩٣٣

- اتمام الدور الثاني من المنزل بمنشية البكرى .
- عدم السفر الى بورسعيد للاصطياف بسبب عدم الاهتمام الى منزل .
- رواية عائدة وكيفية تأليفها ووحيا (١) .
- البهائية ورغبتي في تفنيدها .
- الاحتفال باحياء ذكرى شوقي بدار الأوبرا (ديسمبر سنة ١٩٣٣) (٢) .

(١) نشرت رواية « عائدة » في حلقات مسلسل « جريدة البلاغ » خلال المدة من سنة ١٩٣٢ - ١٩٣٤ .

(٢) شارك لطفى جمعة في هذا الاحتفال بمحاضرة قيمة عنوانها « اثر الشعر الأوربي في نظر شوقي » وقد نشرت في كتاب لطفى جمعة « في الادب والنقد » عالم الكتب ، سنة ٢٠٠٠ م .

والوقوف على مزيد من التفاصيل عن علاقة لطفى جمعة بأمير الشعراء ، راجع كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الاعلام » ، المرجع السابق ، ص ٢٥٦ - ٢٦١ .

الدباغ وكان يلزم الفقيد في حياته وحضر وفاته ودفنه ومنصور
فهيم ومحمد علي الطاهر وتكليفهم بالبحث كان بواسطة جمعية
الربطة الشرقية ومكتوب عليه بيتان من شعر حافظ ابراهيم :

قفوا واقرأوا أم الكتاب وسلموا
عليه فهذا القبر قبر الكواكبي

ثم عبارة « هذا قبر المرحوم العلامة الكبير السيد عبد الرحمن
أفندي الكواكبي الحلبي المتوفى في ٦ ربيع أول سنة ١٣٢٠ هـ ،
ولم يعمل في مصلحة القبر أى شيء » (انظر البلاغ في ١٩٣٣/٢/٧).

من يوميات سنة ١٩٣٤

بورسعيد الخميس ٣٠ أغسطس سنة ١٩٣٤ .

نهضت في الساعة الخامسة صباحا وكان الأولاد قد أعدوا
كل شيء للسفر . قطعنا الطريق بسلام بعد أن ودعنا بورسعيد
وصلنا مصر بالمنزل الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر .

الجمعة ٣١ أغسطس

صليت الجمعة بجامع بسوق الكائناتو ونزلت عصرا لفسحة
قصيرة بمصر الجديدة وأرسلت خطابات لبورسعيد لشكر الذين
خدمونا وخصوصا أحمد مرجان ومحمد المغربي ومحمود الهندي
والدكتور عباس الديدي (١) ومحمد العايدى وأبوه عبد الفتاح وحامد
الجزار ... الخ .

السبت أول سبتمبر سنة ١٩٣٤

— على بركة الله أول موسم العمل .

— اتصل بى تليفونيا محرم أحمد (٢) الذى كنت عرفتة معرفة
بسيطة قبل السفر ولا أعرف عن أصله وفصله شيئا ، كما

(١) دكتور عباس محمد الديدي كان مديرا لحدائق الحيوان بالجيزة .
وهو من عائلة الديدي من أكرم عائلات السويس ، ومن هذه العائلة الدكتور
عبد الفتاح الديدي .

(٢) عن محرم أحمد ، انظر كتاب لطفى جمعة « قطرة من مداد » ، المرجع
السابق ، ص ٥٧ - ٦٢ .

اتصل تليفونيا صلاح الدين الشيشيني وحفيد محمود الشيشيني بك ، المذكوران يعملان في راديو وادى الملوك وقه زرت الاستوديو مرتين أو ثلاثا .

الأحد ٢ سبتمبر

زارني جعفر أفندي منصور جارنا وقريب اسماعيل صدقي باشا وقال لي ان دينه وإيمانه هو الماسونية ولا يوجد شيء سواها ويظهر لي أن دينه تضائل بجانب عقيدته المنحصرة في الماسونية لظهورها أمامه بمظهر مادي . غفر الله له .

الثلاثاء ٤ سبتمبر

— اشتريت بعض الكتب ووصل الى خطابان أحدهما من عباس الديدي والآخر من محمود شبانة .

— قابلت محمد علي الطاهر وقال ان الثعالبي أرسل الى معه سلما مرتين .

— فكرت في البحث عن مدرسة لرابح المولود في سبتمبر سنة ١٩٢٨ ولعلها تكون مدرسة في مصر الجديدة .

الأربعاء ٥ سبتمبر

— استعرت كتباً من دار الكتب خاصة بأشهر القضايا في التاريخ .

— وأرسلت خطابا الى البلاغ طيه شكوى اولاد أخ حافظ ابراهيم الشاعر (١) وهم يموتون جوعا لأن بعض اقاربه الأغنياء وضعوا يدهم على تركته .

الخميس ٦ سبتمبر

اشتغلت فى الصباح بكتابة ثلاث مقالات فى الصوفية والصلاة .

الجمعة ٧ سبتمبر

اشتغلت طول اليوم بانجاز رسالة « أشهر القضايا » (٢) .

السبت ٨ سبتمبر

— ذهبت الى دار الكتب واستعرت ثلاثة كتب خاصة بالتاريخ الجنائى لأجل كتابى الجديد « أشهر القضايا وأبلغ الارافعات فى الشرق والغرب » واطلعت فى بعض الجرائد القديمة على ثلاث فضايا جنائية حدثت فى سنة ١٨٩٠ (جنايتا قتل وقضية اغتيال تركة الخاندار) .

— فى الساعة الثامنة مساء تركت المكتب وقصدت الحسين وقابلت عبد العزيز الاسطامبولى صاحب مجلة المعرفة فدعانى لزيارة

(١) للوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعة بشاعر النيل حافظ ابراهيم ، راجع كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الأعلام » ، المرجع السابق . ص ٢٦٢ - ٢٧٣ .

(٢) « سجل أشهر القضايا » رسالة أصدرها لطفى جمعة سنة ١٩٣٤ وكانت تتضمن أشهر القضايا الجنائية والسياسية والعاطفية كقضية دريفوس الشهيرة وغير ذلك من الابحاث القانونية .

منزل جلال سليم ابن عم فؤاد بك سليم بشارع سوق السلاح
فوجدنا مدخلا شرقيا جميلا وحديقة والتقيت بالشيخ أسعد خليل
المدني وقد وجدته ييكي خشية للقرآن ويكثر من الصلاة على النبي
وعنده حالات وروى لي تاريخ سلوكه ، وهو شاب ظريف يلتف حوله
الباشاوت والوزراء والعظماء ٠٠٠ الخ وطريقته نقشبندية •

الأحد ٩ سبتمبر

في الساعة الخامسة ذهبت الى المكتب حيث زارتني سيدة
متقدمة في السن أهدت الى نسخة من ديوان الألبان الضائعة نظم
حسن كامل الصيرفي وقالت انها حمة الشاعر الذي تزوج ابنتها
بواسطة أحمد زكي أبو شادي وطلبت مني تقييد هذا الديوان •

الأربعاء ١٢ سبتمبر

— قابلني محمد علي الطاهر وخير الدين زركلي وتكلما مليا
عن أحمد زكي باشا وتحدثنا عن سيرة الثعالبي ومنعه من السفر الى
تونس • وذكر لي الزركلي كتابين مهمين ، مفتاح السنة ورجال
السبعائة (أى القرن السابع الهجرى) وتكلم أحدهما وقال انه
رأى حقي بك العظم في صحة وهيئة مدهشة وكأنه عاد بالحياة
أدراجها من الصحة والقوة •

— كتبت مقالة في التصوف •

الخميس ١٣ سبتمبر

— قابلت الدكتور علي العناني فوجدته في حال يأس وصحبة
سيئة وهو في صمت عميق غير مفهوم وقد نفى يديه من الماسونية

أو كاد • ويظن أنه ينقل مكتبته الى مكان ثابت لأن الاتحاد العربى العام يدخل فى النزاع بفضل همة محمد رفعت ودجله •

– وبعد الظهر ذهبى الى « الماسون » لحضور حفلة رثاء أحمد عمر فرأيت ترتيبا مسرحيا ، نعيش وجمجمة وورد ومباخر ! ، وكان رجال الوفد قد وعدوا بالحضور فلم يحضر أحد ، وقام محمد رفعت وبعض القداماء بمراسيم الجناز الماسونى بحالة مرتبكة مضطربة وأدخلوا آيات قرآنية فى النصوص الماسونية مما أظهر التناقض ، وألقيت فى الحفل كلمة تأبين ثم تلاى العنانى فواحد آخر ثم ابن الفقيد •

– وفى الساعة التاسعة والنصف مساء قصدت سوق السلاح لزيارة الشيخ أسعد خليل المدنى فأهدانى لوحة مكتوب عليها « رأس الحكمة مخافة الله » وأهديته كتابى « تاريخ فلاسفة الاسلام » •

والشيخ أسعد عندما رأيته شاب فى العقد الثالث أسمر اللون حجازى اللهجة يتسم أحيانا وأحيانا يتطور ويخلق لحيته ومعظم شاربه وله لمة شعر سوداء ويلبس ثيابا من الكتان بسيطة وطاقية من الصوف •

وهو اذا اعترته الحال أغمض العين ويبدأ ينشد أشعارا أو أقوالا مسجعة يرتجلها ويستند فيها الى أية كلمة تقال أمامه أو شئى له مناسبة كقوله « هات القهوة ، القهوة دى شهوة ، وأنا جات لى شهوة ، جات الدنيا لهوة » ، « هذا الكون من سلطانك ، ما أعظم شأنك ، كل الأمور حسبانك ، وهذا الفعل شيطانك » •

وإذا اعترته الحال يحدث له شبه تشنج فى أعضائه ويكفهر وجهه ويحرق الارم أحيانا ويسمع لها صرير شديد • وللشيخ خلوة

بأسفل الدار ، وقد أفضى الى بأشياء كثيرة من حياته الماضية كرحلته الى تونس والى باريس وزواجه من « روضة العرافة » وسفروه الى اصطامبول والشام . . الخ ومجلسه لا بأس به وطريقته نقشبندية ، ويتكلم ببساطة قلب .

— أعددت مقالات للبلاغ .

الأحد ١٦ سبتمبر

— فى الساعة الخامسة صباحا خرجت من الدار وقصدت ضفاف النيل حيث شهدت فيضان النيل العجيب من عند روض الفرج ، فهو صحيفة واسعة من الماء المحمر الجميل ، هادى فى أماكن وفوار فى أماكن أخرى ، وقد صارت القرى والجزائر التى دنا منها وضمها الى صدره كأنها صور فى لوحات ، ألوانها زاهية وكذلك النخيل والحقول والسفائن التى تمخره كأنها لعب صغيرة يلهو بها هذا الجبار الكبير . وفى الساعة الثامنة ركبت رفاصا Launch الى القناطر الخيرية وكان المنظر بهيجا ونحن نسير ازاء الضفتين مندفعين بقوة التيار ووصلنا الساعة العاشرة فارتفعت على الحشائش الخضراء تحت ظل الأشجار حتى الساعة الرابعة ، وتحرك الرفاص الساعة الخامسة بعد الظهر وقرأت فى الطريق بعض قصص ادجار آلن بو ، وخطر فى بالى مشروع كتاب « دليل السالكين » للشهاب المثقفين فى التصوف الحديث ووضعت المشروع وكتبته .

— وصل الى خطاب من عبد العزيز الاسلامبولى يطلب فيه

كتاب تاريخ فلاسفة الاسلام والشهاب الراصد .

الاثنين ١٧ سبتمبر

وصلنى خطاب بالبريد من عبد العزيز آلشعالي يشكو حاله
ويطلب منى مقالة عن الجزائر ولكن المعلومات تعوزنى ، وفى الخطاب
نفسه كلمة من محمد اسعاف النشاشيبي يدعونى لزيارة المقدس .

الخميس ٢٠ سبتمبر

حضرت جلسة قضية عبد القادر حمزة والآن مضى على هذه
القضية سنة ونصف وحضرته دفع لى خمسة جنيهاً مقدم أتعاب
ومبلغ التعويض الذى يطلبه ألف جنيه ، وهذا الاستغلال يرتكن
فيه هذا الرجل الطيب الى أننى أبعث اليه بمقالات أسبوعية ولعله
ينتظر أن أحدهم مجانا وكان هذا والله أولى . لقد حضرت حتى الآن
أكثر من عشرين جلسة وقدمت مذكرة مطبوعة ، وهكذا الصداقة
والا فلا . فاذا ضممناه الى محمد مسعود الذى يريد اغتيال حقى
فى قضية البرنس يوسف كمال حيث ربح ألف جنيه - كان هذا
أجمل مظهر لرجال الأدب فى مصر ومعاملتهم لأصدقائهم الذين
ينفعونهم ، وبعد فراق ثلاثة أشهر بينى وبين عبد القادر حمزة لم
يقل لى كلمة طيبة ولا تحية تدل على شوق ونظريته هى أنه لو قال
لى الحمد لله على السلامة مقابلتك حسنة لكان ذلك سببا فى طمعى
فى تقديره أو اعتقاده برضاه . فتأمل !

الجمعة ٢١ سبتمبر

صليت الجمعة بجامع الكخيا ورايت أحمد حسين صاحب
« مصر الفتاة » يخطب ويقول « الله أكبر الله أكبر ! أيها المسلمون ،
كنا نحن المسلمين أعزاء وفتحننا العالم والآن نحن أذلاء يحكمنا

الأجانب » فلم يكتثر له جمهور المصلين وقبض عليه البوليس خارج المسجد وتوجه به الى قسم عابدين ثم أفرجوا عنه .

الأحد ٢٣ سبتمبر

ذهبت الى المكتب وحضر مظلوم الزجال وصديق مصطفى الصباحي وهو رجل صعيدى طيب القلب وأخبرنى أنه يريد أن يلقي أزعاجا بمحطة الاذاعة الحكومية وطلب منى الوساطة فى ذلك .

الثلاثاء ٢٥ سبتمبر

قرأت فى التصوف كتاب « الانسان الكامل » للجيلي وماسينيون فى الحلاج ، ودهشت من قول الجيلي ان افلاطون قطب زمانه !

الأربعاء ٢٦ سبتمبر

— فى الصباح أخذت معى عوايد المنزل وقصدت محل العوايد المذكور وعلمت أن منزلنا المبارك أخذ نمرة ٤ شارع حسن بك فايق الذى بنى بعدى بخميس سنين ولكنه نسيب محمود شكرى باشا فسررت بهذا (١) !! .

— عدت الى البلد وقصدى أن أشتغل فى جو هادى فى عمل أبحاثى عن اللغات السامية ، وزرت للمرة الأولى رابطة الأدب العربى وهى غرفة واحدة وفى وسط صحراء من البلاط والفراغ فى أعلا دور بصارة تيرينج وهى المؤسسة التى تحارب عليها أحمد زكى

(١) أصبح اسم الشارع بعد ذلك « شارع الأسبوطى » .

أبو شبادى وكامل كيلانى وآلت الآن الى الشيخ عبد الله عفيفى
(ع ٠ ع ٠ بالبلاغ) لذى لم أراه الا مرة واحدة فى محطة راديو
وادى الملوك ونزلت من هناك قبيل الغروب ٠

الأحد ٣٠ سبتمبر

فى الساعة الخامسة بعد الظهر قابلت الثعالبى صدفه فى
الأزهر واشترت كتاب « الكهف والرقيم » ٠

الاثنين أول أكتوبر سنة ١٩٣٤

زرت البلاغ وتحدثت مع محمد مسعود بالتليفون وطالبت
بأتعابى فاعتذر واستمهلنى لثلاثة أو أربعة أيام لمرض ابنه الصغير
زكريا ، فذكرته بالحق والصدق وكان يجاوبنى مجاوبة أهل
المظالم (١) ٠

٢ أكتوبر

راجعت فصلا من السيرة النبوية التى كتبتها باسم « بطل
الانبياء أبو القاسم محمد بن عبد الله » ٠ وقصدت لزيارة الشيخ
خليل أسعد المدنى فى سوق السلاح فقابلنى جلال سليم بك أخ
فؤاد سليم وأعلمنى أنه « عزل » الى دار وراء قصر عابدين فتركته
وذهبت الى الدار الجديدة للشيخ خليل وسلمت عليه وتركته
وانصرفت ٠

(١) للوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعة بمحمد مسعود ،
راجع كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الاعلام » ، المرجع السابق ، ص ٢٨٤ -
٢٩٠

الأربعاء ٣ أكتوبر

- فى الصباح لقيت عبد القهار مذكر (الملايو) فقال انه
انشق على جمعيتهم الخيرية (الجمعية الخيرية الاسلامية) وأنه
سيسافر الى بلده لوفاة أمه .

- وفى الساعة الرابعة نزلت لمقابلة فؤاد سليم بك (١) لموعد
سابق فعلمت انه ذهب لجنازة أخت مصطفى كامل باشا رحمه الله
فلم أدركه .

- وبعد ذلك زرنا الشيخ محمد أمين البغدادي الكردي
النقشبندى فوجدنا عنده أعيانا وبينهم الشيخ الطواهري شيخ
الجامع الأزهر وقد أثبت كلامهم ومجلسهم فى غير هذه المذكرات .

الجمعة ٥ أكتوبر

- أداء صلاة الجمعة بمصر الجديدة .

- مقابلة على العناني عصرًا بـ «قهوة «وازين» بمصر الجديدة
وقراءتي له نبذة من كتاب السيرة النبوية تأليفى وهى القسم الخاص
بالأجناس السنامية والآرية .

(١) فؤاد سليم هو زميل وصديق مصطفى كامل بمدرسة الحقوق ووالده
سليم باشا الحجازى أحد قادة الجيش المصرى فى عهد محمد على ، وكان من
زعهاء الضباط الذين ثاروا ضد وزارة نوبار باشا فى فبراير سنة ١٨٧٨ فى
عهد الخديو اسماعيل (عبد الرحمن الراقى) كتاب « مصطفى كامل » ، ط ٢ ،
القاهرة سنة ١٩٥٠ ، ص ٢٦ وما بعدها .

السبت ٦ أكتوبر

ذهبت عصرًا لزيارة الثعالبي لأعطيهِ خطابًا ورد إلى بعنواني ،
ثم ذهبنا إلى زيارة الدكتور طه حسين بمنزله بالممالك واقتربنا في
المباشرة .

الاثنين ٨ أكتوبر

تعدينا اليوم في منزل التسيخ على شقرون بشوارع حمام
الجمعة ببولاق وكان معنا محمد علي الطاهر والزنكلوني والرصاص
والثعالبي .

الأربعاء ١٠ أكتوبر

وسيطك الدكتور أحمد ضيف (١) في مسألة محمد مسعود
واتعابى المستحقة طرفه فأظهر مسعود نفورا من الدفع ولفق أحاديث
وقصصا سداها ولحماتها وغايتها هضم حقوقي .

الخميس ١١ أكتوبر

تخاطبت مع محمد مسعود بالتليفون وقلت له : كيف تريد
أن أفقد الأتعاب وأفقد صداقتك وكيف تمتنع فجأة من زيارتي ؟
فقال : هو أنا كنت صديق حضرتك ؟

وأظن هذا الرجل يضحى بكل شيء في سبيل المال . وان
شاء الله أفوض أمري في هذا الرجل .

(١) لمزيد من التفاصيل عن علاقة لطفى جمعة بالدكتور أحمد ضيف ، راجع
كتب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الاعلام » ، المرجع السابق ، ص ٤٦١ - ٤٦٦ .

الجمعة ١٢ أكتوبر

قضيت معظم هذا اليوم من الصباح مع علي العناني وتعلمنا في كل شيء من قديم وحديث وقال لي : ان الدكتور أحمد ضيف لم يقصر في مأموريته مع محمد مسعود واستحسن أن ينصحتني بأن أستعوض الله خيرا في أتعابي التي تقدر بمائة جنيه ، ولكنه لاحظ أن مسعودا لابد أن ضميره يؤنبه وأنه شاعر بمسئوليته نحوى .
هل رأى الناس مثل هذا الجحود ؟

الأحد ١٤ أكتوبر

— زيارتي ليلا للشيخ أسعد خليل وإحياء فكرة تدوين سلسلة كبرى الدين من الصغر الى الآن كجزء من مقدمة كتابي عن النبي .
— نشرت خطاباتي للشيخ محمد عبده في تاريخ الشيخ تأليف الشيخ رشيد رضا بالجزء الأول ، ص ٧٩٢ - ٧٩٦ .

الثلاثاء ١٦ أكتوبر

قابلت الثعالبي بسيدنا الحسين وقابلت علي العناني وأحمد ضيف وخليل مطران (١) ببصر الجديدة .

الخميس ١٨ أكتوبر

— موعد حفلة تأبين زكي باشا شيخ العروبة عند العمروسي .

(١) للوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفي جمعة بخليل مطران .
راجع كتاب د محمد لطفي جمعة وهؤلاء الاعلام ، المرجع السابق ، ص ٤٢٣ - ٤٢٢ .

— مقابلة الثعالبي لتاجر منزل له •

— زيارتي ليلا للشيخ محمد خليل الشاذلي •

الجمعة ١٩ أكتوبر

صلاة الجمعة ومقابلة الثعالبي والحديث معه في تاريخ النبي
والكتابة في تاريخ مكة للانتهاه من هذا القسم الأول •

الخميس ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٣٤

— استأجرنا بيتا للأستاذ الثعالبي نمرة ١٠٦ شارع شبوا
ودفعنا أجرة شهر والعقد لمدة ثلاثة شهور واستلام البيت باكر •

— ذهبت والثعالبي ومحمود الرصاع والفتيانى الى الشيخ
محمد خليل الشاذلي في مصر عتيقة وقال انه ألف كتابا في الزواحف
(الثعابين والعقارب) وأنه قادر على ترويضها وهي تعيش في غرفة
خاصة ببيته وأنه يشفى المرضى بسر الاسم الأعظم « الله أكبر بسم الله
الرحمن الرحيم » ، وأرانا الشيخ مئات الخطابات المغلفة التي لم
تقرأ الى الآن وجملة دوسيهات لطلاب الحاجات ، وقال للثعالبي
انه صبور ويحمل في جسمه بلوى وتركناه الساعة الواحدة وبعد
الخروج من عنده قال الثعالبي « هذا أدجل ما رأيته عيني » •

الجمعة ٢٦ أكتوبر

زرت الثعالبي وصلينا الجمعة بجامع الخازندارة وأكلنا ظهرا
وتحدثنا في تاريخ النبي ومكة وعبادة العرب قبل الاسلام •

شاهد — ٥٧٧

الخميس أول نوفمبر سنة ١٩٣٤

- قضيت اليوم في كتابة تاريخ مكة •

- سهرت عند النعالي وحضر عثمان عصمان من تونس وهو تلميذ ماسينيون وطالت السهرة الى الساعة الثانية بعد نصف الليل واقترح النعالي أن أقضى الليلة عنده ففعلت وقرأت قبل أن أنام الى ساعة متأخرة •

الجمعة ٢ نوفمبر

نهضت من النوم مبكرا بعد أن قضيت الليلة بمنزل النعالي وحضر محمود الرضاع • وصلينا الجمعة في جامع الخازندارة •

الأحد ٤ نوفمبر

أجبت دعوة الشيخ ماضي أبو العزائم في صيوان كبير وسمعته يخطب خطبة في الاسراء وينقلها للجمهور ابنه الشيخ محمد (١) •

الثلاثاء ٦ نوفمبر

- زرت الشيخ أبو العزائم فتكلمنا طويلا وتكلم هو في عالم التشبيه والتنزيه وعالم المثال والخيال وسجود الملائكة لآدم للمعرفة وأسرار التصديق والانفراد والوحدة ، وفسر سورة « قل هو الله »

(١) للوقوف على مزيد من التفاصيل عن علاقة لطفى جمعة بالشيخ محمد ماضي أبو العزائم ، راجع كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الاعلام » ، المرجع السابق ، ص ٣٠١ - ٣١١ •

أحد « واحتراق الملائكة الكروبين (١) Cherubin وقال انهم
مملؤون بالكرب (كذا ١٩) ، ثم كلمته بشأن مريده محمد عبد ربه
فقال انه تلميذ ضال .

- قابلت النائب العمومي لبيب عطية بك فقابلني أحسن مقابلة
فله الشكر .

الأربعاء ٧ نوفمبر

أهم حادث اليوم هو ما وقع بيني وبين عبد العزيز الشعالبي ،
فان هذا الرجل انفلت عياره المعنوي ، فقد قلت له يجب عليك أن
تستثمر مواهبك العالية وأنه بدلا من قضاء مدة في الكلام مع الشبان
الذين يزورون هذا المكان يحسن أن يدرّبوا على التسويد
والتببيض ، فذهب ذهنه الى أنني أتهمه بأمور شاذة ، وأرغى وأزبد ،
فدهشت . ولاحظت أنني ذهبت الى بيته الساعة الرابعة وقرأت
له مسودات كتابي « بطل الانبياء أبو القاسم محمد بن عبد الله »
وقضيت معه أكثر من ثماني ساعات وأكلنا معا خبزا وجبنا وفاكهة .
وقد حضر هذا الحادث محمود الرصاع ابن وطنه .

(١) الكروبين أو الكروبيم في التوراة مخلوقات ليس لها وظيفة الملائكة من
حمل رسالة الله ، ولكن لها ست وظائف ذكرها العهد القديم وجميعها تندرج تحت
وظيفتين أساسيتين : الأولى الحراسة . (خراسة تابوت العهد وخراسة الهيكل
وخراسة شجرة الحياة) ، والثانية حمل عرش الله سبحانه وتعالى . ويقول
الزمخشري في كتابه « الفائق » ان الكروبين هم سادة الملائكة ، جبرائيل وميكائيل
واسرافيل ، وهم المقربون من كرب أي قرب ، وقيل ان الاسم مشتق من الكرب
وهو الحزن لشدة خوفهم من الله وخشيتهم اياه ولكن هذا خطأ .

الخميس ٨ نوفمبر

— فى الصباح تنقيح المقالات الأولى من كتاب « أشهر القضايا العالمية » .

— طلب الشيخ سيد عبد السلام مقابلتى فقابلته ومعه صادق عنبر .

الجمعة ٩ نوفمبر

نشرت الأهرام اليوم مقالتي « مصر فى مفترق الطرق » .

السبت ١٠ نوفمبر

— قابلت الصاوى محمد وكلمنى عن التعاون معه فى مجلة سيصدرها قريباً ويعاونه فيها توفيق الحكيم (١) .

.. ذهبت الى محطة الاذاعة وقابلت أحمد سالم (الطيار) وقهمت أن سعيد لطفى بك أخ أحمد لطفى السيد أصبح لا شأن له بالاذاعة وأنه مستشار شرفى وطلب منى محمد أفندى فتحنى المذيع فى محطة اذاعة الحكومة مراجع فى علم الفولكلور .

الأحد ١١ نوفمبر

— ذهبت للشيخ محمد أبو العزايم فتكلم فى التصوف وعرض على الاشراف على مجلته « المدينة المنورة » .

(١) هى مجلة « مجلتى » التى صدر العدد الأول منها فى أول ديسمبر سنة ١٩٣٤ وجاء فى افتتاحيته أن « رسالة مجلتى هى اللحاق بالادب الغربى الذى خلق بالطيارة ، بينما ادبنا يسير كالسلفاء ، واكبر عماد للادب الغربى هو القصة . لذلك ستكون القصص عماد « مجلتى » . بين كلاسيكية قديمة وعصرية مستحدثة من كل اللغات الحية ومن صميم الحياة المصرية ... وستعنى عناية خاصة بمشاكلنا الاجتماعية وشئوننا النسائية وحركتنا الادبية والفنية والرياضية ... » .

— قابلنى محمود الرصاص واعتذر لى عن الثعالبى وقال لى انه
ندم كثيرا وقضى ليلته لا ينام وليلة أخرى وقال كان يجب على أن
أتأكد من نية الأستاذ لطفى قبل أن أواجهه بالعداء . فلم يهمنى
هذا القول .

الاثنين ١٢ نوفمبر سنة ١٩٣٤

— هذا آخر ما كتبته فى هذه المفكرة اليومية .

— من أغرب المصادفات أننى لم أعر على هذه المفكرة الا اليوم
١٢ سبتمبر سنة ١٩٤٢ ، أى بعد ثمانى سنوات كاملة . وفى نفس
الوقت الذى وقفت فيه كتابتى فيها من سنة ١٩٣٤ أعدت قراءتها
وقراءة ما خططته سنة ١٩٤٢ ، وأعجب ما وجدت أن الناس لم يتغيروا
نحو الخير بل الناحية الأخرى وأننى باقى على حالتى المعاشية
والأخلاقية أشكو ما كنت أشكوه ، وانه لحكمة أننى اكتفيت بهذا
القدر فى الماضى ليكون نموذجا لكل الحاضر كأن الحوادث تتكرر ،
بيد أن كثيرين ابتعدوا بانثقالمهم أو بالموت كعبد القادر حمزة .
غير أن الأولاد كبروا وأزمة الحرب العالمية مستحكمة . وسأعيد الكرة
بقراءة ما كتبته فى ٧٢ يوما كاملة من سنة ١٩٣٤ فانه نموذج
لحياتى العملية والعائلية والعاطفية فى مدينة القاهرة بعد عودتى
إليها من أوروبا بعشرين عاما فتأمل !

محمد لطفى جمعه

١٩٤٢/٩/١٢

سنة ١٩٣٥

فبراير سنة ١٩٣٥

قال لى أحد الأشخاص انه سمع من رجل أمريكي يشغل منصبا علميا أن الانجليز قالوا انهم مستعدون أن يعقدوا اتفاقا مع الحزب الذى يتفق معهم على معاهدة على أن يضمونها له الحكم الدائم فى مصر مع حمايته وترك حريته مطلقة فى حكم البلاد . وقال لى هذا الشخص ان هذا يكون من أعجب الامور (١) .

(١) هذا فقط ما سجله لطفى جمعة فى يومياته عن سنة ١٩٣٥ .

سنة ١٩٣٦

١١ من يوميات سنة ١٩٣٦

١١ ديسمبر سنة ١٩٣٦

لم أتناثر مثل ما سمعت اليوم الساعة الثامنة عشرة خطبة
الوداع التي ألقاها ادوار الثامن في وداع وطنه وتهنئة أخيه
والتوصية به ورغبته في خدمة وطنه وتمسكه بحبه ورغبته في انشاء
بيت سعيد وحياة هادئة ، وأنه سترك بلاده لبعض الوقت
some time ولكنه مستعد لخدمة البلاد ، وكان صوته متهدجا
ومتأثرا .

١٤ ديسمبر

— زيارتي للشيخ اسماعيل الباز أخيرا في عيد الفطر بالسويس
وترجمة حياته ووصفه وأحاديثه الصوفية .

— كتابة موضوعات لمجلات أبو شادى (١) عن الشعراء
المنصوفين كابن الفارض وابن عربى ورابعة العدوية وغيرهم ومذكرات
وذكريات عن المدرسة الخديوية بالمقطم واللطائف .

(١) للوقود على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعة بالشاعر أحمد
زكى أبو شادى ، راجع كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الاعلام » ، المرجع السابق ،
ص ٤٠٣ - ٤٢٢ . وراجع أيضا رسائل أبو شادى الى لطفى جمعة فى كتاب
« حوار المفكرين » ، رسائل اعلام العصر الى محمد لطفى جمعة خلال نصف قرن
(١٩٠٤ - ١٩٥٣) ، ص ٣٢٨ - ٣٥٧ ، عالم الكتب ، سنة ٢٠٠٠ م .

١٩ ديسمبر

اقترحت الحكومة البولندية اسكان الزائدين لديها من اليهود في جزيرة مدغشقر الفرنسية . والمفهوم أن حكومة فرنسا أجابت أن حالة الجو وغيره في تلك الجزيرة لا تسمح بقبول أكثر من عدة مئات من الأوروبيين وقد أعلنت فرنسا رضاها بادخال هذا العدد المحدود الى مدغشقر بشرط ألا يكون كلهم يهودا بل من ملل مختلفة ، وينتظر أن ترى بولندا في ذلك فشل مشروعها .

٢٠ ديسمبر سنة ١٩٣٦

تسير المقاطعة العربية في فلسطين بشكل صامت بخديه الكراهية فلا يدخل عربى متجرا يهوديا وقد حرم اليهود على فقرائهم شراء اللبن من فلاحى العرب ونقلوا متاجرهم فى القدس الى أحيائهم الخاصة ، ومحا العرب الكلمات العبرية التى كانت مكتوبة على اللوحات المعلقة على متاجرهم .

سنة ١٩٣٧

من يوميات سنة ١٩٣٧

ليست العبرة في تدوين المذكرات بالوقائع التي يصفها الكاتب أو بالأشخاص الذين يصفهم أو بالأحاديث التي تنطوي عليها ، ولكن العبرة في كل ذلك بأسلوب المذكرات وفهم الكاتب لما يريد ان يكتب والمغزى الذي يستطيع استنباطه ، فأولا وضوح الذهن وجعل الأسلوب منطبقا على الأفكار المفزعة في قلبه ، وصدق الوصف ونقل صورة صادقة من جو الحوادث والشخصيات .

انظر الى مذكرات تاسيت عن عهد تيريوس ونيرون والى مذكرات أحمد شفيق باشا في نصف قرن ، فانه بينما ترى كتاب تاسيت كأنه كائن حي ينطق ويلعب في يدك ، ترى مذكرات شفيق كالجسد الميت الأصم الأبكم بسرده حوادث والفاظ مرصوة والقباب ورتب ونفوذ بدون ثمرة أو نتيجة .

السبت ٢ يناير سنة ١٩٣٧

مساء قابلت اسكندر مكاريوس فتكلم معي في أمور كثيرة فقال انه يتقن منافقة الحكومة الوفدية ، فهو ينتقد مسألة انزال الطيارين ولكنه يحمى الحكومة في جريدته ، ثم قال انه كان يفضل التخلص من مسز سمبسون على طريقة السلطان عبد الحميد ويعطوا عشرة

آلاف جنيه لأرميني يهودى أو رومى (كذا) ليسقيها فنجان الشاى
مزوج بالسسم ، فدهشت من كلامه ، فقال : هكذا يجب أن تكون
الحياة السياسية ! ولم أكن أظن أن هذا الشخص الذى يتظاهر
بالوداعة والشفقة أن يكون مبيحا للقتل لأى سبب ، وقال انهم
يقتلون الملايين فى الحرب فلا بأس من قتل امرأة واحدة لانقاذ
الامبراطورية البريطانية (١٩) .

١٠ يناير

— قابلت نقولا حداد بقهوة بول نور ولخصت له مسألة روايتي
« لحظة الضمير » وأن خليل مطران تواطأ مع ادمون تويما على اغتيالها
وصنعوا فيها سيناريو أعطوه لأم كلثوم وشركة فيلم الشرق باسم
« نشيد الأمل » ، فدافع عن خليل مطران ، ولما توجهنا للأوبرا
قابلنا تويما وقدم لنا « بروجرام » الفيلم الذى سيعرض غدا (١١)
بسينما رويال ، ثم قال لنا فجأة « أنا أخذت القصة من أصل
فرنسى ولكن بتوع الفيلم غيروه » . فقال لى نقولا حداد ان هذا
الكلام منه أمامى بدون مناسبة دليل على وجود شيء فى ضميره
يحتاج لتبرير موقفه أمامك ، وقرأ معى الملخص ووافقنى على قولى
وأشار على بمقابلة خليل مطران ومفاتحته فى المسألة وقال انهم
يستحقون رفع قضية عليهم .

— قابلت الدكتور على العنانى وحسين شفيق مجتمعين ، فقال
حسين شفيق انه سمع من تويما أنه أخذ قصة السيناريو « نشيد
الأمل » عن أصل فرنسى ولكنه لم يقل عن المؤلف . وقال عنانى
ان مطران قال له ان رواية لطفى بك قبلت وأنها ستمثل ولكنه
تعجل فطلبها . وبحثت معهما المسألة ، فقال حسين شفيق أنا مقتنع
بكلامك وأنتك أحدثت لى حسرة ما بعدها حسرة وهذه خيبة أمل
لا مثل لها وفى من يثق ومن نأتمن بعد ذلك ؟ .

وقال العناني انه يجد مبررا لمطران لو أنه أثبت أن تويما سرق القصة بدون علمه ، فرد عليه حسين قائلا : كان مطران رئيس لجنة بنك مصر واطلع على سيناريو لطفي وهو مدير الفرقة وقرأ الرواية ووسط وسيطا بين أم كلثوم وتويما وقدم لها الفيلم بأنه جيد وفوق الجيد فهو اذن يعلم ولو لم يكن هو الذي توسط فعلى الأقل قرأ في كل الجرائد ملخصه وموضوعه ، ولابد أنه يكون شاهده فماذا عمل بعد الخطاب الذي أرسلته اليه في أربع صفحات ؟

ورأى العناني وحسين شفيق هو رفع دعوى على الشركة وعلى الرجلين (مطران وتويما) ومسئولية خليل أنه مكن تريما من سرقة الرواية . أما نظرية توارد الخواطر فهي مرفوضة لأنها تصح في حالة عدم وجود الأصل . وأهم ما يراه شفيق الزام تويما بأبراز الأصل الفرنسي .

١١ يناير سنة ١٩٣٧

قال الشيخ البغدادى بحضور المفتى عبد المجيد سليم انه وهو طفل كان يرى الأولياء المدفونين على صورة أحياء جالسين ، فرأى أبا حنيفة ومعروف الكرخى . . . الخ وكلهم على هذا الوضع . ثم قال : يرى الله سبحانه وتعالى رؤية قلبية يقينية . فقال الشيخ عبد المجيد سليم ان أبا حنيفة قال انه رأى الله أربعين مرة ، وأن الشيخ محمد عبده روى له (أى لعبد المجيد هذا ؟ !!) أنه رأى شيخه حسن رضوان وساعده فى حل مسألة عويصة فى الغيط ! ورأى النبى مرة وقال يرى النبى يقظة . وقال عبد المجيد سليم رؤية الله فى المنام . فقال الشيخ البغدادى هذا ضعيف بل فى اليقظة . ثم رجا الشيخ ذلك المفتى فى مساعى قضائية فرده الشيخ عبد المجيد مستندا على قول الشرع والقانون أن الرجا فى القضاء

حرام وأنه لا يقابل أحدا من أرباب المصالح حتى الافتاء . وظهر
لى أن الشيخ عبد المجيد سليم مفتى الديار المصرية شخصية
بسيطة ، ومن المدهش أنه حل المحل الذى كان فيه الشيخ محمد
عبدہ والشيخ أبو خطوة .

١٤ يناير

فى ١٤ يناير سنة ١٩٣٧ بمدينة لكو مارست امرأة من
البراهمة العادة التقليدية بإحراق ذاتها أمام هيكل أجرا أثناء
الاحتفال بتشييع جنازة زوجها ، فكان صراخ الألم يكاد يغطى على
دق الطبول ورنين الصنوج ، ووقف جمهور كبير ليشاهد المرأة وهى
تحترق حتى ماتت قبل أن تتمكن الشرطة من التدخل فى أمرها .
وعلقت جريدة أفرنجية على هذا الخبر فقالت « ان الاستعمار
الانجليزى لم يستطع منع هذه العادة التى هى من شعائر الدين
وأن وجود المتفرجين بكثرة دليل على تأصل التمتع بالقسوة
« ساديزم » فى قلوبهم » .

ولكن الفضل يرجع الى الشارع الذى جبل نفس الشعب على
إعدام المرأة على هذه الصورة صيانة لها بعد موت زوجها ، فهو
علاج للغيرة الحاصلة بعد الموت Posthumons ، ولعل هذه العادة
من دواعى اخلاص الزوج لزوجته طول حياته ومن موانع تعديها على
حياته بايعاز عاشق أو مزاحم ، لأنها تعلم أن عمرها ينتهى بانتهاء
عمره ، فالتضامن جميل فى ذاته وان كان ثمنه غاليا .

والهند تقلل عدد النساء بهذه العادة الدميمة وتقاوم كثرة
المواليد بقتل الاناث وهى تقابل عادة وأد البنات فى جاهلية العرب .
ولماذا لا يحترق الزوج عند وفاة زوجته ؟ لأنه بطبعه - حتى فى

حياته - قد أرادته الطبيعة مزواجا Polygume ، ولو عرفت المرأة الأوروبية أنها تحترق بعد وفاة زوجها لكانت عنايتها بغذائه وراحته وصحته أعظم مما نرى ، ولنفخت هذه العادة في روح العفة والأخلاق وربأت بالمرأة من أن تكون متاعا لجملة رجال اذا مات زوجها الأول .
فما أبعد المسافة من أخلاق المرأة التي تحترق بعد الزوج والأخرى التي تقبض بوليصة التأمين بصفة « دوطة » لهريس جديد !

ان في الشرق أمورا يحتاج الغرب لتعلمها .

١٥ يناير

كتبت خطابا الى خليل مطران بخصوص سرقة روايتي بواسطة ادمون تويما (١) ، وتكلمت مع مصطفى القشاشي صاحب مجلة الصباح ولخصت له الموضوع .

١٨ يناير

- قابلت ابني زكريا وهنأته بعيده الذي هو عيدي .
- وقابلت الشيخ سيد عبد السلام في قهوة بلدي وحضر الشوربجي والشيخ محمود عبد السلام ثم ذهبنا الى سيدنا الحسين فصيلنا العشاء .

٢١ يناير

- خطب أحمد ماهر في محفل الشرق الاكبر وقال عن معاهدة سنة ١٩٣٦ « قد حصلنا على هذه المعاهدة على ما فيها من نقص وعيوب وهي تعد خطوة في نيل غايتنا وهي الاستقلال » .

(١) انظر هذا الخطاب في كتاب « محمد لطفي جمعة وهؤلاء الاعلام » المرجع السابق ، ص ٤٢٧ - ٤٣٠ .

- تكلم معي نقولا حداد فقال ان وجود الأسرة على وضعها الحالى أكذوبة كبرى اذ هى استغلال للزوج طول حياته لمصلحة الأولاد والزوجة ، ويعيش الزوج كل حياته يعمل حتى يقع تحت عبء حملته ، وقال ان هذا الموضوع مهم لأجل رواية توضع فيها كل هذه الأفكار لأنها خلاصة ثورة اجتماعية كبرى وأن هذا الموضوع يعجبه ويجوز فى خاطره منذ زمن طويل .

٢٣ يناير

حكى لى اسكندر مكاريوس فى محل الأمريكين قصة المقطم فقال لى ان فى الحياة البشرية الحقيقية مأس أفظ مما تراه فى السينما ، فحكى الدكتور فارس نمر الذى أنعموا عليه برتبة باشا وهنأتة أكبر رجل شرير على سطح الأرض ، كره جميع المصريين عند جميع الشعوب وظلمنا يميناً وشمالاً وقلبه خال من الإيمان والانسانية ، فقد ظلم أبى شاهين مكاريوس صاحب فكرة المقطم وعمل حيلة شيطانية هو وصروف على ظلمه وجعل نصيبه الربع بدلا من الثلث وكان أبى دنيا يحتاج ومات من الجزن . وظلم أخى سليم فقد أعطاه مائتين وأربعين جنيهاً للعلاج ، فلما مات احتسبها من مرتبه ولم يجعلوا له مكتباً فى المقطم مع أنه قد عمل كل حياته فى أنهاضه . والمحرج جميل فهمى انتحر من البؤس وجاءت امرأته تطلب مصاريف دفنه فرفض الدكتور نمر فجمعها لها عمال المطبعة .

وأساء الى كل انسان احبته به واجتهد أن يأكل حقوقه وقد أكلها بالفعل . وقد اقتنى ٧٠٠٠ سبعة آلاف فدان وبعضها أطيان يعقوب صروف نفسه ، ضحك عليه حتى اشتراها منه وجرّد أسرة صديقته وشريكه من الملك العقارى وان ثمنها على الأقل ٧٠٠ ٠٠٠ سبعمائة ألف جنيه وأن ايراده لا يقل فى العام عن عشرة آلاف جنيه

وأنه نموذج للخيال واللؤم والخيانة لأصدقائه وأقاربه وأنه أعظم ممثل للانانية والفرد والشح في العصر الحديث .

وشكوى مكاريوس الآن تدور حول أن فارس نمر باشا (١١) هو و خليل ثابت (زوج أخت مكاريوس) يدسون لينزعوا نصيب مكاريوس وأخوته من المقطم ليستولى عليه في النهاية خليل ثابت ، وأن هذا هو السبب في إهمال المقطم في الوقت الحاضر ليسقط إirاده ويسترده نمر بأرخص ثمن من عائلة مكاريوس مع أن نمر يستفيد من المطبعة ومن إيراداته الخاصة .

وقال لى مكاريوس ما نصه « اننى شامى ومحب للإنجليز وهذا الرجل خالى ولكننى لم أدهش ولم أغضب ولم أحتقر عملا من أعمال الحكومة أو الأمة المصرية مثل منح لقب باشيا لهذا الرجل الذى قضى حياته فى خيانة مصر ومقاومة حريتها والحق من قدر أبطالها مثل مصطفى كامل ، فأى مثال سيى يعطى للخونة والأشرار فى المستقبل من نفس هذه الأمة التى نالوا منها وشتموها ؟ » .

ثم قال بعد ذلك انه اذا كان البرنس محمد على (رئيس مجلس الوصاية) هو الذى صنع ذلك فقد وصم تاريخ حياته الى الأبد .

وقال انه عندما عين خليل ثابت عضوا فى مجلس الشيوخ هاج نمر وماج وأحضره وقال له بدون أن يهنئه « من الذى أعطاك هذه الوظيفة وكيف تم ذلك بدون علمى ؟ » . فقال له خليل ثابت : وماذا يهمك أنت يا باشا ؟ أنا لم أعرف ولكنك أنت نلتها قبلى ولعلك لست مبسوطا لأجل ذلك ولكن تعيينى فى المجلس ليس غلطى .

وقد علم كريم ثابت بهذا الحديث فهاج وماج وسب وشتم
ويظهر أن هذا من أهم أسباب خروجه على المقطم واشتغاله في
جريدة المصري .

٢٧ يناير

- أرسلت اليوم خطابا للنحاس باشا أطلب فيه تسهيل الحج
لى فى هذا العام .

- قابلت اليوم مصطفى القشاشى حسب وعدنا واطلعتة على
ملخص الفيلم « الحب والواجب » أو « يقظة الضمير » التى انتحلها
ادمون تويما لنفسه فاقتنع خصوصا عند رؤية عبارة اللعب والطفل .
وفيما يلى ما قاله لى :

انه اتصل بعبد الحليم محمود أحد أعضاء الشركة فقال له
اننا أخذنا تعهدا على تويما بأنه مسئول فى حالة ظهور أنه سرق
هذا الفيلم من أى مؤلف وأنهم استدعوا تويما وسألوه فأكد لهم أن
الموضوعين مختلفان كل الاختلاف (أى موضوعى وموضوعه) .
وهنا قال القشاشى فمن أين له معرفة موضوعك ان لم يكن قد اطلع
عليه . فقالوا له ان الشركة لا تريد أن توجد بين لطفى جمعه وبينها
علاقة قانونية ، فرد عليهم القشاشى بأن لطفى اذا رفع عليكم قضية
فأنتم تدخلون فيها تويما وما يحكم به ضدكم للطفى يحكم به على
تويما لكم فقالوا اننا مستعدون للقاءه ونشرب القهوة معه فى بنك
مصر فى أى وقت شاء .

ثم قال لى القشاشى اننى استوضحت الأمر تماما وأرجو أن
ترسل الخطابين الى تويما ومطران وائنى مستعد لنشر كل ما تريد
نشره فى المجلة وهذا واجب على لك . ورسم الخطة الآتية :

مقابلة عبد الله أباطة وارسال الخطابين ومقابلة مطران
شخصيا ونشر الخطابين ثم الفيلم ثم تحليل الفيلمين وأخيرا رفع
القضية .

ثم قابلني مصطفى الصباحي وعنوانه كوكب الشرق شارع
الوابور سيدى زين العابدين نمره ٥ وحكى له فجزم بأن مطران
مشترك مع تويما بالأدلة الآتية :

١ - أن خليل مطران اطلع على الرواية الأصلية التمثيلية وبقيت
عنده سنة وأكثر وقال لك انها مقبولة وأنت سترى ثمرات
مجهودك على المسرح .

٢ - أنه اطلع على السيناريو الذى أرسلته الى بنك مصر وعليه
ختم الشركة .

٣ - أنه بشرك بالنجاح عنه فى التليفون وفى المقابلة التى تمت
فى سبتمبر سنة ١٩٣٦ .

٤ - أنه قدم الفيلم الذى انتحله وادعاه تويما الى أم كلثوم وقال
لها انه « كويس وفوق الكويس » .

٥ - أنه سمح لرجال فرقته بالتمثيل فيه .

٦ - أن الفيلم نشر فى جميع الجرائد ولا يمكن أن مطران لم يطلع
عليه .

٧ - أن تويما يد مطران اليمنى فى الفرقة القومية .

أما الأدلة على تويما فهي :

١ - ادعاؤه أنها ترجمه عن الفرنسيوى ولم يبرز الأصل وقد قال:
هذا القشاشى كما قاله لى بحضور نقولا حداد .

٢ - أنه بادر باعطائى نسخة من البروجرام .

٣ - أنه طلب منى رواية للمسرح أمام طاهر حقى مع أنه كان يعلم
أن روايتى مضى لها سنة عند مطران أى فى متناول يده وقد
قرأها .

أما سبب عدم تمثيل روايتى بواسطة مطران فهو خوف مطران
من ظهور موضوعى بعد الفيلم أو قبله ، فيقارن الناس وتظهر
الحقيقة ، فخلق مطران روايتى ولذا حمدت الله على أنى سحبتها
ولم يحرقوها أو ينكروها .

وقال الصباحى ان مطران خاننى شخصيا فلم يعطنى مبلغ
١٢ جنيها أجر كتابة مقالات أسبوعية فى كوكب الشرق والبلاغ
والأهرام مدحا فى الروايات التى مثلت وهذا المبلغ من ضمن مبلغ
آخر لأجل الدعاية .

الخميس ٢٨ يناير

- فكرت فى تأليف رسالة صغيرة موضوعها « الاشتراكية فى
الاسلام » أو الاشتراكية الدينية التى تنطوى على التكافل والتعاون
والتراحم والعدل الاجتماعى .

— أرسلت خطابا الى حضرة صاحب المقام الرفيع النحاس باشا
اطلب فيه قبول هديتي الى مشروع الدفاع الوطني وهو خمسمائة
نسخة من كتابي فلاسفة الاسلام ثمنها مائة وخمسون جنيها ،
واقترحت عليه تسهيل سفرى الى الحج لأداء الفريضة •

— حفلة احياء ذكرى حافظ ابراهيم :

كانت لجنة رثاء حافظ ابراهيم بطرف جعفر ولى قد كتبت
الى لأشترك فى اللجنة • واليوم قصدت جمعية الشبان المسلمين
لحضور الحفلة فوجدت شبان الحقوق يحاولون التثقف وفيهم من
لا بأس بهم كالذى بحث فى شعر حافظ وميله للبؤس ، وكلمة فريد
وجدى لا بأس بها ، أما رئيس الجماعة حمادة الناحل فمشروع
خطيب ويمكنه أن يثير الجماهير الساذجة •

٣٠ يناير

— كتب صحفى انجليزى فى الديلى هيرالد عبارة كانت تتردد
فى نفسى منذ عشرات السنين وهى أن العالم مخدوع فى أن حكومة
سويسرا حكومة حرة ، وعدد الكاتب مظالم سياسية خفية كاضطهاد
الصحفيين وتلفيق القضايا للاشتراكيين (برتونى سنة ١٩٠٩)
ومضايقه أحرار الفكر ومؤازرة روسيا القيصرية (واسبليف)
وايطاليا (حرب الحبشة) •

فاتخاذ جمعية الأمم مقرا لها فى هذه المدينة الظالمة مسألة
فيها نظر • فهى التى أقامت محاكمة سرفيه (ميشيل) مكتشف
الدورة الدموية وتحكم كالفرن فى حكمها دينيا ومدنيا وبوليسها أسوأ

بوليس وحكومتها أخبرت حكومة والخلاصة فان نفاقها يلائم نفاق
جمعية الأمم التي اختارتها مقرا .

— يفكر الشسوام فى احياء ذكرى أحمد فارس الشدياق .
لقد بدأ الشرق ينهض ويحيى ذكرى رجاله .

— ان سومرست ماحوم هو وحده الذى فهم المرأة باعتبار
انسانى وعالجها فى كل أحوالها وحكم عليها حتى جعلها وهى أم
تتواطأ على قتل ولدها المريض الميئوس منه لتخلصه من عذاب الحب
والآلم ، والمرأة فى نظره دائما خاضعة للحاجة الجنسية وهى التى
تحركها وهو يغض الطرف عن تأثير الطبيعة فى تكوينها وحاجاتها .

وأحب أن أكتب له خطابا وأتصل به وأن أكتب تمجيذا لأنه
الكاتب الوحيد الذى يوافقنى ، دع عنك توماس هاردى فهو الآخر
كذلك ولكنه غامض ومحتشم ومتردد .

أول فبراير سنة ١٩٣٧

— فى الساعة الرابعة بعد الظهر قابلت خليل مطران فجأة
بباب جريدة الأهرام فقلت له : أجر وعافية ، فقد سمعت بمرضك
وترددت بمنزلك لعبادتك .

فقال : أهلا وسهلا بالصديق الحبيب ، أنا شاكر لك فضلك
وان لم يخبرنى أحد بحضورك ، وقد قضيت أربعين يوما طريحا
فى الفراش وآسفاه على أن هذه الحوادث السيئة لا تقع الا مع
الأحباب وهكذا شاءت الاقدار . أحب أن أحضر اليك لأجلس معك
مجلسا لطيفا .

فقلت : بأى خصوص يا أستاذ ؟

قال : بخصوص خطابك الذى وصل الى ولم أرد عليه لعجزى بسبب المرض ، فانى الآن لا أستطيع أن أكتب شيئا ، والآن أقضى أسوأ الليالى فى حياتى ، فلا أنام بل أرق وضيق فى التنفس. ولا أهضم شيئا من الطعام ، فاذا أكلت « لبن زبادى » أو خضارا مسلوقا أعود كالمرأة الحامل والليل طويل طويل يا أستاذ !

فقلت : لا بأس عليك .

قال : وأنا أخرج نادرا « للتشميس » وأجلس عند الطرابيشى الذى على قمة الشارع أمام النقابة الزراعية لاكون قريبا اذا طلبنى أحد .

فقلت : والى أين ذاهب الآن يا أستاذ .

قال : أنا ذاهب لمقابلة الموسيو اميل فابر فانه نازل فى فندق متروبوليتان ولم أتمكن من الذهاب لاستقباله كما أشاعوا أننى ذهبت الى اسكندرية بل عينت له بعض الموظفين فى الفرقة القومية ليعطوه المعلومات التى يطلبها وأنا أقابله فى الفندق من حين الى آخر وهذه هى المقابلة الثالثة ، فأنا تحت أمرك فى أى يوم تضرب لى تليفون فى النقابة الزراعية فأحضر اليك فى عربة مقفلة « ليهوزين » فنجلس مجلسا لطيفا نتحدث فيه ونصفى كل شىء .

وكان خليل مطران يتكلم بصوت واطى ولم يستطع أن يرفع وجهه أو عينيه فى وجهى ولم يجرؤ أن ينظر الى وجهها لوجهه en face ، وكان محنى الرأس ، محنى الظهر وأذناه متدليتان بحالة مؤلمة .

وقد هممت أن أقول له قولاً موجعاً وهو يصعد في تعب مصطنع
أو حقيقى سلم فندق متروبوليتان ولكن أشفققت عليه ولم أشأ
لأن جميع شخصه وسلكه كان يدل على أنه مذنب مريب ويكاد
يقول « خذونى » ، بل يطالب الرحمة ، فأمهلته الى أن أخاطبه بعد
يومين لأدعوه لهذا المجلس الذى يصفه « بالطف » .

— خاطبنى رجل يدعى الاشتغال بالسياسة الخارجية وفهها
فقال :

ان انجلترا تندهور وتنحل بالأدلة الآتية :

- ١ - قانون وستمنستر الذى فكك أوصال الامبراطورية .
- ٢ - استقلال ايرلندا .
- ٣ - ميل كندا الى الانضمام الى الولايات المتحدة الأمريكية .
- ٤ - انتصار ايطاليا فى حربها مع الحبشة .
- ٥ - انهزام انجلترا أمام ايطاليا فى البحر الأبيض .
- ٦ - دستور الهند .
- ٧ - معاهدة الجنتلمان بين ايطاليا وانجلترا عن البحر الأبيض .
- ٨ - معاهدة مصر وانجلترا سنة ١٩٣٦ ، وان كانت ضد مصر
الا أنها تقهر بريطانى .

٩ - رغبة ايرلندا فى ادخال (٠٠٠) (١) معها .

١٠ - عزل ملك الانجليز ادوار النامن وهو أقوى ملك بعد فيكتوريا .

١١ - انحطاط مستوى رجال السياسة وظهور أمثال بولدوين وهور وايدن وأمثالهم .

٤ فبراير

- عندما قابلنى مطران يوم أول فبراير سنة ١٩٣٧ كان يعلم أنه سيسافر الى اسكندرية مع الفرقة القومية ومع اميل فابر ولذا سيفيب جملة أيام ، فطلب منى أن أخاطبه فى التليفون ليزوغ ويمضى الوقت المناسب للعمل ، وأذن فقد تكلم معى ووعد بسوء نية ثابتة لا شك فيها .

١٢ فبراير

صلاة الجمعة مع الملك فاروق :

دعيت الى ذلك فى جامع مصر الجديدة الذى بنته الأوقاف ، فذهبت عند الساعة الحادية عشر والنصف وكان الجمهور مكتظا وراقنى رؤية الأطفال والبنات من المدارس المسيحية فى انتظاره بباب المسجد ، ودخلت فاذا المسجد ينقسم الى قسمين فى وسطهما ممر ، الأول للمدعوين وهى القريب من المحراب والثانى فيه عامة المصلين ، ووراء الأولين وأمام الآخرين صف من جنود الحرس الملكى وضباطهم وهؤلاء لم يصلوا طبعاً .

(١) كلمة تقراً « استر » ولعلها استراليا .

وفى الساعة الثانية عشرة وعشر دقائق حضر الملك يتقدمه عدد عظيم جدا من ضباط الحرس ثم ظهر نحيفا أشقر أحمر أزرق العينين يتكلف الهدوء وكان مصننا للخطبة وكان منظر العلماء يدعو الى الدهشة وهم يتحشرون ويتزاحمون ، وفى أثناء خروجه ودخوله هجم عليه عنصر الأعيان لا سيما الشباب منهم ، مصفقين وهاتفين ، وعند خروجه ارتمى على قدميه رجل بائس فقبض عليه وفتشوه وسلموه للأمور القسم ، ثم خلع الملك على الخطيب والامام شالات كشمير قيل لى انهم يبيعونها فى خان الخليلي بثمن بخس .

١٤ فبراير

— تكلم معى مصطفى الشوربجى فقال ان اختباره دله على أن النساء ثلاث :

١ — لك وهى البكر لأنها تنطبع بطابعك .

٢ — عليك وهى التى رزقت من زوجها الأول فتأخذ ما لك لولتها .

٣ — لا لك ولا عليك وهى الشيب التى لم ترزق ولدا . والثانية والثالثة لا تنطبعان بطابع الزوج الجديد .

أما الغنية والمتعلمة والفقيرة ، فتقول الغنية انتظر حتى اجلس أنا أولا وتقول المتعلمة اسمع لما أقول أنا أولا . أما الفقيرة فتقول حاضر يا سيدى وهى الفضلى بينهن !!

— روى لى أصدقاء الشيخ سيد عبد السلام الذين عرفوه قبل حاله أنه كان مقرئا ذا مقام وصوت جميل جدا وكان شديد الأناقة

واللهندام الحسن وبدأ حاله بهذيانه ثم باع ثيابه في سوق المؤيد بأربعين قرشا وهى تساوى أربعين جنيها ثم جذب فأدخله أبوه الشيخ عبد السلام مستشفى الأمراض العقلية ثم أخرجه فصار يقلد مشاهير القراء ولا سيما الشيخ ندا وسكر ، وكان يتطور ويهيج أثناء حياة أخيه ووالده ثم هدا وثبت وصار على أحسن حال ، أما كراماته فهى المكاشفة وخدمة أحبابه برفع « الحملات » عنهم وشفاء مرضاهم بأمر الله سبحانه وتعالى ، ويحرص الشيخ على أن يظهر « كرامات » للمنكرين أو المتشككين ، وهو دقيق فى كلامه وحسابه وعفيف اللسان واليد وخفيف الروح جدا وتنفذ ارادته دائما بالحسنى أو بالشدة .

— جلست جلسة خاصة مع حامد العلايل بمناسبة قضيه ضد اللوزى وقال لى حامد أنت ، (١) « Sublime » ومخاص ، وسيان عندي أن أكسب القضية أو أخسرها ، فما دمت كسبت الثقة وأنت رجل الحق والصدق والشرف والوفاء والتضحية وقد لمست فيك هذه الخصال منذ كنت تخدم القضية الوطنية مع المرحوم محمد فريد فى مؤتمرات الحزب الوطنى فى جنيف وباريس وبروكسل ، وقال لى ان زوجته قالت له فى غيبتى أنت مقصر فى حق لطفى بك وسوف ترى اخلاصه وشرفه . وقال ان ابنته « دودو » أصيبت بقطع جسيم فى قدمها وأن « بولا » بلغت أشدها وتطلب الزواج ولا تجده وأن خدمه يصرخون من علاقته الجديدة بصاحبه عبد العزيز اسماعيل الذى صارت له امتيازات .

وقالت الزوجة أمام حامد : كلما أرى غلظة زوجى أسأل نفسى
كما كان يفعل أبى شوقى أين تعليم اكسفورد ؟

(١) يعنى سام أو رفيع أو مهيب .

وقالت بولا العلايلي (تصغير اقبال) وهى ذاهبة الى الجمكانة (سبق الخيل) سأذهب بنيايى العادية ، فكل الناس عندى سواء الى أن أجد خطيبا . وقال العلايلي عندما رأى صورة نظام حيدر آباده فى الجريدة « الرجل ماشى زى الجن بقوة المال فان ايراده أكثر من مليون جنيه فى السنة ، صحيح أن البلاشفة معذرون ، رجل ايراده هكذا ، وألوف بل ملايين لا يجدون القوت الضروري » .

١٥ فبراير ٥٠

قابلت بدار المقتطف فؤاد صروف فقال لى ان العالم الآن فى حالة جنون وأن داء المدنية لا شفاء له ، وكان نجيب هاشم حاضرا فحدث على البلاشفة بمناسبة مقالة « حنا خباز » فى المقتطف ، فحياه فؤاد قائلا « تحية يا أعظم الرأسماليين ! » . وحضر على محمود « المهندس الشعاع » وأظهر أنه يفهم مسألة الجنس ويعالجها فى شعره لأنه تأثر ببودلير وفيرلين وتلى شعراء Decadence ثم ذكر مقالا نشر فى جريدة العربىة وصف فيه كاتبه ليلة غرامية فى باريس بكل صراحة فى الألفاظ أو المعانى حتى علاقة الفراش ! .

وحضر يعقوب فام وهو أجرد أمرد كهل كأنه طواشى قديم من عهد الفراعنة وهو يكتب فى التربية ولا سيما المسائل الفرويدية لأنه لم يتزوج ، وأسمعنا على محمود طه من شعره المنشور .

الجمعة ١٩ فبراير

بعد صلاة الجمعة فى مسجد بعلاوية باب الخلق مع حسين فهمى - قابلت حامد العلايلي الساعة الواحدة فى قهوة بار اللواء وصحبته الى داره وتغدينا معا . ثم سافرنا بالسيارة الساعة الثانية

الى عزبته في برميال الجديدة ، ووصلنا داره الساعة السابعة والنصف مساء ورأيت وجوه الفلاحين الذين أحبهم لولا مسخهم بالتمليق لمولاهم . وأفرد لي العلايلي غرفة بالدور العلوى ، وكان الوجد في ضرسى شديدا ولكنى قاومت وتحملتته وعكفت على الصيام وقراءة كتاب ماري انطوانيت تأليف ستييفان زفيج ، وفي الصباح لقيت مضيغى على مائدة الفطور ، ثم خرجت لوضع خطاب في البريد فمررت بالبحر الصغير وعبرت على سفينة محطمة وسلم أعوج من الحجر الزلج ، وقابلنى رجل من البر الثانى « كفر علام » فجبهنى بأن حامد بك متقلب فى السياسة وأن البلد كلها وفدية وأن الانتماء للوفد عقيدة ، فأكدت له تتدبرى للوفد .

وفى الليل يقضى حامد بك السهرة فى ملاعبة بعض القرويين بالقمار (كتنشينة البصرة) ويربح منهم قروشاً و « شلنات » وهم فقراء ويقضى نهاره فى تشذيب بعض الأشجار .

ورئيس الدار الشيخ عبد المجيد ، والشيخ محمد أبو عبده خولى أو ناظر عزبة الوقف الخيرى البالغ مساحتها ٧٠٠ فدان والشربينى هو الطباخ والسفرجى والكرارجى والساقى تعاونه بركة أخت زوجته .

وفى صباح يوم العيد ٢١ فبراير كان قلبى متحرقا على أننى لم أتمكن من الحج فى هذا العام وعلى بعدى عن أولادى .

ثم ذهبنا لتعزية السعيد رمضان القاضى بمصر لوفاة والدته فلم نجده فقابلنا أخاه . ثم زرنا الشيخ محمد أبو حفى عمدة كفر علام والتف حولنا عشرات من الأشخاص وتحدثنا فى كل شئ .

وفى صباح يوم ٢٢ فبراير ذهبت مع محمد حفى والشبى
شبانة - وهو محام شرعى شقيق محمود مبارك - الى ميت النصرى
لزيارة الشبى سيد أبو حلاوة أحد الأولياء فوجدناه فى المنصورة
وأضافنا الشبى حافظ أبو سرايا وانصرفنا عند الغروب بعد أن رأينا
الشبى محمد صالح عمدة ميت الولى وهو نوع غريب من الفلاحين
يتكلم الفرنسوى من القرن الماضى وله نواذر لطيفة ، وسألنى
أبو سرايا عن « أطيانى » فابتسمت ، والرجل لا يتخيل أن مثلى
لا تكون له جملة عزب وأبعاد !!

وألطف نكتة أن عمدة ميت الخولى ألح على دعوتنا الى بيته
لشرب القهوة بصفة جدية ، فلما علم بوصول العربى التى تعيدنا
الى منزلنا قال بالفرنسية لى ! ٠٠٠٠ ، Dieu est grand,
sait pas d'argent يعنى لقد علم الله بعجزه عن تقديم القهوة
فبعث بالركبة لتنقلنا وتنقذه ، وكان مضحكا للغاية !

وفى الساعة السابعة ألحوا فى زيارة الحاج لطفى وأخيه الحاج
زكى (؟) عمدة ميت عاصم ولهما قصر على النسق الايطالى ،
فوصلنا الى الدار الساعة التاسعة مساء واجتمعت بالفلاحين ودارت
أحاديث مختلفة ، وكان أكثرهم اهتماما بحديثى هم الذين لهم مصالح
يرجوننى فيها .

لقد سأمت الاقامة بالريف وفقدت شهيتى وتولانى الأرق ،
فخرجت يوم ٢٣ فبراير للغيط راكبا فرسا ومعى بعض الخدم
للمرور بالأطيان التى يملكها العلابى وهى ٣٠٠ فدان غير أطيان
الوقف ومقدارها ٧٠٠ فدان ثم عدت غروبا وحضر أهل كفر علام
لتوديعى وتحدثنا طويلا .

وفى الليل لعب حامد بك البصرة مع عبده أبو وفا شريكه
فى المقامرة وكان أبو وفا يستعين على حامد باستحضار الأولياء والجن
ويقول : يا أبو سريع ! يا قروع ! يا خلعتس (كذا) .

وفى يوم ٢٤ فبراير شددت رحلى وقصدت الى ميت النصارى
للشيخ سيد أبو حلاوة فودعنى عشرات الأشخاص على المحطة وكان
الزحام شديدا بمناسبة مولد السادات بذكرنس .

وصلت الى البلدة ومشيت الى دار أبو سرايا فصحبنى الى
دار الشيخ فنفر منا فى أول أمره ثم قبلنا ودعألى وانصرفنا الساعة
الواحدة وركبت القطار الى المطرية ولم نجد « لنشا » فركبنا سفينة
شراعية الى بورسعيد وكانت الليلة قمرية جميلة للغاية وقد أزعجنا
أثناء الرحلة الشيخ صالح الخريبي وهو قصاص دينى وراوية أمى
من أغرب الأنواع وقد تكلم أكثر من أربع ساعات بدون انقطاع !

وصلت بورسعيد الساعة الثامنة مساء ولاحظت أن البلد قائم
قاعد للزينة لاستقبال الملك فاروق .

وفى يوم ٢٦ فبراير سنة ١٩٣٧ صليت الجمعة فى المسجد
التوفيقي وكانت البلدة فى حالة زينة عجيبة لأن الملك يحضر غدا
ليبحر الى أوروبا حيث يقضى فيها خمسة أشهر .

وفى المساء توجهت الى المحطة ولم آكل طول اقامتى فى
بورسعيد سوى مرة واحدة خبزا وجبنا وفاكهة . ووصلت القاهرة
نصف ليلة الجمعة .

٢٧ فبراير

مما يدل على روح هذا العصر النعيس مونولوج المدعو يوسف حسنى فى الاذاعة واسمها « الدنيا هى هى » وهو مونولوج يدل على الضجر السائد والملل من الحياة والوقاحة Cynisme ، كقوله : « الدنيا هى هى والشغلة هى هى والماهية هى هى والبوسة هى هى والنومة هى هى !! » . وهذا المخلوق يشبه صورة هزلية مشوهة من ماجول Magol (١) ، ولكن أخص ما أخذ عنه خنائه ، أما الفن فدون الوسط .

٢٨ فبراير

— الشيخ « قلق » منجم غريب الشكل يجلس أمام مسجد ببيرس الذى يخلو فيه الشيخ البغدادي ويقيم فى حانوت عطار ليس فيه الا أحقاق قديمة فارغة ويتناول نقودا أقلها خمسة قروش ولا حد للأكثر ، ويكتب فى ورقة من أسفل الى أعلا رموزا وأرقاما ثم يتكلم . ويقول الكثيرون انه يصدق فى ذكر أسماء الغائبين وتحذير المستفتى أو تطمينه . وقد حذر حامد العلايلي من جملة ناس كما طمأنه عن ناس كثيرين ، ويدعى العلايلي أن الرجل ذكر أصدقاء بذكر أسماء وحوادث .

والرجل فى الخامسة والستين من عمره أسمر الوجه ضخم البدن غليظ التقاطيع عامى التعليم ميال الى طريقة الكهان فى السجع السقيم ويخلط كثيرا ويكثر من كلمات مبهمه مثل « مانوفه » أى جيدة ، وقد رأيتَه يسجل على العلايلي فعلا فى حادثة شقاق بنته مع ابن صدقى ثم طلاقها ، فأعطاه بيضة وأوراقا تحرق ٠٠٠ الخ ودفع

(١) أدلر ما كتب لطفى « معه من مايول » كتابه « فى الادب والنقد » ، عالم الكتب ، سنة ٢٠٠٠ م .

العلايل ثمنها جنيها مصريا • وعندى أن العلايل كالنساء فى معتقداته •

— ان محمد على ظاهر كان خادما للانجليز فى أيام الحرب العظمى الأولى وكان بوابا على باب جريدة الكوكب التى رأس تحريرها الدكتور عبد الرحمن شهيندر وهى جريدة ضد الترك فى أنحاء العالم • وقد سمعت محمد على ظاهر يتكلم فى السياسة الدولية ويطعن فى الترك بمناسبة لواء الاسكندرونة (يناير سنة ١٩٣٧) فى جمع من الشوام السذج ، وغايته جمع نقود باسم عمل حركة للجنة الدفاع عن الشوام والفلسطينيين ولبنان • الخ ، فعجبت لأن هؤلاء قوم ضرب الفرنسيون بلادهم وهتكوا أعراض بناتهم ومع ذلك انتهوا بمؤازرتهم على تركيا وساعدوا على خراب الدولة العثمانية فتأمل !!

— كتبت مقالة عن كثرة الملاحى التى يعلن عنها فى الجرائد وعدم وجود اجتماعات علمية •

— كتبت خطابا بقصد السعى لمقابلة ماسينيون المستشرق الفرنسى المهتم بأخبار العلاج وإطلاعه على التصوف المصرى الحديث • كما كتبت خطابا الى كلياند لتنظيم نوع جديد من المحاضرات يقصد بها الى الثقافة العليا واعطاء جداول بعناوين كتب تجب قراءتها بهدف تثقيف وتنوير الشباب •

— أرسلت خطابا الى حضرة صاحب المقام الرفيع النحاس باشا أطلب فيه قبول هديتى لمشروع الدفاع الوطنى وهو خمسمائة نسخة من كتابى تاريخ فلاسفة الاسلام ثمنها مائة وخمسون جنيها •

— تحرير مقالة عن نشر الجرائم فى الصحف والتشجيع فيها على الطريقة الجديدة وأنها تكون رأى العام تكويننا سيئا كالقسوة على المتهمين الذين قد يكونون أبرياء •

ان وظيفة الصحافة هي الحث على أعمال تؤدي حقيقة الى محاربة الجريمة والرذيلة مثل الدعوة لعقد مؤتمر من المتعلمين والعقلاء ورجال الاصلاح الاجتماعى ، وأن أوروبا وأمريكا فيها جرائم أشنع مما نرى فى مصر وفيها زعماء دوليون للجرائم .

- أقرأ فى هذه الأيام كتابا عن النبى صلى الله عليه وسلم للسير أرنولد جاء فيه أن « جريمة » و « كائتاني » قالا ان محمدا بعث للعرب فقط وأن القرآن خال من أى اشارة الى أنه نبى للعالم (١٩) . وهذه الفكرة التى أذاعها المستشرقون هي فكرة تعصبية ودينية من جهتهم ، لأنهم سلموا بنبوته وصدقه وبعثه للعرب فقط ، فلو قالوا للعالمين لأرغموا على الاسلام . ولكن هذه الفكرة من السهل أن يرد عليها بشيء واحد وهو أن القرآن قال انه جاء أيضا للجن وهم عالم خفى فمن باب أولى أن يكون لجميع البشر ، وفيه نصوص للذين يعلمون ويتدبرون ويعقلون ويتفكرون ، وبالطبع ليس العقل والتدبر والذكاء مقصورا على العرب فقط ، فالدعوة بالدخول فى الاسلام لكل أهل الكتاب ، لأن فكرة المستشرقين الخبيثة ترمى الى ما يأتى : أن محمدا سلم بالتوراة والانجيل واحترم أصحابهما نصح العرب لأنهم مشركون وثنيون . ولكن فات المستشرقين أن العرب كان فيهم نصارى ويهود أى أصحاب كتاب . وإذا كان محمد جاء للعرب فقط فلماذا حارب فى حياته الروم وتحدى الفرس ثم حاربهم المسلمون .

ويقول المستشرقون ان مسألة الوفود الذين ذهبوا للملوك فى حياة النبى موضوعة بعد وفاته . وأنا أسلم بأن على خطب هؤلاء الوفود صبغة الانتحال وهذا للأسف ناشئ من أن المؤرخين والأدباء فى الاسلام لا يتحرون ما قيل ولكنهم يفرغون المعانى فى قوالهم فتشابه ثم يسوقون أسماء بدون تحقيق ، ولكن هجرة المسلمين الى الحبشة

من من وراءها دعوة السجاشي للاستأنام بطريقة غير مباشرة خدمته تليمت عليه سمورة مريم . ولا شك في ارسال بعثة لمصر عقبها اهداء مارية الى النبي وطبيب وبغلة أنجبت مارية ابراهيم ، وتودد المصريين للعظماء بالهدايا معروف من قديم الزمان .

— كذلك أقرأ هذه الأيام كتاب تاريخ لينين تأليف أورسندوفسكى Orsendowski الذى استعترته من دار الكتب فى سنة ١٩٣٧ وهو كتاب فظيح لا أدري ان كان له أم عليه ، ولكن أدري أن الصورة عن لينين التى تركها المؤلف فى ذهنى تدل على أن هذا الرجل كان شيطانا فى جسم انسان ، فإن مناظر الدماء والنقتل وتبش القصور وأنتهاك المحارم التى رآها وسكت عليها ووصفها بأنها « غيفت النسيم فى أول أيام غضبه » شئ لا يقبله قلب انسان عاوى . طبعاً قد يلتمسون له أذاراً ولكنه شئ يتقرز منه الذوق والعقل ، ولم أشعر نألم من قراءة كتاب الا مرتين ، الأولى تيريز راكان لاميل زولا وهذا الكتاب عن لينين . انه وصف حقيقى ولذا فهو مر وفظيح . وأهم ما قرأته فى ترجمة هذا الشيطان الذى وصفه أنصاره بأنه (١) le plus humain parmi les humains

أنه كان صبوراً جداً وقادراً على ضبط نفسه وكبح جماح عواطفه حتى فى أقسى الأوقات التى يصيبه فيها أشد الألم والبلاء وهذه موهبة مدهشة ولكنها صادرة عن شيطان ولا يقدر عليها ملك .

— قابلت سليم قبعين وهو شخصية غريبة وأصله معلم قديم فى المدرسة العبيدية وصاحب مجلة الاخاء ومطبعة وأديب يترجم عن الروسية وهو فى الستين من عمره . هذا الرجل قابلنى وقال انه لا يقرأ الا مطبوعات الروس البيض الواردة من باريس وبرلين ، وهو يعتقد أن لينين مختل الشعور ولكنه نجح فى قلب نظام الحياة والحكم

(١) من معانى كلمة Parmi بين الناس اشراف .

فى روسيا ، وقرأ عنه فى كتاب أنه كان داهية فى الذكاء ولا يعيب عليه الا الحادة ولو لم يكن ملحدًا لكان من خيرة الناس (١٩) .
ولا يعتقد قبعين أن القيصرية تعود الى روسيا ولكنه يعتقد أن العهد البلشفي سوف يزول لأن الأغلبية ساخطة من مظالم سنالين (كذا)
وأن مظالمه تفوق مظالم القيصر ، لأن القيصر على الأقل لم يقتل أصحابه بل حارب أعداءه .

— ان أعمال موظفى الحكومة الآن عبارة عن توزيع اختصاصات وهروب من المسئوليات وانشغال بال يعملات ودرجات وكادر .
والموظفون هم وحدهم الطبقة الميسورة التى لا تحمل هما للرزق ولا خوف المستقبل ، فصار منهم مملوك والارستقراطية والرأسماليون بعد أن كانوا طبقة بائسة فى الصف الأخير من الأمة يقومون بالخدمة العامة مقابل جعل مقبول معقول ، فصاروا الآن سادتها .

٤ مارس سنة ١٩٣٧

زرت الشيخ البغدادى وكان هاشا هاشا يقلب الشاى عندما دخلت عليه ، فتكلم عن مظالم الحكام وظلمهم وجبروتهم وبخلهم وضرب مثلا بالسلطان عبد الحميد والخديو عباس حلمى وقال لقد خرجا من ملكهم أذلاء صاغرين وحتى لم يصلوا الى حقوق الأفراد العاديين ، وقال ان عبد الحميد أراد أن يكون كالاله . ثم انتقل الى الكلام على الترك فوصفهم بكل ذميم فى الحكم والظلم وقلة الايمان الا نادرا . ثم تكلم عن الدنيا وعدم أهميتها عند الله وعند العارفين ، فقال ان ابراهيم ابن آدم ترك الملك وخرج الى الجبل والوحدة والعمل وحضرت له أمه فاراها كرامة وهى طاعة الجوان فى البر والبحر له ، وهذه لطيفة سليمانىة . ثم تكلم عن الولاية فقال الموهبة فى النبوة والولاية كسبية بدم القلب وتعذيب الجسم واذلال اللحم

والعصب والباب مفتوح للجميع • وقال ان الدنيا جيفة وطلابها كلاب
أولها عمارة وآخرها خراب •

ولم أسمع منه عبارة تدل على فهمه حقيقة حالى فقد كان كلامه
لى كما لو كنت من أرباب الأموال أو المتمسكين بالدنيا ولكنه بشرنى
بشرى حسنة وقال لى إيمانك حسن ان شاء الله • ثم تكلم عن حافظ
الشيرازى وأنه كان يلبس اللباد فزار وزيراً تركيا بحضور الوزراء
فى يوم التشريفه فجلس بجوار صاحبه بحالته فسأله الوزراء عنه
فقال هو حافظ الشيرازى ، فقال حافظ ان الجواد الأصيل ظهره
مجروح تحت البردعة والحمير (يقصد الوزراء) أعناقها موضوعة فى
أطواق الذهب (يقصد قلادات الزينة) فطأطأوا رؤسهم وتدلت
آذانهم وبدوا فعلاً كالحمير ! ، ولما عرفوا اسمه تهافتوا عليه لتحيته •

وعندما صب لى الشيخ البغدادى الشاى قال لى اشرب يا أخى
واطرب • ثم سألتنى عن محل سكنى وحيته وصليت العصر
وانصرفت •

٦ مارس

— حفلة تأبين حافظ ابراهيم :

حضرت الحفلة بنفسى فى الأوبرا فى الساعة السادسة فاذا
المسرح حافل بحرافيش لا عددهم ووراءهم ستار والجمهور
عراميش • وكان الذى يقدم الخطباء أحمد ربيع المصرى وقد خطب
على زكى العرابى باشا وزير المعارف، وابراهيم دسوقى أباطة ، ولم
يبد على الخطيب أنها كانت موضع بحث أو دراسة أو تمحيص ولكن
لأجل الشهرة والحصول على الصيت واعادة أبيات المرحوم حافظ ،

ومن أغرب ما فيها انه اشتغل بالمحامة فى طنطا فى أول أمرها وأمره قبل سنة ١٨٩٠ ثم ترك المحامة واشتغل بالحربية وسافر الى السودان . وكانت القصائد والخطب رثة لاسيما قارىء ناب عن شاعر السودان فكان يلحن و « يتقصص » ويلعب حواجه فأسكتوه . وكانت قصيدة أحمد الزين قوية ضد الأخلاق الحاضرة وهى بائية ومنها « فنفسك لم تخلق لسخر الألاعب » ومنها أيضا « اذا كان بالتهريج نيل المراتب » ومنها « اذا الشعب بالاھمال أرسب عالیا ، فلا بدع أن يعلو به كل راسب » وكانت لها صبغة سياسية ولكنه هاجم الشعر الحديث ، أما شعر الكاشف فكان سخيفا وكذلك شعر أمين الغريب الشاعر السوري فهو مهوش وكان كلامه غير مفهوم ولعله مترجم من كتب أمريكية لم يفهمها وترجمها ترجمة حرفية .

وفى النهاية قامت مظاهرة لمحمد محمود باشا وخطب فيهم فقال انه مريض ولولا اجلاله لحافظ ما غادر سريره ، وهو شديد الاعجاب بخطبة أخيه التى قال فيها ان حافظ ابراهيم لم يكن ينمى بؤس نفسه بل كان ينمى بؤس وطنه وضحك كثيرا عندما قال كرد على أعطيت حافظا طبقا من « كل واشكر » . وهو صنف من الحلوى وقلت له « كل واشكر » فقال الباشا « هذه نكتة شامية » !

بالجملة فان الحفلة كانت تسودها الفوضى وخير شعرائها من

شرق الأردن .

٧ مارس

حضور ادوار لامبير الى مصر :

— وصل الاستاذ لامبير يوم الأربعاء الماضى وفابلته فى فندق شبرد الساعة الخامسة فى دعوة الدكتور السنهورى وعانقته وحيت

زوجته التي ألحت عليها الشيخوخة على سابق جمالها ، أما الرجل فلا يزال بنشاطه وشبابه وزاد مرونة ونقضاء فكر ووضوحا وهي سيما العلماء وشيختهم ، وكان الاحتفال جميلا جدا ولم يحضر من الأقدمين الا عزيز ميرهم صديق فهمي وعبد السلام ذهني ، وقال له صادق فهمي « احتراماني Mes respects » . وكانت الغالبية أجنب وبعض المصريين المشهورين كوزراء المعارف والمواصلات وكانوا (١) Very awkward ، وحضر لطفي السيد وعلى ابراهيم باشا وقد اعتذر له لامير ليكمل حديثا ضافيا يعطيه لجريدة الجهاد عن الماضي والحاضر قيل انه ينشر غدا ٨ مارس سنة ١٩٣٧ وأخذت له جملة صور .

وعلمت أنه مقيم في كونستنتنل لمدة شهر ونصف يلقي خاتباته -حوالي ١٠- محاضرة في القانون المقارن ، رثاياه من حضوره انشاء منزهة أو قبة في كلية الحقوق لتدريس هذا الفرع من العلم الحديث الذي خدعه في ايون اثناء الحرب وبمساعده ، وقال انه مسرور ومندم وشاكر للمصريين على حقواتهم به .

حياة بأكملها عادت الى ذاكرتي عندما رأيته ! ، وقد قال لي : لمد عجزنا كلانا ولكن أنا أكثر . وهو هو بحالته لم يتغير مثل كل العظماء والجلال يحوط زوجته الكريمة .

وقد رأيت بعض الشباب الجديد وهم جامدون ومتقنون الاتيافة ، ورأيت بعض بنات طالبات الحقوق وعجبت لغياب رجال أمثال مصطفى عبد الرازق ومنصور فهمي واسماعيل كادام . خدمهم لامير خدمات جزيلة .

(١) من معاني كلمة awkward مزعج ، مقلق ، مشوش .

— دهشت لحالة النفاق التي تجلت في شخصية أنطون جميل رئيس تحرير جريدة الاهرام من غرور وادعاء ، فهو يتكلم بتهزييء ومراوغة وقد حق له ذلك فهو غنى ولا أهل له ورئيس تحرير جريدة كبرى وعضو مجلس الشيوخ ، وبعض هذا لا كله لا يحصل الا فى البلاد النعسة التي تظلم بنبيها وتحقرهم وتعظم الأجانب وتقديسهم وتعليهم على ظهورها وان هذا من أغرب الأمور .

واننى اذا قارنت بين هذا الرجل الذى أطغته النعمة بالمأسوف عليه داوود بركات أو خليل ثابت فانهما أفضل منه بمراحل أو على الأقل أقدر على المحافظة على المظاهر ، ولعله من عينة فارس نمر كما وصفه ابن أخته مكاريوس فيما سبق ، وهو خليط من دجال ومن آمن مطمئن يتقاضى أموال الحكومة والصحافة ولا ينفق حتى على شهواته وقد أته الدنيا بكل محاسنها .

— قال الشيخ سيد عبد السلام فى دار عبده الشناوى ان الله خلق أولا أهل الطاعة والاستقامة ثم خلق النبى من نوره ثم خلق بقية الخلق وأنزل العلم وليس العلم هو الرسوم أو علوم اللغة أو أحكام الشريعة ، بل العلم هو الذى يوجب للعالم المتحقق (يريد الولى) وقال ان العالم عندما يكبر يزيد عقله ويتسع والجاهل عندما يكبر يخرف ويضيق عقله لأن العلم يغذى العالم . وقال دعاء هو « الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز » مع الصمدية وقال انه يغذى القلب ويريح وينفع .

— قابلت فيليكس فارس (١) فى حفلة حافظ ابراهيم وكنت أحب أن أراه من سنة ١٩٢٧ قال لى أنا شاعر فى أوقات والشعر لا يليق لكل الظروف وأنا أترجم لنيثشه « هكذا تكلم زاراتوسترا »

(١) عن علاقة لطفى جمعة بنيلكس فارس ، انظر كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الاعلام » ، المرجع السابق ، ص ٤٣٣ - ٤٤٠ .

ولموسيه « اعتراف فتى العصر » • أنا نائر قديم وكنت أعمل مع الفرنسيين في سوريا الى أن وصلت الى درجة لم أتمكن أن أتعاون معهم فقالوا أنت لا تنفعنا ، وقال أنا لا أطيق أن ألطخ يدي بدماء أهل وطني ، وقد هاجرت الى مصر لا طالبا رزقا ولكن لأفر بنفسى من جو ظالم وأنا الآن أعمل مترجما فى المجلس البلدى بإسكندرية وقد ألفت كتابا فى تاريخ وطنى وأهمية العروبة فلم يقدره الذين كتبته لأجلهم ، وأنا الآن عمى ٥٢ سنة ثم قال ان عيوب نيتشه ترجع الى أن أباه كان مصابا بالزهرى ، وفى كتابه ارتفاع واسفاف •
وفيلكس رجل شرقى جميل الصورة حلو الحديث شديد الالفة •

٩ مارس

— حضرت جلسة محكمة الجنايات بمناسبة قضية أحمد حسين فقابلت فيها بعض الوجوه المألوفة والأغلبية من الحاضرين من حزب مصر الفتاة وكان جو التهريج والحدة سائدا •

ومن العجب تغير الرأى ضد الوفد على هذه الصورة مع أنه هو الحزب الأكبر وحزب الأغلبية فى هذا البلد • وكان الزحام شديدا وقال أحدهم ان أحمد حسين يمتاز بفضيلة واحدة هى « الغرور » ، والحقيقة أن هذا الشخص الأجنبى لا يعجبنى فيه شئ وأجده من أكثر الناس غرورا •

وقد حكم بمصادرة عدد واحد من جريدة الضياء وتخطى عنه عبد الحميد حمدى كعادته وكان قد قبض من المصاريف السرية •

— وصف الحاج براون فى كتابه « بونابرت فى مصر » الثورة الأولى التى قام بها أهل القاهرة على نابليون فقال انهم ظلوا أيقاظا وراء متاريسهم لا ينامون فى ليل أو نهار ولا يلتمسون الراحة

ولا يتناوبون المراقبة والحراسة ، ففقدوا أربعاً وعشرين ساعة رابضين مرابطين راصدين وراء المتاريس مفتوحى العيون لا يغفون لأن حداثة عهدهم بالثورة المسلحة على جيش منظم وأهمتهم أن النوم والأكل من المطالب التى لا سبيل إليها فى حرب أو ثورة ، وقد حفظوا فى هذه الثورة الأولى درسهم فلم يركبهم مثل هذا المصير فى ثورتهم الثانية على جيش نابليون •

وهذه حادثة سيكولوجية مصرية عجيبة •

٩ مارس

قابلت محمد محمود باشا وهو رجل مهذب لطيف الضمير العصبية
أنيس العشرة ولكنه مريض جداً يتنفس بصعوبة ويتكلم بصعوبة
وتشوبه صفرة فاقعة وفى بياض عينيه أثر لليرقان وهو غليل جداً
ولعله مصاب فى كبده وفى رئتيه زلاً يمكن تقدير سنه لصغر وجهه
وحلاوة طبعه وترقق عينيه بماء التشبث بالحياة وشعره أسود
فاحم وهو دقيق الفهم •

ويضرب الباشا الأمثال بحامد العلايلي فى تقلب الآراء • وفى
الحقيقة فإن العلايلي أشد الناس سداجة ، فقد جاءنى ذات يوم يمدح
حزب مصر الفتاة الجديد ويشنى على المدعو أحمد حسين ويعجب به
ويدعى أنه مؤمن بمبادئه وأن له مستقبلًا طاهرًا ، وهذا اللون من
التقلب قد تعودته منه ، فهو صديق لكل أعداء الوفد ، وهذا اللون
من الرجال كلون حميه المرحوم أحمد شوقي ، فقد وافق شئ طبعه •
والعلايلي يزور أحمد حسين ويتكلم إليه ويدعى أن العظماء
يزورونه وأنه يحب تعظيمه فلم أجابه على كلامه لأننى أعلم مقدار
ذمته وتعامله على الوفد فى غير قصد مع أنه كان قد تشيع لدى

حيناً في أيام الائتلاف سنة ١٩٣٣ أيام وزارة صدقي وقبل انسفاقه
على محمد محمود باشا . فيا لخيبة آمال هذه البلاد بهذا الرجل
وامشاله !

١٠ مارس

فدلت معنهم على عزيمة باشا في محكمة الأزركية مع القاضي
أبو بكر فابتدري علوبة بقوله هل ألفت لنا كتاباً جديداً بعد
« حياة الشرق » ؟ الحقيقة أننى كلما أراك أشعر بأنك ضحية وأنك
مظلوم وأنا أشعر بأن الظلم واقع على شخصى وأخجل عند رؤيتك من
مواجهتك لأننى أشعر أحياناً كأننى ظالمك . فقال له القاضي باسم :
لماذا يا باشا ؟ قال : يسود العدل عندما يدعى الأستاذ لطفى
الى المكان الذى يليق به من مناصب الدولة بدون سعى بل لمجرد
الاعتراف بكفائته ، ويكون الظلم كلما طال الاغضاء عنه وعدم
الانتفاع به .

وهذا الكلام المعسول لم يخذعنى ولم يحزننى لأننى فى غاية
المناعة والسرور .

الجمعة ١٢ مارس

شهدت فيلم « ليلي بنت الصحراء » تمثيل السيدة بهيجة
حافظ فلم أجدها فتانة فى شيء سوى اشرافها على العمل .

وقد تأثرت من غناء حياة محمد لقطعة من الشعر التديم وأعادها
ابراهيم حمودة منها :

ليت للبراق عيناً فترى ما ألقى من غناء وبلى

ومنها أيضا :

قيدونى غللوئى ضربوا ملمس العفة منى بالعصا

وقد بكيت طويلا عند سماع هذه القصيدة القديمة من ديوان
« ليل العفيفة » ، ولعل شعورى بآلام دفينه وظروفا أخرى اقتضى
هذا البكاء .

من ١٢ - ٢٠ مارس سنة ١٩٣٧

عن جبران خليل جبران :

قرأت فى أسبوع واحد كتاب فيلكس فارس « على المنبر »
وكتاب ميخائيل نعيمة عن « جبران خليل جبران » ففهمت أن فارس
تصدى للدفاع عن ذكرى جبران دفاعا مصطنعا وأن كان حارا
ومجتهدا فيه تحت لواء « اذكروا حسنات موتاكم » وأن الوفاء كان
يقتضى كذا وكذا ولا يصح كذا وكذا . ولكن نعيمة أراد أن يعطى
صورة صادقة مختصرة لجبران صاحبها العقلية والروحانية وقد نجح
الى حد كبير .

وبالطبع هو فى كتابه لا يجارى لطول عشرته لجبران ولقوة
فكره أكثر من فارس ، وفارس صديق لجبران قصير المدة ولم يفهم
روح جبران ولا أخلاقه كما فهمها نعيمة الذى عرفه وعجمه حتى
فهمه وأدركه .

ويلخص رأى فى أن جبران لم يكن نبيا ولا وليا ولا حتى
نصف درويش كما زعم عباس العقاد ، بل كل أدبه وعلمه وتصوفه
نوعا من « الزعبرة » الأرثوذكسية مرتكنة الى المصادر الآتية :

١ - الانجيل والتوراة وما يتبعهما •

٢ - الشاعر المصور ويليام بليك William Blake
الذى قلده جبران مع تقصير كثير •

٣ - نيتشه فى كتاب « هكذا تحدث زارا ذوسترا » •

٤ - تاريخ حياته وأسرته والوسط الأمريكى الذى عاش فيه •

وفى نظرى أن نجاح جبران فى أمريكا مبالغ فيه ولعله عند
الأمريكان لبساطتهم كمصور ساذج • أما أنه كاتب فلا أعتبره
شيئا ، فكل أسلوبه الحق أقول لكم •• وهكذا • وهو يقلد أسلوب
أنبياء بنى إسرائيل •

ان أمين ريحانى - وهو أقدم من جبران اذ كان كاتباً من
سنة ١٩٠٣ - وفرح أنطون وجبران يكادون يكملون بعضهم بعضاً ،
وان كان الريحانى أقلهم تديناً ونقصاً ، وفرح أكثرهم عفة وبؤساً ،
وجبران أشدهم مكرراً وأتقنهم فنا •

أما أحبهم الى نفسى فلا أحد وان كان الريحانى أخفهم ظلاً •

١٧ مارس

- من أغرب الوقائع مجاهرة أربعة من الجبهة الوطنية
(محمد محمود وصدقى ويحيى وحلمى) بالانفصال عن الوفد عندما

دعاهم النحاس باشا ليبدو رأيهم فى مسألة الامتيازات الأجنبية فردوا برفض الحضور ، وهو انسحاب من الميدان رداً على احتقار الباشا صاحب المقام الرفيع لهم مدة عشرة أشهر ، فلم يريدوا أن يكونوا مسئولين معه الى النهاية وهم مع ذلك عليهم الغرم وليس لهم غنم ما . ولكن الخطابات المتبادلة بين الفريقين لم تنتر وأظنها تنشر بعهد قليل * -

والناس تعلق أهمية كبيرة على مؤتمر مونتر و يدعى بعضهم أن عمر هذه الوزارة الوفدية محدد بالنجاح أو الفشل فيه ، « التبر به ويعيد !! » فانه لا أمل لمصر بدونها !!

— مقارنة بين اعتدال الانجليز وظلم الطليان :

عندما ضربت قنبلة فى كنيسة فى أديس أبابا ، قتل الطليان انتقاما للجنرال جرازيانى - الذى لم يمت بعد - أكثر من سبعة آلاف حبشى غير المنازل التى خربوها وأحرقوها ، وظهرت تصريحات خطيرة فى مجلس اللوردات والنواب الانجليز * ونذكر أنه عندما قتل السردار لى سستاك فى مصر (نوفمبر سنة ١٩٢٤) غيلة لم يتحرك جندى انجليزى واحد وقدم المتهمون للمحاكمة ونالوا أقصى العقوبة بحسب القانون المصرى ، وكانوا فعلا هم الفاعلين ، فلم يقع ظلم ولا قتل ولا نهب ولا قسوة وحشية * فما أعظم الفرق بين الانجليزى والايطالى وان كان كل منهما شر وبلاء !

— أقاموا احتفالات كبيرة لموسولينى فى طرابلس الغرب وتقدم منافق كبير يدعى الامارة وسلمه ما دعاه كذبا « سيف الاسلام » ، فضضحته الجرائد وقالوا أن الأمير المزيف تركى الأحمل وآلة فى يد الطليان وأن الأمير الحقيقى من آل السنوسى ، وتبلغ نفقات السيف ألفى جنيه فتأمل !!

وقد تكلم موسولينى بتمشيدفه المعهود فقال انه سيخدم الاسلام
ويبدن أفريقيا •

١٩ مارس سنة ١٩٣٧

— ذكرى ١٩ مارس :

هل اسمه آذار ؟ ما أجمل اسمه !

فى ١٩ مارس سنة ١٩١٠ التقيت بها (١) فى مادييه جنيف
بيسى لانسى (بنسيون راسين) فكان يوما من أيام القضاء والقدر .
فعتسنا وسعدنا وتعينا وتلدنا وتألما الى سنة ١٩١٢ ، وكان سبب
تعارفنا حامد العلايل الذى وصفته فى رواية « قلب المرأة » نحن
شخصية « جودياس » فى صفة وغد الرواية Vilain . وكان ذلك
فى يوليو سنة ١٩٠٨ فى لوزان حيث قضيت من ٥ الى ١٥ أغسطس
ولم يعرف حامد شيئا عن هذه العلاقة •

وفى هذا اليوم بعد حوالى ثلاثين عاما مرت وتحقق كثير
مما تكهنت لى به فى الحياة — لا أعلم ان كانت لا تزال من أهل
هذه الدنيا • وآخر ما وصلنى عنها فى سنة ١٩٢٨ بعد صمت دام
ست عشرة سنة • وها هى تسع سنوات أخرى •

أخبرتني فى سنة ١٩٠٨ أنها فى الثلاثين من عمرها وأنها من
مواليد سنة ١٨٧٨ ، فكانت اذ ذاك تكبرنى بثمانى سنين ، ولكنها
كانت لى أختا وصديقة وحبيبة ، وقد لعب الدهر بعقلها وعصفت
الاهواء بقلبها فافترقنا فى يوليو سنة ١٩١٢ فى فيلا سيلفيا بفيفى
سنة ١٩١٢ • وقد أوحى الى أحسن ما أنتجت فى عملى •

(١) يقصد لطفى جمعة السيدة الأدبية الروسية أوجستا دامانسكى
انظر كتاب لطفى جمعة « تذكارات الصبا ، ذكرى ١٩ مارس » ، عالم الكتب ،

وها أنا ذا أرى وجه جودياس فى نفس هذا التاريخ فأذكرها
وأسجل الذكرى بابتداء كتاب جديد « ليالى الروح المهتدى » .

سلام عليها وعلى روحها وذكرياتها وآسفا !!

– قابلت حامد العلايلي فى بار اللواء الساعة الخامسة بعد
الظهر وقد أقبلت عليه الدنيا فسدّد ديونه ولا يظهر الفقر الا أمامى
لأجل أن لان يدفع لى أتعابا ، وذهبت معه الى السينما رويال وشهدنا
رواية الشرق والغرب لجورج أربليس فأبدع . وقد أذكرتنى مناسبة
هذا التاريخ (١٩ مارس) بذكريات غريبة كان للعلايلي فيها شأن .

– موضوعات لليالى الروح المهتدى :

- ١ – الملحدة الحمراء .
- ٢ – المعرفة .
- ٣ – أبو شادى الشاعر الطبيب .
- ٤ – عودة بعثة الأزهر من الهند لأنهم عادوا يسسخرون من
المنبوذين .
- ٥ – القاضى القاتل .
- ٦ – خذ الحياة كما تجيء .
- ٧ – كيف نجح طه حسين (لأنه شتم الأمة وسب دينها واحتقرها) .
- ٨ – الأفعى المطيبة (زينب) (١) .

(١) لم أعثّر ضمن أوراق لطفى جمعة على شيء مما كتبه من كتاب « ليالى
الروح المهتدى » (ر.ل.ج) .

— من أخطاء المعارضة وطيشها أنها وصلت ضد الوفد لقمعتها
عندما تظاهر الطلبة ضد جريدة البلاغ وحطموا أبوابه ونوافذه
وحاولوا تعطيله بالقوة • والجرائد حافلة بالأخبار والصور •
ومن المؤلم أن يحدث هذا قبيل سفر الوفد الى مؤتمر مونترية
للمفاوضة في إلغاء الامتيازات الأجنبية • فواسفاه على مصر !

٢٠ مارس

نشرت الأهرام اليوم بالصفحة (٥) صورة غريبة لم أكن
رأيتها من قبل فيها لاميير وأسرته وفريد بك وبعض أقطاب السياسة
الفرنسية مأخوذة في ليون سنة ١٩٠٩ عقيب مؤتمر جنيف وعليها
مقالة شرح حسنة ، وفيها صورتى ملتصقا وكنت اذ ذاك في الثالثة
والعشرين من عمري •

٢٢ مارس

توجهت الساعة الخامسة بعد الظهر الى الجامعة الأمريكية
لاجتماع لصالح السلم العام ، فوجدت توفيق دوس عائدا من حفلة ،
وابتدأت فتكلمت في اظهار فوائد السلم وتطاحن المبادئ في
أسبانيا •

الثلاثاء ٢٣ مارس

— موعد اجتماع المؤلفين المسرحيين مع زكى طليمات بالامريكين
(فشل أهل الكهف وسر المنتحرة لتوفيق الحكيم) •
— موعد الساعة الثانية عشر مع الدكتور أحمد ماهر •

١٤ ابريل سنة ١٩٣٧

هل أدب الأمم يمثل حقيقة حياتها وفكرتها ولا سيما الأدب المسرحي ؟

ها هم الفرنسيون قد تغلغلوا في فهم المرأة ، حبها وقلبها وخيانتها وخداعها ولا يدور بحثهم الا حول هذا وذاك الا في الندرى .

وهؤلاء الانجليز لهم مسائل أخرى ، المجد والعظمة والمال والاشهر والقبلي في حدود النشيلة والاسرة واذا شك واحد اهلكوه ، ولذا لم يستطع توماس هاردى أن يتكلم الا حذرا وأمامه أمثال أوسكار وايلد . ولكن رجالا مثل موجام استجدوا وتجروا ، ولكنه هو أيضا حصر نفسه في دائرة المستعمرات .

أما الروس فهمهم في التفكير السياسي والفلسفي ، والمطانيان في تأملات أشبه بالقضاء والقدر وهي روح شرقية غامضة مترددة ، والألمان يرمون الى ما هو أعلى ، الحكمة الكبرى وسياسة الدولة والعظمة . والأمريكان شأنهم المقعد والقيم المال والجريمة وهكذا .

لقد حصر الفرنسيون أنفسهم في دائرة ضيقة ، فشغلوا بفلسفة البطن والفرج وما تحتهما ، ولم يصعدوا فوق ذلك ولا جروا بعده ، حب وخيانة وسلوى وشوق وحنين وموت في سبيل الهوى ، ولعلهم أصدق الناس في درس أهم مظاهر الحياة المادية .

٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٧

وزارة الوفد الرابعة ماتت بهدوء مع السنة الحالية وفي آخر أيامها وذهبت غير مأسوف عليها .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم الأستاذ الدكتور عبد العظيم رمضان	٥
مقدمة رابع لطفى جمعه	٧
تقديم صاحب المذكرات	١٣
الطفولة	٤٣
١ - المولد والعائلة	٤٣
٢ - من ذكريات الطفولة	٤٩
التكوين العقلى والعلمى	٥٥
١ - التعليم الابتدائى	٥٥
٢ - نظام التربية والتعليم فى المدارس المصرية	٥٩
٣ - التعليم الثانوى ، أول يوم فى المدرسة	
الخدوية الثانوية	٦٩

الصفحة

الموضوع

- ٧٥ ٤ - دو جلاس دنلوب وسياسة التعليم فى مصر .
- ٨٠ ٥ - ذكريات المدرسة الخديوية
- ٦ - الشيخ محمد عبده ومصطفى كامل ومحمد
- ٨٤ فريد وقاسم أمين
- ٧ - تأليف أول مجموعة قصصية مصرية « فى
- ٨٩ بيوت الناس »
- ٩٢ ٨ - جليلة هانم
- ٩ - حياة القسم الداخلى بالمدرسة الخديوية .
- ٩٨ جمعية شمس الهدى
- ١٠٤ ١٠ - صداقات الشباب
- ١١٥ ١١ - العمل بمهنة التدريس والصحافة . .
- ١٢٣ السفر الى فرنسا لطلب العلم وخدمة الوطن . . .
- ١٢٣ ١ - كلية الحقوق بليون
- ١٢٩ ٢ - جان جاك روسو
- ٣ - الندفة الأولى من الطلبة المصريين بليون ،
- جمعية الطلبة المصريين بليون ، اترك لنا
- ١٣١ شمال أفريقيا
- ١٣٩ ٤ - ضحك كالبكاء

الموضوع	الصفحة
من يوميات سنه ١٩٠٩	١٤٢
أوجيستا دامانسكي ، ذكرى ١٩ مارس	٢١٩
العام الدراسي ١٩٠٩ - ١٩١٠	٢٢٩
١ - زيارة جون نيني ، اصدار صحيفتي صوت الشعب ومصر . عيد العمال في أول مايو ، ظهور المذنب هالي	٢٢٩
٢ - فترة جديدة ، جان جاك روسو ، سياستيان فور ، جان جوريس ، برتوني ، مجلة ميركور دي فرانس . الراقصة العالمية ايزيدورا دنكان	٣٣٤
٣ - الاستعداد لامتحان اليسانس ، الاقامة في تداربونيير ، خلوة الشرق ، حياة الريف الفرنسي ، حالة العالم في أوائل القرن العشرين	٢٤٠
٤ - النجاح في امتحان اليسانس	٢٤٤
٥ - عقب النجاح في امتحان اليسانس	٢٤٧
سباحة ايطاليا	٣٥١
١ - قراءة مؤلفات رينانز ، زيارة معالم جنوا ، زيارة مسقط رأس مثريني	٣٥١
	٦٢٧

الموضوع	الصفحة
٢ - فلورنسا	٢٥٤
٣ - فلورنسا مدينة الفن والخير والجمال ، فلورنسا بين بلدان أوروبا ، أثر فلورنسا في النفوس والعقل والعاطفة ، جولة في متاحف فلورنسا ، زيارة بيت ماكيافيلي ودير سافونارولا	٢٦٢
المؤتمر الوطني المصري في بروكسل سنة ١٩١٠	٢٧٣
السفر الى باريس ، عزيزة دى رشبرون ، التجسس على المؤتمر ، اشتراك الهنود في المؤتمر ، كريشنا فابرا ، مدام كاما	٢٧٣
المحامية	٢٩٩
١ - أول حديث عن المحاماة مع كبار المحامين ، امتحان المعادلة ، طلب القيد في جدول المحامين ، محاولة عبد الخالق ثروت معي للعمل في النيابة العامة ، القيد في جدول المحامين	٢٩٩
٢ - اختيار سبيل الحرية والكرامة	٣١٦
٣ - فترة التمرين ، التمرين في مكتب اسكندر عمون ، العمل أمام المحاكم المختلطة ، عدالة القاضي نيهولم	٣١٨

الموضوع	الصفحة
٤ - ذكريات عن القضاء والمحاماة	٣٢٧
الدعوة الى ادخال نظام المحلفين فى محاكم الجنايات ، نظام تلخيص القضايا ، النكتة فى مجلس القضاء ، قضاة ومحامون . .	٣٢٧
٥ - حال المحاماة ووسائل اصلاحها . . .	٣٣٧
٦ - قضايا	٣٤٥
٧ - الاغتيال السياسى وأسبابه	٣٤٦
٨ - قضايا سياسية	٣٥٢
قضية مقتل السردار السيرلى ستاك سنة ١٩٢٥	٣٥٢
٩ - قضية القنابل سنة ١٩٣٢	٣٦١
أعمال فى خدمة نقابات العمال فى القاهرة . . .	٣٧٣
التكوين الروحى	٣٨١
١ - يسألونك عن الروح ، الأشباح والأحلام والكبريت دى جيلارزا	٣٨١
٢ - كتاب لىالى الروح الحائر	٣٩١
٣ - رسائل وأحاديث الشيخ محمد عبده . . .	٣٩٤
٤ - الشيخ محمد عبده والتصوف وخلود الروح	٣٩٨
	٦٢٩

الصفحة

الموضوع

- ٥ - مجلة المقتطف ونكذيب الظواهر الروحية . ٤٠٣
- ٦ - دراستي الفلسفة ٤٠٦
- ٧ - الايمان بالاقتناع ٤١٨
- التكوين الفلسفي ٤٢٩
- ١ - سبب دراستي الفلسفة ، القراءات الأولى ،
محاولة التأليف ، فكرة الالتحاق بالأزهر ،
كيف السبيل الى الفلسفة ؟ ٤٢٩
- ٢ - تاريخ الثورة الفرنسية لكارليل ، تاريخ
محمد لواشطنون ارفنج ، البحث في أصل
ومذهب داروين ، الغزالي ومبدأ الشك
لديكارت ٤٣٧
- ٣ - بين الانسان والحيوان ٤٤٤
- ٤ - من أين والى أين ؟ ٤٤٩
- ٥ - وراء كتب الفلسفة ٤٥٢
- ٦ - دراسة الفلسفة بين الكلية الأمريكية ببيروت
وكلية الآداب بليون ، سقراط ، المعري ،
عمر الخيام ، سعدى الشيرازي ، مائدة
أفلاطون ، تاريخ فلاسفة الاسلام ، ابن
خلدون ، سبنسر ٤٥٦

الصفحة

الموضوع

- ٤٦٥ ٧ - حب الحكمة ، ما الفلسفة ، وما غرضها .
- ٨ - الفيلسوف التعلق بتراحم الرجال ، حب الخير والحق والعدل والجمال وحب الانسانية ، عدم انطواء الفيلسوف ، موهبة حب الحكمة ، المال والشهرة والشهوات ، قوة العقل والارادة عند الفيلسوف . اعتراز
- ٤٦٨ ٩ - الفيلسوف بشخصيته
- ٤٧٤ ٩ - محاولة البحث عن فيلسوف يمثل الفلاسفة ومذهب يمثل مذهبهم
- ٤٧٧ ١٠ - حقيقة الفلسفة
- ١١ - أصل الخير والشر وسبب شقاء الانسان في الحياة ومحنة الروح بالحياة ، وحدة الفكر الفلسفي ، هن الفلسفة علم
- ٤٨٢ ١٢ - أسئلة فلسفية
- ٤٨٧ ١٣ - الاعتزال والتصوف ، الأفكار الفلسفية بين النظرية والتنفيذ ، الفلسفة لا تورث
- ٤٩٧ ١٤ - الزواج
- ٥١٤ ١٥ - من يوميات سنة ١٩١٧
- ٥٦٦ ١٦ - من يوميات سنة ١٩٢٢

الصفحة	الموضوع
٥٣٥	١٩
٥٣٧
٥٣٨
٥٥١
٥٥٢ ١٩٣١
٥٦١ ١٩٣١
٥٦٢ اث سنة ١٩٣٣
٥٦٣ من يوميات سنة ١٩٣٣
٥٦٥ من يوميات سنة ١٩٣٤
٥٨٢ سنة ١٩٣٥ . . .
٥٨٣ سنة ١٩٣٦ . . .
٥٨٣ من يوميات سنة ١٩٣٦
٥٨٥ سنة ١٩٣٧ . . .
٥٨٥ من يوميات سنة ١٩٣٧
٦٢٥ الفهرس

صدر من هذه السلسلة :

- ١ - مصطفى كامل فى محكمة التاريخ .
د . عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٢ - على ماهر .
رشوان محمود جاب الله ، ١٩٨٧
- ٣ - ثورة يوليو والطبقة العاملة :
عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٨٧
- ٤ - التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة .
د . محمد نعمان جلال ، ١٩٨٧
- ٥ - غارات أوروبا على الشواطىء المصرية فى العصور الوسطى .
د . عليّة عبد السميع الجنزورى ، ١٩٨٧
- ٦ - هؤلاء الرجال من مصر ، ج ١ .
لمى المطيعى ، ١٩٨٧
- ٧ - صلاح الدين الأيوبي .
د . عبد المنعم ماجد ، ١٩٨٧
- ٨ - رؤية الجبرتنى لازمة الحياة الفكرية .
د . على بركات ، ١٩٨٧
- ٩ - صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل .
د . محمد أنيس ، ١٩٨٧
- ١٠ - توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية .
محمود فوزى ، ١٩٨٧

- ١١ - مائة شخصية مصرية وشخصية .
شكري القاضي ، ١٩٨٧
- ١٢ - هدى شعراوي وعصر التنوير .
د. نبيل راغب ، ١٩٨٨
- ١٣ - أكتوبة الاستعمار المصري للسودان : رؤية تاريخية .
د. عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٨ ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ١٤ - مصر في عصر الولاة ، من الفتح العربي الى قيام الدولة
الطولونية .
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٨
- ١٥ - المستشرقون والتاريخ الاسلامي .
د. علي حسنى الخربوطلى ، ١٩٨٨
- ١٦ - فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر : دراسة
عن دور الجمعية الخيرية (١٨٩٢ - ١٩٥٢) .
د. حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٨
- ١٧ - القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى .
د. محمد نور فرحات ، ١٩٨٨
- ١٨ - الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية .
د. على السيد محمود ، ١٩٨٨
- ١٩ - مصر القديمة وقصة توحيد الفطرين .
د. أحمد محمود صابون ، ١٩٨٨
- ٢٠ - دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ : المراسلات السرية بين
سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى .
د. محمد أنيس ، ط ٢ ، ١٩٨٨

- ٢١ - التصوف في مصر ابان العصر العثماني ، ج ١ .
 د . توفيق الطويل ، ١٩٨٨
- ٢٢ - نظرات في تاريخ مصر .
 جمال بدوى ، ١٩٨٨
- ٢٣ - التصوف في مصر ابان العصر العثماني ج ٢ ، امام التصوف
 في مصر : الشمراني .
 د . توفيق الطويل ، ١٩٨٨
- ٢٤ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ - ١٩٣٦) .
 د . نجوى كامل ، ١٩٨٩
- ٢٥ - المجتمع الاسلامي والغرب :
 تأليف : هاملتون جب وهارولد بووين ، ترجمة : د . أحمد
 عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٨٩
- ٢٦ - تاريخ الفكر التربوي في مصر الحديثة ،
 د . سعيد اسماعيل علي ، ١٩٨٩
- ٢٧ - فتح العرب لمصر ، ج ١ ،
 تأليف : ألفريد ج . بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد
 ١٩٨٩
- ٢٨ - فتح العرب لمصر ، ج ٢ .
 تأليف : ألفريد ج . بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد
 ١٩٨٩
- ٢٩ - مصر في عصر الاخشيديين ،
 د . سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٩

- ٣٠ - الموظفون في مصر في عصر محمد علي ،
د. حلمي أحمد شلبي ، ١٩٨٩
- ٣١ - خمسون شخصية مصرية وشخصية ،
شكري القاضي ، ١٩٨٩
- ٣٢ - هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٢ ،
لمى المطيعي ، ١٩٨٩
- ٣٣ - مصر وقضايا الجنوب الأفريقي : نظرة على الأوضاع
الراهنة ورؤية مستقبلية ،
د. خالد محمود الكومي ، ١٩٨٩
- ٣٤ - تاريخ العلاقات المصرية المغربية ، منذ مطلع المصود الحديثة
حتى عام ١٩١٣ ،
د. يونان لبيب رزق ، محمد مزين ، ١٩٩٠
- ٣٥ - اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة ،
عبد الحميد توفيق زكي ، ١٩٩٠
- ٣٦ - المجتمع الاسلامي والغرب ، ج ٢ ،
تأليف : هاملتون بووين : ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم
مصطفى ، ١٩٩٠
- ٣٧ - الشيخ علي يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية
في ربع قرن ،
د. سليمان صالح ، ١٩٩٠
- ٣٨ - فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر
العثماني ،
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، ١٩٩٠

- ٣٩ - قصة احتلال محمد علي لليونان (١٨٢٤ - ١٨٢٧) ،
د . جميل عبيد ، ١٩٩٠
- ٤٠ - الأسلحة الفاسدة ودورها في حرب فلسطين ١٩٤٨ ،
د . عبد المنعم المسوقى الجميلى ، ١٩٩٠
- ٤١ - محمد فريد : الموقف والمأساة ، رؤية عصرية ،
د . رفعت السعيد ، ١٩٩١
- ٤٢ - تكوين مصر عبر العصور ،
محمد شفيق غربال ، ط ٢ ، ١٩٩٠
- ٤٣ - رحلة في عقول مصرية ،
ابراهيم عبد العزيز ، ١٩٩٠
- ٤٤ - الاوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثمانى ،
د . محمد عفيفى ، ١٩٩١
- ٤٥ - الحروب الصليبية ، ج ١ ،
تأليف : وليم المسورى ، ترجمة وتقديم : د . حسن حبشى ، ١٩٩١
- ٤٦ - تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩ - ١٩٥٧) ،
ترجمة : د . عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩١
- ٤٧ - تاريخ القضاء المصرى الحديث ،
د . لطيفة محمد سالم ، ١٩٩١
- ٤٨ - الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الاسلامى ،
د . زبيدة عطا ، ١٩٩١
- ٤٩ - العلاقات المصرية الاسرائيلية (١٩٤٨ - ١٩٧٩) ،
د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢

- ٥٠ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٥٤ - ١٩٤٦) ،
د . سهر اسكندر ، ١٩٩٣
- ٥١ - تاريخ المدارس في مصر الاسلامية ،
(ابحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس
الأعلى للثقافة ، في ابريل ١٩٩١) أعدها للنشر :
د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢
- ٥٢ - مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين ، في القرن
الثامن عشر ،
د . الهام محمد علي ذهني ، ١٩٩٢
- ٥٣ - أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة ،
د . محمد كمال الدين عز الدين علي ، ١٩٩٢
- ٥٤ - الأقباط في مصر في العصر العثماني ،
د . محمد عفيفي ، ١٩٩٢
- ٥٥ - الحروب الصليبية ج ٢ ،
تأليف : وليم الصوري ، ترجمة وتعليق : د . حسن
حبشي ، ١٩٩٢
- ٥٦ - المجتمع الريفي في عصر محمد علي : دراسة عن اقليم
المنوفية ،
د . حلمي أحمد شلبي : ١٩٩٢
- ٥٧ - مصر الاسلامية واهل الذمة ،
د . سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٩٢
- ٥٨ - احمد حلمي سجين الحرية والصحافة ،
د . ابراهيم عبد الله المسلمي ، ١٩٩٣
- ٥٩ - الرأسمالية الصناعية في مصر ، من التمهيد الى التساميم
(١٩٥٧ - ١٩٦١) ،
د . عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٩٣

- ٦٠ - المعاصرون من رواد الموسيقى العربية ،
عبد الحميد توفيق زكي ، ١٩٩٣
- ٦١ - تاريخ الاسكندرية في العصر الحديث ،
د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣
- ٦٢ - هؤلاء الرجال من مصر ج ٣ ،
لمى المطيعي ، ١٩٩٣
- ٦٣ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر الاسلامية ،
تأليف : د . سيدة اسماعيل كاشف ، جمال الدين سرور .
وسعيد عبد الفتاح عاشور ، أعدها للنشر : د . عبد العظيم
رمضان ، ١٩٩٣ .
- ٦٤ - مصر وحقوق الانسان ، بين الحقيقة والافتراء دراسة
وثائقية ،
د . محمد نعمان جلال ، ١٩٩٣
- ٦٥ - موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧ - ١٩١٧)
سهام نصار ، ١٩٩٣
- ٦٦ - المرأة في مصر في العصر الفاطمي
د . نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٣
- ٦٧ - مساعي السلام العربية الاسرائيلية : الاصول التاريخية ،
(أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس
الأعلى للثقافة ، بالاشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات
جامعة عين شمس ، في ابريل ١٩٩٣) ، أعدها للنشر :
د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣
- ٦٨ - الحروب الصليبية ج ٣ ،
تأليف : ولهم الصوري ، ترجمة وتعليق : د . حسن
حبشى ، ١٩٩٣

- ٦٩ - نبوية موسى ودورها في الحياة المصرية (١٨٨٦ - ١٩٥١) ،
د . محمد أبو الاسعاد ، ١٩٩٤
- ٧٠ - اهل اللغة في الاسلام ،
تأليف : أ . س . ترتون ، ترجمة وتعليق : د . حسن حبشي .
ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٧١ - مذكرات اللورد كليرن (١٩٣٤ - ١٩٤٦) ،
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة : د . عبد الرؤوف أحمد
عمرو ، ١٩٩٤
- ٧٢ - رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر
في العصر الفاطمي (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ) ،
أمنية أحمد امام ، ١٩٩٤
- ٧٣ - تاريخ جامعة القاهرة ،
د . رؤوف عباس حامد ، ١٩٩٤
- ٧٤ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، ج ١ ، في العصر الفرعوني
د . سمير يحيى الجمال ، ١٩٩٤
- ٧٥ - اهل اللغة في مصر ، في العصر الفاطمي الاول ،
د . سلام شافعي محمود ، ١٩٩٥
- ٧٦ - دور التعليم المصري في النضال الوطني (زمن الاحتلال
البريطاني) ،
د . سعيد اسماعيل علي ، ١٩٩٥
- ٧٧ - الحروب الصليبية ، ج ٤ ،
تأليف : وليم الصوري ، ترجمة وتعليق : د . حسن
حبشي ، ١٩٩٤
- ٧٨ - تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣ - ١٨٩٩) ،
نعمات أحمد عثمان ، ١٩٩٥

- ٧٩ - تاريخ الطرق الصوفية في مصر ، في القرن التاسع عشر ،
تأليف : فريد دي يونج ، ترجمة : عبد الحميد فهمي
الجمال ، ١٩٩٥
- ٨٠ - قناة السويس والتنافس الاستعماري الأوربي
(١٨٨٢ - ١٩٠٤) ،
د . السيد حسين جلال ، ١٩٩٥
- ٨١ - تاريخ السياسة والصحافة المصرية ، من هزيمة يونيو الى
نصر أكتوبر ،
د . رمزي ميخائيل ، ١٩٩٥
- ٨٢ - مصر في فجر الاسلام ، من الفتح العربي الى قيام الدولة
الطولونية ،
د . سيدة اسماعيل كاشف ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٨٣ - مذكراتي في نصف قرن ، ج ١ ،
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٨٤ - مذكراتي في نصف قرن ، ج ٢ ، القسم الأول ،
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٥
- ٨٥ - تاريخ الاذاعة المصرية : دراسة تاريخية (١٩٣٤ - ١٩٥٢) ،
د . حلمي أحمد شلبي ، ١٩٩٥
- ٨٦ - تاريخ التجارة المصرية في عصر الحرية الاقتصادية
(١٨٤٠ - ١٩١٤) ،
د . أحمد الشربيني ، ١٩٩٥
- ٨٧ - مذكرات اللورد تيلين ، ج ٢ ، (١٩٣٤ - ١٩٤٦) ،
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة وتحقيق : د . عبد الرؤوف
أحمد عمري ، ١٩٩٥
- ٨٨ - التذوق الموسيقي وتاريخ الموسيقى المصرية ،
عبد الحميد توفيق زكي ، ١٩٩٥

- ٨٩ - تاريخ الموانئ المصرية في العصر العثماني ،
د . عبد الحميد حامد سليمان ، ١٩٩٥
- ٩٠ - معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية ،
د . نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٦
- ٩١ - تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط ،
تأليف : بيتر مانسفيلد ، ترجمة : عبد الحميد فهمي
الجمال ، ١٩٩٦
- ٩٢ - الصحافة الولدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ - ١٩٣٦)
ج ٢ ،
نجوى كامل ، ١٩٩٦
- ٩٣ - قضايا عربية في البرلمان المصري (١٩٢٤ - ١٩٥٨) ،
د . نبية بيومي عبد الله ، ١٩٩٦
- ٩٤ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ - ١٩٥٤) ،
ج ٢ ،
د . سهير اسكندر ، ١٩٩٦
- ٩٥ - مصر وأفريقيا .. الجذور التاريخية الأفريقية المعاصرة ،
(أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس
الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات
الأفريقية بجامعة القاهرة)
أعدتها للنشر د . عبد العظيم رمضان
- ٩٦ - عبد الناصر والحروب العربية الباردة (١٩٥٨ - ١٩٧٠) ،
تأليف : مالكولم كير ، ترجمة : د . عبد الرؤوف أحمد عمرو
- ٩٧ - العربان ودورهم في المجتمع المصري في النصف الأول من
القرن التاسع عشر ،
د . ايمان محمد عبد المنعم عامر
- ٩٨ - هيكل والسياسة الأسبوعية ،
د . محمد سيد محمد

- ٩٩ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية (العصر اليونانى -
الرومانى) ج ٢ ،
د ٠ سمير يحيى الجمال
- ١٠٠ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر القديمة .
أ ٠ د ٠ عبد العزيز صالح ، أ ٠ د ٠ جمال مختار ،
أ ٠ د ٠ محمد إبراهيم بكر ، أ ٠ د ٠ إبراهيم نصحي ،
أ ٠ د ٠ فاروق القاضى ، أعدما للنشر : أ ٠ د ٠ عبد العظيم
رمضان
- ١٠١ - ثورة يوليو والحقيقة الغائبة ،
اللواء / مصطفى عبد المجيد نصير ، اللواء / عبد الحميد
كفافي ، اللواء / سعد عبد الحفيظ ، السفير / جمال منصور
- ١٠٢ - المقطم جريدة الاحتلال البريطانى فى مصر ١٨٨٩ - ١٩٥٢ ،
د ٠ تيسير أبو عرجة
- ١٠٣ - رؤية الجبرتي لبعض قضايا عصره ،
د ٠ على بركات
- ١٠٤ - تاريخ العمال الزراعيين فى مصر (١٩١٤ - ١٩٥٢) ،
د ٠ فاطمة علم الدين عبد الواحد
- ١٠٥ - السلطة السياسية فى مصر وقضية الديمقراطية (١٨٠٥ -
١٩٨٧) ،
د ٠ أحمد فارس عبد المنعم
- ١٠٦ - الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية
فى ربع قرن ، ج ٢ ،
د ٠ سليمان صالح
- ١٠٧ - الأصولية الإسلامية فى العصر الحديث ،
تأليف : دليب هيرو ، ترجمة : عبد الحميد فهمى الجمال
- ١٠٨ - مصر للمصريين ، ج ٤ ،
سليم خليل النقاش

- ١٠٩ - مصر للمصريين ، ج ٥ ،
سليم خليل النقاش
- ١١٠ - مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين
المماليك) ، ج ١ ،
د . البيومي اسماعيل الشربيني
- ١١١ - مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين
المماليك) ، ج ٢ ،
د . البيومي اسماعيل الشربيني
- ١١ - اسماعيل باشا صدقي ،
د . محمد محمد الجوادى
- ١١٣ - الزبير باشا ودوره في السودان (في عصر الحكم المصري) ،
د . اسماعيل عز الدين
- ١١٤ - دراسات اجتماعية في تاريخ مصر ،
احمد رشدى صالح
- ١١٥ - مذكراتي في نصف قرن ، ج ٣ ،
أحمد شفيق باشا
- ١١٦ - أديب اسحق (عاشق الحرية) ،
علاء الدين وحيد
- ١١٧ - تاريخ القضاء في مصر العثمانية (١٥١٧ - ١٧٩٨) ،
عبد الرازق إبراهيم عيسى
- ١١٨ - النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك ،
د . البيومي اسماعيل
- ١١٩ - النقابات في مصر الرومانية ،
حسين محمد أحمد يوسف
- ١٢٠ - يوميات من التاريخ المهرى الحديث
لويس جرجس

- ١٢١ - الجلاء ووحدة وادى النيل (١٩٤٥ - ١٩٥٤)
د . محمد عبد الحميد الحناوى
- ١٢٢ - مصر للمصريين ج ٦
سليم خليل النقاش
- ١٢٣ - السيد احمد الببوى .
د . سعيد عبد الفتاح عاشور
- ١٢٤ - العلاقات المصرية الباكستانية فى نصف قرن
د . محمد نعمان جلال
- ١٢٥ - مصر للمصريين ج ٧
سليم خليل النقاش
- ١٢٦ - مصر للمصريين ج ٨
سليم خليل النقاش
- ١٢٧ - مقدمات الوحدة المصرية السورية (١٩٤٣ - ١٩٥٨)
ابراهيم محمد محمد ابراهيم
- ١٢٨ - معارك صحفية
جمال بدوى
- ١٢٩ - الدين الصام (وائره فى تطور الدين المصرى)
(١٨٧٦ - ١٩٤٣)
د . يحيى محمد محمود
- ١٣٠ - تاريخ نقابات الفنانين فى مصر (١٩٨٧ - ١٩٩٧)
سمير فريد
- ١٣١ - الولايات المتحدة وثورة يوليو ١٩٥٢ (١٩٥٢ - ١٩٥٨)
تأليف جايل ماير ، ترجمة عبد الرؤوف أحمد عمر
- ١٣٢ - دار المندوب السامى فى مصر ج ١ ، (١٩١٤ - ١٩٢٤)
د . ماجدة محمد حمود

- ١٣٣ - دار المندوب السامي في مصر ج٢ (١٩١٤ - ١٩٢٤)
د. ماجدة محمد حمود
- ١٣٤ - الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثمانى
لدارندلى
بقلم / عزت حسن افندى الدار ندلى
ترجمة / جمال سعيد عبد الغنى
- ١٣٥ - اليهود في مصر المملوكية (في ضوء وثائق الجنيزة)
(٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م)
د. محاسن محمد الوفاة
- ١٣٦ - أوراق يوسف صديق تقديم / د. عبد العظيم رمضان
- ١٣٧ - تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي
د. محمد عبد الغنى الأشقر
- ١٣٨ - الاخوان المسلمون وجذور التطرف الدينى والارهاب
في مصر
السيد يوسف
- ١٣٩ - موسوعة الفناء المصرى في القرن العشرين
محمد قابيل
- ١٤٠ - سياسة مصر في البحر الاحمر
في النصف الاول من القرن التاسع عشر - طارق
عبد العاطى غنيم .
- ١٤١ - وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك
لطفى أحمد نصار .
- ١٤٢ - مذكراتى في نصف قرن ج ٤
أحمد شفيق باشا .
- ١٤٣ - دبلوماسية البطالة في القرنين الثانى والاول ق.م.
د. منيرة محمد الهمشرى .

- ١٤٤ - كشوف مصر الافريقية
 فى عهد الخديوى اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) -
 د . عبد العليم خلاف .
- ١٤٥ - النظام الادارى والاقتصادى فى مصر
 فى عهد دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥ م) -
 د . منيرة محمد الهمشرى .
- ١٤٦ - المرأة فى مصر المملوكية
 د . أحمد عبد الرازق .
- ١٤٧ - حسن البنا [متى . . كيف . . ولماذا ؟]
 د . رفعت السعيد
- ١٤٨ - القديس مرقس وتأسيس كنيسة الاسكندرية
 تأليف / د . سمير فوزى
 ترجمة / نسيم مجلى
- ١٤٩ - العلاقات المصرية الحجازية فى القرن الثامن عشر
 حسام محمد عبد المعطى
- ١٥٠ - تاريخ الموسيقى المصرية (أصولها وتطورها) .
 د . سمير يحيى الجمال
- ١٥١ - جمال الدين الأفغانى والثورة الشاملة
 تأليف / السيد يوسف
- ١٥٢ - الطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية
 (٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م)
 د . محاسن محمد الوقاد
- ١٥٣ - الحروب الصليبية (المقلعات السياسية)
 د . علية عبد السميع الجنزورى

- ١٥٤ - هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية في
العصور الوسطى
د . علية عبد السميع الجنزورى
- ١٥٥ - عصر محمد علي ونهضة مصر في القرن التاسع عشر
(١٨٠٥ - ١٨٨٣)
د . عبد الحميد البطريق
- ١٥٦ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، الجزء الثالث في العصر
الإسلامي
د . سمير يحيى الجمال
- ١٥٧ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، الجزء الرابع في العصر
الإسلامي والحديث
د . سمير يحيى الجمال
- ١٥٨ - نائب السلطنة المملوكية في مصر (٦٤٨ - ٩٢٣ هـ /
١٢٥٠ - ١٥١٧ م)
د . محمد عيد الفنى الأشقر
- ١٥٩ - حزب الوفد (١٩٣٦ - ١٩٥٢ م) الجزء الأول
د . محمد فريد حشيش
- ١٦٠ - حزب الوفد (١٩٣٦ - ١٩٥٢ م) الجزء الثانى
د . محمد فريد حشيش
- ١٦١ - السيف والنار في السودان تأليف سلاطين باشا
- ١٦٢ - السياسة المصرية تجاه السودان
(١٩٣٦ - ١٩٥٣)
د . تمام همام تمام

١٦٣ - مصر والحملات الفرنسية

المستشار / محمد سعيد العشماوى

١٦٤ - الحدود المصرية السودانية عبر التاريخ

(أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة

بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة

القاهرة « ٢٠ - ٢١ ديسمبر ١٩٩٧ »)

إعداد / د. عبد العظيم رمضان .

١٦٥ - التعليم والتغيير الاجتماعي في مصر في القرن التاسع عشر

سامي سليمان محمد السهم

١٦٦ - مذكرات مقتول سياسي

صفحة من تاريخ مصر

السيد يوسف

١٦٧ - الحركة العلمية والأدبية في الفسطاط

منذ الفتح العربى الى نهاية الدولة الأخشيدية

د. صفى على محمد

١٦٨ - مؤرخون مصريون من عصر المموسوعات

يسرى عبد الغنى

١٦٩ - مدن مصر الصناعية فى العصر الاسلامى الى نهاية عصر

الفاطميين

(٢١ - ٥٦٧ هـ / ٦٤٢ - ١١٧١ م)

د. صفى على محمد عبد الله

١٧٠ - القرية المصرية فى عصر سلاطين المماليك

(٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م)

مجدى عبد الرشيد بحر

- ١٧١ - تاريخ الجالية الارمنية في مصر
القرن التاسع عشر
محمد رفعت
- ١٧٢ - تاريخ أهل الذمة في مصر الاسلامية ج١
(من الفتح العربى الى نهاية العصر الفاطمى)
د . فاطمة مصطفى عامر
- ١٧٣ - تاريخ أهل الذمة في مصر الاسلامية ج٢
د . فاطمة مصطفى عامر
- ١٧٤ - مصر وليبيا (فيما بين القرن السابع والقرن الرابع ق م
د . أحمد عبد الحليم دراز
- ١٧٥ - محمد توفيق نسييم ودوره فى الحياة السياسية
عادل ابراهيم الطويل
- ١٧٦ - الملاحة النيلية فى مصر العثمانية
(١٥١٧ - ١٧٩٨ م)
د . عبد الحميد حامد سليمان
- ١٧٧ - سياسة مصر العسكرية ازاء حروب الشرق الاوسط
لواء / د . صلاح سالم
- ١٧٨ - العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الشام الكبرى
فى القرن الثامن عشر
د . سحر على حنفى
- ١٧٩ - دور الحماية العثمانية فى تاريخ مصر
(١٥٦٤ - ١٦٠٩ م)
د . عفاف مسعد السيد العبد

١٨٠ - الحقيقة التاريخية حول قرار تأميم شركة قناة السويس

بقلم / د . عبد العظيم رمضان

١٨١ - الحرب الصليبية الثالثة ج ١

صلاح الدين وريثشارد

ترجمة وتعليق وتحقيق / د . حسن حبشي

١٨٢ - الحرب الصليبية الثالثة ج ٢

صلاح الدين وريثشارد

ترجمة وتعليق وتحقيق / د . حسن حبشي

١٨٣ - شاهد على العصر

مذكرات محمد لطفي جمعة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٥٣٩٣ / ٢٠٠٠

ISBN 977 — 01 — 6651 — 0

هذا الكتاب «شاهد على العصر»، وهو مذكرات الأديب والصحفى الكبير المرحوم محمد لطفى جمعة، وهو واحد من الرواد الأوائل الذين تركوا بصمتهم على الحياة الأدبية والفكرية والسياسية من موقع انتمائه إلى الحزب الوطنى، وقد ترفع فى بعض القضايا السياسية التى شغلت الرأى العام.

وقد جمع هذه المذكرات وأعدّها للنشر ابنه المستشار رابح لطفى جمعة، وهو أكثر من رأيتهم من الأبناء وفاءً لوالدهم.

وتشمل المذكرات التى بين أيدينا مذكرات الكاتب فى الفترة من ميلاده فى يناير ١٨٨٦ إلى ديسمبر ١٩٣٧، وأهميتها أنها تصور عصراً بأكمله من زواياه الاجتماعية والفكرية والسياسية، بقلم أديب صناعته الأدب، وسياسى وطنى حظى بتقدير عصره.